

نفحات الرحمن

في

تفسير القرآن

تأليف

الشيخ محمد بن عبد الرحيم النهاوندي
(١٢٩١ - ١٣٧١ هـ)

الجزء السادس

تحقيق

قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في تفسير سورة الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ (١) وَ (٢)﴾

ثم لما ختمت سورة الفتح المبتدئة ببيان فتح مكة والطف الله على النبي ﷺ بقوله : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُسَمِّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾^(١) والمختمة ببيان علو مقامه ، وبيان فضائل أصحابه ، وكونهم رحماء بينهم ، اردفت بسورة الحجرات المبتدئة بايجاب حفظ احترام النبي ﷺ وتعظيمه ، وتعليم أدب حضوره ، وبيان وظيفة المؤمنين وتعليم كيفية سلوك بعضهم مع بعض ، ووجوب الاصلاح بينهم إذا تخاصموا وتنازعوا ، وغير ذلك من المطالب المناسبة لما في السورة السابقة ، فابتدأها بذكر الأسماء الحسنى حسب دأبه تعالى تعليما للعباد وتبركا بقوله تبارك وتعالى : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم لما كانت السورة مشتملة على التكاليف الشاقة ، ابتدأها بالنداء شفاهية للمؤمنين بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليزيل التعب والعناء بلذة النداء ، ولينشط قلوبهم بتوصيفهم بالايمان ، وليبين أن امتثالها من لوازمه ، وأن الايمان باعث على المحافظة عليها ، رادع عن الإخلال بها.

ثم شرع سبحانه في بيان وظائف المؤمنين مع النبي ﷺ بقوله : ﴿لَا تَقْدُمُوا﴾ أنفسكم في المشي ، أو أمر من الامور ، ولا تقطعوه ﴿بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وأمامهما ، وذكر ذاته المقدسة باسم الجلالة لتعظيم الرسول ﷺ ، أو المراد بحضرتهما وفي منظرهما ، إلا بعد أن يحكما به ويأذنا فيه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ العظيم الذي أنتم بين يديه وفي منظره في جميع أقوالكم وأفعالكم ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بضمائركم وأعمالكم ، فيجازيكم عليها إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

قيل : نزلت الآية في النهي عن الذبح يوم الأضحى قيل الصلاة ، فإن ناسا ذبحوا قبل صلاة النبي

ﷺ (٢).

(١) الفتح : ٤٨ / ٢.

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٦٢.

وعن البراء أنه خطبنا النبي ﷺ يوم النحر ، فقال : « إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نَصَلِّيَ ثُمَّ نَرْجِعَ وَنَنْحِرَ ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا ، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ أَنْ نَصَلِّيَ فَأَتَمَّا هُوَ لَحْمٌ عَجَلَهُ لِأَهْلِهِ ، لَيْسَ مِنَ التَّسَكُّ فِي شَيْءٍ » (١) .

وعن عائشة : أُنْهِيَ فِي النَّهْيِ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الشَّكِّ ، وَالْمَعْنَى لَا تَصُومُوا قَبْلَ أَنْ يَصُومَ نَبِيِّكُمْ (٢) .

وعن الحسن : لما استقرَّ رسول الله ﷺ بالمدينة ، أُنْتَهِيَ الْوُفُودُ مِنَ الْآفَاقِ ، فَأَكْثَرُوا عَلَيْهِ بِالْمَسَائِلِ ، فَهَوُوا عَنْ أَنْ يَتَدَوَّأَ بِالْمَسْأَلَةِ حَتَّى يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ الْمُبْتَدِئُ (٣) ، وَالظَّاهِرُ وَالْإِعْتِبَارُ مُقْتَضِي لَأَنْ يَكُونَ النَّهْيُ عَنْ كُلِّ مَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ سِوَاءِ كَانَ بِالْقَوْلِ أَوْ بِالْفِعْلِ ، كَالْأَكْلِ وَالْمَشْيِ وَغَيْرِهِمَا .

كَرَّرَ النَّدَاءَ بِقَوْلِهِ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَزْدِيَادًا لِإِظْهَارِ اللَّطْفِ بِهِمْ وَالْإِهْتِمَامِ بِالْمُنَادَى لَهُ وَاسْتِقْلَالِهِ ﴿لَا تَرْفَعُوا﴾ وَلَا تَعْلُوا ﴿أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ فِي تَكَلُّمِكُمْ عِنْدَهُ تَعْظِيمًا لَهُ وَتَأَدُّبًا مِنْهُ .

رَوَى بَعْضُ الْعَامَّةِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ : أَنَّ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ ، قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، اسْتَعْمَلْهُ عَلَى قَوْمِهِ . فَقَالَ عُمَرُ : لَا نَسْتَعْمَلْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، بَلْ اسْتَعْمَلِ الْقَعْقَاعَ بْنَ مَعْبُدٍ . فَتَكَلَّمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ : مَا أَرَدْتَ إِلَّا خِلَافِي . فَقَالَ عُمَرُ : مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ . فَنَزَلَتِ الْآيَةُ ، فَكَانَ عُمَرُ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا تَكَلَّمَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ لَا يَسْمَعُ كَلَامَهُ حَتَّى يَسْتَفْهَمَهُ ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : آلَيْتَ عَلَى نَفْسِي أَنْ لَا أَكَلِّمَ النَّبِيَّ ﷺ إِلَّا سِرًّا (٤) .

أَقُولُ : الْعَجَبُ مِنَ الْعَامَّةِ الْقَائِلِينَ بِأَفْضَلِيَةِ الرَّجُلَيْنِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَرَوَايَتِهِمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ ، وَمَا غَرِبَتْ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ خَيْرٌ - أَوْ أَفْضَلُ - مِنْ أَبِي بَكْرٍ » (٥) مَعَ أَنَّهُمْ رَوَوْا نَزُولَ كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ فِي رَدِّ الرَّجُلَيْنِ عَنْ زِلَاقَتِهِمَا ، وَلَمْ يَرَوْا نَزُولَ آيَةٍ فِي رَدِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ زِلَّةٍ ، بَلْ مَا نَزَلَتْ آيَةٌ فِيهِ إِلَّا وَفِيهَا مَدْحَةٌ وَبَيَانُ فَضْلِهِ .

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا

تَشْعُرُونَ﴾ (٢)

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ النَّهْيِ عَنْ تَعْلِيَةِ الصَّوْتِ عَلَى صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ مَكَامَلَتِهِ ، نَهَى عَنْ تَسْوِيَةِ الصَّوْتِ فِي الْجَهْرِ لَصَوْتِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿وَلَا تَجْهَرُوا﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ ﴿لَهُ﴾ بِصَوْتِكُمْ

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٦٢ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٦٢ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٦٢ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٦٣ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٦٢ .

﴿بِالْقَوْلِ﴾ إذا كلمتموه ^(١) وكلّمكم ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ﴾ بصوته عند مخاطبتكم ﴿لِبَعْضٍ﴾ آخر ، بل أجعلوا أصواتكم عند مكالمته أخفض من صوته ، مراعاة لجلالته وعظمته ، كما هو الدأب في مخاطبة العبد الذليل لسيد العظم المهيّب كراهة ﴿أَنْ تَحْبَطَ﴾ وتبطل ﴿أَعْمَالُكُمْ﴾ فإنّ عدم الاعتناء بشأن النبي ﷺ وتحقيره مؤدّ إلى الارتداد الموجب لردّ الأعمال وعدم قبولها ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بأنّ مخالفة هذا النهي مؤدّ إلى الكفر حبط الأعمال.

روى بعض العامة عن ابن عباس : أنّها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس ، فإنّه كان في اذنيه وقرّ ، وكان جهوري الصوت ، وربما كان يكلم رسول الله ﷺ فيتأدّى بصوته ^(٢) . وعن أنس : أنّه لما نزلت هذه الآية فقد ثابت ، فتفقد رسول الله ﷺ ، فأخبر بشأنه ، فدعاه ﷺ فسأله ، فقال : يا رسول الله ، لقد انزلت إليك هذه الآية ، وإني رجل جهير الصوت ، فأخاف أن يكون عملي قد حبط . فقال : « لست هناك ، إنك تعيش بخير ، وتموت بخير ، وإنك من أهل الجنة » ^(٣) .

قيل : إنّ قتل شهيدا يوم مسيلمة الكذاب ^(٤) .

وقيل : إنّ الفرق بين النهيين ، أنّ النهي عن رفع الصوت فيما إذا تكلمتم وتكلّم النبي ﷺ ، فعلى المؤمنين أن لا يبلغوا بأصواتهم فوق الحدّ الذي يبلغ إليه صوت النبي ﷺ ، وأن يغضّوا من أصواتهم بحيث يكون صوت النبي عاليا على أصواتهم ، والنهي عن الجهر فيما إذا كلمه المؤمنون وهو ساكت ، فنهى المؤمنين عن أن يبلغوا بالجهر في القول الجهر الدائر بينهم ، بل يجب عليهم أن يلينوا القول لينا يقارب الهمس ^(٥) .

وعن الكاظم عليه السلام : « أنّ رسول الله ﷺ لما قدم المدينة ، وكثر حوله المهاجرون والأنصار ، كثرت عليه المسائل ، وكانوا يخاطبونه بالخطاب العظيم الذي لا يليق به ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ...﴾ الآية وكان رسول الله ﷺ بهم رحيمًا ، وعليهم عطوفا ، وفي إزالة الآثام عنهم مجتهدا ، حتى إنّ كان ينظر إلى من يخاطبه ، فيعمد على أن يكون صوته مرتفعا على صوته ، ليزيل عنه ما توعدّه الله من حبط أعماله ، حتى إنّ رجلا أعرابيا ناداه يوما من خلف حائط بصوت جهوري : يا محمد ، فأجابه بأرفع من صوته ، يريد أن لا يأثم الأعرابي بارتفاع

(١) في النسخة : تكلمتموه.

(٢) جوامع الجامع : ٤٥٦ ، تفسير روح البيان ٩ : ٦٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٤٧ .

(٣) جوامع الجامع : ٤٥٦ ، تفسير روح البيان ٩ : ٦٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٤٨ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٦٥ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٦٤ .

صوته « (١) .

وعن القمي عليه السلام : نزلت في وفد من بني تميم ، كانوا إذا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وقفوا على باب حجرته ، نادوا يا محمد ، اخرج إلينا ، وكانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله تقدموه في المشي ، وكانوا إذا كلموه (٢) رفعوا أصواتهم فوق صوته ، ويقولون : يا محمد ، يا محمد ، ما تقول في كذا ؟ كما يكلمون بعضهم بعضا ، فأنزل الله [الآية] (٣) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ
لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣) و (٥)﴾

ثم إنه تعالى بعد ترهيب المؤمنين من مخالفة نهية ، رغبهم في امتثاله بقوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾ ويخفون ﴿أَصْوَاتَهُمْ﴾ حين تكلمهم ﴿عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ وفي حضوره مراعاة للأدب ، وخشية من مخالفته نهي الله عن رفع الصوت فوق صوته ، والجهر له بالقول ﴿أُولَئِكَ﴾ المؤمنون هم ﴿الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وأخلصها ﴿لِلتَّقْوَى﴾ ووسعها له ، أو مرّنها عليه ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ وستر كامل لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يسع البيان حسنه وقدره.

ثم ذمّ الله سبحانه الرافعين أصواتهم المسيئين للأدب بالنسبة إلى النبي بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ وخارج البيوت المسكونة لأزواجك حين استراحتك فيها ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولا يدركون قباحة سوء الأدب بالنسبة إلى من لا يدانيه أحد من الأولين والآخرين في الجلالة والعظمة ووخامة عاقبته. وقيل : الأكثر هنا بمعنى الكل (٤) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ وتوقفوا خارج الحجرات ، ولم ينادونك ﴿حَتَّى تَخْرُجَ﴾ من حجرتك متوجّها ﴿إِلَيْهِمْ﴾ لا إلى غيرهم ، والله ﴿لَكَانَ﴾ ذلك الصبر والتوقف ، وترك التعجيل والنداء ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ وأصلح وأنفع في الدنيا والآخرة من التعجيل في لقاءك ، ورفع الصوت بندائك ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لذنب أولئك المسيئين للأدب إن تابوا وندموا على ما صدر منهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم إن صلحوا.

قيل : إنّ الذين نادوا الرسول عينية بن الحصين الفزاري ، والأقرع بن حابس التميمي ، وفدا على

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٤٧٧ / ٣٠٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٤٨ .

(٢) في النسخة تكلموه .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣١٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٤٧ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٦٨ .

رسول الله ﷺ في سبعين رجلا من بني تميم وقت الظهيرة ، وهو راقد ، فقالوا : يا محمد ، اخرج إلينا ، فنحن الذين مدحنا زين وذمنا شين ، فاستيقظ ﷺ ، فخرج وقال لهم : « ويحكم ذلكم الله » (١) .
وروي أنه سئل رسول الله ﷺ عنهم فقال : « هم جفاة بني تميم ، لو لا أنهم من أشد الناس قتالا للأعور الدجال ، لدعوت الله أن يهلكهم ، فنزلت الآية ذمّا لهم » (٢) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : أنه بعث رسول الله ﷺ سرية إلى حي بني العنبر ، وأمر عليهم عيينة بن الحصين ، فلما علموا أنه توجه نحوهم هربوا وتركوا عيالهم ، فسباهم عيينة ، وقدم بهم إلى رسول الله ﷺ فجاء بعد ذاك رجالهم يقدون الذراري ، فقدموا وقت الظهيرة ، فوافوا رسول الله ﷺ قائلا في أهله ، فلما رأهم الذراري أجهشوا إلى آبائهم يبكون ، وكان لكل امرأة من نساء النبي ﷺ بيت وحجرة ، فجعلوا ينادون : يا محمد ، اخرج إلينا ، حتى يقضوه من نومه ، فخرج إليهم فقالوا : يا محمد ، فادنا عيالنا . فنزل جبرئيل فقال : إنّ الله يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلا .

فقال ﷺ : « أترضون أن يكون بيني وبينكم سيرة بن عمرو ، وهو على دينكم ؟ » قالوا : نعم . قال سيرة : أنا لا أحكم بينهم وعمي شاهد ، وهو أعور بن بشامة بن ضرار . فرضوا به .
فقال الأعور : فأنا أرى أن تفادي نصفهم ، وتعتق نصفهم . فقال ﷺ : « قد رضيت »
ففادي نصفهم ، وأعتق نصفهم . وقال مقاتل : « وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » لأنك كنت تعتقهم جميعا وتطلقهم بلا فداء (٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًا فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾

﴿ فَتُبَيِّنُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (٦)

ثم إنه تعالى بعد تعليم المؤمنين الأدب مع الرسول ﷺ علمهم كيفية معاملتهم مع سائر الناس ، فابتدأ بكيفية معاملتهم مع الفساق بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ ﴾ وأنباءكم ﴿ فَاسِقٌ ﴾ من الفساق ﴿ بَنِيًا ﴾ وأخبركم بخبر يعظم وقعه في القلوب ، كالإخبار بإرادة قوم قتالكم ﴿ فَتُبَيِّنُوا ﴾ وتفحصوا عن صدقه وكذبه حتى تظهر حقيقة الحال ، ولا تعتمدوا على خبره ، فإن من لا يحتز عن الفسق لا يؤمن منه الكذب ، فيكون في تحقيق الحال من الحذر ﴿ أَنْ تُصِيبُوا ﴾ أيها المؤمنون وتضروا ﴿ قَوْمًا ﴾ من المسلمين ﴿ بِجَهَالَةٍ ﴾ وبسبب عدم العلم بواقع الحال ، وعدم طريق عقلائي دالّ

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٦٧ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٦٨ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٦٨ .

عليه ، أو بسفاهة وعدم رعاية حكم العقل ﴿فَتَضَيُّحُوا﴾ وتصيروا بعد ظهور خطأكُم ﴿عَلَى مَا فَعَلْتُمْ﴾ من الإضرار على القوم ﴿نَادِمِينَ﴾ مغتمين متمنين عدم صدور ذلك الفعل منكم.

في بعض مطاعن عثمان

روي أنّ الوليد بن عقبة بن أبي معيط أcha عثمان بن عفان لأمه ، بعثه النبي ﷺ إلى بني المصطلق ليأخذ صدقاتهم ويحيي زكاتهم ، وكان بينه وبينهم إحنة ^(١) وحقد كامن في الجاهلية بسبب دم ، فلمّا سمعوا بقدومه استقبلوه ركباناً ، فحسب أنّهم مقاتلوه ، فرجع هارباً منهم ، وقال لرسول الله ﷺ : إنّهم قد ارتدّوا ، ومنعوا الزكاة ، وهُمّوا بقتلي ، فهم رسول الله ﷺ في الظاهر بقتالهم ، فنزلت الآية ^(٢) . وقيل : إنّهُ ﷺ بعث إليهم خالد بن الوليد بعد رجوع الوليد بن عقبة عنهم في عسكر ، وقال له : اخف عنهم قدومك بالعسكر ، وادخل عليهم ليلاً متجسّساً ، هل ترى فيهم شعائر الاسلام وآدابه ، فان رأيت منهم ذلك فخذ منهم زكاة أموالهم ، وإن لم تر ذلك فافعل بهم ما يفعل بالكفار ، فجاءهم خالد وقت المغرب فسمع منهم أذان المغرب والعشاء ، ووجدهم مجتهدين باذلين وسعهم ومجهدهم في امتثال أمر الله ، فأخذ منهم صدقاتهم ، وانصرف إلى رسول الله ﷺ [وأخبره الخبر فنزلت : ﴿أَنْ تُصِيبُوا ...﴾] ^(٣) .

أقول : من مطاعن عثمان أنّه ولّى هذا الوليد الفاسق الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص ، فصلّى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعاً ، ثم قال : هل أزيدكم ؟ ومن الواضح أنّه لم يكن حاله خفياً على عثمان مع كونه أخاه.

ويدلّ على كون المراد من الفاسق هو الوليد بن عقبة ما روى في (الاحتجاج) عن الحسن المجتبي عليه السلام - في حديث - أنه قال : « وأما أنت يا وليد بن عقبة ، فو الله ما ألومك على ألومك على أن تبغض علياً وقد جلدك في الخمر ثمانين جلدة ، وقتل أباك صبراً بيده يوم بدر ، أم كيف لا تسبّه وقد سمّاه الله مؤمناً في عشر آيات من القرآن ، وسمّاك فاسقاً وهو قوله : ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ ... الآية » ^(٤) .

وعن القمي رحمه الله : نزلت في عائشة حين رمت مارية القبطية ، وأتهمها بجريح القبطي ، فأمر رسول الله ﷺ بقتل جريح ليظهر كذبها ، وترجع عن ذنبها ^(٥) .
أقول : لعلّ المراد من النزول جريانها في حقّها.

في الاستدلال على حجية خبر الواحد

ثمّ اعلم أن العامة وكثيراً من الخاصة استدلّوا بالآية المباركة على حجية خبر العدل

(١) الإحنة : الحقد والضغنة.

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٧٠ .

(٣) الاحتجاج : ٢٧٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٤٩ . (٤) تفسير القمي ٢ : ٣١٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٤٩ .

الواحد ، حيث رتب وجوب التبيين على كون المخبر فاسقا ، ولو لم يجز قبول خبر العادل ، لما كان للترتيب على خبر الفاسق فائدة ، وتقريره أن تعليق وجوب التبيين على خبر الفاسق ، يقتضي انتفاء الوجوب عند انتفاء الفسق في المخبر ، وهو بكون المخبر عادلا ، وحينئذ فيما نقول بعدم قبول خبره ولو مع التبيين ، بمعنى كون التبيين لغوا في مورده ، فيلزم كون خبر العادل أسوأ حالا من خبر الفاسق ، وهو باطل ، مع أن التبيين سبب لليقين بصدقه ، ولا معنى لعدم قبول الخبر المتيقن الصدق . وإما نقول بوجوب قبول خبره بلا تبين ، فهو المطلوب ، وفيه أن الاستدلال مبني على القول بحجية مفهوم الوصف ، وتعليق الحكم عليه ، وهو ممنوع ، كما حقق في محله .

نعم لو تمسك بمفهوم الشرط ، بأن يقال : إن الآية نظير قولك : إن جاءك زيد سائلا فأعطه درهما ، فإن مفهومه إن جاءك غير سائل فلا تعطه ، وفيه : أن الشرط هنا لبيان تحقق الموضوع ، كقولك : إن رزقت ولدا فاحتته ، وهذه القضية الشرطية لا مفهوم لها إلا أن يقال الموضوع هو النبأ ، والمعنى : النبأ إن جاء به الفاسق فتبينوا ، وإن جاء به غير الفاسق ، وهو العادل ، فلا تبينوا .

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٧) و (٨)

ثم لما أخبر الوليد بقيام بني المصطلق لقتال المسلمين ، رأى جمع من الأصحاب تجهيز الجيش وإصابتهم ، وكانوا يتوقعون أن رسول الله ﷺ يتبع رأيهم ، فردعهم عن هذا التوقع بقوله : ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ أيها المسلمون ﴿أَنَّ﴾ محمدا الذي يكون ﴿فِيكُمْ﴾ ويعيش بينكم كأحدكم هو ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ العالم بحقائق الأمور ، المحيط بجميع المصالح والمفاسد ، فلا تتوقعوا منه أن يتبع آراءكم ويطيعكم في أهوائكم ، تنزيلا له عن شأنه ، وحسابنا أنه كأحدكم ، جهلا بمقامه ، فإنه ﷺ ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ ويتبع آراءكم ﴿فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ﴾ وغالب الوقائع بالله ﴿لَعَنِتُمْ﴾ وابتليتكم بالمفاسد ، ووقعتم في المهالك أو المشاق ، لجهلكم وقصور فهمكم وعقلكم ، ولا تتوهموا أنكم لكمال عقلكم وجودة أفهامكم وتنور أفكاركم ، اخترتم الإيمان ، واحترزتم عن الكفر والفسق والعصيان ، وتستدلون به على إصابة رأيكم في جميع الأمور ، وحسن أنظاركم في تشخيص المصالح ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ برحمته ولطفه عليكم ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ بالله ورسوله ، ورغبكم إليه ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وحسنه في ضمائركم بإقامة البراهين القاطعة ، وإراءة المعجزات الباهرة ، وتوفيقكم لقبوله ، وتنبيهكم على فوائده ﴿وَكَرَّهَ﴾

إِلَيْكُمْ وَأَبْغَضَ لَدَيْكُمْ ﴿الْكُفْرَ﴾ وَالشَّرَّ ﴿وَالْفُسُوقَ﴾ وَالْكَذِبَ عَلَى مَا رَوَى عَنْ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ (١)

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن الحب والبغض أهو من الإيمان؟ قال: « وهل الإيمان إلا الحب والبغض » ثم تلا هذه الآية (٢).

ثم مدح سبحانه المحبين للإيمان، المبغضين للكفر والعصيان بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفتين الجليلتين ﴿هُمْ الرَّاكِبُونَ﴾ والمهتدون إلى الطريق الموصل إلى قرب الله وحنّته التي وعد المتقون، وإنما ذلكم الحب والبغض يكون ﴿فَضْلًا﴾ وإحساناً ﴿مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ عظيمة منه تعالى ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بقبليات الأشخاص و﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله، لا يعطي أحداً إلا بالاستحقاق.

عن الصادق عليه السلام في تأويل الآية: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يعني أمير المؤمنين عليه السلام ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ يعني الأول والثاني والثالث (٣).

أقول: تحقيقه أنّ حب الإيمان عين حب أمير المؤمنين عليه السلام، لكونه عليه السلام مجسّم الإيمان، وبغض أعمال الثلاثة عين بغض الثلاثة الذين هم مجسّماتها.

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَاتِلُوا آلِيَّ تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٩)

ثم لما بيّن سبحانه عدم جواز الاعتماد على خبر الفاسق المورث لإثارة الفتنة بين المسلمين ووقوع القتال فيهم، بيّن حكم القتال الواقع بينهم، ورغب في الإصلاح بقوله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وجمعان منهم ﴿اقْتَتَلُوا﴾ وتنازعا في أمر من الأمور الدينية أو الدنيوية، والجمع باعتبار الأفراد، فأنهم يقتتلون ﴿فَأَصْلَحُوا﴾ بالوعظ والتّصح والتّهديد وبذل المال وغيرها ﴿بَيْنَهُمَا﴾ حفظاً لنفوسهما، وردعاً لهم عن المنكر.

بيان فضيلة الإصلاح بين المؤمنين

عن النبي ﷺ: « ألا أخبركم بأفضل من الصيام والصلاة والصدقة؟ » قالوا: بلى يا رسول الله. قال: « إصلاح ذات البين » (٤).

﴿فَإِنْ بَغَتْ﴾ وتعذّت ﴿إِحْدَاهُمَا عَلَى﴾ الطائفة ﴿الْأُخْرَى﴾ ولم ترتدع بالوعظ

(١) مجمع البيان ٩ : ٢٠٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٤٩ .

(٢) الكافي ٢ : ١٠٢ / ٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٠ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣١٩ ، الكافي ١ : ٣٥٢ / ٧١ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٠ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٧٣ .

والتّصح وغيرهما ﴿فَقَاتِلُوا﴾ أيّها المؤمنون الطائفة ﴿الَّتِي تَبْغِي﴾ وتتعدّى على الطائفة الأخرى ﴿حَتَّى تَقِيءَ﴾ وترجع الطائفة الباغية ﴿إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ حبرا ، ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ وانقادت لحكمه قهرا ، من وجوب كفّ اليد عن قتال المؤمنين ، والتحدّر عن البغي عليهم ، فاذا انصرفوا عن القتال ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ والانصاف ، واحسموا مادة النزاع والفساد بإجراء حكم الله ، وإحقاق حقّ المظلوم ، ومنع الظالم عن ظلمه ، على كتاب الله وسنة نبيه.

ولما كان بعد القتال مظنة الحقد والحيف ، قيّد الصّلاح بالعدل ، وأكّده بقوله تعالى : ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ واعدلوا في هذا الأمر وسائر الأمور ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ عادل ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ والعادلين.

عن ابن عباس رضی الله عنه : أنّ النبي مرّ يوما على مألّ من الأنصار ، فيهم عبد الله بن أبي المنافق ، ورسول الله ﷺ راكب على حماره ، فوقف عليهم يعظهم ، فبال حماره - أو راث - فأمسك عبد الله بن أبي بأنفه ، وقال : نحّ عنا نتن حمارك. فقد آذيتنا بنتنه ، فمن جاء منا فعظه. فسمع ذلك عبد الله بن رواحة ، فقال : ألحمار رسول الله تقول هذا ؟ ! والله إن بول حمار رسول الله أطيب رائحة منك. فمرّ ﷺ ، وطال الكلام بين عبد الله بن أبي الخزرجي المنافق ، وبين عبد الله بن رواحة الأوسي ، حتى استبّتا وتجالدا ، وجاء قوم كلّ منهما من الأوس والخزرج ، وتجالدوا بالعصي ، أو بالنعال والأيدي ، أو بالسيف ، فنزلت الآية ، فرجع رسول الله ﷺ إليهم ، فقرأها عليهم وأصلح بينهم ^(١).

وعن الصادق عليه السلام قال : « لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : إنّ منكم من يقاتل على التأويل كما قاتلت على التنزيل ، فسئل : من هو ؟ قال : خاصف التعل - يعني أمير المؤمنين عليه السلام - فقال عمّار بن ياسر : قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ﷺ ثلاثا ، وهذه الرابعة ، والله لو ضربونا حتى يبلغونا سعفات هجر ، لعلمنا أنّا على الحقّ ، وأنّهم على الباطل. وكانت السيرة فيهم من أمير المؤمنين عليه السلام ما كان من رسول الله ﷺ في أهل مكّة يوم فتح [مكة] » ^(٢).

عن الصادق عليه السلام : « إنّما جاء تأويل الآية يوم البصرة ، وهم أهل هذه الآية ، وهم الذين بغوا على أمير المؤمنين عليه السلام ، فكان الواجب قتالهم وقتلهم حتى يفيئوا إلى أمر الله ». إلى أن قال : « فكان الواجب على أمير المؤمنين عليه السلام أن يعدل فيهم ، حيث كان ظفر بهم ، كما عدل رسول الله ﷺ في أهل مكّة ، إنّما منّ وعفا ، وكذلك صنع أمير المؤمنين بأهل البصرة » ^(٣).

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٧٤.

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٢١ ، الكافي ٥ : ١١ / ٢ ، التهذيب ٦ : ١٣٧ / ٢٣٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٠.

(٣) الكافي ٨ : ١٨٠ / ٢٠٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٥١.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٠)

ثمَّ حثَّ سبحانه المؤمنين إلى الإصلاح بين المقاتلين والمنازعين منهم بقوله : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ فقط ﴿إِخْوَةٌ﴾ وأشخاص متحابّون ، كالمُنتسبين إلى أب واحد وام واحدة.

روي عن النبي ﷺ قال : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يشتمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرّج [عن] مسلم كربة فَرَّجَ الله عنه بها كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » (١) .

عن الصادق عليه السلام : « المؤمن أخو المؤمن لأبيه وامّه ، لأنّ الله خلق المؤمنين من طينة الجنان ، وأجرى في صوركم من ريح الجنة » (٢) .

وعنه عليه السلام أنّه سئل عن تفسير هذا الحديث : « المؤمن ينظر بنور الله » فقال : « إنّ الله خلق المؤمنين من نوره ، وصبغهم في رحمته ، وأخذ ميثاقهم لنا بالولاية على معرفته يوم عرفهم نفسه ، فالمؤمن أخ المؤمن لأبيه وامّه ، أبوه النور ، وامّه الرحمة ، وإنّما ينظر بذلك النور الذي خلق منه » (٣) .

أقول : يمكن أن يكون وجه آخر لاختوّتهم ، وهو أن ولادتهم الايمانية من الرسول والوصي عليه السلام ، كما قال : « أنا وعليّ أبوا هذه الامة » (٤) .

وعنه عليه السلام : المؤمن أخ المؤمن ، عينه ودليله ، لا يخونه ولا يظلمه ولا يعيبه ، ولا يعده عدة فيخلفه (٥) .

ثمَّ رتب سبحانه على أخوّتهم ما هو من لوازمها ، وهو كون كلّ منهم مجداً في تحصيل صلاح الآخر بقوله تعالى : ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وأرفعوا التنازع منهم ، وحصلوا التوادّ والرحمة فيهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع الامور التي منها ما امرتم به من الإصلاح وإيجاد التراحم بين المؤمنين ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ من قبل ربكم ﴿تُرْحَمُونَ﴾ على إحسانكم بهم وتقواكم من الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا

نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ﴾ (١١)

ثمَّ إنّ تعالى بعد بيان وظيفة المؤمنين بالنسبة إلى الظالم والمظلوم منهم ، ووجوب إحقاق حقّ المظلوم ، نهي عن إهانة المؤمن بذكر ما يوجب وهنه وتحقيره بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اعلموا

(١) مجمع البيان ٩ : ٢٠٠ ، تفسير روح البيان ٩ : ٧٨ .

(٢) الكافي ٢ : ١٣٣ / ٧ ، وتفسير الصافي ٥ : ٥١ ، عن الباقر عليه السلام .

(٣) بصائر الدرجات : ١٠٠ / ٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٥١ .

(٤) سعد السعود : ٢٧٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٢ .

(٥) الكافي ٢ : ١٣٣ / ٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٥١ .

أَنَّ من وظائف الإيمان أن ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ﴾ وجمع من رجالكم ﴿مِنْ قَوْمٍ﴾ وجمع آخرين منهم ، ويستهزئ بعضهم ببعض ﴿عَسَى﴾ ويرجى ﴿أَنْ يَكُونُوا﴾ اولئك المسخرون والمستهزئون بهم ^(١) أفضل من الساحرين ، و﴿خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ وأقرب عند الله ﴿وَلَا﴾ تسخر ﴿نِسَاءً﴾ منكم ﴿مِنْ نِسَاءٍ﴾ اخر منكم ، ولا تستهزئ بعض المؤمنات ببعض آخر ﴿عَسَى﴾ ويرجى ﴿أَنْ يَكُنَّ﴾ اولئك المسخورات والمستهزئات بهن ^(٢) أفضل من الساحرات والمهزئات ^(٣) و﴿خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ عند الله ، فإن ملاك القرب والبعد عند الله مستور عنكم ، ليس ممّا يظهر من الأشكال والصور ، ولا الأوضاع ولا الأطوار التي يدور عليها أمر السحرية غالباً ، فليس لأحد أن يحقر أحداً ، فيكون قد حقر من عظمة الله ، وأهان من وقرة الله ، كإبليس الذي حقر آدم فحقره الله وطرده من رحمته ، ولذا روي : أن الله تعالى قال : « أوليائي تحت قبائي ، لا يعرفهم غيري » ^(٤) .

وإنما لم يذكر سبحانه سحرية الرجال للنساء وبالعكس ، لأتّهما نادران ^(٥) ويحتمل أنه تعالى أراد من (يكون) معنى (يصير) فالمعنى : أن يصيروا خيراً منهم ، ويصرن خيراً منهنّ ، فإنّ الغني الذي يستهزئ بالفقير لفقره ، يحتمل ان يصير الغني المهزئ ^(٦) فقير ، ويصير الفقير المهزأ به ^(٧) غنياً ، وهكذا . عن ابن عباس : أنّ الآية نزلت في ثابت بن قيس بن شماس ، كان في اذنه قرأ ، فكان إذا أتى مجلس رسول الله ﷺ وسّعوا له حتى يجلس إلى جنبه ، يسمع ما يقول ، فأقبل ذات يوم وقد فاتته ركعة من صلاة الفجر ، فلما انصرف النبي ﷺ من الصلاة أقبل نحو رسول الله ﷺ يتخطى رقاب الناس وهو يقول : تفسّحوا تفسّحوا ، فجعلوا يتفسّحون حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ بينه وبينه رجل ، فقال له : تفسّح ، فلم يفعل ، فقال : من هذا ؟ فقال له الرجل : إنا فلان بن فلان ؟ فقال : بل أنت ابن فلانة ، يريد أمّا له كان يعيّر بها في الجاهلية ، فحجل الرجل ، ونكس رأسه ، فأُنزل الله هذه الآية ^(٨) . وروي أنّ عائشة قالت : إنّ أمّ سلمة جميلة لو لا أنّها قصيرة ^(٩) .

وعن القمي : أنّما نزلت في صفية بنت حيي بن أخطب زوجة رسول الله ﷺ ، وذلك أن عائشة وحفصة كانتا تؤذيانهما وتشتمانهما ، وتقولان لها : يا بنت اليهودية ، فشكت ذلك إلى رسول الله ، فقال : « ألا تحبييهما ؟ » فقالت : بماذا يا رسول الله ؟ قال : قولي إنّ أبي هارون نبي الله ، وعمّي موسى كليم الله ، وزوجي محمد رسول الله ، فما تنكران منّي ؟ ! » فقالت لهما ، فقالتا : هذا ما علّمك رسول الله . فأُنزل الله .

(١) كذا ، والصواب : المسخور منهم ، والمستهزأ بهم .

(٢) كذا ، والصواب : المسخور منهنّ ، والمستهزأ بهنّ .

(٣) كذا ، والصواب : المستهزئات .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٨٠ .

(٥) في النسخة : نادر .

(٦) كذا ، والصواب : المستهزئ .

(٧) كذا ، والصواب : المستهزأ به .

(٨ و٩) تفسير روح البيان ٩ : ٨٠ .

في ذلك : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُوا﴾ ... الآية (١) .

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ

وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١١)

ثم نهي سبحانه عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات بالقول بقوله : ﴿وَلَا تَلْمِزُوا﴾ ولا تعيبوا غيركم من المؤمنين ، أو لا تطعنوهم فكأنهم تعيينون ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ لأن المؤمنين كنفس واحدة ، فما يصيب واحدا منهم كأنه يصيب جميعهم .

وقيل : إنَّ المعنى لا تعيبوا غيركم ، فإنه يكون سببا لأن يبحث من عبتموه عن عيوبكم فيعييبكم ، فبالتعيب عبتم أنفسكم (٢) .

وقيل : إنَّ المراد لا تفعلوا ما تعيينون به ، فكأنكم تعيينون أنفسكم (٣) .

﴿وَلَا تَنَابَزُوا﴾ ولا يدعوا غيركم من المؤمنين ﴿بِالْأَلْقَابِ﴾ السوء ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ﴾ وساء الذكر المرتفع بين الناس ﴿الْفُسُوقُ﴾ والذكر الذي يخرج المذكور من الإيمان ﴿بَعْدَ﴾ كونهم داخلين في ﴿الْإِيمَانِ﴾ .

في ذكر بعض مطاعن عائشة وحفصة

روت العامة أنَّ الآية نزلت في صفية بنت حيي بن أخطب ، أتت رسول الله ﷺ باكية ، فقالت : إنَّ عائشة قالت لي : يا يهودية بنت اليهوديين ، فقال ﷺ : « هلا قلت إن أبي هارون ، وعَمِّي موسى ، وزوجي محمد ؟ ! » (٤) .

أقول : انظروا إلى هذه البذيّة ، كيف يطهرها العامة من الذنوب والعيوب ، ويفضّلونها على فاطمة المعصومة ، ليت الرسول علّمها أن تقول لها : يا مشركة بنت المشركين ، وفي الحديث « من عبّر مؤمنا بذنب تاب منه » كان حقا على الله أن يتلي به ، ويفضحه بين الناس (٥) .

أقول : قد حَقَّق مضمون الحديث في عائشة ، فاتّما عبّرت صفية بكفرها ، فابتلاها الله بالقتال مع عليّ عليه السلام الذي كان نفس الرسول ﷺ وهو كفر ، أو بمنزلة الكفر .

ثم حثَّ سبحانه الناس على التوبة من تلك المنهيات التي كلّها ظلم على المؤمنين بقوله : ﴿وَمَنْ﴾ ارتكب تلك المعاصي و﴿لَمْ يَتُبْ﴾ إلى الله تعالى منها ﴿فَأُولَئِكَ﴾ العصاة ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ على ربّهم بخروجهم عن طاعته ، وكفران نعمته ، وتضييع حقوقه ، وعلى أنفسهم بتعريضها للهلاك

(١) تفسير القمي ٢ : ٣٢١ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٢ .

(٢) تفسير الرازي ٢٨ : ١٣٢ .

(٣) تفسير الرازي ٢٨ : ١٣٢ ، تفسير روح البيان ٩ : ٨١ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٨٢ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٨٢ .

والعذاب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾

ثم علّم سبحانه المؤمنين أدب العشرة بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا﴾ واحترزوا ﴿كثيراً منَ الظَّنِّ﴾ بالرسول وبالمؤمنين ، وابتعدوا أنفسكم من الحسبان السوء ، والحسبان الذي لا تعلمون أنه حسن أو سيء ، وهو كثير ، وفي مقابلة الظنّ الذي تعلمون أنه حسن ، وهو بالنسبة إلى غيره قليل ، وذلك ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ﴾ بهم ، وهو ظنّ السوء ﴿إِثْمٌ﴾ وحرام تتبعه عقوبة وعذاب ، فعليكم الاحتياط والتروّي حتى تعلموا من أي القبيل من الظنّ سوء أو حسن.

روي عن النبي ﷺ أنه قال « ظنّوا بالمؤمن خيراً » ^(١).

وعن الصادق عليه السلام ، قال : « ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يقبلك » ^(٢) منه ، ولا تظنّ بكلمة خرجت من أخيك سوءاً ، وأنت تجد لها في الخير محملاً » ^(٣).

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ ولا تفتشوا عن معائبهم المستورة ، وزلاتهم الخفية ، ولا تبحثوا عن عوراتهم.

عن الصادق عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ : لا تطلبوا عثرات المؤمنين ، فإنّه من تتبّع عثرات أخيه تتبّع الله عثرته ، ومن تتبّع الله عثرته يفضحه ولو في جوف بيته » ^(٤) . ورواه بعض العامة عن النبي ﷺ ^(٥).

وروى أن جبرئيل قال : يا محمد ، لو كانت عبادتنا على وجه الأرض ، لعملنا ثلاث خصال : سقي الماء للمسلمين ، وإعانة أصحاب القتال ، وستر الذنوب على المسلمين ^(٦).

في ذكر بعض مطاعن عمر

وروى بعض العامة أنّ عمر يعسّ ذات ليلة ، فنظر إلى مصباح من خلل باب ، فاطّلع فإذا قوم على شراب لهم ، لم يدر كيف يصنع ، فدخل المسجد ، فأخرج عبد الرحمن بن عوف ، فجاء به إلى الباب ، فنظر وقال له : كيف ترى أن نعمل ؟ فقال : أرى والله أنّا قد أتينا إلى ما نخانا الله عنه ، لأنّا تجسّسنا واطّلعنا على عورة قوم ستروا دوننا ، وما كان لنا أن نكشف ستر الله. فقال عمر : ما أراك إلّا وقد صدقت ، فانصرفا ^(٧).

(١) تفسير الرازي ٢٨ : ١٣٤.

(٢) في الكافي : يغلبك.

(٣) الكافي ٢ : ٣٦٩ / ٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٣.

(٤) الكافي ٢ : ٢٦٥ / ٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٣.

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٨٦.

(٦) تفسير روح البيان ٩ : ٨٦.

(٧) تفسير روح البيان ٩ : ٨٧.

أقول : فيه طعن عظيم على عمر ، حيث دلّ على أنّه أجهل الناس بأحكام الكتاب ، وتكليف نفسه ، وأرتكب كثيرا من المعاصي ، وليس ذلك ببعيد ممّن قال : كلّ الناس أفاقه من عمر حتى المخدرات في الحال.

﴿وَلَا يَغْتَبِ﴾ أيّها المؤمنون ، ولا يذكر بالسوء ﴿بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ في غيابه .
روي عن النبي ﷺ أنّه سئل عن الغيبة ، فقال : « أن تذكر أخاك بما يكره ، فإن كان فيه فقد اغتبتّه ، وإن لم يكن فيه فقد بهتّه » ^(١) .

في حرمة الغيبة وأحكامها

وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن الغيبة ، فقال : « هو أن تقول لأخيك في دينه ما لم يفعل ، وتبثّ أمرا ستره الله عليه ، لم يقم عليه فيه الحدّ » ^(٢) .
وفي رواية : « وأما الأمر الظاهر فيه مثل الحدّة والعجلة فلا » ^(٣) .
وعن الكاظم عليه السلام : « من ذكر رجلا من خلفه بما هو فيه ممّا عرفه الناس لم يغبه ، ومن ذكره من خلفه بما هو فيه ممّا لا يعرفه الناس اغتابه ، ومن ذكره بما ليس فيه فقد بهتّه » ^(٤) .
وروت العامة عن النبي ﷺ : « إياكم والغيبة ، فإنّ الغيبة أشدّ من الزنا » .
ثمّ قال : « إن الرجل يزني ويتوب ، فيتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له إلّا أن يغفر له صاحبه » . وعن ابن عباس : الغيبة أدام كلاب النار ^(٥) .
وروي « أنّ المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنة ، وإن لم يتب أول من يدخل النار » ^(٦) .
إلى غير ذلك من الأخبار .

ثمّ شبهه سبحانه تناول عرض المؤمن بأكل لحمه بعد موته مبالغة في الزجر عنه بقوله : ﴿أَلَيْسَ أَحَدُكُمْ﴾ ويرغب في ﴿أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ﴾ جسد ﴿أَخِيهِ﴾ النسبي
حال كونه ﴿مَيِّتًا﴾ وجيفة ، ومن الواضح أنكم إذا ابتليتم بأكل هذا اللحم ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ وتنفر منه طباعكم ، واشتمأزت منه نفوسكم ، وحكم بقبحه عقولكم ، فكذا تناول عرض المؤمن الذي هو أخوكم في الإيمان حال غيبته .

قيل : لما كان مجال توهم أنّ اللّمز والتّنبز حرامان ، لاطلاع المؤمن عليهما وتألّمه بهما غاية ، وأمّا الغيبة فلا وجه لحرمتها وقبحها ، لعدم تألم المغتاب منها ؛ لأنّه لا يطّلع عليها ، دفعه سبحانه بأن أكل

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٨٧ .

(٢) الكافي ٢ : ٢٦٦ / ٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٣ .

(٣) الكافي ٢ : ٢٦٧ / ٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٣ .

(٤) الكافي ٢ : ٢٦٦ / ٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٣ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٨٩ .

(٦) مصباح الشريعة : ٢٠٥ .

لحم الأخ الميت لا يؤكله أيضا ، مع أنه في غاية القبح ^(١) ، لكونه في غاية البعد عن رعاية حق الأخوة ^(٢) .
وفي الآية والروايات دلالة واضحة على كونها من الكبائر ، ولذا أكد سبحانه حرمتها بقوله :
﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذروا عقابه في ارتكابها.

ثم حث سبحانه على التوبة منها بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ سريع القبول لتوبة التائبين مما فرط منهم
﴿رَحِيمٌ﴾ بمن اتقى ما نهى عنه ، ومتفضل عليه بالثواب.

روى بعض العامة أنّ رسول الله ﷺ إذا عزا أو سافر ، ضمّ الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين
يخدمهما ويتقدّمهما إلى المنزل ، فيهييء لهما طعامهما وشراجهما ، فضّم سلمان إلى رجلين في بعض
أسفاره ، فتقدّم سلمان إلى المنزل ، فغلبته عيناه ، فلم يهتئ لهما شيئا ، فلمّا قدما قالَا له : ما صنعت
شيئا ؟ قال : لا ، غلبتني عيناى . قالَا له : انطلق إلى رسول الله ﷺ واسأله طعاما . فقال ﷺ : « انطلق إلى
اسامة بن زيد ، وقل له إن كان عنده فضل من الطعام فليعطك » وكان اسامة خازن رسول الله ﷺ على
رحله وطعامه ، فأتاه فقال له اسامة : ما عندي شيء ، فرجع سلمان إلى الرجلين فأخبرهما ، فقالَا : كان
عند اسامة شيء ، ولكن بخل به ، فبعثنا سلمان إلى طائفة من الصحابة ، فلم يجد عندهم شيئا ، فلمّا
رجع قالوا : لو بعثناه إلى بئر سميحة ^(٣) لغار ماؤها ثم انطلقا إلى اسامة يتجسّسان هل عنده ما أمر لهما
به رسول الله ﷺ من الطعام ، فلمّا جاءا إلى رسول الله ﷺ قال لهما : « ما لي أرى خرة اللحم في
أفواهكما ؟ » قالوا : والله يا رسول الله ، ما تناولنا يوما هذا لحما ؟ قال ﷺ : « ظللتما تأكلان لحم
اسامة وسلمان » فأُنزل الله الآية ^(٤) .

وقد عيّن الرجلين في رواية (الجوامع) فأنه روى أنّ أبا بكر وعمر بعثا سلمان إلى رسول الله
ﷺ ليأتي لهما بطعام ، فبعثه إلى اسامة بن زيد ، وكان خازن رسول الله ﷺ على رحله ، فقال : ما
عندي فعاد إليهما فقالَا : بخل اسامة ، ولو بعثنا سلمان إلى بئر سميحة لغار ماؤها ثم انطلقا إلى رسول
الله ﷺ فقال لهما : « ما لي أرى خصرة اللحم في أفواهكما » قالَا : يا رسول الله ، ما تناولنا اليوم
لحما . قال : « ظللتما تفكّهون لحم سلمان واسامة » فنزلت ^(٥) .

وعن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس ،
يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبرئيل ؟ فقال : هم الذين يأكلون لحوم الناس ،
ويقعون في

(١) في النسخة : الفتح.

(٢) تفسير الرازي ٢٨ / ١٣٥ .

(٣) سميحة : بئر بالمدينة غزيرة الماء.

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٨٨ .

(٥) جوامع الجامع : ٤٥٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٤٤ .

أعراضهم» ^(١) فظهر من ذلك أنه لا يحرم ذكر مساوي غير المؤمن وغير المميز ، بل غير البالغين ، لانصراف الأخ في الآية والأخبار إليهم ، وإن الاحتراز أحوط ، وكذا غير المتسترين ، فمن كان عيبه ظاهرا ، أو بفسقه متجاهرا فلا غيبة له في عيوبه الظاهرة ، وما تجاهر به لتوصيف المذكور بما ستره الله عليه ، ولما روي « أن من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له » ^(٢) . بل إطلاق الرواية تدل على جواز غيبة المتجاهر بفسق في غير ما تجاهر به.

وكما أنه تحرم الغيبة يحرم استماعها ، لما روى عن النبي ﷺ أنه قال : « المغتاب والمستمع شريكان في الاثم » ^(٣) .

والظاهر منه ومن غيره من الأخبار أن ذكر عيب شخص لا يكون غيبة إذا لم يكن له مستمع ، فإنّ الظاهر من الأدلة حرمة كشف العورة وهتك ما ستره الله ، ومنه يظهر اشتراط كون المغتاب بالفتح معروفا عند المستمع ، فإنّ ذكر عيبه لا يكون كشفا للمستور ، إلّا إذا كان معروفا بالتفصيل أو بالأجمال في المحصورين كالاثنتين والثلاث ونظائرها ، وكذا عدم اختصاصه بالذكر باللسان ، بل يعم ذلك والكتابة والاشارة ، ولا بالتصريح بل تعمّ التعريض والكناية ، ولا يعتبر في حرمتها قصد الازراء والتنقيص والذم . نعم ، إذا صدرت بتلك المقصود ، كانت حرمتها أشدّ وأكد ، وكذا لا فرق بين كون العيب المذكور في بدنه أو خلقه أو نسبه أو فعله أو قوله أو دينه أو امور دنياه حتى ثوبه أو داره ، كلّ ذلك إذا لم يكن ظاهرا مكشوفاً لمن رآه ، أو للمستمع.

وإذا احتمل المستمع جواز الغيبة في حقّ المغتاب بالكسر ، لظهور العيب أو للتجاهر أو لكونه مظلوماً أو غير ذلك ، كان عليه حمل فعله على الصحة والجواز ، فلا يحرم عليه استماعها ، لتلازم جواز الغيبة وجواز استماعها ، وكذا العكس ، وإنّما صدر الآية بالخطاب للمؤمنين تنبيهاً على أنّ امتثال الأحكام المذكورة من لوازم الايمان.

ثمّ لما نهي سبحانه عن سوء الظنّ بالمؤمنين وتنقيصهم بالظنّ فضلاً عن الشكّ والترديد ، وكان مجال أن يقول أحد : إذا ظننّا بهم سوء ان نتفحص عن واقع أمرهم حتى نتيقن بما ظننّا ، ثمّ نقول فيهم باليقين ، نهي سبحانه عن التجسس والتفحص عن معايهم وزلاتهم ، وتحصيل العلم بها ، ثمّ نهي عن ذكر ما علم اتفاقاً أو حصّله عصياناً.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٨٩ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٩٠ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٨٩ .

لَتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)

ثم لما كان الاستهزاء بالغير ولمزه ونبزه واغتيابه لتحقيره والتفاخر عليه ، بين سبحانه أنه لا تفاوت بين الناس في الشرف والرفعة إلا من حيث الإيمان والتقوى الذي أمر به بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ وأولدناكم ﴿مِنْ ذَكَرٍ﴾ وهو آدم ﴿وَأُنْثَى﴾ وهي حواء ، فليس لأحد أن يفتخر على أحد بالنسب ؛ لأن جميعكم أبناء رجل وأب واحد ، وامرأة وام واحدة.

وقيل : إن المراد من الذكر الأب المتصل ، ومن الانثى الأم المتصلة ، والمقصود أن كلكم في الخلق سيان ، ومن جنس واحد ، حيث إن كل واحد منكم ولد كما ولد غيره ، وخالقه خالق غيره ، فلا مزنة لأحد على أحد في أصله ^(١) .

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ﴾ وصيرناكم ﴿شُعُوبًا﴾ وجماعات عظماء منتسبين إلى أب واحد ﴿وَقِبَائِلَ﴾ وطوائف منشعبة من كل شعب.

قيل : إن الشعوب جماعات لا يدري من يجمعهم كالعجم ، والقبائل جماعات منتسبون إلى أب واحد معلوم كالعرب ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « الشعوب العجم ، والقبائل العرب » ^(٣) .

وقيل : إن الشعوب داخلية في القبائل ، فإن القبيلة تحتها شعوب ، والشعوب تحتها بطون ^(٤) . وإنما كان ذلك الجعل ﴿لَتَعَارَفُوا﴾ ويعرف بعضكم بعضا بحسب الأنساب ، لا لتفاخروا بالآباء والقبائل ، وتدعون الشرف والتفاضل.

وقيل : لا لتناكروا بالسخرية واللمز والتبذ والغيبة ، فإن كل واحد منها يؤدي إلى التناكر ^(٥) .

في فضيلة التقوى

وقيل : إن المعنى إننا خلقناكم من ذكر وانثى لتعبدوا ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ^(٦) . واعلموا ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ﴾ واعلاكم شأننا ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي نظره ﴿أَتْقَاكُمْ﴾ وأعلمكم بطاعته ، وإن كان عبدا حبشيا.

روي أنها نزلت حين أمر النبي ﷺ بلالا بعد فتح مكة ليؤذن ، فعلا ظهر الكعبة. فاذن ، فقال عتاب بن اسيد ، وكان من الطلقاء : الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم ، ولم يسمع هذا الصوت.

(١) تفسير الرازي ٢٨ / ١٣٧ ، تفسير روح البيان ٩ / ٩٠ .

(٢) تفسير الرازي ٢٨ : ١٣٨ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣٢٢ ، وتفسير الصافي ٥ : ٥٤ ، ولم ينسبها إلى أحد.

(٤) تفسير الرازي ٢٨ : ١٣٨ .

(٥) تفسير الرازي ٢٨ : ١٣٨ .

(٦) تفسير الرازي ٢٨ / ١٣٨ .

وقال الحارث بن هشام : أما وجد رسول الله سوى هذا الغراب الأسود ^(١) .

وقيل : إنّ الآية نزلت في أبي هند من الصحابة ، حين أمر رسول الله ﷺ بني بياضة أن يزوجه امرأة منهم ، فقالوا : يا رسول الله ، نزّج بناتنا موالينا ^(٢) .

وروي أنّ رسول الله مرّ في سوق المدينة ، فرأى غلاما أسود يباع ، وهو يقول : من اشتراني فعلى شرط أن لا يمنعني عن الصلوات الخمس خلف رسول الله : فاشتراه رجل ، فكان رسول الله ﷺ يراه عند كلّ صلاة فقعه فسأل عنه صاحبه ، فقال : هو محموم فعاده ، ثمّ سأل عنه بعد أيام فقيل ! هو مشرف على الموت ، فجاءه وهو في بقية حركة ، فتولّى غسله ودفنه ، فدخل على المهاجرين والأنصار أمر عظيم ، فنزلت ^(٣) .

روي عن النبي ﷺ أنّه قال يوم فتح مكّة : « إنّ الله قد أذهب عنكم بالاسلام نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها ، إنّ العربية ليست بأب والد ، وإنّما هو لسان ناطق ، فمن تكلم به فهو عربي ، إلّا أنكم من آدم ، وآدم من التراب ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم » ^(٤) .

وعنه ﷺ : « أنّ ربكم واحد ، وأبوكم واحد ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا أحر على أسود ، ولا أسود على أحر إلّا بالتقوى » ^(٥) .

وإنّما ذكر سبحانه من أسباب التفاخر الديني والنسب ، مع أن أسبابه كثيرة كالجمال والأولاد وغيرها ، لأنّ النسب أعلاها من حيث أنّه ثابت مستمر غير مقدور التحصيل بخلاف غيره ؛ ولأنّه كان بين العرب من أعظم أسباب الافتخار ، وكان دأبهم الشائع الافتخار به.

روي أنّه سئل عيسى عليه السلام : أي الناس أشرف ؟ فقبض قبضتين من التراب ، ثمّ قال : أي هذين أشرف ؟ ثمّ جمعهما فطرحهما ، وقال : الناس من تراب ، وأكرمهم عند الله أتقاهم ^(٦) .

وعن النبي ﷺ : « يقول الله يوم القيامة : أمرتكم فضيعة ما عهدت إليكم فيه ، ورفعتم أنسابكم ، اليوم أرفع نسي وأضع أنسابكم ، أين المتّقون ؟ إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ^(٧) .

وعن أبي هريرة : أنّ الناس يحشرون يوم القيامة ، ثمّ يوقفون ، ثمّ يقول الله لهم : طالما كنتم تكلمون وأنا ساكت ، فاسكتوا اليوم حتى أتكلّم ، إيّ رفعت نسي وأبيتم إلّا أنسابكم ، قلت إنّ أكرمكم أتقاكم ، وأبيتم أنتم ، وقلتم : لا بل فلان بن فلان وفلان بن فلان ، فرفعت أنسابكم ، ووضعتم نسي ، فاليوم أرفع

(٢١) تفسير روح البيان ٩ : ٩٠ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٩١ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٢٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٤ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٩١ .

(٦) تفسير روح البيان ٩ : ٩١ .

(٧) مجمع البيان ٩ : ٢٠٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٤ .

نسي ، وأضع أنسابكم ، سيعلم أهل الجمع من أصحاب الكرم أين المتقون ^(١) .
وعن الصادق ، عن أبيه ، عن جدّه ﷺ : « أن رسول الله ﷺ قال : اتقى الناس من قال
الحق فيما له وعليه » ^(٢) .
وعن الصادق ﷺ أنه سئل عن قوله : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ قال : « أعملكم
بالتقية » ^(٣) .

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأنسابكم وأعمالكم ﴿خَبِيرٌ﴾ ببواطنكم وضمائركم ، لا يخفى عليه إسراركم .

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ (١٤)﴾

ثم لما كان التقوى متوقفا على الايمان الراسخ في القلب بالتوحيد ورسالة الرسول ، ردّ الله سبحانه
دعوى مدعى الايمان مع كون إيمانهم صوريا بقوله : ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ وسكنة البوادي لك : ﴿آمَنَّا﴾
بتوحيد الله ورسالتك ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ردّا عليهم : ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ عن صميم القلب ، فلا تقولوا: آمنا
﴿وَلَكِنْ﴾ لما أسلمتم وأظهرتم الشهادتين باللسان ، وتركتم المقاتلة : ﴿قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ ودخلنا في السلم
والانقياد مخافة أنفسنا وأعراضنا. كيف تقولون آمنا ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ﴾ بعد ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾
وما باشر اليقين بالتوحيد ورسالة الرسول أفقدتكم .

قيل : نزلت في نفر من بني أسد ، قدموا المدينة في سنة جدب ، فأظهروا الشهادتين ، وقالوا
لرسول الله ﷺ : أتتكم العرب بأنفسها على ظهور رواحلها ، وأتيناك باثقالنا وعيالنا وذرائعنا ، ولم
نقاتلك كما قاتلت بنو فلان ، يريدون الصدقة ^(٤) ، ويمتنون عليه ما فعلوا ^(٥) .

في بيان الاختلاف في الفرق بين الايمان والاسلام

أقول : ذهب بعض العامة إلى أنه لا فرق بين الاسلام والايمان ^(٦) ، وقال بعضهم : الإسلام أعم
من الايمان ، فإنّ الايمان لا يحصل إلّا في القلب ، والاسلام يحصل باللسان ^(٧) .
وعن الصادق ﷺ : « الايمان : هو الاقرار باللسان ، وعقد القلب ، وعمل بالاركان » إلى أن
قال : « فقد

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٩٢ .

(٢) من لا يحضره الفقيه ٤ : ٢٨٢ / ٨٣٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٥ .

(٣) اعتقادات الصدوق : ١٠٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٥ .

(٤) في تفسير روح البيان : يرون الصدق .

(٥) تفسير أبي السعود ٨ : ١٢٣ ، تفسير روح البيان ٩ : ٩٢ .

(٦) تفسير الرازي ٢٨ : ١٤١ .

(٧) تفسير الرازي ٢٨ : ١٤٢ .

يكون العبد مسلماً قبل أن يكون مؤمناً ، ولا يكون مؤمناً حتى يكون مسلماً ، فالاسلام قبل الايمان ، وهو يشارك الايمان « الخير ^(١) » .

وعن الباقر عليه السلام ، عن النبي صلى الله عليه وآله ، قال : « الاسلام علانية ، والايمان في القلب » وأشار إلى صدره ^(٢) .

وفي رواية : « الاسلام : هو الظاهر الذي عليه الناس ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصيام شهر رمضان ، فهذا الاسلام والايمان : معرفة هذا الأمر مع هذا ، فإن أقر بها ولم يعرف هذا الأمر ، كان مسلماً ، وكان ضالاً » ^(٣) .

وعن الصادق عليه السلام : « أن الاسلام قبل الايمان ، وعليه يتوارثون ويتناكحون ، والايمان عليه يثابون » ^(٤) ولذا قال سبحانه : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ عن الايمان الخالص وترك النفاق ﴿ لَا يَلْسَكُمْ ﴾ ولا ينقصكم ﴿ مِنْ ﴾ اجور ﴿ أَعْمَالِكُمْ ﴾ وثوابها ﴿ شَيْئاً ﴾ يسيراً .

وقيل : إن أتيت بما يليق بضعفكم من الأعمال الحسنة المقرونة بالاخلاص وترك النفاق ، فهو تعالى يأتكم بما يليق بفضله من الجزاء ، لا ينقص منه شيئاً ، نظراً إلى ما في حسناتكم من التقصير والتقصير ^(٥) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ وستار لما فرط من المطيعين ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بهم ومتفضل عليهم بالثواب العظيم .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * يَمْشُونَ عَلَىٰ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٥) و (١٨)

ثم وصف سبحانه حقيقة الايمان إرشاداً للأعراب القائلين : آمنا بقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الذين يحقّ منهم دعوى الايمان ، ويصدقون في دعواه ، هم ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ عن صميم القلب ﴿ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ بالتوحيد والرسالة ﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ ولم يشكوا بسبب تشكيك المشكك ، ولم يختلج

(١) الكافي ٢ : ٢٣ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٥ .

(٢) مجمع البيان ٩ : ٢٠٨ ، وتفسير الصافي ٥ : ٥٦ ، عن النبي صلى الله عليه وآله .

(٣) الكافي ٢ : ٢٠ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٥ .

(٤) الكافي ١ : ١٣٢ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٥ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٩٣ .

ببأهم كذب الرسول في دعوى الرسالة وفيما أخبر عن الله ﴿وَجَاهِدُوا﴾ الكفار والمنافقين ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ وفدوهما ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وطلباً لمرضاته وترويج شريعته ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الجليلة ﴿هُمْ﴾ بالخصوص ﴿الصَّادِقُونَ﴾ في دعوى الإيمان لا غيرهم.

قيل : لما نزلت الآية جاءت الأعراب ، وحلفوا أنهم مؤمنون صادقون ، فنزل ^(١) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ردا عليهم : أيها الأعراب ﴿اتَّعَلَّمُونَ اللَّهَ﴾ وتخبرونه ﴿بِدِينِكُمْ﴾ الذي أنتم عليه بقولكم : آمنا ﴿وَاللَّهُ﴾ باحاطته بجميع الموجودات وكل مخلوقاته ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ لا يعزب عنه مثقال ذرة فيها ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ جليل وحقير ، خفي أو أخفى ﴿عَلِيمٌ﴾ فكيف تخفى عليه ضمائركم حتى يحتاج في الإطلاع عليها إلى إخباركم ؟ ! وفيه توبيخ لهم على اجتهدهم في إخفاء نفاقهم.

ثم لما أظهر الأعراب المنة على الرسول بإسلامهم ن حيث قالوا : إنا أتيناك بأثقالنا وعيالنا وذرائنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، وكان قولهم ذلك في غاية القبح والشناعة ، وبخهم الله سبحانه عليه بقوله : ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ هؤلاء الأعراب ، ويظهرون التفضل ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿أَنْ أَسْلَمُوا﴾ وحسبوا بجهلهم أن إسلامهم نعمة عليك ﴿قُلْ﴾ يا محمد هؤلاء الجهال : ﴿لَا تَمْنُوا﴾ ولا تعدوا النعمة ﴿عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ الظاهري المقرون بالنفاق ، لأنه ليس بنعمة علي ، ولا منة لي عليكم بدعوتكم إليه ، لأنني عملت بوظيفة رسالتي من قبل ربي ﴿بَلِ اللَّهُ﴾ المتان ﴿يُؤْنِ﴾ ويتفضل ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بأعظم النعم ، وهو ﴿أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ وأرشدكم إليه بتبليغي ودعوتي ، ووقفكم لقبوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى الإيمان.

عن القمي رحمته الله : أنها نزلت في عثمان يوم الحندق ، وقد ارتفع الغبار من الحفرة ، فوضع عثمان كفه على أنفه ، فقال عمار :

لا يستوي من يعمر المساجدا فيصلي ^(٢) فيها راکعاً وساجدا
و من يمرّ بالغبار حائدا يعرض عنه جاحدا معاندا
فالتفت عثمان إليه ، وقال : يا ابن السوداء ، إياي تعني ؟ ثم أتى رسول الله صلوات الله عليه فقال : لم ندخل معك لتسب أعراضنا ؟ فقال رسول الله : « قد أقلتك إسلامك » فأنزل الله تعالى : ﴿يُؤْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ ^(٣) .

ثم أكد الله سبحانه علمه بالمغيبات التي منها ما في ضمائر الناس من اعتقاد حقانية الاسلام وعدمه

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٩٦ .

(٢) كذا ، والظاهر : يصلي .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣٢٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٦ .

بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ بذاته ﴿غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وخفياتها التي لا يعلم بها غيره أحد ، فكيف يخفى عليه إسراركم وما في ضمائركم من الكفر والايمان ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ﴾ بغير جارحة ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بجوارحكم من الخيرات والشور والطاعة والعصيان.

عن الصادق عليه السلام : « من قرأ سورة الحجرات في كل ليلة أو كل يوم ، كان من زوار محمد ﷺ » (١) .

الحمد لله على التوفيق لاتمام تفسير السورة المباركة.

(١) ثواب الاعمال : ١١٥ ، مجمع البيان ٩ : ١٩٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٧ .

في تفسير سورة ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا

شَيْءٌ عَجِيبٌ * إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ (١) و (٣)

ثم لما ختمت سورة الحجرات ببيان منّة الأعراب على النبي ﷺ باسلامهم الدالّ على عدم إيمانهم برسوله وكتابه واليوم الآخر ، نظمت بعدها سورة (ق) المبتدئة ببيان عظمة القرآن وجلالته ، وبيان رسالة رسوله وأدلة التوحيد ، وتهديد مكذّبي رسوله بما نزل على الامم الماضية من العذاب ، فابتدأها بذكر الأسماء المباركات بقوله تبارك وتعالى : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم افتتحها بذكر حرف ﴿ق﴾ جلبا لتوجّه القلوب إلى ما يرد عليها فلا يفوتها حلاوة الكلمات الرائقة ، وفهم المعاني الفائقة ، وقد مرّ أنّ تلك الحروف رموز .

عن ابن عباس : هو اسم من اسماء الله ، أقسم الله به (١) .

وقيل : هو رمز عن كلّ اسم من الأسماء الحسنى المصدّرة بالقاف ، كالقادر والقدير والقديم والظاهر والقيّم والقائم بالقسط والقاضي بالحقّ والقريب والقابض (٢) والقدّوس نحوها (٣) ، فإنّ العرب قد ترمز عن كلمة بحرف .

وقيل : هو قسم بقوة قلب حبيبه (٤) .

وعن الصادق عليه السلام : « وأما ﴿ق﴾ فهو جبل محيط [بالأرض] وخضرة السماء منه ، وبه يمسك الله الأرض أن تميد بأهلها » (٥) .

وقال جمع من العامة : هو جبل محيط بالأرض كاحاطة بياض العين بسوادها ، وهو أعظم جبال الدنيا ، خلقه الله من زمرد أخضر ، أو زبرجد أخضر ، منه خضرة السماء ، والسماء ملتزقة به ، وليس

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٩٩ .

(٢) في تفسير روح البيان : والقهار والقريب والقابض والقاضي .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٩٩ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ١٠٠ .

(٥) معاني الاخبار : ٢٢ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٥٨ .

مدينة من المدائن أو قرية من القرى إلا وفيها عرق من عروقه ، وملك موكل به ، واضع يديه على تلك العروق ، فاذا أراد الله بقوم هلاكاً أوحى إلى ذلك الملك فحرك عرقاً ، فحسف بأهلها ، والشياطين ينطلقون إلى ذلك الزبرجد ، فيأخذون منه ، فيبثونه في الناس ^(١) ، ونسب ذلك القول إلى ابن عباس ^(٢) . والظاهر أن حرف (ق) رمز من كلمة قاف التي هي اسم للجبل ، فلا يرد اعتراض الفخر الرازي أنه لو كان اسماً للجبل لكتب (قاف) بالألف والفاء ^(٣) .

ثم عظم القرآن بالحلف به وتوصيفه بالعظمة بقوله : ﴿وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ والكتاب العظيم لعظم فوائده وكونه من الله العظيم ، وآية عظمته حيث عجز الخلق عن الإتيان بمثله . وقيل : إن المجيد بمعنى الكريم ، وتوصيفه بكثرة الكرم ، لأنه لا يطلب أحد مقصوداً منه إلا وجده ، ولا يتمسك به محتاج إلا أغناه ^(٤) . وإنما لم يذكر قبل (ق) أداة القسم ، قيل : لو كالة ^(٥) دخول الحرف على الحرف ^(٦) .

وحاصل المفاد أقسم بالجبل العظيم الذي به بقاء دنياكم ، وبالقرآن الذي به بقاء دينكم ، أن محمداً رسول منذر من جانب الله ، والعجب أن قريشاً أنكروا رسالته مع دلالة المعجزات الباهرات على صدقه ، ولم يكتفوا بالإنكار ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ لحبث ذاتهم وقلة عقولهم من ﴿أَنْ جَاءَهُمْ﴾ رسول ﴿مُنْذِرٌ﴾ مع كونه رجلاً ﴿مِنْهُمْ﴾ يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق ، وليس من جنس الملائكة ﴿فَقَالَ﴾ أولئك ﴿الْكَافِرُونَ﴾ لنعم ربهم بعضهم لبعض عنادا ولجاجاً : ﴿هَذَا﴾ الأمر الذي يدعيه محمد من رسالته مع كونه بشراً ﴿شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ يحق أن يتعجب منه ، مضافاً إلى أنه يقول بما لا يقبله العقلاء من أتائنا نحي بعد موتنا مرة أخرى ، أنصفوا أيها العقلاء ﴿إِذَا مِتْنَا﴾ واقبرنا ﴿وَكُنَّا﴾ بعد سنين ﴿تُرَاباً﴾ نرجع إلى ما كنا عليه من الحياة ؟ لا يكون ذلك أبداً ، لأن ﴿ذَلِكَ﴾ الرجوع الذي يدعيه محمد ﴿رَجْعٌ﴾ ورد ﴿بَعِيدٌ﴾ عن العادة أو الإمكان والصدق ، لاختلاط أجزاء الموتى عند صيرورتهم تراباً بعضها ببعض ، وعدم تميز أجزاء كل ميت عن أجزاء الآخرين ، فكيف يمكن جمعها وإعادة خلق كل ميت من أجزائه التي كانت له حال حياته ؟ !

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا

(١) تفسير روح البيان ٩ : ١٠١ .

(٢) تفسير الجامع للقرطبي ١٧ : ٢ .

(٣) تفسير الرازي ٢٨ : ١٤٧ .

(٤) تفسير الرازي ٢٨ : ١٤٨ .

(٥) كذا ، والظاهر : لركاكة .

(٦) تفسير الرازي ٢٨ : ١٤٦ فيه إشارة إلى هذا .

وَرَيَّانَهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾

ثم ردّ سبحانه استبعادهم بأنّ عدم تميّز الأجزاء إنّما هو عندكم ، لقصور علمكم ، وأمّا نحن فاتّنا ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ وميّزنا كلّ ذرة من تراب ﴿مَا تَنْقُصُ﴾ وتأكل ﴿الْأَرْضُ﴾ من أجزاء كلّ جسد ﴿مِنْهُمْ﴾ وتصيّر من لحومهم وعظامهم وتغيّرنا ترابا مع التفرّق في اقطارها وتحومها ، واختلاط بعضها مع بعض ﴿وَوَ﴾ مع ذلك ﴿عِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ ومصون من الغلط والتغيير والسهو ، فيه تفاصيل الأشياء كلّها جزءا جزءا ، وهو اللوح المحفوظ.

وقيل : إنّ المراد تمثيل علمه تعالى بعلم من عنده كتاب مضبوط فيه تفاصيل جميع الموجودات في العالم ^(١) ، يعلم الناظر فيه بخصوصيات كلّ ذرة منها ، بحيث لا يشبهه عليه جزء بجزء ، فكيف يستبعد ممّن كان علمه بهذه السّعة والكمال رجوعهم وإعادتهم أحياء ؟ لا والله ليس الإعادة عندهم بذلك البعيد ﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ عنادا ولجاجة ﴿بِالْحَقِّ﴾ ورسالة محمد الثابتة بالمعجزات الباهرات ، أو القرآن الثابت كونه كلام الله باهتمامه على وجوه من الإعجاز ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ من غير تفكّر وتأمل في براهين صدقه ﴿فَهُمْ﴾ كائنون ﴿فِي أَمْرِ مَرِيجٍ﴾ قيل : إنّ المراد في رأي مختلف وقول مختلط ، حيث قالوا تارة إنّّه شاعر أو شعر ، وتارة إنّّه كاهن أو كهانة ^(٢) .

وقيل : يعني في حال مضطرب ، فأنّهم تارة يظهرون الشكّ في صدقه ، وتارة يظهرون الظنّ بكذبه ، ويتعجّبون من دعوته ، وتارة يظهرون الجزم بكذبه ^(٣) .

ثمّ إنّّه تعالى بعد إبطال استبعادهم بقوله : ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ إلى آخره ، استبعد منهم ذلك الاستبعاد مع ظهور قدرته بقوله : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ قيل : إنّ التقدير أكان المنكرون للبعث عميانا فلم ينظروا نظرا منهيّا ^(٤) ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ وهي ظاهرة عندهم غير غائبة عنهم حيث إنّها ﴿فَوْقَهُمْ﴾ فيروا أنّا ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ ورفعناها مع عظمتها بغير عمد ؟ ! ومن المعلوم أنّ بناءها أصعب من بناء أساس أبدانهم ﴿وَوَ﴾ كيف ﴿رَيَّانَهَا﴾ بزينة الكواكب مع أنّ تزيينها أصعب وأكمل من تزيين أبدانهم باللحم والجلد والسمع والبصر ﴿وَوَ﴾ الحال أنّه ﴿مَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ وفتوق ومسام وخلل ، ولبدن الانسان خلل ومسامات ، ومن الواضح أنّ تأليف ما خلل له ولا مسامّ أصعب من تأليف ماله خلل وفرج ومسام ، فكيف تستبعدون خلق الأبدان ثانيا مع كونه أهون ؟ !

(١) تفسير البياضاوي ٢ : ٤٢٠ ، تفسير أبي السعود ٨ : ١٢٦ ، تفسير روح البيان ٩ : ١٠٥ .

(٢) تفسير الرازي ٢٨ : ١٥٤ .

(٣) تفسير الرازي ٢٨ : ١٥٤ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ١٠٦ .

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ

جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْخَصِيدِ (٩)﴾

ثمّ بالغ سبحانه في الاستدلال على قدرته الموجب لرفع استبعاد المعاد بقوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ فوق الماء ، وبسطناها كالفرش ، كما رفعنا السماء كالسقف ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ في الأرض ، كما تلقى الحصاة ﴿فِيهَا﴾ جبالا ﴿رَوَاسِيَ﴾ وثواب ، لترسو الأرض ، وتمنعها من الحركة والاضطراب فوق الماء . روي أنّه لما خلق الله الأرض جعلت تمور ، فقالت الملائكة : ما هي بمقرّ أحد على ظهرها ، فأصبحت وقد ارسيت بالجلال ^(١) ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ بقدرتنا بعد ييسها وزلاقتها ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ وصنف من النباتات ﴿بَهِيجٍ﴾ وذو حسن ونظارة ، وإتّما فعلنا تلك الأفعال البديعة ، وخلقنا تلك الأشياء العجيبة ، لتكون ﴿تَبْصِرَةً﴾ ومسببا لمعرفة خالقهم ، ومنبّه بالتفكر فيها ﴿وَذِكْرَى﴾ وعظة وداعية إلى شكرها للناس ، وإتّما الانتفاع بها ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ وراجع إلى ربّه بالتفكر في بدائع صنعه ونعمه الموجبة لشكره وأداء حقّه ﴿وَنَزَّلْنَا﴾ برحمتنا ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ بالأمطار ﴿مَاءً مُبَارَكًا﴾ كثير النفع ، حيث إنّ به حياة كلّ شيء من الأرض والنبات والحيوان والناس ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ﴾ في الأرض ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبساتين من حيث أشجارها المثمرة وغير المثمرة وأنبتنا ﴿وَحَبَّ﴾ الزرع ﴿الْخَصِيدِ﴾ في كلّ سنة من البرّ والشعير والدّخن وغيرها .

﴿وَالنَّخْلَ بِاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مِثْلًا كَذَلِكَ

الْخُرُوجِ (١٠) و (١١)﴾

ثمّ خصّ النخل بالذكر مع دخولها في الجنات ، لكثرة منافعها وشرفها على سائر الأشجار المثمرة بقوله : ﴿وَالنَّخْلَ﴾ انبتنا ﴿الَّتِي﴾ تكون ﴿بِاسِقَاتٍ﴾ وطوالا ، أو حوامل بالثمار ﴿لَهَا طَلْعٌ﴾ وعنقود ﴿نَضِيدٌ﴾ وموضوع بعض الحبوب على بعض أكمامها ، كسنبلة البرّ ، فان كانت انثى تصير تلك الحبوب بسرا وتمرا ، وهو من العجائب ، فإنّ الأشجار الطوال أثمارها بارزة متميزة بعضها من بعض ، لكلّ واحد منها أصل يخرج منه ، كالجوز واللوز وغيرها ، وإتّما أنبتنا الحبوب والثمار والنخل ليكون ﴿رِزْقًا﴾ ومعاشا ﴿لِلْعِبَادِ﴾ .

(١) تفسير روح البيان ٩ : ١٠٧ .

وقيل : إنّ الرزق بمعنى الإنبات ، والمعنى أنبتنا إنباتا للعباد ^(١) .

وعلى أي تقدير إنّما علّل سبحانه خلق الثمار بكونها رزقا مع أنّ فيها أيضا تبصرة وذكرى ، لكون الارتزاق بها عند الناس أظهر فوائدها ، ولأنّ الله تعالى بعد بيان كونه قادرا على خلق أجسادهم ، بيّن نعمه عليهم المقتضية لغاية قبح تكذيبهم منعمهم .

ثمّ استدلل سبحانه على قدرته على إحيائهم بعد خلق أجسادهم بقوله : ﴿وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيْتًا﴾ وأرضا يابسة جديبة لا نبات ولا نماء فيها ، فتشقققت وخرج منها بالمطر أنواع النبات والأزهار ﴿كَذَلِكَ﴾ الإحياء للأرض إحياءكم في القبور ، وكخروج النباتات ﴿الْخُرُوجُ﴾ منها للحشر والحساب .
روي أنّ الله يمطر السماء أربعين ليلة كمنّي الرجال ، يدخل في الأرض ، فينبت لحومهم وعروقهم وعظامهم ، ثمّ يحييهم ويخرجهم من تحت الأرض ^(٢) .

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ
* وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ (١٢) و (١٤)﴾

ثمّ هدّد سبحانه المكذّبين للرسول ﷺ والمنكرين للمعاد من كفّار قريش وغيرهم بما نزل من العذاب على أمثالهم من الأمم الماضية بقوله : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ بالرسول والمعاد ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ من بني شيث وبني قاييل ﴿وَوُكَّ﴾ كذب ﴿أَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ .

في قصة أصحاب الرّسّ

قيل : كان الرّسّ بئرا بعدن لامة من بقايا ثمود ، وكان لهم ملك عادل حسن السيرة ، اسمه عليس ، وكانت البئر كثيرة الماء بحيث تسقي المدينة وباديتها وجميع ما فيها من أهاليها ودوائجها وأنعامها ، ولم يكن لهم ماء غيره ، فطال عمر الملك ، فلما مات ضجّوا جميعا بالبكاء ، لما رأوا أن أمرهم قد فسد ، ثمّ طلبوا جسده بالدّهن لتبقى صورته ، ولا يتغير ، واغتنم الشيطان ذلك منهم ، فدخل في جثّة الملك بعد موته بأيام كثيرة فكلمهم ، وقال : إنّني لم أمت ، ولكني تعيّبت عنكم حتى أرى صنيعكم بعدي . ففرحوا أشدّ الفرح ، وأمر خاصته أن يضربوا حجابا بينه وبينهم ، ويكلّمهم من ورائه كيلا يعرف الموت في صورته ، فنصبوه صنما من وراء الحجاب ، لا يأكل ولا يشرب ، وأخبرهم أنّه لا يموت ابدا ، وأنّه إلههم ، ويتكلم الشيطان ذلك كلّ على لسانه ، فصدّق كثير منهم ، وارتاب بعضهم ، وكان المؤمن المكذّب أقلّ من المصدّق . فكلّما تكلم ناصح

(١) تفسير الرازي ٢٨ : ١٥٧ و ١٥٨ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ١٠٩ .

منهم زجر وقهر ، فاتفقوا على عبادته ، فبعث الله لهم نبياً كان الوحي ينزل عليه في النوم دون اليقظة ، وكان اسمه حنظلة بن صفوان ، فاعلمهم أنّ الصورة صنم لا روح له ، وأنّ الشيطان فيه ، وأنّ الله لا يتمثل بالخلق ، وأنّ الملك لا يكون شريكاً لله تعالى ، ونصحهم وحذرهم سطوة ربهم ونقمته ، فأذوه وعادوه ، وهو يبالغ في نصحهم ووعظهم ، حتى قتلوه وطرحوه في بئر ، وعند ذلك حلّت عليهم النعمة ، وأصبحوا والبئر [قد] غار ماؤها ، فصاحوا بأجمعهم ، وضجّ النساء والولدان والبهاائم عطشا حتى هلكوا ، وتبدّلت اشجارهم المثمرة بالسدر والشوك ^(١) .

وقيل : إنّ الرّسّ بئر قريب من اليمامة ^(٢) .

وقيل : بئر أذربايجان ^(٣) ، أو اسم واد ^(٤) ، وقد سبقت قصتهم في سورة الفرقان.

﴿و﴾ كذّبت ﴿ثَمُودُ* وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ﴾ الذي كان مفتر ومستخفا بقومه فأطاعوه وأتبعوه ، ولذا لم يقل : قوم فرعون ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ وإنما عبّر سبحانه عن قوم لوط بإخوان ، لأنهم كانوا طائفة من قوم إبراهيم ، لهم سابقة معروفة بلوط ، وكذا قيل ^(٥) ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ والغيطرة ، وهم من قوم شعيب ﴿وَقَوْمُ ثُبَيْعٍ﴾ الحميري ملك اليمن ﴿كُلٌّ﴾ من أفراد هؤلاء الأقوام ﴿كَذَّبَ الرَّسُلَ﴾ المبعوثين إليهم ، أو الرسل جميعا فيما ارسلوا به من التوحيد والبعث والشرائع ﴿فَحَقَّقَ﴾ وثبت ، أو حلّ عليهم ﴿وَعِيدَ﴾ الله ، وما أنذروهم به من العذاب ، وفي الآية تسلية للرسول ، لئلا يحزن بتكذيب قومه ، ويصبر على أذاهم ، كما صبر الرسل على أذى قومهم ، ويطمئنّ بالظفر على أعدائه كما ظفروا.

﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾

ثمّ إنّّه تعالى بعد تعداد الآيات الآفاقية الدالة على التوحيد وصحّة البعث عاطفا بعضها على بعض بالواو لكون جميعها من جنس واحد ، استدللّ بخلق أنفسهم عاطفا له بالفاء لتأخّره في الرتبة عن تلك الآيات بقوله : ﴿أَفَعَيْنَا﴾ وعجزنا عن خلقكم ثاني مرّة ﴿بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ وبسبب إيجادهم في الدنيا أو بخلق السماوات والأرض ؟ ! لا والله إنهم لا ينكرون أنّا خلقنا السماوات والأرض ، وأنّا خلقناهم في الدنيا ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ﴾ وشكّ وشبهة ﴿مِنْ خَلْقٍ﴾ لهم ﴿جَدِيدٍ﴾ وثاني مرّة ، لكونه على خلاف العادة في الدنيا ، ويقولون : أيكّرر ويجدد خلقنا ، ونرجع ثانيا أحياء ؟ ! ذلك رجوع بعيد.

قال بعض المتكلمين : إنّ ابن آدم في كلّ زمان متلبّس بخلق جديد ، فإنّه تتحلّل أجزاؤه ، ويخلق

لها

(١) تفسير روح البيان ٩ : ١٠٩ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ١١٠ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ١١٠ .

(٤) تفسير الرازي ٢٨ : ١٦١ .

بدل ما يتحلّل ، فهو في هذا العالم يتجدّد خلقه ، والله تعالى في كلّ يوم من خلقه ، بل من خلق العالم في شأن ، وعليه يكون معنى الآية أنّه لا يختصّ تجديد خلقهم بما بعد خروجهم من الدنيا ، بل هم في هذه الدنيا متلبّسون في كلّ يوم بخلق آخر جديد ^(١).

وعن الباقر عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال : « تأويل ذلك أن الله تعالى إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم ، وسكن أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، جدّد الله عالماً آخر غير هذا العالم ، وجدّد خلقاً من غير فحوله ولا إناث يعبدونه ويوحّدونه ، وخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض تحملهم ، وسماء غير هذه السماء تظلّلهم ، لعلك ترى أن الله إنّما خلق هذا العالم الواحد ، أو ترى أن الله لم يخلق بشراً غيركم ؟ بلى والله لقد خلق الله ألف ألف عالم ، وألف ألف آدم ، وأنت في آخر تلك العوالم ، وأولئك الآدميين » ^(٢).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (١٦) و (١٨)

ثمّ بيّن سبحانه كمال قدرته وسعة علمه المبنيين لإمكان الخلق الجديد بقوله : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾ بقدرتنا الكاملة ﴿الْإِنْسَانَ﴾ في الدنيا من غير مثال سابق ﴿وَنَعْلَمُ﴾ بذاتنا ﴿مَا تُوَسْوِسُ﴾ وتحدّث ﴿بِهِ نَفْسُهُ﴾ وتخطر على قلبه من خير أو شر ، أو خطرات السوء الحاصلة بإلقاء الشيطان ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ علماً ﴿إِلَيْهِ﴾ من كلّ قريب حتى ﴿مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ والعرق المتصل بقلبه المخالط للحمه ، وفيه مجاري روحه الحيواني ، وهو كناية عن نهاية القرب ، والمعنى أنّ الله تعالى أقرب إلى الانسان من روحه ونفسه ﴿إِذْ يَتَلَقَّى﴾ وحين يتلقّن الملكان ﴿الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ والآخذان من الانسان فعله وقوله ، وكاتبان عليه كلّما يصدر منه ، فليس توكيلهما عليه لكتابة أعماله للحاجة في الاطلاع على أعماله إلى ضبطهما وثبتهما أعماله ، لأنّنا أقرب إليه من كلّ قريب ، وأعلم بحاله من نفسه ، بل لكونه بعد الاطلاع على أنّ عليه ملكين موكلين لكتابة أعماله ، أدعى له إلى الطاعة ، وأزجر له عن المعصية ، وكلّ منهما ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ من الانسان ﴿وَعَنِ الشَّمَالِ﴾ منه ﴿قَعِيدٌ﴾ وجالس.

﴿مَا يَلْفِظُ﴾ وما يرمى به ﴿مِنْ قَوْلٍ﴾ وكلام خير أو شرّ ﴿إِلَّا لَدَيْهِ﴾ ملك ﴿رَقِيبٌ﴾ يراقب ذلك القول ويكتبه في صحيفته ، وهو ﴿عَتِيدٌ﴾ ومهيأ لكتابته ، أو هو حاضر عنده أينما كان ، لا يفارقه ولا

(١) تفسير روح البيان ٩ : ١١١ .

(٢) التوحيد : ٢٧٧ / ٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٦٠ .

يغفل عنه.

روى بعض العامة عن النبي ﷺ أنه قال : « نَقُّوا أَفْوَاحَكُمْ بِالْخِلَالِ ، فَاتَّهَا مَجْلِسَ الْمَلَائِكَةِ الْكَرِيمِينَ الْحَافِظِينَ ، وَإِنَّ مَدَادَهُمَا الرَّيْقُ ، وَقَلَمُهُمَا اللِّسَانُ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِمَا شَيْءٌ أَمَرٌ مِنْ بَقَايَا الطَّعَامِ بَيْنَ الْأَسْنَانِ »^(١) .

وروى عنه ﷺ في قوله تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ قال : « عند نأبيه »^(٢) .
وروى عنه ﷺ أنه قال : « كاتب الحسنات على يمين الرجل ، وكاتب السيئات على يسار الرجل ، وكاتب الحسنات أمير وأمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح ويستغفر »^(٣) وروى أصحابنا عن الصادق عليه السلام ما يقرب منه^(٤) .

وعن النبي ﷺ : « أَنَّ مَلَائِكَةَ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةَ النَّهَارِ يَصَلُّونَ مَعَكُمْ الْعَصْرَ ، فَتَصْعَدُ مَلَائِكَةُ النَّهَارِ وَتَمُكُثُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ ، فَإِذَا كَانَ الْفَجْرُ نَزَلَ مَلَائِكَةُ النَّهَارِ وَيَصَلُّونَ الصُّبْحَ ، فَتَصْعَدُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَتَمُكُثُ مَلَائِكَةُ النَّهَارِ ، وَمَا مِنْ حَافِظِينَ يَرْفَعَانِ إِلَى اللَّهِ مَا حَفِظَا فَيُرَى اللَّهُ فِي أَوَّلِ الصَّحِيفَةِ خَيْرًا وَفِي آخِرِهَا خَيْرًا إِلَّا قَالَ لِمَلَائِكَتِهِ : أَشْهَدُوا أَنِّي قَدْ غُفِرْتُ لِعَبْدِي مَا بَيْنَ طَرَفِي الصَّحِيفَةِ »^(٥) .

وعنه ﷺ : « أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَكَّلَ بَعْدَهُ الْمَوْمِنَ مَلَائِكَةً يَكْتُبَانِ عَمَلَهُ ، فَإِذَا مَاتَ قَالَ الْمَلَكَانِ لِلَّذِينَ يَكْتُبَانِ عَمَلَهُ : قَدْ مَاتَ فُلَانٌ ، فَتَأْذَنُ لَنَا أَنْ نَصْعَدَ إِلَى السَّمَاءِ . فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّ سَمَائِي مَمْلُوءَةٌ مِنْ مَلَائِكَتِي يَسْبِّحُونَ . فَيَقُولَانِ : فَأَيْنَ ؟ فَيَقُولُ : قَوْمًا عَلَى قَبْرِ عَبْدِي فَكَبَّرَانِي وَهَلَّلَانِي : وَاكْتُبَا ذَلِكَ لِعَبْدِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »^(٦) .

وقيل : إِنَّ التَّلَقِّيَ بِمَعْنَى الْإِسْتِقْبَالَ ، وَالْمَعْنَى بِنَاءٌ عَلَيْهِ : أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَلَائِكَةً يَسْتَقْبِلَانِ رُوحَهُ حِينَ مَوْتِهِ ، فَيَأْخُذَانِ رُوحَهُ مِنْ مَلِكِ الْمَوْتِ ، أَحَدُهُمَا يَأْخُذُ أَرْوَاحَ الصَّالِحِينَ ، وَيَنْقُلُهَا إِلَى دَارِ السَّرُورِ ، وَالْآخَرُ يَأْخُذُ أَرْوَاحَ الطَّالِحِينَ ، وَيَنْقُلُهَا إِلَى الْوَيْلِ وَالثُّبُورِ ، وَعِنْدَهُ مَلَكَانِ يَكْتُبَانِ أَعْمَالَهُ ، فَإِذَا نَزَلَ الْمُتَلَقِّيَانِ يَسْأَلَانِ الْكَاتِبَيْنِ أَنَّ الَّذِي مَاتَ مِنَ الصَّالِحِينَ ، أَوْ مِنَ الطَّالِحِينَ ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ يَأْخُذُ رُوحَهُ مَلِكُ السَّرُورِ ، وَيَرْجِعُ إِلَى الْآخِرِ مَسْرُورًا ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الطَّالِحِينَ يَأْخُذُهَا مَلِكُ الْعَذَابِ ، وَيَرْجِعُ إِلَى الْآخِرِ مُحْزُونًا »^(٧) .

(٢١) تفسير روح البيان ٩ : ١١٦ .

(٣) جوامع الجامع : ٤٦١ ، تفسير الصافي ٥ : ٦١ ، تفسير روح البيان ٩ : ١١٥ .

(٤) الكافي ٢ : ٣١٣ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٦١ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ١١٦ .

(٦) تفسير روح البيان ٩ : ١١٧ .

(٧) تفسير الرازي ٢٨ : ١٦٣ .

أقول : فيه أنّ الظاهر أنّ الآيتين بيان لحال الانسان قبل خروج روحه.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (١٩)

ثمّ لما استبعدوا البعث بيّن سبحانه بعض أهوال النزع وقيام الساعة بقوله : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ وشدّته المذهبة للعقول المزيلة للفطن الجاعلة للانسان كالسكران ﴿بِالْحَقِّ﴾ والموت الثابت الذي لا محيص عنه.

نقل رواية عامية في فضيلة علي عليه السلام وجهل عمر

كما حكى بعض العامة أنّ رجلاً أتى عمر وقال : إني أحبّ الفتنة ، وأكره الحقّ ، وأشهد بما لم أره. فحبسه عمر ، فبلغت قصّته أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال : « يا عمر حبسته ظلما » فقال : كيف ذلك ؟ قال : « لأنّه يحبّ المال والولد ، وقال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ ^(١) ويكره الموت وهو الحقّ ، قال تعالى : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ ويشهد بأنّ الله واحد وهو لم يره » فقال عمر : لو لا عليّ لهلك عمر ^(٢) انتهى.

فيقول له ملك الموت ، أو لسان حاله : يا إنسان ﴿ذَلِكَ﴾ الموت الذي نزل بك هو ﴿مَا كُنْتَ﴾ في الدنيا ﴿مِنْهُ تَحِيدُ﴾ وتميل وتهرب ، بل تحسب أن لا ينزل عليك لانغمارك في شهوات الدنيا وحبّها ، والتعبير بالماضي للإيذان بتحقيقه وقربه ، وإسناد إتيان الموت إلى سكرته لبيان غاية شدّتها ، فكأنّ شدّة حال النزع اقتضت الموت ، وأما ذلك الانسان.

وقيل : إنّ المراد بالحقّ الدين الذي جاء به الرسول ^(٣) ، فإنّ الانسان حال احتضاره يظهر له حقانيته ، فكفى سبحانه عن ظهور الحقّ بالسكرة باتيانها به ، أو المراد من الحقّ العذاب المعدّ للكفار ، فإنّه ينزل عليه بالموت ، أو يراه في حال الاحتضار وميله عن الحقّ على التقديرين إنكاره إياه.

عن القمي عليه السلام ، قال : نزلت في الأول ^(٤) .

أقول : يعني أنّه أظهر من تنطبق عليه الآية ، روت العامة عن عائشة ، أنّها قالت : أخذت أبا بكر غشية من الموت ، فبكيت عليه ، فأفاق أبو بكر ، فقال : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ ^(٥) .

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ *
لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ

(١) التباين : ٦٤ / ١٥ .

(٢) تفسير روح البيان : ٩ : ١١٨ .

(٣) تفسير الرازي : ٢٨ : ١٦٤ .

(٤) تفسير القمي : ٢ : ٣٢٤ ، تفسير الصافي : ٥ : ٦١ .

(٥) تفسير روح البيان : ٩ : ١١٨ .

قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَتِيدٍ * مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ
مُؤَيَّبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ
رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٠) و (٢٩) ﴿﴾

ثم ذكر سبحانه أهوال البعث بعد الموت بقوله : ﴿وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ﴾ النفخة الثانية ، وهي نفخة
البعث والنشور ، فيقول لهم الملك تهويلا : ﴿ذَلِكَ﴾ الوقت الذي بعثتم فيه ﴿يَوْمَ﴾ إنجاز ﴿الْوَعِيدِ﴾
الذي أوعدكم الله على لسان رسله به من العذاب والأهوال ﴿وَجَاءَتْ﴾ من القبور إلى المحشر ﴿كُلُّ
نَفْسٍ﴾ من النفوس البرّة والفاجرة و﴿مَعَهَا﴾ ملك ﴿سَائِقٌ﴾ له يسوقه إلى المحشر ، وإن اختلفت كيفية
سوق المؤمن والكافر ، والمطيع والعاصي ﴿وَوَ﴾ ملك ﴿شَهِيدٌ﴾ على أعمالها أتمها خير تستحق بها الجنة ،
أو شر تستحق بها النار.

وفي (نهج البلاغة) : « سائق يسوقها إلى المحشر ، وشاهد يشهد عليها بعملها » (١) .
قيل : إنهما الملكان الكاتبان (٢) . وقيل : ملك واحد يسوقها ويشهد على عملها (٣) . وقيل :
السائق ملك ، والشهيد جوارحه (٤) .

ثم يقال لذلك المسوق : ﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ في الدنيا غائرا ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عظيمة ﴿مِنْ هَذَا﴾ اليوم وما
فيه من الأهوال ﴿فَكَشَفْنَا﴾ وأزلنا ﴿عَنكَ﴾ غفلتك التي كانت ﴿غِطَاءَكَ﴾ وحجابك الذي يمنحك عن
اليقين بمجيء هذا اليوم ، ويحتمل كون المراد من الغطاء الجهل والشهوة وحب الدنيا ﴿فَبَصَّرَكَ الْيَوْمَ﴾
لأنكشاف الغطاء عنه ﴿حَدِيدٌ﴾ ونافذ ، تبصر ما كنت منكروه وتستبعده وتتعجب ممن يخبر به ، ولكن لا
ينفعك اليوم إِبْصَارُ ﴿وَقَالَ﴾ الملك الذي هو ﴿قَرِينُهُ﴾ في الدنيا يكتب أعماله ، أو الملك الشهيد عليه ،
كما عنهما ﷺ (٥) : ﴿هَذَا﴾ الكتاب الذي فيه أعمالك ﴿مَا لَدَيَّ﴾ وهو الذي عندي ﴿عَتِيدٌ﴾
وحاضر ، أو مهياً جميعاً للعرض.

وقيل : إنّ المراد بالقرين الشيطان المقيّض له (٦) . يقول هذا الشخص العاصي الطاغوي : ما لدي
والذي عندي وفي ملكتي ومقدوري عتيد ومهياً لورود جهنم ، قد هيأته له بإغوائي وإضلائي ، فيقول الله
تعالى للسائق والشهيد ، أو الملكين من خزنة النار : ﴿أَلْقِيَا﴾ أيها الملكان ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ هذا الكافر

(١) نهج البلاغة : ١١٦ ، الخطبة ٨٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٦١ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ١٢١ .

(٣) تفسير البضاوي ٢ : ٤٢٢ .

(٤) مجمع البيان ٩ : ٢٢٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٦٢ .

(٥) تفسير أبي السعود ٩ : ١٣١ ، وفي النسخة : المقبض له .

و﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ وكثير الطغيان على المنعم ومبالغ في التضييع لحقوقه بانكار توحيد ونعمه.
وقيل : يعني كل كافر حامل غيره على كفره ^(١) ، عنيد ومبغض للحق ، أو منحرف عن الطاعة ، أو معجب بما عنده.

وعن القمي : أنه خطاب للنبي ﷺ وعلي ﷺ ^(٢) .
وعن السجاد ﷺ ، عن أبيه ، عن جدّه أمير المؤمنين ﷺ ، قال : « قال رسول الله ﷺ : إنّ الله تبارك وتعالى إذا جمع الناس يوم القيامة في صعيد واحد كنت أنا وأنت عن يمين العرش ، ثم يقول الله تبارك وتعالى لي ولك : قوما فالتقيا من أبغضكما وكذبكما في النار » ^(٣) .
وفي (المجمع) و(الأمالي) من طرق العامة مثله ، وزادا : « وأدخلا في الجنة من أحبكما ، وذلك قوله تعالى : ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ » ^(٤) .
﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ وكثير البخل بالمال ، الممتنع عن أداء حقوق الله من الزكاة والخمس وغيرهما من الواجبات المالية.

وقيل : إنّ المراد بالخير الاسلام. قيل : نزلت في الوليد بن المغيرة لما منع بني أخيه منه ، وكان يقول: من دخل منكم في الاسلام لم أنفعه بخير ما عشت ^(٥) .
﴿مُعْتَدٍ﴾ ومجاوز عن حدود العقل ، ظالم على نفسه وعلى العباد ، ومعاند لآيات الله ولأهل الحق ﴿مُرِيبٍ﴾ وشاك في دين الاسلام ، أو في البعث ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ واختلق من قبل نفسه وهو ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ وأشرك به في العبادة ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ ومعبودا غيره من مخلوقاته ، كالكواكب والأصنام ، فكل من كان من الناس بهذه الصفات ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ هذا الأمر تأكيد لما سبق.
ثم قيل : إنّ الكفار يعتذرون إلى الله بأنّ الشيطان الذي كان قرينا في الدنيا أضلنا وأطعانا ، فهو المستحق للعذاب دوننا ﴿قَالَ﴾ الشيطان الذي هو ﴿قَرِينُهُ﴾ ومصاحبه في الدنيا ﴿رَبَّنَا﴾ ما أضللتنا و﴿مَا أَطَعْنَاهُ﴾ بالقهر والجبر ﴿وَلَكِنْ كَانُوا﴾ هو لخبث ذاته وسوء أخلاقه مستقرا ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ وانحراف ظاهر عن صراطك المستقيم ﴿بَعِيدٍ﴾ عن طريق الحق القويم ، بحيث لا يرجى منه الرجوع إليه ، وأنا أعنته على ضلاله وطغيانه بالإغواء والدعوة لا عن قهر وإلجاء. ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿لَا تَخْتَصِمُوا﴾ ولا تنازعوا ﴿لَدَيَّ﴾ وفي محضر عدلي وموقف حكومتي ، إذ لا فائدة فيه ، ولا عذر

(١) تفسير روح البيان ٩ : ١٢٣ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٢٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٦٢ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣٢٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٦٢ .

(٤) أمالي الطوسي : ٢٩٠ / ٥٦٣ ، مجمع البيان ٩ : ٢٢٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٦٢ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ١٢٤ .

مقبول ﴿و﴾ الحال أي ﴿قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ﴾ وأعلمتكم في دار الدنيا بتوسط رسلي وكتبي ﴿بِالْوَعِيدِ﴾ والعذاب الشديد على الشرك والطغيان ، وأتممت الحجة عليكم ، وقطعت عذرهم ، فالיום ﴿مَا يُبَدِّلُ﴾ ولا يغيّر ﴿الْقَوْلُ﴾ الذي قلته ، والوعيد الذي وعدته على الشرك والكفر والطغيان في كتابي بقولي : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾^(١) وقولي : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾^(٢) ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٣) .

﴿لَدَيَّ﴾ بوقوع الخلف فيه ﴿وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ بتعذيبهم بغير استحقاق أشدّ العذاب مع كونهم أهلين للرحمة والعطوفة وإنما نفى كثرة الظلم عن نفسه مع أنّه لا يصدر منه أقلّه ؛ لأنّه لو عدّ بهم بهذا العذاب الشديد بغير استحقاق ، كان أكثر ظلما من كلّ ظالم.

قيل : إنّ كثرة الظلم المنفي باعتبار كثرة العبيد^(٤) . وقيل : إنّ المبالغة راجعة إلى النفي ، لا إن النفي وارد على صيغة المبالغة^(٥) . وقيل : إنّ الظلام بمعنى الظالم ، كالتّمار بمعنى التامر.

وقيل : إنّ الظلام تقديره ، والمعنى أيّ لو ظلمت عبدي الضعيف المستحقّ لغاية الرحمة ، لكان ذلك غاية الظلم ، وما أنا بذلك^(٦) . وقيل : إنّ نفي كونه ظلّاما لا ينافي نفي كونه ظلّاما ، ونفيه للعبيد لا ينافي عدم كونه ظلّاما لغيرهم^(٧) .

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ * وَأَزَلَّاتِ الْجَنَّةُ

لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ (٣٠) و (٣٢)﴾

وذكر العبيد والتخصيص بهم لكونهم أقرب إليه ، وكونه أقرب منه ، كما أنّه لا ينافي نفي كونه ظلّاما في جميع الأزمنة تخصيص نفيه بيوم القيامة بقوله : ﴿يَوْمَ﴾ والمعنى ما أنا بظلام للعبيد في يوم ﴿نَقُولُ﴾ في ذلك اليوم مع عظمتنا ، طلبا^(٨) لتصديقنا في أخبارنا ، وتحقيق وعدنا ، وتقريع أهل العذاب ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ ودار العذاب بعد إلقاء جميع الكفّار من الجنّ والإنس فيها : ﴿هَلِ امْتَلَأَتْ﴾ بمن ألقينا فيك ، وهل وفينا بوعدنا إياك أن نملاّك من الجنة والناس ؟ ﴿وَتَقُولُ﴾ جهنّم مجيبة لنا ، واستكثرنا لما القي فيها مع غاية سعتها وتباعد أقطارها وأطرافها : يا رب ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ وموضع يمكن أن يلقي فيه^(٩) زيادة على ما القي فيّ ، لا وعزّتك لم يبق فيّ موضع يسع إبرة.

وقيل : إنّ الاستفهام لطلب الزيادة غيظا على الكفّار والعصاة ، وكان السؤال قبل إدخال الكلّ

فيها ، أو

(١) النساء : ٤ / ٤٨ و ١١٦ .

(٢) النساء : ٤ / ٤٨ و ١١٦ .

(٣) البقرة : ٢ / ٨١ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ١٢٦ .

(٥) تفسير الرازي ٢٨ : ١٧٢ .

(٦) تفسير الرازي ٢٨ : ١٧٣ .

(٨) في النسخة : طالبا . (٩) في النسخة : في .

كان بعد إدخال الكلّ ، وهي تطلب الزيادة في سعتها وإلقاء الكفّار فيها ^(١) .
وقيل : إنّه لا يكون سؤال وجواب ، وإنّما ذكر الله سبحانه ذلك على سبيل التمثيل والتخيّل ^(٢) .
إظهارا لامتلاء جهنّم ، واشتياقها إلى الكفّار ، والحقّ أنّه بيان الحقيقة والواقع ، حيث إنّ جهنّم بل جميع ما في عالم الآخرة لها شعور وحياة وقوة نطق ، كما دلّ عليه بعض الأخبار .
ثمّ إنّ تعالى بعد بيان شدة غضبه وعذابه على الكفّار ، بيّن كثرة لطفه ورحمته للمؤمنين المتقين بقوله : ﴿ وَأُزْلِفَتْ ﴾ وقربت ﴿ الْجَنَّةُ ﴾ في ذلك اليوم ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ والمحترزين عن الشرك والكفر والعصيان ، بحيث يروّحوا من الموقف ، ويطلّعون على ما فيها من المحاسن والبهجة والتّعم ، ليزيد فرحهم وابتهاجهم ، وهي تكون شيئا ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ عنهم ، وفيه تأكيد لكمال قربها منهم وإكرامه لهم ، وأيضا في صدر الآية دلالة على أنّ الجنة تقرب إليهم ، لا أنّهم يقربون إلى الجنة ، ويحتمل أن يكون المراد بالقرب هنا كناية عن سهولة دخولهم فيها .

وعن القمي رحمه الله : أنّ المعنى زيّنت الجنة للمتقين بسرعة ^(٣) .
ثمّ يقال لهم تفرّحوا لقلوبهم : ﴿ هَذَا ﴾ الذي تشاهدونه من الجنة ونعيمها ﴿ مَا ﴾ كنتم في الدنيا ﴿ تُوعَدُونَ ﴾ وتبشّرون به على إيمانكم وطاعتكم ، في كتابنا المنزل على لسان النبي المرسل . ثمّ ابدل سبحانه عن المتقين بقوله : ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ ورجّاع إلى ربّه بالتوبة والاستغفار من ذنوبه ﴿ حَفِيفٌ ﴾ يحفظ توبته من النقض ، وعهده مع الله بالطاعة من الرّفص ، وقيل : الرجّاع إلى الله بالفكر ^(٤) والتوجّه بالقلب ، شديد التحفّظ على طاعة أحكامه وأوامره ونواهيه .

﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ

الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (٣٣) و (٣٥)

ثمّ بالغ سبحانه في توضيح المتقين بقوله : ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ ﴾ وخاف من الله العظيم ، مع كونه الرحمن المبالغ في الرحمة والعطوفة بعبده حال كونه ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ من خلقه لا يروّنه بالحواسّ الظاهرة ، أو خشي الرحمن من أن يعاقبه حال كون عقابه بالغيّب لم يره بعينه ﴿ وَجَاءَ ﴾ ربه في الآخرة ﴿ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ وحضر عنده مع قلب سليم من الشرك ورذائل الأخلاق والشكّ والنفاق .
ثمّ يقال لهم على رؤوس الأشهاد من قبل الله تبارك وتعالى : أيّها المتقون ، اذهبوا إلى الجنة التي

(١) تفسير الرازي ٢٨ : ١٧٤ .

(٢) تفسير البيضاوي ٢ : ٤٢٤ ، تفسير أبي السعود ٨ : ١٣٢ ، تفسير روح البيان ٩ : ١٢٧ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٦٣ .

(٤) تفسير الرازي ٢٨ : ١٧٦ .

ترونها و ﴿اذْخُلُوهَا﴾ حال كونكم مكرمين ﴿يَسْلَامٍ﴾ من الله وملائكته ، أو متلبسين بسلامة من العذاب والآفات وزوال النعم وحلول النقم ، آمنين منها ﴿ذَلِكَ﴾ اليوم الذي أنتم فيه ﴿يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ في الجنة ونعمها والبقاء فيها أبداً.

ثم بشر الله سبحانه في الدنيا المتقين بنعمه التي أعدت لهم في الجنة بقوله : ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾ ويشتهون ﴿فِيهَا﴾ من الماكل اللذيذة ، والأشربة الطيبة ، والملابس الناعمة الفاخرة ، والخور والقصور ، والسرر المرفوعة ، والتمارق المصفوفة وغيرها في أي زمان وحال. ويحتمل أن يكون ذلك خطاباً للملائكة الموكلين بخدمتهم ، والمراد اعلّموا يا ملائكتي أن لهم ما يشاءون ، فأحضروا عندهم ما يشتهون ﴿وَلَدَيْنَا﴾ على ذلك ﴿مَزِيدٌ﴾ مما لا يخطر ببالهم ، ولا تقدرّون أنتم عليه ، ولا يندرج تحت مشيئتهم من أنواع اللذات والكرامات.

قيل : إنهم يسألون الله حتى تنتهي مسألتهم فيعطيهما ما شاءوا ، ثم يزيدهم من عنده ما لم يسألوه ، ولم تبلغه أمانيتهم ^(١) .

قيل : إنّ السحاب تمرّ بأهل الجنة فتمطرهم الخور ، فتقول : نحن المزيد الذي قال الله تعالى : ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ ^(٢) . وروي أنّ هذه الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى ^(٣) . وعن القمي رحمه الله ، قال : النظر إلى رحمة الله ^(٤) .

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣٦) و (٣٧)

ثم إنّ تعالى بعد تهديد المشركين المنكرين للبعث بعذاب الآخرة وأهوالها ، وترغيبهم إلى الإيمان والتقوى ببيان حسن عاقبة المتقين ، هدّدهم بما نزل على أمثالهم من الأمم الماضية من العذاب بقوله : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وكثيراً ما عدّنا بعذاب الاستئصال ﴿قَبْلَهُمْ﴾ وفي الأعصار السابقة على عصر قومك ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ وجماعات مقترنين في العصر ﴿هُمْ أَشَدُّ﴾ من قومك وأكثر ﴿مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ وقوة في الجسم ، كعاد وثمود وغيرهم ، لكفرهم وتكذيبهم الرسل وإنكارهم البعث ﴿فَنَقَّبُوا﴾ وبحثوا وتصرفوا ، أو جالوا ﴿فِي الْبِلَادِ﴾ وأذلّوا أهلها وقهروهم وأستولوا عليهم ، وهم قائلون حين نزول

(١) تفسير روح البيان ٩ : ١٣٢ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ١٣٢ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٦٤ .

العذاب عليهم ﴿هَلْ مِنْ مَّحِصٍ﴾ ومفرّ أو ملجأ منه ؟ ولم يجدوه.

وقيل : إنّه من كلام الله تعالى مخاطبا لقوم النبي ﷺ ^(١) ، والمعنى : أنّ الامم الماضية اهلكوا مع

قوة بطشهم ، فهل لكم يا قوم محمد من محيص ومهرب عن العذاب ؟

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من إهلاك الامم لكفرهم وطغيانهم ، والله ﴿لَذِكْرٌ﴾ وعظة ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ

قَلْبٌ﴾ يفقه به ويتفكر فيما يرد فيها ، ويدرك سوء عاقبة الكفر والطغيان ، أو لمن كان له عقل ، كما

عن الكاظم عليه السلام . وعن ابن عباس ^(٢) ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ ولم يمسكه عن سماع ما يتلى عليه من الوحي

الناطق بما جرى عليهم ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ وحاضر بذهنه ليفهم معانيه ، أو شاهد بصدقه فيتعظ بظواهره

وينزجر بزواجه.

وقيل : يعني والمنذر الذي تعجبتم منه شهيد ، كما قال : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ ^(٣) .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ

* فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ

* وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ * وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ

قَرِيبٍ (٣٨) و (٤١)﴾

ثمّ عاد سبحانه إلى الاستدلال على إمكان إعادة الخلق للحساب بقوله : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا

السَّمَاوَاتِ﴾ السبع ﴿وَالْأَرْضَ﴾ بطبقاتها ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وأوقات بلا

استعانة بالغير ﴿وَمَا مَسَّنَا﴾ وما أصابنا بذلك شيء ﴿مِنْ لُغُوبٍ﴾ وتعب ونصب حتى نعجز عن إعادة

الخلق ثانية ، فإنّ خلق كلّ منها بالارادة المعبر عنها بأمر (كن) بلا حاجة إلى حركة وتحمل كلفة ومشقة

، لاستحالة الحاجة في الواجب ، وفيه أيضا ردّ على اليهود حيث زعموا أنّ الله بدأ خلق العالم يوم الأحد

، وفرغ منه يوم الجمعة ، واستلقى يوم السبت على العرش واستراح.

ثمّ لما كان شدّة إنكار المشركين رسالة الرسول والبعث والمعاد ثقيلًا على قلب النبي ﷺ ، أمره

سبحانه بالصبر وتنزيهه تعالى عن العجز بقوله : ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿عَلَى﴾ أذى المشركين و﴿مَا

يَقُولُونَ﴾ في شأنك وشأن البعث من التعجّب من رسالتك واستبعاد البعث والإعادة بعد الموت ، كما

(١) تفسير الرازي ٢٨ : ١٨٢ .

(٢) الكافي ١ : ١٢ / ١٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٦٤ ، تفسير روح البيان ٩ : ١٣٥ .

(٣) تفسير الرازي ٢٨ : ١٨٣ ، والآية من سورة الفتح : ٤٨ / ٨ .

صبر اولو العزم من الرسل ، فانك تظفر على أعدائك كما ظفروا ﴿وَسَبِّحْ﴾ ونزه الله من العجز من تحديد الخلق وسائر الصفات الممكنات ، وأقرن تسبيحه ﴿يَحْمَدُ رَبَّكَ﴾ على ما أنعم عليك من الرسالة وإصابة الحق في الوقتين ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ وهو وقت العصر ، فأتهما أشرف الأوقات ﴿وَمِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ﴾ أو بعضه ﴿فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ وأعقباه .

قيل : إنَّ المراد أمر النبي ﷺ بإظهار عظمة الله وتنزيهه من العجز بالبرهان في مجامع العرب ، وأن لا يسأم عن التبليغ بسبب أقاويلهم الباطلة ، فإنَّ العرب كانوا يجتمعون في تلك الأوقات ^(١) .
وقيل : إنَّ المراد بالتسبيح قبل طلوع الشمس صلاة الفجر ، وقبل الغروب صلاة الظهر والعصر ، وفي بعض الليل أو أوله صلاة المغرب والعشاء ، وبالتسبيح في أدبار السجود صلاة النوافل أدبار الفرائض ^(٢) .

وعن الباقر عليه السلام أنه سئل عن قوله : ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ قال : « ركعتان بعد المغرب » ^(٣) .

وعن الرضا عليه السلام ، قال : « أربع ركعات بعد المغرب » ^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام « أنه الوتر في آخر الليل » ^(٥) .

وقيل : إنَّ المراد بالتسبيح والتحميد قول : سبحان الله والحمد لله ^(٦) .

وعن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال : « تقول حين تسمي وحين تصبح عشر مرات : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير » ^(٧) .

قيل : إنَّ وظيفة النبي ﷺ هداية الخلق وعبادة الحق ^(٨) ، والمراد من الآية إذا لم يهتدوا بهدایتك ، فاشتغل بعبادة ربك ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ يا محمد ما أوحى إليك ، ولا تكن من المعرضين عنه ، أو استمع النداء ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ﴾ بقوله : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَاهُمْ﴾ ^(٩) أو بقوله : ﴿الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ^(١٠) وقوله للمتقين : ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ ^(١١) أو بقوله : ﴿أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ^(١٢) واعلم أنَّ هذه الوجوه مبنية على كون المنادي هو الله عزَّ وجلَّ .

أو بقوله : ايتها العظام النخرة ، اجتمعن واتصلن واحشرن للحساب ، بناء على كون المنادي إسرافيل .

(١) تفسير الرازي ٢٨ : ١٨٥ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ١٤٠ .

(٣) الكافي ٣ : ٤٤٤ / ١١ ، تفسير الصافي ٥ : ٦٥ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٦٥ .

(٥) مجمع البيان ٩ : ٢٢٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٦٥ .

(٦) تفسير الرازي ٢٨ : ١٨٥ .

(٧) مجمع البيان ٩ : ٢٢٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٦٥ .

(٨) تفسير الرازي ٢٨ : ١٨٥ .

(٩) الصافات : ٣٧ / ٢٢ .

(١٠) سورة ق : ٥٠ / ٢٤ .

(١١) سورة ق : ٥٠ / ٣٤ . (١٢) الأنعام : ٦ / ٢٢ .

قيل : إن إسرئيل يقوم على الصخرة وينادي : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة ، إنّ الله يأمرن أن تجتمعن لفصل القضاء ^(١) .
وقيل : إنّ جبرئيل ينادي بالحشر ^(٢) . ﴿ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ من جميع الناس يسمعه كلّهم على حدّ سواء .

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ
وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ *
نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ
وَعِيدِ (٤٢) و (٤٥)﴾

ثمّ بيّن سبحانه يوم نداء المنادي بقوله : ﴿يَوْمَ﴾ يخرج جميع الناس من القبور و﴿يَسْمَعُونَ﴾ من إسرئيل ﴿الصَّيْحَةَ﴾ والنفخة الثانية في الصّور ، وهي مقرونة ومتلبّسة ﴿بِالْحَقِّ﴾ والتحقّق ، أو مصحوبة باليقين والقطع ، لا بالظنّ والشكّ ، أو المراد بالصيحة بالحشر الذي هو الحقّ بقوله : يا عظام اجتمعي . أقول : هذا التفسير لا يوافق سماع الناس تلك الصيحة .
﴿ذَلِكَ﴾ اليوم الذي تسمع فيه الصيحة ﴿يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ من القبور والسوق إلى المحشر والحساب ، ثمّ إلى الجنة ، أو النار .

وعن القمي ﴿يُنَادِ الْمُنَادُ﴾ باسم القائم واسم أبيه ^(٣) ﴿مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ بحيث [يصل] نداؤه إلى الكلّ سواء ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ قال : صيحة القائم من السماء ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ ^(٤) .
وعنه ، عن الصادق عليه السلام قال : « هي الرجعة » ^(٥) .
أقول : هذا تأويل الآية لا تفسيرها .

ثمّ قرّر سبحانه دليل البعث والنشور بقوله : ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ بقدرتنا الكاملة ﴿نُحْيِي﴾ الناس جميعاً في الدنيا ﴿وَنُمِيتُ﴾ جميعهم فيها ﴿و﴾ بعد ذلك ﴿إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا ﴿الْمَصِيرُ﴾ والمرجع في الآخرة لحساب أعمالهم وجزائها ، وذلك الرجوع إلينا يكون ﴿يَوْمَ﴾ يحيا الناس في قبورهم ﴿تَشَقُّقُ﴾

(١) تفسير روح البيان ٩ : ١٤٢ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ١٤٢ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٦٥ ، وفي النسخة : واسم الله .

(٤و٥) تفسير القمي ٢ : ٣٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٦٥ .

الْأَرْضُ ونكشف حجاب التراب **عَنْهُمْ** ويخرجون من القبور **سَرَعًا** بلا ريث وبطء **ذَلِكَ** الإحياء والخروج **حَشَرًا** وبعث عود ، وهو **عَلَيْنَا يَسِيرٌ** وهين لا عسر وصعب.

ثم سأل سبحانه نبيه وحبيبه ﷺ بقوله : **نَحْنُ أَعْلَمُ** من كل أحد **بِمَا يَقُولُونَ** هؤلاء الكفار من إنكار الرسالة ، واستبعاد البعث بعد الموت ، وتكذيب الآيات الناطقة به ، وأنت لا تتعب نفسك بدعوتهم إلى الإيمان بك وبكتابك وبالأخرة ، لأنك لا تكون عليهم رقيباً **وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ** تجبرهم على تصديقك ، وتقهر على الإقرار بالمعاد والبعث ، وإنما عليك البلاغ والتذكير **فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ** الذي انزل إليك ، المشتمل على أدلة رسالتك بجهات إعجازه ، وأدلة قاطعة وبراهين واضحة على صحة البعث وجزاء الأعمال ، وعظ بما فيه من المواعظ الشافية والعبر الوافية **مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ** الله وتهديده بالعذاب الآخروي والديني ، فاتهم المنتفعون بمواعظ الله ورسله ، وأما من عداهم ففوض أمرهم إلينا ، فاتنا نعاملهم بما يستحقون ، ونفعل بهم ما يستوجبون له.

قيل : كان رسول الله ﷺ يخطب في كثير من الأوقات بسورة (ق) لاشتغالها على ذكر الله والثناء عليه ، وعلمه بما توسوس به النفوس ، وما تكتبه الملائكة ، وتذكير الموت وسكرته وشدته ، وتذكير القيامة وأهوالها ، والشهادة على الخلائق بأعمالهم ، وتذكير الجنة والنار والصيحة والنشور والخروج من القبور ، والمواظبة على الصلوات ^(١).

وفي الحديث : « من قرأ سورة (ق) هون الله عليه تارات الموت وسكراته » ^(٢).

وعن الباقر عليه السلام : « من أدمن في فرائضه ونوافله سورة (ق) وسع الله عليه في رزقه ، وأعطاه كتابه يمينه ، وحاسبه حساباً يسيراً » ^(٣).

الحمد لله الذي منّ عليّ بالتوفيق لإتمام تفسير السورة المباركة ، وأسأله التوفيق لإدمان قراءتها.

(١) تفسير روح البيان ٩ : ١٤٥.

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ١٤٥ ، ونقل عن حواشي سعدى المفتي ، تارات الموت : إفاقاته وغشياته.

(٣) ثواب الأعمال : ١١٥ ، مجمع البيان ٩ : ٢١٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٦٦.

في تفسير سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا * فَالْحَامِلَاتِ وُقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمَقْسَمَاتِ

أَمْرًا (١) و (٤)﴾

ثم لما ختمت سورة (ق) المصدرة بالحلف على صدق رسالة رسوله وإثباته ، وإثبات البعث ، وتحذير المكذّبين بما نزل على قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وقوم لوط ، وإثبات التوحيد ببناء السماء ومد الأرض وغيرها من الآيات ، اردفت بسورة الذاريات المصدرة بالحلف على صدق المعاد ، وتحذير المنكرين بما نزل على أولئك الامم مع شذمة من تفصيل العذاب الواقع بهم ، وإثبات التوحيد ببناء السماء وفرش الأرض ، وبعض آخر من المطالب المهمة المربوطة بمطالب السورة السابقة.

قيل : لما بين الله الحشر بدلائله في السورة السابقة ، وقال : ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾^(١) وذكر إصرار المشركين على الإنكار بقوله : ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾^(٢) لم يبق إلا اليمين ، فنظمت بعدها سورة والذاريات^(٣) ، المصدرة بالحلف على المعاد ، وصدق البعث والحساب ، فابتدأها بذكر الاسماء الحسنى ، بقوله تبارك وتعالى : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم شرع سبحانه بالحلف على صدق المعاد ، فابتدأ بالحلف بالرياح التي تذرّ التراب وتفرّقه في أقطار الأرض بقوله : ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ والمطيرات للتراب والأشياء الخفاف كالحشائش والتبن^(٤) في أطراف الأرض ﴿ذُرُوءًا﴾ وإطارة خاصة بها ، وإنما قدّم سبحانه الحلف بما لكونها أدلّ على كمال قدرته ، ثم حلف بقطعات السحاب الحاملات للأمطار بقوله : ﴿فَالْحَامِلَاتِ وُقْرًا﴾ وحملًا ثقيلا من الماء ، وإنما قدّمها لكونها أنفع للناس بعد الرياح ، ثم حلف سبحانه بالسفن الجارية بتوسط الرياح

(١) سورة ق : ٥٠ / ٤٤.

(٢) سورة ق : ٥٠ / ٤٥.

(٣) تفسير الرازي ٢٨ : ١٩٣.

(٤) في النسخة التبين.

بقوله : ﴿فَالْجَارِيَاتُ﴾ في البحار جريانا ﴿يُسْرًا﴾ وسهلا. ثم حلف بالملائكة الذين يقسمون الأمطار والأرزاق بقوله : ﴿فَالْمَقْسَمَاتُ أُمْرًا﴾ والمراد بالأمر جنسه ، فيشمل جميع الأمور المنقسمة بين الخلائق. روى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : « الذاريات هي الرياح ، والحاملات هي السحاب ، والجاريات هي السفن ، والمقسمات هي الملائكة الذين يقسمون الأرزاق » ^(١) . وعن القمي رحمته الله ، عن الصادق عليه السلام : « أن أمير المؤمنين سئل عن (الذاريات ذروا) قال : الريح ، وعن (الحاملات وقرا) قال : السحاب ، وعن (الجاريات يسرا) قال : هي السفن ، وعن (المقسمات امرا) قال : الملائكة » ^(٢) . وعن (الاحتجاج) عن أمير المؤمنين عليه السلام مثله ^(٣) . والعجب من الفخر الرازي أنه نقل هذا التفسير عن أمير المؤمنين عليه السلام ، ومع ذلك اختار غيره ، مع رواية العامة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « أنا مدينة العلم ، وعليّ بابها » ^(٤) وأنه مع الحق والحق معه ^(٥) .

قال الناصب : الأقرب أن هذه صفات أربع للرياح التي تنشئ السحاب أولا ، والحاملات هي الرياح التي تحمل السحب التي هي بخار المياه التي إذا سحت جرت السيول العظيمة ، وهي أوفار أثقل من الجبال ، والجاريات هي الرياح التي تجري بالسحب بعد حملها ، والمقسمات هي الرياح التي تفرق الأمطار على الأقطار ^(٦) .

وفيه مع أنه تفسير بالرأي ومن فسر القرآن برأيه فليتأمل مقعده من النار ومخالف لما فسره به نفس الرسول صلى الله عليه وآله ولسانه وعيية علمه ، على تقدير ثبوته ، فاسد في نفسه لظهور أن الذاريات غير المنشئات ، والسائقات غير الحاملات ، والجاريات غير المجريات ، والمقسمات مطلق الأمر الشامل للأمطار والأرزاق وغيرها ، غير مقسمات خصوص المطر ، فالمقسمات أمرا كالمديرات أمرا ، قيل : هم أربعة : جبرئيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وعزرائيل ^(٧) . والظاهر أن هؤلاء عمد المديرات ، وإلا فالمديرات أكثر. قيل : إن هذه الامور دلائل التوحيد أخرجها بصورة القسم ^(٨) .

(١) تفسير الرازي ٢٨ : ١٩٥ .

(٢) تفسير القمي : ٢ : ٣٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٦٧ .

(٣) الاحتجاج : ٢٥٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٦٧ .

(٤) مستدرک الحاكم ٣ : ١٢٦ و ١٢٧ ، جامع الاصول ٩ : ٤٧٣ / ٦٤٨٩ ، أسد الغابة ٤ : ٢٢ ، تاريخ بغداد ١١ : ٤٩ و ٥٠ .

(٥) مناقب الخوارزمي : ٥٧ ، ترجمة الامام علي عليه السلام من تاريخ دمشق ٣ : ٥٣ / ١١٧٢ .

(٦) تفسير الرازي ٢٨ : ١٩٥ .

(٧) تفسير روح البيان ٩ : ١٤٨ .

(٨) تفسير الرازي ٢٨ : ١٩٤ .

قيل : إنّ الرياح في الدلالة على كمال القدرة أتمّ لكونها أسبابا للسّحب ، والسّحب أتمّ دلالة عليه من السفن لكونها أغرب ماهية وأكثر نفعا ، وهذه الثلاثة لكونها من المحسوسات غير القابلة للانكار أتمّ دلالة من الملائكة ، لإمكان إنكار المنكر وجودهم ، ولذا صدرّ الثلاثة بالفاء ^(١) .

وقيل : إنّ الترتيب المترقي من الأضعف إلى الأقوى ، فإنّ السّحب أقوى دلالة على كمال القدرة من الرياح ، لتألفها من الأجزاء المائية والهوائية . وقليل من الأجزاء الأرضية والنارية ، وفيها غرائب من الآثار العلوية ، والسّفن أقوى دلالة من السّحب ، لتألفها [من] جميع العناصر على ما فيها من الصنعة البديعة والامور العجيبة من حمل الأثقال مع خفة الحامل ، وقطعها المسافة البعيدة في زمان يسير بهبوب الرياح العاصفة ، والأدلّ من الجميع إقداره الروحانيات مع لطافتهم على التصرّف في الجسمانيات مع كثافته ، ولا اعتبار بانكار من لا عبرة به ^(٢) .

وقيل : إنّ وجه الترتيب كون حركة السّحاب والسفن من آثار الرياح ، وبعد الحلف بما يكون سببا للرزق ذكر مقسمات الأرزاق ^(٣) .

وقيل : إنّ المراد بالذاريات الكواكب السريعة في السير من ذرا يذرو ، بمعنى أسرع . وقيل : إنّ المراد الملائكة . وقيل : إنّ التقدير : وربّ الذاريات ^(٤) .

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ

لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُولَئِكَ (٥) وَ (٩) ﴾

ثمّ ذكر سبحانه المقسم عليه بقوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ أيّها المشركون من البعث والحشر والحساب ﴿ لَصَادِقٌ ﴾ ومطابق للواقع ، لا مجال للشكّ فيه . قيل : إنّ الصادق بمعنى ذو صدق ^(٥) . وقيل : إنّ في وصف المصدر بما يوصف به الفاعل غاية المبالغة ^(٦) . ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ ﴾ وجزاء الأعمال في الآخرة ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ وكائن لا محالة .

ثمّ حكى سبحانه اختلاف طريقة المشركين في تكذيب الرسول والمعاد والقرآن ، مؤكّدا بالحلف بقوله : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ والطرائق المختلفة للكواكب ، أو ذات الأشكال المختلفة بسبب النجوم . وعن ابن عباس : ذات الخلق الحسن المستوي ^(٧) .

(١) تفسير روح البيان ٩ : ١٤٨ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ١٤٨ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ١٤٨ .

(٤) تفسير الرازي ٢٨ : ١٩٥ .

(٥) تفسير الرازي ٢٨ : ١٩٦ .

(٦) تفسير أبي السعود ٨ : ١٣٧ ، تفسير روح البيان ٩ : ١٥٠ .

﴿إِنكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ ومتناقض في شأن الرسول ، فتارة تقولون : إنه ساحر ، وتارة تقولون : إنه كاهن ، وتارة تقولون : إنه شاعر ، وتارة تقولون : إنه مجنون ، ومرة تقولون : إنه مجادل ونحن عاجزون من الجدل ، وسادسة تقولون : إنه أمين ، وسابعة تقولون : إنه كاذب . وفي شأن القرآن تارة تقولون : إنه سحر ، وتارة تقولون : إنه شعر ، وتارة تقولون : إنه كهانة ، وتارة تقولون : إنه أساطير .

وفي شأن المعاد تارة تقولون : إنه متيقن والأصنام شفعاؤنا عند الله ، وتارة تقولون : إنه مظنون ، وتارة تقولون : إنه مشكوك ، وتارة تقولون : إنه مقطوع العدم .

وقيل : إنّ المراد أئكم غير ثابتين على قول ، ومن يكون كذلك لا يكون متيقنا في اعتقاده ^(١) . ثمّ بالغ سبحانه في ذمهم بقوله : ﴿يُؤْفَكُ﴾ عن الرسول ، أو عن القرآن ، أو عن القول بالحشر ، ويصرف ﴿عَنهُ﴾ مع كونه حقا يجب الايمان به ﴿مَنْ أَفْلَكُ﴾ وصرف عن كلّ خير وسعادة ، إذا لا صرف أقطع وأشنع منه .

وقيل : إنه مدح للمؤمنين ، فإنهم يصرفون عن القول المختلف [ويصرفون] من صرف عن كلّ باطل ، ويرشدون إلى القول المستوي ^(٢) ، وفيه ما لا يخفى من الضعف .

﴿قِيلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ *
يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (١٠) و (١٤)

ثمّ أظهر سبحانه الغضب على منكري رسالة الرسول والقرآن بالدعاء عليهم بقوله : ﴿قِيلَ﴾ ولعن ﴿الْخَرَّاصُونَ﴾ والمعتمدون على الحسد والتخمين في دينهم ، والمتبعون فيه لهوى أنفسهم ، مع أنّ الدين لا بدّ فيه من اليقين والاعتماد على البراهين .

ثمّ لما كانت توصيفهم بالخرص غير صريح في الذمّ ، وصفهم بما فيه التصريح به بقوله : ﴿الَّذِينَ هُمْ﴾ كائنون ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ وشدة جهل وضلال و﴿سَاهُونَ﴾ وغافلون عمّا يراد بهم ، بل عن أنفسهم ، أو عمّا امروا به من قبل ربهم .

ثمّ حكى سبحانه ما يدلّ على شدة جهالتهم وبغضهم للحقّ بقوله : ﴿يَسْأَلُونَ﴾ أولئك المشركون عنك استهزاء بقولك : (إنّ الدين لواقع) ويقولون : يا محمد ﴿أَيَّانَ﴾ ومتى يقع ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ ووقت

(١) تفسير الرازي ٢٨ : ١٩٧ .

(٢) تفسير الرازي ٢٨ : ١٩٨ .

جزاء الأعمال وابتلائنا بالعذاب.

ثم لما كان غرضهم من السؤال الاستهزاء ، هدّدهم بما يشبه الجواب وليس بجواب بقوله : ﴿يَوْمَ هُمْ فِيهِ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ ويعذبون بها ، كما يفتن الذهب بالنار ويحرق خبثه. قيل : يعني يعرضون على النار كعرض المحرّب للذهب المذهب عليها ^(١) ، كأهم يجربون عليها ، وتقول لهم خزنة جهنم حين تعذيبهم : ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المنكرون للحشر ﴿فَنَتَكُمُ﴾ وعذابكم ، أو ما به امتحانكم وابتلاؤكم في الدنيا من العقائد والأعمال ﴿هَذَا﴾ العذاب ﴿الَّذِي﴾ يتذوقونه الآن ما ﴿كُنْتُمْ بِهِ﴾ في الدنيا ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ استهزاء بالرسول وإخبارنا به في كتابنا ، وسخرية منه حيث كنتم تقولون : متى هذا الوعد ، أو آيات يوم الدين.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (١٥) و (١٨)

ثم إنّه تعالى بعد بيان سوء عاقبة المشركين وشدة عذابهم في الآخرة ، بيّن حسن عاقبة المتّقين والمجتنبين عن الشرك والكفر والعصيان في الدنيا ، المحتريزين من عذاب الله في الآخرة بقوله : ﴿إِنَّ﴾ المؤمنين ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك والعصيان في الدنيا ، متمكّنون في الآخرة ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ وبساتين ذات قصور وبهاء وبهجة لا يمكن توصيفها ﴿وَو﴾ في ظلال ﴿عُيُونٍ﴾ غريزة ، وأنهار جارية في أطرافهم بحيث يرونها ويفرحون بالنظر إليها حال كونهم ﴿آخِذِينَ﴾ وقابلين ﴿مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ بفضل من التّع من الجسم ، وراضين به لغاية جودته وكماله.

قيل : في قوله : ﴿مَا آتَاهُمْ﴾ بصيغة الماضي ، دلالة على أنّ الإعطاء والتعليك كان في الدنيا ، والقبول والأخذ كان منهم في الآخرة ^(٢) .

ثم بيّن الله سبحانه علّة الإنعام على المتّقين بتلك التّع العظيمة الجسمية بقوله : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ في العالم الذي كان ﴿قَبْلَ ذَلِكَ﴾ العالم ، وهو عالم الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ في عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم ، فأعطوا بذلك أحسن الجزاء ، وكان من حسناتهم أنهم ﴿كَانُوا﴾ في الدنيا مقدارا وزمانا ﴿قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ ووقت نوم جميع الناس ﴿مَا يَهْجَعُونَ﴾ وينامون ، وزمانا كثيرا منه يذكرون الله ، ويصلّون ويعبدون.

(١) تفسير الرازي ٢٨ : ١٩٩ .

(٢) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٠١ .

قيل : إن كلمة (ما) في (ما يهجعون) زائدة مؤكدة للقلّة ^(١) . وقيل : إنها مصدرية ، والمعنى قليلا من الليل هجوعهم ونومهم ^(٢) .

قيل : نزلت في شأن الأنصارين حيث كانوا يصلّون في مسجد النبي ﷺ ، ثم يمضون إلى قبا ، وبينهما ميلان ^(٣) . وقيل : إنهم كانوا لا ينامون حتى يصلّون العشاء الآخرة ^(٤) .
وروى بعض العامة عن الصادق عليه السلام ، أنه قال : « من يهجع ما بين المغرب والعشاء حتى يشهد العشاء فهو منهم » ^(٥) .

وفي (الكافي) عنه عليه السلام : « كانوا أقلّ الليالي تفوّتهم لا يقومون فيها » ^(٦) .
وعن الباقر عليه السلام : « كان القوم ينامون ، ولكن كلّما انقلب أحدهم قال : الحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » ^(٧) .

﴿وَبِالْأَسْحَارِ﴾ والثّلث الآخر من الليالي ﴿هُمْ﴾ على الدوام ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ رَحْمَ لَدُنُوهُمْ . وقيل : يعني بالأسحار يصلّون طلبا لمغفرة ذنوبهم ^(٨) .

في فضيلة الاستغفار في الأسحار

روي أنّ الله تعالى قال : « إِنَّ أَحَبَّ أَحْبَائِي إِلَيَّ هُم الَّذِينَ يَسْتَغْفِرُونَ بِالْأَسْحَارِ أُولَئِكَ الَّذِينَ إِذَا أُرِدْتُ بِأَهْلِ الْأَرْضِ شَيْئًا ذَكَرْتَهُمْ فَصُرَفَتْ بِهِمْ عَنْهُمْ » ^(٩) .
قيل : يا رسول الله ، كيف الاستغفار ؟ قال ﷺ : « قولوا : اللهم اغفر لنا ، وأرحمنا ، وتب علينا ، إنّك أنت التواب الرحيم » ^(١٠) .

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي

أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (١٩) وَ (٢١)﴾

ثم إنّ تعالى بعد مدح المتّقين بعبادة ربّهم وتعظيمه ، وشفقتهم على أنفسهم بطلب مغفرة ذنوبهم ، مدحهم بشفقتهم على الخلق وإحسانهم إلى العباد بقوله : ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ﴾ التي أعطاهم الله إياها ، وخصّهم الله بها ﴿حَقٌّ﴾ عظيم ونصيب وافر يوجبونه على أنفسهم ﴿لِّلسَّائِلِ﴾ والفقير الذي يستعطيهم ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ الذي لا يستعطيهم ، بل يتعفّف عن السؤال والطلب ، بحيث يحسبه الناس غنيا فيحرم الصدقات.

(١) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٠١ ، تفسير روح البيان ٩ : ١٥٣ .

(٢) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٠٢ ، تفسير أبي السعود ٨ : ١٣٨ .

(٣ - ٥) تفسير روح البيان ٩ : ١٥٣ .

(٦) الكافي ٣ : ٤٤٦ / ١٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٦٩ .

(٧) التهذيب ٢ : ٣٣٥ / ١٣٨٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٦٩ .

(٨) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٠٥ ، تفسير روح البيان ٩ : ١٥٥ .

(٩) تفسير روح البيان ٩ : ١٥٤ .

(١٠) تفسير روح البيان ٩ : ١٥٤ .

عن الصادق عليه السلام ، قال : « المحروم المحارف ^(١) الذي حرم كدّ يده من الشراء والبيع » ^(٢) .
وعن الباقر عليه السلام : « المحروم الذي ليس بعقله بأس ، ولا يبسط له الرزق ، وهو محارف » ^(٣) .
ثم إنّه تعالى بعد بيان عبادة المتقين وحسن أعمالهم وحسن جزائهم ، بيّن استحقاقه للعبادة والجهد في الطاعة وطلب مرضاته بقوله : ﴿ **وَفِي الْأَرْضِ** ﴾ سهّلها وجبلها ، وبرّها وبحرها ، وعيونها وأنهارها ، ومسالكها وفجاجها ، ونباتها وأشجارها ، وأثمارها ومعادنها ، وما رتب فيها ودبر لمنافعها لسكّانها ﴿ **آيَاتٌ** ﴾ عظيمة ، ودلائل واضحة على وجود صانعها ووحدانيته ، وقدرته وعلمه وحكمته ، وإرادته ورحمته ، وإنّما يكون الانتفاع بتلك الآيات ﴿ **لِلْمُوقِنِينَ** ﴾ بتوحيد الله ، فإنّهم لا يغفلون عنه في حال ، ويرون له في كلّ شيء آية ﴿ **وَفِي أَنْفُسِكُمْ** ﴾ خصوصا آيات ودلائل على أن لها صانعا مستجمعا لجميع الكمالات ، حيث إنّ انطوى في كلّ فرد منكم نظير كلّ موجود يكون في العالم ، مع ماله من الأفعال البديعة والصنائع المختلفة العجيبة ، والعلوم الشريفة ، والمعارف العالية ، والكمالات النفسانية الانسانية ، أنتم عمون ﴿ **أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾ تلك الآيات بعين البصيرة حتى تعتبروا وتستدلّوا بالصنعة على الصانع وبالنقش على النقّاش وكماله .

في فضيلة علي عليه السلام

روى بعض العامة : أنّ عليا عليه السلام صعد يوما على المنبر فقال : « سلوني عمّا دون العرش ، فإنّ ما بين جوانحي علم جمّ ، هذا لعاب رسول الله ﷺ في فمي ، هذا ما رزقني الله من رسول الله ﷺ رزقا » وفي رواية : « هذا ما رزقني رسول الله زقا ، فو الذي نفسي بيده ، لو اذن الله للتوراة والانجيل أن يتكلّما ، فأخبرت بما فيهما لصدّقاني » .

وكان في المجلس رجل يمني ، فقال : ادّعى هذا الرجل دعوى عريضة لأفضحتّه . فقام وقال : يا علي ، أسأل ؟ قال « سلّ تفقّها ولا تسأل تعنّتا » .

فقال : أنت حملتني على ذلك ، هل رأيت ربّك يا علي ؟ قال : « ما كنت أعبد ربا لم أره » . فقال : كيف رأيت ؟ فقال : « لم تره العيون بمشاهدة العيان ، ولكن رأيت القلوب بحقيقة الإيمان ، ربّي واحد لا شريك له ، أحد لا ثاني له ، فرد لا مثل له ، لا يحويه مكان ، ولا يداوله زمان ، ولا يدرك بالحواسّ ، ولا يقاس بالقياس » فسقط اليماني مغشيا عليه ، فلمّا أفاق ، قال : عاهدت الله أن لا أسأل تعنّتا ^(٤) .

﴿ **وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا** ﴾

(١) المحارف : المحروم يطلب فلا يرزق .

(٢) الكافي ٣ : ٥٠٠ / ١٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٧٠ .

(٣) الكافي ٣ : ٥٠٠ / ١٢ ، وتفسير الصافي ٥ : ٧٠ ، عن الباقر والصادق عليه السلام .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ١٥٩ .

أَنْتُمْ تَنْطُقُونَ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ
فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ *
فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ
بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ *
قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا
الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ
طِينٍ * مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٢٣) و (٣٤) ﴿﴾

ثم لما مدح الله سبحانه المتقين بأن في أموالهم حقا معلوما ، حث الناس على إنفاق أموالهم بقوله
تعالى : ﴿وَفِي السَّمَاءِ﴾ مكتوب ومقدر ﴿رِزْقُكُمْ﴾ وما يلزم لمعيشكم ، ولو لا التقدير لما حصل لكم في
الأرض حبة قوت ، ولو بذلتم في تحصيله غاية الجهد. وقيل : يعني أسباب رزقكم ^(١) من المطر وغيره
﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من خير وشرّ ورخاء وثواب وعقاب.

وعن المجتبى عليه أنه سئل عن أرزاق الخلائق ، فقال : « في السماء الرابعة ، تنزل بقدر وتبسط
بقدر » ^(٢) .

﴿فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي يربّيهما ويرّي ما فيهما بإيصال ما يوجب بقاءها وكمالها ﴿إِنَّهُ
لَحَقُّ﴾ وصدق.

قيل : الضمير راجع إلى (يوم الدين) حيث قالوا : (إيان يوم الدين) ^(٣) .
وقيل : إنه راجع إلى القرآن حيث قال سبحانه : ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ ومعنى المقسم عليه أنه
حق يكلم به الملك من قبل الله ، وينطق ^(٤) به ﴿مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطُقُونَ﴾ وتكلمون ^(٥) . وقيل : إنه راجع
إلى ما يوعدون من الجنة ^(٦) . والمعنى كما أنكم تتكلمون ولا تشكّون في كلامكم.
وقيل : إنه راجع إلى ما أخبر به من كون الأرزاق في السماء ^(٧) ، وهو الأظهر.
في الحديث : « أبي ابن آدم أن يصدّق ربّه حتى أقسم له فقال : ﴿فَوَرَبُّ السَّمَاءِ﴾ » الآية ^(٨) .
وروي أنّ رسول الله ﷺ قال : « قاتل الله أقواما أقسم الله لهم بنفسه فلم يصدّقوه » انتهى ^(٩) .

(١) تفسير روح البيان ٩ : ١٥٩ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٢٧١ ، تفسير الصافي ٥ : ٧١ .

(٣) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٠٩ .

(٤) في النسخة : ونطق.

(٥ و ٦) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٠٩ .

(٧) تفسير روح البيان ٩ : ١٥٩ .

(٨) تفسير روح البيان ٩ : ١٥٩ .

(٩) تفسير روح البيان ٩ : ١٥٩ .

قيل : لو أنّ يهوديا وعد لانسان رزقه ، وأقسم به عليه ، لاعتمد بوعدده وقسمه ، فقاتله الله كيف لا يعتمد على وعد الله وقسمه برزقه ؟ ! ^(١)
 حكي أنّ هرم بن سنان قال لاويس القرني : أين تأمري أن أكون ؟ فأوما إلى الشام ، فقال هرم : كيف المعيشة بما ؟ قال اويس : أفّ لهذه القلوب التي قد خالطها الشك ، فما تنفعها العظة ^(٢) .

قصة ضيف إبراهيم وشارتهم باسحاق

ثمّ شرع سبحانه في تهديد الكفار بما نزل على الامم السابقة المهلكة ، بكفرهم وطغيانهم من العذاب بقوله : ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ يا محمد وسمعت من أحد ﴿حَدِيثُ ضَيْفٍ﴾ جدك ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الذين كانوا عند الله من ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ ومعظمين بالعصمة والاصطفاء والقرب ، حيث كانوا من الملائكة الذين وصفهم الله بأنهم عباد مكرمون.

وقيل : يعني كانوا مكرمين عند إبراهيم عليه السلام حيث خدمهم بنفسه بحسبان أنهم ضيف ^(٣) . قيل : لم يكذب الله في حسبانهم إكراما له ^(٤) .

﴿إِذْ دَخَلُوا﴾ وحين وردوا ﴿عَلَيْهِ فَقَالُوا﴾ بعد دخولهم تأدبا وتحية له : نسلم عليك ﴿سَلَامًا﴾ فردّ إبراهيم تحيتهم و﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ عليكم. قيل : إنّه عليه السلام لما ردّ عليهم قال في نفسه : هؤلاء ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ غير معروفين في هذا البلد ، حيث كان أهله كفارا ، ولم تكن تحيتهم السلام ^(٥).

وقيل : إنّه عليه السلام قال لهم : أنتم قوم منكرون ، لم أر مثلكم في حسن الصورة والقامة ، فعرفوني أنفسكم. قالوا : نحن أضيافك ^(٦) .

﴿فَرَأَى﴾ وذهب ﴿إِلَى أَهْلِهِ﴾ وزوجته سارة خفية من أضيافه ، لئلا يمنعوه من إتيان الطعام وتحمل الكلفة ﴿فَجَاءَ﴾ إليهم ﴿بِعِجْلٍ﴾ وولد بقر ﴿سَمِينٍ﴾ كثير اللحم مشوي ؛ لأنّه كان عامة ماله البقر ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ ووضع بين أيديهم ليأكلوا منه ، فلم يمدّوا أيديهم إليه ، ولم يأكلوا منه ﴿قَالَ﴾ إبراهيم حتّا لهم على الأكل : ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ من اللحم المشوي ؟

روي أنهم قالوا : لا نأكل منه بغير ثمن. قال إبراهيم : كلوا وأعطوا ثمنه. قالوا : وما ثمنه ؟ قال إبراهيم : إذا أكلتم فقولوا : بسم الله ، وإذا فرغتم فقولوا : الحمد لله ، فتعجبوا من قوله ، ثمّ أنهم مع ذلك لم يأكلوا منه ﴿فَأَوْحَسَ﴾ وأضمر في نفسه ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لتوهمه أنهم اعدّوه جاءوا بالشرّ ، لكون العادة أنّ من يجيء بالشرّ ما كان يأكل من طعام من يريد إضراره ^(٧) . وقيل : وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا

(١) تفسير روح البيان ٩ : ١٦٠ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ١٦٠ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ١٦١ .

(٤) تفسير الرازي ٢٨ : ٢١٠ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ١٦٢ .

(٦) تفسير روح البيان ٩ : ١٦٢ . (٧) تفسير روح البيان ٩ : ١٦٢ .

للعذاب ^(١) ، فلما أحسوا بخوفه ﴿قَالُوا﴾ يا إبراهيم ﴿لَا تَخَفْ﴾ من شرنا وضرنا ، إنا رسل ربك . قيل : مسح جبرئيل العجل بجناحه فقام يمشى حتى لحق بأمه ، فعرفهم وأمن منهم ^(٢) .

﴿وَبَشَّرُوهُ﴾ تطيبا لقلبه ﴿بِغُلَامٍ﴾ وولد ذكر ﴿عَلِيمٍ﴾ من سارة عقيمة لم تلد له ﴿فَأَقْبَلَتْ﴾ امرأته سارة على أهلها لما سمعت البشارة ، وهي ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ وصيحة تقول : يا ويلتا . وعن الصادق عليه السلام :

« في جماعة ^(٣) من نساها » ﴿فَصَكَّتْ﴾ ولطمت ﴿وَجْهَهَا﴾ تعجبا من قولهم ، كما هو عادة النساء إذا أنكرن وتعجبن من شيء ﴿وَقَالَتْ﴾ استبعادا لما بشرت به بحكم العادة : كيف ألد الآن وأنا ﴿عَجُوزٌ﴾ قد بلغت من العمر تسعا وتسعين سنة ، على ما قيل ^(٤) : ﴿عَقِيمٌ﴾ لم ألد مدة عمري قط ؟ فأجابها الملائكة و ﴿قَالُوا﴾ لها ردعا لها عن الاستبعاد والتعجب : ما قلنا ذلك من قبل أنفسنا ، بل ﴿كَذَلِكَ﴾ الذي بشرناك ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ الذي خلقك بقدرته ، وبلغك برحمته إلى المرتبة العالية من الكمالات الجسمانية والروحانية ، ونحن أخبرناك بما قال ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ﴾ في فعالة ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال عبادته ، فلا محالة يكون حقا ، وفعله محكما ، فليس لك أن تقولي : لم يعطيني الولد في شبابي ، وبشّرني به في زمان كبري وعجزي .

روي أنّ جبرئيل قال لها : انظري إلى سقف بيتك ، فنظرت فإذا جذوعة مورقة ومثمرة ، فأيقنت ^(٥) .

قيل : لما عرف إبراهيم الرسل وأنس بهم ، استعجلوا في الخروج من عنده ﴿قَالَ﴾ لهم : ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ وأي الأمر العظيم عجل بكم بعد هذا الانس ^(٦) ﴿أَنْتُمْ﴾ الملائكة ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ لبشارتي؟ ﴿قَالُوا﴾ ما أرسلنا لبشارتك فقط ، بل ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا﴾ من جانب ربك ﴿إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ ومصرّين على الكفر والطغيان ، وهم قوم لوط ﴿لِنُرْسِلَ﴾ ونمطر ﴿عَلَيْهِمْ﴾ من السماء ﴿حِجَارَةً﴾ مخلوقة ﴿مِنْ طِينٍ﴾ متحجرة مطبوخة بنار جهنم ، على ما قيل ^(٧) ، فلا يتوهم أنّها من برد ، كما قيل ^(٨) إنّ الحجارة قد تطلق عليه ، وتلك الحجارة تكون ﴿مُسَوَّمَةً﴾ ومعلّمة كلّ واحدة منها باسم من يقتل بها ، أو المراد مخلوقة لتعذيبهم ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وبقدرته ، لا للانتفاع بها كسائر الأحجار ، أو مرسلّة في علم الله ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ ولإهلاك المجاوزين عن الحدّ في الفجور .

(١) تفسير أبي السعود ٨ : ١٤٠ ، تفسير روح البيان ٩ : ١٦٢ .

(٢) تفسير أبي السعود ٨ : ١٤٠ ، تفسير روح البيان ٩ : ١٦٢ .

(٣) مجمع البيان ٩ : ٢٣٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٧١ ، تفسير القمي ٢ : ٣٣٠ ، لم ينسبه إلى أحد .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ١٦٣ .

(٥) تفسير أبي السعود ٨ : ١٤٠ ، تفسير روح البيان ٩ : ١٦٣ .

(٦) تفسير الرازي ٢٨ : ٢١٦ .

(٧) تفسير روح البيان ٩ : ١٦٤ .

(٨) تفسير الرازي ٢٨ : ٢١٧ ، تفسير روح البيان ٩ : ١٦٤ .

عن ابن عباس : أي للمشركين ، فإنَّ الشُّركَ أسرف الذنوب وأعظمها ^(١) .

﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * فَآخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ * وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَلَدُّ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْمِ * وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٥) و (٤٦)﴾

ثم أخبر الله سبحانه بلطفه بلوط بقوله : ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ قبل نزول العذاب على القرى الخمسة ، أو السبعة ﴿مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن قلنا للوط : ﴿فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ ^(٢) .

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا﴾ أهلا للنجاة من العذاب ﴿غَيْرَ﴾ أهل ﴿بَيْتٍ﴾ واحد ﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهم لوط وأهله ، كما عن النبي ﷺ ^(٣) ، قيل : أهله بنتاه ^(٤) ، وقيل : كانوا ثلاثة عشر سوى امرأته الكافرة ^(٥) ، ﴿وَتَرَكْنَا﴾ بتعذيب أهل القرى ﴿فِيهَا آيَةً﴾ عظيمة ودلالة واضحة على التوحيد وبطلان الشرك ، وهي تلك الحجارة المسومة ، أو ماء أسود منتن خرج من أرضهم ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ فآثم يرون آثار العذاب آية ، ويعتبرون بها ، لسلامة فطرتهم ، وتنور قلوبهم ، وقوة بصيرتهم دون من عداهم.

﴿وَفِي﴾ حديث ﴿مُوسَى﴾ بن عمران ؑ أيضا آية وعبرة - وقيل : إنه عطف على قوله : ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ ^(٦) - ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ﴾ من جانب الطور الأيمن ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ ملك مصر مستدلا على رسالته ﴿بِسُلْطَانٍ﴾ ومعجز باهر ﴿مُبِينٍ﴾ كالعصا واليد والبيضاء وغيرهما ﴿فَتَوَلَّى﴾ فرعون ، وأعرض عن دعوة موسى ؑ ﴿بِرُكْبِهِ﴾ وجانبه ، ولم يقبل دعوته ، ولم يعتن به. وقيل : يعني وتقوى على معارضة موسى بقومه وجنده ^(٧) ، أو تصدّى لدفع ^(٨) موسى بقوة نفسه حيث قال : ذروني أقتل

(١) تفسير روح البيان ٩ : ١٦٤ .

(٢) هود : ١١ / ٨١ .

(٣) علل الشرائع : ٥٥٠ / ٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٧٢ .

(٤) مجمع البيان ٩ : ٢٣٨ ، تفسير روح البيان ٩ : ١٦٤ .

(٥) تفسير أبي السعود ٨ : ١٤١ ، تفسير روح البيان ٩ : ١٦٥ .

(٦) تفسير روح البيان ٩ : ١٦٥ .

(٧) تفسير روح البيان ٩ : ١٦٦ .

(٨) في النسخة : دفع .

موسى ومن معه ﴿قَالَ﴾ لقومه في حق موسى ﷺ : إنه ﴿سَاحِرٌ﴾ يفعل ما يفعل من خوارق العادات بالسحر والشَّعْبِذَةِ ، ﴿أَوْ﴾ هو ﴿مَجْنُونٌ﴾ فاقد العقل حيث يقول قولاً لا يقبله ^(١) منه عاقل ، مع أن فيه هلاك نفسه وقومه.

قيل : إنَّ السَّاحِرَ والمجنون كلاهما يستعينا بالجنِّ ، والفرق أنَّ السَّاحِرَ يأتي الجنَّ باختياره ، والمجنون يأتيه الجنُّ بغير اختياره ، وغرضه من التردد صيانة كلامه من الكذب ^(٢) .

وقيل : إنَّه لغاية جهله طعن على موسى ﷺ بالمتضادين ، حيث إنَّ السحر مستلزم للعقل وجودة الذهن وكمال الحذاقة والجنون هو زوال العقل وعدم الفهم والدراك ، وهما ضدَّان ^(٣) .

وقيل : إنَّ كلمة (أو) بمعنى الواو ؛ لأنَّه نسبته إليهما جميعاً ^(٤) ، وعلى أي تقدير عصى فرعون وطغى ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ بذنبهم ، كما يأخذ أحدكم الحصيات الصغار بكفِّه ﴿فَبَدَّلْنَاهُمْ﴾ وطرحناهم ﴿فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ومستحق للملامة عند العقلاء وعند نفسه بما ارتكب من معارضة موسى ﷺ وطغيانه بالكفر والعصيان.

﴿وَفِي﴾ قصَّة قوم ﴿عَادٍ﴾ الذين عارضوا هود آيات وعبر للناس إلى يوم القيامة ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ عقوبة على كفرهم وطغيانهم ومعارضة رسولهم هود ﴿الرَّيْحَ الْعَقِيمَ﴾ والصَّرعُ العاتية التي لم تلد خيراً من إنشاء مطر أو تلقيح شجر ، وكيف يتوقَّع منها الخير ؟ وقيل : وصفت بالعقيم لأنَّها قطعت دابرهم ^(٥) ، فشَبَّهت بالنساء العقيمات اللاتي لا يلدن ، لأنَّها كانت سبب قطع الأرحام من الولادة بإهلاكهم ، والحال أنَّها ﴿مَا تَذَرُ﴾ وما تترك ﴿مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ﴾ وجرَّت ﴿عَلَيْهِ﴾ من انفسهم وأموالهم وأبنيتهم ومواشيهم ﴿إِلَّا جَعَلْنَاهُ﴾ وصيرته لشدَّتها ﴿كَالزَّمِيمِ﴾ ومثل الحشيش اليابس المتفتت.

عن أمير المؤمنين ﷺ : « الرياح خمسة : الريح العقيم ، فتعوذوا بالله من شرِّها » ^(٦) .

وعن الباقر ﷺ : « أنَّ لله جنوداً من الريح ، يعذب بها من عصاه » ^(٧) .

﴿وَفِي﴾ حديث قوم ﴿ثَمُودَ﴾ وهم قوم صالح آيات أو آية ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ والقائل صالح بعد عقرهم ناقة الله : ﴿تَمَتَّعُوا﴾ وانتفعوا أيَّها القوم بالحياة ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وإلى وقت نزول العذاب ، وهو آخر ثلاثة أيام ، أو إلى انقضاء آجالكم المقدَّرة ، فإن أحسستم حصل لكم التمتع في الدارين ، وإلَّا فما لكم في الآخرة من نصيب ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ وطغوا على خالقهم ونبيِّهم ، ولم يعتنوا بإنذاره ،

(١) في النسخة : لا يقبل.

(٢) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٢١.

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ١٦٦.

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ١٦٧.

(٥) من لا يحضره الفقيه ١ : ٣٤٥ / ١٥٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٧٣.

(٦) الكافي ٨ : ٩١ / ٦٣ ، من لا يحضره الفقيه ١ : ٣٤٤ / ١٥٢٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٧٣.

حيث قال لهم صالح : تصبح غدا وجوهكم مصفرة ، وبعد غد محمرة ، وفي اليوم الثالث مسودة ، ثم يصبحكم العذاب .

قيل : لما رأوا وجوههم كما قال صالح ، عمدوا إلى قتله ، فنجاه الله إلى ارض فلسطين ، ولما كان اليوم الرابع تحنطوا وتكفّنوا ^(١) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ والنار النازلة من السماء ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إليها حين نزولها .

وقيل : إنّ المراد بالصاعقة صيحة جبرئيل مجازا ، ويحتمل أنّه كانت الصاعقة مع الصيحة ، فإنّ الصيحة لا ينظر إليها ، بل تسمع بالاذن ^(٢) .

وقيل : هو من الانتظار ، والمعنى : هم ينتظرون ما أوعدوا به من العذاب ، حيث شاهدوا علامات نزوله ^(٣) .

وقيل : إنّ معنى ينظرون يتحيّرون ^(٤) ، فاهلكوا جميعا ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ شيئا قليلا ﴿مِنْ قِيَامٍ﴾ وما قدروا عليه ، فضلا عن الهرب ، أو المراد ما قدروا على قليل من المقاومة والثبات له ﴿وَمَا كَانُوا﴾ حينئذ ﴿مُنْتَصِرِينَ﴾ بغيرهم في دفع العذاب ، أو ما كانوا مدافعين عن أنفسهم ، أو ممّن له شائبة الدفاع .
﴿و﴾ أهلكنا ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾ بالغرق ، أو اذكرهم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفي عصر سابق على أعصار هؤلاء المهلكين ، ثم ذكر سبحانه سبب إهلاكهم بقوله : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ حال حياتهم ﴿قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وخارجين عن طاعة الله ورسوله ، وفي ذكر القضايا الخمسة تسلية للنبي ﷺ ، كيلا لا يشقّ عليه كفر وعنادهم ، فإنّ البلية إذا عمّت طابت .

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ *

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ

نَذِيرٌ مُبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٧) و (٥١) ﴿﴾

ثمّ إنّ تعالى بعد إثبات الحشر وتهديد منكبيه ، شرع في إثبات التوحيد بالموجودات بقوله :
﴿وَالسَّمَاءَ﴾ المرفوعة التي ترونها لهذا العام والدار الدنيا سقفا محفوظا ، لا شكّ في أنّه ما بنتها الكواكب التي فيها ، ولا الأصنام التي تنحتونها ، بل نحن ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ ورفعناها ﴿بِأَيْدٍ﴾ وقوة وقدرة لنا

(١) تفسير أبي السعود ٨ : ١٤٢ ، تفسير روح البيان ٩ : ١٦٩ .

(٢-٤) تفسير روح البيان ٩ : ١٦٩ .

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ها بحيث تحيط بجميع كرات العناصر ، بل كلّها بالنسبة إليها كحلقة في فلاة ، أو لموسعون الرزق على الخلق منها ، أو المراد لقادرون على خلق أمثالها ﴿وَالْأَرْضَ﴾ البسيطة التي تسكنونها ، نحن ﴿فَرَشْنَاهَا﴾ وبسطناها تحتكم ، لتستقروا عليها ، ومهدناها لكم كالفرش ، تنامون وتتقلبون عليها ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ نحن ، أو ماهدها.

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء ، وجنس من الاجناس ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ونوعين ، أو صنفين ، كالجوهر والعرض ، والمجرد والمادي ، والجماد والنامي ، والمدرك والنبات ، والناطق والصامت ، والذكر والانثى ، إلى غير ذلك ، وإنما فعلنا جميع ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ أيها الناس ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وتنتبهون أن ربكم قادر على كلّ شيء ، وفرد لا زوج له ، وأنه خلق للدنيا زوجا ، وهو الآخرة ، وأنه مستحق للعبادة ، ومتفرد في الالهية ، فقل يا محمد إذا ظهر لكم أنّ الامر كذلك : ﴿فَقِرُّوا﴾ وأهربوا من العذاب ، ومن كلّ ما تخافون منه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ القادر المنعم عليكم وحده ، واسرعوا في الايمان بتوحيده والتسليم لأحكامه ، وبادروا إلى عبادته ، كي تنجوا من عقابه ، وتفوزوا بثوابه ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ يا عباد الله ﴿مِنْهُ نَذِيرٌ﴾ ومخوف من عذابه على الشرك ﴿مُبينٌ﴾ وظاهر رسالتي عنه ببرهان قاطع ومعجز باهر ، لا عذر لكم في تكديبي وعدم اتباع قولي.

ثم أكد الأمر بالتوحيد بالنهي عن الشرك بقوله : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا﴾ بهوى أنفسكم ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد في الالهية والربوبية والمعبودية ﴿إِلَهًا﴾ ومعبودا ﴿آخَرَ﴾ من مخلوقاته ، كالكواكب والأصنام وغيرهما ، ولا تدعوا معه غيره ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبينٌ﴾.

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾
﴿أَتَوَاصُوا بِهِ بَلِّغْهُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ فَيَقُولُ عَنْهُمْ ﴿مَا أَنْتَ بِمَلُومٌ﴾ وَذَكَرَ فَإِنَّ

الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٢) و (٥٥)

ثم لما كان النبي ﷺ كلما دعا قومه إلى التوحيد والايمان بالبعث بعد الموت ، قالوا إنه مجنون وكلما أتى بالمعجزات قالوا : إنه ساحر ، وكان يتأثر قلبه الشريف من ذلك ، سلاه سبحانه بالإخبار بأنّ سائر الأمم كان دأبهم ذلك بقوله : ﴿كَذَلِكَ﴾ أمر سائر الامم ، فأنه ﴿مَا أَتَى﴾ الامم ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من زمان نوح ﴿مِنْ رَسُولٍ﴾ مبعوث لهدايتهم ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ في حقه إذا أتاهم بمعجزة : إنه ﴿سَاحِرٌ أَوْ﴾ إذا دعاهم إلى التوحيد والمعاد : إنه ﴿مُجْنُونٌ﴾ فلا تحزن على ما قال قومك في حقك. والعجب من اتفاق جميع الامم على هذا القول الشنيع في حقّ رسلهم ﴿أَتَوَاصُوا بِهِ﴾ وتعاهد

بعضهم مع بعض أن يقولوا هذا القول ، لا ليس توافقتهم عليه لتوصيتهم بذلك ، لبعد زمانهم ، وعدم تلاقيهم في وقت ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مشركون في عداوة الله والإعراض عن الحق ، فاشتركوا في التفوّه بتلك الكلمة الشنيعة ﴿فَقَتُولَ﴾ يا محمد وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ فَإِنَّكَ قد بالغت في دعوتهم ، وأتعبت نفسك في نصحتهم ووعظهم ، وأتممت الحجة عليهم ﴿فَمَا أَنْتَ﴾ بعد ذلك ﴿بِمَلُومٍ﴾ في تركهم والإعراض عنهم ، فان كنت رحيما وعطوفا بهم ، ولا تريد أن تدعهم بالكلية ﴿وَذَكَّرَ﴾ وعظ الناس ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى﴾ والعظة وبيان العلوم والمعارف وامور الآخرة ﴿تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث إنّها تنور قلوبهم ، وتريد في إيمانهم ورغبتهم إلى الطاعة والعبادة.

عنهما ﷺ قالوا : « إِنَّ النَّاسَ لَمَّا كَذَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هَمَّ اللَّهُ بِإِهْلَاكِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا عَلِيًّا فَمَا سِوَاهُ بِقَوْلِهِ : ﴿فَقَتُولَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُ فَرَحَمَ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿وَذَكَّرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ » (١) .

وعن أمير المؤمنين ﷺ لما نزلت ﴿فَقَتُولَ عَنْهُمْ﴾ لم يبق أحد منا إلا أيقن بالهلكة ، فلما نزل ﴿وَذَكَّرَ﴾ ... الآية طابت أنفسنا » (٢) .

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾

ثمّ لما كان ازدياد المعرفة ورغبة المؤمنين في العبادة من منافع التذكير ، بيّن سبحانه أن معرفته وعبادته هو الغرض من الخلقة بقوله : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ﴾ أولا وهم أعمّ من الملك ﴿وَالْإِنْسَ﴾ بعدهم لغرض من الأغراض وحكمة من الحكم ﴿إِلَّا﴾ ليعرفون ربهم بالوجود والحكمة والقدرة وسائر الصفات الجمالية والجلالية و﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ خالقهم ، فيستكملوا بالعلم والعبادة ، ويستعدّوا للنيل بالفيوضات الأبدية ، ويستأهلوا للحياة الدائمة والنعم الباقية ، والكرامات الفائقة غير المتناهية.

عن الصادق ﷺ ، قال : « خرج الحسين بن علي ﷺ على أصحابه ، فقال : أيّها الناس ، إنّ الله ما خلق العباد إلا ليعرفوه ، فاذا عرفوه عبدوه ، وإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه » فقال رجل : يا بن رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، فما معرفة الله ؟ قال : « معرفة أهل كلّ زمان إمامهم الذي يجب عليهم طاعته » (٣) .

وعن الصادق ﷺ أنّه سئل عن هذه الآية فقال : « خلقهم ليأمرهم بالعبادة » قيل : قوله تعالى

: ﴿وَلَا

(١) الكافي ٨ : ١٠٣ / ٧٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٧٤ .

(٢) مجمع البيان ٩ : ٢٤٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٧٥ .

(٣) علل الشرائع ٩ : ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٧٥ .

يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ* إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ؟ ﴿١﴾ قال : « خلقهم ليفعلوا ما يستوجبون رحمته [فيرحمهم] » (١) .

تحقيق في الجمع بين الروايات

أقول : بعد ما بينا أنّ معرفة الله مستلزمة لعبادته ، وعبادته مستلزمة لاستحقاق رحمته ، والغرض من الخلق أن يستكملوا أنفسهم وتترقى من حضيض الحيوانية إلى كمال الانسانية حتى تستأهل للرحمة الدائمة والفيوضات الأبدية ، صحّ أن يقال : خلقهم الله لمعرفته ولعبادته ، ولما كان حصول العبادة متوقفاً على أمر الله ونهيه ، وتعليمه كيفية عبادته ، كتوقفه على معرفته ، صحّ أن يقال : خلقهم ليأمرهم بالعبادة ، للتنبيه على أنّ العبادة التي هي المقصودة من الخلق ، هي العبادة الاختيارية لا الجبرية والاضطارية ، فظهر ممّا ذكر صحة تعليل الخلق بكلّ من المعرفة والأمر بالعبادة ، والعبادة والرحمة ، ولما كان ظاهر الآية المباركة كون العبادة غاية الغايات ، بيّن سبحانه بقوله : ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ أنّ غاية الغايات نيلهم بالرحمة والنعم لا نفس العبادة ، ومن ذلك يصحّ إطلاق الناسخ على الآية الثانية ، كما ورد في حديث « أن الآية منسوخة بقوله : ﴿ وَلَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ » (٢) فلا تنافي بين الروايات.

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ

الْمَتِينِ * فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ *

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٥٧) و (٦٠) ﴿

ثمّ لما كانت الآية موهمة لحاجته تعالى إلى عبادة خلقه ، صرح سبحانه بأنّ الغرض استكمال الخلق لا استكمال نفسه بقوله : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ ﴾ شيئاً ﴿ مِنْ رِزْقٍ ﴾ ومال يكتسبون لي لأنظم به أمور معيشتي ، كما يريد الموالي من عبيدهم ذلك ﴿ وَمَا أُرِيدُ ﴾ منهم أقلّ من ذلك ، مثل ﴿ أَنْ ﴾ يطبخوا لي طعاماً ﴿ يُطْعَمُونَ ﴾ وحاصل مفاد الآية والله أعلم : إنّ لا أريد منهم مالا ارتزق به ، أو عملاً أقضي به حاجتي ﴿ إِنَّ اللَّهَ ﴾ الذي هو خالق كلّ شيء ﴿ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾ لعباده ، فكيف يريد منهم الرزق وهو ﴿ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ ﴾ والشديد على جميع خلقه ، فكيف يحتاج إلى عملهم له ؟

وإذا علم أنّ خلق الثقلين للعبادة ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ولم يعتنوا بالغرض الذي خلقوا له ، ووضعوا عبادتهم في غير موضعها ، بأن عبدوا غير الله ، ووضعوا مكان تصديق النبي ﷺ تكذيبه ، أو ضيعوا

(١) علل الشرائع : ١٣ / ١٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٧٥ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٣١ ، تفسير الصافي ٥ : ٧٥ ، والآية من سورة هود : ١١ / ١١٨ .

حقّ أنفسهم بتعريضها للعذاب الدائم ﴿ذُنُوبًا﴾ ونصيبا وافرا من العذاب ﴿مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ وأنصبا نظرائهم من الامم المهلكة ، أو المراد أنّ لهم تبعات من العذاب مثل تبعات أضراهم من الطّغاة الذين استأصلهم العذاب ﴿فَلَا يَسْتَفْجِلُونَ﴾ ولا يسألون سرعة مجيئه بقولهم : ﴿فَأَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾^(١) أو ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾^(٢) فانه نازل بهم في الوقت المعين عندنا.

ثمّ عظم سبحانه ذلك العذاب الموعود تهويلا لهم بقوله : ﴿فَوَيْلٌ﴾ أي ويل ﴿لِّلَّذِينَ﴾ استحقوا أشدّ العذاب ، لأنهم ﴿كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله ﴿مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ بعد خروجهم من الدنيا من يوم القيامة ، أو زمان الرجعة ، فوافق أوّل السورة آخرها ، حيث قال في أولها : ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ﴾^(٣) وفي آخرها : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾.

عن الصادق عليه السلام : « من قرأ سورة والذاريات في يومه أو ليلته ، أصلح الله له معيشته ، وآتاه برزق واسع ، ونور له في قبره بسراج يزهر إلى يوم القيامة »^(٤) .

(١) الأعراف : ٧ / ٧٠ .

(٢) الأنبياء : ٢١ / ٣٨ .

(٣) الذاريات : ٥١ / ٥ .

(٤) ثواب الأعمال : ١١٥ ، مجمع البيان ٩ : ٢٢٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٧٦ .

في تفسير سورة الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مُسْتُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّافِرِ

الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (١) وَ (٢)﴾

ثم لما ختمت سورة والذاريات المبتدئة بأربعة أيمان على أن وعد الله بالعذاب والحشر صادق ، وبيان كون يوم القيامة يوم يفتنون على النار ، المتضمنة بسوء عاقبة الكفار ، وحسن عاقبة المتقين ، المحتتمة بذكر الويل للكافرين ، اردفت بسورة الطور المبتدئة بخمسة أيمان على أن العذاب في القيامة واقع لا محالة ، وبيان كون القيامة فيه أهوال عظيمة ، وذكر الويل للمكذّبين بيوم الدين ، إلى غير ذلك من المطالب المناسبة للسورة السابقة ، فابتدأها بذكر الأسماء الحسنى بقوله تبارك وتعالى : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم لما كان العرب يتحزّزون عن الأيمان الكاذبة ، وأنّ الشخص العظيم لا يحلف إلا على الأمر العظيم الذي لا يرتدع ^(١) المنكر بالبرهان لنسبته إلى الجدل ، أكّد سبحانه البرهان على الحشر بالأيمان بقوله : ﴿وَالطُّورِ﴾ وهو على ما قيل : الجبل الذي كلّم الله عليه موسى بن عمران ، أو طور سينين ، أو مطلق الجبل ^(٢) . وعن ابن عباس : الطور كلّ جبل ينبت ^(٣) . ﴿وَكِتَابٍ﴾ كريم ﴿مُسْتُورٍ﴾ ومكتوب على وجه الانتظام . قيل : هو التوراة المكتوب في الألواح ^(٤) . وقيل : هو القرآن ^(٥) المكتوب ﴿فِي رَقٍّ﴾ وجلد رقيق ﴿مَّنْشُورٍ﴾ ومبسوط وقيل : هو اللوح المحفوظ ^(٦) . وقيل : هو صحائف الأعمال ^(٧) المبسوطة للناس يوم القيامة ، أو مفتوحة له لا ختم عليها ^(٨) .

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ الذي يكون تحت العرش ، أو في السماء السابعة ، أو الرابعة بحيال الكعبة ، وعمرانه بطواف الملائكة ، يطوف به كلّ يوم سبعون ألف ملك ، ويصلّون فيه ، ولا يعودون إليه أبداً ،

(١) كذا ، والظاهر لا يردع.

(٢) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٣٩ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ١٨٤ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ١٨٥ .

(٥) جوامع الجامع : ٤٦٦ .

(٦) تفسير روح البيان ٩ : ١٨٥ .

وحرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض.

عن الباقر عليه السلام : « أَنَّ اللَّهَ وَضَعَ تَحْتَ الْعَرْشِ أَرْبَعَ أَسَاطِينَ ، وَتَمَّاهُنَّ الصَّرَاحَ ، وَهُوَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ ، وَقَالَ لِلْمَلَائِكَةِ : طُوفُوا بِهِ ، ثُمَّ بَعَثَ مَلَائِكَةً ، وَقَالَ : ابْنُوا فِي الْأَرْضِ بَيْتًا بِمِثَالِهِ وَقَدْرِهِ ، وَأَمَرَ [مَنْ] فِي الْأَرْضِ أَنْ يَطُوفُوا بِالْبَيْتِ » ^(١) .

وعن النبي صلى الله عليه وآله في حديث المعراج : « أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ » ^(٢) . وعن القمي : أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ ^(٣) . وعن النبي صلى الله عليه وآله في رواية : « أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ » ^(٤) . وفي رواية أخرى عنه صلى الله عليه وآله : « أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا » ^(٥) .

وعنه صلى الله عليه وآله : « الْبَيْتُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ يُقَالُ لَهُ الصَّرَاحُ ، وَهُوَ بِنَاءُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، لَوْ سَقَطَ لَسَقَطَ عَلَيْهِ ، يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ أَلْفُ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ فِيهِ أَبَدًا » ^(٦) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « وَيَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ أَبَدًا » ^(٧) . وقيل : إِنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامِ ^(٨) .

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ عن الأرض ، وهو السماء ، أو العرش ، وفي إرداف السقف بالبيت ما لا يخفى من الحسن ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ والمملوء من الماء. قيل : هو البحر المحيط الذي هو مادة سائر البحار ^(٩).

وروى بعض العامة ، عن أمير المؤمنين عليه السلام : « هُوَ بَحْرٌ تَحْتَ الْعَرْشِ ، عَمَقُهُ كَمَا بَيْنَ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ ، فِيهِ مَاءٌ غَلِيظٌ ، يُقَالُ لَهُ بَحْرُ الْحَيَوَانِ ، وَهُوَ بَحْرٌ مَكْفُوفٌ ، يَمْطَرُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتَى مَاءٌ كَالْمَلْحِيِّ بَعْدَ التَّفْحَةِ الْأُولَى أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ، فَيَنْبَتُونَ فِي قُبُورِهِمْ » ^(١٠) .

وقيل : هو بحر في السماء الدنيا ، لولاه لأحرقت الشمس الدنيا ^(١١) . وقيل : المسجور بمعنى الموقد ، لما روي أن الله تعالى يجعل البحار يوم القيامة نارا ، يسجّر بها نار جهنم ^(١٢) .

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ

(١) مجمع البيان ١ : ٣٨٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٧٧ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٧٧ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣٣١ ، تفسير الصافي ٥ : ٧٧ .

(٤) الجامع للقرطبي ١٧ : ٥٩ ، مجمع البيان ٩ : ٢٤٧ .

(٥) مجمع البيان ٩ : ٢٤٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٧٧ .

(٦) مجمع البيان ٩ : ٢٤٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٧٧ ، عن أمير المؤمنين عليه السلام .

(٧) مجمع البيان ٩ : ٢٤٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٧٧ .

(٨) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٣٩ .

(٩) تفسير روح البيان ٩ : ١٨٦ .

(١٠) تفسير روح البيان ٩ : ١٨٦ .

(١١) تفسير روح البيان ٩ : ١٨٦ .

(١٢) تفسير الصافي ٥ : ٧٨ ، تفسير روح البيان ٩ : ١٨٦ .

الْجِبَالُ سِيرًا * فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ

يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا (٧) و (١٣) ﴿

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه بقوله : ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ونازل لا محالة ، وفي لفظ (رَبِّكَ) تأمين للرسول منه .

قيل : إِنَّ الحلف بالطَّور والبيت المعمور الذي هو ملاذ الملائكة ، وبالسَّماء والبحر ، مع أن وجود كلِّ منها وبقائه بقدره الله ، مشعر بأن لا مهرب من ذلك العذاب ^(١) ، كما صرح به سبحانه بقوله : ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ حيث إنَّ التحصن منه إما بالذهاب إلى شاطئ الجبل ، أو بالتحصين في البيت ، أو بالصعود إلى السماء ، أو بالغوص في البحر ، ومن المعلوم أنَّ كلَّها تحت قدرة الله وإحاطته ، حيث وصف زمان وقوع ذلك العذاب بقوله : ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ﴾ وتضطرب ، وتجيء وتذهب ﴿مُورًا﴾ واضطرابا شديدا عجيبا . قيل : تدور السماء كما تدور الرِّحى ، وتكفأ بأهلها تكفؤ السفينة ^(٢) ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ﴾ كالريح كما عن القمي ^(٣) ، أو كالسحاب كما عن بعض العامة ^(٤) ﴿سِيرًا﴾ سريعا ، ثم تصير كالعن ، وذلك لانقضاء الدنيا ، وعدم انتفاع بني آدم بها ، وعدم عودهم إليها ، فاذا كان الأمر كذلك ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بتوحيد الله ورسله .

ثم ذمهم سبحانه بقوله : ﴿الَّذِينَ هُمْ﴾ مستقرون ﴿فِي خَوْضٍ﴾ واندفاع عجيب عظيم ، وانغماس في الأباطيل والأكاذيب ، كما يغاص في الماء و﴿يَلْعَبُونَ﴾ ويلهون بالدنيا ويتشاغلون بما يصرفهم عما فيه خيرهم وسعادتهم الأبدية ، ثم وصف سبحانه ذلك اليوم الذي فيه الويل للمكذبين بقوله : ﴿يَوْمَ﴾ كأنه قال ذلك اليوم يكون يوم ﴿يُدْعَوْنَ﴾ ويدفع المكذبون بالعنف والشدة ﴿إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ ودفعوا شديدا حتى يصلون فيها على وجوههم وأقفيتهم . وقيل : إنَّ اليوم بدل عن قوله : ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾ أو ظرف للقول المقدّر فيما بعد ^(٥) .

﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا

فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّ

الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ

(١) مجمع البيان ٩ : ٢٤٨ .

(٢) تفسير أبي السعود ٨ : ١٤٧ ، تفسير روح البيان ٩ : ١٨٩ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣٣٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٧٨ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ١٨٩ .

(٥) تفسير أبي السعود ٨ : ١٤٧ ، تفسير روح البيان ٩ : ١٨٩ .

الْجَحِيم (١٨)

ثمّ يقول لهم خازن النار تقرّبا وتوبّخا : ﴿هَذِهِ النَّارُ﴾ التي تصلونها هي النار ﴿الَّتِي كُنْتُمْ﴾ في الدنيا بالنبي الذي كان يهدّدكم ﴿بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وتستهنؤون ، وكنتم تنسبون القرآن الناطق به إلى السّحر ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾ الذي ترون ﴿أَمْ أَنْتُمْ﴾ عمي ﴿لَا تُبْصِرُونَ﴾ النار التي وعدتم بها ، كما كنتم في الدنيا عميا عن معجزات الرسول وآيات التوحيد والمعاد. فلمّا ثبت أنّها نار في الواقع ولا خلل في أبصاركم ، ذوقوا حرّها وألمها ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا﴾ أيّها المكذّبون على النار وشدايدها ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ لا خلاص لكم منها أبدا ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ الأمران الصبر والجزع ، لا الصبر ينجيكم منها ، ولا الجزع يدفعها عنكم. واعلموا أنّ تعذيبكم بها ليس ظلما عليكم ، بل هو ما اخترتم لأنفسكم بأعمالكم ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ وترتكبون من الكفر والعصيان ، بلا زيادة ولا نقصان.

ثمّ إنّّه تعالى بعد بيان سوء حال الكفار المكذّبين للآيات في الآخرة ، بيّن حسن حال [المتقين بقوله : ﴿إِنَّ [الْمُتَّقِينَ﴾ من الكفر والعصيان ، والمصدّقين بالرسول والمعاد ، يومئذ طوبى لهم ، فإنّهم حين ابتلاء الكفار بعذاب النار في جهنّم ، متمكّنون ﴿فِي جَنّاتٍ وَ﴾ بساتين عديدة ، ومستغرقون في ﴿نَعِيمٍ﴾ دائم لا نهاية له حال كونهم ﴿فَاكِهِينَ﴾ ومتلذّذين ﴿بِمَا آتَاهُمْ﴾ وأعطاهم ﴿رَبُّهُمْ﴾ اللطيف بهم من خزائن رحمته ، ومسرورين به ، ﴿وَوَقَاهُمْ﴾ بأنّه ﴿وَقَاهُمْ﴾ وحفظهم ﴿رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ والاحتراق بالنار الجاحمة^(١).

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَكِينِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾

﴿وَرَوْحَانُهُمْ بِخُورٍ عَيْنٍ (١٩) وَ (٢٠)﴾

ثمّ يقول له خازن الجنة أو خالقها إذنا وإباحة وإكراما لهم : ﴿كُلُوا﴾ أيّها المؤمنون المتّقون من أيّ مأكول اشتهيتم ﴿وَاشْرَبُوا﴾ من أيّ مشروب أحببتم ، أكلا وشربا ﴿هَنِيئاً﴾ سائعا لا تكدير فيه من التّخم والسّقم والمرض والتّكب وخوف الانقطاع ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من الايمان والأعمال الصالحة وترك المشتبهات المحرّمة ، فان الله لا يضيع أجر المحسنين ، ويكون أكلهم وشربهم حال كونهم ﴿مُتَكِينِينَ﴾ ومستندين كالسلاطين على نمازق ووسائد موضوعة ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ وعروش متعدّدة ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ ومصطّقة متصلة بعضها ببعض. قيل : طول كلّ سرير في السماء

(١) النار الجاحمة : الشديدة الحرّ ، وفي النسخة : الماحجة.

مائة ذراع ، إذا أراد المؤمن الصعود عليه أتضع له ، فإذا قعد عليه ارتفع إلى أصل حاله ^(١) . وقيل : إنّ المصفوفة بمعنى المرتبة بالذهب والفضة والجواهر ^(٢) .

﴿وَرَوَّجْنَاهُمْ﴾ وقرناهم ﴿بِخُورٍ﴾ ونساء يحار الناظر في حسنهنَّ ﴿عَيْنٍ﴾ واسعات الأحداق ، وفيه إظهار غاية اللطف بهم ، حيث نسب تزويجهم إلى نفسه ، وبين أنه المتصدّي له ، ثم وصف أزواجهم بغاية الحسن ، فإن أحسن الأعضاء الوجه ، وأحسن ما في الوجه العين ، وأحسن العيون العين الواسعة . قيل : إنّ سعة العين سبب كثرة الروح المصوّبة ^(٣) إليها ^(٤) .

فبين سبحانه إتمام النعم على المتقين ، فإنّ أول ما يحتاج إليه المسكن ، ثمّ المأكل والمشروب ، ثمّ الفرش والبسط ، ثمّ الأزواج ، فذكر سبحانه جميعها على الترتيب ، ووصف كلّ منها بغاية الكمال .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ

عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (٢١)

ثمّ لما كان شفقة المؤمنين في الآخرة على الأولاد كشفقتهم في الدنيا عليهم ، طيب سبحانه قلوب المؤمنين بأنّه يجمع بينهم في الجنّ بقوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بل إنّ عطف على قوله : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ وقيل : على قوله : ﴿بِخُورٍ عَيْنٍ﴾ والمعنى : وقرناهم بخور عين وبالذين آمنوا ^(٥) ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ﴾ ووافقتهم ﴿ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ وأولادهم ﴿بِإِيمَانٍ﴾ حكمي كما في غير المميز ، أو حقيقي كما في المميز ، ولو كان قليلا وضعيفا ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾ وجعلنا في درجتهم ﴿ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ يتنعمون بما يتنعمون به آبؤهم ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ﴾ وما أنقصنا بالحق أولادهم بهم ﴿مِنْ﴾ ثواب ﴿عَمَلِهِمْ﴾ في الدنيا ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ قليل ، بأن أعطينا بعض مثوباتهم أبناءهم ، بل لا يكون رفعهم إلى درجة آبائهم إلّا بالاحسان والتفضّل عليهم ، لكون فطرتهم فطرة الاسلام ، والتفضّل عليهم تفضيل على والديهم .

روي عن النبي ﷺ أنّه قال : « يرفع ذرية المؤمن في درجته ، وإن كانوا دونه ، لتقرّ بهم عينه » ثمّ تلا هذه الآية ^(٦) .

وروي أنّه سألت خديجة رسول الله ﷺ عن ولدين لها ماتا في الجاهلية ، فقال ﷺ : « هما في النار » فكرهت . فقال ﷺ : « لو رأيت مكانهما لأبغضتهما » قالت : فالذي منك ؟ قال : « في الجنة ، إن

(١) تفسير روح البيان ٩ : ١٩١ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ١٩١ .

(٣) في النسخة : المصبوبة .

(٤) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٤٩ .

(٥) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٥١ .

(٦) تفسير الصافي ٥ : ٧٩ ، تفسير روح البيان ٩ : ١٩٢ .

المؤمنين وأولادهم في الجنة ، وإنّ المشركين وأولادهم في النار » ^(١) .

عن الصادق عليه السلام ، قال : « أطفال المؤمنين يهدون إلى آبائهم يوم القيامة » ^(٢) .

وعنه عليه السلام : « قصرت الأبناء عن عمل الآباء ، فألحقوا ^(٣) الأبناء بالآباء لتقرّ بذلك أعينهم » ^(٤) .

وعنه عليه السلام قال : « إنّ الله تبارك وتعالى كفّل إبراهيم وسارة أطفال المؤمنين ، يغذوهم بشجرة في

الجنة ، لها أخلاف كأخلاف البقر ، في قصر من درة ، فإذا كان يوم القيامة البسوا وطيبوا واهدوا إلى

آبائهم ، فهم ملوك في الجنة مع آبائهم ، وهذا قول الله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ « الآية » ^(٥) .

أقول : الظاهر أنّ الوعد لا يختصّ بالآباء المؤمنين ، بل إذا كانت الأمّ مسلمة ، ولحق بها الولد في

الدنيا ، لحق بها في الآخرة أيضا.

ثمّ لما ذكر سبحانه لحقوق الأولاد بآبائهم في درجة الجنة ، وإن لم يكن لهم إيمان حقيقي وعمل

صالح ، بل إيمان تبعي وحكمي ، بيّن سبحانه أنّ الإيمان الحقيقي والعمل الصالح لا يطلب إلّا ممّن بلغ

مبلغ الرجال بقوله تعالى : ﴿كُلُّ امْرِئٍ﴾ ورجل بالغ ﴿بِمَا كَسَبَ﴾ من الإيمان والعمل الصالح ﴿رَهِينٌ﴾

ومحتبس عند الله ، فإن أدّى ما عليه من الاحسان وصالح الأعمال فك وخلص من الرهانة والحبس ودخل

الجنة ، وكذا المرأة ، دون الصبي والصبية ، فاتهما يدخلان الجنة بعمل الآباء والامتهات.

﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا

تَأْنِيهِمْ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى

بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا

عَذَابَ السُّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (٢٢) و (٢٨)

ثمّ لما ذكر سبحانه عدم تنقيص ثواب أعمال المؤمنين بالحق أولادهم بهم ، بيّن أنّه لا يقتصر

على إعطاء ثواب أعمالهم ، بل يزيدهم آنا فآنا من فضله بقوله : ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ﴾ وزدناهم على ما ذكر

من النعم بأن تنفصل عليهم ﴿بِفَاكِهَةٍ﴾ كثيرة طيبة دائمة من ثمار الجنة ﴿وَلَحْمٍ﴾ كثير طيب ، وهما أرفع

(١) تفسير روح البيان ٩ : ١٩٣ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٣٢ ، مجمع البيان ٩ : ٢٥١ ، تفسير الصافي ٥ : ٧٩ .

(٣) في التوحيد ومن لا يحضره الفقيه : فألحق الله عز وجل .

(٤) التوحيد : ٣٩٤ / ٧ ، من لا يحضره الفقيه ٣ : ٣١٦ / ١٥٣٧ ، الكافي ٣ : ٢٤٩ / ٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٧٩ .

(٥) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٣١٦ / ١٥٣٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٧٩ .

أنواع المأكولات للمتعممين ، ولا يقتصر على نوع خاص ، بل يعطون ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ويرغبون إليه من أنواع الفواكه واللحوم. روي أنّ المؤمن إذا اشتهى الطير يختر بين يديه مشويا ^(١) ﴿يَسْنَأْغُونَ﴾ ويتعاطون ﴿فِيهَا﴾ بنحو التجاذب والتلاعب ﴿كَأَسَا﴾ مملوءة من خمر الجنة ، لكن ﴿لَا لَغْوٌ﴾ وكلام باطل وواه ﴿فِيهَا﴾ كما يكون في شرب خمر الدنيا ﴿وَلَا﴾ يكون فيها ﴿تَأْنِيمٌ﴾ وفعل قبيح من السبّ والفحش ، كما هو لازم السكر في الدنيا ، بل لا يتكلمون إلّا بأحسن الكلام ، ولا يفعلون إلّا ما يفعله الكرام ، لعدم حصول نقص في عقولهم ، فضلا من زوالها. وقيل : لا يكون في شربها إثم وعصيان ^(٢) .

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ ويدور حولهم لخدمتهم ، أو بكؤوسهم ﴿غُلْمَانٌ﴾ وخدم حسان الوجوه ، مخلوقون ﴿لَهُمْ﴾ في الجنة ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في البياض والصفاء ﴿لَوْلُؤُ﴾ رطب ﴿مَكْنُونٌ﴾ ومصون في الصدف عن الغبار ومسّ الأيدي ، أو مخزون فأنه لا يخزن إلّا الثمين الغالي القيمة.

روي أنّه قيل لرسول الله ﷺ : هذا لخدم ، فكيف المخدم ! فقال : « والذي نفسي بيده إنّ فضل المخدم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » ^(٣) .
وروى أنّه ﷺ قال : « إنّ أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدامه ، فيجيبه ألف ببابه : لبيك لبيك » ^(٤) .

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ آخر ، وتوجّه إليه ، وهم يتحدّثون و﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ تلذّذا وتفكّها واستئناسا ، ويتذكرون أحوالهم وأعمالهم في الدنيا ، وبأنه نالوا الكرامة في الآخرة ﴿قَالُوا﴾ جوابا للسائلين عن أحوالهم : يا إخواننا ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في زمان حياتنا ﴿قَبْلُ﴾ وفي دار الدنيا ﴿فِي أَهْلِنَا﴾ وأقاربنا ﴿مُشْفِقِينَ﴾ وخائفين من مخالفة أحكام الله وسوء عاقبتنا وأهوال الآخرة ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالتوفيق لطاعته ﴿وَوَقَانَا﴾ بذلك وحفظنا به من ﴿عَذَابِ السَّمُومِ﴾ والاحتراق بالنار الحارة النافذة في منافذ الجسد ، كالريح الحارة النافذة فيها ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ وفي دار الدنيا نعبد الله و﴿نَدْعُوهُ﴾ أن يقينا من العذاب ، فوقانا واستجاب داعائنا ، وأدخلنا في جنته ورحمته ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿هُوَ الْبَرُّ﴾ والمحسن بعباده ﴿الرَّحِيمُ﴾ بمن آمن به وأطاعه ، الكثير الرحمة على من أقبل إليه.

﴿فَذَكَّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ﴾

(١) تفسير روح البيان ٩ : ١٩٥ .

(٢) مجمع البيان ٩ : ٢٥١ .

(٣) مجمع البيان ٩ : ٢٥١ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٠ .

(٤) تفسير أبي السعود ٨ : ١٤٩ ، تفسير روح البيان ٩ : ١٩٦ .

رَبِّ الْمُنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ

أَخْلَاهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٢٩) و (٣٢) ﴿﴾

ثم لما أمر سبحانه في آخر السورة السابقة بتذكير الخائفين من الوعيد ، وذكر هنا حال الخائفين من عذابه ، أمره بوعظهم وتذكيرهم بقوله تعالى : ﴿فَذَكِّرْ﴾ يا محمد وعظ الخائفين من الله بآيات الكتاب الكريم ، ولا تعتن بما يقوله الكفار من أن محمدا كاهن أو مجنون ﴿فَمَا أَنْتَ﴾ بحمد الله و﴿بِعِصْمَةِ رَبِّكَ﴾ التي أنعمها عليك من كمال العقل ومنصب الرسالة ﴿بِكَاهِنٍ﴾ ومخير بالغيب بتوسط الجن ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ وفاسد العقل.

ثم ويخبرهم سبحانه على بعض أقاويلهم الشنيعة تعجبا منها بقوله : ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ اولئك الطغاة إذا سمعوا القرآن : إن محمدا ﴿شَاعِرٌ﴾ وملفق الكلمات الموزونة المزينة المموهة ^(١) لطلب المال ، ولا نعارضه خوفا من أن يغلبنا بقوة شعره ، أو يهيجونا ، بل ﴿نَتَرَبَّصُ﴾ وننتظر ﴿بِهِ﴾ في خلاصنا من شره ﴿رَبِّ الْمُنُونِ﴾ وحوادث الدهر ، أو موته وهلاكه ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، لهؤلاء المعاندين : ﴿تَرَبَّصُوا﴾ وانتظروا هلاكي بحوادث الدهر ﴿فَإِنِّي مَعَكُمْ﴾ أيضا متربص ﴿مِنْ﴾ جملة ﴿الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ هلاككم بالعذاب النازل عليكم من الله أو بأيدينا.

ثم ويخبرهم سبحانه على ضعف عقولهم بقوله : ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ﴾ وتبعثهم ﴿أَخْلَاهُمْ﴾ وعقولهم ﴿بهذا﴾ القول الشنيع ، وإلى التكلم بالمتناقضات ، حيث إن لازم الكهانة الفطنة والعقل والدقة في الامور ، ولزم الجنون عدم الفهم واختلال الفكر ، ولزم الشاعر القدرة على الكلام الموزون المتسق المخيل بقوة الفكر ، ولا يمكن اجتماع الثلاثة في شخص واحد ، لا والله لا يجوز العقل التكلم بها ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ وهل هم إلا طائفة معاندون لله ولكل حق وصواب ، يعثهم عنادهم إلى التكلم بالخرافات التي لا تصدر من ذي شعور ، والمكابرة بالتفوه بكل كلام باطل لإطفاء الحق مع ظهوره.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَاثُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ * أَمْ

خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا

يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِطَرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ

يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٣) و (٣٨) ﴿﴾

(١) في النسخة : المموهة.

ثمَّ وَجَّهَهُمْ سَبْحَانَهُ عَلَى الطَّعْنِ عَلَى الْقُرْآنِ الَّذِي فِيهِ وَجْهٌ مِنَ الْأَعْجَازِ بِقَوْلِهِ : ﴿أَمْ يَقُولُونَ :﴾ إِنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي جَاءَ بِهِ جِبْرِئِيلُ ﴿تَقْوَلَهُ﴾ مُحَمَّدٌ ، وَاحْتَلَقَهُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ ، وَيَنْسِبُهُ كَذِبًا إِلَى اللَّهِ ؟ لَا وَاللَّهِ لَيْسَ كَذَلِكَ ، وَلَا يَعْتَقِدُونَ ذَلِكَ ﴿بَلْ﴾ هُمْ قَوْمٌ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، فَهُمْ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بآية من الآيات ، وَلَا يَصَدِّقُونَ معجزة من المعجزات ، فَإِنْ كَانَ الْقُرْآنُ مِمَّا تَقُولُهُ مُحَمَّدٌ كَمَا يَقُولُونَ الْكَفَّارُ ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ﴾ وَكَلَامٍ مَرْكَبٍ ﴿مِثْلِهِ﴾ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَحَسَنِ الْأَسْلُوبِ ، وَالِاشْتِمَالِ عَلَى الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ ، مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فِي مَا يَقُولُونَ مِنْ أَنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ ، مَعَ أَهْلِ مَهْرَةِ الْكَلَامِ وَفِرْسَانِ مِيزَانِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ ، وَطُولِ مُمَارَسَتِهِمُ الْخُطْبَ وَالْأَشْعَارَ ، وَكَثْرَةِ مِزَاوَلَتِهِمْ لِأَسَالِيبِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ ، وَشِدَّةِ اهْتِمَامِهِمْ بِحِفْظِ الْوَقَائِعِ وَالْأَيَّامِ وَلَا يُمْكِنُهُمُ الْإِتْيَانُ بِسُورَةٍ مِنْهُ فَضْلًا عَنْ جَمِيعِهِ.

ثمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ تَوْبِيخِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الطَّعْنِ عَلَى رَسُولِهِ وَكِتَابِهِ ، وَجَّهَهُمْ عَلَى إِنْكَارِ اللَّهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿أَمْ خُلِقُوا﴾ قِيلَ : إِنَّ التَّقْدِيرَ أَمَا خُلِقُوا أَصْلًا ^(١) ، أَمْ خُلِقُوا وَقَدَّرُوا وَوَجَدُوا ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ يَكُونُ خَالِقَهُمْ وَمُقَدِّرًا وَمَوْجِدًا لَهُمْ ﴿أَمْ﴾ لَهُمْ مُوْجِدٌ وَخَالِقٌ ، وَلَكِنْ ﴿هُمْ﴾ أَنْفُسُهُمْ ﴿الْخَالِقُونَ﴾ لِأَنْفُسِهِمْ ؟ وَكُلِّ الصُّورِ الثَّلَاثِ بَاطِلٌ بِالْبَدَاهَةِ ، لِتَحَقُّقِ خَلْقِهِمْ ، وَامْتِنَاعِ وَجُودِ الْمَخْلُوقِ بِغَيْرِ خَالِقٍ ، وَامْتِنَاعِ كَوْنِ أَنْفُسِهِمْ خَالِقًا لَهُمْ.

وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ مِنْ غَيْرِ حِكْمَةٍ ، وَعَبَثًا لَا لَشَيْءٍ ^(٢) . وَقِيلَ : يَعْنِي خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ أَبٍ وَأُمٍّ ^(٣) .

وَقِيلَ : فِي وَجْهِهِ ارْتِبَاطُ الْآيَةِ : إِنَّهُ لَمَّا كَذَّبُوا النَّبِيَّ ﷺ وَنَسَبُوهُ إِلَى الْكُهَانَةِ وَالْجَنُونِ وَالشَّعْرِ ، ذَكَرَ الدَّلِيلَ عَلَى صِدْقِهِ ^(٤) ، حَيْثُ إِنَّهُ يَدَّعِي التَّوْحِيدَ وَالرِّسَالَةَ وَالْحَشَرَ ، وَدَلِيلُ كُلِّ مِنْهَا ظَاهِرٌ فِي أَنْفُسِهِمْ ، أَمَّا دَلَالَةُ وَجُودِهِمْ عَلَى التَّوْحِيدِ فَظَاهِرٌ ، وَأَمَّا دَلَالَتُهُ عَلَى الْحَشَرِ فَلَأَنَّ الْخَلْقَ الْأَوَّلَ دَلِيلٌ عَلَى الْخَلْقِ الثَّانِي ، وَالْمُرَادُ : أَمَا خُلِقُوا أَصْلًا ، فَيَنْكُرُونَ التَّوْحِيدَ لِانْتِفَاءِ الْإِبْجَادِ ، وَيَنْكُرُونَ الْحَشَرَ لِانْتِفَاءِ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ ، أَمْ يَقُولُونَ : إِنَّهُمْ مَا خُلِقُوا لِشَيْءٍ فَلَا إِعَادَةَ ، أَوْ مَا خُلِقُوا مِنْ تَرَابٍ وَمَاءٍ أَوْ مِنْ نَظْفَةٍ حَتَّى يَخْفَى عَلَيْهِمْ أَنَّ لَهُمْ خَالِقًا وَيَقُولُونَ : إِنَّ خَلْقَنَا كَانَ اتِّفَاقِيًّا ، أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ لِلْمَوْجُودَاتِ ، فَيَعْجِزُونَ بِكَثْرَةِ الْعَمَلِ عَنِ الْخَلْقِ الثَّانِي مَرَّةً ، كَمَا أَنَّ الْإِعْيَاءَ ^(٥) دَابُّ الْإِنْسَانِ ؟

(١) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٦٠ .

(٢) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٦٠ .

(٣) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٦٠ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٠٢ .

(٤) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٥٩ .

(٥) في النسخة الأعباء .

﴿أَمْ﴾ هم ﴿خَلَقُوا﴾ بقدرتهم ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يستدلّون بهما على وجود الصانع القادر الحكيم ؟ لا والله لا يقولون بأنهم خالقهما ﴿بَلْ﴾ يشكّون في خالقهما و﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ بالنظر إلى الآيات الأفقية والأنفسية المذكورة بأن الله خالقهما وخالق كلّ شيء ، وإلا لما أعرضوا عن عبادته ، وما أنكروا قدرته على البعث ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ﴾ وتحت تصرفهم ﴿خَزَائِنُ﴾ رحمة ﴿رَبِّكَ﴾ حتى يعطوا النبوة من شاءوا ومنعوا عما شاءوا ؟ ﴿أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ﴾ والغالبون على من له الخزائن حتى يجبروه على الاعطاء والمنع على وفق إرادتهم وهوى أنفسهم ؟ ﴿أَمْ﴾ لا يحتاجون إلى الرسول ، بل ﴿لَهُمْ سُلَمٌ﴾ يصعدون فيه إلى السماء ، و﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ من الملائكة ما يحتاجون إلى العلم به من الأحكام وسائر الأمور حال كونهم صاعدين ﴿فِيهِ؟﴾ فان كانوا يدعون ذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ﴾ من الملائكة بصعوده إلى السماء ﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ وبرهان واضح على استماعه وصدقه في دعواه.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ *

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣٩) و (٤٣)

ثم وبّخ جماعة من قريش على قولهم : إنّ الملائكة بنات الله ، وعبادتهم إياهم لكونهم أولاده بقوله: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ﴾ اللاتي هنّ أحسن الأولاد عندهم ﴿وَلَكُمْ﴾ أيّها السفهاء ﴿الْبَنُونَ﴾ الذين هم أشرف الأولاد ؟ قيل : إنّ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للتشديد والتوبيخ ^(١) . قيل : فيه إيذان بأنّ من هذا رأيه لا يعدّ من العقلاء فضلا من أن يرقى إلى السماء ويطلّع على الأسرار الغيبية ^(٢) .

ثمّ لما كان ظهور نبوة النبي ﷺ بحيث لم يبق لأحد مجال الشكّ والانكار ، أعرض سبحانه عن المشركين ، ووجّه خطابه للنبي ﷺ بقوله : ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ وتطلب منهم على تبليغ الرسالة ﴿أَجْرًا﴾ وجعلا من المال ﴿فَهُمْ﴾ لأجل ذلك ﴿مِنْ مَغْرَمٍ﴾ ومال ألزمتهم بأدائه إليك ﴿مُثْقَلُونَ﴾ ومتقاعدون عن الايمان بك واتباعك ، الثقل أجرك عليهم ؟ وفيه تسلية للنبي ﷺ وإظهار عدم تقصيره في أداء وظيفته ﴿أَمْ﴾ لا يحتاجون إلى الرسول ؛ لأنّ ﴿عِنْدَهُمْ﴾ اللوح المحفوظ الذي فيه ﴿الْغَيْبُ﴾ وما لا يعلم به إلا بإعلام الله ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما فيه ليبقى في حفظهم ، ويراجعون إليه عند نسيانهم شيئا منه ، ولذا لا يتبعونك ؟ أيكثف المشركون بتلك الترهات ولا أقاويل الباطلة ﴿أَمْ يُرِيدُونَ﴾ مع ذلك

(٢١) تفسير أبي السعود ٨ : ١٥١ .

﴿كَيْدًا﴾ وإساءة إليك في الخفاء منك ، كالقتل والحبس والاخراج من البلد ، أو حيلة وتدبير سوء في إطفاء نورك والاخلال في أمر رسالتك ؟

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأنكروا رسالتك ﴿هُمْ الْمَكِيدُونَ﴾ ومستحقون لما ينزل بهم من العذاب غفلة وبغته ، أو هم الذين يعود إليهم وبال مكرهم وكيدهم من القتل والعذاب بعلّة كفرهم ، لا من يريدون أن يكيدوه ، فأنّه المنصور من الله قولاً وفعلاً وحجّة وسيفاً ، أو هم المغلوبون في الكيد ، ألهم صبر على ما ينزل عليهم من العذاب ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يحرسهم منه ؟ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ ونزّهه (عن) شركة ما ﴿يُشْرِكُونَ﴾ به ، أو عن إشراكهم.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ * فَذَرْنَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٥) و (٤٧)﴾

ثم بيّن كيفية نزول العذاب عليهم غفلة وبغته بقوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَرَوْا﴾ حين انقضاء مدّة إهمالهم ﴿كِسْفًا﴾ وقطعة من العذاب ، نازلاً عليهم ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أو قطعة منها ، ﴿سَاقِطًا﴾ عليهم ﴿يَقُولُوا﴾ من فرط الغفلة : هذا الذي نرى ﴿سَحَابٌ﴾ غليظ ﴿مَرْكُومٌ﴾ ومنضم بعضه ببعض ، أو ملقى بعضه فوق بعض يطرنا الساعة.

وقيل : إنّه بيان لغاية لجاحهم وعنادهم ، والمراد أنّهم في اللّجاج والعناد بحيث لو أسقطنا عليهم قطعة من السماء حسبما قالوا : (أو تسقط علينا كسفا من السماء لقالوا هذا سحاب مركوم) ولم يصدّقوا أنّه كسف من السماء ساقط عليهم لتعذيبهم^(١) . فاذا كان لجاحهم وعنادهم إلى هذا الحدّ ﴿فَذَرْنَهُمْ﴾ واتركهم على حالهم ، ولا تتعب نفسك بالاصرار على دعوتهم ﴿حَتَّى يُلَاقُوا﴾ ويعاينوا ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ ويهلكون بالعذاب ، أعني ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي﴾ ولا يكفي في دفع العذاب ﴿عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ﴾ ومكرهم وتدبيرهم ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء ﴿وَلَا هُمْ﴾ من جهة الغير ﴿يُنصَرُونَ﴾ ويحفظون من العذاب. ثمّ بيّن سبحانه أنّه لا يقتصر في حقّ المصّرّين على العناد واللّجاج على عذاب الآخرة ، بل لهم في الدنيا عذاب أخف من عذاب الآخرة بقوله : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على أنفسهم بالإصرار على الكفر والعناد ، وعلى الله تعالى بتضييع حقّ ربه ونعمته ، وعلى الرسول بتكذيبه وكفران نعمة هدايته.

(١) تفسير الصافي ٥ : ٨٢ ، تفسير الكشاف ٤ : ٤١٥ .

القمي : ظلموا آل محمد ^(١) ﴿عَذَابًا﴾ أليما في الدنيا ﴿ذُونَ ذَلِكَ﴾ العذاب الموعود في الآخرة وقبله ، أو أخفّ منه. عن القمي : عذاب الرجعة بالسيف ^(٢) . وقيل : يعني عذابا أخفّ قيل العذاب بالقتل ، وهو العذاب بالقحط ^(٣) . وقيل : يعني وراء عذاب الدنيا ، وهو عذاب الآخرة ^(٤) .

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لفرط جهلهم وعنادهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ، وإنما يعلمه أقلّهم ، وهم الذين آمنوا. وقيل : يعني أنّهم في أكثر أحوالهم - وهو حال اشتغالهم بالدنيا - لا يعلمون ، وفي أقلّها - وهو حال احتضارهم - يعلمون. وقيل : إنّ أكثر هنا بمعنى الكل ^(٥) .

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ

فَسَبِّحْهُ وَإِذَا بَرَ النُّجُومَ (٤٨) وَ (٤٩)﴾

ثمّ لما ذكر سبحانه عناد القوم وكيدهم في شأن رسوله ، سلّاه بقوله : ﴿وَاصْبِرْ﴾ يا محمد ، على عناد القوم وأذاهم ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمھالهم إلى اليوم الموعود ، ولا يضيق صدرك بما يقولون ، ولا تخف من كيدهم ﴿فَإِنَّكَ﴾ محفوظ من الآفات جميعها ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وفي مرآنا ، أو بحفظنا وفي حمايتنا.

وجمع العين لجمع الضمير ، وللاّيدان بغاية الاعتناء بحفظه وبكثرة أسبابه.

ولا تدع على أعدائك ، ولا تشغل قلبك بالتفكّر في سوء فعالهم وأقوالهم ، بل فزعه للعبادة ﴿وَسَبِّحْ﴾ الله ونزهه عن النقائص الإمكانية ، واقرن تسبيحك ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ على نعمه عليك ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من النوم لصلاة الليل ، كما عن القمي ^(٦) . أو تقوم من النوم في أيّ وقت ، كما روي أنّه ﷺ كان يسبح بعد الانتباه ^(٧) . أو تقوم من مجلسك ، لما روي عنه ﷺ أنّه قال : « من جلس مجلسا فكثّر فيه لغطه ، فقال قبل أن يقوم : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أنّ لا إله إلا أنت ، استغفرك وأتوب إليك ، كان كفارة لما بينهما » ^(٨) . أو تقوم إلى الصلاة ، لما روي عنه ﷺ : « إذا قمت إلى الصلاة ، فقل : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك » ^(٩) .

أقول : أو في جميع تلك الأوقات المذكورة في الروايات.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ بعضا ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ أوله ، أو آخره ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ فأنّه أفضل أوقات العبادة. وقيل : القدر

الذي

(٢١) تفسير القمي ٢ : ٣٣٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٣.

(٣) تفسير أبي السعود ٨ : ١٥٢ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٠٥.

(٤) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٧٣ ، تفسير أبي السعود ٨ : ١٥٣ ، تفسير روح البيان ٩ : ١٠٥.

(٥) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٧٤.

(٦) تفسير القمي ٢ : ٣٣٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٣.

(٧) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٧٥.

(٨) تفسير روح البيان ٩ : ٢٠٧.

(٩) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٧٥.

يكون فيه يقظان ^(١) . وعن القمي : صلاة الليل ^(٢) . ﴿وَكُذَّا﴾ ﴿إِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ وحين يخفى ضياؤها وهو وقت الصبح . وقيل : إنّ المراد من التسبيح في الليل صلاة العشاءين ، ومن التسبيح إدبار النجوم صلاة الفجر ^(٣) . وقيل : إنه ركعتان قبل الفجر ^(٤) .

وعنهما عليه السلام : « ﴿وَكُذَّا﴾ ﴿إِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ يعني الركعتين قبل صلاة الفجر » ^(٥) .
وعن الصادق عليه السلام : « من قرأ سورة الطور جمع الله له خير الدنيا والآخرة » ^(٦) .
الحمد لله الذي وفقني لتفسيرها.

(١) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٧٦ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٣٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٣ .

(٣) تفسير أبي السعود ٨ : ١٥٣ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٠٨ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٢٠٨ .

(٥) مجمع البيان ٩ : ٢٥٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٣ .

(٦) ثواب الأعمال : ١١٦ ، عن الباقر والصادق عليه السلام ، مجمع البيان ٩ : ٢٤٥ ، عن الباقر عليه السلام ، تفسير الصافي ٥ : ٨٣ .

في تفسير سورة النجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ

هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (١) وَ (٤)﴾

ثم لما ختمت سورة الطور المتضمنة لبيان إنعام الله على النبي بنعمة الرسالة ، ورد من قال إنّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كاهن أو مجنون أو شاعر ، ومن قال بأنّ القرآن اختلقه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وتوبيخ المشركين على إنكارهم توحيد الله ، وقولهم بأنّ له البنات ولهم البنون ، وردّ قولهم بعدم حاجتهم إلى الرسول بأنهم لا يعلمون الغيب حتى لا يحتاجوا إلى المبلّغ عن الله ، وأمر الرسول بالإعراض عن المصرّين على الكفر بقوله : ﴿فَدَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا﴾^(١) نظمت سورة النجم المتضمنة لإثبات نبوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ونفي الضلالة والغواية عنه ، وأنّ ما يقوله ليس إلّا ما يوحى إليه ، وأنّ ما يعلمه ليس إلّا ما علّمه الله بتوسّط جبرئيل لا بالكهانة ، وإثبات التوحيد ونفي الوهية اللات والعزى وسائر الأصنام ، وتوبيخ المشركين على قولهم بأنّ لهم الذكر وله الانثى ، وإنكار كونهم عالمين بالغيب حتى لا يحتاجون إلى الرسول بقوله : ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ﴾^(٢) ، وأمر الرسول بالإعراض عن المعرضين عن ذكر الله ، إلى غير ذلك من المطالب المناسبة للسورة السابقة ، فابتدأها بذكر الأسماء المباركات بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم افتتحها بالحلف على صدق محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرسالة بقوله : ﴿وَالنَّجْمُ﴾ قيل : هو الثريا ، والحلف به لكونه أحسن النجوم عند قريش وأظهرها للرأي ، لأنّه له علامة لا يلتبس بغيره^(٣) ، وتخصيص الحلف بحال هويّه بقوله : ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ وسقط ومال إلى الغروب ؛ لأنّه يهتدي الساري به حين الزوال ، كما يهتدى بالنبي بخفض جناحه ولين جانبه.

قيل : لما كان بعض المشركين يعبدونه ، فقرن سبحانه تعظيمه بالحلف به بما يدلّ على عدم قابليته

(١) الطور : ٥٢ / ٤٥ .

(٢) النجم : ٥٣ / ٣٥ .

(٣) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٧٩ .

للعادة ، لكونه هاويا آفلا ، كما قال إبراهيم : ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾^(١) .
 وقيل : إنّ المراد بالنجم جنسه الثابت في السماء للاهتداء^(٢) .
 وقيل : جنس النجوم المنقضة التي هي رجوم للشياطين^(٣) ، كما أنّ النبي ﷺ منجي المؤمنين من همزات الشياطين .
 وقيل : إنّ الحلف بربّ النجم ، والتقدير : وربّ النجم^(٤) وعن ابن عباس : قال : يقول :
 وخالف النجم^(٥) .
 وقيل : إنّ المراد بالنجم النباتات التي لا ساق لها^(٦) ، وهواه سقوطه على الأرض^(٧) ، وهو سجوده .

وقيل : إنّ نجوم القرآن^(٨) ، والحلف به استدلال بأعظم معجزات النبي ﷺ على صدقه .
 ثمّ ذكر سبحانه المحلوف عليه بقوله : ﴿مَا ضَلَّ﴾ وما عدل عن الصراط المستقيم الموصل إلى كلّ خير ، وما انحرف عن طريق القرب إلى الله والنيل بنعم الآخرة لنقص عقله محمد ﷺ الذي هو ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ ومعاشركم من أول عمره إلى الآن ، وما رأيتم منه كذبا ولا خيانة . وقيل : يعني سيدكم^(٩) ومالك اموركم ﴿وَمَا غَوَى﴾ وما وقع في أمر باطل وفاسد باغواء الشياطين ﴿وَمَا يَنْطِقُ﴾ بشيء ولا يتكلم بكلمة صادرة ﴿عَنِ الْهَوَى﴾ وميل نفسه وشهوته .
 وقيل : إنّ دليل على عدم ضلالته ، والمراد أنّه كيف يضلّ ويغوي وهو لا ينطق عن الهوى ؟ وإنّما يضلّ من اتّبع الهوى ، كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١٠) .
 وقيل : إنّ كلمة (عن) بمعنى باء ، والمعنى لا ينطق بسبب الهوى^(١١) .
 ﴿إِنْ﴾ الذي ينطق به ، وما ﴿هُوَ﴾ شيء ﴿إِلَّا وَحْيٌ﴾ من الله تعالى ﴿يُوحِي﴾ إليه حقيقة بواسطة جبرئيل لا مجازا ، وما هو بكاهن ولا شاعر ولا مجنون .

ذكر فضيلة لعلي عليه السلام ونص الامامة

وقال العلامة ﷺ في (نهج البلاغة) : روى الجمهور عن ابن عباس ، قال : كنت جالسا مع فتية من بني هاشم عند النبي ﷺ ، إذ انقض كوكب ، فقال رسول الله ﷺ : « من انقضّ هذا النجم في منزله فهو الوصي من بعدي » فقام فتية من بني هاشم فنظروا ، فإذا الكواكب انقضّ في منزل علي بن أبي طالب عليه السلام . فقالوا : يا رسول الله ، غويت في حبّ علي .

(١) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٨٠ ، والآية من سورة الأنعام : ٦ / ٧٦ .

(٢) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٧٩ . (٣) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٧٩ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٢٠٩ . (٥) أمالي الصدوق : ٦٦٠ / ٨٩٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٤ .

(٦) تفسير روح البيان ٩ : ٢١١ . (٧) تفسير روح البيان ٩ : ٢١١ .

(٨) جوامع الجامع : ٤٦٨ ، تفسير الرازي ٢٨ : ٢٧٩ . (٩) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٨٠ .

(١٠) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٨٠ ، والآية من سورة ص : ٣٨ / ٢٦ .

(١١) تفسير روح البيان ٩ : ٢١٣ .

فأنزل الله تعالى : ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾^(١) .

وعن (المجالس) عن ابن عباس ، قال : صلينا العشاء الآخرة مع رسول الله ، فلما سلم أقبل علينا بوجهه ثم قال : « سينقض كوكب من السماء مع طلوع الفجر ، فيسقط في دار أحدكم ، فمن سقط ذلك الكوكب في داره فهو وصي وخليفتي والامام بعدي » فلما قرب الفجر ، جلس كل أحد منا في داره ، وكان أطمع القوم في ذلك أبي العباس بن عبد المطلب ، فلما طلع الفجر انقضَّ الكوكب من الهواء ، فسقط في دار علي بن أبي طالب عليه السلام ، فقال رسول الله ﷺ لعلي : « يا علي ، والذي بعثني بالنبوة ، لقد وجبت لك الوصية والخلافة والامامة بعدي » . فقال المنافقون عبد الله بن أبي وأصحابه : لقد ضلَّ محمد في محبة ابن عمه وغوى ، وما ينطق في شأنه إلا بالهوى . فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ في محبة علي بن أبي طالب ﴿وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ في شأنه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٢) . وروى ما يقرب منه عن الصادق عليه السلام^(٣) .

وروي عن الباقر عليه السلام قال : « ما ضلَّ في علي وما غوى ، وما ينطق فيه عن الهوى ، وما كان ما قاله فيه إلا بالوحي الذي أوحى إليه »^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام ، قال : « إنَّ رضى الناس لا يملك ، وألسنتهم لا تضبط ، وكيف يسلمون ممَّا لا يسلم منه أنبياء الله ورسله وحجج الله ... ألم ينسبوا نبيَّنا محمد ﷺ إلى أنه ينطق عن الهوى في ابن عمه علي عليه السلام حتى كذبهم الله فقال تعالى : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ »^(٥) . وعن الرضا عليه السلام في تأويل الآية : « النجم رسول الله »^(٦) .

وعن الباقر عليه السلام : « أقسم الله بمحمد ﷺ إذا قبض ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ لتفضيله أهل بيته ﴿وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ يقول : ما يتكلم بفضل أهل بيته بهواه ، وهو قول الله : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ »^(٨) .

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ

(١) فتح الحق : ١٩٣ .

(٢) أمالي الصدوق : ٦٥٩ / ٨٩٣ ، تفسير الصافي : ٥ : ٨٤ .

(٣) أمالي الصدوق : ٦٦٠ / ٨٩٤ ، تفسير الصافي : ٥ : ٨٥ .

(٤) تفسير القمي : ٢ : ٣٣٤ ، تفسير الصافي : ٥ : ٨٥ .

(٥) أمالي الصدوق : ١٦٤ / ١٦٣ ، تفسير الصافي : ٥ : ٨٥ .

(٦) تفسير القمي : ٢ : ٣٣٣ ، ولم ينسبه إلى أحد ، تفسير الصافي : ٥ : ٨٥ .

(٧) في الكافي : أقسم بقبض محمد ، في تفسير الصافي : أقسم بقر محمد .

(٨) الكافي : ٨ : ٣٨٠ / ٥٧٤ ، تفسير الصافي : ٥ : ٨٥ .

ما رأى (٥) و (١١)

ثم لما كان بعض المشركين يقولون : إنما علّم محمدا ما ينطق وما يقول من العلوم بعض أهل الكتاب في أسفاره إلى الشام ، ردّهم الله سبحانه بقوله : ﴿عَلَّمَهُ﴾ جبرئيل الذي هو ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ في العلوم والأعمال ، لا البشر الذي هو ضعيف القوة وقليل العلم ، وذلك الملك ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ وكمال في الجسم والعقل والدين وحسن الأخلاق واستحكام الأركان ﴿فَاسْتَوَى﴾ ذلك الملك واستقام متوجّها إلى تعليم محمد ﷺ ، واستقر على صورته الأصلية التي خلق عليها ، أو استقرّ محمد ﷺ على التعلّم منه ، كما عن القمي (١) .

وقيل : إنّ فاعل (علّمه) الله ، والمعنى علّمه الله الذي هو شديد القوى في العلوم ، وما بعده أوصاف الرسول ﷺ والمعنى : أنّ الرسول ذو مرّة ، فاستوى : وأستقام للتعلّم من الله (٢) .
عن الرضا عليه السلام : « ما بعث الله نبيا إلّا صاحب مرّة سوداء صافية » (٣) .

﴿وَهُوَ﴾ متمكّن ﴿بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾ أو المقام الأرفع من الكمالات الانسانية ، والمرتبة الأسنى من الفضائل الجسمانية والروحانية بحيث لا يدانيه ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ رسول الله وقرب من الله بالعلم والكمال الصفاتي ﴿فَتَدَلَّى﴾ الله وقرب منه .

عن الكاظم عليه السلام ، قال : « هذه لغة قريش ، إذا أراد الرجل أن يقول : سمعت ، يقول : تدلّيت ، وإنما التدلّي : الفهم » (٤) .

أقول : وعليه يكون المعنى : ثمّ دنا رسول الله ﷺ فسمع وفهم من الله .
﴿فَكَانَ﴾ مقدار المسافة بين الله وبين رسوله ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ وقدر ما بين سية (٥) القوس إلى رأسها ، كما عن الصادق عليه السلام (٦) . وقيل : مقدار ما بين الوتر والقوس (٧) . وهو حدّ الفصل في مجالسة الأحباء المتأدّبين (٨) .

قيل : مثل لغاية القرب ، وأصله أنّ الحليفين كانا إذا أراد عقد الصفاء أخرجوا قوسيهما ، فألصقا بينهما ، وهو إشارة إلى كونهما متظاهرين يحامي كلّ منهما عن صاحبه (٩) .

وقيل : إنّ الكبيرين من العرب إذا اصطلحا وتعاهدا ، أخرجوا قوسيهما ، ووتر كلّ واحد منهما

طرف

(١) تفسير القمي ٢ : ٣٣٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٥ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٢٣٤ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣٣٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٥ .

(٤) الاحتجاج : ٣٨٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٧ .

(٥) سية القوس : ما عطف من طرفيها .

(٦) الكافي ١ : ٣٦٨ / ١٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٧ .

(٧) تفسير روح البيان ٩ : ٢١٧ .

(٨) تفسير روح البيان ٩ : ٢١٨ .

(٩) تفسير روح البيان ٩ : ٢١٧ .

قوسه بطرف قوس صاحبه ^(١) . فجعل سبحانه نفسه ونبيه ﷺ بمنزلة أميرين كبيرين اجتماعا للتعاهد والتصافي والتعاوض.

في (الأمالي) عن النبي ﷺ ، قال : « لما عرج بي إلى السماء دنوت من ربي عز وجل حتى كان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى ، فقال : يا محمد ، من تحب من الخلق ؟ قلت : يا رب ، عليا . قال : فالتفت يا محمد . فالتفت عن يساري ، فاذا علي بن أبي طالب » ^(٢) .

وعن السجاد عليه السلام : « أنا بن من علا فاستعلا ، فجاز سدره المنتهى ، فكان من ربه قاب قوسين أو أدنى » ^(٣) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « أنه اسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى مسيرة شهر ، وعرج به في ملكوت السماوات مسيرة خمسين ألف عام في أقل من ثلث ليلة ، حتى انتهى إلى ساق العرش ، فدنا بالعلم فتدلى ، فدنا له من الجنة رفرف أخضر ، وغشي النور بصره ، فرأى عظمة الله بفؤاده ، ولم يرها بعينه ، فكان قاب قوسين بينهما أو أدنى » ^(٤) .

وفي رواية عن الصادق عليه السلام ، قال : « وكان كما قال الله ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ » قيل : ما قاب قوسين ؟ قال : « ما بين سيتها إلى رأسها » قال : « فكان بينهما حجاب يتألا لا يخفق - ولا أعلمه إلا وقد قال : زبرجد - فنظر في مثل سم الإبرة إلى ما شاء الله من نور العظمة ، فقال الله تعالى : يا محمد ، قال : لبيك ربي . قال : من لا تمك من بعدك ؟ قال : الله تعالى أعلم . قال : علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، وقائد الغر المحجلين » .

ثم قال الصادق عليه السلام : « ما جاءت ولاية علي عليه السلام من الأرض ، ولكن جاءت من السماء مشافهة » ^(٥) .

أقول : الظاهر أن أول حضوره في الحضرة كان قرب قاب قوسين ، ثم صار أقرب ، ولذا ضرب سبحانه عن الحد الأول بقوله تعالى : ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ وأقرب . عن الصادق عليه السلام في رواية : « وكان من الله عز وجل كما قال : ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ أي بل أدنى » ^(٦) .

وقيل : كلمة (أو) للتريد ، والمعنى : أو أقرب على تقديركم أيها المخاطبون ، كما في قوله تعالى : ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ^(٧) فالتريد والشك من جهة العباد ، لا من الله ، لامتناع الشك ^(٨) .

وقيل : إن المعنى فدنا من جبرئيل فتدلى واسترسل جبرئيل نفسه من الافق الأعلى ، وهو مطلع

(١) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٨٦ .

(٢) أمالي الطوسي : ٣٥٢ / ٧٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٦ .

(٣) الاحتجاج : ٣١١ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٦ .

(٤) الاحتجاج : ٢٢٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٧ .

(٥) الكافي ١ : ٣٦٨ / ١٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٧ .

(٦) تفسير الصافي ٥ : ٨٦ .

(٧) الصافات : ٣٧ / ١٤٧ .

(٨) تفسير روح البيان ٩ : ٢١٨ .

الشمس ، كما أنّ افق المغرب الأدنى ، فدنا من النبي ﷺ (١) .

وقيل : إنّ النبي ﷺ أحبّ أن ، يرى جبرئيل في صورته التي خلق عليها ، وكان ﷺ يجبل حراء ، المسمى بجبل النور في قرب مكة ، فقال جبرئيل : إنّ الأرض لا تسعني ، ولكن انظر إلى السماء ، فطلع له جبرئيل من المشرق ، فسدّ الأرض من المغرب ، ومألاً الافق ، فخرّ رسول الله ﷺ كما خرّ موسى في الطور ، فنزل جبرئيل في صور الأدميين ، فضمّه إلى نفسه ، وجعل يمسح الغبار عن وجهه (٢) .

وقيل : إنّ الله تعالى نزل جبرئيل والنبي ﷺ في لقائهما منزلة كبيرين من الناس ، إذا قربا للتعاهد والتعاقد ، ثمّ لما كان جبرئيل بالنسبة إلى النبي ﷺ بمنزلة الرعية إذا أراد أن يبايع السلطان ، فإنّه يقرب منه ويمدّ يده ليضعها في كفّ السلطان ، فإنّه يقرب منه بقدر الباع ، وهو أقصر من القوسين (٣) .

وقيل : إنّ البعد المقدّر بين النبي ﷺ وجبرئيل هو بعد البشرية عن حقيقة الملكية ، فإنّ النبي ﷺ وإن تنزّه عن نقائص البشرية [وزال عن الصفات التي تخالف صفات الملك] من الشهوة والغضب والجهل والبعد عن الله وغيرها من الرذائل [لكن بشريته باقية] ، وجبرئيل [وان ترك الكمال واللفظ الذي يمنع الرؤية والاحتجاب ، لكن لم يخرج عن كونه ملكا ، فارتفع النبي ﷺ حتى بلغ الافق الأعلى من البشرية وجبرئيل] تدلّ إلى الافق الأدنى من الملكية ، فتقاربا ولم يبق بينهما إلّا [اختلاف] حقيقتهما (٤) .

قيل : إنّ معنى الآيات : علّم النبي ﷺ جبرئيل الذي هو كامل القوى للتعليم ، وذو حصافة (٥) في العقل ، فاستوى محمد ﷺ وتكامل للرسالة ، أو استقام جبرئيل على صورته الأصلية في حال كان محمد ﷺ في الافق الأعلى من مراتب كمال الانسانية ، وهو مرتبة النبوة ، ثمّ دنا من جبرئيل وتخلّع بخلعة الرسالة ، ثمّ تدلّ إلى امته بالرفق واللين (٦) .

عن السجّاد عليه السلام - في رواية - « فتدلّ فنظر في تحته ملكوت الأرض حتى ظنّ أنّه في القرب من الأرض كقاب قوسين أو أدنى » (٧) .

﴿فَأَوْحَى﴾ الله بلا واسطة جبرئيل ﴿إِلَى عَبْدِهِ﴾ محمد ، أو جبرئيل إلى رسول الله وعبدّه ﴿مَا أَوْحَى﴾ من عظام الأمور التي لا تسعها العبائر على الأول ، أو ما أوحى الله إلى جبرئيل على الثاني. قيل : إنّ ما أوحى هو الصلاة (٨) .

(١) تفسير أبي السعود ٨ : ١٥٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ٨ : ١٥٥ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢١٤ .

(٣) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٨٦ و ٢٨٧ .

(٤) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٨٧ .

(٥) الحصافة : استحكام العقل وجودة الرأي .

(٦) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٨٦ .

(٧) علل الشرائع : ١٣٢ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٦ .

(٨) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٨٧ .

وعن (الاحتجاج) : هو آية ﴿لَلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ ... الآية (١) .

وقيل : كلّمًا جاء به جبرئيل (٢) .

ويحتمل أنّه الولاية ، عن القمي : سئل رسول الله ﷺ عن ذلك الوحي ، فقال : « أوحى الله إليّ أنّ عليا سيد المؤمنين ، وإمام المتّقين ، وقائد الغرّ المحجلين ، وأول خليفة يخلفه خاتم النبيين » (٣) .

﴿ما كَذَبَ﴾ وما أخطأ الفؤاد الذي لحمد ﴿ما رأى﴾ محمد ﷺ من نور عظمة الله في العرش ، كما روي عن النبي ﷺ (٤) ، أو جبرئيل في الأرض على صورته الأصلية (٥) .

وعن الرضا عليه السلام : ما رأت عيناه [ثمّ أخبر بما رأى] فقال : ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ فأَيّات الله غير الله (٦) .

وقيل : ما رأى فؤاد محمد ﷺ بحقيقة الايمان هو ربّه (٧) ، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : « لم أعبد ربّا لم أره » (٨) .

عن الكاظم عليه السلام أنّه سئل : هل رأى رسول الله ربّه عزّ وجلّ ؟ فقال « نعم ، بقلبه رآه ، أما سمعت الله يقول : ﴿ما كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى؟﴾ ما رآه بالبصر ، ولكن رآه بفؤاده » (٩) .

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « أنّ محمدا ﷺ رأى ربّه بفؤاده » (١٠) .

﴿أَفْتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٢) وَ (١٤)﴾

ثمّ وبّخ سبحانه المشركين على مجادلتهم رسوله فيما أخبر به من رؤيته جبرئيل بقوله :

﴿أَفْتَمَارُونَهُ﴾ وتجادلونه أيّها المشركون ﴿عَلَى مَا يَرَى﴾ من جبرئيل على صورته .

روي أنّ النبي ﷺ لما أخبر برؤيته جبرئيل تعجّبوا منه وأنكروا (١١) .

وعن القمي : بعد الإخبار بما قال الله في عليّ عليه السلام دخل القوم في الكلام ، فقالوا : أمن الله ،

أو من رسوله ؟ فقال جلّ ذكره لرسوله ﷺ : قل لهم : ﴿ما كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ثمّ ردّ عليهم فقال :

(١) الاحتجاج : ٢٢٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٨ ، والآية من سورة البقرة : ٢ / ٢٨٤ .

(٢) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٨٨ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣٣٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٩ .

(٤) مجمع البيان ٩ : ٢٦٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٩ .

(٥) مجمع البيان ٩ : ٢٦٦ .

(٦) الكافي ١ : ٧٥ / ٢ ، التوحيد : ١١١ / ٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٩ .

(٧) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٩٠ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٢٢ .

(٨) التوحيد : ٣٠٥ / ١ ، و : ٣٠٨ / ٢ ، أمالي الصدوق : ٤٢٣ / ٥٦٠ .

(٩) التوحيد : ١١٦ / ١٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٩ .

(١٠) مجمع البيان ٩ : ٢٦٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٩ .

(١١) تفسير روح البيان ٩ : ٢١٨ .

﴿أَفْتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾^(١) .

وقيل : إنّ المعنى : كيف توردون الشكّ على ما يراه بعين اليقين ، ولا شكّ بعد الرؤية ، وأنتم تقولون أصابه الحقّ^(٢) .

ثمّ أكّد سبحانه رؤية محمد ﷺ ربّه بقوله : ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ﴾ محمد ﷺ ﴿نَزْلَةً﴾ ومرة ﴿أُخْرَى﴾ حين رجوعه من العرش ، فإنّ له نزولات وعروجات لسؤال التخفيف على ما قيل^(٣) . وعن كعب : أنّ النبي ﷺ رأى ربّه مرتين^(٤) ﴿عِنْدَ﴾ شجرة ﴿سِدْرَةِ﴾ كانت في السماء السادسة أو السابعة ﴿الْمُنْتَهَى﴾ إليها صعود الملائكة وأعمال العباد ، وهو مقام جبرئيل بحيث لا يمكنه التجاوز ، ولذا تخلف عن النبي ﷺ حين عروجه إلى العرش ، وقال : لو دنوت أمتة لاحتزقت.

عن الباقر عليه السلام ، قال : « فلما انتهى إلى سدرة المنتهى تخلف عنه جبرئيل ، فقال رسول الله ﷺ : يا جبرئيل ، في مثل هذا الموضع تخذلي ؟ فقال : تقدّم أمامك ، فوالله لقد بلغت مبلغاً لم يبلغه خلق من خلق [الله] قبلك ، فرأيت من نور ربّي ، وحال بيني وبينه السّبعة ، قيل : وما السّبعة ؟ فأولها بوجهه إلى الأرض ، وبيده إلى السماء ، وهو يقول : جلال ربّي ، جلال ربّي ، ثلاث مرات »^(٥) .

وعنه عليه السلام ، قال : « ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ يعني عندها وافي به جبرئيل حين صعد إلى السماء ، فلما انتهى إلى محلّ السّدرة وقف جبرئيل دونها ، وقال : يا محمد ، إنّ هذا موقعي الذي وضعني الله عزّ وجلّ فيه ، ولم أقدر على أن أتقدّسه ، ولكن أمض أنت أمامك إلى السّدرة ، فوقف عندها » قال : « فتقدّم رسول الله إلى السّدرة ، وتخلّف جبرئيل » .

قال : « إنّما سمّيت سدرة المنتهى ؛ لأنّ أعمال أهل الأرض تصعد بها الملائكة الحفظة إلى محلّ السّدرة ، والحفظة الكرام البررة دون السّدرة يكتبون ما يرفع إليهم الملائكة من أعمال العباد في الأرض » .

قال : « فينتهون بها إلى محلّ السّدرة » .

قال : « فنظر رسول الله ﷺ فرأى أغصانها تحت العرش وحوله ، فتجلّى لمحمد ﷺ نور الجبار عزّ وجلّ ، فلما غشي النور محمد ﷺ شخص بصره ، وارتعدت فرائضه » قال : « فشدّ الله عزّ وجلّ لمحمد ﷺ قلبه ، وقوى له بصره حتى رأى من آيات ربّه ما رأى ، وذلك قول الله عزّ وجلّ : ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ » .

(١) تفسير القمي ٢ : ٣٣٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٨٩ .

(٢) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٩٠ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٢٢٤ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٢٢٥ ، ولم ينسبه إلى أحد .

(٥) تفسير القمي ٢ : ٢٤٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٠ .

إلى أن قال : « وإنَّ غلظ السدرة لمسيرة مائة عام من أيام الدنيا ، وإنَّ الورقة منها تغطّي أهل الدنيا »^(١) .
وعن النبي ﷺ قال : « رأيت على كلّ ورقة منها ملكا قائما يسبّح الله »^(٢) .
وقيل : إنّها شجرة طوبى^(٣) ، وقيل : إنّها في منتهى الجنة^(٤) . وقيل : ينتهي إليها ما يهبط من فوقها من الأحكام ، ويصعد من تحتها من الآثار^(٥) .
وعن أبي هريرة : لما اسرى بالنبي ﷺ انتهى إلى السدرة ، فقيل له ﷺ : هذه السدرة ينتهي إليها كلّ أحد من أمّتك مات على سنّتك^(٦) .
وعن كعب الأحبار : أنّها سدرة في أصل العرش على رؤوس حملة العرش ، وإليها ينتهي الخلائق ، وما خلفها غيب لا يعلمه إلّا الله^(٧) .
وقيل : إنّ منتهى العلوم^(٨) .
وقيل : إنّ ضمير (رآه) راجع إلى جبرئيل والمعنى : والله لقد رأى محمد ﷺ جبرئيل بصورته الأصلية مرة أخرى من نزوله^(٩) .
نقل عن عائشة أنّها قالت : أنا سألت النبي ﷺ عن ذلك ، فقال : « رأيت جبرئيل نازلا في الافق على خلقته وصورته »^(١٠) .

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى

* لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٥) و (١٨)﴾

ثمّ عظم سبحانه السدرة بقوله : ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ﴾ هي ﴿الْمَأْوَى﴾ والمرجع والمقرّ للمتقين والشهداء والصالحين : أو مأوى آدم وحوّاء.
ثمّ بالغ سبحانه في تعظيم السدرة ببيان وقت رؤية النبي ﷺ ما رأى من نور عظمة الله ، أو جبرئيل ، بقوله : ﴿إِذْ يَغْشَى﴾ قيل : معناه لقد رآه حين يغطّي ويستتر^(١١) ﴿السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ ويغطّيها ما لا يفى البيان كيفاً ولا كمّاً من نور عظمة الله. قيل : لما وصل النبي ﷺ إليها تجلّى ربّه لها ، كما تجلّى للجبل ، ولما كانت أقوى من الجبل ، وقلب محمد ﷺ أربط من قلب موسى عليه السلام لم تندك السدرة ، ولم

(١) علل الشرايع : ٢٧٧ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٠ .

(٢) مجمع البيان ٩ : ٢٦٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٠ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٢٢٥ .

(٤) تفسير أبي السعود ٨ : ١٥٦ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٢٤ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٢٢٤ .

(٦) تفسير روح البيان ٩ : ٢٢٥ .

(٧) تفسير روح البيان ٩ : ٢٢٥ .

(٨) تفسير روح البيان ٩ : ٢٢٥ .

(٩) تفسير روح البيان ٩ : ٢٢٤ .

(١٠) تفسير روح البيان ٩ : ٢٢٥ .

(١١) تفسير روح البيان ٩ : ٢٢٧ .

يتنزل محمد ﷺ . كما اندك الجبل ، وخرّ موسى صعقا ^(١) .

وعن القمي رحمه الله ، لما رفع الحجاب بينه وبين رسول الله ﷺ غشي نوره السدرة ^(٢) .

وقيل : غشتها الملائكة ^(٣) .

عنه ﷺ : « رأيت السدرة يغشيها فراش من ذهب ، ورأيت على كل ورقة منها ملكا قائما يسبح الله » ^(٤) .

وعنه ﷺ : « يغشيها رفر من طيور خضر » ^(٥) .

وقيل : يغشيها جبرئيل ^(٦) .

وهو ﷺ ما شاهد هناك من الامور المحيرة **« ما زاع »** وما مال منه **« البصر »** أدنى ميل عما رآه من العجائب ، وما التفت إلى يمين وشمال لعظمة الهيبة **« وما طغى »** محمد ﷺ وما جاوز عن حد الاستقامة والثبات ، ولم يتوجّه إلى شيء سواه ، بل استغرق في التوجّه إلى الحق واسمائه وصفاته وتجلياته ، أو إلى عجائب مبدعاته بالله **« لقد رأى »** محمد ﷺ في عروجه إلى السماء **« مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ »** الآية **« الْكُبْرَى »** أو آيات هنّ أكبر الآيات . عن الباقر عليه السلام : « يعني أكبر الآيات » ^(٧) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال بعد ذكر الآية : « رأى جبرئيل في صورته مرتين ، هذه المرة ، ومرة اخرى ، وذلك أنّ خلق جبرئيل عظيم ، وهو من الرّوحانيين الذين لا يدرك خلقهم وصفتهم إلّا الله ربّ العالمين » ^(٨) .

وعن الصادق عليه السلام ، أنّه سئل عن هذه الآية فقال : « رأى جبرئيل على ساق الدّرّ ، مثل القطر على البقل ، له ستمائة جناح ، قد ملأ ما بين السماء والأرض » ^(٩) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « ما لله آية أكبر مني » ^(١٠) .

عن القمي ، عن النبي ﷺ ، قال لعلي : « يا علي ، إنّ الله أشهدك معي في سبعة مواطن ، أمّا أوّل ذلك فليلة اسري بي إلى السماء ، قال لي جبرئيل : أين أخوك ؟ فقلت : خلّفته ورائي . قال : أدع الله فليأتك به . فدعوت الله ، فاذا مثالك معي ، وإذ الملائكة وقوف صفوف ، فقلت : يا جبرئيل ، من هؤلاء ؟ قال : هم

(١) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٩٣ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٣٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٩١ .

(٣) الرازي ٢٨ : ٢٩٣ ، تفسير البيضاوي ٢ : ٤٣٩ ، تفسير أبي السعود ٨ : ١٥٧ .

(٤) تفسير أبي السعود ٨ : ١٥٧ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٢٧ .

(٥) تفسير أبي السعود ٨ : ١٥٧ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٢٧ .

(٦) مجمع البيان ٩ : ٢٦٦ .

(٧) علل الشرائع : ٢٧٨ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٠ .

(٨) التوحيد : ٢٦٣ / ٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٩١ .

(٩) التوحيد : ١١٦ / ١٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٩١ .

(١٠) الكافي ١ : ١٦١ / ٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٢ .

الذين يباهيهم الله بك يوم القيامة فدنوت فنطقت بما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، والثاني حين اسر بي في المرة الثانية ، فقال لي جبرئيل : أين أخوك ؟ قلت : خلّفته ورائي . قال : ادع الله فليأتك به . فدعوت الله ، فاذا مثالك معي ، فكشط لي عن سبع سموات حتى رأيت سكّاتها وعمّارها وموضع كلّ ملك منها « الخبر (١) .

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ (١٩) وَ (٢٣)﴾

ثمّ لما قرّر سبحانه النبوة ، ذكر بطلان الشّرك الذي هو أهم ما يكون الرسول مأمورا بتبليغه ، بإظهار سفه القائلين بألوهية الأصنام المعروفة بقوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ﴾ وهي صنم ثقيف في الطائف ﴿وَالْعُزَّىٰ﴾ وهي صنم ، أو سمرة عبدتها قبيلة غطفان ﴿وَمَنَاةَ﴾ وهي صخرة يعبدونها هذيل وخزاعة ، أو صنم للأوس والخزرج ، وهي تكون ﴿الثَّالِثَةَ﴾ للأولين ﴿الْأُخْرَىٰ﴾ والأدون والأذلّ منهما بنات الله وأهلات للعبادة ، أو إنكم رأيتم حقاقتها ، فكيف تشركون بها مع الله تعالى مع كمال عظمتها ؟ عن القمي رحمه الله : اللات رجل ، والعزى امرأته ، ومناة صنم بالمسلك الخارج عن الحرم على ستة أميال (٢) .

قيل : إنّ كون مناة أذلّ من الأولين ؛ لأنّ اللات على صورة الآدمي ، والعزى على صورة نبات ، ومناة على صورة صخرة ، والجماد أدون وأذلّ من الآدمي والنبات ، ومتأخّر رتبة منهما (٣) . وقيل : إنّ المعنى أفرايتم اللات والعزى المعبودين بالباطل ومناة الثالثة المعبودة الاخرى (٤) . ثمّ لما كان محال أن يقول المشركون : نحن نعتزّ بأنّ الله تعالى أعظم من كلّ شيء ، ولكن لما كانت الملائكة بنات الله صوّرنا لهنّ صوراً نعبدنها تعظيماً لهنّ ، فوبّخهم الله على ذلك القول الشنيع بقوله : ﴿أَلَكُمُ﴾ أيّها الجهال الولد ﴿الذَّكَرُ﴾ الذي هو أشرف الاولاد وأكملهم وأنفعهم مع كونكم مخلوق الله وعبيده ﴿وَلَهُ﴾ تعالى مع كمال عظمته وقدرته الولد ﴿الْأُنثَىٰ﴾ الذي هو أحسن الاولاد وأنقصهم (٥) بحيث إذا بشر أحدكم به ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم ﴿تِلْكَ﴾ القسمة أو نسبة البنات إلى الله مع اعتقادكم أنّ ناقصات ، واختياركم البنين مع اعتقادكم أنّهم كاملون ﴿إِذَا﴾ وفي حال كونكم

(١) تفسير القمي ٢ : ٣٣٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٩١ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٣٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٢ .

(٣) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٩٦ .

(٤) تفسير الرازي ٢٨ : ٢٩٦ .

(٥) في النسخة : وأنقصه .

في غاية النقص والحقارة ، وكون الله تعالى في نهاية الكمال والعظمة ﴿قِسْمَةٌ خِصْرِي﴾ وجائرة ، حيث إنّ العقل حاكم بأنّ الله لا يلد ، وعلى فرض الولادة لا يختار لنفسه إلّا الولد الكامل ﴿إِنْ﴾ الالفاظ التي تديرونها على ألسنتكم من قولكم : إنّ الملائكة بنات الله وشفعاؤكم ، وإنّ الأصنام آلهة ، وما ﴿هِيَ﴾ في الواقع والحقيقة ﴿إِلَّا أَسْمَاءُ﴾ لا مسّميات لها ، والألفاظ لا معنى تحتها ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ ووضعتها ﴿أَنْتُمْ﴾ تقليدا لأبائكم ، ﴿وَوَضَعَهَا﴾ ﴿آبَاؤُكُمْ﴾ تبعاً لكبرائهم ، والحال أنّه ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وحجة وبرهان تتمسكون به وتعتمدون عليه.

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى * أَمْ

لِلْإِنْسَانِ مَا تَمْنَى * فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى * وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا

تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٣) و (٢٦)﴾

ثمّ أعرض سبحانه عنهم إيذاناً بسقوطهم عن قابلية الخطاب بسفاههم ، ووجه الخطاب إلى العقلاء بقوله : ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ هؤلاء السفهاء في تسمية الملائكة الذين هم عباد الله المكرمون بنات الله ، واللات والعزى ومناة اللاتي كلهن عجزة وغير شاعرات بالآلهة ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ السيء والحسبان الباطل ﴿وَمَا تَهْوَى﴾ وتشتهي ﴿الْأَنْفُسُ﴾ الأمارّة بالسوء ﴿وَوُجِدَ﴾ الحال أنّه بالله ﴿لَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ﴾ جانب ﴿رَبِّهِمْ﴾ اللطيف بهم ﴿الْهُدَى﴾ وأسباب الرّشاد إلى الحقّ من رسول عليم كريم وكتاب حكيم ، وهم لكثرة جهلهم وعنادهم كذبوها واستهزؤا بهما.

ثمّ أنكر سبحانه عليهم اتّباع الهوى واشتهاء الأنفس بقوله : ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ﴾ وهل له ﴿مَا تَمْنَى﴾ ويشتهي من القول بأنّ الملائكة بنات الله والشفعاء عنده ، وأنّ الاصنام آلهة ، لا والله لا يحصل لهم ما يشتهونه.

ويحتمل أن لا تكون كلمة (أَمْ) منقطعة ، بل متّصلة ، والمعنى : الله القادر على كلّ شيء ما أراد ، أمّ للانسان العاجز عن كلّ ما يشتهي ، فاذا كانوا متّبعين لهواهم وظنونهم ﴿فَلِلَّهِ﴾ وحده الدار ﴿الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ يعاقبهم فيهما على مخالفتهم لله.

قيل : إنّ الآية بيان العلة لانتفاء أن يكون للانسان ما تمناه ^(١) ، والمعنى : ليس للانسان ما تمناه ، لاختصاص امور العالمين به ، فيعطي من أيّهما ما يريد لمن يريد ، وليس لأحد أن يحكم عليه في شيء منهما.

(١) تفسير أبي السعود ٨ : ١٥٩ ، تفسير الصافي ٩ : ٢٣٦ .

ثم أقنطهم سبحانه عن الطمع في شفاعة الملائكة فضلا عن الأصنام بقوله تعالى : ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ﴾ وكثير من الروحانيين الساكنين ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ السبع ﴿لَا تُغْنِي﴾ ولا تنفع ﴿شَفَاعَتُهُمْ﴾ عند الله لأحد ﴿شَيْئاً﴾ من الإغناء والنفع ، وفي وقت من الأوقات ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ لهم في الشفاعة ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أن يشفعوا له ﴿وَيَرْضَى﴾ عنه بتدبيره بالدين المرضي عنده ، وهو الاسلام.

وقيل : يعني من بعد أن يأذن الله لمن يشاء من الملائكة في الشفاعة ، ولا يؤذن لهم إلا في الشفاعة لأهل الإيمان بالتوحيد ^(١) ورسالة خاتم النبيين ، فأنهم آهلين للشفاعة دون الكفار والمشركين ، هذا حال أعظم المخلوقات عند الله ، فكيف حال الأصنام اللاتي هنّ أحسنها ؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُؤْنَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً * فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ (٢٧) و (٣٠)

ثم ذم سبحانه القائلين بانوثة الملائكة بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عن صميم القلب وخلوص النية ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ ودار الجزاء ﴿لَيَسْمُؤْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ الذين هم عباد الرحمن تسمية تشبه ﴿تَسْمِيَةَ الْأُنثَى﴾ ويقولون لهم بنات الله.

قيل : إن القائلين بأن الملائكة بنات الله ، لم يكونوا معتقدين بالمعاد ودار الجزاء ، بل كانوا يقولون لا حشر ولا بعث ^(٢) ، ولو فرض تحقيقه كانت الملائكة والأصنام شفعاتنا ، ولذا اجترأوا على هذا القول ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ ما لهم به شيء ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ وأقل مرتبة من اليقين ، بل ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ ولا يوافقون في قولهم هذا ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ والحسبان ، كما لم يتبعوا في القول بالوهمية الأصنام إلا ذلك ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ﴾ مطلقا ، أي ظن كان ﴿لَا يُغْنِي﴾ ولا يكفي ﴿مِنْ﴾ الوصول إلى ﴿الْحَقِّ﴾ والواقع في العقائد ﴿شَيْئاً﴾ يسيرا من الإغناء والكفاية. قيل : إن المعنى : لا يغني الظن شيئا من الحق ، فإن الحقائق لا تدرك إلا بالعلم ^(٣) .

فلما رأيتهم لا يصغون إلى البرهان ، ولا يعتنون بالقرآن ، ولا ينصرفون عن اتباع الظن والحسبان ﴿فَأَعْرِضْ﴾ يا محمد ﴿عَنْ﴾ دعوتهم إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، لعدم التأثير في

(١) تفسير أبي السعود ٨ : ١٦٠ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٣٧ .

(٢) تفسير الرازي ٢٨ : ٣٠٨ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٣٧ .

(٣) تفسير أبي السعود ٨ : ١٦٠ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٣٨ .

قلوبهم ، فَاتَّحَمَ ^(١) ﴿مَنْ تَوَلَّى﴾ وأعرض بقلبه ﴿عَنْ ذِكْرِنَا﴾ والمنتبهات النازلة من القرآن الذي فيه تبيان كل شيء ، والبراهين المتقنة المثبتة للحق ﴿وَو﴾ ذلك لأنه ﴿لَمْ يُرَدْ﴾ ولم يطلب ﴿إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ومشتياتها ، فأغفلته شدة طلبها والانهماك في لذاتها عن التفكير في مآلها وتبعاتها ، والاعتقاد بعالم الآخرة ودار الجزاء ، ومن غفل عن الآخرة وترك التفكير فيها ، لا يخاف العقوبة على سيئاته ، ولا يرجع عما هو عليه من الباطل ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من حياة الدنيا وشهواتها المحسوسة ﴿مِمَّا لَفُتْهُمْ﴾ وحد ما وصلوا إليه ﴿مِنْ الْعِلْمِ﴾ والادراك ، لا يكاد يجاوزونه إلى المعقولات حتى ينفعهم التعليم والارشاد ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ﴾ خبثت طبيئته ، وقل عقله ، وساءت أخلاقه من كل عالم لو فرض وجوده ، ولذا ﴿صَلَّ﴾ وانحرف ﴿عَنْ﴾ دين الله الذي هو ﴿سَبِيلِهِ﴾ المؤدي إلى قربه ورحمته ضلالا أبديا بحيث لا يرجى أن يرجع إليه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ﴾ طابت طبيئته ، وتنور قلبه ، وانشرح صدره ، وحسنت أخلاقه ، ولذا ﴿اهْتَدَى﴾ إلى دين الحق ، وسلك سبيلا ، ونال خير الدنيا والآخرة ، وفي تكرير قوله : ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ زيادة التقرير والايذان بتباين المعلومين.

قيل : إن معنى (أعلم) هنا العالم الذي لا عالم مثله ^(٢) ، وإنما قدّم سبحانه بيان علمه بضلال الضالين ؛ لأن المقصود تهديدهم وتسليته النبي ﷺ .

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا
وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ
وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ (٣١) و (٣٢)﴾

ثم لما لم يكن العلم بالضلال مرعبا إلا مع القدرة على العقوبة ، بيّن سبحانه كمال قدرته بقوله : ﴿وَلِلَّهِ﴾ تعالى وحده ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إيجادا وإعداما وتصرفا ، ومن الواضح أنه لم يكن خلقهما عبثا ، بل إنما خلق جميع ذلك ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ السوء ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا . وقيل : إن التقدير يعقوبة ما عملوا ^(٣) ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ وأطاعوا رحمهم ﴿بِالْحُسْنَى﴾ والمثوبة العظيمة ، وهي الجنة والنعم الدائمة . وقيل : يعني بالأعمال الحسنى ^(٤) .

ثم بيّن سبحانه المحسنين بقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ الأفعال التي تكون ﴿كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ وعظائم المعاصي من حين بلوغهم أو اسلامهم إلى الموت سواء كانت ترك الواجبات أو إتيان

(١) في النسخة : فان هم .

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ٣ .

(٣) تفسير أبي السعود ٨ : ١٦١ .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ٦ .

المحرمات. ويحتمل أن تكون الجملة لبيان اشتراط قبول الحسنات بالاجتناب عن المعاصي الكبيرة.
وقيل : إنه لما بيّن سبحانه حال المسيئين وحال المحسنين ، بيّن حال من لم يأت بالحسنات ولم يرتكب المحرمات الكبيرة ^(١) ﴿وَالْفَوَاحِشُ﴾ والقبايح الشديدة القبح ، كالشرك والزنا واللواط وقتل النفس المحترمة وسب النبي أو أحد من المعصومين ، فإنها أكبر الكبائر ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ وما يفعله مرة واتفاقاً من غير عادة ولا استمرار عليه.

عن ابن عباس ، قال : معناه إلا أن يلمّ بالفاحشة مرة ثم يتوب ، ولم يثبت عليه ، فإن الله يقبل توبته ^(٢) .

عن الصادق عليه السلام . قال : « الفواحش : الزنا والسرقة ، واللمم : الرجل يلمّ بالذنب فيستغفر الله منه » ^(٣) .

أقول : يلمّ بالذنب. أي يقره ويرتكبه ولا يقيم عليه.
وعنه عليه السلام : « ما من ذنب إلا وقد طبع عليه المؤمن ، يهجره الزمان ثم يلمّ به وهو قول الله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَخْتَبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ » قال : « اللّمّ : العبد الذي يلمّ بالذنب بعد الذنب ، ليس بسليقته » أي من طبعه ^(٤) .

أقول : « وقد طبع عليه المؤمن » أي يرغب إليه بطبعه وقوله : « ثم يلمّ به » أي يرتكبه ويقع فيه اتفاقاً ، وقوله « يلمّ بالذنب بعد الذنب » أي يقره مرة بعد مرة من باب الاتفاق لا للعادة كما عن بعض ، قال : اللّمم والإلمام : ما يعملّه الانسان الحين بعد الحين ، ولا يكون له عادة ولا إقامة عليه ^(٥) .
أقول : على ذلك يكون الاستثناء متصلاً ، وقيل : إنّ كلمة (إلا) بمعنى غير ، والمعنى والفواحش غير اللّمم ^(٦) . وقيل : إنّ الاستثناء منقطع ، والمراد باللّمم المعاصي الصغيرة ^(٧) .

وروي أنّ نبهان التمار أخته امرأة لتشتري التمر ، فقال لها : ادخلي الحانوت ، فعانقها وقبلها ، فقالت المرأة : خنت أخاك ولم تصب حاجتك ، فندم وذهب إلى رسول الله ﷺ فنزلت ^(٨) .
أقول : نزول الآية في مورد الصغيرة الواقعة من باب الاتفاق ، لا ينافي شمولها لكبيرة الاتفاقية ، ودلالة الآية على قبول التوبة من جميعها ، بل مغفرته بلا توبة ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ لا تضيق مغفرته عن ذنوب جميع الخلق ، إلا أنه تعالى أوجب التوبة ووعد بقبولها.

﴿هُوَ أَغْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٦ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٢٤٢ .

(٣) الكافي ٢ : ٢١٢ / ٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٤ .

(٤) الكافي ٢ : ٣٢٠ / ٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٤ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٢٤٢ .

(٦) تفسير الرازي ٢٩ : ٨ .

(٧) تفسير روح البيان ٩ : ٢٤٢ .

تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢)

ثم قرر سبحانه علمه بأعمال عباده وأحوالهم بقوله : ﴿هُوَ﴾ تعالى ﴿أَعْلَمُ﴾ من كل أحد ﴿بِكُمْ﴾ أيها الناس وبأحوالكم ﴿إِذْ أَنْشَأَكُمْ﴾ وحين خلقكم في ضمن خلق أبيكم آدم ﴿مِنْ﴾ تراب ﴿الْأَرْضِ﴾ ثم من نطفة ﴿وَإِذْ أَنْشَأَكُمْ أَجْنَةً﴾ ووقت كونكم أولادا مستوزين ومتمكّنين ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ وظلمات أرحامهنّ على أطوار مختلفة ، فإذا كان الأمر كذلك ﴿فَلَا تُرْكُوا﴾ ولا تنزهوا ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ من الضلالة والمعصية وذمائم الأخلاق ﴿هُوَ﴾ تعالى ﴿أَعْلَمُ﴾ من كل أحد ﴿بِمَنِ اتَّقَى﴾ وأحترز من الضلالة والشرك والمعاصي قبل أن يخرج من صلب آدم. قيل : كان ناس يعملون أعمالا حسنة ، ثم يقولون : صلاتنا وصيامنا وحجّنا ، فنزلت الآية (١) .

عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال : « لا يفخر أحدكم بكثرة صلاته وصيامه وزكاته ونسكه ؛ لأنّ الله يقول : ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ » (٢) .

وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل عنها فقال : « قول الانسان : صليت البارحة ، وصمت أمس ، ونحو هذا » ثم قال : « إنّ قوما يصبحون فيقولون : صلينا البارحة ، وصمنا أمس ، فقال عليّ : لكّفي أنام الليل والنهار ، ولو أجد بينهما شيئا لنمته » (٣) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « لو لا ما نهي الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمّة ، تعرفها قلوب المؤمنين ، وتمجّها آذان السامعين » (٤) .

قيل : لما نزل ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى﴾ قال لنبية ﷺ : قد علم الله كونك ومن معك على الحقّ ، وكون المشركين على الباطل ، فأعرضوا (٥) عنهم ، ولا تقولوا : نحن على الحقّ وأنتم على الضلال ؛ لأنّهم يقابلونكم بمثل ذلك ، وفوض الأمر إلى الله فأنّه أعلم بمن اتقى ومن طغى (٦) .

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٣) وَ (٣٤)﴾

ثمّ لما أمر سبحانه النبي ﷺ بالتوليّ عن المتولّين عن ذكره ، أظهر العجب من غاية شقاء بعض المتولّين عن ذكره بقوله : ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ يا محمد ، الكافر ﴿الَّذِي تَوَلَّى﴾ وأعرض عن ذكرنا حتى تتعجّب من أنّه كيف تولى تولىا فظيعا ، وأعرض إعراضا شنيعا ﴿وَأَعْطَى﴾ شيئا ﴿قَلِيلًا﴾ من ماله

(١) تفسير أبي السعود ٨ : ١٦٢ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٤٤ .

(٢) علل الشرائع : ٦١٠ / ٨١ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٤ .

(٣) معاني الأخبار : ٢٤٣ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٤ .

(٤) الاحتجاج : ١٧٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٥ .

(٥) في تفسير الرازي : فأعرض .

(٦) تفسير الرازي ٢٩ : ١٠ .

لغيره ، ليتحمّل عنه وزره وعذاب الآخرة ﴿وَأَكْثَى﴾ وبخل بإعطاء باقي ما شرط إعطاءه فخالف حكم العقل ؛ لأنّه أعطى ليحمل الوزر ، وهو لا يحصل له ، وخالف العرف لأنّه خالف عهده.

ذكر طعن في عثمان وردّ الفخر الرازي

حكى الفخر الرازي عن بعض المفسرين : أنّها نزلت في الوليد بن المغيرة ، قالوا : إنّّه جلس عند النبي ﷺ ، وسمع وعظّة ، فأثّرت الحكمة فيه تأثيراً قوياً ، فقال له رجل : لم تترك دين آبائك ؟ ثمّ قال له : لا تخف أعطني كذا وأنا أتحمل أوزارك ، فأعطاه بعض ما التزمه ، وتولّى عن الوعظ وسماع الكلام من النبي ﷺ .

ثمّ قال الفخر : وقال بعض المفسرين : نزلت في عثمان ، كان يعطي من ماله عطاء كثيراً ، فقال له أخوه من أمّه عبد الله بن سعد بن أبي سرح : يوشك أن يفنى مالك ، فأمسك. فقال عثمان : إنّ لي ذنوباً أرجو أن تغفر لي بسبب العطاء فقال له أخوه : أنا أتحمل عنك ذنوبك على أن تعطيني ناقتك مع كذا. فأعطاه ما طلب ، وأمسك يده عن العطاء ، فنزلت.

ثمّ قال الفخر : وهذا قول باطل ؛ لأنّه لم يتواتر ذلك ، ولا اشتهر ، وظاهر حال عثمان يأبى ذلك ^(١) .

أقول : ظاهر حال عثمان من شدّة حماقته مؤيد لصديق الرواية ، لوضوح أنّ عثمان كان أشدّ حمقاً من الوليد بن المغيرة الذي كان عند قريش مشهوراً بالعقل والزّانة والفطنة ، فكيف يقبل هذا العمل من الوليد ، ولا يقبل من عثمان مع صدور ما هو أفصح منه ، حيث إنّ السّدّي الذي كان من قدماء المفسرين وعظمائهم روى في تفسير قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ إلى آخر الآيات أنّه نزلت في عثمان بن عفان ، قال : لما فتح رسول الله ﷺ بني النضير ، فقسّم أموالهم ، فقال عثمان لعلي : إئت رسول الله ﷺ واسأله أرض كذا وكذا ، فإن أعطاكها فأشركني فيها ، وأنا أتبه وأسأله ، فأنت شريكي فيها ، فسأله عثمان أولاً فأعطاه إياها ، فقال علي عليه السلام : « أشركني » فأبى عثمان ، فقال : بيني وبينك رسول الله ﷺ ، فأبى أن يخاصمه إلى النبي ﷺ ، فقليل له : لم لا تنطلق معه إلى النبي ﷺ ؟ فقال : هو ابن عمّه ، فاحاف أن يقضي له ، فنزلت ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الخبر ^(٢) .

﴿أَعْنَدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهَوَ يَرَى * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَرَىٰ وَاِزْرَةً وُزِّرَ أُخْرَى * وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يَرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى * وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (٣٥) و (٤٢)

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ١١ .

(٢) والآيات من سورة النور : ٢٤ / ٤٧ و ٤٨ .

ثم أنكر سبحانه عليهم اعتقادهم ، بتحمل الغير وزرهم بقوله : ﴿اعْنُدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ﴾ من أنه يحمل الغير وزره يوم القيامة مع أنه غائب عنهم ﴿فَهُوَ يَرَى﴾ بقلبه ويعتقد بجنانه أنه يتخلص من العقوبة على سيئاته بتحملها غيره ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ﴾ ولم يخبر بتوسط النبي ﷺ ، أو غيره من أهل الكتاب ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ وأسفار التوراة أو ألواحها ﴿وَوُحْيٍ﴾ بما في صحف إبراهيم الذي وُحِّيَ بما عاهد الله ، وبالغ في العمل بأوامره. وقيل : يعني وُحْيٍ وأتم ما ابتلي به من الكلمات (١) .

وعن الباقر عليه السلام ، أنه سئل ما عني بقوله : ﴿وإبراهيم الذي وُحِّيَ؟﴾ قال : « كلمات بالغ فيهن قيل : وما هن؟ قال : « كان إذا أصبح قال : أصبحت وربِّي محمود ، أصبحت لا أشرك بالله شيئاً ، ولا ادعو مع الله إلهاً ، ولا أجد من دونه ولياً - ثلاثاً - وإذا أمسى قال ثلاثاً » (٢) .

وروى بعض العامة عن النبي ﷺ أنه قال : « ألا أخبركم لم سمى الله الخليل الذي وُحِّيَ؟ كان يقول إذا أصبح وأمسى : ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ* وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ » (٣) .

ثم بين سبحانه ما في صحفهما بقوله : ﴿أَلَا تَرَى وَارِدًا رِزْرًا أُخْرَى﴾ ولا يعاقب أحد بذنب غيره ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ﴾ ثواب وأجر ﴿إِلَّا﴾ ثواب ﴿مَا سَعَى﴾ وله جد في تحصيله ، فلا يثاب أحد على عمل غيره ، وأما إثابهم على عمل من ناب عنهم ، فإن كانت النيابة باستدعاء المناب عنه فهو ثواب على عملهم ، وإن كان عمل النائب تبرعاً وبغير الاستدعاء فهو من آثار إيمانهم المكتسبة بسعيهم. وعن ابن عباس وعكرمة : أنه منسوخ في شريعة خاتم النبيين ﷺ ، فإن المؤمنين يثابون بصدقات إخوانهم المؤمنين وعبادتهم عنهم في هذه الشريعة (٤) .

وقيل : إن الإثابة في المورد وأمثاله بالفضل (٥) ، فلا نسخ على هذا وعلى الأول. ﴿وَوُحْيٍ﴾ فيها ﴿أَنْ سَعِيَّةٌ﴾ وعين ما عمله محفوظ عند ربّه و﴿سَوْفَ يَرَى﴾ ويعاين ذلك العمل بصورته الواقعية في القيامة ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ﴾ ويثاب عليه في ذلك اليوم ﴿الْجِزَاءَ الْأَوْفَى﴾ والثواب الأكمل الأوفر الذي لا يمكن أكمل ولا أوفر منه ﴿وَوُحْيٍ﴾ فيها ﴿أَنْ إِلَى رَبِّكَ﴾ يا محمد ، أو أيها العاقل ، لا إلى غيره ﴿الْمُنْتَهَى﴾ أو المصير لجميع الخلائق بعد الموت وحين البعث ، فيجازي كلا منهم على

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٢٤٦ .

(٢) الكافي ٢ : ٣٨٨ / ٣٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٥ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٢٤٦ ، والآيات من سورة الروم : ٣٠ / ١٧ و ١٨ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٢٤٧ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٢٤٨ .

حسب أعمالهم ، إنّ خيرا فخير ، وإنّ شرا فشرّا.

وقيل : إنّ المراد أنّ منتهى جميع الممكنات في الوجود إلى الواجب ، ولو بالوسائط ، لوضوح أنّ ما بالغير لا بدّ أن ينتهي إلى ما بالذات ^(١) .

وعن أبي بن كعب : أنّه قال النبي ﷺ : « **﴿أَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾** لا فكرة في الربّ » ^(٢).

وعن أنس ، عنه ﷺ ، أنّه قال : « إذا ذكر الربّ فانتها » أي اقطعوا التكلم فيه ^(٣) .

وعن الصادق عليه السلام : « أنّ الله يقول : **﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾** فإذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا » ^(٤) .

وعن الباقر عليه السلام : قيل له : إن الناس قبلنا قد أكثروا في الصفة ، فما تقول ؟ قال : « مكروه ، أما تسمع الله عزّ وجلّ يقول : **﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾** تكلموا دون ذلك » ^(٥) .

أقول : يعني النظر في ذاته وصفاته ، فأنّه لا تزيد إلّا تحيّرًا لقصور العقول بالغة ما بلغت عن إدراكها بكنهها ، فإذا انتهى النظر إليها فقفوا.

**﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوجَيْنِ
الدَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى * وَأَنَّهُ هُوَ
أَعْنَى وَأَقْنَى * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ السَّعْرَى * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَتَمُودَ فَمَا
أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ أَنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى
فَعَشَاهَا مَا غَشَّى﴾** (٤٣) و (٥٤)

ثمّ بيّن سبحانه كمال قدرته الموجبة لأرغاب القلوب بقوله : **﴿وَأَنَّهُ هُوَ﴾** تعالى بقدرته الكاملة **﴿أَضْحَكَ﴾** الانسان **﴿وَأَبْكَى﴾** روي عن عائشة : أنّ النبي ﷺ مرّ على قوم يضحكون ، فقال : « لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ، ولضحكتكم قليلا » فنزل جبرئيل فقال : إنّ الله يقول : **﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾** فرجع ﷺ إليهم ، فقال : ما خطوط أربعين خطوة حتى أتاني جبرئيل فقال : إئت هؤلاء القوم ، فقل لهم : إنّ الله يقول : **﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾** ^(٦) .

قيل : أي أضحك الأرض بالنبات والأشجار والأنوار ، وأبكى السماء بالأمطار ، كما عن القمي ^(٧) . فمن قدر على إيجاد الضدّين ، لا نهاية لقدرته ؟

(٢١) تفسير الرازي ٢٩ : ١٧ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ١٧ .

(٤) الكافي ١ : ٧٢ / ٢ ، التوحيد : ٤٥٦ / ٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٦ .

(٥) التوحيد : ٤٥٧ / ١٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٦ .

(٦) تفسير روح البيان ٩ : ٢٥٤ .

(٧) تفسير القمي ٢ : ٣٣٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٦ .

﴿وَأَنَّهُ﴾ تعالى وحده ﴿هُوَ أَمَاتٌ﴾ الأحياء ﴿وَأَحْيَا﴾ الموتى ، ولا يقدر عليهما غيره ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الرُّوحَيْنِ﴾ والصنفين من كلِّ حيوان ﴿الدَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ مع كونهما متضادَّين ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وماء متكوّن في الصّلب ﴿إِذَا تُمْنَى﴾ وتدفق في الرّحم ، أو تتحوّل من الدم مع اتخاذ صورتها. وقيل : معنى (إذا تمنى) إذا قدّر منها الولد ^(١) .

﴿وَأَنَّ﴾ الله يحب ﴿عَلَيْهِ﴾ بحكم العقل ومقتضى الحكمة أن يوجد ﴿النَّشْأَةُ الْآخَرَى﴾ ويعيد الخلق فيها تارة اخرى ، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالمشوبة الحسنى. وقيل : إنّ المراد من النشأة الاخرى نفخ الروح الانساني في الجسد ^(٢) بعد خلقه وتكميل أجزائه وصورته ، كما قال سبحانه : ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ ^(٣) .

﴿وَأَنَّهُ﴾ تعالى ﴿هُوَ أَغْنَى﴾ الانسان ، وأعطاه جميع ما يحتاج إليه في تعيّشه ﴿وَأَفْنَى﴾ وأعطاه القنية والأموال المدخرة الباقية كالإبل والبقر والغنم والمرعى الطيب والرياض النضرة. وعن الصادق عليه السلام ، عن آبائه ، عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه في هذه الآية. قال : « أغنى كلّ إنسان بمعيشته ، وأرضاه بكسب يده » ^(٤) .

﴿وَأَنَّهُ﴾ تعالى ﴿هُوَ﴾ بالخصوص ﴿رَبِّ﴾ الكوكب ﴿الشَّعْرَى﴾ قيل : إنّه كوكب يطلع خلف الجوزاء ، تبعده خزاعة ^(٥) .

وعن القمي عليه السلام ، قال : نجم في السماء يسمى الشعري ، وكانت قريش وقوم من العرب يعبدونه ، وهو نجم يطلع في آخر الليل ^(٦) . والمعنى : أعبدوا الربّ دون المربوب. وقيل : في النجوم شعريان : أحديهما شامية ، والاخرى يمانية ، وكان العرب يعبدون اليمانية ^(٧) . ﴿وَأَنَّهُ﴾ تعالى ﴿أَهْلَكَ﴾ بالعذاب ﴿عَادًا الْأُولَى﴾ وهم قوم هود ، قدّم ذكرهم ووصفهم بالاولى ؛ لأنّهم أولى الامم هلاكا بعد قوم نوح. وقيل : إنّ عادا الاخرى من نسلهم ، وهي التي قاتلها موسى بأريحا ^(٨) .

﴿وَأَهْلَكَ﴾ ﴿ثُمَّوْدَ﴾ بالصيحة ﴿فَمَا أَبْقَى﴾ على وجه الأرض منهم ، أو من الفريقين أحدا ، لكفرانهم نعم ربّهم ، وطغيانهم عليه بعد إغنائهم وإقنائهم ﴿وَأَهْلَكَ﴾ ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾ بالطوفان والغرق ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفي العصر السابق على أعصار سائر الامم المهلكة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ على نبيّهم

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٢٥٥ .

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ٢١ .

(٣) المؤمنون : ٢٣ / ١٤ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٣٩ ، معاني الأخبار : ٢١٤ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٧ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٢٥٧ .

(٦) تفسير القمي ٢ : ٣٣٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٧ .

(٧) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٣ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٥٧ .

(٨) تفسير روح البيان ٩ : ٢٥٧ .

نوح ﴿هُم أَظْلَمُ﴾ من الفريقين ، حيث كانوا يؤذونه ويضربونه حتى لا يبقى له حراك ﴿وَأَطْعَى﴾ عليه ، أو على رَّحْمٍ منهم. قيل : كانوا ينفرون الناس عنه ، ويجذرون صبيانهم من أن يقربوا منه ويستمعوا وعظه^(١) . ﴿و﴾ أهلك القرى ﴿الْمُؤْتَفِكَةَ﴾ والمنقلبة بأهلها بحيث جعل عاليها سافلها ، وهي قرى قوم لوط ، فإنَّ الله ﴿أَهْوَى﴾ وأسقطها إلى الأرض بعد رفعها إلى السماء على جناح جبرئيل. وقيل : يعني ألقاها في الهاوية^(٢) . وقيل : كانت بيوتهم مرتفعة ، فأهواها الله بالزلزلة ، وجعل عاليها سافلها^(٣) . وقيل : إنَّ المراد من المؤتفكة كل قوم انقلبت مساكنهم ، وخربت منازلهم^(٤) ، وهو خلاف الظاهر ، بل الظاهر أنَّ المراد القرى المعهودة لقوم لوط.

﴿فَعَسَاها﴾ واحاط بها ﴿مَا غَشَى﴾ ها ، وأحاط بها من أنواع العذاب ، وفي إيهام عذابهم ما لا نهاية له من التهويل.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ * هذا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى * أَرْفَتِ الْأَرْفَةُ *

لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٥) و (٥٨) ﴿﴾

ثمَّ إنَّه تعالى بعد تعداد نعمه على الانسان من خلق الذكر والانثى ، وإغنائه وإقنائه ، وإهلاك الظَّلمة والطَّغاة ، ونصرة انبيائه ورسله ، تبَّه على أنَّه لا مجال للشكِّ في نعمه بقوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ﴾ ونعمه أيها الانسان ﴿تَتَمَارَى﴾ وتشكُّ أو تجادل إنكاراً له. وقيل : إنَّ الخطاب للنبي ﷺ من باب التعريض بالغير^(٥) على طريقة : إياك أعني واسمعي يا جارة.

قيل : إنَّ الله عدَّ النَّقم التي ذكرها قبل الآلاء نعماً من أجل أنَّها عبر للمعتبرين ، ونصرة للأنبياء والمرسلين والمؤمنين^(٦) .

ثمَّ لما ذكر سبحانه إهلاك الامم المكذبة لرسولهم أشار إلى النبي ﷺ بقوله : ﴿هذا﴾ الشخص الشريف الذي يدعوكم أيها الناس إلى التوحيد ودين الحق ، ويرشدكم إلى سعادة الدارين ﴿نَذِيرٌ﴾ لكم من الله تعالى ، ورسول مبعوث من قبله ﴿مِّنْ﴾ جملة ﴿النَّذْرِ الْأُولَى﴾ ومن قبيل الرسل السابقة ، فلا تكذبوه فإنَّه يصيبكم ما اصاب الامم المكذبة لرسولهم.

(١) تفسير أبي السعود ٨ : ١٦٥ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٥٨ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٢٥٨ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٤ .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٤ .

(٥) تفسير أبي السعود ٨ : ١٦٥ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٥٨ .

(٦) تفسير البيضاوي ٢ : ٤٤٣ ، تفسير أبي السعود ٨ : ١٦٥ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٥٨ .

عن الصادق عليه السلام - في رواية - : أنه سئل عن الآية ، فقال : « يعني محمدا » (١) .

وقيل : إنّ كلمة (هذا) إشارة إلى القرآن ، والمعنى أنّ هذا القرآن الذي تشاهدونه وتسمعونّه إنذار من قبيل الانذارات المتقدمة التي سمعتم عاقبتها (٢) ، فان اتّعظتم به فهو خير لكم وسعادتكم ، وإلا فلو فرض أنّا لا نعذبكم في الدنيا نعذبكم بالعذاب الشديد في القيامة ، فأنّه قد ﴿أَرَفَّتْ﴾ وقربت تلك القيامة التي هي ﴿الْآزِفَةُ﴾ والقريبة منكم كل يوم وكلّ ساعة بحيث تضيق عليكم وقت التدارك لها و ﴿لَيْسَ﴾ في عالم الوجود ﴿لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومن قبل غيره نفس ﴿كَاشِفَةٌ﴾ ومخبرة عنها كما هي ومتى يكون وقتها ، أو المعنى : ليس لها نفس قادرة على ردّها وإزالتها عند وقوعها في الوقت المقدّر لها إلا الله.

﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾

* فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٥٩) و (٦٢)﴾

ثمّ أنكر سبحانه على المشركين المستهزئين بالقرآن ، أو بالأخبار بقرب القيامة بقوله تبارك وتعالى : ﴿أَفَمِنْ هَذَا﴾ القرآن الذي هو أحسن ﴿الْحَدِيثِ﴾ أو من حديث قرب القيامة ، أو ممّا تقدّم من الأخبار ، كما عن الصادق عليه السلام (٣) .

أنتم ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكارا ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ سخرية واستهزاء ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ على سوء حالكم ووخامة عاقبتكم وقرب ابتلائكم بالعذاب والشدائد ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ وغافلون عن نتائج أعمالكم القبيحة ، أو مستكبرون عن الإيمان بالرسول والقرآن والحشر ، مع أن الحق أن تبكوا كثيرا ، وتضحكوا قليلا ، وتؤمنوا به سريعا ، وتخضع له قلوبكم ، وتخضع له جوارحكم.

روى أنّ النبي ﷺ لم ير ضاحكا بعد نزول هذه الآية (٤) .

عن أبي هريرة : لما نزلت الآية بكى أهل الصّفة حتى جرت دموعهم على خدودهم ، فلمّا سمع رسول الله ﷺ حنينهم بكى معهم ، وبكى لبكائه ، فقال ﷺ : « لا يلج النار من بكى من خشية الله ، ولا يدخل الجنة مصرّ على معصية الله » .. الخبر (٥) .

سجدة واجبة

ثمّ لما وّبح سبحانه المشركين على التعجّب من كون القرآن من جانب الله تعالى ، وعلى استهزائهم به ، أمر المؤمنين بأداء شكر نعمة نزوله عليهم بقوله : ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ أيّها المؤمنون

(١) تفسير القمي ٢ : ٣٤٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٨ .

(٢) تفسير أبي السعود ٨ : ١٦٥ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٥٩ .

(٣) مجمع البيان ٩ : ٢٧٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٨ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٢٦٠ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٢٦٠ .

شكرا على هدايتكم بالقرآن ﴿وَأَعْبُدُوا﴾ الله خالصا مخلصا له الدين ، ولا تعبدوا غيره.
قد حكى كثير من الأصحاب وجوب السجود على من تلاها ، أو استمع تلاوتها ، ودلت عليه
الأخبار المعتبرة.

عن الصادق عليه السلام : « من كان يدمن قراءة سورة النجم في كل يوم ، أو في كل ليلة ، عاش
محمودا بين الناس ، وكان مغفورا له ^(١) ومحبوفا بين الناس ، أو عند الله تعالى » ^(٢) .

(١) في ثواب الاعمال : موفورا له.

(٢) ثواب الاعمال : ١١٦ ، مجمع البيان ٩ : ٢٥٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٨ ، في ثواب الاعمال إلى كلمة : الناس ، وفي تفسير الصافي : الناس إن شاء الله.

في تفسير سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اَفْتَرَيْتِ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١)﴾

ذكر معجزة شق القمر

ثمّ لما ختمت سورة النجم المحتتمه بأثبات النبوة ، والإخبار بقرب القيامة ، وتوبيخ المشركين على إنكارها ، نظمت سورة القمر المبدوءة بالإخبار بقرب يوم القيامة ، والاستدلال عليه بانشقاق القمر باعجاز النبي ﷺ الذي هو من أشراط الساعة ، وتوبيخ المشركين على إنكار بنوّته ، ونسبة معجزاته إلى السحر واتباعهم هوى أنفسهم ، فابتدأها بذكر الأسماء الحسنی بقوله تعالى : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ . ثمّ افتتحها بالإخبار بقرب القيامة بقوله : ﴿اَفْتَرَيْتِ السَّاعَةَ﴾ ودنت القيامة ، وقرب قيامها ووقوعها .

روي عن النبي ﷺ أنّه قال : « أنا والساعة كهاتين » ^(١) وضمّ وجمع بين سبأته ووسطاه .

وعنه ﷺ : « أنّ الله جعل الدنيا قليلا ، فما بقي منها قليل من قليل » ^(٢) .

وعنه ﷺ : « مثلي ومثل الساعة كفرنسي رهان » ^(٣) .

ثمّ لما كان انشقاق القمر من أشراط الساعة ، قرن سبحانه الإخبار به باقترابها بقوله : ﴿وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وصار فلقين ، وحصلت آية اقترابها .

روي أنّه خطب حذيفة بن اليمان بالمدائن ، وكان من خطبته : ألا إنّ الساعة قد أقتربت ، وإنّ القمر قد انشقّ على عهد نبيكم ^(٤) .

وعن ابن عباس رضوان الله عليه : أنّه اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إن كنت صادقا فشقّ لنا القمر فرقتين . فقال لهم : « إن فعلت تؤمنوا ؟ » فقالوا : نعم . وكانت ليلة بدر ، فسأل ربّه أن يعطيه ما قالوا ، فانشقّ القمر فرقتين ، ورسول الله ﷺ ينادي : « يا فلان ، يا فلان ، اشهدوا » ^(٥) .

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٩ و ٣٠ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٢٦٢ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٢٦٣ .

(٤) مجمع البيان ٩ : ٢٨١ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٩ .

وفي رواية : فرغ رسول الله ﷺ إصبعه ، وأمر القمر بأن ينشق نصفين ، فانفلق فلقتين : فلقة ذهبت عن موضع القمر ، وفلقة بقيت في موضعه (١) .

وعن جبير بن مطعم : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى صار فرقتين على هذا الجبل ، فقال ناس : سحرنا محمد . فقال رجل : إن كان سحرهم ، فلم يسحر الناس كلهم (٢) .

وفي رواية ، قال كفار قريش : سحرهم ابن أبي كبشة ، فقال رجل منهم : إن كان محمد سحر القمر بالنسبة إليكم ، فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر جميع أهل الأرض ، فاسألوا من يأتيكم من البلاد ، فاسألوا أهل الآفاق فأخبروا كلهم بذلك (٣) .

وعن ابن مسعود : رأيت حراء بين فلقتي القمر (٤) .

قال بعض العامة : عليه عامة الصحابة وجلّ المفسرين (٥) .

وعن (شرح المواقف) : أنّ خير انشقاق القمر متواتر (٦) .

في ردّ التشكيك في صحّة شقّ القمر

اقول : كفى في ثبوته اشتهاؤه بين المسلمين من قديم الدهر ، بحيث كان من المسلّمات ، والتشكيك فيه بأنّه لو كان واقعا لنقله جميع الفرق وأهل التواريخ من سائر الأديان ، لكونه من عظام الامور ، وتوقّر الدواعي إلى نقله ، ساقط عن الاعتبار ، لوضوح عدم التفات كثير من الناس إلى الأوضاع الفلكية ، كما نرى أنّ كثيرا ما لا يلتفتون إلى كسوف القمر ، كما أنّه يمكن وقوعه في وقت كان أكثر الناس نياما ، أو اختفاؤه (٧) عن قوم دون قوم بسبب الغيم واختلاف الافق ، واقتضاء حكمته تعالى صرف كثير من الناس عن التوجّه إليه ، لتتمّ الحجّة على الحاضرين والمقترحين ، ويقع الاختلاف في غيرهم ، مع اخبار الله به في كتابه ونقل الثقات إياه.

﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمٍّ مُسْتَقِرَّةٌ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حَكَمَةٌ بِالْعَمَى فَمَا تَنْغِي النَّذْرُ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ * خَشَعُوا أَبْصَارَهُمْ * يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٢) وَ (٨)﴾

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٢٦٤ .

(٢) مجمع البيان ٩ : ٢٨٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٩٩ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٢٦٤ .

(٤) تفسير أبي السعود ٨ : ١٦٧ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٦٤ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٢٦٣ .

(٦) تفسير روح البيان ٩ : ٢٦٣ .

(٧) في النسخة : واختفاؤه .

ثمَّ إِنَّه تعالى بعد إخباره بهذه الآية العظيمة والمعجزة الباهرة ، وبَّخ الكفَّار على إنكاره ونسبتها إلى السحر بقوله : ﴿وَإِنْ يَرَوْا﴾ بأعينهم ﴿آيَةً﴾ ومعجزة عظيمة دالة على صدق النبي ﷺ كشق القمر ، وحسين الجذع اليابس ، والإخبار بالمغيبات وغيرها ﴿يُغْرِضُوا﴾ عن التأمل فيها ، ولا يعتنوا بما عنادا ولجاجة ﴿وَيَقُولُوا﴾ دفعا لدالاتها على صدق النبي ﷺ : هذه الخوارق للعادات التي يعجز الناس عن الاتيان بمثلها ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ ومطرّد يأتي به محمد على مرّ الزمان بحيث يتبع بعضه بعضا ، أو سحر قويّ محكم بحيث يؤثر في السماويات والفلكيات ، أو سحر مازّ ذاهب لا بقاء له ، وذلك القول لأنهم أنكروا نبوة محمد ﷺ عنادا ولجاجة ﴿وَكَذَّبُوا﴾ هـ في دعوى رسالته ، أو في إخباره بقرب الساعة ، أو كذبوا معجزاته ونسبوها إلى السحر والكهانة ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ في تكذيبه ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ وشهوات أنفسهم على عادتهم القديمة ﴿وَكُلٌّ أُمَمٌ﴾ من الخير والشرّ ﴿مُتَّبِعُونَ﴾ وثابت منته بالآخرة ^(١) إلى خذلان ونصرة في الدنيا وشقاوة وسعادة في الآخرة.

ثمَّ لما حثّهم سبحانه إلى الإيمان والعمل ببيان اقتراب الساعة وإقامة الدليل عليه بوقوع انشقاق القمر ، وهو من أشراط الساعة ، وتوبيخهم على إنكار المعجزات وتكذيب الرسول ﷺ واتباعهم هوى أنفسهم ، بيّن سبحانه غاية خبثهم وعدم تأثرهم بالمواعظ بقوله : ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ في القرآن وسائر الكتب السماوية ﴿مِّنَ الْأَنْبَاءِ﴾ الموحشة والأخبار العظيمة الهائلة من ابتلاء الامم الماضية بأنواع العذاب في الدنيا على تكذيبهم الرسل ﴿مَا فِيهِ مُّزْدَجَرٌ﴾ ورادع عن التكذيب والعصيان ، ومانع عن السوء والطغيان ، وصارف عن اتباع الهوى ، ومن الواضح أنّ تلك الامور التي فيها عظة ، أو الأنباء التي في القرآن ﴿حِكْمَةٌ بِالْعَمَةِ﴾ غايتها لا خلل فيها ، أو بالغة غاية الإنذار والوعظ ﴿فَمَا تُغْنِ﴾ ولا تفيد هداية النفوس الخبيثة والقلوب القاسية ﴿التَّنْذِرُ﴾ والرسل والمواعظ والتحذيرات شيئا.

وقيل : إنّ كلمة (ما) استفهامية إنكارية ، والمعنى أيّ إغناء وفائدة في النذر إذا خالفوا وكذبوا ^(٢) ، وعاندوا ولجّوا ، إذن لا تتعب نفسك الشريفة بالاصرار في دعوتهم إلى الإيمان والاتعاظ ﴿فَتَقُولُ﴾ وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ ولا تعتن بهم ، وانتظر ﴿يَوْمَ يَدْعُ﴾ إسرئيل الذي هو ﴿الدَّاعِ﴾ لجميع الخلق بنفخة في الصور ﴿إِلَى﴾ الحشر و﴿شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ وفظيع لا سابقة لهم به ، وهو أهوال يوم القيامة ، وهم يجيبونه في حال كونهم ﴿خُسَعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ وأدلة جوارحهم عند رؤية العذاب ، وإجابتهم له بأنهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ والقبور انقيادا له ، وينتشرون في الأرض ، ويتفرّقون في أقطارها ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ ومتفرّق فيها كثرة وتفرّقا وهم مع ذلك يكونون ﴿مُهْطِعِينَ﴾ ومسرعين في

(١) أي في آخر الأمر.

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٢٦٩.

المشي ﴿إِلَى﴾ جهة ﴿الدَّاعِ﴾ مآدين أعناقهم إليه ، أو ناظرين إليه غير قالعين أبصارهم عنه ، وعند ذلك ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾ بالله والرسول واليوم الآخر : ﴿هَذَا﴾ اليوم الذي ابتلينا به ﴿يَوْمَ عَسْرٍ﴾ وصعب علينا ، شديدة أهواله لنا ، وأما المؤمنون فاتهم يقولون : هذا يوم يسير .

عن السَّحَّادِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، عن أبيه ، عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ - في حديث - يذكر [فيه] أهوال يوم القيامة : « فيشرف الجبار تبارك وتعالى عليهم من فوق عرشه في ظلال من الملائكة ، فيأمر ملكا من الملائكة فينادي فيهم : يا معشر الخلائق ، أنصتوا واستمعوا منادي الجبار » قال : فيستمع آخرهم كما يستمع أولهم فتتكسر أصواتهم عند ذلك ، وتخشع أبصارهم ، وتضطرب فرائضهم ، وتفزع قلوبهم ، ويرفعون رؤوسهم إلى ناحية الصوت مهطعين إلى الداعي قال : « فعند ذلك يقول الكافرون : هذا يوم عسر » (١) .

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرَ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ (٩) وَ (١٥)﴾

ثم لما ذكر سبحانه المشركين نبوة نبيه ﷺ ونسبتهم معجزاته إلى السحر ، ذكر حال الامم المهلكة الذين كانوا قبل كفار مكة تهويلا لهم وتسليه لحبيبه محمد ﷺ بقوله : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ بالرسل والآيات ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ في دعوى رسالته وتوحيد الله ، كما كذبت قومك رسالتك وآية انشقاق القمر ﴿فَكَذَّبُوا﴾ لتكذيبهم جميع الرسل ﴿عَبْدَنَا﴾ ورسولنا نوح في دعوى رسالته مع علو شأنه ، وبالغوا في تكذيبه حتى رموه بزوال العقل ﴿وَقَالُوا﴾ إنه ﴿مَجْنُونٌ﴾ حيث يتكلم بما لا يتكلم به عاقل ، ويدعوا إلى ما لا يقبله أحد ﴿وَازْدُجِرَ﴾ ومنع عن تبليغ رسالته بالشتم والضرب وأنواع الأذى ، حين يئس من إيمانهم ، وترك دعوتهم . وقيل : إنه من كلام القوم ، والمعنى : ازدجره الجن ، وتخبطه وأفسدته (٢) .

﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ بعد يأسه عن إيمانهم ، وكان دعاؤه ﴿أَنِّي﴾ يا رب ﴿مَغْلُوبٌ﴾ من جهة قومي ، ولا أقدر على دفعهم ومنعهم عن إيذائي ، وعيل صبري ﴿فَانتَصِرَ﴾ إذن لعبدك (٣) نوح ، وانتقم له من أعدائه ، أو انتصر لنفسك من أعدائك ، فاستجبنا دعاءه ﴿فَفَتَحْنَا﴾ لاهلاك قومه ﴿أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾

(١) الكافي ٨ : ١٠٤ / ٧٩ ، تفسير الصافي ٥ : ١٠٠ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٢٧١ .

(٣) في النسخة : عبدك .

وطرفها من طرف الحجر على ما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام ^(١) وكان فتحها **بِماءٍ** كثير **مُنْهَمِرٍ** ومنصب على الأرض انصباباً شديداً ، فصار صب الماء كالمفتاح للأبواب. قيل : كان القوم يطلبون المطر سنين ، فكأن مطلوبهم جاء إلى الباب ففتحه ^(٢) ، أو المراد فتحنا الأبواب مقرونة بماء منصبت ^(٣) **وَفَجَّرْنَا** وشققنا **الْأَرْضَ** بحيث صارت كلها **عُيُوناً** تجري منها الماء.

فَالْتَقَى الْمَاءُ النازل من السماء ، والماء النابع من الأرض ، واتصلا واختلط ، فصارا **عَلَى أَمْرٍ** وحال **قَدْ قُدِرَ** من جانب الله لإهلاك القوم ، أو على حال صار كل من الماءين بقدر الآخر ، أو على قدره لا يعلم مقداره كانا متساويين ، أو أحدهما أزيد من الآخر.

فلما غرقت الأرض بدعاء نوح نجيها **وَحَمَلْنَاهُ** ومن آمن معه **عَلَى** سفينة **ذَاتِ الْوُحُوحِ** وصاحبة قطعات من الخشب ، **وَوُ** ذات **دُسْرِ** ومسامير ، فهي مع سهولة انفكاكها **تَجْرِي** وتسير في الطوفان **بِأَعْيُنِنَا** وحفظنا ، أو بمرأى منا ، وإتما كان ذلك الحمل والنجاة من الغرق ، أو حفظ السفينة من الانفكاك والغرق ، أو إجابة دعائه وفتح أبواب السماء ، أو جميع ما ذكر **حِزَاءَ لِمَنْ كَانَ** وجوده وبعثه في الخلق نعمة عظيمة من الله تعالى ، ثم **كُفِّرَ** ذلك الشخص بترك إطاعته ، والقيام بعداوته ، والتظاهر على إيدائه ، فصبر على جميع ذلك ، فنصر على أعدائه بغرقهم ، وإنجائه بوسيلة السفينة.

وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا وأبقيناها على وجه الأرض دهرًا طويلاً ، لتكون **آيَةً** وعبرة يعتبر بها من نظر إليها. قيل : بقيت إلى أوائل هذه الأمة ^(٤) . وقيل : يعني جعلناها آية عظيمة يعتبر بها من يقف على خبرها ^(٥) **فَهَلْ** في الناس **مِنْ مُدَكِّرٍ** ومعتبر بالعبر ومتعظ بالمواعظ الإلهية ، فيخاف من الله المنتقم ، ويترك عصيانه.

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ * كَذَّبَتْ
عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ
مُتَسَمِّرٍ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذْرٍ (١٦) و (٢١)

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٢٧٢.

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ٣٧.

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٣٧.

(٤) تفسير أبي السعود ٨ : ١٧٠ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٧٣.

(٥) تفسير أبي السعود ٨ : ١٧٠ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٧٣.

ثم أظهر سبحانه عظمة عذابه ، والتعجب منه ، ومن كيفية إنذاراته بقوله : ﴿فَكَيْفَ كَانَ﴾ يا محمد ، أو أيها الناس بعد اطلاعهم على غرق أهل الأرض ﴿عَذَابِي﴾ في العظمة والشدة ﴿وَنُذِرُ﴾ ي ومواعظي التي أنزلتها إليكم في الكثرة والكمال ، أو رسلي في عظمة الشأن ، والصبر على اذي قومهم ، وصدق مواعيدهم ، فاصبر أنت يا محمد ، فإن عاقبة أمرك كعاقبة أولئك الرسل ﴿وَوَلَّيْتُ﴾ تالله ﴿لَقَدْ يَسَّرْنَا﴾ وسهّلنا ﴿الْقُرْآنَ﴾ النازل عليكم ، بأن جعلناه بلسانكم ، وصرفنا فيه من أنواع المواعظ والوعيد ﴿لِلذِّكْرِ﴾ والاتعاظ ، حيث أتينا فيه بكلّ حكمة ، أو للحفظ على ظهر القلب ﴿فَهَلْ﴾ منكم ﴿مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ومتعظ بالقرآن ، أو حافظ له.

ثم وعظ سبحانه بذكر قصّة قوم عاد بقوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ﴾ قوم هود ، واسمهم ﴿عَادٌ﴾ بجميع الرسل ، وإلّا لم يذكر سبحانه هنا تكذيبهم هودا للاختصار ، وإلّا ذكر فيما قبل اسم نوح وتكذيبه ^(١) لبيان شأنه ، وطول مدّة دعوته ، وتحملّه أذى قومه ، كذا قيل ^(٢) .

ثم سأل سبحانه عن كيفية تعذيبهم ، توجيهها للسامعين إلى إصغاء ما يلقي إليهم بقوله ﴿فَكَيْفَ كَانَ﴾ أيها المستمعون ﴿عَذَابِي﴾ النازل عليهم ﴿وَنُذِرُ﴾ ي لهم ، وتخويفاتي إياهم ؟ ثم كآته قيل : بين لنا يا رب كيف كان عذابهم ، فقال : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا﴾ وسلطنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ غضبا وسخطا ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ شديدة الصوت والهبوب ، أو باردة ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ﴾ وشؤم ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ شؤمه عليهم ، أو إلى آخر الدهر ، وهو آخر أربعاء من الشهر. عن ابن عباس : آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر ^(٣) . وعن الباقر عليه السلام : « أنه كان في يوم الأربعاء ، في آخر الشهر لا يدور » ^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام : « الأربعاء يوم نحس مستمر ؛ لأنه أول يوم وآخر يوم من الأيام التي قال الله عزّ وجلّ : ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ » ^(٥) .

وكانت شدة تلك الريح بحيث ﴿تَنَزَّعَ النَّاسُ﴾ وتقلعهم من الأرض ، وتضرعهم موتى ﴿كَانَتْهُمْ﴾ أعجاز نخيل واصوله ﴿مُنْقَعِرٍ﴾ ومنقلع عن مغرسه ، أو ذاهب في قعر الأرض.

روى الكلبي ^(٦) : أنه كان طول كلّ واحد سبعين ذراعا ، فاستهزءوا حين ذكر لهم الريح ، فخرجوا إلى الفضاء ، وضربوا بأرجلهم وغيبوها في الأرض إلى قريب من الركبة ، فقالوا لهود : قل للريح حتى ترفعنا ، فجاءت الريح ، فدخلت تحت الأرض ، وجعلت ترفع كلّ اثنين ، وتضرب أحدهما بالآخر

(١) أي تكذيبهم إياه.

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ٤٣ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٢٧٥ .

(٤) مجمع البيان ٩ : ٢٨٧ ، تفسير الصافي ٥ : ١٠٢ .

(٥) علل الشرائع ٣٨١ / ٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١٠١ ، والآية من سورة الحاقة : ٦٩ / ٧ .

(٦) في النسخة : الكلبي.

بعد ما ترفعهما في الهواء ، ثم تلقيهما على الأرض ، والباقيون ينظرون إليهما ، حتى رفعتهما كلهم ، ثم رمت بالزمل والتراب عليهم ^(١) .

وقيل : شبّهت أجسادهم بالنخل لطول قامتهم ، ولأنّ الريح كان تقلعهم وتصرعهم على رؤوسهم ، فتدقّ رقابهم ، فتبين الرؤوس من أجسادهم ، فبتقى أجسادا بلا رؤوس ^(٢) .
ثم كرّر سبحانه قوله : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ تهويلا لهما ، وتعجيبا من أمرهما ^(٣) . وقيل : إنّ الأول في الدنيا ، والثاني في العقبى ^(٤) .

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشْرًا

مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٢) و (٢٤)﴾

ثم أكّد سبحانه كون القرآن أكمل المذكرات وأوفى المواعظ بتكرار قوله : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ .

ثم ذكر سبحانه طغيان قوم صالح بقوله : ﴿كَذَّبَتْ﴾ ثم صالح ، اسمهم ﴿ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ والمواعظ التي استمعوها من صالح ، أو بالرسول جميعا من صالح ومن قبله من الرسل ، لانكارهم صلاحية : البشر للرسالة ، كما حكاه سبحانه بقوله : ﴿فَقَالُوا﴾ إنكارا واستعجابا ﴿أَبَشْرًا مِّنَّا﴾ وإنسانا كائنا من جنسنا مع كونه ﴿وَاحِدًا﴾ مِنَّا ، لا فضيلة له علينا ، حيث إنّه يأكل ويمشي في الأسواق ، أو واحدا لا تبع له ، ومنفردا لا أحد من الملائكة معه ﴿نَتَّبِعُهُ﴾ ونطيعه في أوامره ونواهيه ، ونقتدي به في عقائده وأعماله ﴿إِنَّا﴾ مع كثرتنا وشوكتنا ﴿إِذَا﴾ وعلى تقدير انقيادنا له واتباعنا إياه مع تفردّه في الرأي والاعتقاد ، وكونه مثلنا في البشرية والحاجة ﴿لَفِي ضَلَالٍ﴾ وانحراف عن طريق الصلاح والصواب ﴿وَسُعُرٍ﴾ ونيران الذلّ والهوان. قيل : كان صالح يقول لهم : إن لم تتبعوني تكونوا في ضلال عن الحقّ في الدنيا ، ونيران في الآخرة ، فعكسوا عليه عتوا وقالوا : إن اتبعناه كنّا في ضلال وسعر ^(٥) ، أو المراد كنّا في سعر وجنون ، لكون أتباعه خلاف حكم العقل.

﴿أَلْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ * سَيَعْلَمُونَ عَدَا مَنِ الْكُذَّابُ

الْأَشِرُّ * إِنَّا مُرْسَلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ

قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّخْتَصِرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٢٧٦ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٢٧٥ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٢٧٦ .

(٤) تفسير أبي السعود ٨ : ١٧١ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٧٧ .

عَذَابِي وَنُذِرَ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ *

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٢٥) وَ (٣٢)

ثم بالغوا في إنكار رسالته بقولهم : ﴿الْقِيَ الدِّكْرِ﴾ وانزلت الرسالة والوحي ﴿عَلَيْهِ﴾ وانتخب لهذا المنصب الجليل ﴿مِنْ بَيْنِنَا﴾ وفيما من هو فوقه في الشرف وأحق به ؟ لا والله ليس كما يقول ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ﴾ ومصرّ على القول بخلاف الواقع والدعوى الباطل ، و﴿أَشْرُ﴾ وبطرفي كذبه حمله عليه حبّ الترفع والرئاسة علينا ، لا ضرورة وحاجة ، أو متجبر .

ثم هددهم سبحانه حين قولهم ذلك بالوحي إلى صالح بقوله : ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ هؤلاء الطّغاة ، فيما بعد هذا الزمان ، وهو زمان نزول العذاب ﴿مِنْ الْكُذَّابِ الْأَشْرُ﴾ والمصر

وسهلنا لكم فهمه ، بأن جعلناه بلسانكم أيها العرب ﴿لِلذِّكْرِ﴾ والاتعاظ ، أو للحفظ على ظهر القلب ﴿فَهَلْ﴾ فيكم ﴿مِنْ مُدْكِرٍ﴾ ومتّعظ فيرتدع عن الكفر والعصيان ، وفي التكرار تأكيد ومبالغة في التذكّار . قيل : إنّ الله تعالى أطال قصة صالح من بين القصص الخمس التي ذكرها في هذه السورة ، لكون معجزة صالح - وهي إخراج الناقة العظيمة من الجبل ، أو الصخرة غير القابلة للحياة - أعجب من معجزات سائر الأنبياء ، كما أنّ شقّ القمر الذي هو معجزة نبينا ﷺ ، والمصدّرة به السورة أعجب من معجزاتهم ، حيث إنّ جميع معجزاتهم كانت أرضية ، ومعجزة نبينا ﷺ كانت سماوية ، مع أنّ المشركين والفلاسفة قائلون بامتناع تصرّف أحد في السماويات ، واستحالة الشقّ والخرق فيها ، فأشبهه حال صالح حال نبينا ﷺ ، فكان تسليبه ببيان حال صالح أتمّ وأكمل فأطاله (١) .

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتْنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذِي * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرُ (٣٣) وَ (٣٧)﴾

ثمّ ذكر سبحانه قصة قوم لوط ، وإلطافه به ، وابتلائهم بالعذاب بقوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي﴾ والتخويفات والمواعظ الإلهية ، أو بالمنذرين والرسول . ثمّ بيّن سبحانه كيفية تعذيبهم بقوله : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ غضبا وانتقاما منهم عذابا أو ريحا ﴿حَاصِبًا﴾ وراميا لهم بالحجارة الصغار ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ وأهله ، فاتّأ ﴿نَجَّيْنَاهُمْ﴾ من العذاب ﴿بِسَحَرٍ﴾ من الأسحار ، وإتّأ كان إنجائهم ﴿نِعْمَةً﴾ عظيمة كائنة ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ وتفضلا عليهم من قبلنا لايمانهم وطاعتهم لنا ، كما أنّ تعذيب القوم كان عدلا منّا ، وأداء لما يستحقّون علينا ﴿كَذَلِكَ﴾ الإنجاء من العذاب الذي كان نعمة ﴿نَجْزِي﴾ في الدنيا ﴿مَنْ شَكَرَ﴾ نعمنا بالايّمان والطاعة من أيّ قوم وأية أمة كان .

وقيل : يعني كما نجّيناهم من عذاب الدنيا ، نجزي من آمن بالنجاة من عذاب الآخرة . ثمّ بيّن سبحانه أنّ عذابهم كان بعد إتمام الحجة عليهم وطغيانهم بقوله : ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾ وخوّفهم لوط ﴿بَطْشَتْنَا﴾ وأخذتنا الشديدة بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا﴾ اولئك الطّاعة وكذبونا ﴿بِالَّذِي﴾

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٥٢ .

والتخويفات بالعذاب الدنيوي والآخرى ، مع كونهم شاكين فيه .

ثم إنّ القوم لما سمعوا بورود شبّان حسان الوجوه على لوط ضيفا له ، وطمعوا في أن يمتكنهم لوط من عمل الفحشاء بهم ﴿و﴾ تالله ﴿لَقَدْ رَاودُوهُ﴾ وطالبوه عن تمكينهم ﴿عَنْ صَیْفِهِ﴾ وهم الملائكة أن يفجروا بهم ومعهم جبرئيل ﴿فَطَمَسْنَا﴾ ومسحنا ﴿أَعْيُنَهُمْ﴾ وسوّيناها كسائر وجوههم بحيث لم ير لها شقّ ، بضرب جبرئيل جناحه عليها ، أو بإشارته إليها ، أو بضرب كفّ من البطحاء على وجوههم ، وقلنا لهم بلسان الملائكة : إذا بلغ طغيانكم إلى هذا الحدّ ﴿فَذُوقُوا﴾ أيّها الطّغاة ﴿عَذَابِي﴾ وهو الطّمس ﴿وَنُذِرُ﴾ ي ، ومآل تخويفاتي بلسان لوط إيتاكم ، لا خلاص لكم منه بالصّراخ والضّراعة .

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٍ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ * وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا
فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ﴾ (٣٨) و (٤٢)

قيل : إنّ المراد بمآل الانذارات عذاب الآخرة ، فإنّ أوّله متصل بآخر عذاب الدنيا ، فهما كالواقع في زمان واحد ^(١) .

ثمّ إنّ تعالى بعد ذكر العذاب الخاصّ بالداخلين على لوط المرادين له عن ضيفه ، ذكر العذاب العام لجميع القوم بقوله تبارك وتعالى : ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ﴾ وجاءهم حين طلوع الفجر ﴿بُكْرَةً﴾ من البكر ، أو أوّل طلوعه بلا تأخير ﴿عَذَابٌ﴾ عام ﴿مُسْتَقِرٌّ﴾ وثابت ودائم عليهم ، متّصل بعذاب الآخرة ، أو ثابت لا مدفع له ، أو ثابت عليهم لا يتعدّى غيرهم ، وهو جعل أعلى قريتهم أسفلها ، وإمطار الحجارة عليهم ، وقلنا لهم تشديدا لعذابهم : إذن ﴿فَذُوقُوا﴾ أيّها الكفرة الطّغاة ﴿عَذَابِي﴾ على كفركم وطغيانكم ﴿وَنُذِرُ﴾ ي وإيعاداتي .

ثمّ بالغ سبحانه في التنبيه على كون القرآن المشتمل على تلك القصص أكمل المواعظ بتكرار قوله : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ والعظة ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ فإنّ في التكرير مبالغة في التنبيه والایقاظ ، وتقريرا للمعاني في الأسماع والقلوب ، وتثبيتا لها في الصدور ، وكلّما زاد ازدادت للأمور المذكورة . ثمّ ذكر سبحانه شدّة طغيان فرعون وقومه ، وابتلاءهم بالعذاب بقوله : ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ وأشرف قومه الذين شاركوه في الطّغيان وإضلال الناس ﴿النُّذُرُ﴾ والأيعادات والتخويفات من قبل

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٦١ .

الله على لسان موسى ، أو المنذرون والرسل كموسى وهارون.

ثم كآته قيل : فما فعلوا حينئذ ؟ فأجاب سبحانه بقوله : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ ومعجزات رسلنا ﴿ كُلُّهَا ﴾ عنادا ولجاجا ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب بسبب تكذيبهم ﴿ أَخَذَ ﴾ ملك ﴿ عَزِيزٌ ﴾ وقاهر لا يقهر و﴿ مُقْتَدِرٌ ﴾ لا يعجزه شيء.

﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ (٤٣) وَ (٤٦) ﴾

ثم لما بين سبحانه ابتلاء مكذبي الرسل بأنواع العذاب ، وجه الخطاب إلى كفار العرب ، أو المكذبين لخاتم النبيين ﷺ من قريش وأهل مكة ، وبين أنهم في استحقاق العذاب كمن تقدمهم من الامم المهلكة المكذبة للرسول بقوله تعالى : ﴿ أَكْفَارُكُمْ ﴾ أيها العرب المصرون على تكذيب رسولنا ، أو يا أهل مكة ﴿ خَيْرٌ ﴾ عند الله ، وأقل استحقاقا للعذاب ﴿ مِنْ أُولَئِكَمْ ﴾ الطغاة الذين اهلكوا بما سمعتم من أنواع العذاب حتى تأمنوا منه ﴿ أَمْ ﴾ لا تكونون خيرا منهم ، ولكن ﴿ لَكُمْ ﴾ من جانب الله ﴿ بَرَاءَةٌ ﴾ وأمان من عذاب الله مكتوب ﴿ فِي الزُّبُرِ ﴾ والكتب السماوية التي نزلت على الرسل إن أصرتم على الكفر وتكذيب الرسل ، فلذا تصرون على الشرك وتكذيب محمد ﷺ وتجترون على المعاصي ، ولا تحافون من نزول العذاب عليكم ، وأن يكون حالكم حال الامم الذين كانوا قبلكم ، لا والله ليس لكم تلك البراءة في كتاب من الكتب السماوية فضلا عن جميعها.

ثم أعرض سبحانه عن خطابهم إيذانا بعدم قابليتهم للخطاب لغاية الجهل ، ووجه خطابه إلى العقلاء بقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ أولئك الجهال الحمقاء : إن نزل العذاب فأنّا ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ ﴾ وكثير متفقون على دفعه ﴿ مُنْتَصِرُونَ ﴾ ومتعاون بعضنا مع بعض ^(١) ، أو ممتنع بقوتنا عن الابتلاء به ، وإنما أفرد لفظ المنتصر إمّا باعتبار لفظ (الجميع) ، والمعنى نحن جميع جنس منتصر ، أو باعتبار أنّ (جميع) بمعنى كل واحد ، والمعنى كل واحد منا منتصر يغلب محمدا ، أو يدفع عن نفسه العذاب.

ثم ردّ الله قولهم الفرضي ^(٢) بقوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ وتنكسر البتة شوكتهم ﴿ وَيُوَلُّونَ ﴾ وينصرفون في حرب محمد ﷺ ﴿ الدُّبُرَ ﴾ وإفراده لإرادة الجنس ، كما وقع يوم بدر.

عن عمر بن الخطاب ، قال : لما نزلت (سيهزم الجمع) كنت لا أدري أي جمع ، فلما كان يوم

بدر

(١) في النسخة : ببعض.

(٢) في النسخة : الفرضية.

رأيت رسول الله ﷺ يلبس الدرع ويقول : (سيهزم الجمع) ^(١) .
وقال ابن عباس : كان بين نزول الآية وبين يوم بدر سبع سنين ^(٢) . وهذا من معجزاته ﷺ ،
حيث أخبر عن الغيب ، فكان كما أخبر .
وقيل : إنّ الدبر بملاحظة كلّ واحد ، أو لتنزيل فرار جميعهم منزلة فرار شخص واحد ، والمراد أنّهم
في التولية كنفس واحد لا يتخلف أحدهم من الجميع ^(٣) .
ثمّ أخبر سبحانه أنّه ليس ذلك تمام عقوبتهم بقوله تعالى : ﴿بَلِ السَّاعَةُ﴾ ويوم القيامة
﴿مَوْعِدُهُمْ﴾ ووقت عذابهم ، وهذا العذاب في الدنيا من طلائعه ﴿وَالسَّاعَةُ أَذْهَى﴾ وأعظم فظيعة ﴿وَأَمْرٌ﴾
وأشدّ عذابا من يوم بدر وأدوم .

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ * يُؤْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾

ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٧) و (٤٩)﴾

ثمّ بيّن سبحانه حال المشركين المعارضين للنبي ﷺ في ذلك اليوم بقوله : ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾
والطّاعة في ذلك اليوم مستقرّون ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ وهلاك ، أو بعد من طريق الوصول إلى الرحمة والجنة ﴿وُ﴾
في ﴿سُعْرٍ﴾ ونيران موقدة . وقيل : إنّ المراد أنّ المشركين المجرمين في الدنيا في ضلال وجنون لا يعقلون ولا
يهتدون إلى الحق ، وفي الآخرة في سقر ونيران ^(٤) .

ويقال لهم ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ ويجرّون ﴿فِي النَّارِ﴾ بعنف ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أيّها المجرمون ﴿ذُوقُوا﴾
وأدركوا أكمل الإدراك ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾ ولمس نار جهنم وألمها .
قيل : إنّ سقر علم لجهنم ^(٥) .

وعن الصادق عليه السلام : « أنّ في جهنم لواديا [للمتكبرين] يقال له سقر ، شكا إلى الله شدة حرّه
، وسأله أن يأذن له أن يتنفّس ، فتنفّس فأحرق جهنم » ^(٦) .

ثمّ بيّن سبحانه كمال قدرته لتهويل العباد بقوله تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ وموجود في عالم الأجسام
والأرواح والملوك والملوكوت من الجواهر والأعراض نحن ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ وأوجدناه ﴿بِقَدَرٍ﴾ وحدّ معين اقتضته
الحكمة ، مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وجوده .

(١) تفسير أبي السعود ٨ : ١٧٤ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٨٢ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٢٨٢ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٦٨ .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ٧١ .

(٥) تفسير أبي السعود ٨ : ١٧٤ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٨٣ .

(٦) عقاب الأعمال : ٢٢٢ ، تفسير روح البيان ٥ : ١٠٤ .

في الحديث : « كتب الله مقادير الخلائق كلها قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وعرشه على الماء » ^(١) .

وقيل : إنّ المراد بالقدر القدر المستعمل في جنب القضاء والقضاء علمه بصلاح إيجاد الموجودات المكتوب في اللوح المحفوظ والقدر إرادة إيجاد كلّ موجود ^(٢) .

عن النبي ﷺ : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله بعثت بالحق ، ويؤمن بالبعث ، ويؤمن بالقدر خيره وشره » ^(٣) .

أقول : الظاهر أنّ المراد الايمان بأنّ كلّ ما يوجد بإرادة الله.

وعنه ﷺ : « القدر خيره وشره من الله » ^(٤) .

قيل : إنّ أكثر المفسرين اتفقوا على أنّ آية : ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ إلى قوله : ﴿خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ نزلت في القدرية ^(٥) .

وعن أبي هريرة ، قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر ، فانزل الله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ إلى قوله : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ ^(٦) .

وعن عائشة ، عن النبي ﷺ قال : « محوس هذه الامة القدرية » وهم المجرمون الذين ستمهم الله تعالى في قوله : ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ ^(٧) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « إنّ القدرية محوس هذه الامة ، وهم الذين أرادوا أن يصفوا الله بعدله فأخرجوه عن سلطانه ، وفيهم نزلت ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ إلى قوله : ﴿بِقَدَرٍ﴾ » ^(٨) .

وسئل عن الرقي ^(٨) أتدفع من القدر شيئا ؟ فقال : « هي من القدر » ^(٩) .

وعنه عليه السلام قال : « ما أنزل الله هذه الآيات إلا في القدرية ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ إلى قوله : ﴿بِقَدَرٍ﴾ » ^(١٠) .

وعن الباقر عليه السلام : « نزلت هذه الآية في القدرية ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » ^(١١) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « وجدت لأهل القدر اسما في كتاب الله : ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ إلى قوله : ﴿بِقَدَرٍ﴾ » قال : « فهم المجرمون » ^(١٢) .

أقول : مقتضى قول الصادق عليه السلام : « هم الذين أرادوا أن يصفوا الله بعدله ، فأخرجوه من سلطانه » كون

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٢٨٤ . (٢) تفسير روح البيان ٩ : ٢٨٤ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٢٨٤ . (٤) تفسير روح البيان ٩ : ٢٨٤ .

(٥ و ٦) تفسير الرازي ٢٩ : ٦٩ .

(٧) التوحيد : ٣٨٢ / ٢٩ ، تفسير الصافي ٥ : ١٠٥ . (٨) الرقي : جمع رقية ، وهي العود التي يرقى بها .

(٩) بحار الأنوار ٥ : ٩٨ / ٢٤ . (١٠) عقاب الأعمال : ٢١٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١٠٥ .

(١١) عقاب الأعمال : ٢١٣ ، تفسير الصافي ٥ : ١٠٥ . (١٢) تفسير القمي ٢ : ٣٤٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١٠٥ .

المعتزلة القائلين بأنَّ العبد مستقل في أفعاله ، ولا يقدر الله على منعه منها وصرفه عنها ، هم القدرية ، لأنَّهم اشركوا بالله خلقه في أفعالهم.

ومقتضى حديث أمير المؤمنين عليه السلام مع الشيخ الذي منعه عن المسير إلى الشام - حيث قال : أخبرنا يا أمير المؤمنين عن مسيرنا إلى الشام ، ألقضاء ^(١) من الله وقدر ؟ فقال علي عليه السلام : « يا شيخ ، ما علوتم تلعة ، ولا هبطتم بطن واد ، إلَّا بقضاء من الله وقدر » .

فقال الشيخ : عند الله أحسب عنائي.

فقال علي عليه السلام : « وتظنَّ أنَّه قضاء حتم ، أو قدر لازم ، لا إنَّه لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب ، والأمر والنهي ، والزجر من الله ، وسقط معنى الوعد والوعيد ، فلم تكن لائمة من الله للمذنب ، ولا محمداً للمحسن ، تلك مقالة عبدة الأوثان ، وخصماء الرحمن ، وقدرية هذه الأمة » ^(٢) - أن الأشاعرة القائلين بأن أفعال العباد مخلوقة لله.

وقال بعض الأفاضل : « تلك مقالة عبدة الأوثان » إشارة إلى الأشاعرة. وقوله : « قدرية هذه الأمة » إشارة إلى المعتزلة ^(٣) .

وقال بعض الأجلة : القدرية هم المنسوبون إلى القدر ، ويزعمون أنَّ كلَّ عبد خالق فعله ، ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله ومشئته ، فنسبوا إلى القدر لأنَّه بدعتهم وضاللتهم ^(٤) .

وقال شارح (المواقف) : قيل : القدرية هم المعتزلة لاسنادهم أفعالهم إلى قدرتهم.

وفي الحديث : « لا يدخل الجنة قدرى » وهو الذي يقول : لا يكون ما شاء الله ، ويكون ما

شاء إبليس .

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ *

وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ مُسْتَطَرٌ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي

جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٠) و (٥٥)﴾

ثمَّ بيّن سبحانه كمال قدرته بقوله : ﴿وَمَا أَمْرُنَا﴾ لشيء إذا نريد إيجاداً ﴿إِلَّا﴾ كلمة ﴿وَاحِدَةٌ﴾ لا تكرار فيها ، وهي كلمة (كن) التي يعبر بها عن الإرادة التكوينية ، فإذا يكون الشيء المراد وجوده ويوجد بسرعة ويسير ﴿كَلَمْحٍ﴾ ونظر سريع ﴿بِالْبَصَرِ﴾ .

قيل : لما اشتملت الآيات السابقة على وعيد الكفار بالاهلاك عاجلاً وآجلاً ، والوعد للمؤمنين

(١) في الاحتجاج : أبقضاء.

(٢) الاحتجاج : ٢٠٨.

(٣) تفسير الرازي ٢٩ / ٧٠.

(٤) تفسير الرازي ٢٩ / ٦٩.

بالانتصار منهم جيء بقوله : ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ تأكيداً للوعيد والوعد ، يعني أنّ الوعيد والوعد حقّ وصدق ، والموعود مثبت في اللوح المحفوظ ، مقدّر عند الله ، لا يزيد ولا ينقص ، وذلك على الله يسير ، لأنّ قضاءه في خلقه أسرع من لمح البصر ^(١) .

﴿و﴾ تالله ﴿لَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ بأنواع العذاب في الأعصار السابقة ﴿أَشْيَاءَكُمْ﴾ وأشباهكم في الكفر والطغيان من الامم الذين كانوا أقوى منكم ﴿فَهَلْ﴾ فيكم أيها الكفار الحاضرون ﴿مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ومتّعظ بما نزل عليهم ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ وعمل من الكفر والعصيان ﴿فَعَلُوهُ﴾ في الليل والنهار والخلوة والجلوة مكتوب ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ ودواوين الحفظ الكرام البررة ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ﴾ من أعمالهم وأعمال غيرهم في مدّة أعمارهم ﴿وَكَبِيرٍ﴾ منها ، كلّ بتفاصيلها ﴿مُسْتَطَرٌّ﴾ ومثبوت في كتاب لا يترك كتب عمل صغير لصغره ، ولا كبير للاعتقاد بعدم نسيانه.

روي أنّ النبي ﷺ ضرب لصغائر الذنوب مثلاً ، وقال ﷺ : « إنّ مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض ، وحضر جميع القوم ، فانطلق كلّ واحد منهم يحطب ، فجعل الرجل يجيء بالعود والآخر بالعود حتى جمعوا سواداً ، وأججوا نارا ، فشؤوا حيزهم ، وإنّ ذنب الصغير يجتمع على صاحبه فيهلكه ، إلّا أن يغفر الله ، اتّقوا محقرات الذنوب ، فإنّ لها من الله طالبا » ^(٢) .

ثمّ إنّ تعالى بعد بيان سوء حال الكفار في الآخرة ، وأنهم يسحبون على وجوههم في النار ، بيّن حسن حال المتقين و المحترزين من الكفر والعصيان بقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ والمعرضين عن الكفر والعصيان في الدنيا مستقرّون في الآخرة ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ وبساتين كثيرة الأشجار ، لا يوصف حسنهما ونظارتها ونعمها ﴿و﴾ في خلال ﴿نَهَرٍ﴾ أعظم الأنهار وأصفها ، جار من الكوثر على قول ، أو من عين الرضوان على آخر ^(٣) .

وقيل : إنّ المراد من النهر جنسه ، وإفراده لرعاية الفواصل ^(٤) .

وهو قاعد ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ ومجلس صالح مرضيّ ، أو مجلس حقّ لا لغو فيه ولا تأثيم ، وكائن ﴿عِنْدَ مَلِكٍ﴾ وسلطان عظيم الشأن ، وفي قرب من مالك الملوك ﴿مُقْتَدِرٍ﴾ لا نهاية لقدرته وملكه وسلطانه ، فأيّ منزلة أكرم من تلك المنزلة ، وأجمع للغبطة والسعادة ، وألذّ واشرف منها.

عن الصادق عليه السلام : « من قرأ سورة (اقتربت) أخرجه الله من قبره على ناقة من نوق الجنة » ^(٥).

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٢٨٤ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٢٨٥ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٧٩ .

(٤) تفسير أبي السعود ٨ : ١٧٥ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٨٥ .

(٥) ثواب الأعمال : ١١٦ ، مجمع البيان ٩ : ٢٧٩ ، تفسير الصافي ٥ : ١٠٥ .

في تفسير سورة الرحمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (١) وَ (٤)﴾

ثمّ لما ختم سبحانه سورة القمر المبتدئة باظهار المهابة بالإخبار باقتراب الساعة ، وذكر أعظم معجزات النبي ﷺ وهو انشقاق القمر ، وتكرار ذكر تسهيل نعمة القرآن للذكر والاعتاظ به ، وتكرار شدّة عذابه وكثرة إنذاره بقوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾^(١) مرّة بعد مرّة ، وتعداد ما نزل على الامم السالفة من أنواع العذاب ، وختمها بذكر أسمائه الدالّة على كمال عظمته واقتداره المشعر بشدّة انتقامه ، نظمت سورة الرحمن المبتدئة باظهار كمال رحمته ، وذكر أعظم المعجزات العقلية لبنينا ، وهو تعليم القرآن الذي فيه صفاء القلوب وشفاء الصدور ، وتكرار تذكير آلائه ونعمه بقوله : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(٢) وتعداد تفصيل نعمه الدنيوية والاخرية على المؤمنين ، فابتدأها بذكر الأسماء المباركات بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثمّ أعلن برحمته الواسعة لجميع الموجودات بقوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ﴾ والذات العطوف على جميع الخلق بالايجاد أولا ، والرزق وتهيئة أسباب البقاء ثانيا ، وموجبات السعادة والهداية ثالثا .
وإنّما خصّ هذا الاسم الاعظم بذاته المقدّسة بحيث لا يجوز إطلاقه على غيره ، لكون سائر أسمائه تحت هذا الاسم ، ولا يكون أحد قابلا لتسميته به ، كاسم الله الدالّ على الذات ، والمستجمع لجميع الصفات الكمالية ، ولذا أقرّهما في قوله : ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾^(٣) .

ثمّ شرع سبحانه في تعداد نعمه الدنيوية والاخرية والجسمانية والروحانية اللاتي كلّها من شؤون الرحمانية ، ولما كان أعظمها قدرا وأرفعها شأنًا القرآن الذي هو مدار السعادة الدنيوية والاخرية ، ومظهر لحقائق الكتب السماوية ، ومناط لكون سائر النعم نعمًا ، بدأ بإظهار المنّة بتعليمه بقوله : ﴿عَلَّمَ﴾ بتوسّط جبرئيل محمدا ﷺ ، وبتوسّطه غيره ﴿الْقُرْآنَ﴾ العظيم الشأن .

(١) القمر : ٥٤ / ١٦ .

(٢) الرحمن : ٥٥ / ١٣ .

(٣) الإسراء : ١٧ / ١١٠ .

قيل : يعني الذي علّم آدم الأسماء وفضّله بها على الملائكة ، هو الذي علّمكم القرآن ، وفضّلكم به على جميع الامم ^(١) .

وقيل : إنّ المعنى جعل القرآن علامة لنبوة محمد ﷺ ومعجزة له ، كما جعل شقّ القمر الذي أخبر به في أوّل السورة السابقة علامة لنبوته ومعجزة له ^(٢) .

وقيل : إنّ المراد أنّه تعالى علّم القرآن أولا ملائكته المقرّبين ^(٣) ، ثمّ بيّن أنّه علّمه ثانيا الانسان بقوله تعالى : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ . قيل : إنّ المراد جنسه ^(٤) ، وقيل : إنّ المراد محمد ^(٥) . و ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ وهو القرآن الذي فيه تبيان كلّ شيء.

وقيل : إنّّه تعالى ذكر أولا أعظم النعم ، وهو تعليم القرآن ^(٦) ، ولم يذكر من علمه لعظم نعمة التعليم ، ثمّ بيّن من علمه بقوله : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ثمّ بيّن كيفية تعليمه بقوله : ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ وطريق كشف ما في الضمير بالتّلق وفهمه ، والحقّ أنّ المراد تعداد عظام نعمه على الانسان ومطالبته بالشكر فذكر أولا أعظم النعم التي ^(٧) لا نعمة لأحد مع فقدانها ، ثمّ أعظم النعم الداخلية بعدها ، وهو نعمة وجود الانسان ، ثمّ أعظم النعم بعد نعمة الوجود ، وهو نعمة البيان والمنطق ، فإنّه به يمتاز عن غيره من الحيوانات.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٥) و (٦)﴾

ثمّ ذكر بعد النعمتين الداخلتين نعمتين خارجيتين ظاهريتين سماويتين بقوله : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ بجريانهما ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ وحركات مقدّرة في برجهما ومنازلهما ، آتين لها في فلكيهما ، بحيث ينتظم بها امور العالم السفلى ، وتختلف الفصول والأوقات ، ويعلم بها السنون والشهور ، مع أنّ لوجودهما وكونهما فوق الأرض منافع مهمّة لا تحصى ، كزوال الظلمة ، وتربية الأجسام ، وتنمية النباتات والأشجار ، وتربية المعادن والزراعات ، ونضج الثمار وغير ذلك.

ثمّ بيّن نعمتين ظاهريتين أرضيتين ، بهما بقاء الانسان والحيوان ومعاشهما بقوله : ﴿وَالنَّجْمُ﴾ وهو النبات الذي لا ساق له ، كالبقول والحشيش والعشب المنبسطة على الأرض ﴿وَالشَّجَرُ﴾ وهو النبات الذي له ساق كالخنطة والشعير والشجر والنخل وغيرها ﴿يَسْجُدَانِ﴾ وينقادان لأمره تعالى وإرادته

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٢٨٨ .

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ٨٢ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٨٤ .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ٨٥ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٨٩ .

(٥) تفسير الرازي ٢٩ : ٨٥ .

(٦) تفسير الرازي ٢٩ : ٨٥ .

(٧) في النسخة : الذي .

انقياد الساجد ، وقيل : إنّ المراد من سجودهما سجود ظلالهما. وقيل : غير ذلك ^(١) .

وإحلاء الجملة الاولى عن العاطف ، لكون النظر فيها إلى تعداد النعم ، وذكره في هذه الجملة لتناسبها مع سابقتها من حيث التقابل ؛ لأنّ الشمس والقمر علويان ، والنجم والشجر سفليان ، وكون فعل الجميع من الجريان والسجود من باب الانقياد لأمر الله ، وإتّما قدّم النجم لمناسبته اللفظية مع الشمس والقمر ، ولأنّ حال السجود فيه أظهر لانبساطه على الأرض ، كما أنّ تقديم الشمس على القمر لأشرفيتها منه ، ولأنّ الحساب فيها أظهر.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ

بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٧) و (٩)﴾

ثمّ ذكر واحدا من نعمه المهمة السماوية بقوله : ﴿وَالسَّمَاءَ﴾ المطلّة ﴿رَفَعَهَا﴾ وخلقها فوق الأرض ، لتكون سقفا محفوظا. وقيل : اريد من رفعها رفع رتبته ، لكونها محلّ ملائكته ، ومنشأ اقصيته ، ومنتزّل أوامره وأحكامه ^(٢) .

ثمّ ذكر واحدا من نعمه المهمة الأرضية بقوله : ﴿وَوَضَعَ﴾ في الأرض ، وجعل فيها ﴿الْمِيزَانَ﴾ لتعيين الحقوق وتسويتها ، ولو لاه لوقع بين الناس العداوة والبغضاء ، فإنّ العدل سبب لبقاء عمارة العالم ، وأخصّ أسبابه الميزان ، ولذا عدّه من النعم العظيمة ، فكأنّه قال : نشر سبحانه العدل الذي أخصّ أسبابه الميزان ، وإتّما جعل ذلك لأجل ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ ولا تجاوزوا عن الحدّ الواجب من الحقوق ﴿فِي الْمِيزَانِ﴾ بأن لا تنقصوا من ^(٣) حقّ الغير ، ولا تتعدّوا على ^(٤) الغير بأخذ الزائد عن حقّكم.

ثمّ قرّر سبحانه ذلك بقوله : ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ﴾ وداروا معرفة قدر الحقوق ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعدل ﴿وَلَا تُخْسِرُوا﴾ ولا تنقصوا ﴿الْمِيزَانَ﴾ قيل : لا تنقصوا الموزون في الميزان ، وإتّما كرّر لفظ الميزان تشديدا للوصية به ، وحثّا على استعماله ^(٥) .

وقيل : إنّ لفظ (ميزان) اريد به في كلّ آية معنى ، ففي الآية الاولى اريد به الآلة أو العدل ، وفي الثانية اريد به الوزن أو الآلة ، وفي الثالثة اريد به الموزون ^(٦) .

وعن الرضا عليه السلام - في تأويل الآيات وبيان بطنها في رواية - قيل له : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ؟﴾ قال : « ذلك أمير المؤمنين عليه السلام » قيل : ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ؟﴾ قال : « علّمه بيان كلّ شيء يحتاج إليه الناس » .

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٨٩ .

(٢) تفسير أبي السعود ٨ : ١٧٧ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٩ .

(٣ و ٤) في النسخة : عن .

(٥) تفسير أبي السعود ٨ : ١٧٧ .

(٦) تفسير الرازي ٢٩ : ٩٠ .

قيل : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ قال : « هما بعذاب الله » . قيل : الشمس والقمر يعدّبان ؟ قال : سألت عن شيء فأثقتنه ، إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله تجريان بأمره ، مطيعان له ، ضوءهما من نور عرشه ، وحزهما من جهنم ، فإذا كانت القيامة عاد إلى العرش نورهما ، وعاد إلى النار حرهما ، فلا يكون شمس ولا قمر ، وإتّما عناهما لعنهما الله ، أو ليس قد روى الناس أنّ رسول الله ﷺ قال « الشمس والقمر نوران في النار » قيل : بلى . قال : « أما سمعت قول الناس : فلان وفلان شمسا هذه الأمة ونورهما ؟ فهما في النار ، والله ما عنى غيرهما » .

قيل : ﴿النَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ؟﴾ قال : « النجم : رسول الله ﷺ ، وقد سمّاه الله في غير موضع فقال : ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾^(١) وقال : ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾^(٢) فالعلامات الأوصياء ، والنجم رسول الله ﷺ » . قيل : ﴿يَسْجُدَانِ؟﴾ قال : « يعبدان » .

قيل : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ؟﴾ قال : « السماء : رسول الله ﷺ ، رفعه الله إليه ، والميزان : أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ، نصبه في خلقه » .

قيل : ﴿أَلَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ؟﴾ قال : « لا تعصوا الامام » . قيل : ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ؟﴾ قال : « أقيموا الامام بالعدل » . قيل : ﴿وَلَا تَخْسِرُوا الْمِيزَانَ؟﴾ قال : « لا تخسروا الإمام حقّه ولا تظلموه » الخبر^(٣) .

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١٠) وَ (١١)﴾

ثمّ بعد المنة بذكر وضع الميزان منّ سبحانه على الناس بذكر وضع الأرض بقوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ وبسطها لتكون مهادا وفرشا ﴿لِلْأَنْعَامِ﴾ من الجنّ والانس على قول^(٤) . وعن الرضا عليه السلام قال : « للناس »^(٥) . وقيل : إنّ الأرض موضوعة لكلّ ما عليها ، وإتّما حصّ الانسان بالذكر ، لأنّ انتفاعه بها أكثر^(٦) .

قيل : كلّما كان من النعم العظام مختصا بالانسان ، قدّم سبحانه الفعل بالآية كقوله : ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ وكلّما لم يكن مختصا بالانسان ، أو لم يكن نفعه عظيما كثيرا ، قدّم الاسم كقوله : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ إلى قوله : ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ﴾ فإنّ نفع الأرض مشترك بين الانسان وسائر الحيوانات^(٧) .

(١) النجم : ٥٣ / ١ .

(٢) النحل : ١٦ / ١٦ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣٤٣ ، تفسير الصافي ٥ : ١٠٧ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٢٩١ .

(٥) تفسير القمي ٢ : ٣٤٣ ، تفسير الصافي ٥ : ١٠٨ .

(٦) تفسير الرازي ٢٩ : ٩٢ .

(٧) تفسير الرازي ٢٩ : ٩٢ .

﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ وأشجار كثيرة تلتدّ النفوس بشمارها الطيبة ﴿وَو﴾ فيها ﴿النَّخْلُ﴾ بأصنافها ، وإِنَّمَا نَكَّرَ الفاكهة لإظهار قلة نفعها بالنسبة إلى النخل ، أو للإشارة إلى كثرة أنواعها ، وإِنَّمَا ذكر الفاكهة دون شجرها بخلاف النخل فَإِنَّ منافعها كثيرة جدا .

ثُمَّ نَبَّهَ سبحانه على تكميل نعمة النخل بتوصيفها بقوله : ﴿ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ والأوعية للتمر ، فَإِنَّ في جعل ثمارها في الأوعية سهولة جمعها والانتفاع بها ، حيث إِنَّ النخل شجرة عظيمة لا تسقط ثمارها بمزجها ، فلا بدّ من قطفها ، فلو كان حبّات ثمرها متفرقة لصعب قطفها واحدة بعد واحدة ^(١) ، فجعله الله في وعاء إذا اقتطف ذلك الوعاء والكمّ اقتطف قدر كثير من الرطب والتمر .

وقيل : إِنَّ الكمّ بالضمّ : كلّما يغطّي النخل من ليف وسعف وغيرها ^(٢) ، فانه ينتفع به كما ينتفع بجذوعهما .

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٢) وَ (١٣)﴾

ثُمَّ ذكر سبحانه بعد نعمة الأشجار نعمة الزرع ، ارتقاء من النعمة الأنزل وهي الفاكهة والنخل إلى النعمة الأعلى بقوله : ﴿وَالْحَبُّ﴾ من البرّ والشعير والأرز وغيرها ممّا يقتات به أو يؤدم به ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ والتبن ، كما عن الرضا عليه السلام ^(٣) . ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ قيل : إِنَّ الريحان هنا بمعنى الرزق ، كما عن ابن عباس ^(٤) . وقيل : إِنَّه الحبّ المأكول ^(٥) . وقيل : إِنَّه كلّما طابت رائحته من النباتات ^(٦) . وقيل : هو الريحان المعروف ، فَإِنَّ بزره من الأدوية النافعة ، فالعصف علف الدواب والريحان دواء الانسان ^(٧) .

ثُمَّ إِنَّه تعالى بعد تعداد نعمه طالب من الثقيلين الإقرار بنعمه والشكر عليها بقوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾ أَيُّهَا الحنّ والانس ، وبأيّ النعم الظاهرة والباطنة التي أنعم عليكم مالكم كما ومرّيتكما ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ وتكفران ؟ عن الصادق عليه السلام - في تأويل الآية - « فَبِأَيِّ النعمتين تكفران ؟ بمحمد ﷺ أم بعلي عليه السلام » ^(٨) . وفي رواية (الكافي) : « أبا لنبي ، أم بالوصيّ » ^(٩) .

عن جابر ، أَنَّهُ قال : قرأ علينا رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ، ثُمَّ قال : « مالي أراكم سكوتا ؟ فَإِنَّ الحنّ أحسن منكم ردّا ما قرئت عليهم هذه الآية مرة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إِلَّا قالوا : لا بشيء من نعمك ربّنا نكذب ، فله الحمد » ^(١٠) .

(١) في النسخة : واحدا بعد واحد .

(٢) تفسير أبي السعود ٨ : ١٧٨ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣٤٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٠٨ .

(٤-٦) تفسير روح البيان ٩ : ٢٩٢ .

(٧) تفسير الرازي ٢٩ : ٩٤ .

(٨) تفسير القمي ٢ : ٣٤٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٠٨ .

(٩) الكافي ١ : ١٦٩ / ٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١٠٨ .

(١٠) تفسير روح البيان ٩ : ٢٩٣ ، وفيه : فلك الحمد .

وقيل : إنّ الخطاب للعدوّ والولي بقوله ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ . وقيل : إنّ الخطاب للذكر والانثى . وقيل : غير ذلك (١) .

قيل : كرّرت الآية في هذه السورة المباركة إحدى وثلاثين مرة ، ثمان منها بعد تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم مبالغة في الحثّ على الشكر ، ثمّ سبع منها عقيب آيات فيها ذكر النار وشدائدها بعدد أبواب جهنّم ، وذكر الإلّاء عقيبه ؛ لأنّ في التحويف بها والبعث على دفعها نعمة توازي النعم المذكورة ، أو لأنّ ابتلاء الأعداء بها نعمة على المؤمنين ، ثمّ ثمان منها بعد ذكر الجنات ونعمها على عدد أبواب الجنة ، وثمان منها بعد ذكر الجنّتين اللتين دونها ونعمها (٢) .

وقيل : إنّما التفت سبحانه من الغيبة إلى الخطاب ، لكونه أبلغ في التقرّيع والزجر عن الكفران والتكذيب ، حيث إنّ تعالى تبيّه المكذب الغافل على أنّه كالواقف بين يدي ربّه ، وهو يقول له : إنّني أنعمت عليك بكذا وكذا ، فكيف تكذب نعمائي ؟ ولا شكّ أنّ المكذب يكون عند ذلك أشدّ استحياء (٣) ، وإنّما وصف سبحانه ذاته المقدّسة بالربوبية في الآية ، لكونه المناسب لتعداد نعمائه التي من شؤون ربوبيته .

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ * فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٤) و (١٦)

ثمّ لما ذكر سبحانه نعمة خلق الانسان وبسط الأرض لأنتفاع الجنّ والانس ، ذكر مبدأ خلقهما إظهارا لكمال قدرته ، وبيانا لاتمام نعمته بقوله : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ أولا وفي البدو ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ وطين نقيّ أو يابس ، له صليل وصوت إذا وقع بعضه على بعض ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ والطين المطبوخ بالنار ، فإنّ مبدأ خلق آدم من تراب جعله طينا ، ثمّ صيّرهما مسنونا ، ثمّ صيّرهما صلصالا ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ وهو أبو الجنّ ، أو جنسه ﴿مِنْ مَارِجٍ﴾ وخالص ﴿مِنْ نَارٍ﴾ لا يخالطها دخان ، أو من مختلط منها بالدخان ، أو الهواء . قيل : خلق الجن من عنصرين : النار والهواء ، وخلق الانسان من عنصرين : التراب والماء (٤) .

وعن مجاهد : المارج هو المختلط ببعضه ببعض من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر الذي يعلو النار (٥) .

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٩٥ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٢٩٣ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٩٦ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٢٩٤ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٢٩٤ .

ثم أنكر سبحانه عليهما الكفران لنعمه بقوله : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أيها الجنّ والانس ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ وتكفران ؟

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٧) و (٢٣)

ثمّ من المعلوم أنّ الربّ الذي له هذه المرتبة من القدرة لا يختصّ ربوبيته بكما ، بل هو ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ مشرق الصيف ومشرق الشتاء ، كما عن أمير المؤمنين عليه السلام (١) ، أو مشرق الشمس ومشرق القمر .

وعن الصادق عليه السلام : « تأويل المشرقين برسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام » (٢) .

﴿وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ لكلّ من المشرقين ، وعنه عليه السلام : « المغربين الحسن والحسين عليه السلام » (٣) .

ومن المعلوم أنّ لازم ربوبيته لها ربوبيته لجميع ما بينها من الموجودات والنعم التي لا تحصى ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾ ونعمه أيها الثقلان ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ وأيها تنكران ؟

ثمّ لما ذكر الشمس والقمر اللذين لهما جريان ، ذكر نعمة البحر الذي له جريان بقوله : ﴿مَرَجَ﴾ وأرسل ﴿الْبَحْرَيْنِ﴾ بحر السماء وبحر الأرض ، أو بحر العذب وبحر الملح الاجاج ، أو بحر الروم وبحر فارس أحدهما إلى الآخر بحيث ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ ويتماسّ سطحاها ، أو بحيث يكون من شأنهما الالتقاء والاختلاط ، ومع ذلك ﴿بَيْنَهُمَا﴾ في الواقع من الأرض أو غيرها بقدرة الله ﴿بَرْزَخٌ﴾ وحاجز ومانع من الاختلاط . قيل : إنّ الماء ينحذب بعضه إلى بعض كأجزاء الزئبق (٤) . ولذا لا يكون له إلّا حيّز ومكان واحد ، فلذا من طبع البحرين وشأنهما أن يلتقيا ويختلطا ، ومع ذلك يبقى كلّ في مكان متميّز لمانع جعله الله بقدرته الكاملة ، وقد روي في صورة جريان الماء العذب في الماء المالح أو بالعكس ، وفي جريان الماء الصافي في الماء المختلط بالطين وبالعكس ، لا يختلطان في مقدار من الزمان أو مطلقا ، لمانع جعله الله بينهما بقدرته ، كقطعة من الأرض ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ ولا يتجاوزان حدّيهما حتى يمتزجا أو يغرقا ما بينهما من الأرض ، ولا يطلبان غير ما قدر لهما .

(١) الاحتجاج : ٢٥٩ ، تفسير الصافي ٥ : ١٠٨ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٤٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٠٨ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣٤٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٠٨ .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ١٠٠ .

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع أنه ليس شيء مما ذكر قابلاً للتكذيب لظهوره وظهور منافعه
 ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وهو الكبار من الدرّ ﴿وَالْمَرْجَانُ﴾ وهو صغاره ، أو الخرز الأحمر .
 قيل : إنّ المشهور بين الغواصين أنّهما يخرجان من البحر الاجاج ، من الموضع الذي يقع فيه النهر
 من الماء العذب (١) .

وعن ابن عباس : أنّه يكون اللؤلؤ والمرجان في البحر بنزول المطر ، لأنّ الصّدف تفتح أفواهها
 للمطر (٢) .

وعن الصادق عليه السلام عن أبيه ، عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ قال : « من ماء
 السماء ، ومن ماء البحر ، فاذا أمطرت فتحت الأصداف أفواهها [في البحر] فيقع فيها من ماء المطر
 ، فيخلق اللؤلؤ ، الصغير من القطرة الصغيرة ، واللؤلؤ الكبير من القطرة الكبيرة » (٣) .
 أقول : ويؤيد ذلك ما أشتهر من أنّه إذا أجذبت السنة هزلت الحيتان وقَلَّتْ الأصداف والجواهر .

ذكر منقبة علي وفاطمة وابنيهما عليهما السلام

وعن الصادق عليه السلام في بيان بطن الآية قال : « علي وفاطمة عليهما السلام بحران يلتقيان ، لا يبغي
 أحدهما صاحبه ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ » قال : « الحسن والحسين عليهما السلام » (٤) .
 وقال العلامة في (نهج الحق) روى الجمهور عن ابن عباس ، أنه قال : البحران علي وفاطمة
 عليهما السلام الحسن والحسين ، ولم

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٢٩٥ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٢٩٦ .

(٣) قرب الاسناد : ١٣٧ / ٤٨٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١٠٩ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٤٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٠٩ .

خديجة بفاطمة كانت فاطمة عليها السلام تحدّثها من بطنها ، وتؤنسها في وحدتها ، وكانت تكتم ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، فدخل النبي صلى الله عليه وآله يوماً فسمع خديجة تحدّث فاطمة ، فقال لها : « يا خديجة ، لمن تحدّثين ؟ » قالت : أحدث الجنين الذي في بطني ، فأنّه يحدّثني ويؤنسنني . قال : « يا خديجة ، أبشري فأنّها انثى ، وإنّها النسلة الطاهرة الميمونة ، فإنّ الله تعالى قد جعلها من نسلي ، وسيجعل من نسلها خلفاء في أرضه بعد انقضاء وحيه » .

فما برح ذلك النور يعلو ، وأشعته في الافاق تنمو ، حتى جاءه الملك فقال : يا محمد ، أنا الملك المحمود ، وإنّ الله بعثني أن أزوّج النور من نور . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ممّن » قال : علي من فاطمة ، فإنّ الله قد زوّجها من فوق سبع سماواته ، وقد شهد ملاكها جبرئيل وميكائيل وإسرافيل في سبعين ألفاً من الكروبيين ، وسبعين ألفاً من الملائكة الكرام الذين إذا سجد أحدهم سجدة لا يرفع رأسه إلى يوم القيامة ، أوحى الله تبارك وتعالى إليهم : أن ارفعوا رؤوسكم ، واشهدوا ملاك عليّ بفاطمة ، فكان الخاطب جبرئيل ، والشاهدان ميكائيل وإسرافيل .

ثمّ أمر الله عزّ وجلّ بحور العين أن يحضرن تحت شجرة طوبى ، وأوحى إلى شجرة طوبى أن انثري ما فيك ، فثمرت ما فيها من جوز ولوز وسكّر ، فاللوز من دّر ، والجوز من ياقوت ، والسكّر من سكّر الجنة ، فالتقطته حور العين ، فهو عندهنّ في الاطباق يتهادينه ، يقلن : هذا من نثار تزويج فاطمه بعلي .

فعند ذلك أحضر النبي أصحابه ، وقال : « أشهدكم أنّي زوّجت فاطمة من علي » فلما التقى البحران : بحر ماء النبوة من فاطمة ، وبحر ماء الفتوة من علي كرم الله وجهه ، هناك ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَنْتَقِيَانِ* بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ برزخ التقوى ، لا يبغي علي عليه السلام على فاطمة بدعوى ، ولا فاطمة على علي عليه السلام بشكوى ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ اللؤلؤ الحسن ، والمرجان : الحسين عليه السلام ، فحاء السبطين شهيدين حبيين إلى سيد الكونين ، فهما روحاه وربحانتاه ، كلّما راح عليهما وارتاح إليهما يقوله : « هذان ربحانتاي من الدنيا » وكلّما اشتاق إليهما يقول : « ولداي هذان سيدا شباب أهل الجنة » وأبوهما خير منهما وفاطمة بضعة منّي يربيني ما ربها ، ويؤذيني ما يؤذيها ، ويسرّني ما يسرّها ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (١) .

ثمّ قال القاضي رحمته الله : وبه ظهر أيضاً وجه كون النبي صلى الله عليه وآله برزخاً بينهما ، فإنّ وجوده صلى الله عليه وآله مؤكّد لعصمتها وعدم صدور خلاف الأولى من أحدهما على الآخر (٢) .

(١) الشورى : ٤٢ / ٢٣ .

(٢) إحقاق الحق ٣ : ٢٧٧ .

والعوارض الجسمانية والروحانية ، المتَّصف بصفة الربوبية التي من شؤونها الإنعام على خلقه ، والاحسان على عباده ، فذلك الباقي بعد فناء كلِّ شيء ، والمنعم على ما سواه ، وهو ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ والعظمة التي لا نهاية لها ﴿وُ﴾ ذو ﴿الْإِكْرَامِ﴾ والفضل الذي لا حدَّ له ولا إحصاء ، فعلى الخلق أن يخضعوا له ويتضرَّعوا إليه.

عن الجواد عليه السلام في حديث : « وإذا أفنى الله الأشياء أفنى الصُّور والهجاء والتقطيع ^(١) ، ولا يزال من لم يزل علماً » ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ نحن وجه الله » ^(٣) .

وعن السجاد عليه السلام : « نحن وجه الله الذي يؤتى منه » ^(٤) .

قيل : إنّ وصفه بالوصفين مرتب على الأمرين السابقين ، فذو الجلال مرتب على فناء ما في الأرض ، وذو الإكرام مرتب على بقاءه بعد فناء كلِّ شيء ، فيوجد من يريد ويفيض عليه بعد إعادته أنواع رحمته ونعمه ^(٥) .

ثمّ لما كان الموت والخروج من الدنيا الدنية ، والتنبيه على ذلك ، والإعلام ببقاء ذاته المقدّسة وغاية عظّمته وإفضاله من النعم العظام ، حتّى سبحانه على الإقرار بنعمه وشكرها بقوله : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ (٢٩) و (٣٠)﴾

ثمّ بيّن سبحانه سعة كرمه وإنعامه وكمال قدرته وجوده وغناه بقوله : ﴿يَسْأَلُهُ﴾ ويطلب منه ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ السبع من الملائكة وسائر الموجودات التي فيها ﴿وُ﴾ من في ﴿الْأَرْضِ﴾ من الانس والجنّ وسائر الحيوانات والموجودات بلسان الحال والمقال جميع ما يحتاجون إليه في بقائهم وكمالهم فيعطيهما ما يسألونه من خزائن كرمه.

عن ابن عباس : فأهل السماوات يسألونه المغفرة ، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرة ^(٦) ، فهو

﴿مُكَلِّمٌ﴾

(١) في النسخة : وينقطع ، وفي التوحيد : ولا ينقطع ، وما أثبتناه من الكافي ، والمراد صور الحروف وهجاؤها وتقطيعها ، كما في صدر الرواية.

(٢) الكافي ١ : ٩١ / ٧ ، التوحيد : ١٩٣ / ٧ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٠ .

(٣) مناقب ابن شهر آشوب ٣ : ٢٧٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٠ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٤٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٠ .

(٥) تفسير الرازي ٢٩ : ١٠٧ .

(٦) تفسير روح البيان ٩ : ٢٩٩ .

يَوْمٌ ﴿هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ من شؤون رحمانيته وربوبيته وقيّاضيته ، ولا يشغله شأن عن شأن .
 عن النبي ﷺ : « أَنَّ الرَّبَّ لَيَنْظُرُ إِلَى عِبَادِهِ كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثُمِائَةِ وَسْتِينَ نَظْرَةً ، يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَيَحْيِي وَيُمِيتُ » ويعزّ ويذلّ ، ويفعل ما يشاء ، فذلك قوله تعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ « (١) » .
 وفي الحديث : « من شأنه أن يغفر ذنبا ، ويفرّج كربا ، ويرفع قوما ، ويضع آخرين » (٢) .
 عن مقاتل ، قال : نزلت الآية في اليهود حين قالوا : إنّ الله لا يقضي يوم السبت شيئا ، ففيها رد لهم (٣) .

وقيل : إنّ قوله : ﴿هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ صفة اليوم ، والمعنى : أنّ في كلّ يوم هو في شأن ، يسأله من في السماوات والأرض ، لا اليوم الذي فيه في شأن ، وهو اليوم الذي يهلك جميع الموجودات ، ويقول : ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ﴾ (٤) فإنّ فيه لا يبقى أحد يسأله ، فهو السائل وهو المجيب (٥) .
 أقول : الظاهر أنّه إخبار بعد إخبار . ثمّ إنّ تعالى لما ذكر إفاضته إلى جميع الخلق بنعمه التي لا تحصى ، طالبهم بالإقرار والشكر بقوله : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣١) وَ (٣٢)﴾
 ثمّ لما أخبر سبحانه بتوجهه في الدنيا إلى شؤون خلقه ، أخبر بأنّه في الآخرة يصرف عن تلك الشؤون الدنيوية ويتوجه إلى شؤونهم من الحساب وجزاء الأعمال بقوله : ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ وعن قريب تتجرّد عن الاشتغال بأمور دنياكم لحساب أعمالكم ومجازاتكم عليها ﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ وسنقصدكم أيّها الجنّ والإنس .

وإنّما سمّيا بالثقلين لوزانة رأيهما على قول ، أو لعلو قدرهما في الموجودات على آخر ، أو لتشبيه الأرض بالحمولة ، وجعل الإنس والجنّ أثقالا محمولة عليها على ثالث (٦) .
 وعن الصادق عليه السلام : « سمّيا ثقلين لأنّهما يثقلان بالذنوب » (٧) .
 وقيل : إنّ الكلام مسوق للتهديد (٨) بشدّة الاهتمام بأمّهم ، وليس المقصود حقيقة الفراغ ، فإنّ السيّد يقول عند الغضب لعبده : سأفرغ لك ، مع كونه فارغا جالسا لا يمنعه شغل (٩) .
 ثمّ لما كان تعذيب الكفّار في القيامة ، وصرفه عن المؤمنين نعمة عظيمة عليهم ، والتنبيه عليهما

(١) مجمع البيان ٩ : ٣٠٦ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٠ .

(٢) مجمع البيان ٩ : ٣٠٦ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٠ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٠ .

(٣) مجمع البيان ٩ : ٣٠٦ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٠ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٠ .

(٤) غافر : ٤٠ / ١٦ .

(٥) تفسير الرازي ٢٩ : ١٠٩ .

(٦) تفسير روح البيان ٩ : ٣٠١ .

(٧) تفسير روح البيان ٩ : ٣٠١ .

(٨) تفسير الرازي ٢٩ : ١١٠ .

(٩) تفسير الرازي ٢٩ : ١١١ .

نعمة عظيمة أخرى ، حثّ الناس على الإقرار بها والشكر عليها بقوله : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣٣) و (٣٤).

ثمّ بيّن سبحانه لطفًا بالعباد بعض أهوال القيامة وشدائدها بقوله : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ وأيتها الجماعة العظيمة من الجنسين ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ وقدرتم ﴿أَنْ تَنْفُذُوا﴾ وتخرجوا ﴿مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وجوانبهما وأطرافهما فرارا من عذاب الله ونكاله ، وتهربوا من ملك الله وسلطانه ﴿فَانْفُذُوا﴾ أو اخرجوا فارّين منه ، ومن الواضح أنّكم ﴿لَا تَنْفُذُونَ﴾ ولا تخرجون منهما ولا تتخلصون من أخذ الله وعذابه ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ وقوّة وقهر ، وأنّى لكم ذلك ؟ وإِنَّمَا قَدَّمَ الْجِنَّ عَلَى الْإِنْسِ لكونهم أقدم خلقا ، وأقوى نفوذا ، وأشدّ بطشا من الإنس.

روي أنّ الملائكة تنزل وتحيط بجميع الخلائق ، فيهرب الإنس والجنّ ، فلا يأتون وجهها إلّا وجدوا الملائكة أحاطت به ، فيقول لهم الملائكة ذلك ^(١) .

وعن (المجمع) : قد جاء في الخبر : يحاط على الخلق بالملائكة ولبسان من نار ، ثمّ ينادون : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ إلى قوله : ﴿شَواظٍ مِنْ نَارٍ﴾ ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « إذا كان يوم القيامة جمع الله العباد في صعيد واحد ، وذلك أنّه يوحي إلى السماء الدنيا : أن أهبطي بمن فيك ، فيهبط أهل السماء الدنيا بمثلي من في الأرض من الجنّ والإنس والملائكة ، فلا يزالون كذلك حتى يهبط ^(٣) أهل سبع سماوات ، فيصير الجنّ والإنس في سبع سرادقات من الملائكة ، ثمّ ينادي مناد ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ الآية ، فينظرون فإذا أحاط بهم سبع أطواق ^(٤) من الملائكة » ^(٥) .

ثمّ لما ذكر قال سبحانه : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

* ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (٣٥) و (٣٧).

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٢ .

(٢) مجمع البيان ٩ : ٣١١ ، تفسير الصافي ٥ : ١١١ .

(٣) في النسخة : يحيط .

(٤) في مجمع البيان : سرادقات .

(٥) مجمع البيان ٩ : ٣١١ ، تفسير الصافي ٥ : ١١١ .

ثم يقول المنادي لهم تهويلا في ذلك اليوم : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ يا عصاة الجن والإنس ﴿شَواظُّ﴾ ولهب عظيم بلا دخان متصاعد ﴿مِنْ نَارٍ﴾ ليسوقكم إلى المحشر ، كما عن ابن عباس ^(١) . وقيل : إنّ الشواظ هو اللهب المختلط بالدخان ^(٢) ﴿وَنُحَاسٌ﴾ وقطر مذاب يصب من فوق رؤوسهم . وقيل : إنّ الدخان الخالص ^(٣) ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ ولا تمتنعان من العذاب .
 وقيل : إنّ قوله : ﴿لَا تَنْفَذُونَ﴾ إشارة إلى أنه لا مهرب لهم من العذاب قبل نزوله ^(٤) . وقوله : ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ إشارة إلى أنه لا ناصر ولا منج لهم منه بعد نزوله .
 ثم لما كان بيان عاقبة الكفر والعصيان والتحذير عنها من اللطاف العظيمة والتعم الجسيمة قال سبحانه : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

ثم بالغ سبحانه في إرعاب القلوب بقوله : ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ﴾ وانصدعت ﴿السَّمَاءُ﴾ وانفك بعضها من بعض لعدم الحاجة إليها والدلالة على انقراض الدنيا المحتاجة إلى السقف والكواكب ، أو لنزول الملائكة ﴿فَكَانَتْ﴾ وصارت حمراء تشبه ﴿وَرْدَةً﴾ حمراء - والزهرة المعروفة التي تشم - في اللون قيل : إنّ السماء لوّحها في الواقع الحمرة ، وإنما ترى زرقاء للبعد ^(٥) . وقيل : يعني تتقلب حمراء بعد أن كانت صفراء ﴿كَالذَّهَانِ﴾ ، أو صارت كلون الورد تتلون كالآدهان المختلفة . وقيل : يعني تصير حمراء كالورد من حرارة جهنم ، وتذوب وتجري كالدهن المذاب ^(٦) . وجواب (إذا) محذوف ، والمعنى : إذا صارت السماء كذلك ، يكون من الأحوال والأهوال ما لا تحيط به دائرة المقال ، أو رأيت أمرا عظيما هائلا .

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بَسْمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣٨) و (٤٥)

ولما كان الإخبار بما ذكر من الزواجر التي هي أعظم النعم ، قال سبحانه : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٢ .

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ١١٤ ، تفسير أبي السعود ٨ : ١٨٢ .

(٣) تفسير أبي السعود ٨ : ١٨٢ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٢ ، وفيهما : اللهب الخالص .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ١١٤ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٢ .

تُكَذِّبَانِ مع غاية ظهورها **﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾** وحينئذ **﴿لَا يُسْأَلُ﴾** أحد من قبل الله أو غيره **﴿عَنْ ذَنْبِهِ﴾** الذي ارتكبه في الدنيا ، لا **﴿إِنْسٍ وَلَا جَانٍّ﴾** لأنَّ العصاة معروفون بسيماهم ، فلا يحتاج عرفانهم إلى السؤال عن ذنبهم. قيل : لا يسألون في أول حشرهم إلى الموقف ، ويسألون حين المحاسبة. عن ابن عباس : لا يسألهم : هل عملتم كذا وكذا ؟ فإنه أعلم بذلك ، ولكن يسألهم لم عملتم كذا وكذا ؟ ^(١) وعنه أيضا : لا يسألون سؤال شفاء وراحة ، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ ^(٢) .

عن الرضا **عليه السلام** - في هذه الآية - قال : « من اعتقد الحقَّ ثمَّ أذنب ولم يتب في الدنيا عذب [في البرزخ ويخرج يوم القيامة وليس له ذنب يسأل عنه] » ^(٣) **﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾** .

ثمَّ بيّن سبحانه علّة عدم السؤال من الجن والإنس عن ذنبه بقوله : **﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ﴾** والعصاة في ذلك اليوم **﴿بِسِيمَاهُمْ﴾** وعلامة الذنب الظاهرة في وجوههم من السواد وزرقة العين والغبرة والقترة والحزن والنكايّة **﴿فَيُؤْخَذُ﴾** أولئك العصاة **﴿بِالنَّوَاصِي﴾** وشعور مقدّم رؤوسهم **﴿وَالْأَقْدَامِ﴾** قيل : يأخذ الملائكة بشعر رؤوسهم وأقدامهم ، فيقذفونهم في النار ^(٤) . أو المراد تسحبهم الملائكة وتجرحهم إلى النار تارة بالأخذ بنواصيهم وتارة بالأخذ بأقدامهم ^(٥) **﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾** من المواعظ والزواجر مع كون منافعها في غاية الظهور ؟ ثمَّ يقال لهم توبيخا وتقريعا **﴿هَذِهِ﴾** النار التي ترونها وتدخلونها هي **﴿جَهَنَّمُ الَّتِي﴾** وعد الله بها العصاة في الدنيا على لسان رسله ، وكان **﴿يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾** والمصرّون على الكفر والعصيان ، فانظروا اليوم إلى المكذّبين أنّهم **﴿يَطُوفُونَ﴾** ويدورون **﴿بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾** وماء حارّ **﴿أَنِ﴾** وبالغ منتهى الحرارة وأقصاها ، يصبّ عليهم ، أو يستقون منه .

عن كعب الأحبار : أنّ واديا من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار ، فينطلق بهم في الأغلال ، فيغمسون فيه حتى تنخلع أو صالهم ، ثمَّ يخرجون منه ، وقد أحدث الله لهم خلقا جديدا ، فيلقون في النار ^(٦) . ومن الواضح أنّ الإخبار بهذه الامور العظام من نعم الله على الأنام **﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾** أيها الثقلان **﴿تُكَذِّبَانِ﴾** وقيل : يعني **﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾** ممّا عدّدناه من أوّل السورة **﴿تُكَذِّبَانِ﴾** فتستحقّان هذا العذاب الشديد ^(٧) .

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٣ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٣ .

(٣) مجمع البيان ٩ : ٣١٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٢ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٣ .

(٥) تفسير الرازي ٢٩ : ١٢١ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٨٣ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٣ .

(٦) تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٣ و ٣٠٤ .

(٧) تفسير الرازي ٢٩ : ١٢١ .

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٤٦) و (٤٩)

ثمّ لما حدّر الله العصاة بذكر سوء عاقبتهم وعذاب عصيانهم ، زجرا لهم عمّا هم عليه ، بيّن سبحانه حسن عاقبة المؤمنين الخائفين من عصيانه ، ترغيبا لهم إلى طاعته بقوله : ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ وحين الحضور في موقف فصل قضائه في القيامة ، وظهور آثار قدرته وسطوته وسلطانه ، وهتك السور ، وكشف حقائق الامور ، وقيام الأَشْهاد ، فاجتنب لخوفه ذلك مخالفته وعصيانه في الدنيا ﴿جَنَّاتٍ﴾ قيل : جنة لتركه المعاصي والشهوات ، وجنة لفعل الطاعات ^(١) . وقيل : جنة لإيمانه ، وجنة لعمله ^(٢) ، وأما الجنّتان فجنة عدن ، وجنة نعيم ^(٣) . وقيل : جنة داخل القصر ، وجنة خارجة ^(٤) . وقيل : جنة لسكونته ، وجنة لسكونة أزواجه وخدمه ^(٥) . وقيل : جنة من ذهب ، وجنة من فضة ^(٦) ، يطوف بينهما كما يطوف المحرم بين جهنّم وحميم ، وإمّا لم يقل يطوف بينهما الخائفون ، لوضوحه وإظهار أهمّ ملوك يطاق عليهم احتراماً لهم وإكراماً في حقّهم ، ولا يطاق بهم .

عن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال : « من علم أنّ الله يراه ويسمع ما يقول ويعلم ما يعمل من خير أو شر ، فحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال ، فذلك الذي خاف مقام ربّه [ونهى النفس عن الهوى] » ^(٧) .

وعن النبي ﷺ : « من عرضت له فاحشة أو شهوة فاجتنبها من مخافة الله ، حرّم الله عليه النار ، وآمنه من الفزع الأكبر ، وأنجز له ما وعده في كتابه في قوله تعالى : ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ » ^(٨) .

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾ من نعم الدنيا والآخرة ﴿تُكَذِّبَانِ﴾

ثمّ وصف سبحانه الجنّتين بقوله : ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ وصاحبتا أغصان منشعبة من الشجرة ، عليها أوراق عجيبة ، وأثمار طيبة من غير سوق غلاظ ، مانعة عن التردّد فيها كيف شاء ، كذا قيل ^(٩) . وقيل : يعني صاحبتا أنواع من الأشجار المثمرة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾ من الآلاء الدنيوية والاخرية ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ .

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ

* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ١٢٣ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٤ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٤ ، وفيه : لعقيدته ، بدل لإيمانه .

(٣-٦) مجمع البيان ٩ : ٣١٤ .

(٧) الكافي ٢ : ٥٧ / ١٠ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٣ .

(٨) من لا يحضره الفقيه ٤ : ٧ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٣ .

(٩) تفسير الرازي ٢٩ : ١٢٤ .

الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٢) و (٥٥)

ثمّ وصف سبحانه الجنّتين بغاية الصفاء والنزاهة بقوله : ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ﴾ من ماء غير آسن ﴿تَجْرِيَانِ﴾ من جبل من مسك على ما قيل ^(١) ، وعن ابن عباس : تجريان بالماء الزلال ، إحداهما التّسليم ، والآخر السّلسيل ^(٢) . قيل : تجري في كلّ جنة عين ^(٣) ، كما قال تعالى : ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ ^(٤) .
﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثمّ لما وصف الجنّتين بغاية النّزاهة التي هي الأهمّ في نظر المتنعمين ، وصفها باستجماعهما لجميع الفواكه بقوله : ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ﴾ نوع من ﴿فَاكِهَةٍ﴾ متصوّرة من الفواكه ﴿زُوجَانِ﴾ وصنفان : حلو وحامض ، أو رطب ويابس ، أو معهود وغير معهود.
عن ابن عباس : ما في الدنيا حلوة ولا مرّة إلّا وهي في الجنّة حتى الحنظل ، إلّا أنه حلو ^(٥) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثمّ بيّن سبحانه حال استراحة الخائفين في الجنّة بقوله : ﴿مُتَكَبِّرِينَ﴾ ومعتمدين كالمملوك حال جلوسهم ﴿عَلَى فُرُشٍ﴾ مبسوطة تحتهم بعضها على بعض ، وتلك الفرش ﴿بِطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وديباج ثخين ، فما ظنكم بظواهرها التي لا بدّ أن تكون أعلى وأشرف من البطائن قيل : إنّ ظواهرها من سندس ^(٦) وحرير رقيق ، وقيل : من نور ^(٧) ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ﴾ وثمارها التي تقطف ﴿دَانٍ﴾ وقريب بحيث يجتنى في كلّ حال بلا كلفة القيام والمشي واستعمال الآلة.

عن ابن عباس. قال : تدنو الشجرة حتى يجتنىها ولي الله ، إن شاء قائما ، وإن شاء قاعدا وإن شاء مضطجعا ^(٨) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ * كَانَتْهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ

الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٦) و (٦١)

ثمّ وصف سبحانه أزواجهن في الجنة بقوله : ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ على أزواجهن ، لا تتجاوز أعينهنّ إلى غيرهم ، ولا ينظرن إلى سواهم لشدة حبّهنّ لهم. قيل : تقول كلّ منهنّ لزوجها : وعزة ربّي

(١) تفسير أبي السعود ٨ : ١٨٤ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٦ .

(٢) تفسير أبي السعود ٨ : ١٨٤ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٦ .

(٣) الغاشية : ٨٨ / ١٢ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٦ و ٣٠٧ .

(٥-٦) تفسير أبي السعود ٨ : ١٨٥ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٧ .

ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك ، فالحمد لله الذي جعلك زوجي ، وجعلني زوجك ^(١) .
وعن القمي : الحور العين يقصر الطرف عنها من ضوء نورها ^(٢) . وقيل : إنّ قصر الطرف كناية
عن الحياء والدّلال ^(٣) . وقيل : إنّ المراد أنّهن مانعات أبصارهنّ عند الخروج عن النظر إلى اليمين
والشمال لغاية عفّتهن ^(٤) .

﴿لَمْ يَطْمِئِنَّهُمْ﴾ ولم يمسّهن ، أو لم يفضضنّ ﴿إِنْ﴾ غير أزواجهنّ ﴿قَبْلَهُمْ﴾ في الجنة ﴿وَلَا
جَانٌّ﴾ بل هن باكرات غير ملموسات ﴿فِيَّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

ثمّ بيّن سبحانه كمال جمالهنّ بقوله : ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ في الصّفاء والحسن ﴿الْيَاقُوتُ﴾ الأحمر
﴿وَالْمَرْجَانُ﴾ واللؤلؤ الصّغار الأبيض ، فأنّه أصفى من اللؤلؤ الكبار .

عن النبي ﷺ أنّه قال : « إنّ المرأة من أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلّة ومخّها
، إنّ الله يقول : ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ ^(٥) ﴿فِيَّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ » .

ثمّ أكّد سبحانه وعده المؤمنين بالجنة والنّعم المذكورة ببيان حكم العقل بوجوب كون جزاء المحسن
هو الاحسان بقوله : ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ﴾ إلى الغير بحكم العقل السليم أيّها العقلاء ﴿إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ إلى
المحسن ، لا والله لا يكون جزاء المحسن على إحسانه إلّا الاحسان إليه ، فلا بدّ من أن يجازي المؤمن
المحسن بعمله من الله بالجنة والنّعم الدائمة .

عن أنس ، قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ...﴾ الآية ، ثمّ قال : « هل تدرون
ما قال ربّكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « يقول هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدي إلّا
أن اسكنه جنّتي وحظيرة قدسي برحمتي » ^(٦) .

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما عن النبي ﷺ ، قال : « هل جزاء من قال لا إله إلّا الله إلّا الجنة » ^(٧) .

وعن الصادق عليه السلام : « أن هذه الآية جرت في الكافر والمؤمن والبرّ والفاجر ، من صنع إليه
معروف فعليه أن يكافئ به ، وليس المكافأه أن تصنع كما صنع حتى تربى ، فإنّ صنعت كما صنع كان له
الفضل بالابتداء » ^(٨) .

﴿فِيَّ آلاءِ رَبِّكُمَا﴾ من النّعم العقلانية والنفسانية والروحانية والجسمانية ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ .

(١) مجمع البيان ٩ : ٣١٥ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٧ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٤٦ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٣ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٨ .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ١٢٩ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٩ .

(٦) تفسير روح البيان ٩ : ٣٠٩ .

(٧) علل الشرائع : ٢٥١ / ٨ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٤ .

(٨) مجمع البيان ٩ : ٣١٦ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٤ .

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٢) وَ (٦٣)﴾

ثمَّ إِنَّه تعالى بعد بيان جزاء الخائفين المقربين بأنَّ لهم جنتين موصوفتين بأعلى مراتب الحسن ، بيّن جزاء من دونهم في القرب بقوله : ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا﴾ وأنزل منهما شرفا وحسنا ﴿جَنَّتَانِ﴾ اخريان لمن دون الخائفين رتبة ومنزلة عند الله.

قال بعض المفسرين : من دون الجنتين الأوليين جنتان اخريان من فضّة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ^(١) .

وروى (المجمع) عن النبي ﷺ ما يقرب منه ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « لا تقولنَّ الجنة واحدة ، إنّ الله تعالى يقول : ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ولا تقولنَّ واحدة ، إنّ الله يقول : (درجات بعضها فوق بعض) ^(٣) إنّما تفاضل القوم بالأعمال » ^(٤) .

وعنه عليه السلام قيل له : الناس يتعجبون ممّا ، كنّا إذا قلنا يخرج قوم من النار فيدخلون الجنة ، فيقولون لنا : فيكونون مع اولياء الله في الجنة ؟ فقال عليه السلام : « إنّ الله يقول : ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ لا والله ما يكونون مع اولياء الله » ^(٥) .

وقيل : إنّ الجنتين الأدنيين ^(٦) لذريّتهم الذين ألحقهم بهم ولأتباعهم ، وإنّما جعلهما الله لهم إنعاما على المؤمنين ، كأنّه يقول الله لهم : هاتان الأخريان لكم ، أسكنوا فيهما من تريدون ^(٧) .

وقيل : إنّ لكلّ من المؤمن والمؤمنة أربع جنات عن يمين ويسار ، وقُدّام وخلف ، ليتضاعف له السرور بالانتقال من جنة إلى جنة ، فإنّه ابعد من الملل فيما طبع عليه من البشرية ^(٨) .

وعن القمي ، عن الصادق عليه السلام ، أنّه سئل عن قوله تعالى : ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ قال : « حضراوان في الدنيا يأكل المؤمنون منهما حتى يفرغوا من الحساب » ^(٩) .

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾ من الآلاء الاخرية والجنّات العديدة ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مُدْهَامَتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٣١٠ ، وفي النسخة : آنيتهما وما فيهما ، وجنتان أوليان من ذهب آنيتهما.

(٢) مجمع البيان ٩ : ٣١٨ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٤ .

(٣) في سورة الانعام : ٦ / ١٦٥ وَرَفَعَ بَعْضُكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ.

(٤و٥) مجمع البيان ٩ : ٣١٨ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٥ .

(٦) في النسخة : الأدونين.

(٧) تفسير الرازي ٢٩ : ١٣٣ .

(٨) تفسير روح البيان ٩ : ٣١٠ .

(٩) تفسير القمي ٢ : ٣٤٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٥ .

تُكَذِّبَانِ (٦٤) و (٦٩)

ثمّ وصف سبحانه الجنّتين الادنيتين ^(١) بصفات أدون من صفات الجنّتين الاوليين ، حيث وصف الاوليين بقوله : ﴿ذَوَاتَا أَفْسَانٍ﴾ ووصف الآخرين بقوله : ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ ومخضرتان غاية الخضرة بحيث تضربان الى السواد.

قيل : هذا الوصف يدلّ على أنّ الآخرين دون الاوليين مكانا ^(٢) ، فالمؤمنون إذا نظروا إلى فوقهم يرون الأفنان والأغصان تظللهم ، وإذا نظروا إلى تحتهم يرون أرضا مخضرة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾ من خضرة نباتات هاتين الجنّتين ، فتمتّع أبصاركم بهما ، وانتفاع انوفكم بشمّ ريحيهما ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ .
ثمّ وصف سبحانه نزاهتهما وصفائهما بقوله : تعالى : ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ﴾ وفوّارتان إلى جهة الفوق بالماء . وقيل : بالخير والبركة ^(٣) . وعن ابن عباس : بالمسك والعنبر ^(٤) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾ من ربّكم بالشراب ، والتذاذكُم بنزهة الجنّتين ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ .

في مدح الرّمان

ثمّ وصف سبحانه المأكول فيهما بقوله : ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ﴾ كثيرة ، وما يتلذّد به من ثمار الأشجار ، ثمّ حصّ النوعين منهما بالذكر بقوله : ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ لفضلهما على سائر الفواكه ، فإنّ الرّطب والتمر فاكهة وغذاء ، والرمان فاكهة ودواء . قيل : إنّ الفواكه أرضية وشجرية ، فالأرضية كالبطيخ داخلية في قوله : ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ والشجرية كالتفاح والسّفرجل والعنب وغيرها ^(٥) ، هي المراد من الآية .
عن ابن عباس : نخل الجنة جذوعها من زمرد أخضر ، وكربها من ذهب أحمر ، وسعفها كسورة لأهل الجنّة ، وثمرها أمثال القلال ^(٦) أو الدّلا ، أشدّ بياضا من اللّبن ، وأحلى من العسل ، وألين من الرّيد ، ليس له عجم ^(٧) ، كلّما نرعت ثمرة عادت مكانها اخرى ^(٨) .
وعنه : ما لقحت رمانة قطّ إلا بحبّة من الجنّة ^(٩) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « إذا أكلتم الرمان ، فكلوه ببعض شحمه ، فإنّه دباغ للمعدة ، وما من حبة منه تقيم في جوف مؤمن إلا أنارت قلبه ، وأخرجت شيطان الوسوسة منه أربعين يوما » ^(١٠) .
وعن النبي ﷺ : « من أكل رمانا أنار الله قلبه أربعين يوما » ^(١١) .

(١) في النسخة : الأدونين.

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٣١١ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٣١١ .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ١٣٤ .

(٥) القلال : جمع قلّة ، وهي إناء من الفخار يشرب منه .

(٦) العجم : جمع عجمة ، وهي نواة التمر أو الرمان أو العنب وغيرها .

(٧) تفسير روح البيان ٩ : ٣١٢ .

(٨) تفسير روح البيان ٩ : ٣١٢ .

وعن الصادق عليه السلام : « الفاكهة مائة وعشرون لونا ، سيدها الزمان » ^(١) .
وعنه عليه السلام : « خمس من فواكه الجنة في الدنيا : الزمان الأمليس » ^(٢) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٠) وَ (٧٣)﴾
ثم وصف سبحانه المنكوحات في الجنتين بقوله : ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ﴾ أخلاقهن ﴿حَسَنَاتٌ﴾ وجوههن .
عن (المجمع) عن النبي صلى الله عليه وآله : « أي نساء خيرات الأخلاق ، حسان الوجوه » ^(٣) .
وقيل في تفسير الخيرات : لسن بدمرات ولا بخرات ولا متطلعات ولا متشوفات ولا ذريات ولا سليات ولا طمحات ولا طوافات في الطرق ^(٤) . وفي تفسير الحسان : حسان الخلق والخلق ^(٥) .
عن الصادق عليه السلام : « هن صوالح المؤمنات العارفات » ^(٦) .
وعنه عليه السلام : « الخيرات الحسان من نساء أهل الدنيا ، وهن أجمل من حور العين » ^(٧) .
روى بعض العامة : أن حور العين يقلن : نحن الناعمات فلا نبأس ، الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كُتِلَ له ؛ فإذا قلن هذه [المقالة] أجابتهن المؤمنات من نساء الدنيا : نحن المصليات وما صليتن ، ونحن الصائمات وما صمتن ، ونحن المتصدقات وما تصدقن ، فغلبنهن ، والله غلبنهن ^(٨) .
وقيل : إن المراد من الخيرات الحور العين ^(٩) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وقد أنعم الله عليكم بالخيرات الحسان.

ثم بالغ سبحانه في وصف نساء الجنة بقوله : ﴿حُورٌ﴾ ونساء بيض ﴿مَّقْصُورَاتٌ﴾ ومحدرات ﴿فِي الْخِيَامِ﴾ والخدور ، أو مستورات في الحجال ، لا يظهرن لغير أزواجهن ، ولا يخرجن من سورهن لغاية عظمتهن وعفتهن على ما قيل ^(١٠) .

عن الصادق عليه السلام ، قال : « الحور هن البيض ، والمقصورات المحدرات في خيام الدّر والياقوت

(١) الكافي ٦ : ٣٥٢ / ٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٥ .

(٢) الكافي ٦ : ٣٤٩ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٥ ، وفي النسخة : الأملس ، والزمان الإمليس ، أو الإمليسي ، هو رمان حلو طيب لا عجم له .

(٣) مجمع البيان ٩ : ٣١٩ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٦ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٣١٢ ، والدمر : النتن ، والبخر : النتن في الفم والابط وغيرهما ، والذرية : السليطة اللسان ، والطمحات ، يقال : طمح بصره إليه ، كمنع : ارتفع ، والطوافات في الطرق : دورات .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٣١٢ .

(٦) الكافي ٨ : ١٥٦ / ١٤٧ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٦ .

(٧) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٢٩٩ / ١٤٣٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٦ .

(٨) تفسير روح البيان ٩ : ٣١٣ .

(٩) تفسير الطبري ٢٧ : ٩١ .

(١٠) مجمع البيان ٩ : ٣٢٠ .

والمرجان ، لكلّ خيمة أربعة أبواب ، على كلّ باب سبعون ملكا ، حجّابا لهم ، وتأتيهنّ في كل يوم كرامة من الله عزّ ذكره ، يبشّر الله عزّ وجلّ بهن المؤمنين « (١) .

وعن ابن مسعود : لكلّ زوجة خيمة طولها ستون ميلا (٢) .

وقيل : إنّ الخيمة من خيامهنّ درّة مجوّفة عرضها ستون ميلا ، في كلّ زاوية منها أهلون لا يرون إلّا حين يطوف عليهنّ المؤمنون (٣) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع أنّه خلق لكما من النساء المقصورات المحبوسات .

﴿لَمْ يَطْمِئْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَكَبِّرِينَ عَلَى
رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ
ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٤) وَ (٧٨)﴾

ثمّ بيّن سبحانه أنّ أزواج المؤمنين كأزواج المقرّبين في البكارة وعدم مسّ غير أزواجهنّ بقوله : ﴿لَمْ يَطْمِئْهُنَّ﴾ ولم يمسّهنّ ، أو لم يفتضّهنّ غير أزواجهنّ ، لا ﴿إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا﴾ أحد ﴿جَانٌّ﴾ بل كلّهنّ باكرات غير ملموسات ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع إنعامه عليكما بأعلى النعم .

ثمّ بيّن سبحانه راحة المؤمنين في الجنّتين بقوله : ﴿مُتَكَبِّرِينَ﴾ ومعتمدين فيهما ﴿عَلَى رَفْرَفٍ﴾ وفرش مرتفعة ، كما عن بعض (٤) ، أو مجالس (٥) ، كما عن ابن عباس ، أو مرافق (٦) ومساند ﴿خُضْرٍ﴾ لكونه أحسن الالوان ﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾ وفرش ﴿حِسَانٍ﴾ أو بسط موشاة (٧) ، أو فيها صور ، وهي على كلّ تقدير في غاية الجودة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع أنّه قد هيأ لكم ما به نهاية الراحة والكرامة .

ثمّ لما ذكر سبحانه نعمه الدنيوية والاخرية التي كلّها من شؤون رحمانيته وفيّاضيته على جميع الموجودات ، وصف ذاته بعلوّ الشأن أو بكثرة الخير والبركة بقوله : ﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى شأننا ، أو كثر خيرنا ، أو دام ﴿اسْمُ رَبِّكَ﴾ وما يحكي عن ذاته كالرحمن الذي افتتحت به السورة المباركة ، فكيف بذاته المقدّسة ، فإنّ عظمة الاسم دالة على عظمة المسمّى .

ثمّ إنّّه تعالى بعد تعداد النعم الدنيوية والتنبيه على فناء العالم أخبر ببقاء ذاته ، وعبرّ عنها بالوجه ، والمراد به وجوده الواجب غير القابل للعدم والزوال ، وبعد تعداد نعمه الدائمة الاخرية أخبر بدوام اسمه المبارك في ألسنة الذاكرين في الجنّة ، أو كثرة خيراته وبركاته ، أو علوّ شأنه اللازم لتوجّه الخلق

(١) الكافي ٨ : ١٥٦ / ١٤٧ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٦ .

(٢) مجمع البيان ٩ : ٣٢٠ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣١٣ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٣١٣ .

(٤-٦) مجمع البيان ٩ : ٣٢٠ .

(٧) في النسخة : موشى .

إليه وتعظيمه.

وقيل : إنّ المراد بالاسم صفته الرحمانية والرحيمية ^(١) . وقيل : إنّ المراد ذاته المقدسة ^(٢) .
وفي كلا الموضعين نبّه على جلالته ، وتنوّجه عن النقائص ، ووفور كرمه ، ونهاية كبريائه بقوله :
﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ إرعاباً للقلوب ، لمكان الجلال ، وإيناساً لها به لمكان الإكرام ، ففي هذين
الوصفين تربية للخوف والرجاء.

قيل : من اللطائف أنّه تعالى ختم السورة السابقة ببيان سعة ملكه وكمال قدرته بقوله تعالى :
﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ ^(٣) وختم هذه السورة ببيان نهاية جلالته التي من آثار سعة ملكه ، ونهاية إكرامه التي
من آثار كمال قدرته.

عن الباقر عليه السلام - في هذه الآية - « نحن جلال الله وكرامته التي أكرم الله تبارك وتعالى العباد
بطاعتنا ومحبتنا » ^(٤) .

عن الصادق عليه السلام : « من قرأ سورة الرحمن فقال عند كلّ آية ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا
بشيء من آلائك ربّ أكذب ، فان قرأها ليلاً ثمّ مات شهيداً ، وإن قرأها نهاراً ثمّ مات مات
شهيداً » ^(٥) .

قيل : إن آيات أول هذه السورة المباركة أول ما قرئ من القرآن على قريش ^(٦) .

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٣١٥ .

(٢) مجمع البيان ٩ : ٣٢٠ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ١٣٧ ، والآية من سورة القمر : ٥٤ / ٥٥ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٤٦ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٧ .

(٥) ثواب الأعمال : ١١٦ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٨ .

(٦) تفسير روح البيان ٩ : ٣١٥ .

في تفسير سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ (١) و (٣)

ثم لما ختمت سورة الرحمن المبتدئة بالاعلان بسعة الرحمة ، ثم عظمة القرآن المحتوية لبيان النعم الدنيوية والاخرية ، وبيان فناء الموجودات الجسمانية ، وأهوال القيامة ، وكون الناس فيها فرقا ثلاث : الجحيم ، والمقرين ، والمؤمنين الأبرار ، نظمت بعدها سورة الواقعة المبتدئة بإظهار المهابة ببيان أهوال القيامة ، وبيان فناء الدنيا وخرابها فيها ، وكون الناس فيها فرقا ثلاث : السابقين المقربين ، وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، وغير ذلك من المطالب المربوطة بالسورة السابقة ، فابتدأها بذكر أسمائه الحسنی بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم شرع سبحانه فيها بيان أهوال القيامة الموجبة للخوف عن مقامه وإرعاب القلوب من مهابته بقوله : ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾ القيامة التي هي ﴿الْوَاقِعَةُ﴾ لا محالة ، أو هي الواقعة العظيمة التي من عظمتها وشدائدها لا يتصور لها نظير ، أو الزلزلة التي تضع لها كل ذات حمل حملها . قيل : إنّ جواب (إذا) محذوف ، والتقدير : تكون أهوال وشدائد (١) .

﴿لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا﴾ وحدوثها نفس ﴿كَاذِبَةٌ﴾ ومنكرة إيّاها لشهودها وشهود أهوالها ، أو لا يوجد نفس كاذبة لأجل شدتها وأهوالها ، ومن عظمتها أنّها ﴿خَافِضَةٌ﴾ لأقوام ، و﴿رَافِعَةٌ﴾ لآخرين عن ابن عباس : تخفض أقواما كانوا مرتفعين في الدنيا ، وترفع أقواما كانوا متّضعين فيها (٢) .

وعن السجاد عليه السلام : « ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ يعني القيامة ﴿خَافِضَةٌ﴾ خفضت والله بأعداء الله إلى النار ﴿رَافِعَةٌ﴾ رفعت والله أولياء الله إلى الجنة » (٣) .

وقيل : إنّ بيان لنفي وجود الكاذب في ذلك اليوم (٤) ، والمعنى : ليس فيها نفس كاذبة تغير

الكلام

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ١٤٠ ، تفسير أبي السعود ٨ : ١٨٨ .

(٢) مجمع البيان ٩ : ٣٢٤ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣١٦ .

(٣) الخصال ٦٤ / ٩٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١١٩ .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ١٤١ .

وتخفض كلمة أو ترفعها ، أو المراد أنّ تلك الواقعة تخفض بعض الأشياء ، وترفع بعضا ، تحطّ الأشياء ، وترفع السّعداء ، وتنزل الأجرام عن مقارّها بنثر الكواكب وإسقاط السماء كسفا ، وتسير الجبال في الجو كالسّحاب ، وصيرورتها بعد الرفع عن الأرض [كشييا] مهيلا منبسّطا ، وصيرورة الأرض كشييا مرتفعا ، وإتّما قدّم الخفض للتشديد والتهويل .

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا * وَكُنُتُمْ

أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ

مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (٤) و (١١)﴾

ثمّ بيّن سبحانه وقت كون القيامة خافضة رافعة بقوله : ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ وزلزلت ﴿الْأَرْضُ رَجًا﴾ وزلزلا عظيما ، وحرّكت تحريكا شديدا بحيث لا يبقى فوقها بناء ﴿وَبُسَّتِ﴾ وفتّنت ﴿الْجِبَالُ﴾ أو سقيت وسيّرت من أماكنها ﴿بَسًا﴾ وفتّينا عجبا ، أو سوقا وسيرا سريعا ﴿فَكَانَتْ﴾ وصارت جميع الجبال بسبب ذلك التفتت أو السوق ﴿هَبَاءً﴾ أو غبارا مرتفعا ، أو كالذرات التي ترى في شعاع الشمس ، أو ما يتطاير من شرر النار ، أو ما ذرت الريح من الأوراق ﴿مُنْبَثًا﴾ ومتفرقا ومنتشرا في الجو .
قيل : إنّ الله تعالى يبعث ريحا ، فتحمل الأرض والجبال ، وتضرب بعضها ببعض ، ولا تزال كذلك حتى تصير غبارا ^(١) .

﴿وَكُنُتُمْ﴾ أيّها الناس ، من الأولين والآخرين في ذلك اليوم ﴿أَزْوَاجًا﴾ وأصنافا ﴿ثَلَاثَةً﴾ حسب اختلاف عقائدهم وأعمالهم في الدنيا ، أما الصنف الأول ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ والبركة والسعادة ، أو أهل المنزل الرفيعة ، أو ذوي الصّحائف التي يعطونها بأيّمانهم ، أو الجماعة الذين ^(٢) يقومون عن يمين العرش ، أو كانوا على يمين آدم في عالم الدّر ويوم الميثاق ، وما تدرون أيّها العقلاء ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ وأي شيء هم في الفخامة وعلوّ الرتبة ؟ فتتعجبون من حسن حالهم ، لكونهم مؤمنين صالحين ، وإن كان لهم تبعات يقومون بها للحساب ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الصنف الثاني ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ والشرّ والشقاوة ، وأهل الدّلة والشراسة والنكبة والدّناءة و﴿مَا﴾ تدرون ما ﴿أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ وأي شيء هم في سوء الحظّ وحطّ المنزلة ؟ فتتعجبون من سوء حالهم لكونهم كفّارا طغاة مستحقّين للعذاب ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ والمبادرون إلى الإيمان والطاعة ، والمسارعون إلى الخيرات ، وهم ﴿السَّابِقُونَ﴾ والمبادرون إلى الجنة بغير حساب ، والمسارعون إلى الدرجات العاليات .

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٣١٧ .

(٢) في النسخة : التي .

وقيل : إنّ المراد أنّ ﴿السَّابِقُونَ﴾ هم السابقون المعروفون بحسن الحال ^(١) . أو هم الذين لا يمكن الإخبار عن عظمتهم إلّا بأن يقال : هم السابقون ، لكون حسن حالهم وعلوّ مقامهم فوق أن يحيط به علم البشر ^(٢) . وقيل : إنّ ﴿السَّابِقُونَ﴾ الثاني تأكيد للأول ^(٣) . وقيل : إنّ المعنى : السابقون ما السابقون ؟ فحذفت كلمة (ما) لدلالة الجملتين السابقتين عليها ^(٤) . وقيل : إنّ (السابقون) الثاني مبتدأ ، وخبره قوله : ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ^(٥) إلى الله بأعلى درجات القرب الذي يكون للبشر ، أو المقربون إلى العرش ، لأنّ درجاتهم فوق درجات غيرهم في الجنّة التي سقفها عرش الرحمن ، لقول النبي ﷺ : « إذا سألتكم الله فاسألوه الفردوس ، فأنّه أوسط الجنّة وأعلاها ، وفوقه عرش الرحمن » ^(٦) . وقيل : إنّهم مقربون إلى الجنّة حين كون أصحاب الميمنة في مقام الحساب ^(٧) . قيل : قدّم سبحانه عند ذكر الأصناف أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ، لأنّهم الذين ينفعهم ذكر أهوال القيامة دون السابقين الذين لا يختلف حالهم بالخوف والرجاء ^(٨) .

نقل كلام بعض العامة وردّه

قال بعض العامة : السابقون أربعة : سابق امّة موسى ﷺ وهو جزييل ^(٩) أو حزقييل مؤمن آل فرعون ، وسابق امّة عيسى وهو حبيب النجار صاحب أنطاكية ، وسابقا امّة محمد وهما أبو بكر وعمر ^(١٠) .

أقول : هذا القول مما تضحك به التكلّي ، لوضوح أنّ الرجلين لا سبق لهما لا في الإيمان ولا في الطاعة ، للاتفاق على أنّ إسلام أبي بكر كان بعد إسلام ثلاثة أو أربعة ^(١١) ، وإسلام عمر كان بعد إسلام تسعة وثلاثين أو أربعين من الصحابة ، مع أنّه روى الجمهور عن ابن عباس ، أنّه قال : سابق هذه الامّة علي بن أبي طالب ﷺ ^(١٢) .

وقال فضل بن روزبهان الناصب : جاء في رواية أهل السنّة : « سباق الامم ثلاثة : مؤمن آل فرعون ، وحبيب النجار ، وعلي بن أبي طالب » ^(١٣) . وفيما رواه الفخر الرازي : « هو أفضلهم » ^(١٤) .

(١) تفسير أبي السعود ٨ : ١٩٠ .

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ١٤٥ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ١٤٦ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣١٨ ، وفي النسخة : تأكيد الأول .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٣١٨ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٣١٨ .

(٦) تفسير الرازي ٢٩ : ١٤٦ .

(٧) تفسير الرازي ٢٩ : ١٤٢ .

(٨) في تفسير روح البيان : خرييل .

(٩) تفسير روح البيان ٩ : ٣١٨ .

(١٠) وروى الطبري مسندا عن محمد بن سعد ، قال : قلت لأبي : أكان أبو بكر أولكم إسلاما ؟ فقال : لا ، ولقد أسلم قبله أكثر من خمسين . تاريخ الطبري ٢ : ٣١٦ .

(١٢) فتح الحق : ١٨١ / ١٣ ، مناقب ابن المغازلي : ٣٢٠ / ٣٦٥ ، الصواعق المحرقة : ٢٥ / ٢٩ ، ينابيع المودة : ٦٠ ، مناقب الخوارزمي : ٢٠ ، شواهد التنزيل ٢ : ٢١٣ / ٩٢٤ - ٩٣١ .

(١٣) إحقاق الحق ٣ : ١٢١ .

(١٤) تفسير الرازي ٢٧ : ٥٧ .

وعن الباقر عليه السلام : « السابقون أربعة : ابن آدم المقتول ، وسابق أمة موسى وهو مؤمن آل فرعون ، وسابق أمة عيسى وهو حبيب النجار ، والسابق في أمة محمد وهو علي بن أبي طالب عليه السلام » (١) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « ﴿ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ في نزلت » (٢) .

وعنه عليه السلام قال : « خلق الله الناس على ثلاث طبقات ، وأنزلهم ثلاث منازل ، وذلك قول الله : (اصحاب الميمنة واصحاب المشئمة والسابقون) وأما السابقون فهم أنبياء مرسلون وغير مرسلين ، جعل الله فيهم خمسة أرواح : روح القدس ، وبها بعثوا أنبياء مرسلين وغير مرسلين ، وبها علموا الأشياء ، وروح الايمان وبها عبدوا الله ، ولم يشركوا به شيئا ، وروح القوة وبها جاهدوا عدوهم وعالجوا معاشهم ، وروح الشهوة وبها أصابوا لذيق الطعام ، ونكحوا الحلال من شباب النساء ، وروح البدن وبها دبوا ودرجوا ، وأما أصحاب الميمنة ، وهم المؤمنون حقًا ، جعل الله فيهم أربعة أرواح : روح الايمان ، وروح القوة ، وروح الشهوة ، وروح البدن - إلى أن قال - ﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْئِمَةِ ﴾ فهم اليهود والنصارى ... جحدوا ما عرفوا ، فسلبهم الله تعالى روح الايمان » (٣) وروي عن الصادق عليه السلام ما يقرب منه (٤) .

وعن (الامالي) عن النبي صلى الله عليه وآله أنه سئل عن هذه الآية فقال : « قال جبرئيل : ذلك علي وشيعته هم السابقون إلى الجنة ، المقربون إلى الله بكرامته [لهم] » (٥) .

وعن الباقر عليه السلام - في حديث - : « نحن السابقون السابقون إلى الجنة ، ونحن الآخرون » (٦) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « قال أبي لاناس من الشيعة : أنتم شيعة الله ، وأنتم أنصار الله ، وأنتم السابقون الأولون ، والسابقون الآخرون ، والسابقون في الدنيا إلى ولايتنا، والسابقون في الآخرة إلى الجنة » (٧) .

﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مُّوْضُونَةٍ * مُمْكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ *

بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ * لَا يُصَدَّغُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ (١٢) و (١٩) ﴾

ثم قدّم سبحانه ذكر حال السابقين بقوله : ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ والتقدير : هم كائنون أو مستقرّون في جنات مشتملة على ﴿ النَّعِيمِ ﴾ وأنواع اللذات الجسمانية والروحانية ، وهم ﴿ ثَلَاثَةٌ ﴾ وجماعة عظيمة

(١) مجمع البيان ٩ : ٣٢٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٠ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٦٥ / ٢٨٨ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٠ .

(٣) الكافي ٢ : ٢١٤ / ١٦ .

(٤) الكافي ١ : ٢١٣ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٠ .

(٥) أمالي الطوسي ٧٢ : ١٠٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٠ .

(٦) كمال الدين ٢٠٦ : ٢٠ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٠ .

(٧) الكافي ٨ : ٢١٣ / ٢٥٩ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٠ .

﴿مَنْ﴾ المؤمنين ﴿الْأُولَى﴾ من لدن آدم ﷺ إلى بعث الخاتم ﴿وَقَلِيلٍ مِنْ﴾ المؤمنين ﴿الْآخِرِينَ﴾ من أمة خاتم النبيين ، كلهم قاعدون في الجنة ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ ومجالس مرتفعة من الأرض معدة لحال السرور ، وتجعل للملوك ﴿مَوْضُونَةٍ﴾ ومنسوجة بعضها على بعض ، أو منسوجة بالحرير ، أو بالياقوت والجواهر ، أو بالذهب.

قيل : قوائمها من الجواهر ، وأرضها من الذهب ^(١) . عن ابن عباس : ألواحها من الذهب ، مكلفة بالزبرجد والدّر والياقوت ، مرتفعة ما لم يجئ صاحبها ، فإذا أراد صاحبها الجلوس عليها تواضعت حتى يجلس عليها ، ثم ترفع إلى موضعها ^(٢) .

حال كونهم ﴿مُتَكَبِّرِينَ﴾ ومعتمدين ﴿عَلَيْهَا﴾ كالملوك ، وكونهم ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ ومتوجهين بعضهم إلى بعض ومستأنسين بعضهم ببعض ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ ويدور حولهم للخدمة ﴿وَلَدَانِ﴾ وغللمان ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ ومبقون على شكلهم وطراوتهم أبدا.

قيل : إنهم مخلوقون [للخدمة] في الجنة ^(٣) ، والمخلّدون بمعنى مقرّطون ، أو مسوّرون ^(٤) .

وقيل : إنهم أطفال المشركين ^(٥) ، عن النبي ﷺ : « أولاد الكفار خدام أهل الجنة » ^(٦) . وعن أمير المؤمنين ﷺ : « هم أولاد أهل الدنيا » ^(٧) .

ويكون طوافهم ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ وأوان - لا عروة لها ولا خرطوم - من الذهب والجواهر. وقيل : إنّها الأقداح الكبيرة ^(٨) ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ وأوان لها عرى وخرطوم تبرق من صفائها ﴿وَكَأْسٍ﴾ مملوء من خمر جارية ﴿مِنْ مَعِينٍ﴾ ومنبع في الجنة.

وقيل : إنّ المعنى كأس مملوء من خمر ظاهره يعاين بالأبصار ^(٩) ، وجمع الأكواب والأباريق للدلالة على الكثرة ، وإفراد الكأس لعدم حاجة شخص واحد إلى أكثر من واحد.

قيل : إنّه يصبّ الخمر من الأكواب في الأباريق ، ومن الأباريق في الكأس ^(١٠) .

ثمّ وصف سبحانه خمر الجنة بقوله : ﴿لَا يُصَدَّغُونَ﴾ ولا يصيبهم وجع الرأس المسبّب منها الصادرة ﴿عَنْهَا﴾ كما يصيبهم ذلك من خمر الدنيا ﴿وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ ولا يسكرون.

عن ابن عباس : في الخمر أربعة خصال : السكر ، والصّداع ، والقيء ، والبول ، وليست في خمر

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ١٤٩.

(٢) تفسير القرطبي ١٧ : ٢٠٢.

(٣) مجمع البيان ٩ : ٣٢٧.

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٣٢١.

(٥) مجمع البيان ٩ : ٣٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢١ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٢١.

(٦) تفسير روح البيان ٩ : ٣٢١.

(٧) مجمع البيان ٩ : ٣٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢١.

(٨) مجمع البيان ٩ : ٣٢٧ ، تفسير الرازي ٢٩ : ١٥٠.

(٩) تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٢.

(١٠) تفسير الرازي ٢٩ : ١٥٠.

الجنة ، بل هي لذة بلا أذى ^(١) . وقيل : (لا ينزفون) بمعنى لا يفقدون الشراب ^(٢) .

﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَخُورٍ عَيْنٍ * كَأَمْثَالِ

اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٠) و (٢٤)

ثم لما كان دأب شاربي خمر الدنيا أكل شيء بعد الشرب من فاكهة أو لحم أو غيرها ، مما يغيّر الذائقة ، وساقى الخمر يأتي للشارب بعد الشرب بأحد الأشياء اللذيذة ، عطف سبحانه على قوله : ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ﴾ بقوله ﴿وَفَاكِهَةٍ﴾ وثمار لذیذة ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ ويختارون ، مع أنّ كلّها خيار ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ﴾ من طيور الجنة ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ وتميل إليه طابعهم مشويا أو مطبوخا ﴿وَعَيْنٍ﴾ عندهم ﴿خُورٍ﴾ ونساء بيض ، أو شديد بياض عيونهم ^(٣) وسودها ﴿عَيْنٍ﴾ وواسعات الأحداق وهنّ في الصفاء والبياض ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ﴾ والدرّ ﴿الْمَكْنُونِ﴾ والمخزون في الصدف لم تمسه الأيدي ، ولم تره الأعين ، أو المصون مما يضرب بصفاته وشدة بياضه ، وإنما ناعم عليهم بتلك النعم العظام لكونها ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الحسنة الصالحة.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا * وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ

مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ *

وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ *

إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * غُرُبًا أَتْرَابًا * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ *

ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَى * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (٢٥) و (٤٠)

ثم ذكر سبحانه ما تلتذ به اسماعهم في الجنة بقوله : ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ وباطلا ، وكلاما لا ينتفع ولا يعتدّ به ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ وكلاما فيه نسبتهم إلى الباطل والمعصية ، كقول : أنت فاسق أو سارق ، أو شارب خمر محرّم ، كما قيل ^(٤) .

وعن ابن عباس ، قال : لا يقول بعضهم لبعض : أثمت ^(٥) .

وعن القمي : يعني الفحش والكذب [والغناء] ^(٦) .

والحاصل أنّه ليس في الجنة كلام لغو ولا مؤلم لا محققا ولا فرضا ﴿إِلَّا قِيلًا﴾ وكلاما مفروض

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٢ .

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ١٥٢ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٢ .

(٣) في النسخة : شديدة بياض عيونهم .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ١٥٨ و ١٥٩ .

(٥) مجمع البيان ٩ : ٣٢٨ .

(٦) تفسير القمي ٢ : ٣٤٨ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٢ .

اللغوية على الفرض المحال ، وهو قول بعض لبعض عند الملاقات في الجنة ، أو حين التوجه ، أو قول الملائكة لهم : سلمت ﴿سَلَامًا﴾ أو سلمك الله ﴿سَلَامًا﴾.

وقيل : إنّ الاستثناء منقطع ، والمعنى : ولكن يسمعون سلاما بعد سلام ^(١) من الله ، كما قال سبحانه ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ ^(٢) أو من الملائكة ، كما قال تعالى : ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ ^(٣) أو بعضهم على بعض ، كما قال تعالى : ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ^(٤) أو المراد أنهم يفشون السلام ، أو لا يسمع المسلم والمسلم عليه إلّا السلام بدءا وردّا ^(٥) .

ثم شرع سبحانه في بيان حسن حال اصحاب الميمنة بقوله تعالى : ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ وما تدرون ﴿مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ وأي اشخاص هم في العظمة والكرامة عند الله ؟ هم يوم القيامة متمكنون ﴿فِي﴾ جنة ذات ﴿سِدْرٍ﴾ وشجر نبق ، وهو عزيز عند العرب ، ورقه في غاية الصغر ، وثمره محبوب عندهم ، ولكن يخالف سدر الدنيا في أنّ له شوكا كثيرا يكسر ورقه ، ولو لاه لكان أصفى الشجر عند العرب لكثرة أوراقه ، ودخول بعضها في بعض ، وسدر الجنة بلا شوك ، وهو معنى ﴿مَخْضُودٍ﴾ على ما قيل ^(٦) . وقيل : إنّ معنى مخضود منعطف الأغصان إلى الأسفل لكثرة ثمره ^(٧) .

﴿و﴾ ذات ﴿طَلْحٍ﴾ وشجر موز ورقه في غاية الكبر و﴿مَنْضُودٍ﴾ بعضه فوق بعض بحيث لا يكون فصل بين أوراقه. وقيل : منضود حمله وراكب بعضه على بعض من أسفله إلى أعلاه ، ليس له ساق بارز ^(٨) .

وقيل : الطلح : شجر أم غيلان ، له أنوار كثيرة منتظمة طيبة الرائحة ، تقصد العرب منه التزهة والزينة ^(٩) .

وعن مجاهد : كان لأهل الطائف واد معجب ، فيه الطلح والسدر ، فقالوا : يا ليت لنا في الجنة مثل هذا الوادي ، فنزلت هذه الآية ^(١٠) .

﴿و﴾ ذات ﴿ظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ عريض لا ينتقص أبدا ، كظل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. روى أنّ أوقات الجنة كغدرات الصيف لا يكون فيه حر ولا برد ^(١١) .

وفي الحديث : « في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها » ^(١٢) .

وعن الباقر عليه السلام ، عن النبي ﷺ في حديث يصف أهل الجنة قال : « ويتنعمون في جنّاتهم في ظلّ ممدود في مثل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، وأطيب من ذلك » ^(١٣) .

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٣ .

(٢) يس : ٣٦ / ٥٨ .

(٣) الرعد : ١٣ / ٢٣ و ٢٤ .

(٤) الواقعة : ٥٦ / ٩١ .

(٥) تفسير أبي السعود ٨ : ١٩٢ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٤ .

(٦ - ١٠) تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٤ .

(١١) مجمع البيان ٩ : ٣٣٠ .

(١٢) تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٥ .

(١٣) الكافي ٨ : ٩٩ / ٦٩ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٣ .

وقيل : إنّ الظّل الممدود كناية عن الراحة الدائمة ^(١) .

﴿وَوَ﴾ ذات ﴿ماءٍ﴾ كثير ﴿مَسْكُوبٍ﴾ ومصبوب من فوق أينما شاء ، وكيفما أراد ، فإنّ العرب لم يكن لهم مياه ساكبة من العيون التي في الجبال ، بل كان مياههم في الآبار والبرك .
وقيل : إن المسكوب بمعنى الجاري في غير احدود ^(٢) . وقيل : إنّه كناية عن الكثرة ^(٣) ، لأنّ الماء لعزّته عند العرب لا يسكب ولا يراق ، بل يحفظ ويشرب .
﴿وَوَ﴾ ذات ﴿فاكِهَةٍ﴾ دائمة مبدولة ﴿كَثِيرَةٍ﴾ لا مَقْطُوعَةٍ ومعدومة في وقت من الأوقات كفواكه الدنيا صيفها لا يكون في الشتاء ، وشتوها لا يكون في الصيف ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ عن أهلها بسبب من الأسباب .

وفي الحديث : « ما قطعت ثمرة من ثمار الجنة إلّا أبدل الله مكانها ضعفين » ^(٤) .

وعن النبي ﷺ قال : « لما دخلت الجنة رأيت في الجنة شجرة طوى أصلها في دار علي ، وما في الجنة قصر ولا منزل إلّا وفيها فنن [منها] عليها ^(٥) أسفاط حلل من سندس واستبرق ، يكون للعبد المؤمن ألف ألف سبط ، وفي كلّ سبط مائة حلّة ، وما فيها حلّة تشبه الاخرى ، على ألوان مختلفة ، وثياب أهل الجنة وسطها ظلّ ممدود في عرض الجنة ، وعرض الجنة كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ، يسير الراكب في ذلك الظلّ مسيرة مائتي عام فلا يقطعه ، وذلك قوله تعالى : ﴿وَوَظِلٌّ مِمْدُودٌ﴾ وأسفلها ثمار أهل الجنة وطعامهم متدل في بيوتهم ، يكون في القضيبي منها مائة لون من الفاكهة ممّا رأيتم في دار الدنيا وممّا لم تروه وما سمعتم به وما لم تسمعوا مثلها ^(٦) ، وكلّمّا يجتنى منها شيء نبتت مكانها اخرى لا مقطوعة ولا ممنوعة » ^(٧) .

﴿وَوَ﴾ ذات ﴿فُرْشٍ﴾ وبسط ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ القدر على السرر ، أو بعضها على بعض من الحرير والديباج ، بألوان مختلفة ، وحشوها المسك والعنبر والكافور ، رواه في (الكافي) ^(٨) عن النبي ﷺ في حديث صفة أهل الجنة .

وقيل : ارتفاعها كما بين السماء والأرض ^(٩) .

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٥ .

(٢) مجمع البيان ٩ : ٣٣٠ ، تفسير أبي السعود ٨ : ١٩٣ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٥ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ١٦٤ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٥ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٥ .

(٥) في النسخة : وفيها قتر عليها ، وفي تفسير القمي : وفيها فرع منها أعلاها .

(٦) في تفسير الصافي : تسمعون منها .

(٧) تفسير القمي ٢ : ٣٣٦ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٣ .

(٨) الكافي ٨ : ٩٧ / ٦٩ ، تفسير الصافي ٤ : ٣١٨ ، و ٥ : ١٢٤ .

(٩) تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٥ .

وقيل : إنّ الفرش كناية عن الأزواج ^(١) ، وارتفاعهنّ كونهنّ على الأرائك ، أو رفعتهنّ في الجمال والكمال ، ويؤيده إرجاع الضمير إليهنّ في قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ﴾ وخلقناهنّ بغير ولادة ﴿إِنْشَاءً﴾ وخلقنا عجيبا.

وقيل : إنّ الفرش بمعناه ^(٢) ، ولما كان الفرش التي هي المضاجع دليلا بالألتزام على الأزواج ، ذكر أوصافهنّ بلا تصريح بذكرهنّ إشعارا بصونهنّ وتحذرنّ.

وقيل : إنّ المراد بمنّ حور العين ، كما عن القمي وبعض مفسري العامة ^(٣) . وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل من أي شيء خلقن الحور العين ؟ قال : « من تربة الجنة النورانية » ^(٤) .

وقيل : إنّ المراد نساء الدنيا ، والمراد من إنشأتهنّ إعادة خلقهنّ في الآخرة ، لقوله تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً﴾ ^(٥) ولو كان المراد حور العين كان ذلك الوصف توضيح الواضح.

وفي الحديث : « هنّ اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شمطا رمضا ، جعلهن الله بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد في الاستواء ، كلّما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكارا » ... الخبر ^(٦) . وروى أنّه قالت عجوز من بني عامر : يا رسول الله ، ادع الله أن يدخلني الجنة. فقال ﷺ مزاحا : « يا أمّ فلان ، إنّ الجنة لا يدخلها عجوز » فولّت وهي تبكي ، فقال ﷺ : « أخبروها أنّها ليست يومئذ بعجوز » وقرأ : ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً﴾ ^(٧) .

﴿غُرُباً﴾ متحنّات إلى أزواجهنّ ، ومتحبّبات إليهم . وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سئل عن العروبة ^(٨) فقال : « هي الغنجة الرضية الشهية » ^(٩) . وعن القمي ، قال : يتكلّم بلسان العربية ^(١٠) . وقال به بعض مفسري العامة ^(١١) . ﴿أَتْرَاباً﴾ ومستويات في السنّ لأزواجهنّ ، أو بعضهم لبعض ، لا تفاوت بينهنّ بصغر ولا كبر ، كلّهنّ بنات ثلاث وثلاثين سنة ، أو متماثلات في التّطهر إليهنّ. وقيل : يعني متساويات في السن ^(١٢) ﴿لَأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ كما ذكرنا لا يعيرون أزواجهنّ بكبر السنّ وعلى التفسيرين الأولين قوله : ﴿لَأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ متعلق بقوله : ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ﴾ والمعنى خلقناهنّ لأصحاب اليمين.

(١) تفسير أبي السعود ٨ : ١٩٣ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٥ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٥ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣٤٨ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٤ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٨٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٤ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٦ .

(٦) جوامع الجامع ٤٧٨ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٥ .

(٧) تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٦ .

(٨) في النسخة : العربي .

(٩) تفسير الصافي ٥ : ١٢٤ .

(١٠) تفسير القمي ٢ : ٣٤٨ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٤ .

(١١) تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٦ .

(١٢) تفسير الرازي ٢٩ : ١٦٦ ، تفسير أبي السعود ٨ : ١٩٤ .

ثم لما نزل قوله في السابقين السابقين ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ بكى بعض الصحابة وقال : يا نبي الله ، نحن آمنّا بك صدّقناك ، ولا ينجو منا إلا قليل ! فنزلت : ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾^(١) .

قيل : إنّ الثّلاثين من أمة نبينا ﷺ ، الثّلة الاولى الذين كانوا في زمانه ، والثّلة الاخرى الذين جاءوا بعد زمانه^(٢) .

وفي الحديث : « أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنّة ؟ » قالوا : نعم قال : « أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ » قالوا : نعم ، قال : « والذي نفس محمد بيده إنّّي لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة »^(٣) .

وفي رواية عنه ﷺ : « إنّ جميع الثّلاثين من أمّتي »^(٤) .
أقول : الأظهر أنّ المراد من الأولين امم الأنبياء السابقين من آدم إلى زمان خاتم النبيين ، ومن الآخرين امة نبينا ﷺ ، كما قلنا أولا ، لوضوح أنّ في سائر الامم أصحاب اليمين أيضا ، كما أنّ فيهم السابقين ، ولدلالة قوله : « إنّّي لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » ولما روي عنه ﷺ أنه قال : « إنّّي لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة » ثمّ تلا هذه الآية^(٥) ، لوضوح أنّ النصف الآخر والشرط الآخر لا بدّ أن يكون من سائر الامم.

﴿وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ

يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ (٤١) و (٤٤)

ثمّ ذكر سبحانه سوء حال الفرقة الثالثة الذين عبّر سبحانه عنهم أولا بأصحاب المشأمة ، لأنّ فساد الدنيا إنّما هو لشؤم كفرهم وعصيانهم ، وعبرّ عنهم هنا بقوله : ﴿وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ﴾ قيل : لكونهم في شمال العرش^(٦) . وقيل : في شمال المحشر . وقيل : لإعطاء كتاب أعمالهم بشمالهم^(٧) فيه . وما تدرون ﴿مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ﴾ وأي شيء هم في الذّلة وسوء العاقبة والحال في الآخرة وشدة العذاب ؟ أولئك الملعونون في القيامة مستقرّون ﴿فِي سَمُومٍ﴾ ونار نافذ في ثقب أجسادهم ومنافذ أبدانهم . وقيل : إنّ السّموم ربح حارة عفنة قتّالة ﴿وَوَ﴾ في ﴿حَمِيمٍ﴾ وماء بالغ منتهى الحرارة ﴿وَوَ﴾ في ﴿ظِلٍّ﴾ وفيء ﴿مِنْ﴾ جنس ﴿يَحْمُومٍ﴾ ودخان أسود كالفتح ، أو ظلّ ناشئ من نار

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٠ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٧ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٠ .

(٤) مجمع البيان ٩ : ٣٣١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٥ .

(٥) مجمع البيان ٩ : ٣٣٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٥ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٢٧ .

(٦) لم نعر عليه .

(٧) مجمع البيان ٩ : ٣٣٣ ، تفسير أبي السعود ٨ : ١٩٤ ، تفسير الرازي ٢٩ : ١٦٨ .

سوداء. وقيل : إنّ يحموم من أسماء جهنّم ^(١) .

ولما كان الظلّ مطلوباً لبرده واستفادّة الراحة فيه ، وصف الظلّ بضدّ ما يكون مطلوباً له بقوله :
﴿لَا بَارِدٌ﴾ ذلك الظلّ ﴿وَلَا كَرِيمٌ﴾ ونافع ومريح من أذى الحرّ.

قيل : لما كان المترفون والمتنعمون يطلبون أحسن الأهوية ، وأعذب المياه وأبردها ^(٢) ، القعود في الظلال ، بيّن سبحانه أنّهم إذا طلبوا الهواء الطيب يهبّ عليهم السّموم ، وإذا أرادوا دفع حرّته بالماء البارد كان ماؤهم حميماً ، وإذا أرادوا أن يستكنوا ويدفعوا عن أنفسهم السّموم يكونون في ظلّ من يحموم. وقيل : إنّ السّموم يحرقهم فيعطشون ، فيشربون من الحميم فيقطعّ أمعاءهم ، ويستظلّون منه ، فيكون ظلّهم من يحموم ^(٣) .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أُنْثِيَ الصَّالُونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَا تَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ * فَمَالُؤُنْ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ﴾ (٤٥) و (٥٥)

ثمّ بيّن سبحانه سبب استحقاقهم ذلك العذاب بقوله : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ اليوم في الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ﴾ ومتنعمين بالنعم الدنيوية فألهتهم عن ذكر الله وكفروا نعمه ﴿وَكَانُوا﴾ مع ذلك ﴿يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ﴾ والذنب ﴿الْعَظِيمِ﴾ وهو الشّرك بالله العظيم ، ويكذبون الأنبياء الذين يدعونهم إلى التوحيد والإقرار بالمعاد ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ﴾ إنكاراً لهم واستبعاداً لقولهم بالبعث بعد الموت : ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا﴾ بعد الموت ﴿تُرَاباً وَعِظَاماً﴾ نخرة بالية ﴿إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ من القبور ، ومخرجون منها أحياء ؟ ﴿أَوْ﴾ يبعث ﴿أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ وأجدادنا السابقون بعد تفرّق أجزاء تراهم في أفطار الأرض ، واختلاطها بغيرها من التراب ؟ وفي إعادة الاستفهام مبالغة في الإنكار.

ثمّ أمر الله سبحانه نبيّه ﷺ بردهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم : نعم ﴿إِنَّ﴾ الامم ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ والسابقين من لدن آدم إلى زمانكم هذا ﴿وَالْآخِرِينَ﴾ الذين يأتون إلى يوم فناء الدنيا

(١) مجمع البيان ٩ : ٣٣٣ ، تفسير أبي السعود ٨ : ١٩٤ ، تفسير الرازي ٢٩ : ١٦٨ .

(٢) مجمع البيان ٩ : ٣٣٣ ، تفسير أبي السعود ٨ : ١٩٤ ، تفسير الرازي ٢٩ : ١٦٨ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ١٦٨ .

﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ بعد الاحياء في المحشر ، ومبعوثون لا محالة ﴿إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ﴾ ووقت واحد معين ﴿مَعْلُومٍ﴾ عند الله لا يعلمه غيره ، وهو يوم القيامة.

﴿ثُمَّ﴾ بعد الإحياء والبعث ﴿إِنكُم أَهِيََا الضَّالُّونَ﴾ عن طريق الحق والمنحرفون عن مسلك الصواب ﴿الْمُكَذِّبُونَ﴾ للرسول إخبارهم بالبعث بعد الموت ، والله ﴿لَا كَلْبُونَ﴾ بعد البعث والجمع ودخول جهنم ﴿مِنْ شَجَرٍ﴾ من أشجار جهنم ، أعني ﴿مِنْ﴾ شجر ﴿زُقُومٍ﴾ وهو شجر كريحه المنظر ، مرّ الطعم ، حار في اللمس منتن في الرائحة ، ولا يقنع منه بالأكل من تلك الأشجار والثمار ، بل يجبرون على الإكثار من أكلها ﴿فَمَا لَوْ أَنَّ مِنْهَا﴾ كرها ﴿الْبُطُونَ﴾ أو لشدة الجوع ، فيعطشون من حرارة الزقوم وحرقة ﴿فَشَارِبُونَ﴾ أنتم بعد أكله ﴿عَلَيْهِ﴾ شرابا ﴿مِنْ الْحَمِيمِ﴾ والماء الحار البالغ منتهى الحرارة ﴿فَشَارِبُونَ﴾ أنتم منه كرها وجبرا ﴿شُرْبَ الْهَيْمِ﴾ والجمال التي بها داء الاستسقاء ، لا تروي من الماء حتى تموت ، أو مثل شرب الرمال التي لا تتماسك.

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن الهيم ، قال : « الابل » ^(١) وفي رواية : « إِنَّهُ الرَّمْل » ^(٢) .
وحاصل المعنى على ما قيل : أنه يسلب عليكم أيها الضالون من الجوع ما يضطرركم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل ، فاذا ملأتم منه بطونكم ، وهو في غاية المارة والحرارة ، سلط عليكم من العطش ما يضطرركم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءكم ثم يلزمونكم على أن تشربوا منه ، ولا يكون شربكم شربا معتادا ، بل يكون شربكم مثل شرب الجمل الذي به مرض العطاش ، أو مثل شرب كتيب الرمل.

﴿هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ * نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ *

أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٦) و (٥٩)﴾

ثم بين سبحانه أن ما ذكر ليس جميع عذابهم ، بل هو أول ما يلقونه يوم القيامة بقوله : ﴿هَذَا﴾ المذكور ﴿نُزْلُهُمْ﴾ وأول ما يهيأ لهم ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ ووقت الجزاء على الضلال وتكذيب الرسل والبعث ، وبعد ما استقروا في الجحيم أشد وأشق ، وفيه من التهكم ما لا يخفى ، فإنّ النزل ما يعدّ تكريما للضيف أول وروده.

ثم أخذ سبحانه في الاستدلال على صحة البعث وصدق الرسل في إخبارهم به بقوله : ﴿نَحْنُ﴾

(١) المحاسن : ٥٧٦ / ٣٢ - ٣٤ ، معاني الأخبار : ١٥٠ / ٣ ، تفسير الصافي : ٥ / ١٢٦ .

(٢) المحاسن : ٥٧٧ / ٣٦ ، معاني الأخبار : ١٥٠ / ٣ ، تفسير الصافي : ٥ / ١٢٦ .

بقدرتنا ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ أول مرة ، فاذا علمتم ذلك ﴿فَلَوْ لَا تَصَدَّقُونَ﴾ الرسل في قولهم بالبعث ، وهلا تقرّون بخلقكم ثاني مرّة ؟ مع أنّه في نظركم أهون وأسهل ، وإن أنكرتم أنكم مخلوقون بقدرتنا ، وقلتم : إنا موجودون من المني بتأثير الطبيعة أو الكواكب فيه ، نقول : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ وأحبروني عن ﴿مَا تُمْنُونَ﴾ وتدفعون من المني في ارحام النساء ، فاتّه لا بدّ له من خالق يخلقه في أصلابكم ﴿أَأَنْتُمْ﴾ بقدرتكم ﴿تَخْلُقُونَهُ﴾ في أصلابكم ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ لذلك المني من غير دخل شيء في خلقه وتقديره في الأصلاب وأطواره وتصويره في الأرحام ؟ لا مجال لأحد إلّا القول بأنّ خالقه ، وإلا لتسلسل ، فمن خلقه وصوّره في ظلمات ثلاث وأحياه ، قادر على إحيائكم ثانيا بعد موتكم.

﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٠) و (٦٢)

ثمّ إنّّه تعالى بعد إثبات أن الخلق بقدرته ، لا دخل لأحد فيه ، أثبت أنّ الموت أيضا بقدرته ، ليس قدرته على الخلق والإحياء فقط ، بل الحياة والموت كلاهما بقدرته وإرادته بقوله : ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا﴾ وجعلنا ، أو قسمنا ﴿بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ بقدرتنا ومشيتنا المبنية على الحكم البالغة ﴿وَمَا نَحْنُ﴾ في آن من الآنات ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾ وغير قادرين ﴿عَلَى أَنْ﴾ نعدمكم ونميتكم و﴿نُبَدِّلَ﴾ منكم ﴿أَمْثَالَكُمْ﴾ ونخلق عوضا منكم في مكانكم أشباهكم في الخلق.

وقيل : قوله : ﴿عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ﴾ متعلق بقوله : ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾^(١) والمعنى : نحن قدرنا بينكم الموت ، لكن لا بأن نهلككم دفعة واحدة ، بل قدرنا بأن نميتكم ونجعل بدلکم في الأرض مثلکم مدّة طويلة ثم نهلككم جميعا ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾ ونخلقكم ثانيا ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الوقت والزمان وفيه تحريض على الايمان والعمل الصالح ، والإعداد ليوم لا يعلم وقوعه في أي وقت.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ والخلق الأول في دار الدنيا ، حيث إنّّه خلقكم أولا من تراب ، ثمّ من نطفة ، ثمّ من علقه ، ثمّ من مضغة ثمّ جعلكم عظاما ، ثمّ كسا العظام لحما ، ثمّ جعلكم خلقا ذا حياة وقوة وقدرة وشعور ﴿فَلَوْلَا﴾ وهلا ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وتعتبرون أنّ من قدر عليها قدر على النشأة الاخرى والخلق الآخر ؟

في الخبر : « عجا كلّ العجب للمكذب بالنشأة الآخرة ، وهوى يرى النشأة الاولى »^(٢) . وعن

(١) تفسير الرازي ٩ : ١٧٩ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٣٣١ .

السجادة عَلَيْهَا ما يقرب منه ^(١) .

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٣) و (٦٤)﴾

ثمَّ إنَّه تعالى بعد الاستدلال على المعاد بقدرته على الخلق الأول ، استدللَّ بقدرته على خلق ما يحتاجون إليه في بقائهم من المأكول بقوله : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ وأخبروني عمَّا تبذرون من الحبوب كالحنطة والشعير ونحوهما ﴿أَأَنْتُمْ﴾ بقدرتكم ﴿تَزْرَعُونَهُ﴾ وتنبثونه من الأرض ، وتبلغونه إلى الثمر المقصود ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ والمنتبتون له من الأرض ، والمبلغون له إلى الثمر بحيث تنتفعون به وتأكلونه؟

في الحديث « لا يقولنَّ أحدكم : زرعت ، بل يقول : حرثت ، فإنَّ الزارع هو الله تعالى » ^(٢) .
قيل : يستحب لمن ألقى في الأرض بذرا أن يقرأ بعد الاستعاذة : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ إلى قوله : ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ ^(٣) ثمَّ يقول الله الزارع والمنبت والمبلغ اللهم صلِّ على محمد وآل محمد ، وارزقنا ثمره ، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين فإنَّ الدعاء أمان لذلك الزرع من جميع الآفات ^(٤) .

وحاصل الآية أنَّ من قدر على إنبات الزرع من الأرض ، قادر على خلق الإنسان من التُّففة المستديرة الباقية في القبر .

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمَغْرُمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾

* أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ

الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٦٥) و (٧٠)﴾

ثمَّ استدللَّ سبحانه على قدرته على حفظ الزرع إلى بلوغ الثمر بقوله : ﴿لَوْ نَشَاءُ﴾ بعد إنبات الزرع واستوائه على سوقه ﴿لَجَعَلْنَاهُ﴾ وصيرناه ﴿حُطَامًا﴾ ويابساً منكسراً متفتتاً ﴿فَظَلْتُمْ﴾ وبقيتم بسبب فساد زرعكم ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ وتحدثون بعجيب ما رأيتم من فساد الزرع بعد ما كان على أحسن الحال من النمو والاشراف على الثمر ، أو تندمون على ما انفقتم فيه ، وما بذلتم فيه من غاية الجهد ، وتقولون : يا قوم ﴿إِنَّا لَمَغْرُمُونَ﴾ ومتضررون بفساد زرعنا أو مهلكون بهلاك رزقنا ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ من

(١) الكافي ٣ : ٢٥٨ / ٢٨ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٧ .

(٢) مجمع البيان ٩ : ٣٣٧ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٧ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٣٢ .

(٣) الواقعة : ٥٦ / ٦٧ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٣٣٢ .

حظنا ، وممنوعون من رزقنا.

ثم استدللّ سبحانه على قدرته الكاملة بإنزال ما يشربونه من الماء العذب بقوله : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ وأخبروني عنه ﴿أَأَنْتُمْ﴾ بقدرتكم ﴿أَنْزَلْنَاهُ مِنَ الْمُنْزَنِ﴾ والسحاب المتصل بالماء ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ له بقدرتنا لشربكم الذي هو أهمّ منافعكم ، وبه بقائكم ؟

ثم بالغ سبحانه في إظهار قدرته بقوله : ﴿لَوْ نَشَاءُ﴾ عدم استقائكم ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ وصيرناه ﴿أَجَاجًا﴾ ومرا من شدة الملوحة ، فلا يمكنكم شربه ﴿فَلَوْ لَا﴾ وهلا ﴿تَشْكُرُونَ﴾ الله على إكمال نعمة مأكلكم بنعمة مشروبكم ؟ قيل : تصدير جزاء الشرطية الأولى باللام للدلالة على أن سلب نعمة المأكل أشدّ على [الانسان من سلب] نعمة المشروب ، لكون الحاجة إلى المشروب تبع للحاجة إلى المأكل ^(١) .

عن ابن عباس : أنّ تحت العرش بحر تنزل [منه] أرزاق الحيوانات ن يوحى الله إليه ما شاء من السماء إلى السماء ، حتى ينتهي إلى سماء الدنيا ، ثم يوحى الله إلى سماء الدنيا أن غرليه فتغرله ، فليس من قطرة تقطر إلّا ومعها ملك يضعها موضعها ، ولا تنزل من السماء قطرة إلّا بكيل معلوم ووزن معلوم ، إلّا ما كان من يوم الطوفان ، فأنّه نزل بغير كيل ووزن ^(٢) .

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ *

نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧١) و (٧٣)

ثم استدللّ سبحانه بالنار المنقذة من الزناد بقوله : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ وأخبروني عن البرقة التي تقدحونها وتخرجونها من عودين يحك أحدهما بآخر ﴿أَأَنْتُمْ﴾ أيتها العرب ﴿أَنْشَأْتُمْ﴾ وأوجدتم بقدرتكم ﴿شَجَرَتَهَا﴾ التي منها الزند والزنده ، وهي المرخ والعفار ^(٣) ؟ وقيل : اريد مطلق الشجر الذي يصلح للإيقاد ^(٤) ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ والموجدون لها بقدرتنا ؟

ثم بيّن سبحانه منافع النار بقوله : ﴿نَحْنُ﴾ بقدرتنا وحكمتنا ﴿جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ ومنبها لصحة البعث ، حيث إنّ من قدر على إيداع النار في الشجر الأخضر ، قادر على أن يخلق في بدن الميت حرارة غريزية يحيا بها الميت ، أو تذكّره لنار القيامة ، فيخشى العاقل من عذاب ربّه إذا رأى النار الموقدة ﴿وَمَتَاعًا﴾ ومنفعة مهمة ﴿لِلْمُقْوِينَ﴾ والمسافرين الذين ينزلون البوادي والقفار ، فأنهم اشدّ

(٢١) تفسير روح البيان ٩ : ٣٣٤ .

(٣) المرخ : شجر سريع الوري يقتدح به . والعفار : شجر يتخذ منه الزناد .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ١٨٤ .

حاجة بالنار لحفظهم من السباع ودفع البرد وغير ذلك. وقيل : يعني للذين أوقدوها وقوّوها ^(١) ، أو للذين خلت بطونهم ، أو مزادهم ^(٢) من الطعام ، وفي تقديم التذكرة إشعار بأهمية المنافع العقلية من المنافع الجسمانية.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ * فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (٧٤) و (٧٦)

ثمّ لما أثبت سبحانه التوحيد والمعاد ، أمر نبيّه ﷺ بتنزيهه عن الشريك وترك إعادة الخلق للحساب بقوله تعالى : ﴿فَسَبِّحْ﴾ يا محمد ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ وذاته المقدسة عمّا لا يليق به من الشريك ، وخلق العالم عبثاً ، وعدم إعادة الخلق للحساب والجزاء ، وفي إضافة التسييح إلى اسمه دلالة على نهاية عظمة المسمّى ، والظاهر أنّ المراد أمر النبي ﷺ بتسييح الله وإقران تسييحه بذكر اسم ربه العظيم ، بأن يقول : سبحانه ربّي العظيم.

روي عن النبي ﷺ أنّه لما نزلت الآية قال : « اجعلوها في ركوعكم » ^(٣) . ثمّ إنّّه تعالى بعد إثبات التوحيد والمعاد بالأدلة القاطعة ، وكان ذلك دليلاً على صحّة نبوة نبينا ﷺ وصدق القرآن ، ولم يبق مجال للاستدلال عليهما لوضوحهما ، أقسم سبحانه عليهما بقوله : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ التي في السماء ومساقطها. قيل : هي مشارقها ومغاربها ، أو مغاربها وحدها ، أو منازلها وبروجها ، أو مساقطها في أتباع الشياطين ، أو في القيامة حين انتشارها ^(٤) .

وقيل : إنّ المراد بالنجوم معاني الآيات وأحكامها التي وردت فيها. قيل : إن كلمة (لا) زائدة يجاء بها لتأكيد القسم ^(٥) . وقيل : إنّ الأصل لأقسم بلام التأكيد ، اشبعت فتحتها فصار (لا) ^(٦) وقيل : إنّها نافية على أصلها ^(٧) ، والمنفي محذوف ، والتقدير : فلا صحة لقول الكفار من انكار البعث ، أو كون القرآن كلام البشر ، أقسم عليه بمواقع النجوم : وقيل : إنّ المعنى لا أقسم لظهور الأمر ووضوحه ^(٨) ، وإلا لكنت أقسم بمواقع النجوم ، وفيه دلالة بناء عليه على ظهور الأمر والحلف عليه. وعن الصادق عليه السلام قال : « كان أهل الجاهلية يخلفون بها ، فقال الله عزّ وجلّ : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ » ^(٩) .

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ١٨٤ .

(٢) المزاود : جمع مزود : وعاء الزاد.

(٣) مجمع البيان ٩ : ٣٣٩ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٨ .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ١٨٨ .

(٥) تفسير الرازي ٢٩ : ١٨٧ .

(٨) تفسير أبي السعود ٨ : ١٩٩ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٣٦ .

(٩) الكافي ٧ : ٤٥٠ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٨ .

وعنه عليه السلام : « أن مواقع النجوم رجومها للشياطين ، فكان المشركون يقسمون بها ، فقال سبحانه : فلا أقسم بها » ^(١) .

وقال الطريحي : في الحديث يعني به اليمين بالبراءة من الأئمة عليهم السلام ، يحلف بها الرجل ، يقول : إنَّ ذلك عند الله عظيم ^(٢) ، وهو قوله : ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ ^(٣) .

قيل : إنَّ المعنى : ليس تركي للقسم بمواقع النجوم لأجل أنه ليس بقسم ^(٤) ، أو ليس بقسم عظيم ، بل لأني أريد بتركي القسم به أن أقسم بأعظم منه لغاية جزمي بصحة القسم عليه ^(٥) ، وإنَّ القسم بمواقع النجوم عظيم لو تعلمون عظمته ، أو لو كنتم من أهل العلم لصدقتموني ^(٦) .

ولما كان المقسم به - وهو اختلاف مواقع النجوم ومغاربها - دليلاً على كمال قدرة الله ، استدلل بها بصورة القسم ، كأنَّ المعنى : لو تعلمون أنَّ اختلافها ليس إلَّا لكونها تحت قدرة القادر المختار الحكيم ، لاعتزتم بمدلوله ، وهو توحيد الله وقدرته على كلِّ شيء ، ومنه حشر الأجساد البالية .

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ

تُكَذِّبُونَ (٧٧) و (٨٢)﴾

ثمَّ ذكر سبحانه المقسم عليه ، وهو كون القرآن كلام الله بقوله : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ﴾ متلو على النبي صلى الله عليه وآله من جانب الله ، وهو ﴿كَرِيمٌ﴾ وذو فضل عظيم ونفع عظيم في الدنيا والآخرة ، لاشتماله على أصول العلوم وصالح المعاش والمعاد ، أو حسن مرضي من الكتب ، أو ذو كرامة عند الله ، ولذا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو مكتوب ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ ومصون عن أن تناله أيدي الثقلين ، أو محفوظ عن التغيير والتبديل ، أو مستور عن أعين غير المقرَّبين من الملائكة ، وهو اللوح المحفوظ ، وفيه ردٌّ على المشركين القائلين بأنَّه كلام البشر ، أو شعراً سحر وكهانة .

ثمَّ بالغ سبحانه في بيان عظمة شأنه عنده بقوله : ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ من الأخبات والأحداث ، وهم الملائكة المنزهون عن الأدناس الجسمانية ، والمؤمنون المنظفون عن الأحداث البشرية .

(١) مجمع البيان ٩ : ٣٤١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٨ .

(٢) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٢٣٧ / ١١٢٣ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٨ .

(٣) مجمع البحرين ٣ : ١٩٦١ - وقع -

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ١٩٠ .

(٥) تفسير الرازي ٢٩ : ١٩٠ .

(٦) تفسير الرازي ٢٩ : ١٨٩ .

عن الكاظم عليه السلام قال : « المصحف لا تمسه على غير طهر ولا جنباً ، ولا تمس خيطه ، ولا تعلقه ، إن الله تعالى يقول : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ » (١) .

وفي (الاحتجاج) : لما استخلف عمر سأل علياً عليه السلام أن يدفع إليهم القرآن فيحرفوه فيما بينهم ، فقال : يا أبا الحسن ، إن جئت بالقرآن الذي جئت به إلى أبي بكر حتى نجتمع عليه ؟ فقال عليه السلام : « هيهات ، ليس إلى ذلك سبيل ، إنما جئت به إلى أبي بكر لتقوم الحجة عليكم ، ولا تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا : ما جئنا به ، فإن القرآن الذي عندي لا يمسه إلا المطهرون ، وهم الأوصياء من ولدي . فقال عمر : فهل لإظهاره وقت معلوم ؟ فقال : نعم ، إذا قام القائم من ولدي يظهره ويحمل الناس عليه ، فتجري السنة به » (٢) .

أقول : المراد من التحريف تغيير ما كتبه أمير المؤمنين من التفسير والتأويل ، لا تغيير ألفاظ الآيات التي نزلت من السماء ، ومن وقوله (لا يمسه إلا المطهرون وهم الأوصياء) بيان تأويله وبطنه لا تنزيله . وقيل : إنه وصف الكتاب المكنون ، وهو اللوح المحفوظ (٣) ، والأصح الأول ، لقوله : ﴿ تَنْزِيلٌ ﴾ ومنزل هذا القرآن ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وفي نسبة تنزيله إلى ذاته مع توصيفها برّب العالمين دلالة على غاية عظمة القرآن المنزل منه ، وكونه من شؤون ربوبيته لجميع الموجودات .

ثم وبّخ سبحانه المشركين على إهانتهم بهذا الكتاب العظيم بقوله : ﴿ أَفِيهِذَا الْحَدِيثِ ﴾ الذي هو أحسن الحديث ، وهذا القرآن الذي هو أعظم الكتب السماوية ﴿ أَنْتُمْ ﴾ أيها المشركون ﴿ مُدْهِنُونَ ﴾ وتكذبون ، أو تهينون ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ ومعاشكم ﴿ أَنْتُمْ تَكْذِبُونَ ﴾ محمداً وكتابه ، أو المراد تجعلون شكر رزقكم ونعم ربكم تكذيبكم بمن أنزله عليكم ورزقكم نعمه بأن تنسبونها إلى الأنواء .

عن أمير المؤمنين عليه السلام ، أنه قرأ الواقعة فقال : ﴿ تجعلون شكركم أنكم تكذبون ﴾ فلما انصرف قال : « إني قد عرفت أنه سيقول قائل : لم قرأ هكذا قرأتها ، لأني سمعت رسول الله ﷺ يقرأها كذلك ، وكانوا إذا امطروا قالوا : امطرنا بنوء كذا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ تجعلون شكركم انكن تكذبون ﴾ » (٤) . وعن الصادق عليه السلام في الآية قال : ﴿ وتجعلون شكركم ﴾ (٥) .

أقول : في الرواية العلوية دلالة واضحة على اشتهاار قراءة ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ في الصدر الأول ، فيمكن أن تكون قراءة ﴿ شكركم ﴾ تفسيراً للآية ، كما فسرها به كثير من المفسرين ، أو يكون نزول

(١) التهذيب ١ : ١٢٧ / ٣٤٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٩ .

(٢) الاحتجاج : ١٥٦ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٩ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ١٩٢ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٤٩ ، تفسير الصافي ٥ : ١٢٩ .

(٥) تفسير القمي ٢ : ٣٥٠ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣٠ .

الآية على النحويين (رزقكم) و (شكركم) .

والذي يهون الخطب أن الروايتين لا حجّة فيهما ، لكونهما أخبار آحاد ، وغير قطعتين ، وعدم ترتّب عمل عليهما ، بل عدم جوازه ، لوضوح عدم حرمة مسّ (شكركم) إذا كتب بدل (رزقكم) وعدم جواز قراءته في الصلاة ، أو في غير الصلاة بقصد القرآنية .

ومن المعلوم أنّ هذا النحو من الحذف والوصل كثير في القرآن المجيد ، وقد ورد أنّ الآية توبّخ لمن نسب الأمطار والأرزاق إلى الأنواء ، وهي منازل القمر ، أو النجوم التي يسقط واحد منها عند طلوع الفجر في جانب المغرب ، ويطلع رقبته من ساعته في جانب المشرق ، وكانت العرب تنسب الأمطار والرياح إلى الساقط أو إلى الطالع منها ، وهو الشّرك بالله العظيم ، وتكذيب لقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ ^(٢) إلى غير ذلك .

﴿ قُلُوا لَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ
وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * قُلُوا لَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ (٨٣) و (٨٧) ﴾

ثمّ بيّن سبحانه أنّهم لا ييقنون على ذلك التكذيب والقول بالأنواء عند الموت وحين انكشاف حقائق الأمور بقوله : ﴿ قُلُوا لَا ﴾ وهلاّ تقولون أيّها المشركون هذه الأقوال الشنيعة ﴿ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ أرواحكم ﴿ الْخُلُقُومَ ﴾ ومجرى النفس ، وتداعت إلى الخروج من أبدانكم ﴿ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ إلى ما أنتم فيه من غمرات الموت ، ولو كان ما تقولونه لكان الواجب أن تقولونه في ذلك الوقت الذي هو زمان ظهور الواقعات ورفع حجاب الجهل والشبهات .

وقيل : إنّ الخطاب للحاضرين عند المحتضر ^(٣) ، والمعنى والحال أنّكم في ذلك الوقت حاضرون عند من بلغت الروح حلقه ، وتنظرون إلى ما هو فيه من سكرات الموت ، وتعطفون عليه غاية العطفة ، وتشتاقون إلى أن تنجونه من الموت والهلاك ﴿ وَ ﴾ مع كمال قريبكم منه ﴿ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ في تلك الحال ، وفي جميع الأحوال علما وقدرة وتصرفا ، حيث إنّنا متولّون لجميع أحواله ﴿ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ ولا تدركون قربنا إليه وإحاطتنا به ، وكونه بشارش وجوده تحت قدرتنا وتصرفنا .

(١) الشورى : ٤٢ / ٢٨ .

(٢) الواقعة : ٥٦ / ٦٨ .

(٣) تفسير البضاوي ٢ : ٤٦٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣٠ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٣٩ .

ثم أكد سبحانه تحضيضهم بتكرار كلمة التحضيض بقوله : ﴿فَلَوْ لَا إِنَّ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ وغير مملوكين ومقهورين تحت قدرتنا ، أو غير مجزيين بأعمالكم في الآخرة ، تعيدون أنفسكم و ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ إلى الدنيا كما كنتم في الدنيا مختارين في الذهاب ، والإياب والعودة في الأماكن ، وحاصل المعنى ، والله أعلم : إن كنتم غير مملوكين ومخلوقين لنا ، أو غير مجزيين في دار الآخرة ، أو غير مقيمين فيها لاستيفاء جزاء الأعمال ، لم لا ترجعون أنفسكم إلى الدنيا ، لوضوح أنه لو لا المقهورية تحت قدرتنا ، أو إرادتنا بقاءكم في الآخرة للجزاء ، لكنتم مختارين في الرجوع إلى الدنيا ، أو إرجاع أنفسكم بعد بلوغها إلى الحلقوم إلى ابدانكم ، كما كنتم مختارين في الرجوع إلى أي مكان تريدون ، أو أي عمل تهوون ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى كونكم غير مخلوقين لله ، أو غير مجازين في الآخرة ، أو غير مقيمين في العذاب ، كما قالت اليهود : ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ .

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ الصَّالِينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٨٨) و (٩٦)﴾

ثم إنه تعالى بعد إثبات الحشر ، وذكر حال النزع ، بين حال الفرق من الناس بعد خروج روحهم ، أو في الحشر بقوله تعالى : ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ الذي بلغت روحه حلقومه ، أو حشر في الحشر ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ من الله ، السابقين إلى الإيمان والطاعة في الدنيا ﴿فَرَوْحٌ﴾ وراحة دائمة ، أو رحمة أبدية ، أو فرح بسبب لقاء الله ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ ورزق طيب مرضي ، أو ورق ، أو زهر طيب الرائحة ﴿وَجَنَّةٌ﴾ الخلد التي ذات ﴿نَعِيمٍ﴾ لا يوصف .

عن الصادق عليه السلام قال : « ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ يعني في قبره ﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ يعني في الآخرة »^(١) .
﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ المتوقى ﴿مِنَ﴾ جملة ﴿أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ وأهل اليمن والسعادة ، أو الواقفين عن يمين العرش ، أو يمين الحشر ، أو الذين يؤتون كتابهم بأيمانهم ﴿فَسَلَامٌ﴾ وأمان ابدي من جميع الآفات والمكروهات ﴿لَكَ﴾ يا صاحب اليمن والسعادة والكرامة ﴿مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ .
قيل : إن المراد أن أصحاب اليمن كل يشتر الآخر بالسلامة من المكاره ، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿لَا﴾

(١) تفسير القمي ٢ : ٣٥٠ ، أمالي الصدوق ٣٦٥ / ٤٥٥ و : ٥٦١ / ٧٥٣ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣٠ .

يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغَوًا وَلَا تَأْنِيماً إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً^(١) أو المراد سلام التحية ، والمقصود أنّ أصحاب اليمين
يسلم بعضهم على بعض^(٢) .

وقيل : إنّ خطاب (لك) إلى النبي ﷺ والمراد بيان عدم حاجتهم إلى الشفاعة ، والمعنى :
فسلام لك يا محمد لا يهتمك أمرهم ، فاهم في سلامة وعافية^(٣) . أو المراد أنّ أصحاب اليمين يسلمون
عليك يا محمد ، وفيه دلالة على عظمتهم ، فإنّ العظيم لا يسلم عليه إلّا العظيم - كذا قيل -^(٤) وعلى
أنّ أصحاب اليمين وإن كان مكانهم دون المقرّين ، إلّا أنه لا ينقطع بينهم التسليم والمكالمة ، كما أنّهم
يسلمون عليك.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ المتوَقِّ ﴿مِنْ﴾ الكفار ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ للرسول في دعوى الرسالة والتوحيد والبعث من
جهة كونهم من ﴿الضَّالِّينَ﴾ والمنحرفين عن طريق الحق والهدى ، أو الواقفين عن شمال العرش ، أو المحشر
، المؤتئين كتابهم^(٥) بشماهم.

عن الباقر عليه السلام : « فهؤلاء المشركون »^(٦) .

﴿فَنُزِّلُ﴾ وما أعد لهم حين ورودهم علينا ، كائن ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ وماء متناه في الحرارة تقطّع به
أمعاءهم. قيل : هذا في قبره ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ وإلقاء في النار ، وهذا في الآخرة ، كما عن
الصادق عليه السلام^(٧) . ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المذكور في هذه السورة المباركة ، أو أصناف الناس وجزأؤهم في الآخرة ،
والله ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ والثابت الذي لا ريب فيه^(٨) ، والثابت المتيقن أو حقّ الخبر^(٩) اليقين ، أو
الثابت الذي لا يطرأ عليه التبدل والتغيير. وقيل : يعني يقين حق اليقين^(١٠) .

ثمّ لما كان حقيقة ما في السورة الكريمة ممّا يوجب تنزيهه تعالى عن الشرك والكذب وسائر ما لا يليق
بربوبيته تعالى ، ربّ على بيان ما في السورة أمر نبيّه ﷺ بتسبيحه وتنزيهه بقوله تعالى : ﴿فَسَبِّحْ﴾ يا
محمد ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ وقد مرّ تفسيره أو المراد فسبح شكراً لما أنزلت إليك من المطالب العالية التي ما
نزلت على غيرك من الرسل.

وقيل : لما بين سبحانه الحقّ ، وامتنع الكفار عن قبوله ، أمر نبيّه ﷺ بتسبيحه وتنزيهه^(١١) ،
والمراد إن امتنع الكفار من قبول ما فصل في السورة ، فلا تركهم ولا تعرض عنهم ، وسبح ربك في
نفسك ، وما

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٠٢ ، والآية من سورة الواقعة : ٥٦ / ٢٥ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٣٤١ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٠٢ .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٠٢ .

(٥) في النسخة المؤتئون كتابهم .

(٦) الكافي ٢ : ٢٥ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣١ .

(٧) تفسير القمي ٢ : ٣٥٠ ، امالي الصدوق ٣٦٦ / ٤٥٥ ، و : ٥٦١ / ٧٥٣ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣١ .

(٨) في النسخة : التي لا ريب فيها .

(٩) في النسخة : بالخبر .

(١٠) تفسير روح البيان ٩ : ٣٤٢ .

(١١) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٠٤ .

عليك إن صدّقوك أو كذّبوك.

روي أنّ عثمان بن عفان عاد عبد الله بن مسعود في مرض موته ، فقال له : ممّا تشتهي ؟ قال : أشتكي من ذنوبي. قال : عثمان : ما تشتهي ؟ قال : رحمة ربّي. قال : أ فلا تدعو الطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني. قال : أ فلا أمر لك بعطائك ؟ قال : منعنيته وأنا محتاج إليه ، تعطينيه وأنا مستغن عنه ! قال : أجعل عطائك بعدك لبناتك ؟ قال : لا حاجة لهن فيه ؛ لأني علمتهنّ سورة الواقعة يقرأنها بعد العشاء ، وإني سمعت رسول الله ﷺ قال : « من قرأ سورة الواقعة بعد العشاء لم تصبه فاقة » (١) .

وفي رواية ، قال : « من قرأ سورة الواقعة [في كل ليلة] لم تصبه فاقة أبدا » (٢) .

وفي حديث آخر : « من داوم على قراءة سورة الواقعة لم يفتقر أبدا » (٣) .

وعن الغزالي : أنّ قراءة هذه السورة عند الشدّة في أمر الرزق والخصاصة شيء وردت به الأخبار المأثورة عن النبي ﷺ وعن الصحابة (٤) .

وعن الباقر عليه السلام : « من قرأ الواقعة كل ليلة قبل أن ينام لقي الله عزّ وجلّ ووجهه كالقمر ليلة البدر » (٥) .

الحمد لله على التوفيق لاتمام تفسيرها ، وأسأله التوفيق لتلاوتها.

(١) مجمع البيان ٩ : ٣٢١ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٤٣ .

(٢) مجمع البيان ٩ : ٣٢١ ، تفسير البيضاوي ٢ : ٤٦٥ ، تفسير أبي السعود ٨ : ٢٠٢ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٣٤٤ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٣٤٤ .

(٥) ثواب الأعمال : ١١٧ ، مجمع البيان ٩ : ٣٢١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣١ .

في تفسير سورة الحديد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) وَ (٢)﴾

ثم لما ختمت السورة المباركة المتضمنة لأحوال الفرق الثلاثة المقرّين ، وأصحاب اليمين ، والمكذّبين الضالين ، المختمة بأمر النبي ﷺ بالتسبيح ، نظمت سورة الحديد المتضمنة لأحوال الفرق الثلاث المؤمنين المخلصين ، والمنافقين ، والكفار ، المبدوءة ببيان تسبيح الموجودات ، فافتتحها سبحانه بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم شرع فيها ببيان تسبيح جميع الموجودات بقوله : ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كأنه قال تعالى : سَبِّحْ يا محمد باسم ربك العظيم ، كما أنّ جميع الموجودات سبّحته خالصة ^(١) له بلسان الحال والمقال ، كما سمع حنين الجذع ، وذكر بعض الجمادات . وقيل : إنّ المراد بما في السماوات والأرض الموجودات الأحياء العقلاء ، كالملائكة وحملة العرش والجن والإنس ^(٢) .

ثم بيّن سبحانه صفاته الموجبة لتسبيحه وتنزيهه عن النقائص الإمكانية بقوله : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ والغالب على كلّ شيء ، ولا يغلبه شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ والعالم بجميع مصالح الأشياء ومفاسدها ، والفاعل لما هو الأصلح والأصوب بنظام العالم ﴿لَهُ﴾ خاصة ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والسلطنة التامة المطلقة على جميع الممكنات ، والتصرّف الكلي ، ونفوذ الإرادة فيها إيجادا وإعداما ، وتغييرا وتقلّبا ، ومن آثار سلطنته أنّه ﴿يُحْيِي﴾ الميت ﴿وَيُمِيتُ﴾ الحيّ ، كما تشاهدون في حياة النّطف وموت الحيوانات . ثمّ نبّه على عدم اختصاص قدرته بالأحياء والاماتة بقوله : ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء المتصوّرة وغير المتصوّرة ، وكلّ فعل من الأفعال الممكنة ﴿قَدِيرٌ﴾ بذاته ، بلا حاجة إلى

(١) في النسخة : سبّحه خالصا .

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٠٧ .

معاون ومعاضد وإله ومادة ومدة ، ومن المعلوم أنّ من له هذه القدرة الكاملة والعلم الشامل ، والغناء والسلطان الدائم ، مستحقًا للتنزيه عن العجز والجهل والحاجة والفقر بحكم العقل.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)﴾

ثمّ وصف سبحانه ذاته بالأزلية والأبدية المساوئتين لوجوب الوجود بقوله : ﴿هُوَ﴾ تعالى الموجود ﴿الْأَوَّلُ﴾ الذي لا أول له ، والسابق الذي لم يسبقه شيء في الوجود ، والكائن الذي لا كينونية لشيء قبل كينونيته ﴿وَالْآخِرُ﴾ الذي لا آخر له ولا متأخر عنه ، والباقي الذي لا فناء له ولا زوال ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ والمشهود بالصفات والآثار ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ والخفي بالذات والكنه.

قيل : يعني هو الأول في سلسلة الموجودات ، والآخر لها بحيث ينتهي إليه كلّ شيء ، والظاهر يعني الغالب على كلّ شيء ، والباطن يعني العالم ببواطن كلّ شيء ^(١) .

وقيل : إنّهُ أول لأنّه قبل كلّ شيء ، وإنّه آخر لأنّه بعد كلّ شيء ^(٢) ، وإنّه ظاهر بحسب الدلائل ، وإنّه باطن لأنّه لا يدرك بالحواس.

روي أنّ فاطمة الزهراء عليها السلام دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله فسألهت خادما فقال صلى الله عليه وآله : « ألا أدلك على ما هو خير لك من ذلك ؟ » قالت : « نعم » . قال : « قولي : اللهم ربّ السماوات السبع وربّ العرش العظيم ، وربّنا وربّ كلّ شيء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحبّ والنوى ، أعوذ بك من شرّ كلّ ذي شرّ أنت آخذ بناصيته - أو من شرّ كلّ دابة أنت آخذ بناصيتها - أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عني الدين ، وأغنني من الفقر » ^(٣) .

وفي رواية : « صلّ على محمد وآله ، واقض عني الدين ، وأغنني من الفقر ، ويسّر لي كلّ الأمر برحمتك يا أرحم الراحمين » ^(٤) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « الذي ليس لأوليته نهاية ، ولا لآخرته حدّ ولا غاية » وقال : « الذي بطن من خفيّاته الأمور ، وظهر في العقول بما يرى في خلقه من علامات التدبير » ^(٥) .

وقيل : يعني هو الأول بالأزلية ، والآخر بالأبدية ، والظاهر بالأحدية ، والباطن بالصّمدية ^(٦) ، وحاصل الجميع أنّه لا ابتداء لوجوده ، ولا اختتام له ، لاستحالة عدمه بدوا وختما ، وكلّ شيء منه بدأ وإليه

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٠٤ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٣٤٦ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٣٤٧ .

(٤) بحار الأنوار ٩٥ : ٤٠٦ .

(٥) الكافي ١ : ١٠٩ / ٧ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣٢ .

(٦) مجمع البيان ٩ : ٣٤٧ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٤٩ .

يعود ، والظاهر الواضح للالوهية والربوبية بالآثار والدلائل ، والباطن المحتجب كنهه عن العقول والأوهام .
 قيل : يجب أن ينعدم جميع ما يكون من الجنة والنار وأهلها حتى يصحّ كونه آخراً ^(١) . وفيه : أنه
 بعد ثبوت بقاء الموجودات الاخرية ، مع حكم العقل بإمكانه ، لا بدّ من حمل آخريته على معنى
 اختصاص شأنيتها به تعالى ، وإن لم يقع انعدام غيره بقدرته ، أو آخريته بعد فناء الدنيا .
 ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ﴾ ^(٢) لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، إذ
 ما من موجود إلّا وهو بشراشه مخلوقه ومصنوعه .

قيل : من قرأ هذه الآية بعد صلاة ركعتين خمسا وأربعين مرّة قضى الله حاجته ^(٣) .

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ
 يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا
 وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ
 عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) وَ (٦)﴾

ثمّ بيّن سبحانه علّة كون جميع الموجودات ملكاً له تعالى وتحت سلطانه بقوله : ﴿هُوَ﴾ الإله
 القادر ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وأوجدهما بقدرته الكاملة وحكمته البالغة ﴿فِي﴾ مدّة مقدّرة بـ
 ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الدنيا ، أولها يوم الأحد ، وآخرها يوم الجمعة ، ليتعلم العباد التائي في الامور ﴿ثُمَّ
 اسْتَوَى﴾ واستولى بالعلم والقدرة ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ المفسّر في آية الكرسي .

ثمّ صرّح سبحانه بإحاطته العلمية بقوله : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ ويدخل ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا
 يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى الأرض ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ وما يصعد من الأرض إليها ، وقد مرّ تفسيرها في سورة
 سبأ ^(٣) ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿مَعَكُمْ﴾ بالاحاطة والقدرة ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ وفي أيّ مكان تمكّنتم من الأرض ،
 تحتها أو فوقها ، خلقتها أو خلقتها ﴿وَاللَّهُ﴾ العظيم حسب الوهيته ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة والعصيان
 ﴿بَصِيرٌ﴾ وشهيد ، فيجازيكم عليه بالثواب الجزيل والعقاب الشديد .

ثمّ أعاد سبحانه بيان سلطنته التامة المطلقة على جميع الموجودات بقوله : ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٢١٢ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٣٥٠ .

(٣) تقدّم في سورة سبأ : ٣٤ / ٢ .

وَالْأَرْضِ تمهيدا لإثبات المعاد بقوله : **﴿وَالِىَ اللَّهُ﴾** القادر على كل شيء **﴿تَرْجِعُ﴾** وترد **﴿الْأُمُورُ﴾** كلها من الأعمال الصالحة والطلحة ، فيجازيكم عليها ، فاستعدّوا للقائه باختيار الأعمال الصالحة وأحسنها عنده.

ثم استدلّ سبحانه على إعادة الخلق بإعادة كلّ من الليل والنهار إلى ما كانا عليه بعد إذهاب جزء من الليل وجعله من النهار وبالعكس بقوله : **﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾** يجعل ساعات منه جزءا من النهار حتى يصير خمس عشرة ساعة **﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾** يجعل ساعات منه جزءا من الليل حتى يصير خمس عشرة ساعة ، ويعود كلّ منها إلى ما كان عليه قبل الإدخال ، فمن كان قادرا على إذهاب ساعات من الليل حتى يصير تسع ساعات ، ثمّ إعادة تلك الساعات الذاهبة حتى يصير الليل مثل ما كان قبل وبالعكس ، قادر على إعادة خلق الانسان بعد صيرورته ترابا.

ثمّ بعد إحاطته سبحانه بالأعمال الجوارحية ، بيّن إحاطته بالأعمال الجوانحية بقوله : **﴿وَهُوَ عَلِيمٌ﴾** ومحيط غاية الإحاطة **﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾** والمخفيات في القلوب من العقائد الفاسدة ، والنيات السيئة ، والمكنونات القبيحة.

عن ابن عباس : اسم الله الأعظم في ستّ من أول سورة الحديد ، فإذا علّقت على المقاتل في الصفّ لم ينفذ إليه حديد ^(١) .

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٧) و (٨)﴾

ثمّ لما بيّن سبحانه دلائل توحيده وقدرته وعلمه ، وكونه مبدأ للخلق ومعادهم ، دعاهم إلى الايمان به وبرسوله بقوله : **﴿آمِنُوا﴾** أيها الناس **﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** عن صميم القلب ثمّ دعاهم إلى أهمّ الأعمال بقوله تعالى : **﴿وَأَنْفِقُوا﴾** في سبيل الله **﴿مِمَّا﴾** أعطاكم الله من فضله ، و**﴿جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ﴾** ونائبين عنه في التصرف **﴿فِيهِ﴾** من غير أن تملكوه حقيقة ، فلا ينبغي أن يشقّ عليكم إنفاق ما هو في أيديكم بعنوان النيابة والوكالة عن مالكة الحقيقي ، كما لا يشقّ على أحد إنفاق مال الغير إذا أذن له فيه ، أو المراد جعلكم مستخلفين ممّن كان قبلكم ، حيث إنّ ما بأيديكم من الأموال كان لغيركم زمانا ، ثمّ انتقل إليكم بالإرث وغيره ، فإذا بخلتم به ينتقل منكم إلى غيركم ، كما انتقل من غيركم إليكم ، فلا يبقى

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٣٥٣ .

لكم عينه ولا منافعه ، وأما إذا انفقتم في سبيل الله يبقى لكم إلى الأبد ، بل يربو ويضاعف أضعافا كثيرة بشرط الإيمان الحقيقي ، كما تَبَّه سبحانه عليه بقوله : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ [إيماناً] خالصاً لله ﴿وَأَنْفَقُوا﴾ في سبيله وطلباً لمرضاته بعنوان الزكاة أو غيرها من الوجوه البرية ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وثواب عظيم.

قيل : نزلت الآية في غزوة تبوك ^(١) .

ثم وبَّخ سبحانه على ترك الإيمان مع تأكّد مقتضياته بقوله : ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ وأي فائدة أو عذر في ترك الإيمان بتصوّرون ، ولذا ﴿لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ مع حكم العقل والعقلاء بوجوبه ؟ ﴿وَالرَّسُولُ﴾ المرسل من جانب الله لدعوتكم إلى الإيمان ﴿يَدْعُوَكُمْ﴾ إليه ، ويعثكم عليه بالحجج والمواعظ الحسنة ﴿لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ اللطيف بكم ، المنعم عليكم ﴿وَقَدْ أَخَذَ﴾ الله ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ والعهد الأكيد منكم على الإيمان به في عالم الذرّ ، على ما قاله جمع من المفسرين ^(٢) ، أو بإقامة الحجج والبراهين القاطعة على توحيدده ، ونصب الدلائل الواضحة ، وتمكينكم من النظر فيها ، وذلك أوثق من الحلف والعهد اللفظي ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بشيء لأجل الدليل عليه ، فتوحيد الله شيء لا يساويه شيء في كثرة الدليل عليه .
وقيل : يعني إن كنتم مصدّقين بالميثاق ^(٣) .

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلْ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتِلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٩) وَ (١٠)﴾

ثم بيّن سبحانه دليل ربوبيته ورسالة رسوله ورجوع ^(٤) فائدة الإيمان إليهم بقوله : ﴿هُوَ﴾ الرب اللطيف ﴿الَّذِي يُنَزِّلُ﴾ من قبله ، أو من اللوح المحفوظ ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ بتوسط جبرئيل ﴿آيَاتٍ﴾ عظيمة الشأن ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ وواضحات الدلالات على كلّ حقّ وحقيقة ، وإمّا فعل ذلك ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾ أيّها الناس ، أو العرب ، أو الحاضرين في مكّة بسبب ذلك ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمة

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٣٥٣ .

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ٢١٧ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٣٥٤ .

(٤) كذا الظاهر ، والكلمة غير واضحة في النسخة .

الكفر ، وظلمة الجهل ، وظلمة الأخلاق السيئة ﴿إِلَى الثُّورِ﴾ نور العلم ، ونور الايمان في الدنيا ، ونور الرحمة والمغفرة والرضوان في الآخرة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ﴾ أيها الناس ﴿لَرُؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ لا يرضى بضلالكم وحرمانكم من الخيرات الدنيوية والاخرية ، بل يحب أن يهديكم إلى الكمالات النفسانية والمقامات العالية العلمية والأخلاقية في الدنيا ، والدرجات العالية في الجنة والنعم الدائمة في الآخرة.

ثم لا مهم سبحانه على ترك الانفاق في سبيله مع كثرة فوائده الدنيوية والاخرية بقوله : ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ، وأي عذر تتصورون في ﴿أَلَّا تُنْفِقُوا﴾ ولا تصرفوا بعض أموالكم التي هي في الواقع ليست لكم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وتحصيل مرضاته ، ﴿وَالْحَالُ أَنَّ﴾ ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿مِيرَاثُ﴾ أهل ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بعد موتهم ، فإنه ينتقل بموتهم جميع ما في أيديهم إلى الله ، فإذا علم أنه لا تبقى هذه الأموال في ملككم وتحت تصرفكم ، بل تخرج من أيديكم لا محالة بالموت ، كان إخراجها بالانفاق الموجب للمدح والثواب العظيم خير في حكم العقل والعقلاء من ترك الانفاق وإبقائها حتى تخرج قهرا من ملككم بالموت فتستحققون اللعن والعقاب ، أو المراد إن أمركم بالانفاق ليس لحاجة الله إلى أموالكم ، فإن الله جميع ما لأهل السماوات والأرض ، ينقل إليه بموتهم ، أوله ما يرثونه من الأموال في زمان حياتهم ، وإنما يأمركم بالانفاق لحاجتكم إليه في الآخرة ، وكون فوائده لكم.

ثم لما بين سبحانه وجوب الانفاق وفضيلته ، بين أفضلية المبادرة إليه حين ضعف الاسلام بقوله : ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ﴾ أيها المؤمنون في الفضيلة ﴿مَنْ أَنْفَقَ﴾ من أمواله في سبيل الله ونصرة دين الاسلام ﴿مَنْ قَبْلَ الْفَتْحِ﴾ قيل : يعني فتح مكة ^(١) . وقيل : فتح الحديبية ^(٢) ﴿وَمَنْ﴾ من ﴿قَاتَلَ﴾ أعداء الله ، ومن أنفق من بعد الفتح وقاتلهم ﴿أُولَئِكَ﴾ المؤمنون المنفقون والمقاتلون من قبل الفتح ، وفي زمان ضعف الاسلام ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ وأرفع منزلة ، وأعلى رتبة عند الله في الدنيا والآخرة ﴿مَنْ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا﴾ وجاهدوا بأنفسهم في حال قوة الاسلام وكثرة المسلمين ﴿وَكُلًّا﴾ من الفريقين ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ المثوبة ﴿الْخُسْنَى﴾ والدرجة العليا في الجنة.

ثم لما كان الوفاء بالوعد موقوفا على العلم بالأعمال وخصوصياتها ، أخبر سبحانه بعلمه بجميع أعمال العباد بقوله : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال ظاهرة وباطنة ومزايده وخصوصياته ﴿خَبِيرٌ﴾

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٢١٨ ، مجمع البيان ٩ : ٣٥٠ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٥٦ .

(٢) مجمع البيان ٩ : ٣٥٠ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٥٦ .

وبصير ، فيجازيكم بحسبه.

روي أنّ جماعة من الصحابة أنفقوا نفقات كثيرة حتى قال ناس : هؤلاء أعظم أجرا من كلّ من أنفق قديما ، فنزلت الآية ^(١) ، وبَيَّن سبحانه أنّ النفقة قبل فتح مكة أعظم أجرا. روى الفخر الرازي عن الكلبي أنّه قال : نزلت هذه الآية في فضل أبي بكر ؛ لأنّه أول من أنفق المال على رسول الله ﷺ في سبيل الله. قال عمر : كنت قاعدا عند رسول الله ﷺ وعنده أبو بكر ، وعليه عباءة قد خلّلها في صدره بخلال ، فنزل جبرئيل فقال : مالي أرى أبا بكر عليه عباءة خلّلها في صدره ، فقال : أنفق ماله عليّ قبل الفتح ^(٢) ، ... انتهى.

في نقد كلام بعض العامة في فضيلة أبي بكر ورده

أقول : ليث شعري من أين علم الكلبي أنّ أبا بكر أول من أنفق على رسول الله ﷺ مع أنّه لم يعلم له مال ، بل علم فقره ، فأنّه كان معلم أطفال ، وكان أبوه من فقراء مكّة ، بل المعلوم أنّ أول من أنفق ماله على رسول الله ﷺ خديجة ثم أبو طالب. وقول عمر - على فرض صدقه - لا يدلّ على نزول الآية في فضل خصوص أبي بكر ، بل يدلّ على أنّ أبا بكر كان من المنفقين من قبل الفتح ، ومن المعلوم أنّ المنفقين قبل الفتح كثير من الصحابة ، وليس في الرواية أنّ الآية نزلت حين قول رسول الله ﷺ أنّه أنفق قبل الفتح. وأعجب من ذلك أنّ الفخر حكى عن الواحدي أنّه قال : إنّ أبا بكر كان أوّل من قاتل على الاسلام ، وذلك لأنّ عليا في أول ظهور الاسلام كان صبيا صغيرا ، ولم يكن صاحب قتال ، وأما أبو بكر فإنّه كان شيخا مقدّما ، وكان يذبّ عن الاسلام حتى ضرب بسببه ضربا أشرف [به] على الموت ^(٣) ... انتهى. فإنّه حين كان عليّ رضي الله عنه صبيا لم يكن قتال ، ولم يكن ذبّ أبي بكر - على تقدير التسليم - إلّا باللسان ، وضربه حتى أشرف على الموت لا يدلّ على قتاله ، بل يدلّ على ضعفه وعدم قدرته على الدفاع عن نفسه ، فضلا عن القتال ، كما أن قتل والد عمار لا يدلّ على قتاله. وأعجب العجائب أنّهم يتمسّكون بهذه الترهات على فضيلة أبي بكر ، ويغمضون على الروايات المتواترة الدالة على أفضلية أمير المؤمنين رضي الله عنه على جميع الصحابة بعد النبي ﷺ ، ويؤولون الروايات الناصّة على خلافته وإمامته.

ثمّ اعلم أنّ تقدّم ذكر من أنفق قبل الفتح على من قاتل لا يدلّ على تقدّم صاحب الانفاق على صاحب القتال ، كما ادّعاه الفخر الرازي ؛ لأنّ الكلام في الحثّ على الانفاق ، وإنّما ذكر صاحب القتال

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٣٥٦.

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ٢١٩.

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٢١٩.

هنا لأهميته وشدة الاعتناء به ، فما قال الفخر - من أنّ صاحب الانفاق أبو بكر ، وصاحب القتال عليّ عليه السلام ، وفي تقديم صاحب الانفاق إيماء إلى تقديم أبي بكر - من ترهات الكلام.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ * يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١) وَ (١٢)﴾

ثمّ بالغ سبحانه في الحثّ على الانفاق في نصرة المسلمين ومواساة فقرائهم بقوله : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي﴾ ينفق ماله في سبيل الله رجاء أن يأخذ عوضه ، فإنّه كمن ﴿يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ ماله ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ وخالصا لوجه الله ، أو يقرض الله مالا حسنا ، وهو المال الحلال الطيب ﴿فَيُضَاعِفُهُ﴾ الله ، ويزيد ذلك المال أمثاله ﴿لَهُ﴾ من فضله ﴿وَلَهُ﴾ مضافا إلى ذلك ﴿أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وثواب مرضي لا يوصف بالبيان.

في فضيلة الانفاق في سبيل الله

روي أنه لما نزلت الآية جعل أبو الدّحداح يتصدّق بنصف كلّ شيء يملكه في سبيل الله ، حتى إنّّه خلع إحدى نعليه ، ثمّ جاء إلى أمّ الدّحداح فقال : إنّّي بايعت ربّي فقلت : ربح بيعك. فقال النبي صلى الله عليه وآله : « كم من نخلة مدّلاة غدوقها في الجنّة لأبي الدّحداح » ^(١) .

عن الصادق عليه السلام : « أنّ الله تعالى لم يسأل خلقه من حاجة به إلى ذلك ، وما كان الله من حقّ فإنّما هو لولّيته » ^(٢) .

وعن الكاظم عليه السلام : « نزلت في صلة الإمام » ^(٣) .

ثمّ عيّّن سبحانه يوم تأدية ذلك القرض بقوله : ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ يا محمد ، أو يا من له شأنية الرؤية ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ في ذلك اليوم إذا خرجوا من قبورهم ، يسعون إلى المحشر و﴿يَسْعَى﴾ ويسير سريعا ﴿نُورُهُمْ﴾ الحاصل لهم بإيمانهم ، ومعرفتهم بالله ، وأعمالهم الصالحة ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وفي قدامهم ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ لأنّهم أصحاب اليمين ، ويكون مسيرهم إلى الجنّة من جانب اليمين ، كما عن النبي صلى الله عليه وآله « أنّ كلّ مثاب يحصل له النور على قدر عمله » ^(٤) . وقيل : إنّ المراد بالنور ما يهتدى به إلى الجنّة ^(٥) .

ويقول لهم الملائكة : أيّها المؤمنون ﴿بُشْرَاكُمُ﴾ والخبر الذي يسرّ قلوبكم ، هو أنّ لكم ﴿الْيَوْمَ

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٣٥٩ .

(٢) الكافي ١ : ٤٥١ / ٣ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣٤ .

(٣) الكافي ١ : ٤٥١ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣٤ .

(٤ و٥) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٢٢ .

جَنَّتْ كَثِيرَ الْأَشْجَارِ ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ حال كونكم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبداً ، لا تخرجون منها طرفة عين ﴿ذَلِكَ﴾ الثواب العظيم الذي أعدّه الله لكم ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والتَّيْلُ بأعلى المطالب وأقصى المقاصد.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان حسن حال المؤمنين المخلصين ، بيّن سوء حال المنافقين بقوله : ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ لما رأوا أنفسهم في ظلمة لا يمكنهم المشي فيها ، ورأوا المؤمنين تتلأأ وجوههم نورا يمشون بنورهم كالبرق الخاطف ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صميم القلب : يا أيّها المؤمنون ﴿انظُرُونَا﴾ واستقبلونا بوجوهكم ، أو انتظرونا ﴿نَقْتَسِبْ﴾ ونستضيء ﴿مِنْ نُورِكُمْ﴾ ونمشي فيه معكم ﴿قِيلَ﴾ تخيباً ^(١) لهم وتحكماً بهم من جهة المؤمنين : أو الملائكة أيّها المنافقون والمنافقات ، ليس لكم من النور الذي حصلناه في الدنيا بالايّمان الخالص والأعمال الحسنة حظّ ونصيب ، فإن أردتم النور ﴿ارْجِعُوا﴾ إلى الدنيا التي خلقتموها ﴿وَرَاءَكُمْ﴾ إن أمكنكم الرجوع إليها ﴿فَالْتَمِسُوا﴾ وحصلوا لأنفسكم بالايّمان الخالص والعلم والمعرفة ﴿نُورًا﴾ كنورنا تمشونا فيه.

قيل : إنّ الناس يكونون في ظلمة شديدة ، ثمّ المؤمنون يعطون الأنوار ، فإذا أسرع المؤمن في الذّهاب ، قال المنافقون : انظرونا نقتبس من نوركم. فيقال لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا. وهي خدعة خدع بها المنافقون. كما قال الله تعالى : ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ ^(٢) فيرجعون إلى المكان الذي قسّم فيه النور ، فلا يجدون شيئاً فينظرون إليهم ^(٣) .

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ وبين المؤمنين ﴿بِسُورٍ﴾ وحائط عريض مرتفع ، كسور البلد ﴿لَهُ بَابٌ﴾ يدخل فيه المؤمنون ، وداخل ذلك السور الذي يلي المؤمنين و﴿بَاطِنُهُ﴾ وجوه ^(٤) ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ الالهية ، وهي الجنّة ﴿وَظَاهِرُهُ﴾ وخارجه الذي يلي المنافقين ﴿مِنْ قِبَلِهِ﴾ يأتيهم ﴿الْعَذَابُ﴾ وحاصله : أنّ بين الجنّة والنار سورا وحائطا ، قيل : هو حجاب الأعراف ، له باب يدخل المؤمنون من ذلك الباب الجنّة ،

(١) في النسخة : تخيبنا.

(٢) النساء : ٤ / ١٤٢.

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٣٥ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٦١.

(٤) جوّ كلّ شيء : باطنه وداخله.

والمنافقون يمنعون من الدخول ، ويبقون في العذاب والنار ^(١) .

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ

وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِيَّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ * فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ

مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبُئْسَ

الْمَصِيرُ (١٤) و (١٥)﴾

فلما رأى المنافقون أنَّ المؤمنين يدخلون الجنة ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ ويقولون لهم : أيها المؤمنون ﴿أَلَمْ نَكُنْ﴾ في الدنيا ﴿مَعَكُمْ﴾ في العبادات والمساجد والصلوات والغزوات ؟ فأجابهم المؤمنون و﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ كنتم معنا في إظهار الإيمان ، والاشتغال بالعبادات ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ﴾ وأضررتم ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ بالكفر وارتكاب المعاصي ، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالتوبة ، وأخرتموها ، كما عن ابن عباس ^(٢) ، أو ترصدتم بمحمد ﷺ الموت ، وقلتم : يوشك أن يموت محمد فنستريح منه ^(٣) . أو دائرة السوء ، فتلتحقوا بالكفار ، وتتخلصوا من النفاق ^(٤) ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ وشككتم في نبوة محمد ﷺ وصحة البعث والقيامة ، وصدق وعيد الله بالعذاب ﴿وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِيَّ﴾ وشغلتمكم بأباطيل الدنيا وشهواتها ، وخدع الشيطان ﴿حَتَّىٰ جَاءَ﴾ كم ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾ وقضاؤه بموتكم ﴿وَعَزَّيْتُمْ﴾ وخدعكم ﴿بِاللَّهِ﴾ وأطمعكم في عفوه الشيطان ﴿الْغُرُورُ﴾ الخداع ﴿فَالْيَوْمَ﴾ الذي تكونون فيه أيها المنافقون هو يوم القيامة ﴿لَا يُؤْخَذُ﴾ ولا يقبل ﴿مِنْكُمْ فِدْيَةٌ﴾ ومال تدفعون به العذاب عن أنفسكم ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ظاهرا وباطنا بل ﴿مَأْوَاكُمُ﴾ ومرجعكم ﴿النَّارُ﴾ ومسكنكم جهنم ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ ومصيركم ، كما عن ابن عباس ^(٥) . أو أولى بالتصرف فيكم ، والسكونة لكم ﴿وَوُ﴾ هي ﴿بُئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وساء المنقلب لكم.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا

كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ

فَاسِقُونَ (١٦)﴾

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٢٦ .

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٢٦ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٢٦ ، مجمع البيان ٩ : ٣٥٥ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٦٢ .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٢٦ .

(٥) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٢٧ .

ثم لما ذكر سبحانه بعض أهوال القيامة حثّ المؤمنين على الخشية والخشوع لله بقوله : ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾^(١) وأما حان ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بعد أن عمّروا طويلاً في الإيمان ، وشاهدوا آثار عظمة الله ، وعلموا عظم عصيانه وشدة عقابه ﴿أَنْ تَخْشَعَ﴾ وتضرع وترقّ ﴿فَلْيُؤْنِسَهُمُ اللَّهُ﴾ والتنبيه لعظمته ، فيسارعوا إلى طاعته بلا توان وفتور ، أو لموعظته ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ﴾ القرآن ﴿الْحَقِّ﴾ والصدق ، فيبادرون إلى العمل بما فيه من الأحكام التي منها الانفاق في سبيل الله.

روي أنّ المؤمنين كانوا مجتهدين بمكة ، فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ، ففتروا عما كانوا عليه من الخشوع ، فنزلت ^(١) .

وقيل : إنّ لما بدا في الصحابة شيء من المزاح فنزلت ^(٢) .

عن ابن عباس : أنّ الله استبطأ خشوع قلوب فعاتبهم على رأس ثلاثة عشرة سنة من نزول القرآن ^(٣) .

وعن ابن مسعود : ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية أربع سنين ^(٤) .

﴿وَلَمْ يَأْنِ أَنْ﴾ لا يكونوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ كاليهود والنصارى ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ والزمان الذي بينهم وبين أنبيائهم ﴿فَقَسَتْ﴾ وصلبت ﴿فَلْيُؤْنِسَهُمُ﴾ وذهب عنهم الخوف ورقة القلب التي كانت تأنيهم بتلاوة التوراة والانجيل ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ اليوم لشدة قساوة قلوبهم ﴿فَاسْفُؤْنَ﴾ وخارجون عن حدود دينهم ، ورافضون لما في كتبهم من الأحكام ، وفيه إشعار بأنّ عدم الخشوع في أول الأمر يفضي إلى الفسق والخروج من الدين في الآخر.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ

أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٧) و (١٨)

ثمّ بالغ سبحانه في الترغيب في الخشوع ، بتمثيل القلوب في إحيائها بالخشوع بالأرض الميتة التي تحيا بالمطر بقوله : ﴿اعْلَمُوا﴾ أيّها المؤمنون ﴿أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ﴾ بالمطر الذي ينزل من السماء ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ويسسها ، فكذلك القلوب تحيا بالخشوع والذكر وتلاوة القرآن بعد موتها بالقساوة.

وقيل : رغب سبحانه في الخشوع والخضوع بالتذكير بإحياء الأرض بيعث الأموات ^(٥) ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾

وأوضحنا ﴿لَكُمْ﴾ أيّها الناس ﴿الآيَاتِ﴾ التي فيها بيان موجبات سعادتك في الدارين ﴿لَعَلَّكُمْ﴾

(١) تفسير أبي السعود ٨ : ٢٠٨ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٦٣ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٣٦٤ .

(٣) تفسير أبي السعود ٨ : ٢٠٨ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٦٤ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٣٦٤ .

(٥) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٣٠ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٦٥ .

تَعْقُلُونَ وتفهمون ما فيها ، وتعملون به ، وتفوزون بالدرجات العالية ، والراحة الأبدية ، والتعم الدائمة وقيل : يعني كي تكمل عقولكم ^(١) .

ثم بالغ سبحانه في الحث على الانفاق لوجهه بقوله : **إِنَّ الْمَصْدَقِينَ** والمنفقين أموالهم في وجوه الخير **وَالْمَصَدَّقَاتِ** والمنفقات **وَهُمْ** **أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا** وسلموا أموالهم إلى الله بإنفاقهم في سبيله برجاء العوض والأجر **يُضَاعَفُ** ذلك المال المنفق **لَهُمْ** ويتزايد مقداره في ميزانهم على ما كان في الدنيا مرّات **وَلَهُمْ** مع التضاعف **أَجْرٌ** وثواب **كَرِيمٌ** مرضي . وقيل : إنّ المصدقين بمعنى الذين تصدّقوا ، ولذا صحّ عطف الجملة الفعلية عليه ^(٢) .

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩)

ثم أنّه تعالى بعد بيان حال المؤمنين والمنافقين ، بيّن حال المؤمنين والكفار المتظاهرين بالكفر بقوله تبارك وتعالى : **وَالَّذِينَ آمَنُوا** عن صميم القلب **بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ** من آدم إلى الخاتم **أُولَئِكَ** العالون في الشأن والمنزلة **هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ** والكاملون في الإيمان ، أو بمنزلة المستشهدين في سبيل الله في عظمة الأجر **عِنْدَ رَبِّهِمْ** وفي حكمه ونظره .

عن السجاد عليه السلام ، عن أبيه عليه السلام ، قال : « ما من شيعة إلا صديق شهيد . قيل : أتى يكون ذلك ، وعامتهم يموتون على فرشهم ؟ فقال عليه السلام : أما تتلو كتاب الله في الحديد **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ** قال : « لو كان الشهداء كما يقولون ، كان الشهداء قليلا » ^(٣) . وعن الباقر عليه السلام قال : « العارف منكم هذا الأمر ، المنتظر له ، المحتسب فيه الخير ، كمن جاهد والله مع القائم بسيفه » ثم قال : « بل والله كمن جاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله في فسطاطه ، وفيكم آية من كتاب الله » . قيل : وآية آية ؟ قال : « قول الله : **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ...** الآية » ثم قال : « صرتم والله الصديقون والشهداء عند ربكم » ^(٤) .

أقول : حاصل الروايات أنّ المؤمن بما جاء به النبي صلى الله عليه وآله ومنه الولاية بمنزلة الصديقين والشهداء في المعركة لنصرة الإسلام **لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ** الموعودان لهم المعروفان بالعظمة والكمال .

(١) تفسير الصافي ٥ : ١٣٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ٨ : ٢٠٩ .

(٣) المحاسن : ١٦٣ / ١١٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣٦ .

(٤) مجمع البيان ٩ : ٣٥٩ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣٦ .

ثم بيّن حال الكفار بقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزل ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء عن الرحمة ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وملازموا النار ، لاخلاص لهم منها .

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وِزْنٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)﴾

ثم لما كان الكفر والنفاق بسبب حب الدنيا وشهواتها ، أخبر سبحانه بحقارتها وسرعة زوالها بقوله : ﴿اعْلَمُوا﴾ أيها الناس ﴿أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ومشتبهاتها التي لا يراد بها التوصل إلى السعادة الآخروية ﴿لَعِبٌ﴾ وعمل يتعب الانسان نفسه فيه بغير غرض عقلائي ، كعمل الصبيان الذي يتعبون أنفسهم فيه بغير فائدة ﴿وَلَهُوَ﴾ واشتغال باللذائذ السريعة الزوال ، السيئة العاقبة ، والوخيمة المآل ، الموجبة للحسرة والندامة ، كأشغال الثبّان التي ليس غرضهم منها إلا التذاذ النفس مع الغفلة عن وخامة عاقبتها ﴿وِزْنٌ﴾ وتحسين للظاهر في الأوهام مع عدم حقيقة وواقعية له ، كلبس الملابس الفاخرة ، وركوب المراكب الفارهة ، والسكونة في المساكن البهية الحسنة ، ونظائرها كترتين النسوان صورهنّ للرجال ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ بالمزايا الجسمانية الزائلة بالأمراض والموت ، كالقوة والقدرة والجمال والنسب والرياسة ونظائرها ﴿وَتَكَاثُرٌ﴾ وتزايد ﴿فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ .

ومن الواضح أنّ هذه الامور الجامعة للمشتبهات النفسانية الدنيوية ، ممّا يستحققرها العقل السليم ، ولا يعتني به العاقل الفهيم ، لسرعة زوالها ، وعدم فائدة مهمة لها ، مع استلزام توجّه النفس إليها فوات فوائد عظيمة باقية .

ثم أكّد سبحانه حقارة المشاغل الدنيوية السريعة الزوال ، المفوّتة للمنافع الآخروية بضرب مثل لسرعة زوال الدنيا بقوله : ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ ونظير مطر نافع أنبت بنزوله من الأرض اليابسة النباتات النافعة بحيث ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ﴾ والزارعين الذين يكفرون ويسترون البذور بالتّراب ﴿نَبَاتُهُ﴾ وما يخرج من الأرض بسببه .

وقيل : إنّ المراد بالكفار الكافرون بالله ، فاتّهم أشدّ إعجابا بزينة الدنيا ^(١) . بل إعجابه مختصّ بهم ، لأنّ نظرهم إلى المحسوسات ، وأمّا المؤمنون فإنّهم لا يعجبهم نموّه وحضرته ، وإنّما يعجبهم قدرة

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٣٤ ، تفسير البيضاوي ٢ : ٤٧٠ .

خالقهم ورحمهم.

﴿ثُمَّ﴾ بعد النمو والخضرة والتظارة ﴿يَهِيْجُ﴾ ويبس وتنزل خضرته ونظارته ﴿فَتَرَاهُ﴾ أيها الرائي بعد مدة قليلة ﴿مُصْفَرًّا﴾ بعد ما رأيته ناضرا موقنا ﴿ثُمَّ يَكُونُ﴾ بعد اصفراره ويبسه ﴿خُطَامًا﴾ ومنكسرا ومتفتتا ﴿وَو﴾ يكون ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ لمن أعجبه الدنيا وأقبل عليها ، ولم يطلب بها الآخرة ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يقادر قدره ﴿وَو﴾ لمن طلب الآخرة بها ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة كائنة ﴿مَنْ اللَّهِ﴾ العظيم الغفور ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ منه تعالى ، المستلزم لدخول الجنة والتنعم بالنعم الدائمة.

ثم بين سبحانه نتيجة شرح المشاغل الدنيوية وحاصل المثل الذي ضرب للدنيا ﴿وَو﴾ زينتها بقوله: ﴿مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ولذا نذرها ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ وانتفاع يخدع الانسان الجاهل به ، وفيه غاية تحقير الدنيا ، والحث على الإعراض عنها ، وتعظيم الآخرة.

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ

العظيم (٢١)﴾

ثم حث على الجِدِّ في تحصيل ما ينتفع به فيها بقوله : ﴿سَابِقُوا﴾ أيها المؤمنون ، واجتهدوا في التقدّم على الأقران ، وسارعوا مسارعة السابقين في المضمار ﴿إِلَى﴾ موجبات ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وخالقكم اللطيف بكم ، وإتيان الأعمال الموجبة للدخول في بستان ﴿وَجَنَّةٍ﴾ وسيدة ﴿عَرْضُهَا﴾ وسعتها ﴿كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وسعتها إذا بسطا ﴿أُعِدَّتْ﴾ وهيئت تلك الجنة من قبل الله تعالى ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ جميعا ، ولا يقول : تؤمن ببعض ، ونكفر ببعض.

عن ابن عباس : إنّ الجنان أربعة ، قال الله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾^(١) ثم قال : ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ﴾^(٢) فذكر الله هنا تشبيه واحدة من الجنات الأربع في العرض بالسموات السبع^(٣) .
وعنه أيضا : أنّ لكلّ من المطيعين جنة بهذه الصفة^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام : « أن أدنى أهل الجنة منزلا من لو نزل به الثقلان الجنّ والانس لوسعهم طعاما وشرابا »^(٥) .

﴿ذَلِكَ﴾ الثواب العظيم المذكور ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ وإنعامه ﴿يُؤْتِيهِ﴾ ويعطيه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ إعطاءه إياه

(١) الرحمن : ٥٥ / ٤٦ .

(٢) الرحمن : ٥٥ / ٦٢ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٣٥ .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٣٤ .

(٥) تفسير القمي ٢ : ٨٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣٧ .

من عباده المؤمنين ﴿وَاللَّهُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ والإحسان الجسيم.

في الرد على الأشاعرة

ثم لا يخفى أنّ استحقاق الأجر بالعمل لا يوجب على الله إعطاء الجنة بهذه الصفة ، فإعطائها فضل من الله ، مع أنّ الفضل لا يكون إلّا في المحلّ القابل ، والمراد بالاستحقاق القابلية التي لا يجوز البخل مع وجودها ، وبالوجوب على الله كونه مقتضى الحكمة التي هي وضع الشيء في موضعه ، فظهر أنّ استدلال الأشاعرة بالآية على عدم استحقاق العبد على الله شيئاً - وأنّ كلّما يعطي الله بإزاء العمل تفضّل منه تعالى ، يجوز له في حكم العقل منعه والبخل به - فاسد جدّاً.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (٢٢) و (٢٣)

ثمّ لما كان الحزن على الأمور الدنيوية والفرح بها شاغلاً للقلب عن الإقبال على العبادة والتوجّه إلى الآخرة ، نبّه سبحانه على أنّ الحوادث كلّها بتقدير الله بقوله : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ ولا حدث عن حادث ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ من قحط أو فساد ﴿وَلَا﴾ عارضة ﴿فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ من (١) المرض والجرح والصحة والغنى والفقر وغيرها ﴿إِلَّا﴾ وهو مكتوب ﴿فِي كِتَابٍ﴾ مكنون ولوح محفوظ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ﴾ نخلق هذه الحوادث و﴿نَبْرَأَهَا﴾ ونوجدّها. وقيل : يعني من قبل أن نوجد الأنفس ، أو نوجد الأرض (٢) .
عن أمير المؤمنين عليه السلام : « أنّ ملك الأرحام يكتب كلّ ما يصيب الإنسان في الدنيا بين عينيه ، فذلك قول الله عزّ وجلّ : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ الآية » (٣) .

عن الصادق عليه السلام في رواية : « كتابه في السماء علمه [بها] ، وكتابه في الأرض علومنا في ليلة القدر وفي غيرها » (٤) .

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ المذكور من كتب الحوادث من الخير والشرّ قبل إيجادهما ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ العالم بالأمور ﴿يَسِيرٌ﴾ وسهل ، وذلك التقدير وكتب المقدرات قبل وجودها والإخبار بها ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ ولأجل أن لا تحزنوا ﴿عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ ولم يقبل إليكم ، أو ذهب منكم من النعم الدنيوية كالمال والجاه

(١) زاد في النسخة : الفقر و .

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٣٧ .

(٣) علل الشرائع : ٩٥ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣٨ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٥١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣٧ .

والصحة والأمان ونظائرها ﴿وَلَا تَفْرَحُوا﴾ ولا تسرّوا ﴿بِمَا آتَاكُمْ﴾ الله وأعطاكم منها ، فإنّ من علم أنّ إقبال الدنيا وإدبارها بتقدير الله لا بسعي الانسان وكده ، لا يشتدّ جزعه على إدبارها ، لعلمه بكونه لصالح أنفع منه ، ولا فرحه بأقبالها لتجويزه ذهابه في أسرع وقت ، أو كونه امتحانا واستدرجا .

وعن بعض الحكماء : لا التأسّف يردّ فائتا ، ولا الفرح يقرب معدوما ويدم آتيا ^(١) .
وعن ابن مسعود : لأنّ أمسّ جمره أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت ، أحبّ إليّ من أن أقول لشيء لم يكن ليته كان ^(٢) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « الزهد كلّ بين كلمتين في ^(٣) القرآن قال الله تعالى : ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ ومن لم يأس على الماضي ، ولم يفرح بالآتي ، فقد أخذ الزهد بطرفيه » ^(٤) .

وعن السجاد عليه السلام : « ألا إنّ الزهد في آية من كتاب الله » ثم تلا هذه الآية ^(٥) .
ثمّ نبّه سبحانه على أنّ الأسى المذموم هو المانع عن التسليم لأمر الله ، والفرح المبعوض هو الفرح الموجب للاختيال والفخر بقوله : ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾ بل يبغض ﴿كُلَّ﴾ شخص ﴿مُخْتَالٍ﴾ ومتكبر ﴿فَخُورٍ﴾ ومتطاول على عباده ، فإنّ من عظمت عنده الحظوظ الدنيوية وفرح بها ، اختال وافتخر بها لا محالة ، وأمّا الفرح بنعمة الله والشكر عليها فغير مذموم .
عن ابن عباس ، قال : ليس أحد إلّا وهو يفرح ويحزن ، ولكن اجعلوا للمصيبة صبورا ، وللخير شكرا ^(٦) .

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾
* لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٤) و (٢٥)﴾

ثمّ لما كان التكبر والتطاول على الناس بالأموال وكثرة التعم الدنيوية لعظمتها في نفسه وشدة حبه لها ملازما للبخل بها ، وصف سبحانه المختال والفخور بقوله : ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ بأموالهم ، ولا

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٣٧٦ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٣٧٦ .

(٣) في نهج البلاغة : من .

(٤) نهج البلاغة : ٥٥٣ / ٤٣٩ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣٨ .

(٥) الكافي ٢ : ١٠٥ / ٤ ، الخصال : ٤٣٧ / ٢٦ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣٨ .

(٦) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٣٩ .

ينفقونها على الفقراء ، وفي سبيل الله ، لحبهم لها ، ولعزتها عندهم ، ثم لا يقتنعون بخلهم ، بل يبعثون ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ﴾ بأموالهم وإمساكها وعدم صرفها في وجوه الخير ، وهذا غاية الذم ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ ويعرض عن الإنفاق ، أو عن إطاعة أوامر الله ونواهيه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن إنفاقهم وطاعتهم لا يضره بخلهم وعصيانهم ، ولا ينفعه إنفاقهم وشكرهم وطاعتهم ﴿الْحَمِيدُ﴾ في ذاته ، الحمود في فعالة التي منها فتح أبواب نعمه على البخلاء ، لأنّ فيه نظام العالم ، وامتحان الخلق ، ووبال بخلهم عائد إليهم .

ثمّ لما كان نظام العالم بالعلم والقواعد المقررة لحفظ النظام وقيام العدل وقوة دفاع الظالمين ، بين سبحانه إتمام نعمه على الناس حتّى لهم على طاعته بقوله : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إليكم أيّها الناس ﴿رُسُلَنَا﴾ في كلّ عصر وقرن ، مستدلّين على رسالتهم من قبلنا ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الظاهرات ، والحجج الباهرات ، لئلا يشكّ أحد في صدق دعواهم الرسالة ﴿وَأَنْزَلْنَا﴾ إتماماً للطف ﴿مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ السماوي الذي فيه بيان كلّما يحتاجون إليه من العلوم المربوطة بمعاشهم ومعادهم . عن الصادق عليه السلام : « الكتاب الاسم الأكبر الذي يعلم به علم كلّ شيء الذي كان مع الأنبياء ... » الخبر ^(١) . ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وما يعيّن به الحقوق . روي أنّ جبرئيل نزل بالميزان فدفعه إلى نوح ، وقال : مر قومك يزنوا به ^(٢) . وقيل : إنّ المراد بالميزان العدل والانصاف ^(٣) . القمي ، قال : الميزان الامام ^(٤) .

﴿لَيَقُومَنَّ النَّاسُ﴾ في معاملاتهم وحقوقهم ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعدل ، ولا يظلم أحدا في إيفاء حقوقهم واستيفائها ، كما أنّه تعالى قائم في عباده بالقسط والعدل ، فوفاهم حقوقهم بلا حيف ﴿وَأَنْزَلْنَا﴾ من السماء ﴿الْحَدِيدَ﴾ عن أمير المؤمنين عليه السلام : « يعني السلاح » ^(٥) الذي ﴿فِيهِ بَأْسٌ﴾ وعذاب ﴿شَدِيدٌ﴾ على من لم يعمل بالكتاب وأخسر الميزان .

وقيل : يعني قوة شديدة عليهم ، فان آلات الحرب كلّها من حديد ^(٦) .

عن ابن عمر : أنّ النبي ﷺ قال : « إنّ الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض ؛ أنزل الحديد ، والنار ، [والماء] ، والملح » ^(٧) .

(١) الكافي ١ : ٢٣٢ / ٣ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣٨ .

(٢) جوامع الجامع : ٤٨٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣٩ ، تفسير الرازي ٩ : ٢٤١ ، تفسير أبي السعود ٨ : ٢١٢ .

(٣) تفسير جوامع الجامع : ٤٨٢ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٢٧٤ و ٣٥٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣٩ .

(٥) التوحيد : ٢٦٦ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣٩ .

(٦) تفسير روح البيان ٩ : ٣٨٠ .

(٧) مجمع البيان ٩ : ٣٦٣ ، تفسير الرازي ٢٩ : ٢٤٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١٣٩ ، وتفسير روح البيان ٩ : ٣٨٠ ، ولم ينسبها إلى أحد من الرواة .

وعن ابن عباس : نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من الحديد : السندان ، والكلبتان ، والميقعة ^(١) أو المقمعة - والمطرقة ، والإبرة ^(٢) .

وقيل : إنّ الإنزال التهيئه ^(٣) . وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « إنزاله خلقه » ^(٤) .

﴿و﴾ فيه مع ذلك ﴿مَنَافِعُ﴾ كثيرة ﴿لِلنَّاسِ﴾ كافة ، فإنّ انتظام العالم ومصالحه بالزراعة والحياسة والبناء والسلطنة ، ولا يتم شيء منها إلّا بالحديد ، فلو لم يكن الحديد لاختلّ جميع مصالح العالم ، ولذلك جعله الله تعالى بجوده ورحمته سهل الوجدان كثير الوجود ليستعملوه ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ ويميّز في الخارج ﴿مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ ومن يحامي عن دينه وأنبيائه بالسيوف والسنان والنبال ، مع أنّه تعالى ﴿بِالْغَيْبِ﴾ والستر عن نظر ذلك الناظر ، وهو مؤمن به بالدلائل و﴿إِنْ﴾ كان ﴿اللَّهُ﴾ العظيم لا يحتاج إلى نصرته وحمايته عن دينه ورسوله ؛ لأنّه ﴿قَوِيٌّ﴾ بذاته شديد البطش ﴿عَزِيزٌ﴾ وغالب غير مغلوب ، وإلّا يأمركم بذلك لحاجتكم إليه ، وعود نفعه إليكم في العاجل والآجل .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ
وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ
وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً
اتَّبَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا
فَأَتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) و (٢٧)﴾

ثمّ لما أمر بنصرة رسله ، ذكر عظمة شأن بعض اولي العزم منهم بقوله : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ الذي هو أول اولي العزم من الرسل ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ الذي هو الثاني منهم ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وقرّنا ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ ونسلهما طبقة بعد طبقة ﴿النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ ولم يك نبي إلّا من نسلهما ، ولم ينزل كتاب إلّا إليهم ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ﴾ إلى الحقّ مؤمن بالكتاب ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وخارجون عن طاعة الله ؛ إما بالكفر ، وإلّا بالعصيان ﴿ثُمَّ﴾ لما مات نوح وإبراهيم ﴿قَفَّيْنَا﴾ واتبعنا ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ وأعقاهم ﴿بِرُسُلِنَا﴾ كهود وصالح وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأضرابهم واحدا بعد واحد حتّى انتهى إلى زمان عيسى عليه السلام ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ واتبعناهم ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ وهو آخر أنبياء بني إسرائيل ﴿وَأَتَيْنَاهُ﴾

(١) الميقعة : خشبة القصّار يادق عليها ، والمسنّ الطويل يحدّد به ، والمطرقة .

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٤١ ، تفسير أبي السعود ٨ : ٢١٢ ، وتفسير روح البيان ٩ : ٣٧٩ ، وقد نسباه إلى القليل .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٤٢ .

(٤) الاحتجاج : ٢٥٠ ، تفسير الصافي ٩ : ١٣٩ .

وأعطيناها ﴿الْإِنْجِيلَ﴾ الذي فيه هدى ونور ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴿فِي دِينِهِ﴾ بهدائه وترتيبه ﴿زُفَّةً﴾ ومودةً للمؤمنين ﴿وَرَحْمَةً﴾ وعطوفة عليهم ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ وإعراضا عن الدنيا ولذائذها ، ولكن ما أوجبناها عليهم ، وإنما ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾ وأحدثوها من عند أنفسهم ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ وما شرعناها لهم لطريق التدب على ما قيل ^(١) ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ وطلبنا للقرب منه. قيل : إن الاستثناء منقطع ^(٢) ، والمعنى : ما أوجبناها عليهم في كتابهم ولسان رسوله لهم ، ولكن التزموها لابتغاء مرضاة الله. عن ابن عباس : أنَّ في أيام الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ غير الملوك التوراة والإنجيل ، فساح قوم في الأرض ولبسوا الصَّوف ^(٣) .

وعن ابن مسعود ، عن النبي ﷺ أنه قال : « يابن مسعود ، أما علمت أنَّ بني إسرائيل تفرَّقوا ثلاث و ^(٤) سبعين فرقة كلها في النار ، إلَّا ثلاث فرق ؛ فرقة آمنوا بعيسى عليه السلام وقاتلوا أعداء الله في نصرته حتى قتلوا ، وفرقة لم يكن لها طاقة بالقتال ، فأمرؤا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، وفرقة لم يكن لها طاقة بالأمرين ، فلبسوا العباء ، وخرجوا إلى القفار والفيافي ، وهو قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ...﴾ الآية » ^(٥) .

وقيل : إنَّ الجبارة ظهروا على المؤمنين بعد رفع عيسى عليه السلام فقاتلوا ثلاث مرات ، فقتلوا حتى لم يبق منهم إلَّا قليل ، فخافوا أن يفتنوا في دينهم ، فاختاروا الرهبانية في قُلل الجبال ، فازين بدينهم ، مخلصين أنفسهم للعبادة ، منتظرين للبعثة النبوية التي وعدها عيسى عليه السلام ^(٦) . وروي أنَّ الله لما أغرق فرعون وجنوده ؛ استاذن الذين كانوا آمنوا من السحرة موسى عليه السلام في الرجوع إلى الأهل والمال بمصر ، فأذن لهم ، ودعا لهم ، فترهبوا في رؤوس الجبال ، فكانوا أول من ترهب ، وبقيت طائفة منهم مع موسى عليه السلام حتى توفاه الله ، ثم انقطعت الرهبانية بعدهم حتى ابتدعها بعد ذلك أصحاب المسيح عليه السلام ^(٧) .

﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ ولم يحفظوها قيل : يعني المقتدين بهم بعدهم ^(٨) ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ وكمال حفظها ، بل خلطوها وأفسدوها بالقول بالثلثية ، وأكل الخنزير ، وشرب الخمر ، وقصد الرياء والسَّمتة ، والكفر

(١) تفسير جوامع الجامع : ٤٨٣ .

(٢) تفسير الرازي : ٢٩ : ٢٤٦ ، تفسير البيضاوي ٢ : ٤٧١ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٨٢ .

(٣) تفسير الرازي : ٢٩ : ٢٤٥ .

(٤) (ثلاث و) ليست في تفسير الرازي .

(٥) تفسير الرازي : ٢٩ : ٢٤٥ .

(٦) تفسير أبي السعود : ٨ : ٢١٣ ، تفسير روح البيان ٩ : ٢٨٢ .

(٧) (٨٧) تفسير روح البيان ٩ : ٣٨٢ .

بمحمد ﷺ .

عن النبي ﷺ قال : « من آمن بي وصدقني ، فقد رعاها حق رعايتها ، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون » (١) .

﴿فَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ برسالة محمد ﷺ ﴿مِنْهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ الذي يليق بهم على رهبانيتهم وإيمانهم بالرسول ، وهو المغفرة والجنة والرضوان ﴿وَ﴾ الأسف أنه ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ وهم الذين ابتدعوها ثم ضيعوها ، وكفروا بمحمد ﷺ ﴿فَاسِقُونَ﴾ وخارجون عن حدّ الاتباع والعقل .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٨) و (٢٩)

ثم لما ذكر سبحانه أنّ الذين آمنوا من أتباع عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ اتوا أجرهم وكثير منهم لم يؤمنوا ، دعاهم سبحانه إلى الإيمان به بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بعيسى وسائر الرسل ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذروا عقابه ﴿وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ النبي الأمي ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ الله بإزاء إيمانكم بسائر الرسل وبمحمد ﷺ ﴿كِفْلَيْنِ﴾ ونصيبين من الأجر ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ وفضله وجوده ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿نُورًا﴾ من بين أيديكم وإيمانكم ﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾ في ظلمات العرصة إلى الجنة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ جميع ذنوبكم التي ارتكبتها في حياتكم الدنيا ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده المؤمنين .

عن ابن عباس : أنّه نزل في قوم جاءوا من اليمن من أهل الكتاب إلى الرسول ﷺ وأسلموا ، فجعل الله لهم أجرين (٢) .

روي أنّ أهل الكتاب افتخروا بذلك على المسلمين (٣) .

وعن الصادق عليه السلام ﴿كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ ، قال : « الحسن والحسين عليهما السلام و ﴿نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ يعني إماما تاتمّنون به » (٤) وفي رواية ، قال : « والنور علي » (٥) .

ثم أنّه تعالى بعد دعوة أهل الكتاب بالإيمان بنبية محمد ﷺ ، وكانوا يدعون أنّ النبوة والرسالة

(١) مجمع البيان ٩ : ٣٦٦ ، تفسير الصافي ٥ : ١٤٠ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٨٢ .

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٤٧ .

(٣) تفسير أبي السعود ٨ : ٢١٤ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٨٧ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٥٢ ، الكافي ١ / ٣٥٦ / ٨٦ ، تفسير الصافي ٥ : ١٤٠ .

(٥) مناقب ابن شهر آشوب ٣ : ٣٨١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٤٠ .

مختصة بهم ، لكونهم أهل النسب الشريف ، والعلم بالكتاب ، بيّن سبحانه أنّ جعل الرسالة لمحمد ﷺ الذي ليس من بني إسرائيل ، ووعد الأجر الجزيل على الإيمان به ، ونصيبيّن من الأجر على إيمان أهل الكتاب به ﴿لَنَلَّأ يَغْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ لعدم كونه من بني إسرائيل ، والمشهور زيادة (لا) والمعنى لأن يعلموا ﴿أَلَا يَقْدَرُونَ عَلَى﴾ نيل ﴿شَيْءٍ﴾ قليل ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ وإحسانه ، أو تخصيصه وحصره في أقوام معيّنين ﴿و﴾ يعلموا ﴿أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ وبقدرته ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وقيل : إنّ (لا) نافية ، وضمير ﴿يَقْدَرُونَ﴾ راجع إلى الرسول وأصحابه ^(١) ، والمعنى : لثلا يعتقدوا أهل الكتاب أنّ محمدا وأصحابه لا يقدرّون على شيء من فضل الله ، فقد علموا أنّهم يقدرّون عليه ، والمراد تعظيم النبي ﷺ في نبوته وشرعه وكتابه ، وليعتقدوا أنّ الفضل بيد الله وفي تصرفه وسلطانه ﴿وَاللَّهُ الْعَظِيمُ﴾ **﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾** فإنّ العظيم لا يكون فضله إلّا عظيما.

روي : أنّ النبي ﷺ كان يقرأ التسيّحات قبل أن يرقد ويقول : « إنّ فيهن آية أفضل من ألف آية » ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « من قرأ سورة الحديد والمجادلة في صلاة فريضة [وأدمنها] ، لم يعدّبه الله حتّى يموت أبدا ، ولا يرى في نفسه ولا في أهله سوءا أبدا ، ولا خصاصة في بدنه » ^(٣) .

وعن الباقر عليه السلام : « من قرأ المسبّحات كلّها قبل أن ينام ، لم يمّت حتّى يدرك القائم ، وإن مات كان في جوار رسول الله ﷺ » ^(٤) .

الحمد لله الذي منّ عليّ بالتوفيق لإتمام تفسيرها.

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٤٨ .

(٢) مجمع البيان ٩ : ٣٤٥ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٨٧ .

(٣) ثواب الاعمال ١١٧ ، مجمع البيان ٩ : ٣٤٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١٤١ .

(٤) مجمع البيان ٩ : ٣٤٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١٤١ .

في تفسير سورة المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ

تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١)﴾

ثم لما ختمت سورة الحديد المتضمنة لبيان ابتداء الرهبانية التي من أركانها ترك التزويج والعشرة مع الناس في دين المسيح ، والمختمة بدعوة الناس إلى الإيمان بخاتم الأنبياء ﷺ الناسخ للرهبانية بقوله : « لا رهبانية في الاسلام » ^(١) والأمر بالتزويج حيث قال : « النكاح سنّي ، فمن رغب عن سنّي فليس مّي » ^(٢) الباعث إلى مصادقة الناس والمعاشرة معهم ، نظمت سورة المجادلة المتضمنة لبيان بعض أحكام الأزواج والمباشرة التي يكون الالتزام بها من شؤون الإيمان بمحمد ﷺ والتحذير عن موادة الكفار ، فابتدأها بذكر أسمائه بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم افتتحها بذكر مقدمة نسخ حكم الظهار بين الزوج والوجة بقوله : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ﴾ المرأة ﴿الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ وتكلمك يا محمد ﴿فِي﴾ شأن ﴿زَوْجِهَا﴾ وتراجعك بالكلام فيه ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ مما لقيته من ظهار زوجها ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ وتخاطبكما فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لكل مقال ﴿بَصِيرٌ﴾ بكل حال .

في بيان شأن نزول آيات الظهار

روي أنّ حولة بنت ثعلبة ^(٣) بن مالك بن خزاعة الخزرجية كانت حسنة البدن ، رآها زوجها أوس بن الصامت أخو عبادة وهي تصلي ، فاشتبهى مواقعتها ، فلما سلمت راودها فأبت ، فغضب أوس ، وكان به حقة ، وقال : أنت عليّ كظهر أمي ، ثم ندم وقال لها : ما أظنك إلّا وقد حرمت عليّ ، فشق ذلك عليها ، فأنت رسول الله ﷺ وعائشة تغسل شقّ رأسه ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إنّ زوجي أوس بن الصامت أبو ولدي وابن عمّي وأحبّ الناس إليّ ،

(١) النهاية لابن الأثير ٢ : ٢٨٠ .

(٢) جامع الاخبار : ٢٧١ / ٧٣٧ .

(٣) في النسخة : تغلب ، وما في المتن من مجمع البيان ، راجع : اسد الغابة ٥ : ٤٤٢ .

ظاهر مّي وندم ^(١) . وفي رواية قالت : إنّ أوسا تزوّجني وأنا شابة مرغوب فيّ ، فلمّا علا سّي وكثر ولدي جعلني كأمّه .

فقال ﷺ لها : « ما عندي في أمرك شيء » ^(٢) . وفي رواية قال : « حرمت عليه » فقالت : لا تقل ذلك يا رسول الله ، إنّ لي صبية صغار إن ضممت إليّ جاعوا ، وإن ضممتهم إلى أبيهم ضاعوا . فأعاد النبي ﷺ قوله الأول فجعلت تراجع رسول الله ﷺ مقاتلتها الاولى ، وكلّما قال لها رسول الله ﷺ قوله الأول هتفت وقالت : أشكو إلى الله ممّا لقيت من زوجي حال فاقتي ووحدي ، وقد طالت معه صحبتي ، ونفضت له بطني . وكانت ترفع في كلّ ذلك رأسها إلى السماء وتقول : اللهم أنزل على لسان نبيك ﷺ ، فقامت عائشة تغسل الشقّ الآخر من رأسه وهي ما زالت في مراجعة الكلام مع رسول الله ﷺ وبثّ الشكوى إلى الله حتى نزل جبرئيل بهذه الآيات الأربع ^(٣) .

وفي رواية : كلّما قال لها رسول الله ﷺ « حرمت عليه » هتفت وشكت إلى الله ، فبينما هي كذلك إذ تردّد وجه رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآيات ^(٤) ، وقريب من الروایتين مروى عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ، والصادقين عليهما السلام ^(٥) .

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَمْ نَوْعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣) و (٤)﴾

ثمّ بيّن الله بطلان حكم الجاهلية في امرأة ظاهر منها زوجها أنها تصير حراماً أبدياً على زوجها ، ونسخه بقوله : ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ﴾ أيّها المسلمون ، ويقولون لأزواجهم : أنت عليّ كظهر أمّي ، اجتناباً ﴿مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ وأزواجهم ، لا يحرم على أزواجهنّ بجهة الامومة ، و﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ لا حقيقة ولا تنزيلاً من الله ﴿إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ الحقيقية ، وما والداتهم الواقعية ﴿إِلَّا﴾ النساء ﴿اللَّائِي﴾

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٣٨٨ ، مجمع البيان ٩ : ٣٧١ .

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٤٩ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٣٨٨ .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٤٩ .

(٥) تفسير القمي ٢ : ٣٥٣ ، الكافي ٦ : ١٥٢ / ١ ، من لا يحضره الفقيه ٣ : ٣٤٠ / ١٦٤١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٤٣ .

وَلَدْنَهُمْ ﴿وَوَضَعْنَهُمْ عَلَى الْأَرْضِ﴾ **﴿وَإِنَّهُمْ﴾** الأزواج **﴿لَيَقُولُونَ﴾** بقولهم : إِنْ هَئِن كَانَتْهُمْ فِي الْحَرَمَةِ الْأَبَدِيَّةِ **﴿مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ﴾** ومخالفا للشرع والعقل من الكلام **﴿وَزُورًا﴾** وباطلا **﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ﴾** وكثير التجاوز عن الذنوب التي منها هذا القول ، إن تاب أو إن لم يتب **﴿غَفُورٌ﴾** وستار للمعاصي بجوده وكرمه.

ثم أنه تعالى بعد بيان عدم تأثيره [في] تأييد حرمة الزوجة على الزوج ، بين ما يترتب عليه في دين الاسلام بقوله : **﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾** ويقولون لمن هذا القول المنكر **﴿ثُمَّ﴾** يندمون **﴿وَيَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾** من الظَّهَار ، ويرجعون عما عزموا عليه من الاجتناب من الزوجة بقولهم ذلك إلى إلغائه والاستمتاع منها. وقيل : يعني يعودون إلى ما حرّموا على أنفسهم بلفظ الظَّهَار من الاستمتاع ^(١) ، وعليه نزل القول منزلة القول فيه **﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾** واعتاق إنسان مملوك من قيد الملكية واجب عليه ، سواء أكان المملوك ذكرا أو انثى ، صغيرا أو كبيرا ، مؤمنا أو كافرا ، ولا بدّ أن يكون التحرير **﴿مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا﴾** ويتلاقيا بشهوة واستمتاع **﴿ذَلِكَ﴾** التحرير أيها المؤمنون ليس لتعريضكم للشواب بالتحرير ، بل الغرض إنكم **﴿تُوَعِّظُونَ﴾** وتنزجرون **﴿بِهِ﴾** مما ارتكبتم من القول المنكر والزور ، وترتدعون عنه ، أو تؤمرون به **﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾** من الظَّهَار والتكفير ونحو ذلك من القليل والكثير **﴿خَيْرٌ﴾** ومطلع ، ومجازيكم عليه **﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾** من المظاهرين الرقبة بأن لا يضمملكها ولا يمكنه تملكها بالعوض لفقره ، أو لعدم وجودها ^(٢) في بلده ونواحيه حين إرادة التكفير **﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾** هلالين **﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾** واجب عليه بأن يصوم شهرا هلاليا ويوما من الشهر الآخر متواليين بلا فصل بين الأيام ، ثم يتم الشهر الآخر متواليا أو متفرقا **﴿مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا﴾** ويتجمعا ^(٣) ويتقاربا بشهوة **﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾** صيام شهرت بالكيفية المذكورة ، ولم يطق ذلك لضعف البنية أو للهرم أو للمرض أو لخوفه **﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾** وإشباع هذا العدد من الفقراء بالإباحة أو بتمليك كل واحد مدّا من الطعام قبل أن يتماسا ، وإنما جعلنا **﴿ذَلِكَ﴾** الحكم الموافق للحكمة بالبيان المعجز **﴿لِتُؤْمِنُوا﴾** وتصدّقوا **﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** ولا تستمروا على حكم الجاهلية ، من القول بأنّ الظَّهَار أشدّ أنواع الطلاق ، وكونه محرّما أبديا للزوجة **﴿وَتِلْكَ﴾** الأحكام **﴿خُدُودُ اللَّهِ﴾** وشرائعه المقرّرة في دينه الذي هو مرتضيه ^(٤) ، لا بدّ من إطاعتها والعمل بها **﴿وَاللَّكَافِرِينَ﴾** والمنكرين لها في الآخرة **﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** وموجع غايته.

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٥٦ ، تفسير أبي السعود ٨ : ٢١٦ .

(٢) في النسخة : وجوده .

(٣) في النسخة : يجامعا .

(٤) في النسخة : مرضية .

روي أنّ النبي ﷺ أرسل إلى أوس بن الصامت ، وقال : « ما حملك على ما صنعت ؟ » فقال الشيطان : فهل من رخصة ؟ فقال : نعم. وقرأ عليه الأربع آيات ، وقال له : هل تستطيع العتق ؟ فقال : لا والله ^(١) . وفي رواية : قال : إذن يذهب جلّ مالي .

فقال : « هل تستطيع الصوم ؟ » فقال : لا والله ، لو لا إنيّ كل في اليوم مرة أو مرتين لكلّ بصري ولظننت أني أموت ^(٢) . وفي رواية قال : فصيام شهرين متتابعين ؟ قال : يا رسول الله ، إذا لم أكل في اليوم ثلاث مرات كلّ بصري ، وخشيت أن تعشو عيني .

فقال له : « هل تستطيع أن تطعم ستين مسكينا ؟ » فقال : لا والله يا رسول الله ، إلا أن تعينني منك بصدقة ، فأعانه بخمسة عشر صاعا ، وأخرج أوس من عنده مثله ^(٣) . وفي رواية : قال ﷺ : « اعينك بخمسة عشر صاعا ، وأنا أدعو لك بالبركة » وتلك البركة بقيت في آله ^(٤) .

عن الباقر عليه السلام : أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال : إنّ امرأة من المسلمات أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إنّ فلانا زوجي ، وقد نثرت له بطني ^(٥) ، وأعنته على دنياه وآخرته ، لم ير منّي مكروها ، أشكوه إلى الله وإليك. فقال ﷺ : ممّا تشكّيه ؟ قال : إنّ قال أنت عليّ كظهر أمي ، وقد أخرجني من منزلي ، فانظر في أمري .

فقال لها رسول الله ﷺ : ما أنزل الله تبارك وتعالى كتابا أفضي فيه بينك وبين زوجك ، وأنا أكره أن أكون من المتكلفين ، فجعلت تبكي وتشكّي ما بها إلى الله عزّ وجلّ ، وإلى رسول الله ﷺ ، وانصرفت .

قال : « فسمع الله مجادلتها لرسول الله ﷺ في زوجها ، وما شكت إليه ، فأنزل الله عزّ وجلّ ذلك قرآنا : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ * ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ يعني محاورتها لرسول الله ﷺ في زوجها ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ ... ﴾ الآية . «

قال : « فبعث رسول الله ﷺ إلى المرأة فأنته ، فقال لها : جيئني بزواجك ، فأنته به ، فقال له : اقلتي لامرأتك هذه أنت عليّ كظهر أمي ؟ فقال : قد قلت لها ذلك. فقال له رسول الله ﷺ : قد أنزل الله تبارك وتعالى فيك وفي امرأتك قرآنا ، فقرأ عليه ما أنزل الله ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَعَفُوْا غُفُورٌ ﴾

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٤٩ .

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٤٩ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٩٥ .

(٣) مجمع البيان ٩ : ٣٧١ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٩٥ .

(٥) نثرت المرأة بطنها : كثر ولدها .

ثم قال : فضمّ إليك امرأتك ، فأتاك قد قلت منكرا من القول وزورا ، وقد عفا الله عنك وغفر لك ولا تعد. قال : فانصرف الرجل وهو نادم على ما قاله لامرأته.

وكره الله ذلك للمؤمنين بعد ، وأنزل الله ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ يعني ما قال الرجل الأول لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي. قال : فمن قال بعد ما عفا الله وغفر للرجل الأول ، فإنّ عليه ﴿فَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا﴾ يعني مجامعتها ﴿ذَلِكَ تُوَعِّظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ﴿فجعل الله عقوبة من ظاهر بعد النبي ﷺ هذا ، ثم قال : ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ قال : هذا حدّ الظهار . «

ثم قال : « لا يكون ظهار في يمين وإضرار ، ولا في غضب ، ولا يكون ظهار إلّا على طهر من غير جماع بشهادة شاهدين مسلمين » (١) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَخْصَاةُ اللَّهِ وَسُوءُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥) و (٦)﴾

ثم لما كان تغيير حكم الجاهلية ثقيلًا على المشركين ، وسببا لشدة عداوتهم ، هدّد سبحانه المعاندين للرسول ﷺ بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ويعاندونهما ، أو يضعون حدودا وأحكاما غير حدودهما وأحكامهما ﴿كُبِتُوا﴾ واخزوا واذلّوا في الدنيا ﴿كَمَا كُبِتَ﴾ واخزي واذلّ الأقسام ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بمعاندتهم لرسولهم استكبارا عليهم ، كقوم نوح وعاد وثمود ﴿وَالْحَالُ إِنَّا﴾ ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ودلائل واضحة على صدق الرسول وصحة ما جاء به من الأحكام والحدود ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ بالله والرسول والمنكرين لأحكامهما أو الكافرين بتلك الآيات في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ومذلّ يذهب بعزّهم وكبرهم.

ثم بالغ سبحانه في تهديدهم بقوله : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ ويخرجهم من القبور أحياء ﴿جَمِيعاً﴾ لا يترك منهم أحدا ، أو مجتمعين في حالة واحدة ﴿فَيُنَبِّئُهُمُ﴾ الله في ذلك اليوم ، وينبّههم على رؤوس الأشهاد تخجيلا وتوبيخا لهم وتشهيرا لحالهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا وارتكبوا فيها من الكفر ومعاندة الرسول وغيرهما من العصيان الذي ﴿أَخْصَاةُ اللَّهِ﴾ وأحاط به من الكمية والكيفية والزمان

(١) الكافي ٦ : ١٥٢ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٤٣ .

والمكان وسائر مشخصاته ﴿و﴾ هم ﴿نَسُوهُ﴾ استحقاراً له وتهاوناً به ﴿وَاللَّهُ﴾ العظيم الخالق لكل شيء ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الموجودات ومخلوقاته وأحوالها ، وعلى جميع أحوال عبادهم وأفعالهم وضمائرهم المكتومات في خواطرهم ﴿شَهِدٌ﴾ ومطلع لا تخفى عليه خافية.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعَادُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُئْسَ الْمَصِيرُ (٧) و (٨)﴾

ثم أكد سبحانه سعة علمه بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ، ولم تعلم علماً يكون كالمشاهدة ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ بالذات ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ السبع ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الحقيق والجليل ، والتقدير والقطير ، والمحسوس وغير المحسوس.

عن ابن عباس ، قال : نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو ، وصفوان بن أمية ، كانوا يوماً يتحدثون فقال أحدهم : أترى أن الله يعلم ما نقول ؟ فقال الآخر : يعلم بعضاً وقال الثالث : إن كان يعلم بعضه فهو يعلم كله ، وصدق لأن من يعلم بعض الأشياء بغير سبب ، فقد علمها كلها ؛ لأن كونه عالماً بغير سبب ثابت له مع كل معلوم ، فنزلت ^(١) .

﴿مَا يَكُونُ﴾ وما يوجد ﴿مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ من الأشخاص ومسايرتهم في حال من الأحوال ﴿إِلَّا﴾ في حال ﴿هُوَ﴾ تعالى ﴿رَابِعُهُمْ﴾ وحاضر عندهم ومشارك معهم في الاطلاع عليها ﴿وَلَا﴾ نجوى ﴿خَمْسَةٍ﴾ من الأشخاص ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى ﴿سَادِسُهُمْ﴾ في العلم والاطلاع. قيل : تخصيص العددين بالذكر لخصوص الواقعة ^(٢) ، فإن المجتمعين في النجوى كانوا مرة ثلاثة ، ومرة خمسة ، أو لكون العدد الوتر أشرف من الزوج ^(٣) فاكتمى بذكر الوترين الأولين ، أو لكون الغالب في التشاور يكون من ثلاثة إلى الستة ، ليكونوا أقل لفظاً ، وأجدر رأياً ، واكتم سرّاً.

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٦٥ ، تفسير روح البيان ٩ : ٣٩٨ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٣٩٨ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٦٥ .

ثم عَمَّ الحكم بقوله : ﴿وَلَا أَذْنَى﴾ وأقل ﴿مِنْ ذَلِكَ﴾ العدد كالاثنين والواحد ﴿وَلَا أَكْثَرَ﴾ منه كالسنة وما فوقها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى ﴿مَعَهُمْ﴾ بالعلم والاحاطة لا يخفى عليه نجواهم ﴿أَيَّنَ مَا كَانُوا﴾ وفي أي مكان اجتمعوا وتناجوا ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ﴾ ويخبرهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من خير أو شر ، وطاعة أو عصيان ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تفضيحا للعصاة ، وتوبيخا لهم ، وتشهيرا لفضل المطيعين ، وتبشيرا لهم بالكرامة ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء والأعمال الجليات والخفيات ﴿عَلِيمٌ﴾ ومحيط .

ثم روي أنّ اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ، ويجتمعون ثلاثة وخمسة ، ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين ، يريدون أن يغيضوهم ، فنهاهم النبي ﷺ ، ثم عادوا لمثل فعلهم ^(١) ، فوبّخهم الله سبحانه على ذلك بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ، ولم تنظر ﴿إِلَى الَّذِينَ نُهُوا﴾ من جانب الله ﴿عَنِ النَّجْوَى﴾ والمكاملة سرا ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ من النجوى ويكرّرونه .

ثم بيّن سبحانه النجوى التي نهوا عنها ^(٢) بقوله : ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ﴾ ويسارون بينهم ﴿بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ للمؤمنين من المكر بهم أو بشيء يسوؤهم ﴿وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ في نهيه عن النجوى ﴿وَإِذَا جَاؤُكَ﴾ يا محمد ﴿حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ قيل : كانوا يقولون : السام عليك ، ويريدون بالسام الموت أو القتل بالسيف ، ويوهمون أنّهم يقولون : السلام عليك ^(٣) . وقيل : كانوا يقولون : أنعم صباحا ، وهو تحية الجاهلية ، وتحية الله للمرسلين هي السلام ^(٤) . ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وفيما بينهم إذا خرجوا من عندك : ﴿لَوْ لَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ﴾ وهلا بيتلينا بالعقوبة ﴿بِمَا نَقُولُ﴾ من الدعاء بالشر ، أو تحية الجاهلية ؟

ثم ردّهم الله بقوله : ﴿حَسْبُكُمْ﴾ وكافهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ في التعذيب ، فاتّهم يوم القيامة ﴿بِصَلْوَتِهَا﴾ ويدخلونها بعنف ويقاسون حرّها لا محالة ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ والمرجع لهم جهنّم .

روي أنّ عائشة سمعت قول اليهود ، فقالت : عليكم السام والذام واللعن . فقال النبي ﷺ : « يا عائشة ، ارفقي فإنّ الله يحب الرفق في كلّ شيء ، ولا يحبّ الفحش والتفحّش ، ألا سمعت ما رددت عليهم ، قلت : عليكم ، فيستجاب لي منهم » ^(٥) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ

(١) تفسير البضاوي ٢ : ٤٧٥ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٠٠ .

(٢) في النسخة : الذي نهوا عنه .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٤٠٠ .

(٤) تفسير البضاوي ٢ : ٤٧٥ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٠٠ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٤٠٠ و ٤٠١ .

الرَّسُولَ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * إِنَّمَا
النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٩) و (١٠)

ثم أمر سبحانه المؤمنين المخلصين بالعمل بخلاف ما يعمله اليهود والمنافقون بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا﴾ بالسنتكم وقلوبكم ﴿إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجَوْا بِالْإِنِّمِ﴾ والقبيح الذي يخصكم ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ والعمل
الذي يؤدي إلى الظلم بالغير ﴿وَمَقْصِدِ الرَّسُولِ﴾ ومخالفته ، ولا تسلكوا في نجواكم مسلك المنافقين ﴿وَوَ﴾
لكن ﴿تَنَاجَوْا بِالْبِرِّ﴾ والاحسان إلى أنفسكم وإلى إخوانكم المؤمنين ﴿وَالْتَّقْوَى﴾ وترك المعاصي والقيام
بالطاعة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ﴾ بعد خروجكم من القبور ﴿تُحْشَرُونَ﴾ وإلى مقام عدله تساقون ،
فيجازيكم حسب أعمالكم.

ثم أكد سبحانه النهي عن النجوى بما ذكر من الأمور القبيحة بقوله : ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى﴾ بتلك
الأمور تصدر ﴿مِنْ﴾ تسويات ﴿الشَّيْطَانِ﴾ وتزيينه في أنظاركم ﴿لِيَحْزَنَ﴾ قلوب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ حيث
توهمهم النجوى أن المتناجين بلغهم قتل أقربائهم وإخوانهم المؤمنين الذين خرجوا إلى الجهاد ، أو هزمهم ^(١)
العدو أو أصابتهم نكبة ﴿وَلَيْسَ﴾ الشيطان ، أو التناجي ﴿بِضَارِهِمْ شَيْئاً﴾ قليلاً وقدرا يسيراً ﴿إِلَّا بِإِذْنِ
اللَّهِ﴾ وإرادته ومشيقته. قيل : بأن يبين لهم كيفية مناجاة الكفار حتى يزول غمهم ^(٢) ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وحده
لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وإليه فليفوضوا أمورهم ، ولا يبالوا بنجوى المنافقين.

عن النبي ﷺ قال : « إذا كنتم ثلاثة ، فلا يتناج اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه » ^(٣) .
وقيل : إن المراد بالنجوى في الآية الأخيرة الأحلام التي يراها الانسان في نومه فتحزنه ^(٤) .

في ذكر رؤيا فاطمة عليها السلام وما يدفع به ضرر رؤيا السوء

روى بعض العامة أن فاطمة عليها السلام رأت كأن الحسن والحسين أكلتا من أطيب جزور بعثه رسول
الله ﷺ إليهما فماتا ، فلما غدت سألت النبي ﷺ ، وسأل هو جبرئيل ، وسأل جبرئيل ملك الرؤيا
فقال : لا علم لي به ، فعلم أنه من الشيطان ^(٥) .

وعن الصادق عليه السلام قال : سبب نزول الآية أن فاطمة عليها السلام رأت في منامها أن رسول الله ﷺ
هم أن يخرج هو وفاطمة وعلي والحسن والحسين عليهم السلام من المدينة ، فخرجوا حتى جازوا حيطان المدينة ،
فعرض لهم طريقان ، فأخذ رسول الله ﷺ ذات اليمين حتى انتهى إلى موضع فيه

(١) في النسخة : انهمهم.

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٦٨ .

(٣) مجمع البيان ٩ : ٣٧٧ ، تفسير الصافي ٥ : ١٤٦ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٠٢ .

(٤) مجمع البيان ٩ : ٣٧٧ ، تفسير الصافي ٥ : ١٤٦ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٤٠٢ .

نخل وماء ، فاشترى رسول الله ﷺ شاة دراء - وهي التي في أحد اذنيه نقط بيض - فأمر بذبحها ، فلمّا أكلوا [منها] ماتوا [في] مكاهم ، فانتبهت فاطمة عليها السلام باكية ذعرة ، فلم تخبر رسول الله ﷺ بذلك.

فلما أصبحت جاء رسول الله ﷺ بحمار ، فأركب عليه فاطمة عليها السلام وأمر أن يخرج أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهما السلام من المدينة كما رأت فاطمة عليها السلام في نومها ، فلمّا خرجوا من حيطان المدينة ، عرض لهم طريقان ، فأخذ رسول الله ﷺ ذات اليمين حتّى انتهى إلى موضع فيه نخل وماء ، فاشترى رسول الله ﷺ شاة دراء ، كما رأت فاطمة ، فأمر بذبحها فذبحت وشويت ، فلمّا أرادوا أكلها قامت فاطمة وتنحّت ناحية منهم تبكي مخافة أن يموتوا ، فطلبها رسول الله ﷺ حتّى وقع عليها وهي تبكي فقال : ما شأنك يا بنتي ؟ قالت : يا رسول الله ، رأيت البارحة كذا وكذا في نومي ، وقد فعلت أنت كما رأيته ، فتنحيت عنكم لئلا أراكم تموتون.

فقام رسول الله ﷺ وصلى ركعتين ، ثمّ ناجى ربّه ، فنزل جبرئيل ، فقال : يا محمد ، هذا شيطان يقال له الزّهار ، هو الذي أرى فاطمة هذه الرؤيا ، ويؤذي ويرى المؤمنين في نومهم ما يغمّون به ، فجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال له : أنت الذي أريت هذه الرؤيا ، فقال : نعم يا محمد ، فبرق عليه ثلاث برقات قبيحة في ثلاثة مواضع.

ثمّ قال جبرئيل لمحمد ﷺ يا محمد ، إذا رأيت شيئا في منامك تركه ، أو رأى أحد من المؤمنين يقول : أعوذ بما عادت به ملائكة الله المقربون وأنبياء الله المرسلون وعباده الصالحون من شرّ ما رأيت من رؤياي ، وقرأ الحمد ، والمعوذتين ، وقل هو الله أحد ، ويتفل عن يساره [ثلاث] تفلات فإنّه لا يضّرّه ما رأى ، فأنزل الله عزّ وجلّ على رسوله : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ ... ﴾ الآية (١).

وعنه عليه السلام : « إذا رأى الرجل منكم ما يكره في منامه فليتحول من شقّه الذي كان عليه نائما ، وليقل : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ثمّ ليقُل : عذت بما عادت به ملائكة الله المقربون وأنبياءه المرسلون وعباده الصالحون من [شرّ ما رأيت ومن] شرّ الشيطان الرجيم » (٢).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١١)

(١) تفسير القمي ٢ : ٣٥٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١٤٦ .

(٢) الكافي ٨ : ١٤٢ / ١٠٦ ، تفسير الصافي ٥ : ١٤٧ .

ثم إنَّه تعالى بعد النهي عن النجوى التي توجب ^(١) التباعد وشدة الاتصال في المجلس ، أمر عباده بما يوجب التودّد والتحابب بقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صميم القلب ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ [سواء أ [كان القائل قريباً أو بعيداً ، أو وضعياً أو شريفاً : يا إخواني ﴿تَفَسَّحُوا﴾ وتوسّعوا ﴿فِي الْمَجَالِسِ﴾ والأماكن التي تجلسون فيها على المؤمنين الواردين عليكم ﴿فَأَفْسَحُوا﴾ ووسّعوا عليهم حتى يجلسوا بينكم ، فإذا تفسّحتم ووسّعتم في المكان على الواردين ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ﴾ ويوسّع ﴿لَكُمْ﴾ فيما تريدون التوسعة فيه من الصدور والرزق والقبر وغيرها.

في فضيلة أهل العلم

قيل : إنّ المراد مجلس النبي ﷺ ، كان الأصحاب يتضامون فيه تنافسا على القرب منه ، وحوفا على استماع الكلام ^(٢) .

عن ابن عباس : دخل ثابت بن قيس بن الشّمس في مسجد النبي ﷺ ، وقد أخذ القوم مجالسهم ، وكان يريد القرب من النبي ﷺ للوقر الذي كان في أذنه ، فوسّعوا له حتى قرب ، ثمّ ضايقه بعضهم ، وجرى بينه وبينهم كلام ، فوصف للرسول ﷺ محبة القرب منه ليستمع كلامه ، وأن فلانا لم يفسح له ، فنزلت هذه الآية ، فأمر القوم بأن يوسّعوا ولا يقوم أحد لأحد ^(٣) .

وقيل : إنّ الأصحاب كانوا يحبّون القرب من رسول الله ﷺ ، وكان الرجل يكره أن يضيّق عليه ، فرمى سأل [أخوه] أن يفسح له فيأبى ، فأمرهم الله بأن يتعاطفوا ويتحمّلوا المكروه ، وكان فيهم من يكره أن يمسه الفقراء ، وكان أهل الصّفة يلبسون الصوف ولهم روائح ^(٤) .

وعن مقاتل : أنّ النبي ﷺ كان يوم الجمعة في الصّفة ، وفي المكان ضيق ، وكان ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس من أهل بدر ، وقد سبقوا إلى المجالس ، فقاموا حيال النبي ﷺ ينتظرون أن يوسّع لهم ، فعرف رسول الله ﷺ ما يحملهم على القيام ، وشقّ ذلك على الرسول ﷺ ، فقال لمن حوله من أهل بدر : « قم يا فلان ، قم يا فلان » فلم يزل يقيم بعدّة نفر الذين هم قيام بين يديه ، فشقّ ذلك على من اقيم من مجلسه ، وعرفت الكراهة في وجوههم ، وطعن المنافقون في ذلك ، وقالوا : والله ما عدل على هؤلاء ، إنّ قوما أخذوا مجالسهم ، وأحبّوا القرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه ، فنزلت هذه الآية يوم الجمعة ^(٥) .

وقيل : إنّ المراد من التفسّح والتوسّع في مقاعد القتال ، وكان الرجل يأتي الصفّ فيقول : تفسّحوا

(١) في النسخة : الذي يوجب.

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٤٠٣.

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٦٩.

(٤) تفسير الرازي ٦٩ : ٢٦٨.

فيأبون حرصا على الشهادة^(١) ، والحق عموم الآية لجميع الأشخاص والمجالس ، فإنّ مورد النزول لا يختصّ العموم.

وقيل : إنّ المراد بالقائل رسول الله ﷺ ، فأنّه كان إذا دخل المسجد يقوم له الناس ، فنهاهم الله عن أن يقوموا له ، وقال : تفسّحوا له في المجالس^(٢) .

﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا﴾ وقوموا من مكانكم للتوسعة على الوارد ، أو انهضوا من مجلس الرسول ، ولا تطيلوا الجلوس عنده فتملّوه ، أو انهضوا إلى الصلاة والجهاد وغيرهما من الأعمال الخيرية ﴿فَانشُرُوا﴾ وانهضوا وقوموا طاعة للأمر ، وتواضعا للمؤمنين ، وتوسعة للاخوان ، ومسارعة للخيرات ، إذن ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ﴾ بالنصر وحسن الذكر وكمال النفس في الدنيا والإيواء في غرف الجنان في الآخرة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ بإيمانهم وعملهم الصالح ﴿وَوُفِّرِ﴾ يرفع ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ خاصة لجهة علمهم المقارن للعمل ﴿دَرَجَاتٍ﴾ رفيعة عالية في الفضل والإكرام في الدنيا والآخرة مراتب سامية في الروض والرضوان.

ذكر فضيلة العلماء

عن النبي ﷺ : « بين العالم والعابد مائة درجة ، بين كلّ درجة حضر^(٣) الجواد المضمر سبعين سنة »^(٤) .

وفي رواية أخرى عنه ﷺ : « فضل العالم على العابد كفضلي على امتي »^(٥) .

وفي أخرى : « كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب »^(٦) .

وعنه ﷺ أيضا : « فضل العالم على الشهيد درجة ، وفضل الشهيد على العابد درجة ، وفضل النبي على العالم درجة ، وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ، وفضل العالم على سائر الناس كفضلي على أديانهم »^(٧) .

وعن الباقر عليه السلام : « عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد »^(٨) .

ثمّ بالغ سبحانه في الحثّ على الطاعة بقوله : ﴿وَاللَّهُ﴾ بكلّ شيء ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أيّها المؤمنون من امتثال أوامره والانزجار عن معاصيه ﴿خَيْرٌ﴾ ومطلّع ، فيجازيكم على الطاعة بأفضل الثواب ،

(١) جوامع الجامع : ٤٨٥ ، تفسير الرازي ٢٩ : ٢٦٩ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٥٦ ، تفسير الصافي ٥ : ١٤٨ ، وفيهما : فقال : تفسّحوا ، أي وسّعوا له في المجلس .

(٣) الحضر : عدوّ ذو وثب .

(٤) جوامع الجامع : ٤٨٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١٤٨ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٠٤ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٤٠٤ .

(٦) جوامع الجامع : ٤٨٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١٤٨ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٠٤ .

(٧) مجمع البيان ٩ : ٣٨٠ ، تفسير الصافي ٥ : ١٤٨ .

(٨) الكافي ١ : ٢٥ / ٨ ، تفسير الصافي ٥ : ١٤٨ .

ويعذبكم على عصيانه بأسوء العذاب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تُفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٢) و (١٣)﴾

ثم لما علم الله المؤمنين ما يتناجون به من البر والتقوى ، عظم الرسول ﷺ ونجواه بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ وكالتموه سرا في بعض شؤونكم كما عن بعض (١) ، أو في استفسار حال رؤياكم كما عن آخر (٢) ﴿فَقَدِّمُوا﴾ وأعطوا المستحقين ﴿بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ﴾ وقبلها ﴿صَدَقَةٌ﴾ ومقدارا ما من المال تقربا إلى الله ﴿ذَلِكَ﴾ التصديق ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون في دينكم من تركه ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لأنفسكم من رجس المعاصي وذنس البخل.

عن ابن عباس : لما أكثر المسلمون السؤال على رسول الله ﷺ حتى أسأموه وأملّوه ، أراد الله أن يخفف عن نبيه ﷺ فنزلت الآية ، وأمرهم الله بتقديم الصدقة عند نجواه ، فكف كثير من الناس عن المناجاة وشحّوا (٣) .

قيل : أراد سبحانه بهذا الأمر تعظيم النبي ﷺ ، ونفع الفقراء ، والزجر عن الإفراط في السؤال ، وتمييز المخلص عن المنافق ، ومحبة الآخرة عن محبة الدنيا ، إذ لم يناج أحد من أصحابه عشرة أيام إلا علي عليه السلام (٤) .

أقول : وأراد سبحانه تفضيح أغنياء الصحابة كأبي بكر على ما ادّعاه شيعته من أنه كان غنيا ، وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وأضرابهم ، وظهور فضيلة أمير المؤمنين وخلوصه في الإيمان ، وحبّه للآخرة ومناجاة الرسول ﷺ .

روى بعض العامة عن علي عليه السلام أنه قال : « إنَّ في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي ، ولا يعمل بها أحد بعدي ، كان لي دينار فاشتريت به عشرة دراهم ، فكنت إذا ناجيت الرسول ﷺ تصدّقت بدرهم » (٥) .

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٤٠٤ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٤٠٥ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٧١ .

(٤) تفسير جوامع الجامع : ٤٨٥ .

(٥) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٧١ ، تفسير البيضاوي ٢ : ٤٧٦ ، تفسير أبي السعود ٨ : ٢٢١ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٠٥ .

وروى الفخر الرازي عن كثير من مفسري العامة ، عن ابن عباس : أنَّ المسلمين نحووا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يتصدَّقوا ، فلم ينجحه أحد إلا علي عليه السلام تصدَّق بدينار ، ثم نزلت الرخصة (١) .
ورواها عن عبد الله بن عمر أنه قال : كان لعلي عليه السلام ثلاث لو كانت لي واحدة منهم كانت أحب إلي من حمر النعم : تزويجه فاطمة عليها السلام ، وإعطاؤه الراية يوم خيبر ، وآية النجوى (٢) .

في ردِّ قول القاضي وبيان فساد قول الفخر الرازي

وقال القاضي أبو بكر : والأكثر في الروايات أنه تفرَّد بالتصدَّق قبل مناجاته ، ثم ورد النسخ ، وإن كان قد روي أيضا أنَّ أفاضل الصحابة وجدوا الوقت وما فعلوا ذلك (٣) .
والعجب إنَّه لتوَّعَّله في الضلال ، وتعصَّبه لمذهبه الباطل ، تردَّد فيما اتفقت عليه روايات العامة والخاصة من إطاعة علي عليه السلام أمر الله وعصيان مشايخه وأئمته ، وهم بدفع الطعن عنهم بقوله : « وإن ثبت أنه احتصَّ بذلك ، فلأنَّ الوقت لم يتسع لهذا الفرض ، وإلا فلا شبهة أنَّ أكابر الصحابة لا يقعدون عن مثله » (٤) .

أقول : فيه أنَّ دعوى ضيق الوقت بعد رواياتهم بأن الحكم كان باقيا عشرة أيام ممَّا تضحك به الثكلية ، وأما أفاضل الصحابة كسلمان وأبي ذرٍّ والمقداد وعمَّار وحذيفة وأضرابهم ، كانوا لفقرهم خارجين عن هذا الحكم بقوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا ﴾ ما تتصدَّقون به لا يجب عليكم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ للمذنبين ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بالمؤمنين ، لا يكلفهم بما لا يطيقون .

والحاصل إنَّ أفاضل الصحابة الذين اتفقنا على فضلهم وخلوص إيمانهم كانوا فقراء غير متمكِّنين من التصدَّق ، وأما غيرهم فقد بخلوا بالتصدَّق لعدم اشتياقهم إلى صحبة النبي ﷺ ومناجاته ولم يسو عندهم صحبة النبي ﷺ بدهم ، ولذا صار تركهم الصدقة من أكبر المطاعن عليهم ، وتصدَّق أمير المؤمنين عليه السلام بعشرة دراهم من أعظم فضائله ، ولا يصغى إلى قول القاضي بأن الصحابة ما وجدوا الوقت (٥) .

وبذلك يظهر فساد ما ذكره الفخر الرازي من أنَّه على تقدير أنَّ الصحابة وجدوا الوقت ولم يفعلوا ، فهذا لا يجزئ إليهم طعنا ؛ لأنَّ ذلك الإقدام على هذا العمل ممَّا يضيق به قلب الفقير ، فأنَّه لا يقدر على مثله فيضيق قلبه ، ويوحش قلب الغني ، فأنَّه لما لم يفعل الغني وفعله غيره ، صار ذلك الفعل سببا للطعن فيمن لم يفعل ، فهذا الفعل لما كان سببا لحزن الفقراء ووحشة الأغنياء ، لم يكن في تركه كبير

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٧١ و ٢٧٢ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٤٠٦ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٧٢ .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٧٢ .

(٥) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٧٢ .

مضرة ، لأنّ الذي يكون سببا للألفة أولى ممّا يكون سببا للوحشة ^(١) .

والعجب أنّه يظهر من آخر كلامه أنّ ترك الصدقة كان أولى من التصدّق ، وهو مناف للروايات الدالة على فضيلة أمير المؤمنين عليه السلام بالعمل بالآية والتصدّق قبل مناجاته النبي صلى الله عليه وآله ، وتوبيخ الله سبحانه تارك التصدّق بقوله : ﴿أَشْفَقْتُمْ﴾ أيّها المسلمون وخفتهم من ﴿أَنْ تُقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ﴾ وقبل مسارّتكم مع النبي صلى الله عليه وآله ﴿مَصَدَقَاتٍ﴾ قيل : إفراد الصدقة أولا لكفاية شيء قليل منها ، وإتيانها بصيغة الجمع هنا لكثرة التناجي والمناجي ^(٢) .

ثمّ لما ظهر حال المؤمن الصادق في إيمانه المشتاق إلى مكالمه النبي صلى الله عليه وآله مثل أمير المؤمنين عليه السلام ، والمنافق غير المشتاق ، نسخ سبحانه الحكم بقوله : ﴿فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ما امرتم به ، وبخلتم وشقّ عليكم بذل أقلّ قليل من أموالكم لدرك مكالمه النبي صلى الله عليه وآله ، وتحصيل علم دينكم ، وهو ذنب ، رفع ذلك الحكم ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ وقبل ندامتكم ، وعفا عنكم ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما يكلفانكم ^(٣) من فعل سائر الواجبات وترك المحرّمات ﴿وَاللَّهُ﴾ العالم بكلّ شيء ﴿خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليه إن خيرا فخير ، وإن شرا فشرّ.

قال أبو مسلم الأصفهاني من مفسّري العامة : إنّ الآية ليست ناسخة ، فإنّ المنافقين كانوا يمتنعون من بذل الصدقات ، وإن قوما تركوا النفاق وآمنوا ظاهرا وباطنا ، فأراد الله أن يميّزهم ، فأمر بتقديم الصدقة على النجوى لتمييز هؤلاء الذين آمنوا إيمانا حقيقيا عمّن بقي على نفاقه ، وإذا كان هذا التكليف لهذه المصلحة المقدّرة بذلك الوقت ، لا جرم يقدر هذا التكليف بذلك الوقت ^(٤) .

في ردّ أبي مسلم الأصفهاني

أقول : حاصل قوله : إنّ مصلحة التكليف بالصدقة قبل النجوى ، كانت في الواقع وفي علم الله مقدّرة بغاية مخصوصة ، فوجب انتهاء التكليف عند انتهاء مقتضيه إلى الغاية ، ومقتضى كلامه أنّ غير أمير المؤمنين عليه السلام من أغنياء الصحابة كانوا منافقين ، لامتناعهم عن التصدّق ، وبعد ظهور حالهم ارتفع التكليف .

ثمّ اعلم أنّه لا معنى للنسخ عندنا إلّا إطلاق الحكم في الظاهر وتقييده في الواقع بوقت معين ، وإلّا يلزم البداء ، ولذا توافقت الروايات العامة والخاصة في كون الآية ناسخة لإيجاب الصدقة .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٧٢ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٤٠٦ .

(٣) في النسخة : يكلفونكم .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٧٢ .

عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * لَنْ
تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ (١٤) و (١٧)

ثم لما افتضح المنافقون بين سبحانه سوء حال المنافقين ، وأظهر التعجب من سوء صنيعهم بقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا من يعقل ، أو يا محمد ، ولم تنظر ﴿إِلَى﴾ المنافقين ﴿الَّذِينَ﴾ ي ﴿تَوَلَّوْا﴾ ن ، وتوادّوا ﴿قَوْمًا﴾ من اليهود ، مع أنّهم قوم ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ولعنهم حيث ينقلون أسرار المؤمنين إليهم ، والعجب أنّ هؤلاء المنافقين مذبذبين ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ وليسوا من زمركم ، لكفرهم في الباطن ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ لعدم اعتقادهم بدين اليهود ، وإذا لقوكم قالوا : إنّنا مسلمون ، أو المراد إنّهم يشتمون الله ورسوله ، ويكيدون المسلمين ، وإذا قيل لهم : إنّكم فعلتم كذا وكذا ، أو قلتم كذا وكذا ، قالوا : والله ما فعلنا ذلك وما قلنا ذلك ﴿وَيَخْلِفُونَ﴾ ويقسمون بالله ﴿عَلَى﴾ ادّعائهم ﴿الْكَذِبِ﴾ تحفظاً على أنفسهم من القتل ، وعلى أموالهم من النهب ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ كذب ما حلفوا عليه ، وهذا الحلف في غاية الشناعة والقباحة .

ثم هدّدهم سبحانه بقوله : ﴿أَعَدَّ اللَّهُ﴾ وهيباً ﴿لَهُمْ﴾ في القبر على قول بعض ، أو في الآخرة ﴿عَذَاباً شَدِيداً﴾ لا يمكن تحديد شدّته وتوصيفها ، لأجل ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر بالله ورسوله ، وموادّة اليهود واليمين الغموس ^(١) .

روي أنّ النبي ﷺ كان في حجرة من حجراته ، فقال لأصحابه : « يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبّار ، وينظر بعين الشيطان » فدخل عبد الله بن نبتل ، وكان أرزق ، فقال ﷺ : على م تشمتني أنت وأصحابك ؟ فحلف بالله ما فعل . فقال ﷺ : « فعلت » فانطلق بأصحابه فحلفوا بالله ما سيّوه ، فنزلت الآيات ^(٢) .

ثم ذمّهم سبحانه بقوله : ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الفاجرة حين الخوف من المسلمين ﴿جُنَّةً﴾ وترسا يحفظون به أنفسهم من سيوف المسلمين ، وأموالهم من النهب ﴿فَصَدُّوا﴾ ومنعوا الناس ﴿عَنْ﴾ الدخول في دين الاسلام ، وسلوك ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والعمل بما يوجب قرحهم إليه في خلال أمنهم وسلامتهم ، بإدخال الشبهات في القلوب ، وذكر المطاعن للاسلام ، وتعييب المسلمين ﴿فَلَهُمْ﴾ في

(١) اليمين الغموس : الكاذبة ، تغمس صاحبها في الإثم .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٤٠٨ .

الآخرة بسبب كفرهم وصدّهم طلبا للعزّ عند الكفّار ، وتكبّرا على الرسول ﷺ ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لهم غاية الهوان ، ومذلّ لهم أشدّ الدلّ ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ ولن تكفيهم للوقاية ، ولا تنفعهم أبدا ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ التي جمعوها في الدنيا ﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ الذين يفتخرون بهم ﴿مِنْ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ﴾ إذا دخلوا النار ﴿شَيْئاً﴾ قليلا من الإغناء والنفع ﴿أُولَئِكَ﴾ البعيدون من ساحة رحمة الله ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وملازموها أو مالكوها : لأنهم اكتسبوها بأعمالهم في الدنيا ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ومقيمون أبدا ، لا نجاة لهم منها. روي أن واحدا منهم قال : إن كان ما يقول محمد حقا لندفعنّ العذاب من أنفسنا بأموالنا وأولادنا ، فنزلت الآية تكذيبا له ^(١) .

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُخْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١٨)

ثم بيّن سبحانه وقت ابتلائهم بالعذاب وخلودهم في النار بقوله : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ ويخرجهم من القبور أحياء ، ويسوقهم ﴿جَمِيعاً﴾ إلى المحشر. وقيل : المعنى : واذكر يا محمد يوم يبعث الله جميعا ^(٢) ﴿فَيُخْلِفُونَ﴾ هؤلاء المنافقون في ذلك اليوم حين حضورهم في مقام عتاب الله ﴿لَهُ﴾ كذبا بقولهم: والله ربّنا ما فعنا كذا وكذا ، وما كنا مشركين ﴿كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أيها المسلمون في الدنيا كذبا بقولهم: والله إنّنا منكم ، وما هم منكم ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ ويتوهمون ﴿أَنَّهُمْ﴾ بتلك الأيمان الكاذبة ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من جلب نفع أو دفع ضرر ، كما كانوا في الدنيا عليه حيث كانوا يدفعون بالأيمان الكاذبة عن أنفسهم وأموالهم ضرر المسلمين ، ويجلبون إليهم فوائد ﴿أَلَّا﴾ تنبهوا أيها العقلاء ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ والمصرّون على الكذب إلى حدّ لا يتصوّر فوقه ، حيث كانوا يتجاسرون عليه بين يدي علام الغيوب ، وزعموا أنّ الحلف يروّج ^(٣) به الكذب لديه ، كما يروّجه عند الغافلين.

قيل : إنّ ذكر ﴿أَلَّا﴾ التنبيهية مشعر بتوغلهم في التّفاق وتعوّدهم به بحيث لا ينفكّون عنه في الدنيا ولا في الآخرة ^(٤) .

﴿اسْتَخْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٩)

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٤٠٩ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٣٩٧ .

(٣) رَوّج السلعة : أنفقها ، ورَوّج الكلام : زبّته ، أو أجمه فلا تعلم حقيقته.

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٤٠٩ .

ثم بين سبحانه علّة إصرارهم على مخالفة الله وعصيانة بقوله : ﴿اسْتَحْوَذَ﴾ واستولى ﴿عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ وملك قلوبهم بحيث يسوقهم إلى طاعته فيما يريد منهم ﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ وأغفلهم عن التوجه إليه بحيث لا يخطر ببالهم تصوّر أنّهم مخلوقه ومربوبه ﴿أُولَئِكَ﴾ البعيدون عن الله وعن كلّ خير ﴿حِزْبَ الشَّيْطَانِ﴾ وجنده وأتباعه ﴿أَلَا﴾ أيّها العقلاء اعلموا ﴿إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ﴾ وجنده ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ والمتضرّرون بغاية الضرر في الدنيا والآخرة ، حيث فوّتوا على أنفسهم النعيم المؤبد ، وأبدلوه بالعذاب المحلّد.

عن القمي ، قال : نزلت في الثاني ، لأنّه مرّ رسول الله ﷺ وهو جالس عند رجل من اليهود ، يكتب خبر رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا...﴾ الآية. فجاء الثاني إلى النبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : « رأيتك تكتب من اليهود ، وقد نهي الله عزّ وجلّ عن ذلك ؟ » فقال : يا رسول الله ، كتبت عنه ما في التوراة من صفتك. وأقبل يقرأ ذلك على رسول الله ﷺ وهو غضبان. فقال رجل من الأنصار : ويليك أما ترى غضب النبي ﷺ عليك ؟ فقال : أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله ، إيّما كتبت ذلك لما وجدت [فيه] من خبرك. فقال له رسول الله ﷺ : « يا فلان ، لو أنّ موسى بن عمران فيهم قائما ، ثمّ أتيته رغبة عمّا جئت به ، لكنت كافرا بما جئت به ».

وهو قوله : ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي حجابا بينهم وبين الكفار ، وأيمانهم إقرارهم باللسان خوفا من السيف ودفع الجزية.

وقوله : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ قال : إذا كان يوم القيامة جمع الله الذين غضبوا آل محمد حقّهم ، فيعرض عليهم أعمالهم ، فيحلفون له إنّهم لم يعملوا منها شيئا ، كما حلفوا لرسول الله ﷺ في الدنيا حين حلفوا أن لا يردّوا الولاية في بني هاشم ، وحين همّوا بقتل رسول الله ﷺ في العقبة ، فلمّا أطلع الله نبيه وأخبره حلفوا إنّهم لم يقولوا ذلك ، ولم يهّموا به حين أنزل الله على رسوله : ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَتَّخِذُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾^(١). قال : إذا عرض الله عزّ وجلّ ذلك عليهم [في القيامة] ينكرون ويحلفون له ، كما حلفوا لرسول الله ﷺ وهو قوله : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً...﴾ الآية^(٢).

أقول : الظاهر تطبيق الآية على أعمالهم ، لا أنّه شأن نزولها.

(١) إلى هنا في تفسير القمي.

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٥٧ ، تفسير الصافي ٥ : ١٥٠.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا

وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢٠) و (٢١)

ثمَّ أنّه تعالى بعد بيان أنّ الكفار والمنافقين الذين هم حزب الشيطان هم الخاسرون ، بيّن سبحانه أنّهم أذلّ خلق في الدنيا والآخرة ، وأنّ العزّة والغلبة لله ولرسوله بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ﴾ ويعارضون ﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ويعاندونهما من الكفار والمنافقين ، ﴿أُولَئِكَ﴾ البعيدون من كلّ خير كائنون ﴿فِي﴾ زمرة ﴿الْأَذَلِّينَ﴾ من خلق الله ، فإنّ ذلّ أحد الخصمين على حسب عزّ الخصم الآخر ، ومن الواضح أنّ عزّ الله لا نهاية له ، فلا بدّ أن يكون ذلّ خصومه لا نهاية له.

ثمَّ بيّن سبحانه عزّ المؤمنين الذين هم حزبه بقوله : ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ في اللّوح المحفوظ ، وقدّر في علمه والمكتوب فيه هو : والله ﴿لَأَغْلِبَنَّ﴾ على الأعداء المجادلين والمعارضين ﴿أَنَا وَرُسُلِي﴾ بالحجّة لدى الحاجة ، وبالسيف لدى المنازعة.

ثمَّ بيّن سبحانه علّة تلك الغلبة بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ لا يتصوّر فيه الضعف ، قدّير لا يطرؤه العجز ^(١) . ﴿عَزِيزٌ﴾ وغالب على جميع الموجودات ، لا يمنعه مانع عن إنفاذ إرادته. عن مقاتل : أنّه قال المؤمنون : لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهنّ ، رجونا أن يظهرنا الله على فارس والروم. فقال عبد الله بن أبي ريس المنافقين : أتظنون الروم وفارس كبعض القرى التي غلبتم عليها ، والله إنهم لأكثر عدداً وأشدّ بطشاً من أن تظنّوا فيهم ذلك ، فنزل قوله : ﴿كَتَبَ اللَّهُ...﴾ الآية ^(٢) .

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢٢)

ثمَّ لما بيّن سبحانه حال المنافقين ، وأنهم يتولّون اليهود وأهل الكتاب ، بيّن حال المؤمنين المخلصين بقوله : ﴿لَا تَجِدُ﴾ يا محمّد ، ولا يمكن أن ترى ﴿قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ عن صميم القلب والخلوص من شوب النفاق ﴿يُوَادُّونَ﴾ ويحابتون ﴿مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ويعاندونهما ، كأهل الكتاب والمشركين ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ هؤلاء المعاندون ﴿آبَاءَهُمْ﴾ الذين هم أكرم

(١) كذا ، والظاهر لا يطرؤ عليه العجز.

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٤١٠.

الناس عندهم ، ﴿أَوْ أَنْبَاءَهُمْ﴾ الذين هم أحبّ الناس إليهم ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ الذين هم أعزّ الناس لديهم ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ وأقرباءهم الذين هم أولى الناس بموادّتهم ، لامتناع اجتماع حبّ الله ورسوله في القلب مع محبة أعدائهما.

﴿أُولَئِكَ﴾ العظماء الذين تصلّبوا في دينهم ، ولا يوادّون أعداء الله ﴿كَتَبَ﴾ الله وأثبت ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ ورسّخه فيها ﴿وَأَيَّدَهُمْ﴾ وقوّاهم على القيام بوظائف الإيمان ﴿بِرُوحٍ﴾ حاصل ﴿مِنْهُ﴾ تعالى ، وهو نور القرآن على قول (١) ، أو الإيمان كما عن (الكافي) عنهما عليه السلام (٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « ما من أحد إلّا ولقلبه اذنان في جوفه ؛ اذن ينفث فيها الوسواس الخناس ، واذن ينفث فيها الملك ، فيؤيد الله المؤمن بالملك ، فذلك قوله : ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ » (٣) .
وعن الكاظم عليه السلام : « أنّ الله تبارك وتعالى أيّد المؤمن بروح منه تحضره في كلّ وقت يحسن فيه ويتقي ، وتغيب عنه في كلّ وقت يذنب فيه ويعتدي ، فهي معه تهتّز سرورا عند إحسانه ، وتسبخ في الثرى عند إساءته ... » الخبر (٤) .

وعن الباقر عليه السلام في قول رسول الله ﷺ : « إذا زنى الرجل فارقه روح الإيمان » . قال : « قوله تعالى : ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ » (٥) .

﴿وَيُدْخِلُهُمْ﴾ في الآخرة برحمته ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبساتين ذوات أشجار وقصور ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبدا ، والأعلى والأعظم من جميع النعم أنه ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بسبب إيمانهم وأعمالهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بسبب وفور إنعامه عليهم وإكرامه لهم في الدنيا والآخرة .
ثمّ لما بيّن أنّ الكفّار والمنافقين حزب الشيطان ، جعل المؤمنين الخالصين حزبه بقوله : ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ وجنده وأنصاره ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والفائزون بجميع الخيرات الدنيوية والاخرية ، كما أنّ حزب الشيطان هم الخاسرون المحرومون عن جميع الخيرات.

قيل : نزلت الآية في حاطب بن أبي بلتعة حين أخبر أهل مكة بمسير النبي ﷺ إليهم لما أراد فتحها (٦) .

قد سبق في آخر سورة الحديد ثواب تلاوتها. الحمد لله الذي منّ عليّ بالتوفيق لإتمام تفسيرها.

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٤١٣ .

(٢) الكافي ٢ : ٢ و ١٣ / ١ و ٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١٥١ .

(٣) الكافي ٢ : ٢ و ٢٠٦ / ٣ ، تفسير الصافي ٥ : ١٥٢ .

(٤) الكافي ٢ : ٢ و ٢٠٦ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٥٢ .

(٥) الكافي ٢ : ٢ و ٢١٣ / ١١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٥٢ .

(٦) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٧٧ .

في تفسير سورة الحشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * هُوَ الَّذِي

أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ (١) وَ (٢)﴾

ثم لما ختمت سورة المجادلة المختتمة ببيان كون الكفار والمنافقين حزب الشيطان ، وكون المؤمنين المخلصين حزب الله ، وأنّ الغلبة لله ولرسوله ، وذمّ المنافقين على موادّتهم لليهود ، نظمت سورة الحشر المبتدئة ببيان عظمة الله ، وكونه غالبا غير مغلوب ، وبيان غلبته على الكفار وذلتهم ، وبيان موالة المنافقين لهم ، فابتدأها بذكر أسمائه الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

ثمّ عظم ذاته المقدسة ببيان تسبيح جميع الموجودات له بقوله : ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ﴾ ونزهه عن كلّ ما لا يليق به جميع ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ذاتا وحالا ومقالا على حسبهم ، كما قال سبحانه : ﴿وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ وقال ابن مسعود : كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل ^(١) .

ثمّ وصف ذاته المقدسة بيانا لاستحقاقه التسبيح بالعزة بقوله : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ والغالب القاهر على كلّ شيء ، وبالحكمة البالغة بقوله : ﴿الْحَكِيمُ﴾ وتوطئته لبيان غلبته على أهل الكتاب وإذلالهم ، الذي هو من آثار عزّته ، وبيان إجلالهم الذي هو من مقتضيات حكمته بقوله : : ﴿هُوَ﴾ العزيز الغالب ﴿الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم طائفة بني النضير ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وأوطانهم في الوقت المقدّر ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ والإخراج من مكانهم إلى الشام.

حكى أنّ بني النضير وبني قريضة وبني قينقاع كانوا من أولاد هارون أخي موسى بن عمران ، نزلوا بيشرب ، واستوطنوا فيها انتظارا لبعثة النبي ﷺ الموعود في التوراة ، فلما هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ، عاهدهم على أن لا يكونوا له ولا عليه ، فلما ظهر ﷺ يوم بدر قالوا فيما بينهم : هذا النبيّ إلى المدينة ، عاهدهم على أن لا له ولا عليه ، فلما ظهر صلى الله عليه وله يوم بدر قالوا فيما بينهم : هذا النبيّ الموعود الذي نعتة في التوراة أنه لا تردّ له راية ، فلما انكسر جيش النبي ﷺ في احد ، شكّوا ونكثوا

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٤١٥ .

العهد.

فخرج كعب بن أشرف - أحد رؤساء بني النضير - في أربعين راكبا إلى مكة ، وحالفوا قريشا على قتال النبي ﷺ ، فلما رجع كعب إلى المدينة نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ ، وأخبره بنقض بني النضير عهدهم ، وتعاهدتهم قريشا على قتاله ، فأمر النبي ﷺ محمد بن مسلمة الأنصاري ، وكان أخا كعب بن أشرف من الرضاعة أن يقتله غيلة ، فأتاه ليلا فاستخرجه من بيته ، وقال : إني أتيتك لاستقرض منك شيئا من التمر ، فخرج إليه فقتله ، ورجع إلى النبي ﷺ وأخبره ، ففرح به ، لأنه أضعف قلوبهم ^(١) .

وفي بعض الأخبار : أنه ﷺ ذهب إلى بني النضير في نفر من أصحابه ، للاستعانة منهم في دية ، فقالوا : نعم يا أبا القاسم حتى تطعم وترجع بجاحتك ، وكان ﷺ جالسا إلى جنب جدار من بيوتهم ، فخلا بعضهم ببعض وقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل تلك الحالة ، فهل من رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فقال عمرو بن جحاش - أحد ساداتهم - : أنا لذلك. فقال لهم سلام بن مشكم - أحد ساداتهم - : لا تفعلوا ، والله ليخيرن بما همتم به ، إنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه. فلما صعد الرجل ليلقي الصخرة أتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام ﷺ مظهرا أنه يقضي حاجته ، وترك أصحابه في مجالسهم ، ورجع مسرعا إلى المدينة ، ولم يعلم من كان معه من أصحابه ، فلما استبطؤوه قاموا في طلبه ، فلقوا رجلا مقبلا من المدينة ، فسألوه فقال : رأيته داخل المدينة.

فأقبل أصحابه حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم بما أرادت بنو النضير ، فندم اليهود ، وقالوا : قد أخبر بما أردنا ، فأرسل محمد بن مسلمة إليهم : أن اخرجوا من بلدي - وهم كانوا في قرية زاهرة من أعمال المدينة - فلا تسكنوني بها ، فلقد هممت بما هممت من الغدر. فسكتوا ولم يقولوا حرفا ، فأرسل إليهم المنافقون أن أقيموا في حصونكم فإننا نمدكم.

فأرسل حيي بن أخطب - أحد رؤسائهم - إلى رسول الله ﷺ : إنا لا نخرج من ديارنا ، فافعل ما بدا لك. اغترارا بقول المنافقين ، فسار رسول الله ﷺ مع أصحابه إليهم راكبا على حمار مخطوم بليف ، وحمل رايته علي بن أبي طالب ﷺ حتى نزل بهم وصلى العصر بفنائهم ، وقد تحصنوا وقاموا على حصنهم يرمون بالنبال والحجارة ، ووزبوا ^(٢) على الأرزقة وحصنوها ، فحاصرهم رسول الله ﷺ إحدى

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٤١٦ .

(٢) أي اتخذوا الزرائب ، جمع زريبة : الحفرة. ولعله تصحيف (وذبوا) على ما سيأتي لا حقا عن تفسير الرازي.

وعشرين ليلة.

فلما قذف في قلوبهم الرعب ، وأيسوا من نصر المنافقين ، طلبوا الصلح ، فأبى عليهم إلا الجلاء ، على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا من متاعهم إلا السلاح ، فحملوا ستمائة بعير ، وضربوا الدفوف ، وأظهروا السرور إظهارا للجلادة ، وعبروا من سوق المدينة ، وذهبوا إلى الشام إلى أريحا من فلسطين ، وإلى أذرعات من دمشق ، إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق ، وآل حبي بن أخطب ، فأتهم لحقوا بخير ، ولحقت طائفة منهم بالحيرة من قرى الكوفة ، ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان ، وكان هذا الحشر والإخراج لأهل الكتاب أول إخراج لم يكن قبله إخراج لهم من مكان ^(١) .

وقيل : هذا أول حشرهم ، وآخره إجلاء عمر إياهم من خير إلى الشام حين بلغه الخبر عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يقيرون دينان في جزيرة العرب » ^(٢) .

وقيل : آخر حشرهم يوم القيامة ^(٣) . وقيل : يكون في الرجعة ^(٤) .

وعن ابن عباس : قال لهم النبي ﷺ : « اخرجوا » قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر » ^(٥) .

﴿ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ * وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٢) وَ (٥) ﴾

ثم بين سبحانه غاية قوتهم بقوله تعالى : ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ ﴾ وما رجوتهم في حق بني النضير ﴿ أَنْ يَخْرُجُوا ﴾ من المدينة وما حولها ، لشدة بأسهم ومنعتهم وغاية عزتهم وشوكتهم ﴿ وَظَنُّوا ﴾ هؤلاء الكفرة ﴿ أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ ﴾ وحافظتهم ﴿ حُصُونُهُمْ ﴾ المنيعه ﴿ مِنْ ﴾ بأس ﴿ اللَّهِ ﴾ وقهره ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ بإذلالهم وخذلانهم ﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ ومن سبب لم يتوهموا ، وهو قتل كعب بن أشرف غيلة ﴿ وَ ﴾ بذلك ﴿ قَذَفَ ﴾ وألقى ﴿ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ والخوف الشديد ، وكان حالهم حين الرعب

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٢١٧ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٤١٨ .

(٣) جوامع الجامع : ٤٨٦ ، تفسير أبي السعود ٨ : ٢٢٥ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤١٨ .

(٤) تفسير الصافي ٥ : ١٥٣ ، وفيه : في الرجعة .

(٥) مجمع البيان ٩ : ٣٨٧ ، تفسير الصافي ٥ : ١٥٣ .

أهم ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ﴾ ومساكنهم ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ ليسدّوا بأحشائها وحجارتها أبواب الأزقة ، أو لئلا تبقى بعد جلائهم للمسلمين ، أو لينقلوا معهم بعض آلاتها المرغوب فيها ﴿وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. قيل : إنهم كانوا يخربون بيوتهم من داخل ، والمسلمون من خارج ^(١) .

وقيل : إنهم درّبوا ^(٢) على الأزقة وحصّنها ، افنقضوا بيوتهم وجعلوها كالحصون على أبواب الأزقة ، وكان المسلمون يخربون سائر جوانبها ^(٣) .

وقيل : إنّ المسلمين كانوا يخربون ظواهر البلد ، واليهود لما أيقنوا بالجلاء يخربون البيوت ، لينزعوا الأخشاب والأبواب وغيرها من الآلات الحسنة ، ويحملوها معهم ^(٤) .

ثمّ لما بين سبحانه سوء عاقبة الغدر والكفر ، وإبادته شوكة اليهود وكسر قوّتهم ، أمر أهل البصرة بالاعتبار بقوله : ﴿فَاعْتَبِرُوا﴾ واتّعظوا ﴿يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ فلا تغدروا ، ولا تعتمدوا على غير الله في أمر من الأمور. عن ابن عباس : يريد يا أهل اللب والعقل والبصائر ^(٥) .

: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ﴾ في حقّ بني النضير ، وقدر ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بمقتضى حكمته البالغة ﴿الْجَلَاءِ﴾ الخروج من أوطانهم ﴿لَعَذَّبَهُمْ﴾ بالقتل والأسر ، أو بعذاب الاستئصال ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ على كفرهم وغدرهم ﴿وَلَهُمْ﴾ مع الجلاء ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ بعد خروجهم من الدنيا ﴿عَذَابُ النَّارِ﴾ لا نجاة لهم منه : ﴿ذَلِكَ﴾ الجلاء ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وعاندوهما ، وخالفوا عهدهما ﴿وَمَنْ يُشَاقَّ اللَّهَ﴾ كائنا من كان ، يعاقبه الله أشدّ العقاب ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ على من شاقّه وخالفه ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

ثمّ روي أنّ النبي ﷺ أمر بقطع نخيل اليهود وإحراقها ، فجاءوا إليه ، وقالوا : يا محمد ، إنّك قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض ، فما بال قطع نخيل اليهود وإحراقها ؟ وكان في أنفس المؤمنين من ذلك شيء فنزلت ^(٦) : ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ﴾ ونخلة كريمة قصيرة طيبة الثمرة ، أو أيّ نخل من نخيلهم بأنواعها ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا﴾ كما كانت ، ولم تقطعوها ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وأمره لمصلحة ازدياد غيظ الكفار وتضاعف حسرتهم بسبب نفاذ حكم أعدائهم في أعزّ أموالهم ﴿وَلِيُخْزِيَ﴾ ويذلّ اليهود ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعة الله ، فإنّ في كلّ من القطع وترك حكمة ومصلحة.

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ

يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦)

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٨٠ .

(٢) درّب الجنديّ : صبر في الحرب وقت الفرار .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٨٠ .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٨٢ .

(٦) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٨٣ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٢٣ .

ثم بَيَّن سبحانه حكم ما بقي منهم من أموالهم بقوله : ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ﴾ وردّه ﴿عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ من الأملاك والأموال ﴿فَمَا أُوجِفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها المسلمون ، ولا أسرعتم السير في تحصيله ﴿مِنْ خَيْلٍ﴾ وجماعة أفراس ﴿وَلَا رِكَابٍ﴾ وجماعة الإبل ، ولا تحمّلتم مشقة عظيمة ، ولا قتالا شديدا ، وما قطعتم مسافة بعيدة.

قيل : إنّ قرى بني النضير كانت على ميلين من المدينة ، لم يركب أحد في مسيرهم إليهم إلّا النبي ﷺ ، فأنّه ركب حمارا مخطوما بالليف ، أو جملا على ما قاله بعض (١) .
والحاصل أنّه لم تحصل هذه الغنيمة بقتالكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ﴾ على حسب سنّته الجارية ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ تسليطه عليه من أعدائه بغير الأسباب الظاهرية ، فلا حقّ لكم في أموالهم ، بل هي مختصة به ، مفوض أمرها إليه ، يضعها حيث يشاء ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قيل : نزلت حين طلب الصحابة من الرسول ﷺ قسمة أموالهم عليهم ، كما قسّم الغنيمة بينهم ، فبيّن الله الفرق بين الغنيمة والفِيء ، فإنّ الغنيمة فيما أتعب المسلمون أنفسهم في تحصيله ، وأوجفوا عليه بخيل وركاب ، بخلاف الفِيء فأنّه ما لم يتحمّل [المسلمون] في تحصيله تعباً شديدا (٢) .
وقيل : إنّ أموال بني النضير اخذت بالقتال والمحاصرة أيّما ، فلم تكن فينا ، وإنما نزلت الآية في فذك ، لأنّ أهل فذك جلوا عنه ، فصارت تلك القرى والأموال في يد الرسول ﷺ من غير حرب (٣) .

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ
الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)﴾

ثم أكّد سبحانه حكم الفِيء في أموال بني النضير ببيان حكم كلّ الفِيء بقوله تعالى : ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ﴾ وردّه ﴿عَلَى رَسُولِهِ مِنْ﴾ أموال ﴿أَهْلِ الْقُرَى﴾ والبلدان بغير حرب وقتال ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ أشرك ذاته المقدّسة مع رسوله تشريفا له ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وأرحام الرسول ﷺ من بني هاشم وبني عبد المطلب ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ منهم ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ والفقراء منهم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ والمسافرين المنقطعين عن أموالهم منهم .
روى بعض العامة أنّ النبي ﷺ كان يقسّم الفِيء خمسة أسهم ، ويتصرّف في أربعة أخماس كيف يشاء ، ويقسّم الخمس الباقي خمسة أسهم ، ويأخذ لنفسه خمس الخمس ، ويقسّم أربعة أخماس

(١) تفسير روح البیان ٩ : ٤٢٦ .

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٨٤ .

الباقية إلى الأصناف الأربعة من بني هاشم ^(١) .

وعن أمير المؤمنين : « نحن والله الذين عنى الله بذى القربى الذين قرّمهم الله بنفسه وبنييه ﷺ فقال : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ ﴾ منّا خاصة ، ولم يجعل لنا سهما في الصدقة ، كرّم الله نبيّه ﷺ وأكرّمنا من أوساخ أيدي الناس » ^(٢) .

وعن السّجّاد عليه السلام قال : « قريباؤنا ، ومساكيننا ، وأبناء سبيلنا » ^(٣) .

ثمّ ذكر سبحانه علّة اختصاص الفيء بهذه الأصناف المعينة في الآية بقوله : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ ﴾ الفيء الذي حقّه أن يكون للرّسول ﷺ وفقرائه أقربائه ﴿ ذُوْلَهُ ﴾ وشيئا متداولاً ودائراً ﴿ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ ﴾ وذوي الثروة ﴿ مِنْكُمْ ﴾ أيّها الناس يتكاثرون به ، كما كان يتداول بين الأغنياء في الجاهلية ، وينتقل من غنيّ إلى غنيّ ، ويحرم منه الفقراء ﴿ وَمَا آتَاكُمْ ﴾ وأعطاكم ﴿ الرّسول ﴾ من الأمر فيئاً كان أو حكماً ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ وقبلوا منه ﴿ وَمَا نَهَاكُمْ ﴾ وردعكم ﴿ عَنْهُ ﴾ من إتيان عمل أو التصرف في مال ﴿ فَانْتَهُوا ﴾ وارتدعوا عنه ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في مخالفته رسوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ فيعاقب من خالفه وعصاه .
عن الصادق عليه السلام : « أنّ الله عزّ وجلّ أدب رسوله حتّى قومه على ما أراد ، ثمّ فوّض إليه ، فقال : ﴿ مَا آتَاكُمْ الرّسولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ فما فوّض الله إلى رسوله فقد فوّضه إلينا » ^(٤) .

وفي رواية : « فوّض إلى نبيه أمر خلقه ، لينظر كيف طاعتهم » ثمّ تلا هذه الآية ^(٥) .

وعن ابن مسعود : أنّه رأى رجلاً محرمًا وعليه ثيابه ، فقال : انزع هذا عنك . فقال الرجل : اقرأ بهذا عليّ آية من كتاب الله . قال : نعم ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرّسولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ^(٦) .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنْ

اللّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٨)

ثمّ بيّن سبحانه على ما قيل الأصناف الثلاثة الأخيرة في الآية في خصوص فيء بني النّضير ^(٧)

بقوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ من مكّة إلى المدينة ، ومن دار الحرب إلى دار السّلام ، ثمّ وصفهم

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٨٥ .

(٢) الكافي ١ : ٤٥٣ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٥٥ .

(٣) مجمع البيان ٩ : ٣٩١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٥٦ .

(٤) الكافي ١ : ٢١٠ / ٩ ، تفسير الصافي ٥ : ١٥٦ .

(٥) الكافي ١ : ٢٠٨ و ٢٠٩ / ٣ و ٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١٥٦ .

(٦) تفسير روح البيان ٩ : ٤٢٩ .

(٧) تفسير البيضاوي ٢ : ٤٨١ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٣٠ .

بقوله : ﴿الَّذِينَ﴾ لم يهاجروا اختياراً ويميل أنفسهم ، بل ﴿أُخْرِجُوا﴾ واضطروا إلى الهجرة من قبل الكفار ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ ومساكنهم التي كانت لهم بمكة ﴿وَوَ﴾ من ﴿أَمْوَالِهِمْ﴾ حال كونهم ﴿يَتَتَفَعُونَ﴾ ويطلبون رزقهم الذي يكون ﴿فَضْلاً﴾ وإحساناً ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ في الدنيا ﴿وَوَ﴾ يطلبون ﴿رِضْوَاناً﴾ منه في الآخرة ﴿وَيَنْصُرُونَ﴾ بهجرتهم ﴿اللَّهُ﴾ بإعلاء دينه ﴿وَرَسُولَهُ﴾ ببذل الأنفس في حفظه وترويج شريعته ﴿أُولَئِكَ﴾ المهاجرون ﴿هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في دعوى الإيمان بشهادة أعمالهم على ضمائرهم.

في نقل استدلال بعض العامة على خلافة أبي بكر وإمامته ، وردّه

قال الفخر الرازي : يعني أنهم لما هجروا لذات الدنيا ، وتحملوا شدايدها لأجل الدين ، ظهر صدقهم في دينهم. ثم قال : تمسك بعض العلماء بهذه الآية على إمامة أبي بكر ، فقال : هؤلاء الفقراء من المهاجرين والأنصار كانوا يقولون لأبي بكر : يا خليفة رسول الله ، والله يشهد على كونهم صادقين ، فوجب أن يكونوا صادقين في قولهم : يا خليفة رسول الله ، ومتى كان الأمر كذلك ، وجب الجزم بصحة إمامته ^(١) .

أقول : هذا الاستدلال مما تضحك به الثكلى ، فإنّ المقام قرينة على كون المراد الصدق في دعوى الإيمان لا في كلّ ما يتكلمون به ، كقوله تعالى : ﴿بَلِ اللَّهِ يُمْسُ عَلَيْكُمْ أَنْ هِدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ^(٢) أي في دعوى الإيمان ، لا في جميع الأمور ، مع أنّنا نعلم أنهم كانوا كاذبين في هذا الخطاب إن كان المراد أنّه استخلفه رسول الله ﷺ ونصبه للإمامة ، ولم يدّعه غالب أشياعه وأتباعه ، وإن كان المراد بالخليفة الجالس في مجلسه ، ولو بالغضب والقهر ، فنحن نقول بخلافته ، ولا يحتاج إلى الاستدلال بالآية ، ولا يدلّ الخطاب على إمامته من جانب الله ووجوب طاعته ، كما يقوله العامة. ثمّ اعلم أنّه بناء على مذهبنا من اختصاص الفيء بالرسول والأئمة بعده ، كما ذكره الله في فيء بني النضير ، لا بدّ من حمل الآية على استحباب صرفهم الفيء المختصّ بهم في المصارف المعينة.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩)

ثمّ مدح سبحانه الأنصار بقوله : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ﴾ دار الهجرة ، وهي المدينة ﴿وَالْإِيمَانَ﴾ وتمكّنوا فيها أشدّ التمكن في زمان سابق على هجرة المهاجرين إليهم ، و﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٨٦ .

(٢) الحجرات : ٤٩ / ١٧ .

قيل : إنّ المعنى تبوّءوا المدينة ، وأخلصوا الايمان من قبل هجرتهم ^(١) . وقيل : إنّ المراد من الايمان هو المدينة ، لظهور الايمان وقوّته فيها ^(٢) .

وهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ من المؤمنين ، لمحبتهم الايمان بالله وبرسوله ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ﴾ ولا يدركون في أنفسهم ﴿حَاجَةً﴾ وإقبالا إلى شيء ﴿مِمَّا أُوتُوا﴾ واعطوا اولئك المهاجرون من الفيء ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ ويقدمون المهاجرين ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ في الفيء وغيره ممّا يرتبط بالمعاش جودا وحبّا لهم ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وشدة حاجة.

عن ابن عباس : أنّ النبي ﷺ قال للأَنْصار : « إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم وأموالكم ، وقسمت لكم من الغنيمة كما قسمت لهم ، وإن شئتم كان لهم الغنيمة ولكم دياركم وأموالكم » فقالوا : لا ، بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا ، ولا نشاركهم في الغنيمة ، فنزلت الآية ^(٣) . قيل : إن كان له امرأتان يفارق إحداها ويزوجها واحدا منهم ^(٤) .

في إثبات المؤمنين إخوانهم على أنفسهم

أقول : كان الايثار من صفات الكاملين في الايمان ، فإنّ المؤمن الحقيقي يؤثر أخاه المؤمن على نفسه.

عن (الامالي) : أنّه جاء إلى رسول الله ﷺ رجل فشكا إليه الجوع ، فبعث رسول الله ﷺ إلى بيوت أزواجه ، فقلن : ما عندنا إلّا الماء ، فقال ﷺ : « من لهذا الرجل الليلة ؟ » فقال علي بن أبي طالب عليه السلام : « أنا له يا رسول الله » فأتى فاطمة عليها السلام وقال لها : « ما عندك يا ابنة رسول الله ؟ » فقالت : « ما عندنا إلّا قوت العشيّة ^(٥) ، لكنّا نؤثر ضيفنا » . فقال : « يا ابنة رسول الله ، نؤمي الصبيّة ، وأطفي المصباح » فلمّا أصبح غدا على رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فلم يبرح حتّى أنزل الله : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ...﴾ الآية ^(٦) .

وعن أنس : أنّه اهدي إلى رجل من الأنصار رأس [شاة] وكان مجهودا ، فوجّه به إلى جار له زاعما أنّه أحوج إليه منه ، فوجّه جاره أيضا إلى آخر ، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتّى تداول ذلك الرأس سبعة بيوت إلى أن رجع إلى المجهود الأول ^(٧) .

وعن حذيفة العدوي ، قال : انطلقت في غزوة أطلب ابن عمّ لي ومعني شيء من الماء قاصدا أنّه إذا كان به رفق سقيته ، فإذا أنا به فقلت له : أسقيك ؟ فأشار إليّ برأسه أن نعم ، فاذا برجل يقول : آه ، آه ،

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٨٧ ، تفسير أبي السعود ٨ : ٢٢٩ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٣٢ .

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٨٧ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٨٧ .

(٤) تفسير البيضاوي ٢ : ٤٨١ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٣٣ .

(٥) في المصادر : الصبيّة .

(٦) أمالي الطوسي : ١٨٥ / ٣٠٩ ، تفسير الصافي ٥ : ١٥٧ .

(٧) تفسير روح البيان ٩ : ٤٣٣ .

فأشار إلى ابن عمي أن انطلق إليه ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : أسقيك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فسمع آخر يقول : آه آه فأشار هشام أن انطلق إليه فجئت إليه فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات (١) .

وقال بعض العامة : إن الآية قد نزلت في أبي طلحة الأنصاري حين نزل برسول الله ﷺ ضيف ، ولم يكن عنده ما يضيفه به ، فقال : « ألا رجلا يضيف هذا ﷺ ؟ » فقام أبو طلحة ، فانطلق به إلى رحله ، وقال لامرأته : أكرمي ضيف رسول الله ، فنومت الصبية ، وأطفأت السراج ، وجعل الضيف يأكل وهما يريان أهما يأكلان معه ولا يأكلان ، فنزلت (٢) .

ثم بين سبحانه أن سعادة الدارين لمن يحفظ نفسه عن البخل ، فكيف بمن يؤثر غيره على نفسه بقوله : ﴿وَمَنْ يُوقْ﴾ ويحفظ ﴿شَحْ نَفْسِهِ﴾ وحرصها على البخل بالمال بتوفيق الله وإعانتة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والفائزون بأعلى المقاصد من خير الدنيا والآخرة وسعادتھما.

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * أَلَمْ تَرِ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أَخْرَجْتُمُوهُمْ لَنَخْرُجُنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠) و (١١)﴾

ثم مدح سبحانه المؤمنين التابعين للمهاجرين والأنصار في الإيمان والصلاح بقوله : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا﴾ حين مات المهاجرون والأنصار ، ووجدوا ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من المؤمنين الصالحين إلى يوم القيامة يحبون السابقين منهم بالإيمان ، ويدعون لأنفسهم ولهم و﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبنا ﴿وَلِإِخْوَانِنَا﴾ في الدين ﴿الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ من المهاجرين والأنصار وغيرهم ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا﴾ وحقدا وعداوة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بك ورسولك لمكان الأخوة الدينية ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ﴾ بعبادك المؤمنين ﴿رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فلا ترضى - برأفتك بنا - باستيلاء الشيطان علينا ، ولا ترد برحمتك دعاءنا.

ثم لما أرسل عبد الله بن أبي بن (٣) سلول رأس المنافقين سرا إلى بني النضير : أن اتبتوا في أماكنكم،

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٤٣٤ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٤٣٤ .

(٣) زاد في النسخة : أبي ، راجع : الأعلام للزركلي ٤ : ٦٥ .

وقاتلوا محمدا إن قاتلكم ، فاتا نصركم ، وإن أخرجكم بالقهر لنخرجن معكم . ذمهم سبحانه على قولهم ونفاقهم ، وأكذبهم في وعدهم الموافقة والنصرة بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يا محمد ، أو يا من يعقل ، ولم تنظر ﴿ إِلَى ﴾ الكفار ﴿ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ المسلمين في المدينة حتى تتعجب منهم ، فاتهم ﴿ يَقُولُونَ ﴾ سرا ﴿ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ الموافقون لهم في عداوة الرسول والمؤمنين المشاركين معهم في الكفر : يا إخواننا ، والله ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ من دياركم قسرا واضطارا بأمر محمد وجور أصحابه ﴿ لَنُخْرِجَنَّ مَعَكُمْ ﴾ من المدينة البتة . ونصاحبكم حيثما ذهبتم أداء لحق الصداقة والاخوة ﴿ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ ﴾ ولا نوافق في شأنكم ﴿ أَحَدًا ﴾ بمنعنا من الخروج معكم ﴿ أَبَدًا ﴾ وفي وقت من الأوقات ، وإن طال الزمان ﴿ وَإِنْ قُوتِلْتُمْ ﴾ وحاربكم محمد وأصحابه ﴿ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ ولنعاوننكم على قتالهم ولا نخذلنكم ﴿ وَاللَّهُ ﴾ العالم بالضمائر والسرائر ﴿ يَشْهَدُ ﴾ ويخبر عن علم ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في وعدهم وغاؤون لهم ، مع تأكيدهم إياه باليمين الغموس .

﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ

لَيُولُنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ (١٢)

ثم أنه تعالى بعد تكذيبهم الإجمالي كذبهم تفصيلا بقوله : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا ﴾ من ديارهم وأموالهم قهرا وجبرا وإذلالا ، والله ﴿ لَا يَخْرُجُونَ ﴾ من المدينة ﴿ مَعَهُمْ ﴾ لشدة علاقتهم بدورهم ووطنهم ﴿ وَلَئِنْ قُوتِلُوا ﴾ وحاربوا من طرف النبي ﷺ ﴿ لَا يَنْصُرُونَهُمْ ﴾ لشدة حبهم أنفسهم ﴿ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ ﴾ على الفرض والتقدير ، والله ﴿ لَيُولُنَّ الْأَدْبَارَ ﴾ وليفرن من القتال أفضع الفرار ، لضعف قلوبهم ، وتحفظا على أنفسهم ﴿ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ أولئك المنافقون بعد ذلك من قبل أحد ، أو لا ينصرون أولئك اليهود ، وعلى أي تقدير لا ينفعهم نصره المنافقين .

قيل : إن عبد الله بن أبي أرسل إلى بني النضير سرا : أن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون حصنكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يصل إليكم محمد ، وتملككم بنو قريظة وحلفاؤهم من غطفان ، فطمع بنو النضير فيما قاله اللعين و [هو] جالس في بيته ، حتى قال أحد سادات بني النضير - وهو سلام بن مشكم لحبي بن أخطب الذي هو المتولي لأمر بني النضير - : والله يا حبي إن قول ابن أبي لباطل ، وليس بشيء ، وإنما يريد أن يورطك في الهلكة حتى تحارب محمد فيجلس في بيته ويتركك . فقال حبي : نأبى إلا عداوة محمد وإلا قتاله . فقال سلام فهو والله جلاؤنا من أرضنا ،

وذهب أموالنا وشرفنا ، أو سبي ذرارينا مع قتل مقاتلينا ، فكان ما كان ^(١) .
وفيه دلالة واضحة على صحة نبوة نبينا ﷺ وإعجاز القرآن من حيث إخباره بالغيب ووقوع
المخبر به موافقا لإخباره.

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * لَا
يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ
تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ * كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا وِبَالٍ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ
لِلْإِنْسَانِ أَكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ *
فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٣) و (١٧)﴾

ثم بين سبحانه علّة خلفهم الوعد وغدرهم بإخوانهم الكافرين بقوله تعالى : ﴿لَأَنْتُمْ﴾ أيها
المسلمون أكثر رعبا في قلوب المنافقين ، و﴿أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ .
قيل : يعني أنهم يظهرون لكم في العلانية الرهبة والخوف من الله ، وأنتم في صدورهم أشد رهبة
منه تعالى ^(٢) ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من كون رهبتكم أشد من الله ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ شيئا حتى يعلموا
عظمة الله وكمال قدرته وشدة عقابه ، فيخافوه حقّ المخافة. ثم بين سبحانه شدة خوفهم من المسلمين
بقوله : ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ ولا يجترئون على حربكم حال كونهم ﴿جَمِيعًا﴾ ومتفقين في موطن واحد ﴿إِلَّا فِي
قُرَى﴾ وقلاع ﴿مُحَصَّنَةٍ﴾ محكمة بالدروب والخنادق وما أشبه ذلك ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ وعقيب الحيطان
، ولا يبارزونكم في الميدان ، وليس ذلك لضعف قلوبهم وقوّتهم ، وجبنهم ووهن أعضائهم ، بل ﴿بِأَسْهُمٍ﴾
وسطوتهم وبطشتهم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وفي قبال أقرانهم ﴿شَدِيدَةٍ﴾ وإنما ضعفهم وجبنهم منكم لما قذف الله في
قلوبهم من الرعب ، مع أن الشجاع يجبن ، والعزير يذلّ عند محاربة الله ورسوله.
وقيل : إنّ المراد أنهم إذا اجتمعوا يقولون : لنفعلنّ كذا وكذا ، فهم يهدّدون المؤمنين ببأس شديد
من وراء الحيطان والحصون ، ويجترزون عن الخروج للقتال ، فبأسهم فيما بينهم شديد لا فيما بينهم وبين
المؤمنين ^(٣) .

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٤٣٩ .

(٢) الكشف ٤ : ٥٠٧ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٤٠ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٩٠ .

وعن ابن عباس : معناه أن بعضهم عدو للبعض ^(١) ، ويدلّ عليه قوله : ﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا﴾ ومتفقين ومؤتلفين ومتحابين في الظاهر ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ ومتفرقة لا الفة بينهم ، لأن لكل واحد منهم مذهبا غير مذهب الآخرين ، ولذا بينهم في الواقع عداوة شديدة.

﴿ذَلِكَ﴾ التشتت بين قلوبهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ولا يدركون أن تشتت القلوب يوهن قوتهم ، وتقلّ به حظوظهم ، أو لا يعقلون شيئا حتى يعرفوا الحق فيتبعوه وتتحد كلمتهم. اعلّموا أن مثل هؤلاء اليهود والمنافقين وحالهم العجيبة ﴿كَمَثَلِ الْكُفَّارِ﴾ الذين ﴿الَّذِينَ﴾ حاربوا الرسول في بدر ، أو كمثل بني قينقاع على ما قيل من أنهم كانوا أشجع اليهود وأكثرهم أموالا ، فلما كانت وقعة بدر أظهرها البغي والحسد ، ونبذوا العهد كبنى التّضير ، فأخرجهم رسول الله ^(٢) من المدينة إلى الشام ^(٣) ﴿مَنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ من زمانهم. قيل : قبل ستة أشهر من قضية بني التّضير ^(٤) ، أو قيل : سنة ^(٥) . فاتهم ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ﴾ ورأوا سوء عاقبة كفرهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يقادر قدره ، ومثل المنافقين الذين غرّروا اليهود ووعدهم النصر ثم خذلوهم ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ﴾ الغوي ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ﴾ إغراء وإغواء : ﴿اكَفُرْ﴾ بالله وبرسوله ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ الانسان بإغوائه وحلّ به العذاب في القيامة - وقيل : إنّ المراد بالانسان أبو جهل ^(٦) ، ومعنى (اكفر) دم على كفرك ، فلما كفروا جاء إلى بدر ، وابتلى بالقتال - ﴿قَالَ﴾ الشيطان له ، ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ ومنقطع عنك ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ من أن يعذبني بأشدّ العذاب. قيل : هذا من كذبات اللعين ^(٧) . وقيل : إنّ قال ذلك استهزاء ^(٨) ، ولو كان صادقا لم يستمرّ على عصيان الله ﴿فَكَانَ﴾ مآل كفر الانسان والشيطان المغوي له و﴿عَاقِبَتُهُمَا﴾ في الآخرة ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾ التي سحرها الجبار بغضبه حال كونهما ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾ لا خلاص لهما منها أبدا ﴿وَذَلِكَ﴾ العذاب المقيم ﴿جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهما العاصين لله ، وكذلك كان عاقبة اليهود والمنافقين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ

الْفَاسِقُونَ (١٨) و (١٩)

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٩٠ .

(٢) في النسخة : فأخرجوا بالرسول .

(٣) (٤٣) تفسير روح البيان ٩ : ٤٤٢ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٤٤٣ .

(٦ - ٨) تفسير روح البيان ٩ : ٤٤٣ .

ثم شرع سبحانه في وعظ المؤمنين بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخافوا عذابه على عصيانه ، واحترزوا عن مخالفته ﴿وَلْتَنْتَظِرْ نَفْسٌ﴾ أي نفس كانت ﴿مَا قَدَمْتُ﴾ وأي عمل هيأت وادّخرت ﴿لِعَذَابٍ﴾ ويوم عظيم في القرب بمنزلة اليوم البعد ، وهو يوم القيامة.

ثم أكد سبحانه الأمر بالتقوى التي هي ^(١) أقوى سبب النجاة من العذاب والفوز بالنعم الأبدية بقوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أيها المؤمنون فيما تأتون وما تذرّون.

ثم هدد العصاة بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ العالم بكل شيء ﴿خَبِيرٌ﴾ وعليم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المعاصي فيعاقبكم عليه أشدّ العقاب ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ وذهبوا عن عظّمته وحقوقه باشتغالهم بلذات الدنيا وزخارفها ، ولم يراعوا أوامره ونواهيه حقّ الرّعاية ﴿فَأَنسَاهُمْ﴾ الله بسبب ذلك ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ وأذهلهم عن خيرها وما فيه نجاتها من المهالك ، وفوزها بما فيه حياتها الدائمة وتنعمها وراحتها الأبدية ﴿أُولَئِكَ﴾ الناسون ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ والخارجون عن طاعة العقل والشرع ، وفي تخصيص الفسق بهم إشعار بأنّ فسق غيرهم كالمعدوم لأنهم كفّار.

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾
لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ
الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢٠) و (٢١)﴾

ثم لما نهي سبحانه عن مماثلة الكفّار ، بيّن عدم أهلية الكفّار لأن يمثّلهم ويساويهم أحد من المؤمنين بقوله : ﴿لَا يَسْتَوِي﴾ ولا يمثّل الكفّار الذين هم أهل العذاب و﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ في الآخرة ، والمؤمنون الذين هم أهل الرحمة و﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ فإنّ أصحاب النار هم الخاسرون و﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بأعلى المقاصد وأسمى المطالب.

عن الرضا عليه السلام : « أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ، فقال : أصحاب الجنة من أطاعني وسلّم لعليّ بن أبي طالب يعدي وأقرّ بولايته ، وأصحاب النار من سخط الولاية ونقض العهد » ^(٢) .

ثم لما ذكر سبحانه بعض المواعظ الموجبة لرفّة القلب والخشوع ، مدح القرآن بغاية التأثير ، وذمّ قلوب الكفار بغاية القساوة بقوله : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ﴾ العظيم الشأن ، الذي فيه المواعظ الشافية والتهديدات الكثيرة ﴿عَلَى جَبَلٍ﴾ وكان المقصود بالمواعظ والاندادات التي فيه وعظه وإنذاره ، والله

(١) في النسخة : الذي هو .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٨٠ / ٢٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١٥٩ .

﴿لَرَأَيْتَهُ﴾ يا محمد مع غاية صلابته وعدم تأثره مما يصادفه ﴿خاشعاً﴾ وضارعا ومنقادا و﴿مُتَّصِداً﴾ ومتشققا ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وخوف عقوبته وعذابه ، فإن إدراك الجمادات عظمة خالقها ومهابة ربها وشعورها بشدة ^(١) عذابه مما ثبت بالآيات كقوله : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ ^(٢) وقوله : ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ ^(٣) وغيرهما من الآيات والروايات الكثيرة كرواية بكاء الجبل من خوف أن يكون من حجارة جهنم ^(٤) وغيرها ، فلا وجه لما قيل : من أن الآية من باب التمثيل والتخييل ^(٥) ، والمعنى لو جعل في الجبل حياة وعقل ، كما جعل فيكم ، ثم أنزل عليه القرآن بمواعظه وإنذاراته لصار خاشعا ، ولم تتأثر قلوب الكفار ، فهي أشد قسوة من الحجارة ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ﴾ والبيانات العجيبة ﴿نُصْرِيهَا﴾ ونبينها ﴿لِلنَّاسِ﴾ كافة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها ، فيتعظون بها.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ (٢٢) و (٢٤)﴾

ثم لما كان عظمة القرآن وقوة تأثيره منوطا بمعرفة عظمة الله وكمال قدرته ، شرع سبحانه في بيان صفاته الجليلة الدالة على كمال عظمتته بقوله : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود بالحق سواه في عالم الوجود ، وهو ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ المطلع على المعدومات والموجودات أو على ما غاب عن الحواس وما يدرك بها ، أو على السر والعلانية ، أو على الدنيا والآخرة ، و﴿هُوَ﴾ وحده ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قد تكرر في السابق تفسيره ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ والسلطان المطلق في جميع عوالم الوجود ﴿الْقُدُّوسُ﴾ والبالغ في النزاهة عن العيوب في ذاته ﴿السَّلَامُ﴾ قيل : يعني السالم عن الآفات لا يطروء ^(٦) نقص في ذاته وصفاته ^(٧) وقيل : يعني معطي السلامة للموجودات ^(٨) . وقيل : يعني المسلم على المؤمنين في الجنة ^(٩) .

(١) في النسخة : شدة.

(٢) الإسراء : ١٧ / ٤٤.

(٣) البقرة : ٢ / ٧٤.

(٤) الخرائج والجرائح ١ : ١٦٩ / ٢٥٩.

(٥) جوامع الجامع : ٤٨٨ ، تفسير البيضاوي ٢ : ٤٨٣ ، تفسير أبي السعود ٨ : ٢٣٣.

(٦) كذا ، والظاهر : لا يطروء عليه.

(٧) تفسير روح البيان ٩ : ٤٥٩.

(٨) تفسير روح البيان ٩ : ٤٥٩.

﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ والمصدق للأنبياء بإجراء المعجزات على أيديهم ، أو معطي الأمان لأولياؤه من العذاب ، أو لمن توكل عليه من الآفات والمضارّ. وعن ابن عباس : هو الذي آمن الناس من ظلمه ، وآمن من آمن من عذابه ^(١) .

﴿الْمُهَيِّمِينَ﴾ والمسّط على ما سواه ، والرقيب عليهم ، والحافظ لهم. وقيل : يعني القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم ^(٢) .

﴿الْعَزِيزُ﴾ والغالب على كلّ شيء ، أو الخطير الذي لا مثل له ، أو معطي العزّ لكلّ ذي عزّ ﴿الْجَبَّارُ﴾ والقهار لخلقه على ما أراد ، أو المصلح لأعمالهم. وعن ابن عباس : الملك العظيم ^(٣) .
﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ والعظيم ، أو البليغ في الكبرياء ، الذي كلّ شيء دونه ، ومفتقر إليه ، وخاضع لديه. عن ابن عباس : الذي تكبر بربوبيته ، فلا شيء مثله ^(٤) .

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ وتنزهه (عن) إشراك (ما) ﴿يُشْرِكُونَ﴾ به من الأصنام والأوثان والكواكب وغيرها ، كما أشرك به الجاهلون.

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سئل عن تفسير ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ فقال : « هو تعظيم جلال الله وتنزيهه عمّا قال فيه كلّ مشرك ، فإذا قالها العبد صلّى عليه كلّ ملك » ^(٥) .

وعن [عبد الله بن] عمر قال : رأيت رسول الله ﷺ قائما على هذا المنبر في المدينة ، وهو يحكي عن ربّه تعالى فقال : « إنّ الله عزّ وجلّ إذا كان يوم القيامة جمع السماوات والأرضين في قبضته تبارك وتعالى » ثمّ قال هكذا ، وشدّ قبضته ثمّ بسطها « ثمّ يقول : أنا الله ، أنا الرحمن ، أنا الرحيم ، أنا الملك ، أنا القدّوس ، أنا السلام ، أنا المؤمن ، أنا العزيز ، أنا الجبار أنا المتكبر ، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تك شيئا ، أنا الذي أعدتها ، أين الملوك ، أين الجبابرة » ^(٦) .

: ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ تعالى وحده ﴿الْخَالِقُ﴾ والمقدّر لكلّ شيء على مقتضى حكمته ووفق مشيئته ﴿الْبَارِئُ﴾ والموجد للأشياء بعد تقديرها ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ لها بعد إيجاد موادّها.

ثمّ أشار سبحانه إلى سائر أسمائه إجمالا بقوله : ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ والصفات العليا ، ولذا ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الموجودات الناطقة والصامتة ، وينزهه عمّا لا يليق بالوهيته بلسان الحال والمقال.

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٤٦٠ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٤٦٢ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٩٤ .

(٤) التوحيد : ٣١٢ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٦٠ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٤٦٤ .

ثمّ لما كان جميع صفاته راجعة إلى القدر والعلم ، ختم تمجيد ذاته المقدّسة بقوله : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ والقدير العليم.

عن النبي ﷺ : « من قرأ سورة الحشر ، لم يبق جنة ولا نار ولا عرش ولا كرسي ولا حجاب ولا السماوات السبع والأرضون السبع والهواء والريح والطير والشجر والجبال والدواب والشمس والقمر والملائكة إلّا صلّوا عليه ، واستغفروا له ، وإن مات في يومه أو ليلته مات شهيدا » ^(١) .
الحمد لله على ما أنعم عليّ من التوفيق لإتمام تفسيرها.

(١) ثواب الأعمال : ١١٧ ، مجمع البيان ٩ : ٣٨٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٦٠ .

في تفسير سورة الممتحنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ
وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ
بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ

السَّبِيلِ (١)﴾

ثم لما ختمت سورة الحشر المتضمنة لبيان خذلان الكفار والمنافقين وذمهم ، ونصرة المسلمين ،
والمواعظ الشافية ، اردفت بسورة الممتحنة المتضمنة لنهي المؤمنين عند موادة الكفار ، وبيان حكم
أزواجهم إذا هاجرن إلى المسلمين ، وأخذ الرسول البيعة منهم على العمل بأحكام الاسلام ، وبيان
المواعظ الشافية ، فابتدأها سبحانه بذكر الأسماء المباركات بقوله تبارك وتعالى : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ﴾ .

ثم شرع في نصح المؤمنين والنهي عن موادة الكفار بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صميم
القلب ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ ولا تختاروا لأنفسكم ﴿عَدُوِّي﴾ ومنكر توحيدى ورسالة رسولي ، الساعي في إطفاء
نوري ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ ومبغضكم لمخالفتكم لدينه ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وأحباء وأنصارا ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ﴾ وتظهرون له
﴿بِالْمَوَدَّةِ﴾ والمحبة والنصيحة ، أو تلقون إليهم بأخبار النبي ﷺ بسبب المودة التي بينكم وبينهم ﴿و﴾
الحال أنهم ﴿قَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ﴾ قبل الله دين ﴿الْحَقِّ﴾ أو القرآن بتوسط رسولي ، والشاهد على
معاداتهم إياكم أنهم ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ من أوطانكم لأجل ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ مع أن العقل
حاكم بوجوب الايمان به ، لوضوح ألوهيته وربوبيته ، والشاهد على موادّتهم إياهم أنكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ
خَرَجْتُمْ﴾ من المدينة إليهم ﴿جِهَادًا﴾ ولأجل القتال معهم ﴿فِي سَبِيلِي﴾ وترويج ديني ﴿وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾
ولأجل طلب رحمتي وجنتي ﴿تُسِرُّونَ﴾ إلى الكفار ،

وترسلون ﴿إِلَيْهِمْ﴾ خفية أخبار النبي ﷺ ﴿بِالْمُودَّةِ﴾ وبسبب المحبة والنصيحة ﴿وَو﴾ الحال ﴿أَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ في قلوبكم من مودتكم ، أو من الناس من كتابكم إليهم ﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ وأظهرتم للرسول من الاعتذار من إظهار المودة لهم ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ﴾ وخالف نهي عن مودتهم واتخاذهم أولياء ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وأخطأ ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ووسط طريق الحق والصواب الموصل إلى السعادة الأبدية والقرب من الله. عن ابن عباس : أنه عدل عن قصد الإيمان في اعتقاده (١) .

روى بعض العامة : أنّ حاطب بن أبي بلتعة - وكان من المهاجرين والبديين والمبايعين ببيعة الرضوان - لما تجهز رسول الله ﷺ لغزوة الفتح في السنة الثامنة من الهجرة ، كتب إلى أهل مكة أنّ رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذرکم ، فأنه توجه إليكم بجيش كالليل : وأرسل الكتاب مع سارة مولاة بني عبد المطلب ، وأعطاهما عشرة دنانير وبرة ، وكانت سارة قدمت من مكة ، وكانت مغنية ، فقال لها رسول الله ﷺ : « لماذا جئت ؟ » قالت : جئت لتعطيني شيئا . فقال ﷺ : « ما فعلت بعتائك من شبن قريش ؟ » قالت : مذ قتلتهم بيدر لم يصل إلي شيء إلا قليل ، فأعطاهما شيئا ، فرجعت إلى مكة ومعها كتاب حاطب ، فنزل جبرئيل بالخبر ، فبعث رسول الله ﷺ عليا وعمارا وطلحة والزبير والمقداد ومرثد بن أبي مرثد ، وقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ - وهو موضع بين الحرمين - فإن بها ضعيعة معها كتاب حاطب إلى أهل مكة ، فخذوه منها ، فإن أبت فاضربوا عنقها ، فأدركوها ثم فجحدت ، فسلّ عليّ عليه السلام سيفه ، فأخرجته من عقائصها » .

فاستحضر رسول الله ﷺ حاطبا ، فقال ﷺ : « ما حملك على هذا ؟ » فقال : يا رسول الله ، ما كفرت منذ أسلمت ، وما غششتك منذ نصحتك ، ولكي كنت امرءا ملصقا (٢) في قريش ، ولم أكن من أنفسهم ، ومن معك من المهاجرين كان له فيهم قرابات يحمون أهاليهم وأموالهم ، وليس فيهم من يحمي أهلي ، فأردت أن آخذ عندهم يدا ، ولم أفعله كفرا وارتدادا عن ديني ، وقد علمت أنّ كتابي لا يغني عنهم . فصدّقه رسول الله ﷺ وقبل عذره . فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق . فقال : « يا عمر ، إنّه شهد بدرا ، وما يدريك لعلّ الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ففاضت عينا عمر (٣) .

أقول : في ذيل الرواية من القدح في عمر - من جرأته على رسول الله ﷺ وإظهار مخالفته له - ما لا يخفى .

وعن القمي ، قال : نزلت في حاطب بن أبي بلتعة - إلى أن قال - : كان سبب ذلك أنّ حاطب بن أبي

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٢٩٨ .

(٢) أي حليفا .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٤٧٢ .

بلتعة كان أسلم وهاجر إلى المدينة ، وكان عياله بمكة ، فكانت قريش تخاف أن يغزوهم رسول الله ﷺ ، فصاروا إلى عيال حاطب ، وسألوه أن يكتبوا إلى حاطب يسألوه عن خبر محمد ﷺ وهل يريد أن يأتي مكة ، فكتبوا إلى حاطب يسألونه عن ذلك ، فكتب إليهم حاطب : أن رسول الله ﷺ يريد ذلك ، ودفع الكتاب إلى امرأة تسمى صفية ، فوضعت في قرونها فمرت ، فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ وأخبره بذلك ، فبعث رسول الله ﷺ أمير المؤمنين ﷺ والزبير بن العوام في طلبها ، فلحقوها فقال أمير المؤمنين ﷺ : « أين الكتاب ؟ » فقالت : ما معي شيء . ففتشوها فلم يجدوا معها شيئا . فقال الزبير : ما نرى معها شيئا . فقال أمير المؤمنين ﷺ : « والله ما كذبنا رسول الله ﷺ ، ولا كذب رسول الله ﷺ على جبرئيل ، ولا كذب جبرئيل على الله جل ثناؤه ، والله لئن لم تظهر لي الكتاب لأردن رأسك إلى رسول الله ﷺ » فقالت : تنح عني حتى أخرجها . فأخرجت الكتاب من قرونها . فأخذها أمير المؤمنين ﷺ وجاء به إلى رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « يا حاطب ، ما هذا ؟ » فقال حاطب : يا رسول الله ، ما نافقت ولا غيرت ولا بدلت ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله حقا ، ولكن أهلي وعيالي كتبوا إليّ بحسن صنع قريش إليهم ، فأحببت أن اجازي قريشا بحسن معاشرتهم . فأنزل الله عز وجل على رسول الله ﷺ الآية (١) .

﴿إِنْ يَنْفَقُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ

وَوُدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ

بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) وَ (٣)﴾

ثم بين سبحانه شدة عداوة الكفار للمؤمنين ، وإن ألقوا إليهم بالمودة بقوله : ﴿إِنْ يَنْفَقُوكُمْ﴾ ويظهر الكفار عليكم ، ويتمكنوا منكم أيها المؤمنون ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ متجاهرين في العداوة والبغض ، ومظهريين ما في قلوبهم من الغيظ والحقد ﴿وَيَبْسُطُوا﴾ ويمدوا ﴿إِلَيْكُمْ﴾ من غيظهم ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ بالضرب والقتل والإيذاء ﴿وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ﴾ من الشتم والسب واللعن ﴿وَوُدُّوا﴾ وتمنوا في جميع الأوقات قبل الظفر والظهور عليكم وبعده ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وأن ترجعوا إلى دينهم ، وتعبدوا آلهتهم ، وأن توادوهم أيها المؤمنون لرعاية أهلهم وأرحامكم ، فاعلموا أنه ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ﴾ بجلب خير أو دفع ضرر ﴿أَرْحَامُكُمْ﴾ وأقاربكم ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ وذرائعكم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فاتّه يوم ﴿يَفْصِلُ﴾ الله ويفرق ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وبين أرحامكم وأولادكم وأصدقاكم ، لأنه لا هم لأحد فيه إلا نجاته نفسه من

(١) تفسير القمي ٢ : ٣٦١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٦١ .

الأهوال والعذاب ﴿وَاللَّهُ﴾ الخالق لشراشركم وجميع أجزائكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المودة للكفار وإرسال الكتاب إليهم وسائر معاصيكم وزلاتكم الجلية والخفية ﴿بَصِيرٌ﴾ لأن جميعها بمنظر منه ومراة ، كأنه يدرك جميعها بحسن البصر.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفُ رُبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ (٤) و (٥)﴾

ثم بين سبحانه أنّ وظيفة الإيمان التبري من الأهل والأقارب إذا كانوا مشركين ، كما تبرأ إبراهيم ﷺ والمؤمنون به من أقاربهم بقوله : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون بمحمد ﷺ ﴿أُسْوَةٌ﴾ وقدوة وتبعة ﴿حَسَنَةٌ﴾ مرضية كاملة ﴿فِي﴾ عمل ﴿إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ﴾ آمنوا بالله وشاركوا ﴿مَعَهُ﴾ في التوحيد من سائر الأنبياء والأولياء والمؤمنين ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ وأقاربهم المشركين ﴿إِنَّا بُرَآءُ﴾ ومتنفرون ﴿مِنْكُمْ﴾ لشرككم ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان والكواكب وغيرها وأعداؤكم وأعداؤها.

ثم بالغوا في تبريهم منهم بقولهم : ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ وتبرأنا منكم ، كما عن أمير المؤمنين ﷺ (١) ، أو أنكزنا دينكم ﴿وَبَدَا﴾ وظهر ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لاختلافنا في الدين ﴿الْعَدَاوَةُ﴾ وطلب الشر والضرر لكم ﴿وَالْبَغْضَاءُ﴾ والغضب عليكم ﴿أَبَدًا﴾ دائما ﴿حَتَّى﴾ تتركوا الشرك و﴿تُؤْمِنُوا﴾ عن صميم القلب ﴿بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ فحينئذ تنقلب العداوة والبغضاء بالصدقة والمحبة والالفة ، فعليكم أيها المؤمنون الاقتداء بإبراهيم ﷺ في أقواله ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ إشفاقا ﴿لِأَبِيهِ﴾ أزر المشرك برجاء إيمانه ، ولموعدة وعدها إياه ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ يا أبه ، فإن الاستغفار هو الذي أقدر عليه ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ﴾ وليس في قدرتي ﴿مِنْ﴾ دفع عذاب ﴿اللَّهِ﴾ عنك ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ يسير إن دمت على الشرك ، وإتّما وعده الاستغفار لكونه راجيا لإيمانه بالتوحيد ، فليس لكم أيها المؤمنون أن تتأسّوا وتقتدوا بإبراهيم في استغفاره للمشرك بأن تستغفروا للمشركين ، لأنّه مودة ولغو ، لعدم إمكان المغفرة لهم ،

(١) التوحيد : ٢٦٠ / ٥ ، تفسير الصافي : ٥ : ١٦٢ .

وكذا لكم أيها المؤمنون الأسوة في إبراهيم عليه السلام ومن معه في دعائهم بقوله : ﴿رَبَّنَا﴾ ومليكنَا ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ واعتمدنا في جميع أمورنا ﴿وَإِلَيْكَ﴾ يا ربَّ ﴿أَنْبَأْنَا﴾ ورجعنا من ذنوبنا ومعاصينا بالتوبة والطاعة ﴿وَإِلَيْكَ﴾ وحدك ﴿الْمَصِيرُ﴾ والمرجع بعد الموت وحين الخروج من القبر ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا﴾ ولا تصيرنا في الدنيا ﴿فِتْنَةً﴾ وامتحانا وبلاء ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأن تسلطهم علينا ، فيظنون بذلك أنهم على الحق ، كما عن ابن عباس ^(١) .

وقيل : إنَّ المعنى لا تعدبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك ، فيقولوا : لو كان هؤلاء على الحق لما أصابهم ذلك ^(٢) ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾ واستر ذنوبنا في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفِيرُ﴾ والقادر على إنفاذ إرادتك ، فلا تذلل من لجأ إليك ﴿الْحَكِيمُ﴾ في فعالة ، فلا يصدر منك إلّا ما فيه الصلاح الأتم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ﴾
 فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ
 مِنْهُمْ مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦) و (٧)﴾

ثم أكد سبحانه وجوب التأسي بإبراهيم عليه السلام ومن معه بقوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أعني ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾ ويأمل النيل بثوابه ، ويؤمن ببقائه ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ ويصدق به ، لوضوح أنّ من يؤمن بالله ويؤمن الجزاء لا يترك التأسي بإبراهيم عليه السلام ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ ويعرض عن الاقتداء بهم ، وعن مواعظ الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ وحده ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ بالذات عنه وعن جميع خلقه ، وطاعتهم ونصرتهم لدينه ﴿الْحَمِيدُ﴾ والحمد في ذاته وصفاته ، أو المستحق للحمد وإن لم يكن حامدا ﴿عَسَى اللَّهُ﴾ والرجاء منه ﴿أَن يَجْعَلَ﴾ ويوجد ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَبَيْنَ﴾ الكفار ﴿الَّذِينَ عَادَيْتُمْ﴾ وباغضتم ﴿مِنْهُمْ﴾ بسبب اختلاف الدين ﴿مَّوَدَّةً﴾ ومحبة بأن يوفقهم للاسلام ويوافقهم معكم في الدين ، كما جعل باسلام جميع أهل مكة ومخالطتهم أصحاب الرسول ومناكحتهم فيهم ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على قلبه قلوبهم وتغيير سوء أخلاقهم إلى حسناتها ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن أسلم ، أو لمن فرط منكم في موالاتهم من قبل ﴿رَحِيمٌ﴾ بالمؤمنين.

عن الباقر عليه السلام : « أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ نَبِيَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالْبَرَاءَةِ مِنْ قَوْمِهِمْ مَا دَامُوا كُفَرًا ، فَقَالَ : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قَطَعَ اللَّهُ وَلَايَةَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ ، وَأَظْهَرُوا لَهُمُ الْعَدَاوَةَ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَّوَدَّةً﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَ أَهْلُ مَكَّةَ خَالَطَهُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم »

(٢١) تفسير الرازي ٢٩ : ٣٠٢ .

وناكحهم ، وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب » (١) .

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ

تَبْرُوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨)﴾

ثمَّ أنه تعالى بعد أمر المؤمنين بالانقطاع عن الكفار وترك موالاتهم ، رخص سبحانه في مواصلة الذين لم يظهروا العداوة ولم يضرّوهم بقوله تعالى : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ﴾ ولا يمنعكم أيها المؤمنون ﴿عَنِ﴾ الكفار ﴿الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ ولم يقدموا على حربكم لاطفاء نور الله ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ وأوطانكم من ﴿أَنْ تَبْرُوهُمْ﴾ وتحسنوا إليهم بتطبيب قلوبهم ، وحسن عشرتهم ، وبذل المال لهم ﴿وَتُقْسِطُوا﴾ وتؤدّوا حقوقهم ﴿إِلَيْهِمْ﴾ ولا تظلموهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ والعادلين في معاملاتهم . قيل : إنّ المراد من هذا القسم من الكفار ، هم الذين عاهدوا الرسول ﷺ على ترك القتال والمظاهرة في العداوة ، وهم خزاعة ، فاتّهم عاهدوا رسول الله ﷺ على أن لا يقاتلوه ولا يخرجوه ، فأمر الرسول ﷺ بالوفاء إلى مدّتهم والبرّ بهم ، كما عن ابن عباس (٢) .

وعنه : اتّهم قوم من بني هاشم منهم العباس أخرجوهم يوم بدر كرها (٣) . وقيل : هم الذين آمنوا بمكة ولم يهاجروا (٤) . وقيل : اتّهم التّسوان والصبيان (٥) . وقيل : إنّ المسلمين استأثروا رسول الله ﷺ في أقربائهم من المشركين (٦) .

وعن ابن الزبير : أنّ فتيلة أمّ أسماء بنت أبي بكر قدمت عليها وهي مشركة بهدايا ، فلم تقبلها ، ولم تأذن لها في الدخول ، فنزلت الآية ، فأمر النبي ﷺ أن تدخلها وتقبل منها وتكرمها وتحسن إليها (٧) .

﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ
وَوَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٌ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ
بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ
وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآثُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا

(١) تفسير القمي ٢ : ٣٦٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١٦٣ .

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ٣٠٣ .

(٣-٦) تفسير الرازي ٢٩ : ٣٠٤ .

(٧) تفسير الرازي ٢٩ : ٣٠٤ .

آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ

أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩) و (١٠)

ثم بين سبحانه أنّ النهي عن تولي عتاة المشركين والكفار بقوله : ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ﴾ و يمنعكم أيها المؤمنون ﴿عَنِ﴾ الكفار ﴿الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ و نازلوكم لإطفاء نوره ﴿وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ وأوطانكم كجبايرة أهل مكة ﴿وَوَظَاهِرُوَا﴾ وعاونوا قريشا ﴿عَلَى إِخْرَاجِكُمْ﴾ من مكة عن ﴿أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ وتوادوهم ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ﴾ ويتوَدّد معهم ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم بعضيان الله وبوضع الودّ موضع العداوة.

ثم أنّه تعالى بعد بيان حكم معاملة المؤمنين مع الفريقين من الكفار ، بين سبحانه حكم النساء اللاتي يأتين المؤمنين مظهرات للإيمان بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ﴾ النساء اللاتي يدعين أنّهن ﴿الْمُؤْمِنَاتُ﴾ بألسنتهنّ حال كونهنّ ﴿مُهَاجِرَاتٍ﴾ إليكم من أوطاننّ ، ولم تعلموا صدقهنّ في دعوى الإيمان ﴿فَافْتَحْنُوهُنَّ﴾ واختبروهنّ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ الحقيقي ، لعلمه بسرائر الخلق ، وأنتم لا تعلمون إلاّ بالآمارات والامتحان.

قيل : إنّ من أرادت منهنّ إضرار زوجها قالت : ساهاجر إلى محمد (١) .

روي أنّ النبي ﷺ كان يقول للتي يمتحنها : « بالله الذي لا إله إلا هو ، ما خرجت عن بغض زوجي ، بالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، بالله ما خرجت التماس دنيا ، بالله ما خرجت حبّاً لرجل من المسلمين ، بالله ما خرجت لحدث أحدثه ، بالله ما خرجت إلا رغبة في الاسلام وحبّاً لله ولرسوله » (٢) .

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ بعد الامتحان ﴿مُؤْمِنَاتٍ﴾ صادقات في دعوى الإيمان ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ﴾ ولا تردّوهنّ ﴿إِلَى﴾ أزواجهن من ﴿الْكُفَّارِ﴾ لأنّه ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ لانقطاع علقه الزوجية بينهما بالإيمان ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهَا﴾ لوضوح ارتفاع الزوجية من الجانبين لا من جانب واحد.

وقيل : إنّ الجملة الاولى لبيان زوال النكاح الأول ، والثانية لبيان امتناع النكاح الجديد (٣) ، أو للتأكيد ، وأعطوا أزواجهنّ الكفرة (٤) ﴿وَأَتَوْهُنَّ﴾ من مال المؤمنات ، أو من بيت المال ﴿مَا أَنْفَقُوا﴾ عليهنّ ودفعوا إليهنّ من المهور.

روي أنّ صلح الحديبية كان على أنّ من أتى المسلمين من الكفار ردّوه إليهم ، فجاءت سبيعة

بنت

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٤٨٢ .

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ٣٠٥ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٨٢ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٤٨٣ .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ٣٠٥ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٨٣ .

الحارث الأسلمية مسلمة ، والنبي ﷺ بالحديبية ، فأقبل مسافر المخزومي زوجها طالبا لها ، فقال : يا محمد ، اردد علي امرأتي فانك قد شرطت أن تردّ علينا من أتاك منا ، فنزلت الآية. فقال رسول الله ﷺ : « إنما الشرط كان في الرجال دون النساء » فاستحلفها رسول الله ﷺ فحلفت ، فأعطى زوجها ما أنفق ^(١) .

وعن القمي رحمه الله : إذا لحقت امرأة من المشركين بالمسلمين تمتحن بأن تحلف بالله إنّه لم يحملها على اللّحوق بالمسلمين بغض زوجها الكافر ، ولا حبّ أحد من المسلمين ، وإنّما حملها على ذلك الاسلام ، فاذا حلفت على ذلك قبل إسلامها وأتوهم ما أنفقوا ، يعني تردّ المسلمة على زوجها الكافر صداقها [ثم يتزوجها المسلم] ^(٢) .

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿أَنْ﴾ تتزوّجوا المهاجرات و﴿تَنْكِحُوهُنَّ﴾ خلوهنّ عن الزوج بالاسلام ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ وحين أعطيتموهنّ ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ والتزمتن مهورهنّ ، فإنّه لا يكفي ما أعطى الزوج عن المهر ﴿وَلَا تُمْسِكُوا﴾ ولا تعتدّوا ﴿بِعَصَمِ﴾ النساء ﴿الْكُوفَرِ﴾ ونكاحهنّ لبطلانه بسبب الاختلاف في الدين.

عن ابن عباس : من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدّ بها من نسائه ^(٣) ، يعني لا يعدّها من الأربع ، بل يجوز تزويج غيرها ونكاح اختها.

عن الباقر عليه السلام - في هذه الآية - قال : « يقول : من كانت عنده امرأة كافرة - يعني على غير ملة الاسلام - وهو على ملة الاسلام ، فليعرض عليها الاسلام ، فان قبلت فهي امرأته ، وإلا فهي بريئة منه ، فنهى الله أن يمسك بعصمتها » ^(٤) .

وعنه عليه السلام قال : « لا ينبغي نكاح أهل الكتاب » قيل : وأين تحريمه ؟ قال : « قوله : ﴿لَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ﴾ » ^(٥) .

أقول : يعارضه أخبار معتبرة ، فلا بدّ من حملها على الكراهة ﴿وَسَلُّوا﴾ أيها المؤمنون من الكفار ، واطلبوا منهم ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ من مهور نسائكم إذا لحقن بهم ﴿وَلَيْسَلُوا﴾ اولئك الكفار ، ويطلبوا منكم ﴿مَا أَنْفَقُوا﴾ وأعطوا من مهور نسائهم ، إذا لحقن بكم ﴿ذَلِكَ﴾ الأحكام ﴿حُكْمُ اللَّهِ﴾ الذي ﴿يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ وبين الكفار ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح العباد ﴿حَكِيمٌ﴾ يشرّع ما تقتضيه حكمته.

(١) تفسير أبي السعود ٨ : ٢٣٩ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٨٣ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٦٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١٦٤ .

(٣) تفسير أبي السعود ٨ : ٢٣٩ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٨٥ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٦٣ ، تفسير الصافي ٥ : ١٦٤ .

(٥) الكافي ٥ : ٣٥٨ / ٧ ، تفسير الصافي ٥ : ١٦٥ .

﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابْتُمْ فَاَتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ

أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١)﴾

ثم لما حكم الله تعالى أن يسأل المسلمون من الكفار مهر المرأة المسلمة إذا ذهبت إليهم ، ويسأل الكفار من المسلمين مهر نسائهم إذا جاءت إليهم مسلمة ، أقرّ المسلمون بحكم الله ، وأبى المشركون العمل به ، بيّن سبحانه حكم ذلك بقوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ﴾ وانفلت منكم أيها المسلمون ﴿شَيْءٌ﴾ واحد ﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ وذهبت ﴿إِلَى الْكُفَّارِ﴾ ولم يمكنكم إرجاعها.

قيل : إطلاق الشيء على أحد للتحقير ^(١) . وقيل : للإشباع في التعميم ^(٢) . وقيل : يعني شيء من مهور أزواجكم ^(٣) ونسائكم ﴿فَعَابْتُمْ﴾ وغنمتم من الكفار كما عن ابن عباس ^(٤) أو جاءت نوبتكم من أداء المهر وتزوجتم باخرى عقيها ﴿فَاَتُوا﴾ وأعطوا المسلمين ﴿الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ﴾ إلى الكفار من الغنيمة ، أو من مهر المرأة المسلمة التي جاءت إلى المسلمين ﴿مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ على أزواجهم الفاتئة من المهر ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ في العمل بأحكامه ولا تخالفوه ، فإنّ الايمان مقتضي لذلك.

قيل : نزلت الآية في عمر بن الخطاب ، كانت عنده فاطمة بنت أبي امية ابن المغيرة ، فكرهت المحجرة ، وأقامت مع المشركين ، فنكحها معاوية بن أبي سفيان ، فأمر الله تعالى رسوله أن يعطي عمر مثل صداقها ^(٥) .

وقيل : لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة ، فأعطى رسول الله ﷺ أزواجهم مهور نسائهم من الغنيمة ^(٦) .

وعنهما عليه السلام : سئلا ما معنى العقوبة هنا ؟ قال : « إنّ الذي ذهبت امرأته ، فعاقب على امرأة اخرى غيرها - يعني تزوّجها - فاذا هو تزوّج امرأة اخرى غيرها فعلى الامام أن يعطيه مهر امرأته الذاهبة».

فستلا كيف صار المؤمنون يردّون على زوجها المهر بغير فعل منهم في ذهابها ، وعلى ^(٧) المؤمنين أن يردّوا على زوجها ما أنفق عليها ممّا يصيب المؤمنون ؟ قال : « يردّ الامام عليه ، أصابوا من الكفار أو لم يصيبوا ، لأنّ على الامام أن يجبر ^(٨) حاجته من تحت يده ، وإن حضرت القسمة فله أن يسدّ كلّ نائبة تنوبه قبل القسمة ، وإن بقي بعد ذلك شيء قسمه بينهم ، وإن لم يبق شيء فلا شيء لهم » ^(٩) .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا

(٣-١) تفسير أبي السعود ٨ : ٢٤٠ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٨٦ .

(٤) تفسير الرازي ٢٩ : ٣٠٧ .

(٥) تفسير الصافي ٥ : ١٦٥ .

(٦) جوامع الجامع : ٤٩١ .

(٧) في النسخة : قيل على .

(٨) في علل الشرائع : ينجز ، وفي تفسير الصافي : يحجز .

(٩) علل الشرائع : ٥١٧ / ٦ ، تفسير الصافي ٥ : ١٦٥ .

يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ
وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِعَهُنَّ وَاسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ (١٢)

ثمَّ أتت تعالى بعد بيان حكم هجرة النساء وتزويج المسلمين إياهن ، بين كيفية بيعتهن بقوله : ﴿يَا
أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ﴾ النساء ﴿الْمُؤْمِنَاتُ﴾ بقصد أن ﴿يُبايِعَنَّ﴾ ويعاهدنك ﴿عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾
من الأصنام والأوثان والكواكب والملائكة وغيرها ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ ولا يأخذن أموال أزواجهن^(١) وغيرهم
خفية بغير إذن مالكنها ﴿وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ بشرب الدواء والحركات الموجبة لسقطهن وغير
ذلك من الأسباب ، أو المراد قتلهن البنات ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ﴾ ونسبة الولد كذبا إلى أزواجهن حال كونهن
﴿يَفْتَرِينَهُ﴾ ببطونهن اللاتي ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾ وفروجهن اللاتي بين أرجلهن.

قيل : كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها : هذا ولدي منك ، فذلك البهتان المفترى بين
أيديهن ﴿وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ ، وذلك أنَّ الولد إذا رضعته الأم وضعت بين يديها ورجليها ، أو بطنها الذي تحمله
فيه بين يديها ، ومخرجه بين رجليها^(٢) .

عن ابن عباس : يعني لا تلحق بزوجها ولدا ليس منه^(٣) .

﴿وَلَا يَعْصِيَنَّ فِي﴾ عمل ﴿مَعْرُوفٍ﴾ وحسن تكلّفهن به من فعل أو ترك.

حكى بعض أكابر مفسري العامة : أنَّ المراد هو النهي عن النّياحة ، والدعاء بالويل ، وتمزيق
الثوب ، وشف الشعر ونشره ، وخمش الوجه^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام : « هو ما فرض الله عليهن من الصلاة والزكاة ، وما أمرهن به من خير »^(٥) .

﴿قَبَائِعَهُنَّ﴾ على ما ذكر ﴿وَاسْتَغْفِرَ لَهُنَّ﴾ الله لطفاً عليهن ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوب المؤمنين

﴿رَحِيمٌ﴾ بهم بإعطاء الثواب العظيم.

روى الفخر الرازي : أنَّ النبي ﷺ لما فرغ منبيعة الرجال يوم الفتح ، أخذ فيبيعة النساء وهو
على الصفا ، وعمر أسفل منه يبايع النساء بأمر النبي ﷺ ، فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان
متنقعة متنكرة خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها ، فقال ﷺ : « ابايعكن على أن لا تشركن بالله
شيئاً » فرفعت

(١) في النسخة : زوجهن.

(٢) جوامع الجامع : ٤٩١ ، تفسير الرازي ٢٩ : ٣٠٨ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٨٩ .

(٣) مجمع البيان ٩ : ٤١٤ ، تفسير الرازي ٢٩ : ٣٠٨ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٤٨٩ .

(٥) تفسير القمي ٢ : ٣٦٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٦٦ .

هند رأسها ، وقالت : والله لقد عبدنا الأصنام ، وإِنَّكَ لتأخذ علينا أمرا ما رأيناك أخذته على الرجال ،
تبايع الرجال على الاسلام والجهاد فقط ؟

فقال ﷺ : « ولا تسرقن » فقالت هند : إِنَّ أبا سفيان رجل شحيح ، وإِنِّي أصبت من ماله
هناة ، فما أدري أتَحَلَّ لي أم لا ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غير فهو لك
حلال. فضحك رسول الله وعرفها ، فقال لها : « وإِنَّكَ لهند بنت عتبة ؟ » قالت : نعم ، فاعف عما
سلف يا نبي الله ، عفا الله عنك.

فقال : « ولا تزني » قالت : أتزني الحرّة ؟ فقال : « ولا تقتلن أولادكم » فقالت : ربّيناهم
صغارا ، وقتلتهم كبارا ، فأنتم وهم أعلم ، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر. فضحك
عمر حتى استلقى ، وتبسّم رسول الله ﷺ .

فقال : « ولا يأتين بهتان يفتريه » وهو أن تقذف على زوجها ما ليس منه ، فقالت هند : إن
البهتان لأمر قبيح ، وما تأمرنا إلّا بالرشد ومكارم الأخلاق.

فقال ﷺ : « ولا تعصيني في معروف » فقالت : والله ما جلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك
في شيء ، انتهى ^(١) .

في كيفية أخذ النبي ﷺ البيعة من النساء

قال بعض العامة : إنّ مبايعة عمر إِيّاهن من قبل رسول الله ﷺ ^(٢) ؛ لأنّه لا يجوز للرسول
ﷺ مسّ أيدي الأجنبية.

أقول : كذلك والله لا يجوز لعمر مسّها بطريق أولى ، ورووا أنّ النبي ﷺ كلف امرأة وفقت على
الصفاء فبايعتهنّ ، وهي اميمة اخت خديجة ^(٣) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « لما فتح رسول الله ﷺ مكّة بايع الرجال ، ثمّ جاءت النساء يبايعنه
، فأَنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ الآية ، قالت هند : أمّا الولد فقد ربّيناهم صغارا وقتلتهم كبارا. وقالت أمّ
الحكم بنت الحارث بن هشام ، وكانت عند عكرمة بن أبي جهل : يا رسول الله ، ما ذلك المعروف الذي
أمرنا الله أن لا نعصيك فيه ؟ قال : لا تلطمن خدّا ، ولا تحمشن وجهها ، ولا تنتفن شعرا ، ولا تشققن
جيبا ، ولا تسودن ثوبا ولا تدعين بالويل ، فبايعهنّ رسول الله ﷺ على هذا. فقالت : يا رسول الله
كيف نبايعك ؟ قال : إِنّي لا اصافح النساء ، فدعا بقدر من ماء ، فأدخل يده فيه ، ثمّ أخرجها ، فقال
: ادخلن أيديكنّ في هذا الماء ، فهي البيعة » ^(٤) .

(١) تفسير الرازي ٢٩ : ٣٠٧ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٤٩١ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٤٩١ .

(٤) الكافي ٥ : ٥٢٧ / ٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١٦٦ .

وعنه عليه السلام قال : « جمعته حولي ، ثم دعا بتور برام ^(١) ، فصبت فيه ماء نضوحا ، ثم غمس يده فيه ، ثم قال : اسمعن يا هؤلاء ، ابايعكن على أن لا تشركن بالله شيئا - إلى آخر ما في الآية - ثم قال : أقررتن ؟ قلن : نعم ، فأخرج يده من التور ، ثم قال لمن : اغمسن أيديكن فيه ، ففعلن ، فكانت يد رسول الله صلى الله عليه وآله أطيب من أن يمس بها كفّ انثى ليست [له] بمحرم ^(٢) .

وروي عن عائشة أنها قالت : « ما أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله قطّ إلّا بما أمر الله ، وما مسّت كفّ رسول الله صلى الله عليه وآله كفّ امرأة قطّ ، وكان يقول إذا أخذ عليهنّ قد بايعتك على كلّها ، فاذا أقرن بذلك من قولهنّ ، قال لمنّ : انطلقن فقد بايعتكن ^(٣) .

وروي بعض العامة أنّ النبي صلى الله عليه وآله بايعهنّ وبين يديه وأيديهنّ ثوب قطريّ - وهو ضرب من البرد - يأخذ بطرف منه ويأخذن بالطرف الآخر ^(٤) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا

يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣) ﴾

ثم أكد سبحانه النهي عن مولاة الكفار ، أو عن مولاة خصوص اليهود بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ عن ابن عباس يقول : لا تتولّوا اليهود والمشركين ، وذلك لأنّ جمعا من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين لحاجتهم إليهم ، فنهوا عنه ، ولما كان اليهود قد كذبوا محمدا صلى الله عليه وآله ، وهم يعرفون أنّه رسول الله ، وأنهم أفسدوا آخرتهم بتكذيبهم إياه ^(٥) ، فهم ﴿ قَدْ يَئِسُوا ﴾ وقطعوا الطمع ﴿ مِنْ ﴾ نعيم الدار ﴿ الْآخِرَةِ ﴾ وثوابها ﴿ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ ﴾ الذين ماتوا على كفرهم وصاروا جميعا ﴿ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ فاتّهم عاينوا الآخرة ، وعلموا بخذلانهم فيها ، وعدم حظّهم منها. روي عن مقاتل : أنّ الكافر إذا وضع في قبره أتاه ملك شديد الانتهار ، ثمّ يسأله من ربّك ، ومن نبيّك ؟ فيقول : لا أدري. فيقول الملك : أبعدك الله ، أنظر إلى منزلك في النار ، فيدعو بالويل والثبور ، ويقول : هذا لك ، فيفتح باب الجنة فيقول : هذا لمن آمن بالله ، فلو كنت آمنت بربّك نزلت الجنة ، فيكون حسرة عليه ، وينقطع رجاء ويعلم أنّه لا حظّ له فيها ، فيئأس من خير الجنة ^(٦) .

(١) التور : هو إناء من صفر أو حجارة كالإبجانة ، وقد يتوضأ منه ، والبرمة : القدر مطلقا ، وجمعها برام ، وهي في الأصل المتخذة من الحجر المعروف بالحجاز واليمن.

(٢) الكافي ٥ : ٥٢٦ / ٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١٦٧ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٤٩١ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٤٩١ .

(٥) تفسير الرازي ٢٩ : ٣٠٩ .

(٦) تفسير روح البيان ٩ : ٤٩٢ .

وقيل : إنّ المعنى كما يؤسوا من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا إلى الدنيا أحياء ^(١) .
عن السجاد عليه السلام : « من قرأ سورة الممتحنة في فرائضه ونوافله ، امتحن الله قلبه للايمان ، ونور
له بصره ، ولا يصيبه فقر أبدا ، ولا جنون في بدنه ، ولا في ولده » ^(٢) .
الحمد لله والشكر له على التوفيق لاتمام تفسيرها.

(١) تفسير أبي السعود ٨ : ٢٤١ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٩٢ .

(٢) ثواب الاعمال : ١١٨ ، مجمع البيان ٩ : ٤٠٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١٦٧ .

في تفسير سورة الصف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾

ثم لما ختمت سورة الممتحنة المبدوءة والمختتمة بالنهاي عن موالات أعداء الله واليهود الذين غضب الله تبارك وتعالى عليهم ، نظمت سورة الصف التي فيها الترغيب إلى معاداة أعداء الله والاصطفاف في مقابلهم في ميدان الجهاد طلبا لمرضاة الله تعالى ، فابتدأها سبحانه بذكر الأسماء الحسنى بقوله تبارك وتعالى : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم أعلن سبحانه بكمال عظمتة المقتضية لتعظيمه وتحصيل القرب منه والمحبة عنده بقوله : ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وقد مرّ تفسيره مرارا .
ثم وبّخ سبحانه المؤمنين على تخلفهم عن وعدهم بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ﴾ ولأيّ علة تظهرون وتعدون ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ولا تفنون به . روي أنّ المسلمين كانوا يقولون : لو علمنا أحبّ الأعمال إلى الله ، لبذلنا أموالنا وأنفسنا فيه ، فلمّا نزل الجهاد كرهوه ، فنزلت الآية ^(١) توبيخا عليهم بعدم وفائهم بقولهم .

في وجوب الوفاء بالوعد وعدمه

ثمّ عظم الله سبحانه قبح ترك العمل بالقول وخلف الوعد بقوله : ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ وعظم بغضا ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي علمه ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أيّها المؤمنون ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ .
عن أمير المؤمنين عليه السلام : « الخلف يوجب المقت عند الله وعند الناس ، قال الله : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ لآية » ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « عدة المؤمن أخاه نذر لا كفارة له ، فمن أخلف فيخلف الله بدأ ، ولمقته تعرض ،

(١) تفسير الصافي ٥ : ١٦٨ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٩٣ .

(٢) نصح البلاغة : ٤٤٤ الكتاب ٥٣ ، تفسير الصافي ٥ : ١٦٨ .

وذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ﴾ ... الآيتان ^(١) .

أقول : ذهب بعض الأعاضم إلى وجوب الوفاء بالوعد ، وقال به صاحب المستند ^(٢) ، وادّعى بعض الإجماع على عدم وجوبه ، والأحوط الاهتمام بالوفاء .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ * وَإِذْ قَالَ
مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا
أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٤) و (٥)

ثمّ أنّه تعالى بعد توبيخ المخالفين للوعد الذين وعدوا بالقتال وتخلّفوا عنه ، وإظهار غضبه عليهم ، مدح المؤمنين المقاتلين لاعلاء كلمة التوحيد بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾ أعداءه ﴿فِي سَبِيلِهِ﴾ وطريق مرضاته ، ولإعلاء كلمة الحقّ حال كونهم ﴿صَفًّا﴾ وقائمين في مقابل الأعداء في معركة القتال مستويين وثابتين ومستقرين ، ومنضمّين بعضهم ببعض ﴿كَانَهُمْ بُنْيَانٌ﴾ وجدار ﴿مَرْصُوصٌ﴾ ومستحکم لا يتحرّك من مكانه ، ولا يكون فيه الخلل والفرج .

عن ابن عباس : يوضع الحجر على الحجر ، ثمّ يرصّ بأحجار صغار ، ثمّ يوضع اللّبن عليه ، فيسمّيه أهل مكّة المرصوص ^(٣) .

وعن ابن جبير : هذا تعليم الله للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوّهم ^(٤) .

ثمّ لما كان مخالفة المنافقين وعدهم بالقتال سببا لإيذاء النبي ﷺ وإنكسار قلبه الشريف ، سلّاه سبحانه بشكاية موسى من إيذاء قومه بقوله : ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ قيل : إنّ التقدير واذكر يا محمد وقت ^(٥) قال ﴿مُوسَى﴾ بن عمران مع كونه صاحب المعجزات الباهرة ﴿لِقَوْمِهِ﴾ وطائفته ، وهم بنو إسرائيل ، بعد ما أفرطوا في إيذائه بالقول والفعل : ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ﴾ بالمخالفة والعصيان فيما أمركم به ﴿وَالْحَالِ أَنْتُمْ﴾ ﴿قَدْ تَعْلَمُونَ﴾ بالأدلة الواضحة والمعجزات الباهرة ﴿أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ الذي أرسلت ﴿إِلَيْكُمْ﴾ لهدايتكم إلى الدين الحقّ وإرشادكم إلى السعادة الأبدية ، فعليكم أن تعظّموني وتوقّروني ، وتحسنوا إليّ ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ ومالوا عن الحقّ ، وأصرّوا على العقائد الفاسدة ، ولم يتّعظوا بمواعظه ﴿أَزَاغَ اللَّهُ﴾ وصرف ﴿قُلُوبَهُمْ﴾ عن قبول الدين الحقّ ، بالطبع عليها ، وتسليط الشيطان عليهم ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ ولا يوفق للوصول إلى الخير والسعادة ﴿الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ والخارجين عن حدود العقل

(١) الكافي ٢ : ٢٧٠ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٦٨ .

(٢) مستند الشيعة ٢ : ٣٨٩ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩ : ٣١٢ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٩٥ .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٤٩٥ .

(٥) تفسير أبي السعود ٨ : ٢٤٣ ، تفسير روح البيان ٩ : ٤٩٦ .

وطريق الصواب.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٦)

في بشارة عيسى عليه السلام ببعثة محمد ﷺ

ثم سلاه بمخالفة قوم عيسى عليه السلام إياه بقوله : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لبني إسرائيل مناديا لهم استمالة لقلوبهم إلى تصديقه : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ الذي ارسلت ﴿إِلَيْكُمْ﴾ لدعوتكم إلى التوحيد والدين المرضي عند الله ، وحثتكم حال كوني ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾ وانزل قبلي عليكم ﴿مِنْ﴾ كتاب ﴿التَّوْرَةِ﴾ الذي جاء به موسى ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ إياكم ﴿بِرَسُولٍ﴾ عظيم الشأن الذي ﴿يَأْتِي﴾ من قبل الله ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ وبعد ذهابي من بينكم. ثم كأنه قيل : ما اسمه ؟ قال : ﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ .

عن النبي ﷺ قال : « أنا دعوة إبراهيم ، وبشرى عيسى » (١) .

عن الصادق عليه السلام قال : « لما أن بعث الله عيسى عليه السلام قال : إنه سوف يأتي من بعدي نبي اسمه أحمد من ولد إسماعيل يحيى بتصديقي وتصديقكم وعذري وعذرهم » (٢) .

وعن الباقر عليه السلام قال : « لم تزل الأنبياء تبشّر بمحمد ﷺ حتى بعث الله المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فبشّر بمحمد ﷺ ، وذلك قوله : ﴿يَجِدُونَهُ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿مَكْتُوبًا﴾ يعني صفة محمد ﷺ واسمه ﴿عِنْدَهُمْ﴾ يعني في التوراة والإنجيل - إلى أن قال - : [وهو قول الله عز وجل] يخبر عن عيسى عليه السلام : ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ » (٣) .

وعنه عليه السلام : « أن اسم النبي ﷺ في صحف إبراهيم الماحي ، وفي توراة موسى الحاذ ، وفي إنجيل عيسى أحمد ، وفي الفرقان محمد » (٤) .

وعن القمي : أنه سأل بعض اليهود لم سميت أحمد ؟ قال : « لأني في السماء أحمد مّي في الأرض » (٥) .

ثم وبّخ سبحانه أمة عيسى عليه السلام أو أمة محمد ﷺ بقوله : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ محمد أو عيسى عليه السلام

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٤٩٨ .

(٢) الكافي ١ : ٢٣٢ / ٣ ، تفسير الصافي ٥ : ١٦٩ .

(٣) الكافي ٨ : ١١٧ / ٩٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١٦٩ .

(٤) من لا يحضره الفقيه ٤ : ١٣٠ / ٤٥٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٦٩ .

(٥) تفسير القمي ٢ : ٣٦٥ ، وفيه : وأما أحمد فاني في السماء أحمد منه ، تفسير الصافي ٥ : ١٦٩ .

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات ﴿قَالُوا﴾ عنادا ولجاجة ﴿هَذَا﴾ الذي جاءنا به باسم المعجزة ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وشعبذة ظاهرة ، لا يشك أحد في كونه سحرا وشعبذة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٧) و (٩)﴾

ثم بين سبحانه أنّ الذين ينسبون المعجزات إلى السحر أظلم الناس بقوله : ﴿وَمَنْ﴾ هو ﴿أَظْلَمُ﴾ وأكثر إضرارا على نفسه ﴿مِمَّنِ﴾ نسب كلام الله ، أو المعجزات التي جاء بها رسوله إلى السحر و﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ﴾ ونسب إليه ﴿الْكَذِبَ﴾ بنسبة الكذب إلى رسوله ﴿وَهُوَ يُدْعَى﴾ بلسان رسوله ﴿إِلَى﴾ دين ﴿الْإِسْلَامِ﴾ أو إلى السلامة من المكاره في الدارين ، والسعادة في النشأتين ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ ولا يرشد ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ على الله بتضييع حقوقه ، وعلى أنفسهم بإهلاكها في الآخرة إلى ما فيه سعادتهم وخيرهم وفلاحهم أولئك الظالمون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾ ويحمدوا ﴿نُورَ اللَّهِ﴾ ويطلبوا دينه أو حجته ، أو يوهنوا كتابه ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وأفواههم الفاسدة ومطاعنهم الرذلة ، كمن يريد أن يطفى نور الشمس بنفخة ﴿وَاللَّهُ﴾ القادر على كل شيء ﴿مُنِيرُ نُورِهِ﴾ ومكتمله ، ومظهر دينه ، ومتقن حجة رسوله ، وناشر كتابه في الآفاق ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ والمعاندون لدين الاسلام من اليهود والنصارى وغيرهم إتمامه وإكمالهم وظهوره واتقانه وانتشاره إرغاما لانوفهم ، فإنّ سعيهم في إنفاذ مرادهم كسعي الخفاش في إعدام الشمس وإطفاء نورها ﴿هُوَ﴾ الله اللطيف ﴿الَّذِي أَرْسَلَ﴾ بلطفه على عباده ﴿رَسُولَهُ﴾ محمدا إلى كافة الناس إلى يوم القيامة مصاحبا ﴿بِالْهُدَى﴾ وما به رشاد الخلق من القرآن العظيم والمعجزات الباهرات ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الذي ارتضاه لملائكته ، واختاره لرسوله وأمته ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ويعليه بقدرته وتأنيده ﴿عَلَى﴾ جنس ﴿الدِّينِ﴾ المخالف لما جاء به ﴿كُلِّهِ﴾ بحيث لا يبقى على وجه الأرض دين غير دينه ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ذلك الظهور والغلبة لعنادهم وتعصّبهم وحسدكم ، لأنّ فيه محض التوحيد بكماله ، وإبطال الشرك بمراتبه جلّيته وخفيّته ، وقد أنجز الله تعالى وعده حيث جعل دينه غالبا على جميع الأديان بالحجة والسيف ، وسيكمل بفضله وحكمته إنجاز بظهور وليّه وحجّته ابن الحسن العسكري الغائب المنتظر ، فاتّه في ذلك الزمان المبارك والعصر المنور لا يبقى على وجه الأرض دين غير الاسلام وشرع خير الأنام.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) و (١٣)﴾

ثم لما بين سبحانه رسالة رسوله ، وإيتاءه بالهدى ودين الحق ، وتكميل لطفه وتفضله على العباد ، حث المؤمنين على الإخلاص في الإيمان به والجهاد معه بقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالستكم بمحمد ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ وارشدكم ﴿عَلَى تِجَارَةٍ﴾ واكتساب ومعاوضة رابحة ، تعالوا وعاملوا مع ربكم معاملة يكون أهم فوائدها أنها ﴿تُنْجِيكُمْ﴾ وتخلصكم ﴿مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ في الآخرة ، كما تنجيكم التجارة الدنيوية من عذاب الفقر وألم الفاقة.

ثم كأنه قيل : أي تجارة هي ، وكيف نعمل ، وما نصنع ^(١) ؟ فقال سبحانه : ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ أولا عن صميم القلب وخلوص النية ﴿بِاللَّهِ﴾ وبوحدانيته ﴿وَرَسُولِهِ﴾ برسالة ﴿رَسُولِهِ﴾ محمد . عن ابن عباس قال : المؤمنون : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعلمنا ، فنزلت الآية ، فمكتوها شاء الله يقولون : يا ليتنا نعلم ما هي ، فدهم الله عليها بقوله : ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ^(٢) . ﴿و﴾ بعد ذلك ﴿تُجَاهِدُونَ﴾ أعداء الله ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ونصرة دينه ﴿بِأَمْوَالِكُمْ﴾ بأن تبذلوها للفقراء والمجاهدين ﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾ بأن تبذلوا مهجكم دون رسوله ﴿ذَلِكَ﴾ الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من الدنيا وما فيها ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك لعمليتم به ، أو إن كنتم تعلمون أن العاقل لا يختار إلا ما هو خير له ، لا تختارون غير الإيمان والجهاد في سبيل الله ، فإن فائدتهما إن فعلتما ذلك ﴿يَغْفِرْ﴾ الله ﴿لَكُمْ﴾ بكرمه ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾ ويستتر عن أنظاركم وأنظار جميع الخلق يوم القيامة معاصيكم وخطاياكم ، وفي تلك المغفرة نجأتكم من العذاب ﴿و﴾ بعد ذلك ﴿يُدْخِلْكُمْ﴾ بفضلِهِ ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبساتين ذات أشجار كثيرة وقصور عالية ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة ، وبعد دخول الجنة يدخلكم منازل ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ مرضية نزهة كائنة ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ وخلود ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

سئل النبي ﷺ عن هذه المساكن الطيبة فقال : « قصر من لؤلؤ في الجنة ، في ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء ، في كل دار سبعون بيتا من زمردة خضراء ، في كل بيت سبعون وصيفا

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٥٠٥ .

(٢) تفسير الرازي ٢٩ : ٢١٧ .

ووصيفة ، فيعطي الله المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله » (١) .

قد مرّ عن ابن عباس مرارا أنّ جنة عدن علم لإحدى الجنات السبعة (٢) .

ولكم أيّها المؤمنون مع ذلك ثواب آخر ﴿و﴾ نعمة ﴿أُخْرَى﴾ في الدنيا ﴿تُحْيِيْنَهَا﴾ وتشتاقون إليها ، وهو ﴿نَصْرٌ﴾ عزيز لكم ﴿مِنْ﴾ جانب ﴿اللّهِ﴾ على أعدائكم ﴿وَفَتْحٌ﴾ مبين لمكة ، أو الروم وفارس ﴿قَرِيبٌ﴾ وعاجل ﴿وَيَنْشُرُ﴾ يا أيّها الرسول على حسب وظيفتكم ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ بي وبك بتلك النعم الدنيوية والاخرية ، وفي توصيف النعمة الدنيوية ، وهو النصر على الأعداء وفتح المسلمين بقوله : ﴿تُحْيِيْنَهَا﴾ إشعار بأنهم يؤثرون رواج الاسلام وقوة الدين على النعم الاخرية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَتِ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا

ظَاهِرِينَ (١٤)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان فوائد الايمان والجهاد ، حثّ المؤمنين على الجهاد ، ودعاهم إلى نصرته دينه بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ جاهدوا الأعداء و﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ وأعوان رسوله في إعلاء كلمة التوحيد ورواج دين الاسلام ﴿كَمَا﴾ نصر الحواريون إذ ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أو المعنى : قل يا محمد للمؤمنين بك : يا أيّها الذين آمنوا ، كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى بن مريم ﴿لِلْحَوَارِيِّينَ﴾ : يا حواريين ﴿مَنْ أَنْصَارِي﴾ وإنكم جندي وعسكري تقربا ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ أو متوجّها إليه ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ : يا نبي الله ﴿نَحْنُ﴾ كلنا ﴿أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ وحماة دينه ﴿فَأَمَنَتِ﴾ بعيسى ﴿طَائِفَةٌ﴾ وجماعة قليلة ﴿مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وأطاعوه فيما أمرهم به من نصرته دينه ﴿وَكَفَرَتِ﴾ منهم ﴿طَائِفَةٌ﴾ وجماعة اخرى.

عن ابن عباس ، قال : يعني الذين آمنوا بعيسى في زمانه ، والذين كفروا كذلك ، وذلك لأنّ عيسى لما رفع إلى السماء تفرّقوا ثلاث فرق ؛ فرقة قالوا : كان الله فارفع ، وفرقة قالوا : كان ابن الله فرفعه إليه ، وفرقة قالوا : كان عبد الله ورسوله فرفعه إليه ، وهم المسلمون ، وأتبع كلّ فرقة منهم طائفة من الناس ، واجتمعت الطائفتان الكافرتان على الطائفة المسلمة فقتلوهم وطردهم في الأرض ، فكانت الحالة

(١) مجمع البيان ٩ : ٤٢٣ ، تفسير روح البيان ٩ : ٥٠٧ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٥٠٨ .

هذه حتى بعث الله محمدا ﷺ فظهرت المؤمنة على الكافرة ^(١) ، فذلك قوله تعالى : ﴿فَأَيَّدْنَا﴾ وقوينا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منهم ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ بمحمد ﷺ ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ وصاروا اولئك المؤمنون ﴿ظَاهِرِينَ﴾ وغالبين على عدوهم بالحجة بتصديق محمد ﷺ أن عيسى عليه السلام كلمة الله وروحه.
عن الباقر عليه السلام : « من قرأ سورة الصف وأدمن قراءتها في فرائضه ونوافله ، صفه الله مع ملائكته وأنبيائه المرسلين » ^(٢) .

الحمد لله رب العالمين على إنعامه عليّ بالتوفيق لإتمام تفسير السورة المباركة.

(١) مجمع البيان ٩ : ٤٢٣ ، تفسير الرازي ٢٩ : ٣١٩ .

(٢) ثواب الأعمال : ١١٨ ، مجمع البيان ٩ : ٤١٦ ، تفسير الصافي ٥ : ١٧١ .

في تفسير سورة الجمعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ *
هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١) وَ (٣)﴾

ثم لما ختمت سورة الصفّ المبدوءة بتعظيم الله تعالى ببيان تسبيح الموجودات له بصيغة الماضي ، المتضمنة لبيان رسالة محمد ﷺ ، وبشارة عيسى عليه السلام ببعثته ، وكونه على الهدى ودين الحق ، المختمة بدعوة الناس إلى التجارة الراجعة ، وهو الايمان به والجهاد معه ، نظمت سورة الجمعة المبدوءة أيضا بتعظيم الله ببيان تسبيح جميع الموجودات له بصيغة المضارع الدالة على دوام التسبيح له في جميع الأوقات : الماضي والمستقبل ، المتضمنة لبيان رسالة محمد ﷺ وعموميتها لكافة العرب والعجم والمشركون وأهل الكتاب ، وأن نبوته ودينه من أعظم فضل الله وإنعامه على الخلق ، وذمّ المكذبين بآيات الله والمعرضين عن التوراة التي بشرت برسالته ، وحثّ الناس على ذكر الله وعبادته ، وتوبيخ المقبلين إلى التجارة الدنيوية ، وكون ما عند الله من الثواب خيرا منها ، فابتدأها بذكر الأسماء المباركات بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم عظم سبحانه ذاته المقدسة ببيان تسبيح الموجودات له بقوله : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ثم وصف ذاته بالسلطنة على جميع الموجودات المقتضية لكونها بأجمعها جنوده بقوله : ﴿الْمَلِكِ﴾ والسلطان الذي لا زوال لملكه وسلطانه ﴿الْقُدُّوسِ﴾ والمنزه والمبرأ من كل عيب ونقص ﴿الْعَزِيزِ﴾ والغالب على كل شيء ﴿الْحَكِيمِ﴾ والفاعل لما هو الأصواب والأصلح ، والواضع لكل شيء في موضعه ، والمعطي لكل شيء ما يستحقّه ويليق به ، ثم منّ على الخلق ببعثة النبي الأمي ﷺ الذي هو من آثار سلطنته وقدرته وحكمته بقوله : ﴿هُوَ﴾ السلطان القادر الحكيم ﴿الَّذِي بَعَثَ﴾ بحكمته ولطفه ﴿فِي﴾ المشركين ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾ الذين لا يعلمون الكتابة والخط ، ولم يقرءوا

شيئا. وعن ابن عباس : هم الذين ليس لهم كتاب ولا نبيّ بعث فيهم ^(١) ﴿رُسُلًا﴾ من جنس الاميين ونبيا ^(٢) ﴿مِنْهُمْ﴾ وهو محمد ﷺ الذي مع اميته ﴿يَتْلُوا﴾ ويقرأ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ كلام الله و ﴿آيَاتِهِ﴾ القرآنية التي فيها جميع العلوم والمعارف الإلهية الدالة على رسالته ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهر نفوسهم من أرجاس الأخلاق الرذيلة والصفات الدنيّة الذميمة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ السماوي ، أو الخطّ كما عن ابن عباس ^(٣) ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ قيل : هي الفرائض والسنن ^(٤) . وقيل : هي سنّته ^(٥) . وقيل : هي العظة ^(٦) .

﴿وَإِنْ﴾ الشأن أهمّ ﴿كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ وفي الأزمنة السابقة على بعثته ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وانحراف ظاهر عن الصراط المستقيم ، يعني مصرّين على الشرك ، ومجبولين على ذمائم أخلاق الجاهلية ، وكانوا في غاية الافتقار إلى الهادي إلى الحق ، والرسول المرشد إلى الصواب وسعادة الدارين.

قيل : إنّ توسيط التركيبة التي هي تكميل النفس بحسب قوّتها العلمية ، وتهديتها للتفرّع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصلة بالتعليم المرتبة على التلاوة ، للايذان بأنّ كلا من الامور المرتبة نعمة جليلة على حيالها ، مستوجبة للشكر عليها ، فلو روعي الترتيب في الوجود لتبادر إلى الفهم كون الكلّ نعمة واحدة ^(٧) .

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بُئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٣) و (٥)﴾

ثمّ بيّن سبحانه أنّ رسالته ليست مختصة بالاميين ، بل تعمّ غيرهم من أهالي جميع الأزمنة بقوله : ﴿وَأَخْرَيْنَ﴾. قيل : المعنى ويعلم الآخريّن ^(٨) ، والذين لا يكونون ﴿مِنْهُمْ﴾ بل يكونون من غيرهم كأهل الكتاب و ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ ولم يكونوا في زمانهم وسيلحقون بهم ويكونون بعدهم.

قيل : إنّ المراد غير العرب من الأعاجم كما عن ابن عباس ^(٩) ، وعن الباقر عليه السلام ^(١٠) .

وروي أنّ النبي ﷺ قرأ هذه الآية فقبل له : من هؤلاء ؟ فوضع يده على كتف سلمان ، وقال :

« لو كان »

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٣ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٥١٤ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٣ ، وفيه : والسنة .

(٤) تفسير روح البيان ٩ : ٥١٤ .

(٥) تفسير روح البيان ٩ : ٥١٤ .

(٦) تفسير الرازي ٣٠ : ٤ ، تفسير روح البيان ٩ : ٥١٥ .

(٧) تفسير الرازي ٣٠ : ٤ .

(٨) جمع البيان ١٠ : ٤٢٩ ، تفسير الصافي ٥ : ١٧٣ .

الايما ن في الشرا لناله رجال من هؤلاء» (١) .

وروي أنّ النبي ﷺ قال : « رأيتني أسقي غنما سوداء ، ثم أتبعها غنما عفرا » قيل : هو الشاة التي يعلو بياضها الحمرة. ثم قال : « أولها يا أبا بكر » فقال : يا نبي الله ، أما السّود فالعرب ، وأما العفرة فالعجم تتبعك بعد العرب. فقال ﷺ : « كذلك أولها الملك » يعني جبرئيل (٢) .
وقيل : يعني بالآخرين التابعين الذين لم يلحقوا بالصحابة في الفضل (٣) .

وقيل : إنّ آخرين عطف على اميين (٤) ، والمعنى بعث في الاميين وغيرهم من الامم والطوائف. **﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾** والمبالغ ، في العزة والغلبة ، ولذلك يمكن رجلا من الاميين من ذلك الأمر العظيم **﴿الْحَكِيمُ﴾** المبالغ في العلم ورعاية الصلاح ، ولذلك اصطفاه من كافة الناس **﴿ذَلِكَ﴾** المنصب العظيم ، أو الدين الذي جاء به **﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾** وإنعامه الفاضل الذي تستحقه دونه نعم الدنيا والآخرة **﴿يُؤْتِيهِ﴾** الله ويعطيه **﴿مَنْ يَشَاءُ﴾** إعطاءه من عباده ، وقد أعطاه محمدا ﷺ والمؤمنين به **﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾** والمواهب الجسيمة (٥) على جميع خلقه في الدنيا وبخصوص المؤمنين ، بتعليم الكتاب والحكمة في الدنيا ، وبإزالة الثواب على الايمان والأعمال في الآخرة.

ثم قيل : لما ذكر سبحانه أن محمدا ﷺ بعث إلى الاميين والمشركين ، اعترض اليهود على نبوته بأنّه مبعوث إلى العرب خاصة ، وليس مبعوثا إلينا. أجاب سبحانه عن الاعتراض بضرب المثل (٦) بقوله : **﴿مَثَلُ﴾** اليهود **﴿الَّذِينَ خُمِلُوا التَّوْرَةَ﴾** وعلموها ، وكلفوا العمل بما فيها ، وتعهّدوا القيام بها **﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾** ولم يعملوا بها ، ولم يلتزموا بما فيها في عدم الانتفاع بها **﴿كَمَثَلِ الْحَمَارِ﴾** الذي **﴿يَحْمِلُ أَثْقَارًا﴾** وكتبوا كبارا فيها علوم كثيرة ، فكما لا ينتفع الحمار بتلك الكتب والعلوم التي فيها ، ولا يدرك إلا ثقلها ، لا ينتفع اليهود بالتوراة الدالة على نبوة محمد ﷺ وعموم رسالته إلى الجنّ والإنس والعرب والعجم والأبيض والأسود ، ووجوب الايمان به على جميع الخلق إلى يوم القيامة ، وإنما قنعوا بمجرد تلاوتها ، ولم يتأملوا في معانيها ومداليل آياتها لغاية تعصّبهم وبلاذتهم **﴿بَنَسْ﴾** مثلا **﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾** وكفروا بما في التوراة من الإخبار بعموم نبوة محمد ﷺ **﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ﴾** ولا يوفّق للخير والسعادة **﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** على أنفسهم بتعريضها للهلاك الأبد والعذاب الدائم كاليهود ونظائرهم.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا﴾

(١) مجمع البيان ١٠ : ٤٢٩ ، تفسير الصافي ٥ : ١٧٢ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٥١٥ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٤ .

(٤) في النسخة : الجسيم .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ٥٠ .

الْمَوْتُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ * قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى

عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦) و (٨)

ثم لما كان اليهود مدّعين أنّهم أبناء الأنبياء ، وأنهم أولياء الله ، وأولى بالرسالة من العرب والاميين ، أمر الله نبيه ﷺ بتبہيتهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ وتديتوا بدين اليهودية ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ﴾ وتخيّلتم ﴿أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ﴾ وأحباؤه ﴿مَنْ ذُوْنَ﴾ سائر ﴿النَّاسِ﴾ من العرب والعجم ، فلا محالة تعتقدون أنّ لكم الدار الآخرة خاصة ، وأنّ الجنة ونعيمها مختصة بكم ، إذن ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ من الله ، واسألوه أن يخرجكم من الدنيا كي تصلوا إلى الجنة والتّعم الدائمة ، وتستريحوا من تعب الدنيا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في الدعوى بزعمكم مطمئنين بحقانيته.

ثم أخبر سبحانه بكذبهم في دعوى حبّ الله ، وأنّ الجنة لهم خاصة ، بل هم عالمون بأن لا حظّ لهم في النّعم الآخروية ، لعلمهم بكونهم عاصين ومشاقين لله وللرسول بقوله : ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ﴾ ولا يحبّون لقاء الله ﴿أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ وارتكبت جوارحهم من الكفر والطّغيان والذنوب والعصيان الموجب لاستحقاقهم النار ﴿وَاللَّهُ﴾ العالم بالسرائر ﴿عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ مطّلع على خواطرهم وسرائرهم من الكفر والمعاصي الموجبين لأنواع العذاب.

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بتهديدهم بالموت والعذاب بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي لَا تَتَمَنَّوْنَهُ﴾ ، بل ﴿تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ مخافة أن تعاقبوا على كفركم وسيئات أعمالكم لا يفيدكم الفرار منه ﴿فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ ومدرّكم لا محالة ﴿ثُمَّ﴾ بعد الموت ﴿تُرَدُّونَ﴾ وترجعون ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ والحاكم المطلّع على البواطن والظواهر ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ ويخبركم ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ وترتكبون من الكفر والمعاصي ، وتحريف التوراة ، وإخفاء أوصاف رسول آخر الزمان وعلائمه ، وإضلال الناس ، وإلقاء الشبهات في نبوته في القلوب ، فيعذبكم بها أشدّ العذاب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩) و (١٠)﴾

في فضيلة يوم الجمعة والعبادة فيه ، وابتداء صلاة الجمعة فيه

ثم لما بيّن سبحانه أنّ الموت ملاق الناس ولا يمكن الفرار منه ، بيّن ما يوجب الراحة عنده ، وما ينفع بعده بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدانية الله ورسالة محمد ﷺ

﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾ وَأَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ لَهَا ﴿مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ الذي هو عيد المسلمين وأشرف الأيام الذي أمر الناس بالاجتماع فيه للعبادة ، ولذا سُمِّيَ جمعة ﴿فَاسْعَوْا﴾ وأسرعوا ﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

عن الباقر عليه السلام قال : « اعملوا وعجلوا ، فاتّه يوم مضيق على المسلمين ، وثواب أعمال المسلمين على قدر ما ضيق عليهم ، والحسنة والسيئة تضاعف » . قال : « والله بلغني أنّ أصحاب النبي صلى الله عليه وآله كانوا يتجهّزون للجمعة يوم الخميس ، لأنّه يوم مضيق على المسلمين » ^(١) .

﴿وَذَرُوا﴾ واتركوا ﴿الْبَيْعَ﴾ والمعاملة ﴿ذَلِكَ﴾ السعي إلى العبادة وترك البيع ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وأنفع من التواني والمعاملة ، أو من الدنيا وما فيها ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير والشرّ ، وما في السعي من الأجر . في الحديث : « إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على باب المسجد بأيديهم صحف من فضّة وأقلام من ذهب ، يكتبون الأول فالأول على مراتبهم ، فاذا خرج الامام طويت الصّحف واجتمعوا للخطبة ، والمهاجر إلى الصلاة كالمهدي بدنة ، ثمّ الذي يليه كالمهدي بقرة ، ثمّ الذي يليه كالمهدي شاة » حتى ذكر الدّجاجة والبيضة ^(٢) .

روي أنّ النبي صلى الله عليه وآله لما قدم المدينة مهاجرا نزل قبا على بني عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، فأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسس مسجدهم ، ثمّ خرج يوم الجمعة عائدا المدينة ، فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم قد اتّخذ القوم في ذلك الموضع مسجدا ، فخطب صلى الله عليه وآله وصلى وقال فيها : « الحمد لله واستعينه واستهديه ، وأومن به ولا أكفره ، واعادي من يكفر به ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والحقّ والنور والموعظة والحكمة ، على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنوّ من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعص الله ورسوله فقد غوى وفرط وضلّ ضلالا بعيدا ، اوصيكم بتقوى الله ، فإنّ خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضّنه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله ، واحذر ما حدّركم [الله] من نفسه ... » . إلى آخر الخطبة الشريفة ^(٣) .

وروي أنّه صلى الله عليه وآله قال بعد الخطبة : « إنّ الله افترض عليكم الجمعة في يومي هذا ، وفي مقامي هذا ، فمن تركها في حياتي وبعد مماتي ، وله إمام عادل من غير عذر ، فلا بارك الله له ، ولا جمع الله شمله ،

(١) الكافي ٣ : ٤١٥ / ١٠ ، تفسير الصافي ٥ : ١٧٤ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٥٢٣ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٥٢٢ .

ألا فلا حجّ له ، ألا فلا صوم له ، ومن تاب تاب الله عليه » (١) .

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ التي نوديتُم لها ﴿فَانْتَشِرُوا﴾ وتفرّقوا ﴿فِي﴾ وجه ﴿الْأَرْضِ﴾ لإقامة مصالحكم وقضاء حوائجكم وإصلاح معاشكم ﴿وَانْتَفُوا﴾ أيّها المؤمنون ، واطلبوا لأنفسكم وأهلكم الرزق الحلال الذي هو ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ وإحسانه إليكم. روي أنّه قال : « طلب الكسب بعد الصلاة فريضة (٢) بعد الفريضة » (٣) .

وعن ابن عباس : لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا ، إنّما هو عيادة المرضى ، وحضور الجنائز ، وزيارة أخ في الله (٤) . وعن أنس ، عن النبي ﷺ ما يقرب منه (٥) .

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ في جميع الأوقات والأحوال ذكرًا ﴿كَثِيرًا﴾ ولا تخصّوا ذكره بحال الصلاة ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتنجون من المهالك ، وتفوزون بأعلى المقاصد.

عن النبي ﷺ : « إذا أتيتم السوق فقولوا : لا إله إلّا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو على كلّ شيء قدير ، فإنّ من قالها كتب الله له ألف ألف حسنة ، وحطّ عنه ألف ألف سيئة ، ورفع له ألف ألف درجة » (٦) .

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ

اللَّهِوِّ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)﴾

ثمّ لما نعى الله سبحانه المؤمنين عن البيع والتجارة وقت النداء ، وبّخ سبحانه الذين أقبلوا إلى التجارة حين خطبة النبي ﷺ بقوله : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾ سمعوا ﴿لَهْوًا﴾ وصوت طبل وصفق ﴿انْفَضُّوا﴾ وتفرّقوا من حولك متوجّهين ﴿إِلَيْهَا﴾ حبًّا للدنيا وزحارفها ﴿وَتَرَكُوكَ﴾ وحيدا ﴿قَائِمًا﴾ على المنبر .

روي أن دحية بن خليفة الكلبي قدم المدينة بتجارة من الشام ، وكان قبل إسلامه ، وكان بالمدينة مجاعة وغلاء سعر ، وكان معه جميع ما يحتاج إليه من برّ ودقيق وزيت وغيرها ، والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة ، فلمّا علم أهل المسجد ذلك قاموا إليه خشية أن يسبقوا إليه ، فما بقي معه إلّا ثمانية أو أحد عشر أو اثنا عشر أو أربعون ، وفيهم عليّ ؑ وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزيبر وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة [ابن] الجراح وسعيد بن زيد وبلال وعبد الله بن

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٥٢٤ .

(٢) في تفسير روح البيان : هو الفريضة .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٥٢٥ .

(٤) تفسير أبي السعود ٨ : ٢٥٠ .

(٥) مجمع البيان ١٠ : ٤٣٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١٧٥ .

(٦) تفسير الرازي ٣٠ : ٩ .

مسعود. وفي رواية : عمار بن ياسر [بدل عبد الله] وجابر وامرأة فقال : « والذي نفس محمد بيده لو خرجوا جميعا لأضرم الله عليهم الوادي نارا » وفي رواية : « لو لا الباقون لنزلت عليهم الحجارة » ^(١) .

ثم أمر الله سبحانه النبي ﷺ بوعظ المسلمين ونصحهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المؤمنين: اعلّموا أيّها المؤمنون أنّ ﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وأعدّه من الثواب للمصلّين ومستمعي الخطبة في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ لكم وأنفع ﴿مَنْ﴾ استماع ﴿اللَّهُو﴾ وصوت الطّبل والصّفق ﴿وَمِنْ﴾ نفع ﴿التَّجَارَةِ﴾ وتحصيل البرّ والدقيق وغيرهما لرزقكم ورزق أهليكم ﴿وَاللَّهُ﴾ القادر على كلّ شيء ﴿خَيْرُ الرَّاقِينَ﴾ فإنّ عنده خزائن السماوات والأرض ، ولا ينقص منها شيء بالعطاء ، وهو الجواد الذي لا يخل ، فاسعوا إليه واطلبوا الرزق منه.

عن الصادق عليه السلام : « الواجب على كلّ مؤمن إذا كان لنا شيعه أن يقرأ في ليلة الجمعة بالجمعة و﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وفي صلاة الظهر بالجمعة والمنافقين ، فإذا فعل ذلك فكأنّما يعمل بعمل رسول الله ﷺ ، وكان ثوابه وأجره على الله الجنة » ^(٢) .

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٥٢٦ .

(٢) ثواب الأعمال : ١١٨ ، مجمع البيان ٩ : ٤٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ١٧٦ .

في تفسير سورة المنافقين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (١) وَ (٣)﴾

ثم لما ختمت سورة الجمعة المتضمنة لبيان عظمة الله ومنته على الناس بإرسال محمد ﷺ بالرسالة ، ومنافع بعثته ، وعموم رسالته لكافة الناس إلى يوم القيامة ، ومعارضة اليهود وإلقاءهم الشبهة في عموم رسالته ، والجواب عنها ، وذم المسلمين على توجههم إلى التجارة واللهو ، نظمت سورة المنافقين المتضمنة لبيان كيد المنافقين وإلقاءهم الشبهات في رسالته ، وأمر المؤمنين بالإعراض عن الأولاد والأموال الملهين عن ذكر الله ، وإن في تركه الخسران ، فابتدأها بذكر الأسماء الحسنى بقوله تعالى : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ . ثم شرع سبحانه في ذم المنافقين بقوله : ﴿إِذَا جَاءَكَ﴾ يا محمد ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾ الذين يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر وحين حضروا عندك ﴿قَالُوا﴾ لك نفاقا وكيدا : إنا ﴿نَشْهَدُ﴾ ونقر عن اعتقاد جازم ويقين صادق ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ والمبعوث من قبله إلى الخلق لهدايتهم إلى الدين الحق ﴿وَاللَّهُ﴾ العالم بكل شيء ﴿يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ وأن شهادتهم برسالتك صدق ومطابق للواقع ﴿وَاللَّهُ﴾ مع ذلك ﴿يَشْهَدُ﴾ شهادة حقه ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ الذين يشهدون برسالتك كعبد الله بن أبي واصحابه وأضرابه ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ فيما تضمنت (١) شهادتهم من إظهار اليقين والاعتقاد بها ، أولئك الذين ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الفاجرة وجعلوها ﴿جُنَّةً﴾ وترسا ووقاية لأنفسهم من القتل والسي ، وأموالهم من النهب والغارة.

(١) في النسخة : تضمن.

قيل : إن قولهم ﴿نَشْهَدُ﴾ جار مجري اليمين في التأكيد (١) .

﴿فَصَدُّوا﴾ ومنعوا أنفسهم ، أو الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقبول دينه وطاعته وطاعة رسوله إلا
﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من التفاق والصد والكذب ﴿ذَلِكَ﴾ الحكم من الله بكذبهم ، أو بسوء
أعمالهم إنما هو ﴿بِأَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ بألستهم بتوحيد الله ورسالة رسوله ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بما بقلوبهم ، أو اظهروا
الكفر عند اهوائهم الشياطين ، أو آمنوا بالتوراة ثم كفروا بما فيها من نعوت خاتم الأنبياء ﷺ ﴿فَطُبِعَ﴾
وحتم لذلك ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بكفرهم ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ولا يفهمون القرآن وصدق محمد ﷺ في
دعوى رسالته ، أو فوائد الايمان وضرر الكفر ، أو لا يفهمون أن قلوبهم مطبوعة.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشِبَتْ مُسْنَدَةٌ
يُحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ*
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ
وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٤) و (٥)﴾

ثم إنه تعالى بعد ذمهم بكثرة مكرهم بالنبي والمسلمين ، ذمهم بقلّة فهمهم وإدراكهم بقوله :
﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ ونظرت إليهم ﴿تُعْجِبُكَ﴾ ويعظم في نفسك ﴿أَجْسَامُهُمْ﴾ من حيث الضخامة وصباحة
الوجه ﴿وَإِنْ يَقُولُوا﴾ لك قولا ﴿تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ لفصاحتهم وذلاقة لسانهم ، ولكنهم في عدم الفهم
والعقل والنفع ﴿كَأَنَّهُمْ خُشِبَتْ﴾ يابسة وعيدان غليظة ﴿مُسْنَدَةٌ﴾ ومعتمدة على الحائط ، ومن غاية
جنبهم وشدة ضعف قلوبهم ﴿يُحْسِبُونَ﴾ ويتوهمون ﴿كُلَّ صَيْحَةٍ﴾ سمعوها من أحد ونداء مناد ولو لإنشاد
ضالته ، أو انفلات دابته ، أنه من عدوهم واقعة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ حيث يتوقعون في كل ساعة أن يظهر الله
نفاقهم ويهتك سرهم ويكشف سرهم فيقصدهم المسلمون ، فاعلم يا محمد أن ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ الكاملون في
العداوة لك وللمسلمين ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ واحترز منهم أن تأمنهم على سرك وتدخلهم في أمر من امورك
﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ وأفناهم من وجه الأرض ولعنهم ، والعجب من حقهم وجهلهم أنهم ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾
وكيف يعدلون ويصرفون عن الحق مع كمال وضوحه ولمعان نوره ﴿وَوُ﴾ من حقهم أنهم ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾
نصحا من قبل المؤمنين حين ظهور فسادهم : أيها المنافقون ، ﴿تَعَالَوْا﴾ عند الرسول واتوه ﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ
رَسُولُ اللَّهِ﴾ ويسال الله العفو من ذنوبكم ﴿لَوَّا﴾ وعطفوا ﴿رُؤُسَهُمْ﴾ وأمالوا وجوههم إلى الطرف الآخر
﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ ويعرضون عن القائل

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ١٣ .

﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإتيان عند الرسول ، ويتأثفون عن أن يسألوه الاستغفار لهم .
 روي أنه لما نزل القرآن على الرسول ﷺ بدم المنافقين مشى ^(١) إليهم عشائهم من المؤمنين وقالوا لهم : ويلكم افتضحتم بالنفاق ، وأهلكتم أنفسكم ، فاتوا رسول الله وتوبوا إليه من النفاق ، واسألوه أن يستغفر لكم ، فأبوا ذلك وزهدوا في الاستغفار فنزلت ^(٢) .
 وعن ابن عباس : لما رجع عبد الله بن أبي من أحد بكثير من الناس ، مقتته المسلمون وعنفوه ، وأسمعوه المكروه ، فقال له بنو أبيه : لو أتيت رسول الله ﷺ حتى يستغفر لك ويرضى عنك ؟ فقال : لا أذهب إليه ، ولا أريد أن يستغفر لي ، وجعل يلوي رأسه . فنزلت ^(٣) .

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ * هُم الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٦) و (٧)﴾

ثم أخبر الله تعالى بعدم قابليتهم للعفو والمغفرة بقوله : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ ومساويا بالنسبة إليهم ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ يا محمد ﴿لَهُمْ﴾ إذا جاءوك معتذرين من نفاقهم وسيئات أعمالهم ﴿أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لاستكبارهم عن الاعتذار وطلب الاستغفار ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أبدا لعدم قابليتهم للعفو والمغفرة لإصرارهم على الكفر والفسوق ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ ولا يوصل إلى الخير والسعادة الأبدية ﴿الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ والجماعة الخارجين عن الدين وحدود العقل والصلاح .

ثم بين سبحانه علّة عدم قابليتهم للمغفرة وبلوغهم إلى غاية الفسق والشقاوة بقوله : ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ للأنصار جهلا وعنادا للحق : أيها الأنصار ﴿لَا تُنْفِقُوا﴾ من أموالكم ﴿عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ من المؤمنين المهاجرين إليه ﴿حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ ويتفرقوا من حوله ويرجعوا إلى أوطانهم وعشائهم ويرجع العبيد إلى مواليتهم والأبناء إلى آبائهم . قيل : إن قولهم (رسول الله) إما للهزء ، أو لاشتهاره ﷺ بهذا اللقب ^(٤) ، أو أنهم قالوا (على من عند محمد) وذكره الله بهذا اللقب إجلالا له ^(٥) .

ثم أبطل سبحانه قولهم بقوله : ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ويده أرزاق الخلائق يعطيها لمن يشاء ويقدر ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ لجهلهم بالله وشؤونه ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك ، ولذا يقولون من مقالات الكفر ما يقولون .

(١) في النسخة : سيء .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ١٥ .

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٥٣٦ .

(٤) مجمع البيان ١٠ : ٤٤٤ .

﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨)

ثم حكى سبحانه قولهم الآخر الذي هو أشنع من قولهم الأول بقوله : ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا﴾ من سفرنا هذا ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ والله ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ﴾ وهم المنافقون باعتقادهم ، أو خصوص عبد الله بن أبي ﴿مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ وهم المؤمنون ، أو خصوص النبي ﷺ .

روي أنّ في غزوة بني المصطلق ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد الغفاري أجير عمر بن الخطاب يقود فرسه وسنان الجهمي حليف عبد الله بن أبي رئيس المنافقين واقتتلا ، فصرخ جهجاه بالمهاجرين ، وسنان بالأنصار ، فاعان جهجاه جعال من فقراء المهاجرين ، ولطم سنانا ، فاشتكى إلى عبد الله بن أبي ، فقال للأنصار ما ذا فعلتم بأنفسكم ؟ أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم من جعال وذوي فضل طعامكم لم يركبوا رقابكم ، ولأوشكوا أن يتحولوا عنكم ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ عني بالأعزّ نفسه ، وبالأذلّ جانب المؤمنين ، أو خصوص الرسول ﷺ ، وإنما نسب سبحانه القول إلى المنافقين لرضاهم به .

فسمع ذلك زيد بن أرقم وهو حدث ، فقال : أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك ، ومحمد في عزّ من الرحمن ، وقوة من المسلمين . فقال ابن أبي : اسكت ، فأنما كنت ألعب .

فأخبر زيد رسول الله ﷺ بما قال ابن أبي ، فتغيّر وجه رسول الله ﷺ ، فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق . فقال : إذا ترغم أنوفا كثيرة يثرب . فقال عمر : فإن كرهت أن يقتله المهاجرون ، فأمر به أنصاريا . فقال : إذا تحدّث الناس أن محمدا يقتل أصحابه . وقال لعائشة لابن أبي : « أنت صاحب الكلام الذي بلغني » ؟ قال : والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئا من ذلك ، وإنّ زيدا لكاذب . فقال الحاضرون : شيخنا وكبيرنا يصدّق عليه كلام غلام ، عسى أن يكون قد وهم . فقال رسول الله ﷺ لزيد : « لعلك غضبت عليه » ؟ قال : لا . قال : « فلعلك أخطأك سمعك » ؟ قال : لا . قال : « فلعلّه اشتبه عليك » قال : لا .

فلما نزلت الآية لحق رسول الله ﷺ زيدا من خلفه ، فعرك اذنه ، وقال : « وفّت اذنك يا غلام ، إنّ الله صدّقك وكذّب المنافقين » ^(١) . وردّ عليهم بقوله : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لا لغيرهم ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك لجهلهم وغرورهم .

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٥٣٧ .

روى بعض العامة أنه قيل للحسن بن علي عليه السلام : إنَّ الناس يزعمون أنَّ فيك تيهًا - أي كبرًا - فقال : « ليس ذلك بتيه ، ولكنَّه عِزَّةٌ » وتلا الآية ^(١) .

وعن القمي ، قال : نزلت الآية أو السورة في غزوة مريسيع - وهي غزوة بني المصطلق - في سنة خمس من الهجرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله خرج إليها ، ولما رجع منها نزل على بئر ، وكان الماء قليلا فيها ، وكان أنس بن سيَّار حليف الأنصار ، وكان الجهجاه بن سعيد الغفاري أجيرا لعمر بن الخطاب ، فاجتمعوا على البئر ، فتعلَّق دلو أنس بن سيَّار بدلو جهجاه ، فقال أنس بن سيَّار : دلوي . وقال جهجاه : دلوي ، فضرب جهجاه يده على وجهه أنس بن سيَّار ، فسال منه الدم ، فنادى أنس بن سيَّار بالخزرج ، ونادى جهجاه بقریش ، فأخذ الناس السلاحن وكاد أن تقع الفتنة .

فسمع عبد الله بن أبي النداء ، فقال : ما هذا ؟ فأخبروه بالخبر ، فغضب غضبا شديدا ، ثم قال : قد كنت كارها لهذا المسير ، [إني] لأذللَّ العرب ، ما ظننت أن أبقى إلى أن أسمع مثل هذا النداء فلا يكن عندي تغيير ^(٢) . ثم أقبل على أصحابه فقال : هذا عملكم ، أنزلتموهم منازلكم ، وواسيتموهم بأموالكم ، ووقيتموهم بانفسكم ، وأبرزتم نخوركم للقتل ، فأرمل نساءكم ، وأيتم صبيانكم ، ولو أخرجتموهم لكانوا عيالا على غيركم . ثم قال : لن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزَّ منها الأذلَّ .

وكان في القوم زيد بن أرقم ، وكان غلاما قد راهق ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله في ظلِّ شجرة وعنده قوم من المهاجرين والأنصار ، وجاء زيد فأخبره بما قال عبد الله بن أبي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لعلك وهمت يا غلام » قال : لا والله ما وهمت . فقال : « لعلك غضبت عليه » قال : لا والله ما غضبت عليه . قال : « فلعلَّه شبَّه عليك » قال : لا والله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لشقران مولاه : « أحدج » ^(٣) . فأحدج راحلته وركب ، فتسامع الناس بذلك ، فقالوا : ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله ليرحل في مثل هذا الوقت . فرحل الناس ولحقه سعد بن عبادة . فقال : السَّلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . فقال : « وعليك السَّلام » فقال : ما كنت لتتركب في مثل هذا الوقت ؟ فقال : « أو ما سمعت قولاً قال صاحبكم » ؟ قال : وأيَّ صاحب لنا غيرك يا رسول الله ؟ قال : « عبد الله بن أبي زعم انه ان رجع إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزَّ منها الأذلَّ » فأنك وأصحابك الأعزَّ ، وهو وأصحابه الأذلَّ .

فسار رسول الله صلى الله عليه وآله يومه كلَّه ، لا يكلمه أحد ، فأقبلت الخزرج على عبد الله بن أبي يعذلونه ،

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٥٣٨ .

(٢) في المصدر : تعبير ، وفي النسخة : تعبير .

(٣) أحدج يعيره : شدَّ عليه قتيه بأداته .

فحلف عبد الله أنه لم يقل شيئا من ذلك ، فقالوا : فقم بنا إلى رسول الله ﷺ حتى نعتذر إليه ، فلوى عنقه ، فلما جنّ الليل سار رسول الله ﷺ ليله كله ونهاره ، فلم ينزلوا إلّا للصلاة ، فلما كان من الغد نزل رسول الله ﷺ ونزل أصحابه ، وقد أمهدهم الأرض من السهر الذي اصابهم ، فجاء عبد الله بن ابي إلى رسول الله ﷺ ، فحلف أنه لم يقل ذلك ، وأنه ليشهد لا إله إلّا الله ، وإني رسول الله ﷺ ، وأنّ زيدا قد كذب عليّ ، فقبل رسول الله ﷺ منه ، وأقبلت الخزرج على زيد بن أرقم يشتمونه ، ويقولون له: كذبت على عبد الله بن ابي سيدنا.

فلما رحل رسول الله ﷺ كان زيد معه يقول : اللهم إنيك لتعلم أيّ لم أكذب على عبد الله بن ابي ، فما سار إلّا قليلا حتى أخذ رسول الله ﷺ ما كان يأخذه من البرحاء (١) عند نزول الوحي عليه ، فنقل حتى كادت ناقته أن تبرك من ثقل الوحي ، فسرى عن رسول الله ﷺ وهو يسكب العرق عن جبهته ، ثم أخذ باذني زيد بن أرقم ، فرفعه من الرّحل ، ثم قال : « يا غلام ، صدق فوك ، ووعدى قلبك ، وأنزل الله فيك قرآنا » فلما نزل جمع أصحابه ، وقرأ عليهم سورة المنافقين ، ففضح الله عبد الله بن ابي (٢) .

[وفي رواية عن أبي جعفر عليه السلام] قال : فلما نعتهم الله لرسوله ﷺ وعرفه [مساءهم] ، مشى إليهم عشائهم فقالوا لهم : قد افتضحتم ، فأتوا نبي الله يستغفر لكم ، فلووا رؤوسهم وزهدوا في الاستغفار (٣) .

روي أنّ ولد عبد الله بن ابي أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن كنت عزمت على قتل أبي ، فمربي أن أكون أنا الذي أحمل إليك رأسه فو الله لقد علمت الأوس والخزرج أيّ أبرهم ولدا بوالد ، فإني أخاف أن تأمر غيري فيقتله ، فلا تطيب نفسي أيّ انظر إلى قاتل عبد الله ، فأقتل مؤمنا بكافر ، فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ : « بل نحسن لك صحابته مادام معنا » (٤) .

وعن (الكافي) عن الكاظم عليه السلام ، قال : إنّ الله تبارك وتعالى سمى من لم يتبع الرسول ﷺ في ولاية وصيّيه منافقين ، وجعل من جحد وصيّيه إمامته كمن جحد محمدا ﷺ وأنزل بذلك قرآنا ، فقال: يا محمد ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ بولاية وصيك ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ بولاية علي ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ والسبيل هو الوصي ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِرِسَالَتِكَ ثُمَّ كَفَرُوا بولاية وصيك ﴿فَطُغِيَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ يقول : لا يعقلون بنبوتك ، وإذا قيل لهم إرجعوا إلى

(١) البرحاء : الشدة والمشيقة.

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٦٨ ، تفسير الصافي ٥ : ١٧٨ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣٧٠ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٠ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٧٠ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٠ .

ولاية عليّ يستغفر لكم النبي من ذنوبكم ﴿لَوْوَا رُؤُسَهُمْ﴾ قال الله : ﴿وَرَأَيْتُهُمْ يَصُدُّونَ﴾ عن ولاية علي ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عليه ثم عطف القول من الله بمعرفته بهم فقال : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يقول : الظالمين لوصيتك ^(١) .

أقول : لا شك في أنّ الرواية في بيان تأويل الآية لا تفسيرها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ * وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٩) و (١١)﴾

ثم لما كان الكفر والنفاق مع وضوح الحق لا يكون إلّا لجمع الأموال وراحة الأولاد ، وعظ الله سبحانه المنافقين والمؤمنين بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ﴾ ولا تغفلكم ﴿أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ ولا يشغلکم الاهتمام بتدبير امورهما وتنظيم مصالحهما ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ والتوجه إليه والقيام بعبادته ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ التلهي بالمال والولد والاشتغال بالامور الدنيوية ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الغافلون والملهون عن ذكر الله ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في تجارتهم في سوق الدنيا ، حيث إنهم باعوا الجنة والنعم الدائمة والراحة الأبدية باللدّة الدنيوية القليلة الفانية المشوبة مع التعب الكثير .

وفي الحديث : « ما طلعت الشمس إلّا بجنبها ملكان يناديان ويسمعان الخلائق غير الثقلين : يا أيها الناس : هلمّوا إلى ربكم ، ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى » ^(٢) .

﴿وَأَنْفِقُوا﴾ شيئاً ﴿مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وأعطيناكم بفضلنا في سبيل الله ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ وعاین مخائله وأماراته ﴿فَيَقُولُ﴾ عند حلوله تمنيا وتحسراً : يا ﴿رَبِّ لَوْ لَا أَخَّرْتَنِي﴾ وهلاً أمهلتنی ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وأمد قصير وزمان قليل في الدنيا ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ مالي للفقراء ، وأنفق عليهم تقرباً إليك ، أو أؤدّي زكاتي ﴿وَأَكُنْ﴾ في آخر عمري ﴿مِنْ﴾ عبادك ﴿الصَّالِحِينَ﴾ والمتعبدين المخلصين .

عن ابن عباس : من كان له مال يجب فيه الزكاة فلم يزكّه ، أو مال يبلغه إلى بيت الله فلم يحجّ ، يسأل عند الموت الرجعة فقال رجل : اتق الله يا بن عباس ، إنّما سألت الكفار الرجعة . فقال ابن عباس : إنّّي أقرأ عليك هذا القرآن . فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى قوله ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فقال

(١) الكافي ١ : ٣٥٨ / ٩١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٠ .

(٢) تفسير روح البيان ٩ : ٥٤١ .

الرجل : ما يوجب الزكاة. قال : مائتا درهم. قال : ممّا يوجب الحجّ. قال : الزاد والراحلة ^(١) .
وروي عنه أيضا أنه قال : هذا دليل على أنّ القوم لم يكونوا مؤمنين ، إذ المؤمن لا يسأل
الرجعة ^(٢) .

وقيل : لا ينزل الموت بأحد لم يحجّ ولم يؤدّ الزكاة إلا وسأل الرجعة ، وقرأ هذه الآية ^(٣) .
وعن (الفقيه) سئل [الصادق] عليه السلام عن قول الله : ﴿ فَأَصَّدَّقْ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ قال : (
أصدق) من الصدقة ﴿ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أحجّ ^(٤) .
وعن الصادق عليه السلام قال : « الصلاح هنا الحجّ » ^(٥) .
وعن ابن عباس قال : تصدّقوا قبل ان ينزل عليكم سلطان الموت ، فلا تقبل توبة ولا ينفع
عمل ^(٦) .

ثمّ بيّن سبحانه أنّ من انقضى أجله وحان حينه لا يمهل في الدنيا بقوله : ﴿ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ ﴾ عن
الموت أبدا ﴿ نَفْسًا ﴾ من النفوس ﴿ إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ﴾ وحضر وقت موتها ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ ﴾ وعالم ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾
من خير وشرّ ، فيجازيكم على حسب استحقاقكم في الآخرة.
قد مرّ ثواب قراءتها ^(٧) .

(١) تفسير روح البيان ٩ : ٥٤٢ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩ .

(٣) من لا يحضره الفقيه ٢ : ١٤٢ / ٦١٨ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨١ .

(٤) مجمع البيان ١٠ : ٤٤٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨١ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩ .

(٦) تقدّم في سورة الجمعة .

في تفسير سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرٌ (١) و (٢)﴾

ثم لما ختمت سورة المنافقين المتضمنة لبيان سوء أخلاق المنافقين وأقوالهم ، وأن خزائن السماوات والأرض والعزة الكاملة له تعالى ، ووعظ الناس بأنه لا ينبغي أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله ، وعليهم أن يتقوا الله وينفقوا أموالهم في سبيله ، نظمت سورة التغابن المبدوءة ببيان عظمة الله وعزه وجلاله ، وأنّ الناس صنفان : كافر في الظاهر والباطن ، ومؤمن خالص ، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يفتتن بمحبة الأزواج والأولاد والأموال ، بل عليه أن يتقي الله وينفق أمواله في سبيله ، وذكر في السورة السابقة أنّ الملهون عن ذكر الله في الخسارة ، وهنا بيّن أن المنافقين لهم الفلاح في الدارين ، فابتدأها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

ثم بيّن سبحانه كمال عظمته وعزته بقوله : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قد مرّ تفسيره و﴿لَهُ﴾ تعالى وحده ﴿الْمُلْكُ﴾ والسلطنة المطلقة التامة في تمام عوالم الوجود ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ على نعمه السابعة الوافرة ، فعليكم أن تتدلّلوا لعزّه ، وتهاووه لسلطانه ، وتستغرقوا في ذكره ، ولا تلهوا عن تسبيحه وحمده وشكره.

ثم لما خصّ ملك الوجود بنفسه ، ولأزمه اختصاص التصرف فيه بذاته ، بيّن كمال قدرته بقوله : ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الإيجاد والإعدام والتصرف والتدبير في الموجودات ﴿قَدِيرٌ﴾ لا عجز في ساحته ، ولا مانع عن إنفاذ إرادته.

ثم ذكر سبحانه الناس بأصل النعم الذي أنعم عليهم وأعظمها بقوله : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أيها الناس بقدرته ، وأوجدكم أولاً من تراب ، ثم من نطفة ، فكان الواجب أن تؤمنوا جميعاً به وتشكروه

في جميع الأوقات ، ومع ذلك صرتم صنفين ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ﴾ به لجهله وعناده ﴿وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ به مصدق بأثمه خالقه ورازقه ، والمنعم عليه بالنعم الجسام ، فيشكره ويقوم بمرضاته. عن ابن عباس : أنّ الله خلق بني آدم مؤمنا وكافرا ، ثمّ يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمنا وكافرا ^(١) . قيل : يعني فمنكم جاحد ، ومنكم مصدق ^(٢) .

وقيل : يعني فمنكم كافر في السرّ مؤمن في الظاهر والعلانية كالمنافقين ، وكافر في العلانية ومؤمن في السرّ كأبي طالب وعمّار بن ياسر ^(٣) .

ثمّ هدّد على الكفر والعصيان ، ووعد على الإيمان والطاعة بقوله : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والعصيان والإيمان والطاعة ﴿بَصِيرٌ﴾ ومطلع في الغاية ، ويجازيكم يوم القيامة حسب استحقاقكم وأعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

عن الصادق عليه السلام - في هذه الآية قال : « عرف الله إيمانكم بولايتنا وكفرهم بتركها يوم أخذ [عليهم] الميثاق في صلب آدم وهم ذرّ » ^(٤) .

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُغْلِبُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣) وَ (٤)﴾

ثمّ ذكر سبحانه نعمتين عظيمتين أخريين بقوله : ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ والحكمة البالغة خلقا بديعا نافعا ، حيث إنّ جميع الحيوانات بإمطار السماوات وإنبات الأرض يرتزقون ويتعيشون ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ يا بني آدم في الأرحام بقدرته ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ وزين أشكالكم ببذات الصفات من استواء القامة واعتدال الأعضاء مع ما فيكم من الجمال الظاهر وكمال القوى والمشاعر التي نيظت به الكمالات الظاهرية والباطنية المستتعبة للترقي إلى عام القرب والروحانية ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ والمرجع في ترقياتكم في هذا العالم بالعلم والعمل وبعد خروجكم من الدنيا ، فخذوا في أعمال القوى والجوارح التي أنعم الله بها عليكم ، حتّى تلاقوا ربكم وهو راض منكم غير ساخط عليكم .

ثمّ لما بيّن سبحانه أنّ الناس صنفان : كافر ومؤمن ، ومصير الكلّ إليه فيجازيهم على حسب

(٢١) تفسير الرازي ٣٠ : ٢١ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٢١ ، ولم يرد فيه : أبو طالب .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٧١ ، الكافي ١ : ٣٤١ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٢ .

استحقاقهم ، بين سبحانه سعة علمه بجميع الموجودات في جميع العوالم العلوية والسفلية بقوله : ﴿يَعْلَمُ﴾ بذاته ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الموجودات الكبيرة والصغيرة ، وأحوالها الخفية والجلية .
ثم أكد علمه أحوال الناس تشديدا للوعد والوعيد وإرعابا للقلوب بقوله : ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ﴾ وما تسترونه عن غيركم من الأعمال ﴿وَمَا تُغْلِبُونَ﴾ وتظهرونه لسائر الناس من الطاعة والمعصية ﴿وَاللَّهُ﴾ العظيم المنتقم ﴿عَلِيمٌ﴾ ومحيط ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وخطورات القلوب ومكنونات الضمائر ، فلا يخفي عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة ، فيجازيكم حين رجوعكم إليه على عقائدكم وأعمالكم ، فأحسنوها كما أحسن صوركم ونظم امور معاشكم .

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْ يَهُدُونَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٥) و (٦)﴾

ثم وجه خطابه إلى الكفار وهدهم بمثل ما نزل على الكفرة من الامم السابقة من العذاب بقوله : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ ولم يصل إليكم أيها الكفار الحاضرون في عصر النبي الخاتم ﷺ ﴿نَبَأُ﴾ الامم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ كاتمة نوح وهود وصالح ، وخبر حالهم السيئ ، وذلك الخبر الهائل أنهم أصروا على الكفر بالله ورسله ﴿فَذَاقُوا﴾ وأحسوا ﴿وَبَالَ أَمْرِهُمْ﴾ وشدة عاقبة كفرهم في الدنيا حيث استأصلهم بالعذاب ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يمكن بيان شدته وإيلامه في الدنيا وكان ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الدنيوي والآخرى ﴿بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ﴾ من قبل الله مستدلين على رسالتهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات ﴿فَقَالُوا﴾ جوابا لرسولهم وإنكارا لرسالتهم : ﴿أَبَشِّرْ﴾ مثلنا ﴿يَهُدُونَا﴾ ويرشدونا إلى معبودنا ودين آخر ؟ ! فتعجبوا من أن يكون الرسول بشرا ، ولم يتعجبوا من أن يكون إلههم حجرا ﴿فَكَفَرُوا﴾ بالله ورسله جهلا وعنادا ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن قبول قولهم والتدبر في معجزاتهم ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ عن إيمانهم وطاعتهم ، ولذا أهلك جميعهم وقطع دابرهم ، ولو لا غناء ، ما فعل ذلك ﴿وَاللَّهُ﴾ المالك لجميع الموجودات الخالق لهم ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ومحمود في فعله ، أو مستحق للحمد بذاته ولو لم يكن حامدا .

﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُغْنُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ خَيْرٌ * يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّعَابِنِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ
وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧) و (٩)

ثمّ لما أخبر سبحانه بعذاب الامم السابقة في الآخرة ، حكى إنكار المشركين المعاد بقوله :
﴿ زَعَمُوا ﴾ وظنّ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ ﴾ يحيوا بعد موتهم ولن ﴿ يَبْعَثُوا ﴾ أحياء من قبورهم للحساب والجزاء
أبداً.

ثمّ أمر سبحانه النبي ﷺ برّد قولهم ذلك بقوله : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهم : ﴿ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ من
قبوركم للحساب والمجازاة ﴿ ثُمَّ ﴾ بعد البعث ﴿ لَتُبْعَثُنَّ ﴾ ولتخبرنَّ ﴿ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ في الدنيا من الكفر
والعصيان برؤية العذاب عليه ﴿ وَذَلِكَ ﴾ البعث والتعذيب ﴿ عَلَى اللَّهِ ﴾ القادر على كلّ شيء ﴿ يَسِيرٌ ﴾
وسهل لكمال القدرة ووجود المقتضي وعدم المانع ، فإذا كان الأمر كذلك ﴿ فَأَمِنُوا ﴾ أيها الناس ﴿ بِاللَّهِ ﴾
ووحدايته ﴿ وَرَسُولِهِ ﴾ محمد ﷺ ﴿ وَالتَّوْرَ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ على محمد ﷺ ، وهو القرآن المبين لكلّ حقّ
والمظهر لكلّ صواب.

وعن الكاظم عليه السلام : « الامامة هي النور » (١) .

وعن الباقر عليه السلام : « النور والله الأئمة » (٢) .

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الايمان والعمل بالقرآن ﴿ خَيْرٌ ﴾ ومطلّع في الغاية ، واذكروا أيها الناس
﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ ﴾ الله ﴿ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ والحساب ، يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، وهو يوم القيامة
﴿ ذَلِكَ ﴾ اليوم ﴿ يَوْمُ التَّعَابِنِ ﴾ والتخاسر يغبن ويخسر بعض الناس بعضاً ، يتمكّن بعضهم في مسكن
بعض.

عن ابن عباس : أنّ قوما في النار يعدّون ، وقوما في الجنة يتنعمون (٣) .

وقيل : يوم يغبن أهل الحقّ أهل الباطل ، وأهل الهدى أهل الضلالة ، وأهل الايمان أهل الكفر ،
فلا غبن أبين من هذا (٤) .

وعن الصادق عليه السلام : « يوم يغبن أهل الجنة أهل النار » (٥) .

وفي الحديث : « ما من عبد يدخل الجنة إلّا اري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً ، وما من
عبد يدخل النار إلّا اري مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة » (٦) .

(١) الكافي ١ : ١٥١ / ٦ ، وفيه : النور هو الإمام ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٣ .

(٢) الكافي ١ : ١٥١ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٣ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٤ .

(٤) معاني الأخبار : ١٥٦ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٣ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ١١ .

قيل : إطلاق الغبن على نزول الأشقياء في منازل السعداء من باب التهكم ^(١) .

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٠) و (١٢)﴾

ثم بين سبحانه ربح المؤمنين في تجارتهم بقوله ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ صادقاً مخلصاً ﴿وَيَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَالِحاً﴾ مرضياً لله ﴿يُكَفِّرْ﴾ الله ﴿عَنْهُ﴾ ويغفر له ﴿سَيِّئَاتِهِ﴾ يوم القيامة ، فلا يفضحه بها بين الناس ﴿وَيُدْخِلْهُ﴾ بفضله ﴿جَنَّاتٍ﴾ ذات قصور وأشجار ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة ، حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا أَبَدًا﴾ دائماً ﴿ذَلِكَ﴾ الأجر المذكور على إيمانهم وعملهم هو ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والتليل بأعلى المقاصد من النجاة من العذاب والظفر بأجل الطيبات.

ثم بين سبحانه غبن الكفار بقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ القرآنية ومعجزات نبينا ﷺ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المغبونون ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وملازموها حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَ﴾ هي ﴿بِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ والمرجع للكفار.

ثم لما بين سبحانه حسن حال المؤمنين في الآخرة ، كان مجال أن يقال : فلم يتلى المؤمن في الدنيا بالفقر والمرض والشدائد ؟ فأجاب سبحانه بقوله : ﴿مَا أَصَابَ﴾ أحداً ﴿مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ وبلية من فقر أو مرض أو غيرها من الشدائد ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وتقديره وإرادته المنبثقة عن الحكمة البالغة ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ اللطيف الحكيم ﴿يَهْدِ﴾ الله ﴿قَلْبَهُ﴾ عند المصيبة للصبر والثبات والشكر والرضا والتسليم لحكمه . عن ابن عباس : يهدي قلبه لما يحب ويرضى ^(٢) .

﴿وَاللَّهُ﴾ المحيط بخلقه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها القلوب وأحوالها من الرضا والتسليم ﴿عَلِيمٌ﴾ ومطلع كمال الاطلاع ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ فيما أمركم به ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما يؤدّي إليكم عنه ، ولا تشغلكم المصائب عن العمل بوظائف الايمان ، قيل : تكرار الأمر بالطاعة للتأكيد وبيان الفرق بين الطاعتين ^(٣) ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم أيها الناس عن طاعة الرسول وإجابته فيما

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ١٠ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٦ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ١٤ .

دعائكم إليه لا يضره بشيء ﴿فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا﴾ أي رسول كان ﴿الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وتأدية الرسالة ببيان واضح ، وقد فعل بما لا مزيد عليه ، وقد بقي ما عليكم .

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَغْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٣) و (١٤)﴾

ثم لما بين أن جميع المصائب والبلايا بتقدير الله وإرادته ، وصف ذاته المقدسة بالعظمة والوحدانية ، وأمر المؤمنين بالتوكل عليه بقوله : ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود مستحق للعبادة سواه ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ العظيم وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وليفوضوا إليه الامور ، ومنه يسألوا الحفظ من المصائب والصبر عليها . ثم لما صلى سبحانه في المصائب والبلايا الدنيوية ، تعرض للبلايا الاخروية وما يمنع عن طاعة الله ويصرف عنها من الأزواج والأولاد بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ﴾ بعضا ﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ﴾ يكونون ﴿عَدُوًّا لَكُمْ﴾ يمنعونكم من الهجرة والجهاد والعمل بالتكاليف ، كعداوة الشيطان لبني آدم ، إذن ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ واحترزوا عن موافقتهم وقبول قولهم . قيل : نزلت في عوف بن مالك الأشجعي ، كان أهله وولده يتبطونه عن الهجرة والجهاد ^(١) .

وعن ابن عباس : أنه سئل عن هذه الآية ، فقال : هؤلاء رجال من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا المدينة ، فلم يدعهم أزواجهم وأولادهم ، فهو قوله : ﴿عَدُوًّا لَكُمْ﴾ فاحذروا أن تطيعوهم وتدعوا الهجرة . وقوله : ﴿وَإِنْ تَغْفُوا وَتَصْفَحُوا﴾ قال : هو أن الرجل من هؤلاء إذا هاجر ورأى الناس قد سبقوا إلى الهجرة ، وفقهوا في الدين ، هم أن يعاقب زوجته وولده الذين منعه من الهجرة ، وإن لحقوا به في دار الهجرة لم ينفق عليهم ، ولم يصبهم بخير ، فنزل : ﴿وَإِنْ تَغْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ^(٢) قيل : يعني فعليكم أن تتحلّقوا بأخلاق الله ^(٣) .

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ * فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥) و (١٦)﴾

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٧ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٧ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ١٨ .

ثم لما كان محبة المال والولد فتنة وبلاء عظيما أمر سبحانه المؤمنين بإيثار محبة الله على محبتيهما بقوله : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ واختبارا وبلاء ومحنة لكم يوقعانكم في معصية الله وعذابه ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن أثر محبته على محبتيهما وطاعته على الاشتغال بمصالحهما ، فلا تعصوا الله بسبب حبهما .

عن امير المؤمنين عليه السلام قال : لا يقولن أحدكم : اللهم إني أعوذ بك من الفتنة ، لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة ، ولكن من استعاذ الله فليستعذ من مضلات الفتن ، فإن الله يقول : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾^(١) .

وحكى بعض العامة عن ابن مسعود ما يقرب منه^(٢) .

في فضيلة الحسنين عليهما السلام

وعن بعض العامة : كان رسول الله ﷺ يخطب ، إذ جاء الحسن والحسين عليهما السلام وعليهما قميصان أحمران ، يمشيان ويعثران ، فنزل ﷺ من المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه^(٣) .
وفي رواية : وضعهما في حجرة على المنبر وقال : « صدق الله عز وجل ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما » . ثم أخذ في خطبته^(٤) .

فإذا علمتم أن الأزواج والأولاد أعداءكم ، وأن المال والولد فتنة لكم ، وأن الله عنده أجر عظيم وجنة ونعيم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذروه أن يعذبكم على مخالفة أحكامه لحب المال والولد ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ومقدار وسعكم ، ولا تتركبوا ما يوجب سخطه عليكم ﴿وَاسْمَعُوا﴾ مواعظ الله سماع القبول ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أيها المؤمنون أوامره ونواهيه ﴿وَأَنْفُسُكُمْ﴾ في سبيله مما رزقكم لوجهه ، تكن التقوى والسماع والطاعة والانفاق ﴿خَيْرًا لَّأَنْفُسِكُمْ﴾ وأنفع من الدنيا وما فيها فضلا عن المال والولد.

في ذم البخل والترغيب في الانفاق وثوابه

ثم حث سبحانه المؤمنين بعد أمرهم بالانفاق إلى ترك البخل بقوله : ﴿وَمَنْ يُوقْ﴾ و يمنع ﴿شَحْحَ نَفْسِهِ﴾ وبخلها الكامن فيها من التأثير في المنع عن الانفاق في سبيل الله ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الرادعون أنفسهم عن البخل ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والفائزون بالجنة ونعيمها .

(١) تخرج البلاغة : ٤٨٣ الحكمة ٩٣ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٥ .

(٢-٤) تفسير روح البيان ١٠ : ١٩ .

روي أَنَّ النبي ﷺ كان يطوف ، بالبيت ، فاذا رجل متعلّق بأستار الكعبة وهو يقول : بحرمة هذا البيت إلّا غفرت لي. قال ﷺ : « ما ذنبك ؟ » قال : هو أعظم من أن أصفه لك. قال : « ويحك ذنبك أعظم أم الأرضون ؟ » قال : بل ذنبي يا رسول الله. قال : « ويحك ذنبك أعظم أم الجبال ؟ » قال : بل ذنبي أعظم. قال : « فذنبك أعظم أم السماوات » قال : بل ذنبي أعظم. قال : « فذنبك أعظم أم العرش » قال : بل ذنبي أعظم. قال : « فذنبك أعظم أم الله » قال : بل الله أعظم وأعلى. قال : « ويحك صف لي ذنبك » قال : يا رسول الله ، إني رجل ذو ثروة من المال ، وإن السائل ليأتيني ليسألني فكأنيما يستقبلني بشعلة من النار. فقال ﷺ : « اعزب عني لا تحرقني بنارك ، فو الذي بعثني بالهداية والكرامة لو قمت بين الركن والمقام ، ثم بكيت ألفي عام حتى تجرى من دموعك الأنهار وتسقى بها الأشجار ، ثم مت وأنت لئيم ، لأكتبك الله في النار ، أما علمت أنّ البخل كفر ، وأنّ الكفار في النار ، ويحك أما علمت أنّ الله يقول : ﴿ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ فَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ » (١) .

﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكورٌ حلِيمٌ*﴾

عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٧) و (١٨)

ثمّ بالغ سبحانه في الترغيب في الانفاق في سبيله بقوله : ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ﴾ أيها المؤمنون ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ ببذل شيء من أموالكم في الوجوه البرية ، وفي المصارف الخيرية ، بخلوص النية ، وطيب النفس ﴿يضاعفه﴾ الله ﴿لكم﴾ أضعافا كثيرة على حسب النيات والأوقات والمحالّ ، فبعض بالواحد عشرة ، وآخر بالواحد سبعين ، وبعض بالواحد سبعمائة ، وبعض أكثر منها ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم وخطاياكم ﴿وَاللَّهُ الْكَرِيمُ﴾ لعبيده يكثر الثواب والعوض على إنفاقهم والأجر على حسناتهم ، أو يكثر الثناء على عبده المحسن ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعجل في عقوبة البخيل وغيره من العصاة ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ والمطلع على الخفي والظاهر من أعمال عباده وغيرها بحيث لا يعزب عن علمه شيء ، فيعلم صدقة السرّ والعلن وخلوص نيّة المصدّق ورياء فيها ﴿الْعَزِيزُ﴾ والقادر على إثابة المطيعين وعقوبة المتمردين ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يصدر منه إلّا ما هو الأصلح والأصوب ، ويثيب ويعاقب على حسب الاستحقاق. روى بعض العامة عن عبد الله بن عمران قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلّا وفي

شبابيك

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٢١ .

رأسه مكتوب خمس آيات من سورة التغابن» ^(١) .

أقول : لعلّ المراد خمس آيات من أول السورة مع عدّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ آية ، كما هو الحقّ.

وفي الحديث : « من قرأ سورة التغابن رفع عنه موت الفجأة » ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « من قرأ سورة التغابن في فريضة كانت له شفيعة يوم القيامة ، [و] شاهد

عدل عند من يميز شهادتها ، ثمّ لا تفارقه حتّى يدخل الجنة » ^(٣) .

الحمد لله على التوفيق لإتمام تفسيرها.

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٤ .

(٢) تفسير أبي السعود ٨ : ٢٥٩ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٤ .

(٣) ثواب الأعمال : ١١٨ ، مجمع البيان ١٠ : ٤٤٦ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٥ .

في تفسير سورة الطلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١)﴾

ثم لما ختمت سورة التغابن المتضمنة لبيان عداوة النساء لأزواجهن ، وتحديد الكفار بذوق الامم السابقة وبال كفرهم ، وحث المؤمنين على التقوى والانفاق في سبيل الله ، نظمت سورة الطلاق المتضمنة لبيان بعض أحكام طلاق الأزواج ، ووجوب الانفاق عليهن في العدة الرجعية وإذا كن ذوات الحمل ووجوب الانفاق على الأولاد والحث على التقوى وتحديد الكفار بما ذقت الامم السابقة من العذاب ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

في ذكر شرائط الطلاق وبعض أحكامه

ثم شرع سبحانه ببيان بعض أحكام الطلاق بعد خطاب النبي ﷺ بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ثم خاطب أمته لأنه سيدهم وقدوتهم ، فكان خطابه بمنزلة خطابهم. وقيل : إن التقدير قل لامتك ^(١) ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ المدخول بهن ، وأردتم فراقهن وقطع علقه نكاحهن ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ وأنشئوا صيغة طلاقهن حال كونهن مستقبلات ﴿لِعَدَّتِهِنَّ﴾ وزمان ترتبهن بعد الطلاق ، ومنعهن عن التزوج بالغير إذا كن في سن من تحيض.

عن النبي ﷺ والسجاد عليه السلام : « فطلقوهن من ^(٢) قبل عدتهن » ^(٣) . وعن الصادق عليه السلام قال : « قال أمير المؤمنين عليه السلام : إذا أراد الرجل الطلاق طلقها ^(٤) من قبل عدتها بغير جماع » ^(٥) .

(١) مجمع البيان ١٠ : ٤٥٦ .

(٢) في مجمع البيان وتفسير الصافي : في .

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٤٥٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٦ .

(٤) في الكافي : في .

(٥) الكافي ٦ : ٦٩ / ٩ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٦ .

وعن الباقر عليه السلام : « إنما الطلاق أن يقول لها في قبل العدة بعد ما تطهر من حيضها قبل أن يجامعها : أنت طالق ... » الخبر ^(١) .

وقيل : إن لام **﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾** بمعنى في ، والمعنى فطلّقوهن في عدّتهن ^(٢) ، لأن الطهر الذي يقع فيه الطلاق معدود من إظهار العدة ، وهي ثلاثة. وعن الباقر عليه السلام : « العدة : الطهر من الحيض » ^(٣) . **﴿وَأَحْضُوا﴾** أيها الأزواج واضبطوا **﴿الْعِدَّةَ﴾** بحفظ الوقت الذي يقع فيه الطلاق ، وأكملوها ثلاث أطهار ، أو ثلاث أشهر ، إذا كنّ في سنّ من تحيض ، فإنّ النساء عاجزات عن إحصائها لغلبة الغفلة عليهنّ.

ثمّ لما كان الغائب وقوع الطلاق لكراهة الزوج معاشرة الزوجه ، ولازم ذلك سرعة الزوج في إخراجهنّ من منزلهم ، نهي سبحانه عن إخراجهن مع التهديد على ذلك بقوله : **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾** أيها الأزواج وخافوا عذابه على إخراجهن ، ولذا **﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾** إذا كنّ رجعيات **﴿مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾** ومسكنهنّ اللاتي أسكنتموهنّ فيها حال الطلاق **﴿وَوُ﴾** هن أيضا **﴿لَا يُخْرِجَنَّ﴾** منها ما دمن في العدة. وقيل : إنّ المراد اتقوا الله ربكم في تطويل عدّتهنّ والاضرار بهنّ بايقاع طلاق ثان بعد الرجعة ^(٤) . ثمّ حرّم إخراجهنّ وخروجهنّ **﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾** ويعملن عملا ظاهر القباحة كالزنا ، فيخرجن لإقامة الحدّ عليهنّ.

وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل عنه ، فقال : « إلا أن تزني ، فتخرج ويقام عليها الحدّ » ^(٥) .

وعن ابن عباس : وهو كلّ معصية ^(٦) .

وعن الرضا عليه السلام قال : « أذاها لأهل الرجل وسوء خلقها » ^(٧) .

وعنه عليه السلام : « يعني بالفاحشة المبينة أن تؤذي أهل زوجها ، فاذا فعلت فإن شاء أن يخرجها من قبل أن تنقضي عدّتها فعل » ^(٨) .

وقيل : إنّما خروجهنّ من البيوت ، والمعنى لا يخرجنّ إلا إذا ارتكبن الفاحشة بالخروج ^(٩) .

ثمّ عظم سبحانه أمر هذه الأحكام بقوله : **﴿وَتِلْكَ﴾** الأحكام **﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾** وقوانينه الموضوعة لصالح الناس **﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ﴾** ويتجاوز **﴿حُدُودَ اللَّهِ﴾** ويخالفها **﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾** وأضرّها بإيقاعها

(١) الكافي ٦ : ٦٩ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٦ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٣٠ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣٧٣ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٦ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٨ .

(٥) من لا يحضره الفقيه ٣ : ٣٢٢ / ١٥٦٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٧ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٨ و ٢٩ .

(٧) الكافي ٦ : ٩٧ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٧ .

(٨) الكافي ٦ : ٩٧ / ٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٧ .

(٩) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٩ .

في معصية الله وتعريفها للعذاب.

ثم بيّن سبحانه علّة تحريم إخراجهن وخروجهن بقوله : ﴿لَا تَدْرِي﴾ أيّها الزوج المطلق ﴿لَعَلَّ اللَّهَ﴾ ويرجى أنّه ﴿يُخْبِرُكَ﴾ ويوجد ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الذي فعلت من الطلاق ﴿أَمْرًا﴾ آخر من الندم والمحبة للمطلقة والإقبال إليها.

عن ابن عباس : يريد الندم على طلاقها ، والمحبة لرجعتها في العدة ^(١) .

وعن القمي قال : لعلّه يبدو لزوجها في الطلاق فيراجعها ^(٢) .

وعن الباقر عليه السلام : « أحب للرجل الفقيه إذا أراد أن يطلق امرأته أن يطلقها طلاق السنة » ثم قال : « وهو الذي قال الله عزّ وجلّ : ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [يعني بعد الطلاق وانقضاء العدة التزويج بها من قبل أن تزوج زوجها غيره » ^(٣) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « المطلقة تكتحل وتحتضب وتطيب وتلبس ما شاءت من الثياب لأنّ الله عزّ وجلّ يقول : ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [لعلّها أن تقع في نفسه فيراجعها » ^(٤) .

روي بعض العامة عن أنس : أن رسول الله طلق حفصة بنت عمر ، فأنت إلى أهلها ، فنزلت ^(٥) . وعن الكلبي : أنّ النبي ﷺ غضب على حفصة لما أسرّ إليها فظهرته لعائشة ، فطلقها تطليقة ، فنزلت ^(٦) .

أقول : لعلّ نزولها لخروجها إلى أهلها ، فلمّا نزلت راجعها.

وقيل : إنّها نزلت في عبد الله بن عمر ، فأنّه طلق امرأته في الحيض. فقال له رسول الله

ﷺ : « فاذا راجعها ، فاذا ظهرت طلقها إن شئت » فنزلت ﴿فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ ^(٧) .

﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوِي

عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَمَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ

يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٢) و (٣)﴾

ثم بيّن سبحانه حكم الرجوع في العدة بقوله : ﴿فَإِذَا بَلَغَ﴾ المطلقات وقرين ﴿أَجْلُهُنَّ﴾ وآخر

مدة عدتهن ، وأشرّف على انقضائها ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ وارجعوا إلى نكاحهنّ إن شئتم ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٣٣ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٧٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٧ .

(٣) الكافي ٦ : ٦٥ / ٣ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٧ .

(٤) الكافي ٦ : ٩٢ / ١٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٧ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٩ .

(٦) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٩ .

(٧) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٥ .

وإيفاء حقوقهن ، ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وعدم الاضرار بمنّ بتطويل عدّتهنّ بالرجوع والطلاق ثانياً ﴿وَأَشْهَدُوا﴾ على طلاقهنّ رجلين ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ﴾ وصاحبي عدالة ﴿مِنْكُمْ﴾ أيّها المؤمنون .

عن الكاظم عليه السلام أنّه قال لأبي يوسف القاضي : « إنّ الله تبارك وتعالى أمر في كتابه بالطلاق ، وأكّد فيه بشاهدين ، ولم يرض بهما إلّا عدلين ، وأمر في كتابه بالتزويج فأهمّله بلا شهود ، فأثبتهم شاهدين فيما أهمل ، وأبطلتم الشاهدين فيما أكّد » (١) .

و﴿وَأَقِيمُوا﴾ وأدّوا أيّها الشهود ﴿الشَّهَادَةَ﴾ عند الحاجة إليها خالصا ﴿لِلَّهِ﴾ وتقربا إليه ﴿ذَلِكَ﴾ الأحكام من طلاق السّنة ، والحثّ على الإشهاد وإقامة الشهادة لله ممّا ﴿يُوعِظُ﴾ ويرتدع ﴿بِهِ﴾ عن المخالفة خوفاً من العذاب ﴿مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ عن صميم القلب ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ودار الجزاء ، فإنّ لازم الإيمان بالله مراعاة عظمته وحقوق ألوهيته وربوبيته ، وأقلّها طاعة أحكامه ، ولزم الإيمان باليوم الآخر الخوف من الحساب والعقاب على مخالفة أحكامه ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ في مخالفة أحكامه المذكورة في السّورة ، أو في القرآن ﴿يَجْعَلْ﴾ الله ﴿لَهُ مَخْرَجاً﴾ ومخلصاً ممّا عسى أن يتلى به من الغموم الراجعة إلى الازدواج ، ويفرّج عنه ما يعتريه من الكرب ، أو خلاصاً من غموم الدنيا والآخرة .

عن النبي ﷺ - بطريق عامي - أنّه ﷺ قرأها فقال : « مخرجا من شبهات الدنيا ، وغمرات الموت ، وشدائد يوم القيامة » (٢) . وقيل يجعل له مخرجا إلى الرّجعة (٣) .

عن ابن عباس ، أنّه سئل عمّن طلق امرأته ثلاثاً ، أو ألفاً ، هل له من مخرج ؟ فقال : لم يتّق الله ، فلم يجعل له مخرجا ، بانت منه ثلاث ، والزيادة إثم في عنقه (٤) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « مخرجا من الفتن ، ونورا من الظلم » (٥) .

﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ الله في الدنيا ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ومن وجه لا يخطر بباله .

روي أنّ عوف بن مالك الأشجعي أسر المشركون ابنه سالماً ، فأتى رسول الله ﷺ وقال : اسر ابني ، وشكا إليه الفاقة . فقال : « اتّق الله ، وأكثر قول : لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم » ففعل ، فبينما هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل غفل عنهما العدو فساقتها ، فنزلت (٦) . وفي رواية : أفلت بأربعة آلاف شاة وبالأمّنة (٧) .

وعن الصادق عليه السلام : « ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي يبارك له فيما أتاه » (٨) .

(١) الكافي ٥ : ٣٨٧ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٧ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٣٤ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣١ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٣١ .

(٤) نهج البلاغة : ٢٦٦ الخطبة ١٨٣ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٨ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٢ .

(٦) مجمع البيان ٩ : ٤٦٠ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٨ .

وعنه ، عن آبائه ، عن علي عليه السلام : « من أتاه برزق لم يخط إليه برجله ، ولم يمد إليه يده ، ولم يتكلم فيه بلسانه ، ولم يشد إليه ثيابه ، ولم يتعرض له ، كان ممن ذكره الله عز وجل في كتابه ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ ^(١) الآية » .

وعن النبي صلى الله عليه وآله - بطريق عامي « أي لأعلم آية لو أخذ بها الناس لكفتهم ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ » الآية ، فما زال يقولها ويعيدها ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « أن قوما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله لما نزلت هذه الآية أغلقوا الباب ، وأقبلوا على العبادة ، وقالوا : قد كفينا ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله ، فارسل إليهم ، فقال : ما حملكم على ما صنعتم ؟ فقالوا : يا رسول الله ، تكفل لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة . فقال : من فعل ذلك لم يستجب له ، عليكم بالطلب » ^(٣) .

وعنه صلى الله عليه وآله : « هؤلاء قوم من شيعتنا ضعفاء ، ليس عندهم ما يتحملون به إلينا ، فيسمعوا حديثنا ويقتبسوا من علمنا ، فيرحل قوم فوقهم ، وينفقون أموالهم ، حتى يدخلوا علينا فيسمعوا حديثنا ، فينقلوه إليهم ، فيعيه هؤلاء ويضيّعه هؤلاء ، فاولئك الذين يجعل الله لهم مخرجا ، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون » ^(٤) .

في بيان حقيقة التوكل

أقول : الظاهر تطبيق الآية عليهم لا حصر المراد فيهم .

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ﴾ ويعتمد في اموره ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ ويفوض إليه ويشق به فيها ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ وكافيه مهماته ، ومصلح اموره ، ومعطيه مراده .

لو كنتم تتوكلون على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماسا

(١) من لا يحضره الفقيه ٣ : ١٠١ / ٣٩٩ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٨ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٢ .

(٣) الكافي ٥ : ٨٤ / ٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٨ .

(٤) الكافي ٨ : ١٧٨ / ٢٠١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٨ ، وفيهما عن الصادق عليه السلام .

حكمته البالغة ، لا يتقدم بسعي ساع ، ولا يتأخر بمنع مانع وتقصير مقصّر ، فاذا وصل الوقت يصل إليه ما قسم له من أنصبة الدنيا ، ومن المعلوم أنّ من تيقن ذلك ما خاف أحدا ولا رعى أحدا وفوض أمره إليه تعالى ، وهو تعالى يبلغ ما أراد من أمره بلا مانع ولا عائق.

روي أن جبرئيل جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا جبرئيل ، ما التوكل على الله ؟ فقال : العلم بأنّ المخلوق لا يضمر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع ، واستعمال اليأس من الخلق ، فاذا كان العبد كذلك لم يعتمد على أحد سوى الله ، ولم يرج ولم يخف سوى الله ، ولم يطمع في أحد سوى الله ، فهذا هو التوكل^(١).

وعن الكاظم عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال : « للمتوكل على الله درجات ، منها أن تتوكل على الله في أمورك كلّها ، فما فعل بك كنت عنه راضيا ، تعلم أنّه لا يألوك خيرا وفضلا ، وتعلم أن الحكم في ذلك له ، فتوكل على الله بتفويض ذلك إليه ، وثق به فيها وفي غيرها »^(٢).

﴿وَاللّٰٓئِي يَسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِّسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ
وَاللّٰٓئِي لَمْ يَحْضُنْ وَأُولَٔتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ
يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا * ذَٰلِكَ أَفْرَأُ اللَّهُ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ
سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٤) و (٥)﴾

ثمّ بيّن سبحانه عدّة النساء اللاتي انقطع حيضهنّ بقوله : ﴿وَاللّٰٓئِي يَسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِّسَائِكُمْ﴾ وأزواجكم اللاتي دخلتم بهنّ وانقطع حيضهنّ ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ وشككنكم في أمرهنّ ، ولا تدرون أهنّ يائسات ، أو في سنّ من تحيض ولا تحيض لمانع ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ هالالية.
عن (المجمع) عن أئمتنا عليه السلام « هنّ اللواتي أمثالهنّ يحضن ، لأنهنّ لو كنّ في سنّ من لا تحيض لم يكنن للارتباب معنى »^(٣).

روي أنّ معاذ بن جبل قال : يا رسول الله ، قد عرفنا عدّه التي تحيض ، فما عدّة التي لم تحض ؟ فنزل : ﴿وَاللّٰٓئِي يَسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِّسَائِكُمْ﴾^(٤) فلما نزلت قام رجل فقال : يا رسول الله ، فما عدّة الصغيرة التي لم تحض ؟ فنزل : ﴿وَاللّٰٓئِي لَمْ يَحْضُنْ﴾ الصغر ، فهنّ أيضا كالكبيرة التي انقطع حيضها ، عدّتهنّ ثلاثة أشهر^(٥). قيل : فقام رجل آخر. وقال : ما عدّة الحوامل يا رسول الله ؟ فنزل :

(١) معاني الأخبار : ٢٦١ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٩ .

(٢) الكافي ٢ : ٥٣ / ٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٩ .

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٤٦١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٩ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ٣٥ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ٣٥ .

﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾^(١) وآخر عدّتهنَّ ﴿أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وعن (المجمع) عنهم عليه السلام : « هي في الطلاق خاصة »^(٢) .

وروى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام : « أن في عدّة الوفاة يعتبر أبعد الأجلين ؛ لأنّ أولات الأحمال في عدّة الطلاق »^(٣) . وعن ابن عباس ما يقرب منه^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن رجل طلق امرأته وهي حبلى ، وكان في بطنها اثنان ، فوضعت واحدا وبقي واحد ؟ قال : « تبين بالأول ، ولا تحلّ للزواج حتى تضع ما في بطنها »^(٥) .

وعنه سئل عن الحبلى يموت زوجها فتضع ، فتزوّج قبل أن يمضي لها أربعة أشهر وعشرا ؟ قال : « إن كان دخل بها فزق بينهما ، ثمّ لم تحلّ له أبدا ، واعتدّت بما بقي من الأول ، واستقبلت عدّة اخرى من الأخير ثلاثة قروء ، وإن لم يكن دخل بها فزق بينهما ، واعتدّت بما بقي عليها من الأول ، وهو خاطب من الخطّاب »^(٦) .

ثمّ حثّ سبحانه المؤمنين على العمل بأحكامه بقوله : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ في العمل بأحكامه والقيام بحقوقه ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ﴾ الراجع إلى الدنيا والآخرة ﴿يُسْرًا﴾ وسهولة بحيث لا يصعب عليه شيء من أمور الدارين ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من الأحكام ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾ وحكمه الذي ﴿أَنْزَلَهُ﴾ بتوسط جبرئيل ﴿إِلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون من اللوح المحفوظ ، لتعملوا به ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ ويخافه في مخالفة أحكامه ﴿يَكْفُرْ﴾ بتقواه ومواظبته على الحسنات ﴿عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ ويستتر معاصيه ، فلا يفضحه بها يوم القيامة ، ولا ينجسه برؤيتها فضلا عن أن يعذّبه بها ﴿وَيُعْظِمُ لَهُ﴾ يوم القيامة ﴿أَجْرًا﴾ ويضاعف له جزاء . قيل : إنّ الله أمر بالتقوى في أحكام الطلاق ثلاث مرات ، ووعد في كلّ مرة نوعا من الجزاء . فقال أولا : يجعل له مخرجا يخرج به مما دخل فيه وهو يكرهه ، ويهيء له محبوبه من حيث لا يأمل . وقال في المرة الثانية : يسهّل عليه كلّ صعب من أمره ، ويفتح له خيرا ممّن طلقها ، ووعد في المرة الثالثة عليه بأفضل الجزاء في الآخرة ، وهي كفر الذنوب ودخول الجنة والتبيل بالنعماء^(٧) .

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمِلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوْا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَمَسْرُوعٌ لَهُ

(٢١) مجمع البيان ١٠ : ٤٦١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٩ .

(٤٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٣٥ .

(٥) الكافي ٦ : ٨٢ / ١٠ ، تفسير الصافي ٥ : ١٨٩ .

(٦) الكافي ٥ : ٤٢٧ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٩٠ .

(٧) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٦ .

أُخْرَى (٦)

ثمّ كأنّه قيل : كيف يعمل بالتقوى في شأن المطلّقات المعتدات ؟ فأجاب سبحانه بقوله : ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ في مدّة عدّتهنَّ ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ وفي أي مكان تمكّنتم ﴿مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ ووسعكم واستطاعتكم ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ﴾ بإسكانهنَّ في مكان لا يناسبهنَّ أو مع من لا يوافقهنَّ في الأخلاق. ﴿لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ في المسكن وتسلبوا منهنَّ الراحة حتى تلجئوهن إلى الخروج ، أو إلى تحمّل غاية المشقّة. عن الصادق عليه السلام : « لا يضارّ الرجل امرأته إذا طلقها فيضيق عليها حتّى تنتقل قبل أن تنقضي عدّتها ، فإنّ الله تعالى قد نهي عن ذلك » ثمّ تلا هذه الآية (١) .

﴿وَإِنْ كُنَّ﴾ المطلّقات حال الطلاق ﴿أُولَاتِ حَمْلٍ﴾ وصاحبات الولد في الرّحم ، أي حمل كان ، قريب الوضع أو بعيدة ﴿فَأَنْفِقُوا﴾ أيّها المطلّقون ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ في مدّة عدّتهنَّ ، كانت رجعية أو بائية ﴿حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ويخرجن من العدّة. عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن المطلّقة ثلاثا ، أها النفقة والسكّني ؟ قال : « أحبلي هي ؟ » قيل : لا. قال : « فلا » (٢) .

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ﴾ بعد الوضع الولد الذي هو ﴿لَكُمْ﴾ ونفقته عليكم ﴿فَاتَّوهُنَّ﴾ وأعطوهنَّ ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ على إرضاعهنَّ ﴿وَأَتَمَّرُوا﴾ وتشاورا أيّها الآباء والامّهات ﴿بَيْنَكُمْ﴾ في مدّة الإرضاع ومقدار الاجرة ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ وجميل ومستحسن في مدّة الإرضاع ومقدار الأجر ، بأن لا يقصّر الرجل في أجر المرأة ونقصها ، ولا تقصّر المرأة في حقّ الولد ورضاعة ﴿وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَ﴾ وتضايقتم بأن طلبت المرأة زائدا على الاجرة المتعارفة للرضاع ، وامتنع الأب عن أداء اجرة المثل ﴿فَسَتَرْضِعُ﴾ الولد ﴿لَهُ﴾ مرضعة ﴿أُخْرَى﴾ غير الامّ مجانا أو باجرة يرضاها الأب ، وفيه إشعار بالعتاب على الامّ على المعاصرة.

﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ

نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (٧)

ثمّ بيّن سبحانه قدر الانفاق بقوله : ﴿لِيُنْفِقَ﴾ الرجل الذي هو ﴿ذُو سَعَةٍ﴾ وصاحب ثروة على المطلّقة المرضعة ﴿مِنْ سَعَتِهِ﴾ وبمقدار ثروته وغناه.

عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن الرجل الموسر يتخذ الثياب الكثيرة الجياد والطّيالة والقمص

(١) الكافي ٦ : ١٢٣ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٩٠ .

(٢) التهذيب ٨ : ١٣٣ / ٤٦٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١٩٠ .

الكثيرة يصون بعضها بعضا يتجمل بها ، أيكون مسرفا ؟ قال : « لا ، إنّ الله عَزَّجَلَّ يقول : ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ » (١) .

﴿وَمَنْ قَلِيلٌ﴾ وضيق من جانب الله ﴿عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ وكان فقيرا ﴿فَلْيُنْفِقْ﴾ على المطلقة والمرضة مقدارا ﴿مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ وأعطاه من المال ، وإن كان مقدار القوت .
عن الصادق عليه السلام قال في الآية : « إن أنفق الرجل على امرأته ما يقيم ظهرها مع كسوة ، وإلا فرق بينهما » (٢) .

﴿لَا يَكُلِفُ اللَّهُ نَفْسًا﴾ من النفوس ﴿إِلَّا﴾ إعطاء ﴿مَا آتَاهَا﴾ وأعطائها من المال ، ولا يمكن أن يكلف الفقير بمثل ما كلف الغني .

ثم بشر سبحانه الفقراء تسليية لقلوبهم بقوله : ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وبعد الفقر غنى ، وبعد الشدة رخاء ، وبعد الخوف أمان ، وبعد السقم صحة ، فلينتظر من وقع في العسر الفرج واليسر سواء كان المعسر زوجا أو غيره ، أو كان فقيرا في وقت نزول الآية أو في غيره ، لعدم كون المورد مخصصا للحكم .

﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً

وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ (٨) و (٩)

ثم هدد سبحانه المخالفين لأحكامه والعاتين على رحمهم بما نزل على العتاة من الامم السابقة بقوله : ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ وكثير من أهل بلدة ﴿عَتَتْ﴾ وأعرضت ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ وخالفها ﴿و﴾ أمر ﴿رُسُلِهِ﴾ المبعوثين إليهم بسبب التجاوز عن الحد في التكبر والعناد ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً﴾ وأخذناهم بدقائق ذنوبهم بأن ابتليناهم بالقحط والأمراض والخوف وغيرها من البلايا والشدائد مقدما على استئصالهم بالعذاب ، ليرجعوا إلى الله ، ويتوبوا مما هم فيه من العتو والعصيان ﴿وَعَذَّبْنَاهَا﴾ بذنوبهم ﴿عَذَاباً نُكْرًا﴾ وعاقبناهم عقابا هائلا عظيما ، أو عذابا غير متوقع من الغرق والحرق بالصاعقة والخسف والرجعة وغيرها من المستأصلات ﴿فَذَاقَتْ﴾ القرية ، يعني أهلها ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ وعاقبة كفرها في الدنيا ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ وضررا عظيما لا خسر ولا ضرر أعظم منه .

﴿أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ

إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا

(١) الكافي ٦ : ٤٤٣ / ١٢ ، تفسير الصافي ٥ : ١٩١ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٧٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١٩١ .

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (١٠) و (١١)

ثم هدّدهم بعذاب الآخرة بقوله : ﴿أَعَدَّ اللَّهُ﴾ وهتياً ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة بعد ذلك ﴿عَذَاباً شَدِيداً﴾ لا يقادر قدرة ، ولا يوصف كنهه ، إذا كان الأمر كذلك ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخافوه في مخالفة أحكامه ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وذوي العقول السليمة والأفهام المستقيمة ، واعتبروا بحال أمثالكم من الامم الماضية.

ثم وصف سبحانه أصحاب العقول السليمة من شوائب الأوهام بقوله : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صميم القلب بتوحيد الله ، فاعلموا أنه من أعظم النعم عليكم أنه ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وبعث ﴿إِلَيْكُمْ﴾ بلطفه ﴿ذِكْراً﴾ وواعظاً وهادياً إلى الحق ، أعنى ﴿رَسُولاً﴾ عظيم الشأن ، وهو ﴿يُنْزِلُ﴾ وبقراً ﴿عَلَيْكُمْ﴾ مع أميته ﴿آيَاتِ﴾ كتاب ﴿اللَّهِ﴾ وقرآنه العظيم حال كونها ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ وموضحات لكم جميع ما تحتاجون إليه في معاشكم ومعادكم وعقائدكم من معارف ربكم وصفاته الجمالية والجلالية ﴿لِيُخْرِجَ﴾ ذلك الرسول بتلاوته ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ به وبكتابه عن صميم القلب ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ بتعليمه وهدايته ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ التي بعضها فوق بعض كالكفر والشبهات والجهل والأخلاق النميمة والشهوات المردية ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الذي هو كمال الإيمان الحقيقي والعلم والمعرفة الكاملة بالله والأخلاق الحميدة والصفات الجميلة.

قيل : إنّ المراد بالذين آمنوا الذين يؤمنون على استعمال الماضي في المستقبل المحقق الوقوع ، أو المراد من الظلمات الظلمات التي تحدث بعد الإيمان ^(١) .

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾
 خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (١١) و (١٢)﴾

ثم حثّ سبحانه الناس إلى الإيمان والعمل الصالح ببيان حسن عاقبتهم بقوله : ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ إيماناً خالصاً من شوب النفاق ﴿وَيَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَالِحاً﴾ خالصاً من الرياء والسّمة والعجب ﴿يُدْخِلْهُ﴾ الله في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ﴾ ذات قصور وأشجار كثيرة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾ لا يخرجون منها ﴿أَبَداً﴾ وهو تأكيد للخلود ، لأن لا يتوهم أنّ المراد المكث الطويل المنقطع ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ﴾ في تلك الجنّات ﴿رِزْقاً﴾ واسعاً وافراً من

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٩ .

ثم لما بيّن سبحانه حسن المجازاة على الايمان والعمل الصالح ، ذكّر الناس كمال قدرته بقوله : ﴿اللَّهُ﴾ تعالى هو ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ بقدرته الكاملة ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ سوى العرش والكرسيّ بعضها فوق بعض كالقبة ، ﴿وَوُجُوهٌ مِّنْ﴾ جنس ﴿الْأَرْضِ﴾ بعدد السماوات و﴿مِثْلَهُنَّ﴾ في كونهنّ طباقا متلاصقة .

﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ﴾ من الله في السماوات السبع والأرضين السبع و﴿يَنْهَن﴾ ويجري حكمه وقضاؤه فيهن ، وإنما خلق ما خلق وأنفذ في كل شيء قضاءه وقدره ﴿لَتَعْلَمُوا﴾ يا بني آدم ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ الذي خلقكم وخلق الموجودات ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإيجاد والإعدام والإعادة والبعث والحساب والجزاء بالثواب والعقاب في الآخرة ﴿قَدِيرٌ﴾ ومقتدر ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ الخالق لكل شيء ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ خلقه ﴿عِلْمًا﴾ واطّلاعا وخبرا ، فأطيعوا أوامره ونواهيه ، ولا تخالفوا أحكامه ، واخضعوا لعظمته ، وخافوا عقوبته .

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٢ و ٤٣.

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٣٩.

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٤٠ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٢٩ ، تفسير الصافي ٥ : ١٩٢ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٧ .

(٦) ثواب الأعمال : ١١٩ ، مجمع البيان ١٠ : ٤٥٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٩٢ .

في تفسير سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ لَكَ مَرْضَاتُ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ

الْحَكِيمُ (١) وَ (٢)﴾

ثم لما ختمت سورة الطلاق المتضمنة لأحكام طلاق النساء ، وتهديد الكفار على مخالفة أحكامه ، وتعظيم شأن النبي ﷺ ، نظمت سورة التحريم المتضمنة لبيان حكم تحريم الزوجة بالحلف على ترك مقاربتها ، وتهديد الكفار ، وتعظيم الرسول ﷺ ووعده بالنصرة على أعدائه ، وغيرها من جهات الارتباط ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم إنه تعالى كما خاطب نبيه ﷺ في السورة السابقة بصفة النبوة إجلالا له عند ذكر حكم تحريم الزوجة بالطلاق ، خاطبه في هذه السورة أيضا بصفة النبوة عند بيان حكم تحريم الزوجة بالحلف على ترك مقاربتها بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ على نفسك ، ولأي علة تجعل ممنوع الانتفاع ﴿مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ من النساء باليمين على ترك المقاربة ، أو العسل بالحلف على ترك شربه ﴿تَبَيَّنَ﴾ وتطلب بتحريم الحلال على نفسك ﴿مَرْضَاتُ أَزْوَاجِكَ﴾ وطيب قلوبهن مع عدم قابليتهن لأن تطلب رضاهن ، بل عليهن أن يطلبن رضاك ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لرعايتك ما لا يحب الله رعايته ﴿رَحِيمٌ﴾ بك بإعطائك الأجر العظيم على تحمّل مشاق صحبتهن وإيذائهن ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وأوجب عليكم ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ ومخالفة حلفكم على ترك الاستمتاع بما أحل الله لكم ﴿وَاللَّهُ﴾ القادر على كل شيء ﴿مَوْلَاكُمْ﴾ وناصركم على أعدائكم الذين من جملتهم أزواجكم ، كما قال : ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ ... ﴿عَدُوًّا لَكُمْ ، وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمصالحكم ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأحكامه ، وفي خطاب النبي بضمير الجمع كمال تعظيمه .

روت العامة : أن النبي ﷺ خلا بمارية القبطية التي أهداها إليه المقوقس ملك مصر في يوم

عائشة

ونوبتها ، وعلمت بذلك حفصة ، فقال ﷺ : « اكتمي علي ولا تعلمي عائشة ، فقد حرمت مارية على نفسي ، وابشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر امتي » فأخبرت به عائشة ، ولم تكتنم ، وكانتا متصادقتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي ﷺ (١) .

وقيل : خلا بها في يوم حفصة حيث استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبيها في يومها ، فأذن لها ، فلما خرجت أرسل رسول الله ﷺ إلى أم ولده مارية فأدخلها بيت حفصة ، فوقع عليها ، فلما رجعت حفصة وجدت الباب مغلقا ، فجلست عند الباب ، فخرج رسول الله ﷺ ووجهه يقطر عرقا وحفصة تبكي فقال : « ما يبكيك » ؟ فقالت : إنما أذنت لي من أجل هذا ، أدخلت أمتك بيتي ثم وقعت عليها في يومي على فراشي ! فلو رأيت لي حقا وحرمة ما كنت تصنع هذا . فقال رسول الله ﷺ : « أليس هي جاريتي ، أحلها الله لي ، اسكتي فهي حرام علي ، التمس بذلك رضاك ، فلا تخبري بذلك امرأة منهن » .

فلما خرج رسول الله ﷺ قرعت حفصة الجدار بينها وبين عائشة فقالت : ألا ابشرك أن رسول الله قد حرّم عليه أمته مارية ، وقد أراحنا الله منها ، وأخبرت عائشة بما رأت ، ولم تكتنم ، فطلقها رسول الله ﷺ بطريق الجزاء على إفشاء سرّه ، واعتزل نساءه ، ومكث تسعا وعشرين ليلة في بيت مارية (٢) .

وقيل أقسم أن لا يدخل عليهن شهرا من شدة مواجده عليهن حتى نزلت الآية ، ودخل عمر على بنته وهي تبكي ، فقال : أطلقك رسول الله ؟ فقالت : لا أدري ، هو ذا معتزل في هذه المشربة (٣) - وفي رواية ، قال لها : لو كان في آل الخطّاب خير لما طلقك - قال عمر : فأتي النبي ﷺ ، فدخلت وسلّمت عليه ، فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثر في جنبه ، فقلت : أطلقت نساءك يا رسول الله ؟ فقال : « لا » . فقلت : الله أكبر ، لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساءهم ، وطفقن نساؤنا يتعلّمن من نساءهم ، فتبسّم رسول الله ﷺ ، فنزلت الآية (٤) .

وروى بعضهم أنّه كان كلّما دخل على زينب بنت جحش شرب العسل ، ولذا كان يكثر وقوفه عندها ، فتواطأت عائشة وحفصة ، فقالتا له : إنّنا نشم منك ريح المغافير ، والمغفور : صمغ حلوى الطعم كرية الرائحة ، وكان رسول الله ﷺ يكره الرائحة الكريهة ، فحرّم العسل (٥) .

وعن القمي ، قال : كان سبب نزولها أن رسول الله ﷺ كلّما ذهب في بيوت نساءه ، كانت مارية القبطية معه تخدمه ، وكان ذات يوم في بيت حفصة ، فذهبت حفصة في حاجة لها ، فتناول رسول الله ﷺ من مارية ، فعلمت حفصة بذلك ، فغضبت وأقبلت على رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ،

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٧ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٧ .

(٣) المشربة : الغرفة .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨ .

في يومي وداري وعلى فراشي ! فاستحيا رسول الله ﷺ فقال : « كَتَيْي وقد حرّمت مارية على نفسي ، ولا أطاها بعد هذا أبدا ، وأنا أفضي إليك سرا إن أنت أخبرت به فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » . فقالت : نعم ما هو ؟ قال : إنّ أبا بكر يلي الخلافة بعدي ، ثمّ بعده أبوك عمر » .
فأخبرت حفصة به عائشة من يومها ذلك ، وأخبرت عائشة أبا بكر ، فجاء أبا بكر إلى عمر ، فقال له : إنّ عائشة أخبرتني عن حفصة بشيء ولا أثق بقولها ، فاسأل أنت حفصة ، فجاء عمر إلى حفصة فقال لها : ما هذا الذي أخبرت عنك عائشة ؟ فأنكرت حفصة ذلك ، وقالت : ما قلت لها من ذلك شيئا . فقال لها عمر : إن [كان] هذا حقا فأخبرينا حتّى نتقدّم فيه . فقالت : نعم ، قد قال [ذلك] رسول الله (١) ... الخبر .

﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَايَ الْعَالِمِ﴾

الْخَبِيرُ (٣)

ثمّ شرع سبحانه في تفضيح بعض نساء النبي ﷺ التي طلب رضاها بتحريم مارية بقوله : ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ﴾ والمعنى اذكروا أيّها المسلمون وقتا أفضى النبي ﷺ ﴿إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ وهي حفصة ﴿حَدِيثًا﴾ وكلاما خفية من غيرها ، وأمرها بكتمانه وإخفائه عن سائر أزواجه ، فخالفت النبي ﷺ وعصته ، وأخبرت به عائشة ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ﴾ عائشة بسرّ النبي ﷺ أخبرتها ﴿بِهِ﴾ لمصادقة كانت بينهما ، وأخبر الله نبيه ﷺ بإفشاء حفصة سرّه ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ﴾ بتوسّط جبرئيل ﴿عَلَيْهِ﴾ بلا ريث وتأخير ﴿عَرَفَ﴾ النبي ﷺ حفصة وأعلمها بإفشائها سرّه ، ولكن لا كلّ ، بل ﴿بَعْضَهُ﴾ وهو تحريمه مارية على نفسه ﴿وَأَعْرَضَ﴾ ﷺ ﴿عَنْ بَعْضٍ﴾ ولم يقل لها : إنّك أخبرت بأنّ أبا بكر وعمر يليان الخلافة بعده كراهة انتشاره بين الناس ، وتكرّما منه وحلما ﴿فَلَمَّا﴾ أخبرها النبي ﷺ بخيانتها وعصيائها و﴿نَبَّأَهَا بِهِ﴾ معترضا عليها ﴿قَالَتْ﴾ حفصة ﴿مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا﴾ العصيان ، وأخبرك بهذه الخيانة مّي ﴿قَالَ﴾ النبي ﷺ : ﴿نَبَايَ﴾ الله ﴿الْعَالِمِ﴾ بالأسرار و﴿الْخَبِيرِ﴾ بخفايا الامور .
أقول : فيه دلالة على إخباره بالغيب ، وهو من معجزاته .

﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَفَكُنَّ

(١) تفسير القمي ٢ : ٣٧٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١٩٤ .

أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُمْ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ

سَائِحَاتٍ ثَيَّابَاتٍ وَأَبْكَاراً (٥)

ثم وجه سبحانه الخطاب إلى المراتين العاصيتين تشديدا للعتاب لهما بقوله : ﴿إِنْ تَتُوبَا﴾ يا عائشة ويا حفصة من خيانتكما وعصيانكما ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وتستغفرانه فهو خير لكما ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾ وأعرضت ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ عن الله وطاعته برغبتكما إلى إيذاء نبيّه ﷺ ﴿وَإِنْ﴾ لم تتوبا و﴿تَظَاهَرَا﴾ وتعاونوا ﴿عَلَيْهِ﴾ وتواطئا على إيذائه ، فإنه لا يبالي بكما ، لأنّ له مظاهرا ومعاوناً أقوى من جميع أهل العالم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ الغالب القاهر ﴿هُوَ﴾ بالخصوص ﴿مَوْلَاهُ﴾ وناصره قبل كل شيء ، لأنّه حبيبه وصفيه ﴿وَو﴾ بعده ﴿جَبْرِيلُ﴾ رئيس الكروبيين ، وأقوى الملائكة ناصره ﴿وَو﴾ بعدهما ﴿صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وسيدهم علي بن أبي طالب ﷺ ناصرهم بنفسه وماله ، كما عن مجاهد (١) والباقر ﷺ (٢) ، ويؤيده حديث المنزلة (٣) .

وعن الباقر ﷺ « لقد عزّف رسول الله ﷺ عليا ﷺ أصحابه مرتين ؛ أمّا مرّة فحيث قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، وأمّا الثانية فحيث ما نزلت هذه الآية : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أخذ رسول الله ﷺ بيد علي ﷺ وقال : أيّها الناس ، هذا صالح المؤمنين » .
وقالت أسماء بنت عميس : سمعت النبي ﷺ يقول : « ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ علي بن أبي طالب » (٤) فما نسبه العامة إلى ابن عباس من أنّ المراد أبو بكر وعمر (٥) فرية لا اعتداد بها ، مع أنّ مولاه لا بدّ أن يكون أقوى الناس لا أضعفهم .

وقيل : إنّ المراد خيار المؤمنين . وقيل : من برئ منهم من النفاق . وقيل : عموم اصحابه . وقيل : جميع الأنبياء (٦) .

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ كلّهم ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ المذكورين ﴿ظَهَرُوا﴾ ومعاونوا له على أعدائه ، فلا يبالي بكيد امرأتين ضعيفتين من له أولئك الظّهراء . ثمّ خوّفهنّ سبحانه بقوله : ﴿عَسَى رَبُّهُ﴾ ويرجي منه أنّ النبيّ ﷺ ﴿إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ وأخرجكنّ من حباله نكاحه ﴿أَنْ يُبَدِّلَهُ﴾ الله ويعوّضه منكنّ ﴿أَزْوَاجاً﴾ اخر ﴿خَيْراً﴾ له وأفضل ﴿مِنْكُمْ﴾ من جهة كونهنّ ﴿مُسْلِمَاتٍ﴾ بالسننهنّ ، أو منقادات بجوارحنّ ﴿مُؤْمِنَاتٍ﴾ ومخلصات أو مصدّقات بقلوبهنّ ﴿قَانِتَاتٍ﴾ ومطيعات أو خاضعات لله ولرسوله

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٣ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٧٧ ، تفسير الصافي ٥ : ١٩٥ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٣ .

(٤) مجمع البيان ١٠ : ٤٧٥ ، تفسير الصافي ٥ : ١٩٥ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ٤٤ .

(٦) تفسير الرازي ٣٠ : ٤٤ .

﴿تَائِبَاتٍ﴾ من زَلَّاتِهِنَّ ، و﴿عَابِدَاتٍ﴾ لله مواضبات على الصلوات ، أو متذللّات لأوامر الرسول
﴿سَائِحَاتٍ﴾ وصائمات ، يكون بعضهنَّ ﴿نَيَّابَاتٍ وَ﴾ بعضهنَّ ﴿أَنْكَارَاتٍ﴾ كما أنّ في أزواجه تيّبات وبكر.

في فضيحة عائشة وحفصة وردّ بعض العامة

أقول : في ذكر الصفات في مقام بيان خيرية الأزواج إشعار بعدم اتّصاف عائشة وحفصة بجميع الصفات ، وإلاّ لم يكن خيرا منهما ، وفيها ردّ على استدلال الفخر الرازي بآية ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾^(١) على كون عائشة مبرأة من جميع العيوب^(٢) ، والظاهر أنّ الله تبارك وتعالى أنزل السورة لتفسيحهما بين المؤمنين بكونهما مؤذيتين للنبي ﷺ ومتظاهرتين عليه ، كما أنزل سورة المنافقين لتفسيح عبد الله بن أبي وأصحابه بين المؤمنين بكفرهم ومعارضتهم للنبي ، فلا يعبأ بما روته العامة من أنّ النبي ﷺ لما طلق حفصة قال له جبرئيل : ارجع إليها ، فأنّها صوّامة قوّامة^(٣) ، مع كون النبي ﷺ أعلم بحالها من غيره ، وإتّما رجع إليها لدخالتها في الفتنة بعد الرسول ﷺ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾

عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)

ثمّ لما ذكر سبحانه عصيان زوجتي النبي ﷺ وأمرهما بالتوبة أمر المؤمنين بحفظ نسائهم وأولادهم وأقربائهم من العصيان بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا﴾ واحفظوا ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ بطاعة الله وترك عصيانه ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ من أزواجكم وأولادكم وأقاربكم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتّصحّح والعظة ﴿نَارًا﴾ موقدة التي ﴿وَقُودُهَا﴾ وحطبها ما تشتعل به ﴿النَّاسُ﴾ الكفرة والعصاة ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ عن ابن عباس هي حجارة الكبريت ؛ لأنّها أشدّ الأشياء حرّاً إذا أوقد عليها^(٤) . وقيل : حجارة الأصنام^(٥) . وقيل : الذهب والفضّة الذين أصلهما الحجر^(٦) .

تسلّط ﴿عَلَيْهَا﴾ بأمر ربّها تسعة عشر ﴿مَلَائِكَةً غِلَاظًا﴾ أجرامهم وقلوبهم ، أو غلاظ أقوالهم ﴿شِدَادًا﴾ وجفافة وخشن على أعداء الله ، لم يخلق فيهم رحمة ورقة ، مطيعون لأمر الله ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ﴾ ولا يخالفون ﴿مَا أَمَرَهُمْ﴾ الله في تعذيب أعدائه ومخالفي أحكامه ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ من أنواع العذاب من غير توان وتأخير ، وبلا زيادة ونقصان.

(١) النور : ٢٤ / ٢٦ .

(٢) تفسير الرازي ٢٣ : ١٩٥ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٤١ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ٤٦ .

(٥) تفسير روح البيان ٥٩ / ١٠ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ / ٥٩ .

في الحديث « رحم الله رجلا قال : يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم ، لعل الله يجمعكم معهم في الجنة » (١) .

عن الصادق عليه السلام : « لما نزلت هذه الآية جلس رجل من المسلمين يبكي ، وقال : عجزت عن نفسي ، وكلفت أهلي . فقال رسول الله ﷺ : حسبك أن تأمرهم بما تأمر نفسك ، وتنهاهم عما تنهى عنه نفسك » (٢) .

وعنه عليه السلام ، قيل له : هذه نفسي أقيها ، فكيف أقي أهلي ؟ فقال : « تأمرهم بما أمرهم الله به ، وتنهاهم عما نهاهم الله عنه ، فإن أطاعوك وقيتهم ، وإن عصوك كنت قضيت ما عليك » (٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٧)

ثم إنه تعالى بعد أمر المؤمنين بحفظ أنفسهم وأهليهم من النار ، هدد الكفار بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ والتقدير على ما قيل : يقال لكم حين إدخالكم النار يوم القيامة وإرادتكم الاعتذار عن كفركم وعصيانكم (٤) : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا ﴾ في هذا ﴿ الْيَوْمَ ﴾ الذي هو يوم الجزاء بعد إتمام الحجة عليكم بتوسط الرسل في الدنيا ، وتبليغ الأوامر والنواهي إليكم بأبلغ بيان ، فلم يبق لكم عذر قابل للقبول مفيد بحالكم ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ ﴾ اليوم ﴿ مَا كُنتُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾ وترتكبون من الكفر والطغيان والعتو والعصيان بلا زيادة ولا نقصان.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ

سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ

وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا

نُورَنَا وَاعْفُ رَ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٨)

ثم علم الله سبحانه المؤمنين طريق الخلاص من العذاب والاعتذار من العصيان بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ من معاصيكم وزلاتكم في الدنيا قبل معاينة الآخرة وانسداد باب التوبة ﴿ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ لا رجوع بعدها إلى ما ارتكبتم من الذنب ، واعتذروا إلى الله مما فرط منكم من العصيان مع الندم عليه ندامة شديدة مستلزمة للعزم الأكيد على أن لا تعودوا إليه أبدا.

(١) جوامع الجامع : ٤٩٩ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٨ .

(٢) الكافي ٥ : ٦٢ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٩٦ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣٧٧ ، وتفسير الصافي ٥ : ١٩٦ ، عن الصادق عليه السلام .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٦٠ .

في شرائط قبول التوبة

روى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سمع أعرابيا يقول : اللهم إني استغفرك وأتوب إليك . فقال : « يا هذا : إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين » قال : فما التوبة ؟ قال : « إن التوبة يجمعها ستة أشياء : على الماضي من الذنوب الندامة ، وللغرائض الإعادة ، ورد المظالم ، والاستحلال من الخصوم ، وأن تعزم على أن لا تعود ، وأن تذيب نفسك في طاعة الله كما ربّيتها في المعصية ، وأن تذيبها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعاصي » ^(١) .

عن الصادق عليه السلام : أنه سئل عن هذه الآية ، فقال عليه السلام : « يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه » ^(٢) .

وفي رواية : قيل له : وأنت لا يعود ؟ فقال : « إن الله يحب من عباده المفقّن التّوّاب » ^(٣) . وعن الكاظم عليه السلام في هذه الآية ، قال : « يتوب العبد ثم لا يرجع فيه ، وأحبّ عباد الله إلى الله : المفقّن التائب » ^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام : « التوبة التصّوح أن يكون باطن الرجل كظاهره ، بل أفضل » ^(٥) . ثم بيّن سبحانه فائدة التوبة بقوله : ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ ويرجى من خالقكم اللطيف بكم ﴿أَن يَكْفُرَ﴾ ويستّر ﴿عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وخطيئاتكم.

عن الصادق عليه السلام : « إذا تاب العبد توبة نصوحا أحبه الله فيستر عليه في الدنيا والآخرة » قيل : وكيف يستر عليه ؟ قال : « ينسي ملكيه ما كتب عليه من الذنوب ، ويوحى إلى جوارحه : اكنمى عليه ذنوبه ، ويوحى إلى بقاع الأرض : اكنمى ما كان يعمل عليك من الذنوب ، فيلقى الله وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب » ^(٦) .

﴿وَيُدْخِلَكُم﴾ برحمته ﴿جَنَّاتٍ﴾ ذات قصور وأشجار كثيرة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ قيل : ذكر سبحانه الوعد بصيغة الإطماع جريا على عادة الملوك ، وإشعارا بأنه تفضّل ، ولأنّ العبد ينبغي أن يكون بين الخوف والرجاء ^(٧) ، وذلك اللطف بالمؤمنين وإدخالهم الجنة يكون في يوم القيامة ، وهو يكون ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ﴾ ولا يفضح ، أو لا يخلج ﴿النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ به حال كونهم ﴿مَعَ﴾ ومصاحبه ﴿نُورُهُمْ﴾ وضياء إيمانهم وطاعاتهم كشعاع الشمس ﴿يَسْعَى﴾ ويسير بسرعة على الصّراط ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وقدامهم ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ وشمائلهم.

قيل : إن المراد من جميع جوانبهم وجهاهم ، وإنما اكتفى سبحانه بذكر الجهتين لأنهما أشرف الجهات ،

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٦١ .

(٢) الكافي ٢ : ٣١٤ / ٣ ، تفسير الصافي ٥ : ١٩٦ .

(٣) الكافي ٢ : ٣١٤ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ١٩٦ ، والمفقّن : الممتحن ، يمتحنه الله بالذنوب ثم يتوب ، ثم يعود ثم يتوب .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٧٧ ، تفسير الصافي ٥ : ١٩٦ .

(٥) معاني الأخبار ١٧٤ / ٣ ، تفسير الصافي ٥ : ١٩٦ .

(٦) الكافي ٢ : ٣١٤ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ١٩٧ . (٧) تفسير روح البيان ١٠ : ٦٤ .

أو لأن أهل السعادة يؤتون صحائفهم من الجهتين ^(١) .

عن الباقر عليه السلام : « من كان له نور يومئذ نجاً ، وكلّ مؤمن له نور » ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال : « يسعى [أئمة] المؤمنين يوم القيامة بين أيدي المؤمنين وبأيمانهم حتى ينزلوهم منازلهم في الجنة » ^(٣) .

وهم مع ذلك ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قيل : هذا قول بعض المؤمنين ، وهم الذين يجوزون على الصراط حبوا وزحفا ^(٤) وقيل : يدعو كلّهم تقرباً إلى الله مع تمام نورهم ^(٥) . وقيل : إنّ المراد من الاتمام الابقاء حتى يدخلوا الجنة ويردوا دار السلام ^(٦) .

عن ابن عباس : يقولون ذلك عند انطفاء نور المنافقين إشفاقاً ^(٧) .

وقيل : إنّ أذانهم منزلة من نوره بقدر ما يبصر مواطئ قدمه ، لأنّ النور على قدر الأعمال ^(٨) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ

الْمَصِيرُ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ

عَبْدَتَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَتَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ

ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (٩) و (١٠) ﴾

ثمّ لما بدأ السورة بالخطاب إلى النبي ﷺ ، ختم سبحانه الخطابات بالخطاب إليه بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ ﷺ ﴿ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ بالسيف والسنان ﴿ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ بالحجة والبرهان ، وبالتهديد بالفضيحة والخذلان ﴿ وَاغْلُظْ ﴾ وشدد وأخشن ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ فيما يجاهد الفريقين من القتال والمحااجة حتى تضيق عليهم الدنيا ، وأنا حكمت بأنّ منزلهم ﴿ وَمَأْوَاهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ التي أعدت للكفار ﴿ وَ ﴾ هي ﴿ بِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ والمرجع في الآخرة ، فلا يكون لهم دنيا ولا آخرة.

ثمّ لما بيّن سبحانه خيانة زوجتي النبي ﷺ وعصيانهما إيّاه في أول السورة ، بيّن سبحانه عدم انتفاعهما بصحبته ، وعدم استفادتهما من كونهما من أزواجه ، بتمثيل حالهما بزوجة نوح وزوجة لوط بقوله : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وبيّن حالهم الغريبة التي تشابه المثل في الغرابة بتذكيركم حال واعلة التي هي ﴿ امْرَأَتُ نُوحٍ ﴾ وأهله ﴿ وَامْرَأَتُ لُوطٍ ﴾ فأتهما ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَتَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا ﴾

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٦٥ و ٦٦ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٧٨ ، تفسير الصافي ٥ : ١٩٧ .

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٤٧٨ ، تفسير الصافي ٥ : ١٩٧ .

(٤) و (٥) تفسير الرازي ٣٠ : ٤٨ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٦٦ .

(٧) و (٨) تفسير الرازي ٣٠ : ٤٨ .

صَالِحِينَ كاملين في العبودية وحسن الأعمال والأخلاق ، وفي تصرفهما وتربيتهما وحكمهما المقتضي لصبرورثهما مؤمنتين صالحتين **﴿فَخَانَتْهُمَا﴾** بإفشاء سرهما عند الكفار ، كما كانت عائشة وحفصة تحت تربيتك وحلمك المقتضي لكونهما صالحتين ، ومع ذلك خانتاك بإفشاء سرّك **﴿فَلَمْ يُغْنِيا﴾** ذلكما النبيان المرسلان مع عظم شأنهما **﴿عَنْهُمَا﴾** بحق النكاح والصّحة **﴿مِنْ﴾** عذاب **﴿الله﴾** ونكاله **﴿شَيْئاً﴾** يسيرا من الإغناء ، فشملهما عذاب الاستئصال في الدنيا بأنّ هلكتا إحداهما بالغرق بالطوفان ، والاخرى بالصيحة ومطر الحجارة **﴿وَقِيلَ﴾** لهما عند موتهما أو يوم القيامة : يا زوجة نوح ، ويا زوجة لوط **﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ﴾** سائر **﴿الدَّاحِلِينَ﴾** فيها من الكفار الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء.

﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِكْرَامٌ كَمَا وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١١) وَ (١٢)﴾

ثم بيّن سبحانه حسن حال المؤمنات اللاتي لا وصلة بينهن وبين الأنبياء ، بل كنّ تحت أشقى الأشقياء بقوله : **﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾** وبيّن حسن حالهم الغريبة بتذكيركم حال آسية ، مع أنّها كانت **﴿امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾** الذي ادّعى الألوهية وعارض موسى بن عمران ، فلم يضربها صعبة زوجها الكافر ، وصبرت على اذاه **﴿إِذْ قَالَتْ﴾** وحين دعت ربّها لما ابتليت بعذاب فرعون وأذاه بقولها : **﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ﴾** وفي حوار قريك **﴿بَيْتاً﴾** ومنزلاً **﴿فِي﴾** أعلى درجات **﴿الْجَنَّةِ﴾** لإيماني بك وبرسولك موسى **﴿وَنَجِّنِي مِنْ﴾** صعبة **﴿فِرْعَوْنَ﴾** وعذابه **﴿وَمِنْ﴾** **﴿عَمَلِهِ﴾** الباطل ، وكفره بآياتك **﴿وَنَجِّنِي﴾** يا ربّ وخلصني **﴿مِنْ﴾** ظلم **﴿الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** على أنفسهم وعلى عبادك المؤمنين.

روي أنّه لما غلب موسى السحرة آمنت آسية بنت مزاحم زوجة فرعون بموسى بن عمران. قيل : كانت عمّته ، فلمّا علم فرعون بإيمانها أمرها بالرجوع عن الإيمان إلى الكفر فأبت عن ذلك ، فأوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد في حرّ الشمس ، فأمر الله الملائكة أن يظلّوها من الشمس بأجنحتهم ، فلمّا قالت : ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، رفعت الحجب ، فأراها بيتاً في الجنة من دَرّة بيضاء ،

ورفع عنها ألم العذاب فضحكت ، فقال الكفار : هي مجنونة لأنها تضحك وهي في العذاب ^(١) ، ثم طارت روحها إلى جوار رحمة الله.

وعن الضحّاك : أمر فرعون أن يلقي عليها حجر رحي ، وهي في الأوتاد ، فقالت رب ابن لي ... إلى آخره فلم يصل الحجر حتى رفع روحها إلى الجنة ، فألقي الحجر عليها بعد خروج روحها ، فلم تجد ألما ^(٢) .

ثم بين سبحانه حسن حال المؤمنات اللاتي لا زوج لهنّ بتمثيلهنّ بمریم بنت عمران بقوله : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ أم عيسى ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ﴾ وحفظت ﴿فَرْجَهَا﴾ من مساس الرجال حراما وحلالا على أكد حفظ ، وقيل : يعني طهرت ذيلها من ريبة الفجور ﴿فَنَفَخْنَا﴾ في جيبها بتوسط جبرئيل ، وأدخلنا ﴿فِيهِ﴾ كالريح من الروح العظيم الشأن الذي يصحّ أن تقول تشريفا : إنه ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ وقيل : إنّ المراد بالروح جبرئيل ^(٣) ، والمعنى نفخنا في جيبها من جبرئيل ﴿وَصَدَقَتْ﴾ عن صميم القلب ﴿بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ المنزلة على الأنبياء ، أو المراد بالبشارات التي بشر بها جبرئيل ﴿وَكُنْهَ﴾ المنزلة من السماء كصحف شيث وإبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وغيرها ﴿وَكَانَتْ﴾ واحدة ﴿مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ والخاشعين لله ، أو من المطيعين والمعتكفين في المسجد الأقصى ، وعدّها من الرجال القانتين للإشعار بعدم قصور عبادتها عن عبادة الأنبياء.

روت العامة عن النبي ﷺ أنّه قال : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا أربع : آسية بنت مزاحم ، ومريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ﷺ » ^(٤) .
قيل : جمعه الله في التمثيل بين التي لها زوج والتي لا زوج لها تسليّة للأرامل وتطيبيا لأنفسهن ^(٥) .

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٦٩ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٦٩ .

(٣) (٤٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٧١ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٧٠ .

في تفسير سورة الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (١) وَ (٢)﴾

ثم لما ختمت سورة التحريم المشتملة على اظهار غاية التعظيم لنبيه والطف به وبالمؤمنين وتهديد الكفار بالعذاب وانقطاع عذرهم في الآخرة ، اردفت بسورة الملك المشتملة على بيان سلطنته المطلقة في عالم الوجود ، وكمال قدرته ، وتهديد الكفار بورودهم في النار ، وانقطاع عذرهم واعترافهم باستحقاقهم العذاب ، وإبطال قولهم بإنكار المعاد ، وإظهار اللطف بالمؤمنين ، فافتتحها بذكر الأسماء المباركات بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم ابتدأها ببيان عظمة ذاته المقدسة وكثرة خيره وكمال قدرته بقوله : ﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى وتعظم ، أو كثر خير الإله ﴿الَّذِي بِيَدِهِ﴾ وتحت قدرته وسلطنته ﴿الْمُلْكُ﴾ وعالم الوجود من العلويات والسفليات ، يقلبه كيف يشاء ، ويحكم فيه كيف أراد بلا ضد ولا ندد ولا معارض ولا معاضد ﴿وَهُوَ﴾ في ملكه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الابداع والإعدام والعطاء والمنع والإعزاز والإذلال والإحياء والإماتة وغيرها ﴿قَدِيرٌ﴾ . ثم بين سبحانه آثار قدرته وسلطانه بقوله : ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وقدّر بقدرته وحكمته ﴿الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ لكل ما يقبلهما .

عن ابن عباس : أنّ الموت والحياة جسمان ، وأنّ الله خلق الموت على صورة كبش أملح لا يمرّ بشيء ولا يجد رائحته شيء إلا مات ، وخلق الحياة على صورة فرس انثى بقاء (١) ، وهي التي كان جبرئيل والأنبياء يكتبونها ، خطوتها مدّ البصر ، فوق الحمار ودون البغل ، لا تمرّ بشيء ولا يجد رائحتها [شيء] إلا حيي ، وهي التي أخذ السامري من أثرها قبضة فألقاها على العجل فحيي (٢) .

(١) الفرس البقاء : التي فيها سواء وبياض .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٧٤ .

تحقيق في الموت وبيان نكته تقديمه على الحياة

أقول : ظاهر ما ذكره أنّ الموت المخلوق هو حيوان يشبه الكبش الأملح ، وأثر قربه ورائحته في الشيء الحي هو عروض الموت عليه ، كالسّم وسائر الأشياء المهلكة ، وهو غير الموت الذي يعرض للأشياء الحيّة ، فالموت الذي هو من العوارض الوجودية على قول والعدمية على القول الحقّ غير ذلك الموت الذي هو مخلوق وصورته في عالم الصّور والمثال صورة الكبش ، فلا دلالة لكلام ابن عباس على صحّة أحد القولين.

والحقّ أنّ المفهوم من لفظ الموت الذي يكون في قبال الحياة في الاستعمال الشائع ، هو من العدميات التي لها شائبة الوجود ، ويسمّى بالعدم والملكة والعدم المضاف ، وهو يتحقّق بانتفاء علّة الحياة ، فإنّ عدم علّة الوجود علّة للعدم ، وقبض ملك الموت الروح من الجسد سبب لطوّ الموت عليه ، ويمكن أن تكون صورته المثاليّة البرزخية صورة الكبش الأملح التي يؤتى بها يوم القيامة ، ويذبّحه يحيى بن زكريا على رواية ^(١) .

وهذا المعنى الذي للموت مخلوق يتبع خلق الحياة ، كما أنّ خلق الليل الذي عدم النور فوق الأرض إنّما يكون يتبع خلق النهار ، فإنّ ذهاب الشمس من فوق الأرض وعدمها منه علّة لظلمة الليل ، وعليه يكون معنى خلق الموت والحياة جعل الروح في القالب وسلبه منه ، وهذا هو الموت الذي يكون بعد الحياة ، كما عن الباقر عليه السلام : « أنّ الله خلق الحياة قبل الموت » ^(٢) . وأمّا الموت الذي هو فقد الحياة وعدمها ، كما يكون للتّطفة وللأرض الميتة ، فهو قبل الحياة.

فتحصّل ممّا ذكر أنّ الموت بالمعنى الأعظم عديم صرف لا يحتاج إلى السبب ، وأمّا الموت الذي هو زهاق الروح فهو مسبّب عن ذهاب مقتضى الحياة بنفسه أو وجود ما هو ضدها ، وعليه يمكن حمل ما عن الباقر عليه السلام من قوله : « الحياة والموت خلقان من خلق الله ، فإذا جاء الموت فدخل في الانسان ، لم يدخل في شيء إلا خرجت منه الحياة » ^(٣) وحمل دخول الموت على دخول ما هو مانع الحياة ، وإن كان ظاهره مقررا لما قاله الأشاعرة من أنّ الموت والحياة صفتان وجوديتان مستدلّين عليه بالآية المباركة ، إلّا أن يقال : إنّ اتّصاف الجسم بالموت (والسكون) مثلا وتقيّده به أمر وجوديّ كالحياة.

وعلى أيّ تقدير قيل في وجه تقديم ذكر الموت : إنّ المراد به حال التّطفة والعلة والمضغة ، وبالحياة نفخ الروح ^(٤) .

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٥٥ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٧٥ .

(٢) الكافي ٨ : ١٤٥ / ١١٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٠٠ .

(٣) الكافي ٣ : ٢٥٩ / ٣٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٠٠ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ٥٥ .

وعن ابن عباس ، قال : يزيد الموت في الدنيا والحياة في الآخرة ، وفي معناه ما قيل من ان أيام الموت هي أيام الدنيا وهي من قضيته وأيام الحياة هي أيام الآخرة وهي متأخرة ^(١) .

وقيل : إنّ أقوى الدواعي للعمل كون الموت نصب العين ، وإنّما قدّم الموت لأنّ الغرض - وهو البعث على العمل فيه - أهمّ ^(٢) .

عن النبي ﷺ : « أكثرُوا ذكرَ هادمِ اللذاتِ » [وقال لقوم « لو أكثرتم ذكر هادم اللذات [لشغلکم عما أرى » ^(٣) .

وروي أنّه ﷺ سأل عن رجل فأتّونوا عليه فقال : « كيف ذكره الموت ؟ » قالوا : قليل . قال : « فليس كما تقولون » ^(٤) .

وفي الحديث : « لو لا ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه : الفقر ، والمرض ، والموت » ^(٥) .
وإلى ما ذكر أشار سبحانه بقوله : ﴿ لِيُنْذِرَكُمْ ﴾ ويختركم ويعلمكم بسبب خلق الموت والحياة ﴿ أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ فيجازيكم على اختلاف المراتب.

عن النبي ﷺ قال : « يقول أيكم أحسن عقلا » ثمّ قال : « أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا ، وأحسنكم فيما أمر الله به ونهى عنه نظرا » ^(٦) .

وفي رواية قال : « أيكم أزهّد في الدنيا ، وأشدكم تركا لها » ^(٧) .
وفي رواية قال : « أيكم أحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع في طاعة الله » ^(٨) .
وعن الصادق عليه السلام : « ليس يعني أكثركم عملا ، ولكم أصوبكم عملا ، وإنّما الإصابة خشية الله والنية الصادقة ... » ^(٩) الخبر.

﴿ وَهُوَ ﴾ تعالى وحده ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ والغالب على كلّ شيء لا يفوته من أساء و﴿ الْغَفُورُ ﴾ لمن شاء إمّا بالتوبة أو بالشفاعة أو بالتفضل.

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ
الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٥٥ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٥٥ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٥٥ ، وفيه في الموضعين : هازم ، بدلا من : هادم .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ٥٥ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٧٥ .

(٦) تفسير الرازي ٣٠ : ٥٦ .

(٧) تفسير الرازي ٣٠ : ٥٦ .

(٨) تفسير روح البيان ١٠ : ٧٦ .

(٩) الكافي ٢ : ١٣ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٠٠ .

خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا

لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٣) و (٥)

ثمّ بالغ سبحانه في ذكر آثار قدرته بقوله : ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وأبدع ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ حال كونهن ﴿طَبَاقًا﴾ بعضها فوق بعض لكلّ حدّ معين وحركة خاصة مقدّرة بقدر مخصوص من السرعة والبطء ، متناسبات في الخلق بحيث ﴿مَا تَرَى﴾ أيّها الرسول ، أو الرائي ﴿فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ﴾ وإبداع الإله الفيّاض المَنَّان يسيرا ﴿مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ واختلاف وعيب. يقول الرائي : لو كان كذا كان أحسن ، أو من فروج وشقوق ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ وردّه إلى رؤيتها ، وأعد النظر إليها لطلب الخروق والصدوع فيها ^(١) ﴿يَنْقَلِبُ﴾ ويرجع ﴿إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ محروما من إصابة ما طلبه من العيب والخلل ﴿وَهُوَ﴾ لطول المعاودة وكثرة المراجعة ﴿حَسِيرٌ﴾ وكليل ، وبالعجز عن الإعياء والعجز عن الظّفر بالمطلوب من وجدان العيب.

ثمّ إنّّه تعالى بعد بيان كمال خلقه السماوات بيّن كمال قدرته وحكمته بتحسينها وتزيينها منّة على العباد بقوله : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا﴾ وحسنا بقدرتنا ﴿السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ وأقرّجها إلى الأرض ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ وسرج مضيئة من النجوم والكواكب الثوابت والسيارة. أقول : لا ينافي ذلك كون جميعها أو بعضها في السماوات الآخر ، فإنّها ترى في السماء الدنيا وترى زينة لها.

وصيّرنا الكواكب ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ مع ذلك ﴿رُجُومًا﴾ ومطردات ﴿لِلشَّيَاطِينِ﴾ وكفرة الجنّ بالشّهب المنفصلة منها ، إذا أرادوا استراق السمع وقيل : يعني جعلناها ظنوننا ورجوما بالغيب لشیاطین الإنس ، وهم الأحكاميون من المنجمين ^(٢) ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ لأولئك الشياطين وهياتنا ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ والنار الموقدة التي أوقدها الجبار بغضبه.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسْأَلُونَ فِيهَا الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) و (١١)﴾

(١) يوجد في النسخة بياض بمقدار سطر وأربع كلمات.

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٦٠ .

ثمَّ إِنَّهٗ تعالى بعد بيان أنَّ كفار الشياطين لهم عذاب جهنم ، هدّد جميع الكفّار من الجنّ والإنس به بقوله : ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [سواء] كانوا من الشياطين أو الجنّ أو الانس ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ هي ﴿بُئْسَ الْمَصِيرُ﴾ والمرجع لهم.

ثمَّ بيّن سبحانه بعض أهوال جهنم مضافا إلى التعذيب بما بقوله : ﴿إِذَا أُلْقُوا﴾ اولئك الكفّار في جهنم وطرحوا ﴿فِيهَا﴾ كالخطب الذي يطرح في النار من غير رقّة وترحم ﴿سَمِعُوا﴾ اولئك الملقون في جهنم ﴿لَهَا شَهيقاً﴾ وصوتا منكرا كصوت الحمار غضبا عليهم ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ وتغلي غليان القدر بالماء الذي فيه بغاية الشدّة من شدّة التلهّب والتسعر ، فهم لا يزالون صاعدين فيها وهابطين كالخبّ الذي في الماء المغلي لاقرار لهم فيها.

ثمَّ بالغ سبحانه في بيان شدّة غضب جهنم عليهم بقوله : ﴿تَكَادُ﴾ وتقرب جهنم من أن ﴿تَمِيزُ﴾ وتفرّق ﴿مِّنْ﴾ شدّة ﴿الْعَظِيمِ﴾ والغضب عليهم.

ثمَّ بيّن سبحانه حال الملقون فيها بقوله : ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ﴾ في جهنم وطرح ﴿فِيهَا﴾ من الكفرة ﴿فَوْجٌ﴾ وجماعة بدفع الملائكة الذين هم أغيط عليهم من النار ﴿سَأَلَهُمْ﴾ مالك جهنم وأعوانه الذين هم موكلون عليها و﴿خَزَنَتُهَا﴾ بطريق التوبيخ والتقريع أيّها الكفرة ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ في الدنيا من قبل ربكم ﴿نَذِيرٌ﴾ ومخوّف لكم من عذاب هذا اليوم وأهواله ؟ ﴿قَالُوا﴾ في جواب الخزنه اعترافا بجرمهم واستحقاقهم للعذاب : ﴿بلى﴾ أيّها الخزنة ﴿فَدُجَاءَنَا﴾ في الدنيا من قبل ربنا ﴿نَذِيرٌ﴾ عظيم الشأن كثير المعجزات ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ ذلك النذير في دعوى كونه من الله ﴿وَقُلْنَا﴾ في ردّ ما كانوا يتلون علينا من الآيات ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ ممّا تتلون علينا ﴿مِّنْ شَيْءٍ﴾ يسير فضلا عن جميع تلك الآيات الكثيرة أو من شيء من كتاب ورسول ﴿إِن أَنْتُمْ﴾ وما نراكم أيّها المدّعون للرسالة ﴿إِلَّا﴾ منغمرين ﴿فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ ومنحرفين عن طريق واضح عند عامة العقلاء في دعواكم الرسالة ، وكون ما تتلون علينا من جانب الله ﴿وَقَالُوا﴾ تحسّرا وتندما : إنا ﴿لَوْ كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿نَسْمَعُ﴾ مواعظ الرّسل سماع القبول ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ امتناع الشرك ووجوب بعث الرسول وجعل دار الجزاء على الله ، وبراهين الأنبياء على التوحيد ، وسائر ما جاءوا به ﴿مَا كُنَّا﴾ اليوم ﴿فِي﴾ زمرة ﴿أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ومستحقّي العذاب.

قيل : كأنّ الخزنة قالوا لهم في تضاعيف توبيخهم : ألم تسمعوا آيات ربكم من السنة الرّسل ، ولم تعقلوا معانيها ؟ قالوا في جوابهم ذلك ^(١) ﴿فَاعْتَرَفُوا﴾ في جواب الخزنة اضطرابا لما رأوا أنّه

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٨٥.

لا يمكنهم الفرار والإنكار ﴿بِذَنبِهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي ومعارضة الرسل وتكذيبهم اختيارا في الدنيا وأقروا باستحقاقهم العذاب ﴿فَسُحْقًا﴾ وبعدا لا غاية له من رحمة الله ﴿لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وهم الكفرة من الجن والإنس اعترفوا أو جحدوا.

وعن (الاحتجاج) في الخطبة الغديرية : « أَنَّ هذه الآيات في أعداء عليّ وأولاده عليّ والتي بعدها في أوليائه » (١) .

قيل : إنّ التقدير فسحقوا سحقا وبعدوا بعدا على التحقيق ، أو على الدعاء عليهم ، بمعنى تعليم الله العباد أن يدعوا عليهم بهذا إشعارا بأنهم مستحقون لهذا الدعاء (٢) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٢) وَ (١٣)﴾

ثمّ إنّ تعالى بعد ذكر سوء حال الكفار في الآخرة ، ذكر حسن حال المؤمنين فيها بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ يؤمنون بالله ، و﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ الذي هو ﴿بِالْغَيْبِ﴾ عن أبصارهم لا يرونه بعيونهم ، بل يعرفونه بقلوبهم ، أو المراد يخشون عذاب ربهم بعد الموت ويوم القيامة مع [أن] ذلك العذاب غائب عنهم غير مرئي لهم في الدنيا ، أو هم بالغيب عن الناس فيتركون معاصي الله في الخلوة ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ﴾ وثواب ﴿كَبِيرٌ﴾ وعظيم لا يوصف بالبيان تصغر دونه الدنيا وما فيها.

ثمّ إنّ تعالى بعد وعيد الكفار ووعد المؤمنين بطريق المغايبة ، خاطب جميع الناس وحذّره عن العصيان في السر والعلن بقوله : ﴿وَأَسْرُوا﴾ وأخفوا ﴿قَوْلَكُمْ﴾ السيّء ﴿أَوْ اجْهَرُوا﴾ وأعلنوا ﴿بِهِ﴾ لا يتفاوت بالنسبة إلى الله ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بكلّ شيء ظاهر وخفيّ حتى ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ والخطورات التي في القلوب.

عن ابن عباس : كانوا ينالون من رسول الله ﷺ فيخبره جبرئيل فيقول بعضهم لبعض : أسروا قولكم ، لئلا يسمع إله محمد ، فنزلت هذه الآية (٣) .

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٤) وَ (١٥)﴾

(١) الاحتجاج : ٦٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٠٢ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٨٥ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٦٦ .

ثم أنكر سبحانه على الكفار إنكار علمه تعالى بمخلوقه بقوله : ﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾ وهل لا يحيط ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ شيئاً بمخلوقه ؟ ماهية وصفة ومقداراً ﴿وَوُجُوهَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ اللَّطِيفُ﴾ والعالم بحفريات الامور ودقائق الأشياء ﴿الْخَبِيرُ﴾ والمحيط ببواطنها. قيل : اللطيف من يعلم دقائق المصالح وغوامضها ، ثم يوصلها إلى المستصلح بالرفق دون العنف ، والخبير من لا يعزب عنه الأخبار الباطنة ، فلا يجري في الملك والملوكوت شيء حتى حركة الدودة في بطن صخرة إلا وعنده خبره وعلمه ^(١) .

ثم رجع سبحانه إلى آثار قدرته في الأرض بعد ذكر آثارها في السماوات بقوله : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ﴾ بقدرته نفعا ﴿لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿الْأَرْضَ﴾ بأقطارها ﴿ذُلُولاً﴾ ومنقادة لكم غاية الانقياد ، لتنتفعوا بها بالسكونة ، والزرع والغرس ، وحفر الآبار ، وشق العيون والأنهار ، وبناء الأبنية ، ودفن الأموات وغيرها ﴿فَأَمْسُوا فِي مَنَاجِبِهَا﴾ واسلكوا في جوانبها وأطرافها ، أو في جبالها فضلاً عن سهلها كما عن ابن عباس ^(٢) ﴿وَكُلُّوا مِنْ﴾ نعم الله و﴿رِزْقِهِ﴾ الذي أحل لكم ﴿وَالْيَهُ﴾ تعالى وحده ﴿النُّشُورَ﴾ والمرجع بعد البعث من قبوركم ، فاجتهدوا في شكره ، وجدّوا في طاعته.

قيل : إنّ وجه نظم هذه الآية أنه تعالى بعد تهديد الكفار بعلمه بسرهم وعلنهم ، بالغ في تهديدهم بقوله : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ﴾ فهو نظير أن يقول المولى لعبده العاصي : كن في هذه الدار ، وكل هذا الخبز ، ولا تأمن من تأديبي ^(٣) .

﴿أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ

مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٦) و (١٧)﴾

ثم هدّد الكفار على ترك شكر نعمه بقوله : ﴿أَمِنْتُمْ﴾ أيها المكذبون الكافرون لنعم الله ﴿مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ نفاذ أمره ، وظهور كمال قدرته وسلطانه وملكه ، أو المراد بمن في السماء جبرئيل الموكل بالعذاب ﴿أَنْ يَخْسِفَ﴾ ويقلب ﴿بِكُمْ الْأَرْضَ﴾ ويغلبكم في بطنها بعد جعلها لكم ذلولا تمشون في مناكبها وتأكلون مما ينبت فيها بكفرانكم نعمه ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ بعد أن خسفت بكم ﴿تَمُورُ﴾ وتضطرب وتحرك ذهاباً ومجيئاً لتبلغكم إلى الطبقة السفلى منها تعذيباً لكم كما فعلت بقارون.

ثم بالغ سبحانه في تهديدهم بقوله : ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ﴾ أيها الكفار ﴿مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ من ﴿أَنْ يُرْسِلَ﴾ وينزل ﴿عَلَيْكُمْ﴾ منها تعذيباً لكم ﴿حَاصِباً﴾ ومطر حجارة كما أرسل على قوم لوط ، فاذا لا أمان

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٨٧.

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٦٩.

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٦٨.

﴿لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ﴾ عند نزول العذاب والآفات ﴿مَنْ ذُو الرِّحْمَنِ﴾ وما سواه.

أقول : هذا التبيكيت يساوق قوله : ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾^(١) .

ثم قرّر سبحانه حماقتهم وجهلهم بقوله : ﴿إِنَّ الْكَافِرُونَ﴾ وما هم في زعمهم أنهم محفوظون من الآفات بحفظ آلهتهم ﴿إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ عظيم وظلال فاحش.

ثم وبّّهم سبحانه على اعتمادهم على آلهتهم في إيصال الخيرات إليهم بقوله : ﴿أَمَّنْ﴾ وبل أي شيء ﴿هَذَا﴾ الصنم الحقيق ﴿الَّذِي﴾ تزعمون أنه ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾ ويوصل إليكم ما تعيشون به من النعم ﴿إِنْ أَمْسَكَ﴾ الرحمن ﴿رِزْقَهُ﴾ ونعمه بحبس المطر ومبادئ الانتفاع بنعمه ، يا للعجب كيف لا يتأثر الكفار بتلك المواعظ والمنتبهات ! ﴿بَلْ لَجُّوا﴾ وتمادوا ﴿فِي عُتُوٍّ﴾ وطغيان على الله ﴿وَنُفُورٍ﴾ واشتمزاز عن الحق ، كأثم حمر مستنفرة.

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٢)

ثم بيّن سبحانه عدم قابليتهم للهداية بضرب المثل بقوله : ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي﴾ حال كونه ﴿مُكِبًّا﴾ وساقطاً ﴿عَلَى وَجْهِهِ﴾ كالمصروع ﴿أَهْدَى﴾ وأوصل إلى مقصوده ومطلوبه ﴿أَمَّنْ يَمْشِي﴾ حال كونه ﴿سَوِيًّا﴾ وقائماً على رجله مصوناً من السقوط والعتار ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وطريق سوى لا عوج فيه ولا انحراف ؟ ومن الواضح أنّ الأول يتمتع وصوله إلى مطلوبه أبداً.

قيل : إنّ الكافر لما كان في الدنيا مكباً على معاصي الله ، حشره الله في الآخرة مكباً على وجهه ، والمؤمن لما كان في الدنيا قائماً على أوامر الله مقدماً على امتثال أحكامه ، حشره الله في الآخرة قائماً على قدميه سائراً إلى الجنة^(٢) .

عن الباقر عليه السلام أنّه قال : « القلوب أربعة : قلب فيه نفاق وإيمان ، وقلب منكوس ، وقلب مطبوع ، وقلب أزهر أنور » قال : « فأما القلب المطبوع فقلب المنافق ، وأما القلب الأزهر فقلب المؤمن ، إذا أعطاه الله عزّ وجلّ شكر ، وإن ابتلاه صبر ، وأما القلب المنكوس فقلب المشرك » ثم قرأ هذه الآية^(٣) . وعن الكاظم عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال : « إنّ الله ضرب مثل من حاد عن ولاية عليّ لا يهتدي لأمره ، وجعل من تبعه سوياً على صراط مستقيم ، والصراط المستقيم أمير المؤمنين عليه السلام »^(٤) .

(١) الأنبياء : ٢١ / ٤٣ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٩٤ .

(٣) معاني الأخبار : ٣٩٥ / ٥١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٠٤ .

(٤) الكافي ١ : ٣٥٩ / ٩١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٠٤ .

أقول : هذا تأويل الآية لا تفسريها.

وعن ابن عباس رضوان الله عليه قال : نزلت في أبي جهل وحمزة بن عبد المطلب ^(١) ، وقيل : في أبي جهل ، وعمار بن ياسر ^(٢) .

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ
* قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) و (٢٥)﴾

ثم رجع سبحانه إلى الاستدلال على قدرته ونعمه بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين المنكرين لقدرة الله على البعث الكافرين لنعمه : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ﴿هُوَ﴾ القادر ﴿الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ وخلقكم أولاً من تراب ، ثم من نطفة قدرة ، ثم أكمل خلقكم ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ لتدركوا المسموعات ، وتسمعوا المواعظ والآيات الإلهية ﴿وَوَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ وجعل فيها قوة الرؤية لتدركوا بها المبصرات ، وتنظروا إلى آيات توحيد الله وحكمته وقدرته ومعجزات رسله ﴿وَوَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ جعل لكم ﴿الْأَفْئِدَةَ﴾ والقلوب وقوة الفهم فيها ، لتتفكروا فيما تبصرونه وتسمعون ، وتميزوا ^(٣) صحيحه وفاسده وحقّه وباطله ، وتعتبروا بالعبر منهما ، وتتأملوا في الآيات التنزيلية والتكوينية ، وترتقوا بها في درجات الإيمان والطاعة ، والاسف انكم شكرنا أو زمانا ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ لله هذه النعم العظام باستعمالها فيما خلقت له ، فإن شكر النعمة صرفها فيما فيه رضا المنعم ، بل تكفرونها حيث تصرفونها فيما فيه غضبه وسخطه . وقيل : إِنَّ الْقَلِيلَ هُنَا كُنَايَةٌ عَنِ الْعَدَمِ ^(٤) .

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفرة : إِنَّ رَبَّكُمْ ﴿هُوَ﴾ القادر ﴿الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ وأكثركم من نفس واحدة ، أو فرقكم ﴿فِي﴾ وجه ﴿الْأَرْضِ﴾ وأقطارها ، لتعيشوا فيها وتستريحوا عليها ثم أنتم بعد انقضاء هذا العالم تحيون ثانياً في القبور بقدرة الله ﴿وَإِلَيْهِ﴾ وحده يوم القيامة ﴿تُحْشَرُونَ﴾ وتساقون ، أو تجمعون للحساب وجزاء الأعمال ، فاستعدّوا لهذا اليوم العظيم ، وبادروا إلى أحسن الأعمال وأفضل العبادات ، كي تنجوا من الأهوال والشدائد التي فيه ، وتصلوا إلى الجنة والنعم الدائمة .

ثم إِنَّ تَعَالَى بعد وعده بالحشر والبعث حكى استهزاء المشركين المنكرين للبعث به بقوله : ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عنادا واستهزاء بالنبي ﷺ ^(٥) والمؤمنين المخبرين بالحشر ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ وفي أيّ

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٧٢ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٧٣ .

(٣) زاد في النسخة : في .

(٤) تفسير أبي السعود ٩ : ٩ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٩٥ .

(٥) في النسخة : للنبي .

زمان يقع هذا الحشر الذي تخبروننا بوقوعه ؟ أخبرونا بوقت وقوعه ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ في هذا الإخبار والوعد ﴿صَادِقِينَ﴾ وبوقوعه عالمين.

﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ (٢٦) و (٢٧)﴾

ثم أمر سبحانه النبي ﷺ بجوابهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد : ليس لي بوقت وقوعه علم ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ بوقته ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ فقط مكتوم عن غيره ، لاقتضاء حكمته البالغة ذلك ﴿وَإِنَّمَا أَنَا﴾ من قبل الله ﴿نَذِيرٌ﴾ ومخوف للناس بالإخبار بأصل وقوعه ﴿مُبِينٌ﴾ ومظهر لهم ببيان واضح يعرفه كل أحد ، لتتم الحجة عليهم ، والعلم بالوقوع لا يستلزم العلم بوقت الوقوع ، والإخبار بالأول عن علم من قبل الله كاف في الانذار.

ثم هددهم سبحانه ببعض أهوال ذلك اليوم بقوله : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ وقريبا منهم أو معاينة ﴿سَيِّئَتْ﴾ وقيحت ، أو اسودت ﴿وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأنكروا وقوعه ، وعن ابن عباس : يكون عليها الكابة والقتل^(١) ﴿وَقِيلَ﴾ لهم من قبل الله بلسان الزبانية ، أو القاتل بعضهم لبعض : ﴿هَذَا﴾ اليوم الذي ترونه هو ذلك اليوم ﴿الَّذِي كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿بِهِ تَدْعُونَ﴾ وتطلبون وتستعجلون ، أو تدعون بطلانه أو امتناعه ، وإته لا يأتي أبدا. قيل : إته استفهام انكاري ، والمعنى : أهذا الذي تدعونه ، لا بل تدعون عدمه^(٢) وامتناع وقوعه.

وقيل : إن الآية تهديد لهم بالعذاب الدنيوي ، والمعنى : فلما رأوا عذاب الاستئصال زلفة وقريبا منهم.

عن القمي رحمه الله قال : إذا كان يوم القيامة نظر أعداء أمير المؤمنين عليه السلام إليه وإلى ما أعطاه الله من الكرامة والمنزلة الشريفة العظيمة ، ويده لواء الحمد ، وهو على الحوض يسقي ويمنع ، تسود وجوه أعدائه ، فيقال لهم : ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ منزلته وموضعه واسمه^(٣) .

وعن الباقر عليه السلام قال : « هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه الذين عملوا ما عملوا ، يرون أمير المؤمنين عليه السلام في أغبط الأماكن لهم ، فتسبيء وجوههم ، ويقال لهم : ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ الذي انتحلتم اسمه »^(٤) .

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٧٥ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٧٥ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣٧٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٠٥ .

(٤) الكافي ١ : ٣٥٢ / ٦٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٠٥ .

وعنه عليه السلام : « فلما رأوا مكان علي عليه السلام من النبي صلى الله عليه وآله سيئت وجوه الذين كفروا » يعني الذين كذبوا بفضلهم ^(١) .

وعن الأعمش قال : لما رأوا ما لعلّي عند الله من الزلفى سيئت وجوه الذين كفروا ^(٢) .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِیَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٨) و (٢٩)

ثم لما كان المشركون يقولون : ننتظر موت محمد ونستريح منه ، وكانوا يدعون عليه بالهلاك على ما روي ^(٣) ، أمر سبحانه النبي صلى الله عليه وآله أن يجيبهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين الذين ينتظرون هلاكك : أيها المشركون ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكَنِیَ اللَّهُ﴾ بدعائكم علي ﴿وَوَ﴾ أهلك ﴿مَنْ مَعِيَ﴾ من المؤمنين ، وأخرجنا من الدنيا بالموت أو القتل ، أو بعذاب من عنده على الفرض ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ وأطال أعمارنا ، فأبى راحة لكم في ذلك ، وأبى نفع يعود بموتنا إليكم ؟ ثم إن متنا أو بقينا ﴿فَمَنْ يُجِيرُ﴾ كم وأنتم من ﴿الْكَافِرِينَ﴾ بتوحيده ﴿مَنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أعد لكم ؟ إذا نزل بكم أتظنون أنّ الأصنام والأوثان تجيركم منه ؟ ! حاشا وكلاً ﴿قُلْ﴾ يا محمد : إنّ مجير الخلق ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ﴾ والإله الواسع الرحمة وحده ، لا الأصنام ولا الأوثان ولا غيرهما من الموجودات ، ولذا نحن ﴿أَمَنَّا بِهِ﴾ وأنتم لجهلكم كفرتم به ﴿وَوَ﴾ نحن ﴿عَلَيْهِ﴾ وحده ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ واعتمدنا في أمورنا ، وفوضنا مهماتنا إليه لعلنا بأنّه القادر الرؤف الضارّ النافع ، وغيره بمعزل عن التصرف في الأمور ، وأنتم لحققكم توكلتكم على أصنامكم وأموالكم وأعوانكم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ وعن قريب عند معاينة الشدائد والعذاب تفهمون ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وانحراف واضح عن طريق الحق وخطأ ظاهر ، نحن أو أنتم ؟

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (٣٠)

ثم إنّ تعالى بعد تهديد المشركين بالعذاب الأليم ، ونفي مجير لهم إلا الله ، هدّدهم ببلاء فقدان الماء الذي هو أهمّ ما يحتاجون إليه ، وأعظم ما يعيشون به ، وأسهل ما ينالون منه ، ونفي القادر على إيجاد غير الله بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين : إن ظننتم أنّ أصنامكم ينفعونكم ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني

(١) جمع البيان ١٠ : ٤٩٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٠٥ .

(٢) جمع البيان ١٠ : ٤٩٤ ، شواهد التنزيل ٢ : ٢٦٥ / ٩٩٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٠٥ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٧٦ .

﴿إِنْ أَصْبَحَ﴾ وصار ﴿مَاؤُكُمْ﴾ الذي تنالون منه بسهولة من آباركم ﴿غَوْرًا﴾ ونازلا في الأرض بالكلية بحيث لا يمكن لكم نيله بنوع من الحيل ﴿فَمَنْ﴾ يقدر على أن ﴿يَأْتِيَكُمْ﴾ على ضعفكم حينئذ ﴿بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ جار على وجه الأرض تنتفعون به بسهولة ، ءأصنامكم تأتاكم به ، أم الرحمن ؟ قيل : تخصيص الماء بالذكر لكونه أهون موجود وأعز مفقود (١) .

قيل : إنَّ الكفار لما قالوا نترتبص به ريب المنون ، أمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يجيبهم بقوله : ﴿إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ﴾ من المؤمنين ، فأَيُّ نفع لكم فيه ، وأنتم تستحقون عذابه ، ومن يجيركم من عذابه (٢) .

ثمَّ أمره بأن يجيبهم بأنَّ الله هو الرحمن لا يقبل دعاءكم وأنتم أهل الكفر والعناد في حقنا ، مع أننا آمننا به وعليه توكلنا .

ثمَّ لما ذكر أنَّ توكله عليه أمره بإقامة الدليل على أنَّه يجب التوكل عليه بقوله : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا...﴾ إلى آخره ، والمقصود إقرارهم ببعض نعمه ، ليريههم قبح ما هم عليه من الكفر ، حيث إنَّهم إن قالوا : هو الله ، فيقال لهم : فلم تجعلون من لا يقدر على شيء أصلا شريكا له في العبودية؟ عن الرضا عليه السلام أنَّه سئل عن هذه الآية فقال : « ماؤكم أبوابكم (٣) الأئمة ، الأئمة أبواب الله ، فمن يأتيكم بماء معين ؟ أي من يأتيكم بعلم إمام ؟ » (٤) .

وعن الباقر عليه السلام قال : « نزلت في الامام القائم ، يقول : إن أصبح إمامكم غائبا عنكم لا تدرون أين هو ، فمن يأتيكم بامام ظاهر يأتيكم بأخبار السماوات والأرض وحلال الله وحرامه ؟ » ثم قال : « والله ما جاء تأويل هذه الآية ، ولا بد أن يجيء تأويلها » (٥) .

في الحديث : « سورة في كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية ، شفعت لرجل فأخرجته يوم القيامة من النار وأدخلته الجنة ، وهي سورة تبارك » (٦) .

وفي حديث آخر : « وددت أنَّ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي يَدُهُ الْمُلْكُ﴾ في قلب كلِّ مؤمن » وكان لا ينام حتى يقرأ سورة الملك ولم تنزل السجدة (٧) .

وقال علي عليه السلام : « من قرأها يجيء يوم القيامة على أجنحة الملائكة ، وله وجه في الحسن كوجه يوسف » (٨) .

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٩٧ و ٩٨ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٧٦ .

(٣) في النسخة : أبوابكم .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٧٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٠٥ .

(٥) كمال الدين : ٣٢٥ / ٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٠٦ .

(٦-٨) تفسير روح البيان ١٠ : ٩٨ .

وعن ابن عباس : ضرب بعض الصحابة خيامه على قبر ، وهو لا يشعر أنّه قبر ، فاذا فيه إنسان يقرأ سورة الملك ، فأتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، ضربت خيامي على قبر ولا أعلم أنّه قبر ، فاذا إنسان يقرأ سورة الملك. فقال : « هي المانعة من عذاب الله ، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر » وكانوا يسمونها على عهد رسول الله ﷺ المنجية ، وكانت تسمى في التوراة المانعة ، وفي الانجيل الواقية ^(١) .

عن ابن مسعود : أنّه يؤتى الرجل في قبره من قبل رأسه فيقال : ليس لكم عليه سبيل ، إنّّه كان يقرأ على رأسه سورة الملك ، فيؤتى من قبل رجله فيقال : ليس لكم عليه سبيل ، إنه كان يقوم فيقرأ سورة الملك ، فيؤتى من قبل جوفه فيقال : ليس لكم عليه سبيل ، إنّّه وعى سورة الملك ، أي حفظها ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « من قرأ سورة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ في المكتوبة قبل أن ينام ، لم يزل في أمان الله حتى يصبح ، وفي أمانه يوم القيامة حتى يدخل الجنة » ^(٣) .

قد تمّ تفسير لسورة المباركة بمَنّ الله وتوفيقه.

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٩٨ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٩٨ .

(٣) ثواب الأعمال : ١١٩ ، مجمع البيان ١٠ : ٤٨٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٠٦ .

في تفسير سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١)﴾

ثم لما ختمت سورة الملك بذكر جواب اعتراضات المشركين على النبي ﷺ ، وجواب دعائهم عليه بالهلاك ، وتحديدهم بقوله : ﴿فَسْتَغْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(١) ، اردفت في التّظم بسورة القلم المبتدئة برّد المشركين في نسبتهم الجنون إلى النبي ﷺ ، وبيان أنّهم يبصرون بأيّكم المفتون والابتلاء بالجنون ، وأنّ الله عالم بضلالتهم وهداية نبيّه وتسلّيته ﷺ في سوء مقالات المشركين وتحديدهم بالعذاب ، فافتتحها سبحانه بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثمّ خاطب سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿ن﴾ فأنّه على قول بعض مفسري العامة اسم من أسماء النبي ﷺ^(٢) .

وعن الباقر عليه السلام : « أنّ لرسول الله ﷺ عشرة أسماء : خمسة في القرآن ، وخمسة ليست في القرآن ، فأما التي في القرآن : محمد ، وأحمد ، وعبد الله ، ويس ، ون »^(٣) .

تحقيق في الجمع بين الروايات

أقول : لعلّ المراد من ﴿ن﴾ أنّه مفتاح ناصر دين الله ، ونعمة الله العظمى ، والنور المطلق الذي هو أصله وحقيقته وأوّل ما خلق حيث قال : « أوّل ما خلق الله نوري وهو أصل كلّ شيء من الرّوحانيات والجسمانيات التي كلّها كلمات الله ، ومنه النهر الذي في الجنّة ، وهو مادة جميع ما خلق الله في عالم الأشباح والصور كالمداد الذي يكتب به ، ويكون مادة جميع صور الحروف والخطوط ، ولذا فسّر النور بالمداد والدواة ، فلا منافاة بين ما ذكر من أنّه اسم من أسماء النبي ﷺ وبين ما روي عن الصادق عليه السلام من أنّه قال : وأما ﴿ن﴾ فهو نهر في الجنّة ، قال الله عزّ وجلّ له : احمد فجمد ، فصار مدادا ، ثمّ قال للقلم : اكتب فسطّر العلم في اللّوح المحفوظ ما

(١) الملك : ٦٧ / ٢٩ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ١٠٠ .

(٣) الخصال : ٤٢٦ / ٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٠٨ .

كان وما هو كائن إلى يوم القيامة ، فالمداد مداد من نور ، والقلم قلم من نور ، واللوح لوح من نور » .
قال سفيان : فقلت له : يابن رسول [الله] بيّن لي أمر اللوح والقلم والمداد فضل بيان ، وعلمي
مما علمك الله . فقال : « يابن سعيد ، لو لا أنك أهل للجواب ما أجبتك ، فنون ملك يؤدّي إلى القلم
، والقلم ملك يؤدّي إلى اللوح ، واللوح ملك يؤدّي إلى إسرّافيل ، وإسرّافيل يؤدّي إلى ميكائيل ،
وميكائيل يؤدّي إلى جبرئيل ، وجبرئيل يؤدّي إلى الأنبياء والرسل ﷺ » ^(١) .
وعنه عليه السلام : « وأما ﴿ن﴾ فكان نورا في الجنة أشدّ بياضا من الثلج وأحلى من العسل ... » ^(٢)
الخير .

أقول : ويمكن أن يؤوّل إلى ما ذكرنا قول من قال إنّ آخر كلمة (الرحمن) كما أنّه لا ينافي كونه
اسما للنبي ﷺ من أسماء الله كما عليه بعض ، ثمّ أكد سبحانه المخبر بالقسم على عادة الخلق بقوله
تعالى : ﴿وَالْقَلَمُ﴾ وهو مطلق ما يكتب به على قول ، والحلف به لشرافته بسبب كثرة فوائده ، كما قال
سبحانه : ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ والقلم الخاصّ الذي قال ابن عباس : أوّل ما خلق الله القلم ، ثمّ قال له :
اكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ، فجرى القلم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة من الآجال
والأعمال قال : وهو قلم من نور طوله كما بين السماء والأرض ^(٣) .

أقول : يمكن أن يكون المراد من الكتابة إيجاد صور الموجودات في عالم الملكوت من أصل واحد ،
وهو نور النبي ﷺ ، وبملاحظة اتحاده مع نور علي عليه السلام .
روى بعض العامة أنّ عليا عليه السلام قال على رؤوس الأشهاد : « أنا نقطة باء بسم الله ، أنا جنب
الله الذي فرطتم فيه ، أنا القلم ، أنا اللوح المحفوظ ، وأنا العرش ، وأنا الكرسي ، وأنا السماوات السبع
والأرضون » ^(٤) .

ثمّ ثنى سبحانه القسم مبالغة في التأكيد بقوله : ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ويكتبون أهل القلم من الملائكة
السماوية والأرضية في كلّ كتاب ولوح ، أو القلم الخاصّ في اللوح المحفوظ ، وإتيان صيغة الجمع للتعظيم .
﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ ^(٥)

ثمّ ذكر سبحانه المقسم عليه بقوله : ﴿مَا أَنْتَ﴾ يا حبيبي محمد ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ وبسبب عقلك
الكامل ورسالتك العامة التي أعطاكها إلهك اللطيف بك ، أو بدلالة عقلك الكامل وسيرتك المرضية

(١) معاني الأخبار : ٢٣ / ١ ، تفسير الصافي : ٥ : ٢٠٧ .

(٢) علل الشرائع : ٤٠٢ / ٢ ، تفسير الصافي : ٥ : ٢٠٧ .

(٣) تفسير الرازي : ٣٠ : ٧٨ .

(٤) تفسير روح البيان : ١٠ : ١٠٣ .

وبراءتك من كل عيب واتصافك بكل مكرمة ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ لوضوح منافاة هذه الصفات الكمالية لهذه النسبة الشنيعة.

عن ابن عباس رضوان الله عليه : أنّ النبي ﷺ غاب عن خديجة إلى حراء ، فطلبته فلم تجده ، فاذا به ووجهه متغير بلا غبار ، فقالت له : مالك ؟ فذكر نزول جبرئيل عليه ، وأنه قال له : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾^(١) وهو أول ما نزل من القرآن. قال : « ثم نزل بي إلى قرار الأرض ، فتوضّأ وتوضّأت ، ثم صلّى وصليت معه ركعتين ، وقال : هكذا الصلاة يا محمد » فذهبت خديجة إلى ورقة بن نوفل ، وهو ابن عمّها ، وكان قد خالف قريش في الدين ، ودخل في دين النصرانية ، فسألته فقال : ارسلني إليّ محمدا فأرسلته ، فلما أتاه قال : هل أمرك جبرئيل أن تدعو أحدا ؟ قال : « لا » فقال : والله لئن بقيت إلى دعوتك لأنصرتك نصرا عزيزا. ثم مات قبل دعاء الرسول ﷺ ووقعت تلك الواقعة في السنة قريش ، فقالوا : إنه مجنون ، فاقسم الله على أنّه ليس بمجنون ، وهو خمس آيات من أول هذه السورة^(٢) .

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٣) و (٤)

ثم سلّى سبحانه رسوله ﷺ بقوله : ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ يا محمد بإزاء صبرك على أذى قومك وتحملك أعباء الرسالة ﴿لَأَجْرًا﴾ عظيما وثوابا جسيما ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ومنقوص ، وعطاء غير مجذوذ ومقطوع. وقيل : يعني بغير واسطة يمنّ عليك بإيصاله إليك ، أو بغير أن يتكدر عليك بسبب المنّة لأنّه ممّا تستحقّه بعملك ، وليس من التفضّل الابتدائي^(٣) .

في بيان خلق الرسول ﷺ

﴿وَإِنَّكَ﴾ بنعمة ربك وتفضّله عليك ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ﴾ ودين ﴿عَظِيمٍ﴾ الشأن عند الله ، وهو الاسلام. عن الباقر عليه السلام : « يقول : على دين عظيم » وفي رواية : « هو الاسلام »^(٤) فإن فيه جميع مكارم الأخلاق ، والتنزّه عن كلّ مساوئها بحيث لا يدانيه دين وأنت ملتزم به مسؤول عليه ، لا يفوتك شيء منه ، ولذا فقت سائر الأنبياء والرسل في الكمال والمعارف وحسن الأخلاق والأعمال. روي أنّه قيل لعائشة : أخبريني عن خلق رسول الله ﷺ . قالت : أ لست تقرأ القرآن ؟ قلت : نعم. قالت : فإنه كان خلق رسول الله. وسئلت مرّة أخرى فقالت : كان خلقه القرآن. ثم قرأت : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى عشر آيات^(٥) .

(١) العلق : ٩٦ / ١ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٧٩ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ١٠٥ .

(٤) معاني الأخبار : ١٨٨ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٠٨ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ٨١ ، والآية من سورة المؤمنون : ٢٣ / ١ .

عن الصادق عليه السلام : « أن الله عز وجل آدب نبيه ﷺ فأحسن تأديبه ، فلما أكمل له الأدب قال : ﴿ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ » (١) .

عن (البصائر) مقطوعا : « أن الله آدب نبيه فأحسن تأديبه ، فقال : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ » (٢) فلما كان ذلك ، أنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ » (٣) .

وعن عائشة قالت : ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله ﷺ ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال ﷺ : « لبيك » (٤) .

وعن أنس قال : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لي في شيء فعلته : لم فعلت ، ولا في شيء لم أفعله : هلا فعلت (٥) !

وقيل : إنه لم ينحرف عن بلاء ، ولم ينصرف عن عطاء (٦) .

وقيل : كيف لا يكون خلقه عظيما وقد تجلّى الله فيه بأنوار أخلاقه (٧) .

﴿ فَسَتَبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيُّكُمْ الْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ

وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَذُوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٥) و (٩) ﴾

ثم لما وعد سبحانه نبيه ﷺ أفضل الأجر ، ومدحه بأكرم الأخلاق ، ذم معانديه ومكذبيه بقوله : ﴿ فَسَتَبْصِرُ ﴾ يا محمد ، وعن قريب ترى ﴿ وَ ﴾ المشركون ﴿ يُبْصِرُونَ ﴾ في الدنيا كما قيل ، أو في الآخرة (٨) حين نزول العذاب عليهم ﴿ بِأَيُّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴾ وابتلاء بالجنون ، أبك وبفرق المؤمنين ، أم بفرق الكافرين والمكذبين ؟ فإن المجنون هو الذي هام في تيه الضلال ، وابتلى نفسه بالعذاب والنكال ، ومن الواضح ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ من كل أحد ﴿ بِمَنْ ضَلَّ ﴾ وانحرف ﴿ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ المؤدي إلى سعادة الدارين ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ إلى سبيله الناجين من كل هلكة وعذاب ، الفائزين بكل خير وصواب .

فاذا تبين أن أعداءك في ضلال ﴿ فَلَا تُطِع ﴾ يا محمد ، ولا تجب ﴿ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ في سؤاها منكم الإعراض عن الدين الحق ، والدخول في دين آبائك المشركين باعتقادهم وزعمهم ، ودم على ما أنت عليه من التوحيد وعبادة الله ، وتشدد عليهم مع قلة أنصارك وأصحابك ، وإن عارضوك بأجمعهم مع

(١) الكافي ١ : ٢٠٨ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٠٨ .

(٢) الأعراف : ٧ / ١٩٩ .

(٣) بصائر الدرجات : ٣٩٨ / ٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٠٨ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ٨١ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ١٠٧ .

(٨) تفسير الرازي ٣٠ : ٨٢ .

كثرتهم أشدّ المعارضة ، فإنّا ناصروك وحاذلوا أعدائك قيل : إنّ هذه السورة من أوائل ما نزل ^(١) .
 إثمهم ﴿وَدُّوا﴾ وأحبّوا ﴿لَوْ نُدْهِنُ﴾ هؤلاء الكفرة وتلين معهم ، وتصانعهم ^(٢) بأن تترك بعض ما
 أنت عليه من سب آلتهم والنهي عن عبادتها ﴿فَيُذْهِبُون﴾ ويصانعوك ^(٣) بأن لا يذمّون دينك ويلاينون
 في مكالمتك.

﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بَنِيمٍ * مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ *
 عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُثْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ
 الْأَوَّلِينَ * سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ (١٠) و (١٦)﴾

ثمّ إنّ تعالى بعد نهي نبيّه ﷺ عن موافقة آراء رؤساء المشركين ، نهاه عن اتّباع رأي بعضهم
 المذموم بأقبح الذمائم بقوله : ﴿وَلَا تُطِيعُ﴾ ولا تتبّع ﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾ وكثير اليمين في الحقّ والباطل وفي
 الكذب ﴿مَّهِينٍ﴾ وحقير بين الناس لكثرة كذبه وحلقه عليه ، فإنّ من حقر الله بعصيانه وكثرة الحلف به ،
 حقره الله في الدنيا والآخرة ﴿هَمَّازٍ﴾ وغياب للناس ، طعان عليهم ، أو كثير الذكر لهم بما يكرهونه
 ﴿مَّشَاءٍ﴾ بينهم ﴿بَنِيمٍ﴾ وكثير السعي في السعاية ، نقال للحديث من أحد إلى أحد للافساد بينهما ،
 وفي الحديث : « لا يدخل الجنة نمام » ^(٤) .

﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ وبخيل لا مال ، أو كثير المنع للناس من الإيمان وطاعة الله والإنفاق ﴿مُعْتَدٍ﴾ وظالم
 للناس ، أو متجاوز عن الحدّ في سوء الأعمال والأخلاق ﴿أَثِيمٍ﴾ وكثير الإقدام في العصيان ﴿عُتْلٌ﴾
 وغليظ القلب والطبع وعن ابن عباس رضوان الله عليه : قويّ ضخم ^(٥) .
 وقيل : واسع البطن ^(٦) وثيق الخلق ^(٧) وقيل : الفاحش الخلق اللّقيم النفس ^(٨) . وقيل : الأكل
 [أو] الحافي الغليظ ^(٩) .

﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ المذكور من القبائح ﴿زَنِيمٍ﴾ وملحق بقوم في النسب وليس منهم ، وهو أفبح
 القبائح في العرب. وقيل : هو المعروف بالشرّ كما يعرف الشاة بالزئمة ، وهي ما يقطع من اذنها فيدلى ^(١٠)
 منها. وقيل : إنّ ولد الزنا ^(١١) .

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٨٣ .

(٢) في النسخة : وتصانعهم .

(٣) في النسخة : ويصانعونك .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ١١١ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ٨٤ ، وفيه : قويّ ضخم .

(٦) تفسير الرازي ٣٠ : ٨٤ ، وفي النسخة : وبني الخلقوم .

(٧) تفسير الرازي ٣٠ : ٨٤ .

(٨) تفسير الرازي ٣٠ : ٨٤ و ٨٥ .

(٩) تفسير الرازي ٣٠ : ٨٥ ، تفسير روح البيان ١٠ : ١١٢ .

قيل : لم يعلم أنّ الله وصف أحدا ولا ذكر من عيوبه مثل ما ذكر للوليد بن المغيرة من العيوب ، وكان الوليد دعيا في قريش وليس من نسبهم ^(١) . قيل : ادّعاه أبوه المغيرة بعد ثماني عشرة سنة من مولده ^(٢) .

قيل : نزلت الآيات في الوليد بن المغيرة ، فلمّا تلا رسول الله ﷺ الآيات في مجمع قريش وفيهم الوليد ، وجد الوليد جميع العيوب في نفسه إلّا الولادة من زنا ، وقال في نفسه : أنا سيد قريش ، وأبي كان معروفا ، وأعلم أن محمدا لا يكذب فأخذ بسيفه وجاء إلى أمّه ، وقال لها : ما قصّة ولادتي ؟ فلمّا أبلغ في تهديدها قالت : كان أبوك غير راغب في النساء ، وكان له بنو أخيه ينتظرون موته ، ويطمعون في ميراثه ، فثقل عليّ ذلك ، فاستأجرت عبدا فراودته عن نفسي ، فاحتبلت منه فولدتك ^(٣) .

وعن عليّ عليه السلام : « الزنيم : هو الذي لا أصل له » ^(٤) . وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن قوله تعالى : ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٌ﴾ فقال : « العتلّ عظيم الكفر ، والزنيم : المستهتر بكفره » ^(٥) .

وعن (المجمع) أنّ النبي ﷺ سئل عن العتلّ الزنيم فقال : « هو الشديد الخلق ، الشحيح ^(٦) ، الأكل الشروب ، الواجد للطعام والشراب ، الظلوم للناس ، الرّحب الحلقوم » ^(٧) .

وعنه عليه السلام قال : « لا يدخل الجنّة جَوّاذ ولا جعظري ولا عتلّ زنيم » قيل : فما الجوّاذ ؟ قال : « كلّ جماع منّاع » قيل : فما الجعظري ؟ قال : « الفظّ الغليظ » قيل : فما العتلّ الزنيم ؟ قال : « رحب الجوف ، سيء الخلق ، أكل شروب ، غشوم ظلوم » ^(٨) .

وعن القمي ، قال : الحلاف : الثاني ، حلف لرسول الله ﷺ أن لا ينكث عهده ﴿هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنِيمٍ﴾ قال : كان ينمّ على رسول الله ﷺ ويهمز بين أصحابه ﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ قال : الخير أمير المؤمنين عليه السلام ﴿مُعْتَدٍ﴾ قال : اعتدى عليه ﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٌ﴾ قال : العتلّ : العظيم الكفر ، والزنيم : الدّعوي ^(٩) .

قيل : كان للوليد عشرة بنين وأموال كثيرة ، كان له بستان بالطائف ، وتسعة آلاف مثقال من فضّة ^(١٠) ، فلامه سبحانه بقوله تبارك وتعالى : ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ قيل : إنّ التقدير كفر بالله لأجل أن كان ذا مال وبنين ^(١١) ، مع أنّ حقّه الشكر وليس الكفر والعصيان جزاء نعمه وقيل : إنّ المعنى لا تطع من كان له هذه المطاعن والمثالب ، لأجل أن كان ذامال وبنين ^(١٢) ، ومن كفره أنه ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ القرآنية

(٢١) تفسير الرازي ٣٠ : ٨٥ ، تفسير روح البيان ١٠ : ١١٢ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ١١٢ .

(٤) مجمع البيان ١٠ : ٥٠٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٢١٠ .

(٥) معاني الأخبار : ١٤٩ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٠٩ .

(٦) في النسخة : المفتوح ، وفي تفسير الصافي : المصحح .

(٧) مجمع البيان ١٠ : ٥٠٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٠٩ ، وفي المصدر : الرحب الجوف ، وفي الصافي : الجوف .

(٨) مجمع البيان ١٠ : ٥٠٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٢١٠ .

(٩) تفسير القمي ٢ : ٣٨٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٢١٠ .

(١٠) تفسير روح البيان ١٠ : ١١١ .

(١١) تفسير الرازي ٣٠ : ٨٥ .

﴿قَالَ﴾ تكذبا لها : هذا المتلو علينا ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وقصص ملققة من السابقين كقصص رستم وإسفنديار .

ثم هدده سبحانه بقوله : ﴿سَنَسِفُهُ﴾ وعن قريب نعلمه بعلامة قبيحة ﴿عَلَى﴾ أنفه الذي هو مثل ﴿الْخُرْطُومِ﴾ للفيل والخنزير . عن ابن عباس ، قال : سنخطمه بالسيف ، فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش ^(١) ، روي أنه قاتل يوم بدر فخطم بالسيف في القتال ^(٢) . وقيل : إنه لم يعيش إلى يوم بدر ^(٣) ، والمراد سنشهده بالذكر الرديء والوصف القبيح في العالم ، كما يقال لمن تسببه مسببة قبيحة باقية : سنسفه ميسم سوء ، والمراد أنه الحق به عارا لا يفارقه ^(٤) .

وقيل : يعني سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوهة يعلم بها من سائر الكفرة بأن تسود وجهه غاية التسويد ، إذ كان في عداوة الرسول بالغأ أقصى المراتب ، فيكون الخرطوم كناية عن وجهه على طريق ذكر الجزء وإرادة الكل ^(٥) .

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ * أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ * وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تَسْبَحُونَ (١٧) وَ (٢٨)﴾

ثم لما بين سبحانه أنّ الغرور بالمال والأولاد صار سبب طغيان هذا الظالم الكافر ، بين أنه تعالى أنعم بهذه النعم عليه لا بتلائه واختباره ، أنه يشكر أم يكفر ، بقوله : ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ واختبرناهم بإعطائهم المال والبنين ﴿كَمَا بَلَوْنَا﴾ واختبرنا ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وقيل : إنّ المعنى إنّنا كلّفناهم بالشكر على نعمنا كما كلّفنا أصحاب الجنة التي كانت ذات ثمار أن يشكروا ويعطوا الفقراء حقوقهم ^(٦) فكفروا .

في قضية أصحاب الجنة

روي أنّ رجلا من ثقيف كان مسلما ، وكان له ضيعة بقرب صنعاء على فرسخين منها - وقيل : على فراسخ ^(٧) - فيها نخل وزرع ، وكان يجعل عند الحصاد من كل ما فيها نصيبا وافرا

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٨٦ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ١١٣ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٨٧ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ١١٤ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ٨٧ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ١١٤ .

للفقراء ، فلمّا مات ورثها بنوه ، ثمّ قالوا : عيالنا كثير والمال قليل ، ولا يمكننا أن نعطي المساكين مثل ما كان أبونا يعطي (١) .

وقيل : كانت الضيعة باليمن ، وكان أصحاب الجنّة بخلاء ، وكان أبوهم يأخذ منها قوت سنة ويتصدّق بالباقي ، وكان ينادي الفقراء وقت الصّرام ، ويترك لهم ما أخطأه المنجل ، وما في أسفل الأكداس ، وما أخطأه القطاف من العنب ، وما بقي على البساط الذي يبسط تحت النخل إذا اصرمت ، وكان ذلك بعد رفع عيسى عليه السلام بقليل ، وكان يبقى لهم مع ذلك شيء كثير ، ويتزوّدون به أياما كثيرة ، فلمّا مات أبوهم قال بنوه : إن فعلنا ما كان أبونا يفعل ضاق الأمر علينا ونحن اولو عيال (٢) .

وعلى كلّ تقدير كان وقت ابتلائهم ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ وحين حلفوا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ ويقطعن ثمّ نخلهم وأعناهم وزروعهم وقت كوثهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾ ودخولهم في الصباح وظلمة الليل باقية وقبل اطلاع الفقراء على جمعهم الثمار ﴿وَلَا يَسْتَنْتُونَ﴾ ولا يقولون إن شاء الله على دأب أهل الايمان ﴿فَطَافَ﴾ على الجنّة ونزل ﴿عَلَيْهَا﴾ في الليل ﴿طَائِفٌ﴾ وبلاء محيط بثمارها ﴿مِنْ﴾ جانب ﴿رَبِّكَ﴾ بحيث لم يبق من الثمار شيء ﴿وَهُمْ﴾ في بيوتهم ﴿نَائِمُونَ﴾ وغافلون عمّا نزل بهم وبثمارهم ﴿فَأَصْبَحَتْ﴾ الجنّة وصارت بنزول البلاء والنار فيها ﴿كَالَصَّرِيمِ﴾ ومثل الجنة التي قطعت واقتطفت ثمارها بالكلّ. وقيل : يعني صارت سوداء كالليل لاحتراقها بالنار (٣) .

﴿فَتَنَادَوْا﴾ وصاح بعضهم ببعض لما قاموا من النوم وصاروا ﴿مُصْبِحِينَ﴾ وداخلين في الصباح على حسب تواعدهم وقالوا : ﴿أَنْ اغْدُوا﴾ يا إخواننا واخرجوا في أول الصبح وأقبلوا ﴿عَلَى حَرْثِكُمْ﴾ واقتطاف ثمار ضيعتكم وجنتكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ وعازمين على قطعها وجمعها ﴿فَانْطَلَقُوا﴾ وذهبوا إلى حرثهم ﴿وَهُمْ يَخَافَتُونَ﴾ ويقولون بطريق السرّ لئلا يسمع المساكين قولهم ﴿أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ﴾ الذي هو يوم جمع الثمار ﴿عَلَيْكُمْ مَسْكِينَ﴾ واحد فضلا عن الكثير ﴿وَعَدُوا﴾ ومشوا بكرة ﴿عَلَى﴾ حال ﴿حَرْدٍ﴾ ومنع شديد عن الفقراء ثمار جنتهم حال كوثهم ﴿قَادِرِينَ﴾ على نفعهم بزعمهم ، أو على اجتناء ثمار الجنة بحسبانهم.

﴿فَلَمَّا﴾ دخلوا الجنة و﴿رَأَوْهَا﴾ محترقة مسودة لا ثمار فيها أقبل بعضهم على بعض ﴿قَالُوا إِنَّا لَصَّالُونَ﴾ ومنحرفون عن طريق جنتنا ودخلنا غيرها فلما تأملوها ووقفوا على خصوصيات الجنة وعلائمها قالوا ما نحن بضالين ﴿يَا نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ عن نفعها ممنوعون عن ثمارها ببخلنا وسوء

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٨٧ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ١١٤ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٨٨ .

قصدنا وإرادة حرمان المساكين من خير جنتنا ، فعجل الله في حرماننا من ثمارنا ﴿قَالَ﴾ أحدهم الذي هو ﴿أَوْسَطُهُمْ﴾ وأصوبهم رأيا ، وأفضلهم عقلا ، وأكملهم ديناً ، وأوسطهم سناً ، وأكملهم عقلاً بطريق التوبيخ ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ يا إخواني حين عزمتم على منع المساكين : ﴿لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ﴾ الله ، وهلاً تنزهونه عن الخلف في وعده بآته يرزق عباده ، وعن الكذب في إخباره بالرزق بيده ييسط لمن يشاء ويقدر ، وليس الرزق بتدبير الخلق ؟

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ * قَالُوا

يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا

رَاغِبُونَ (٢٩) و (٣٢)﴾

فلما قال الأوسط ذلك تنبه إخوانه واعترفوا بذنبهم و ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا﴾ وتنزه خالقنا عن كل سوء ونقص وكذب وخلف ، سيما عن الظلم علينا بإحراق جنتنا ، بل ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ على أنفسنا بسوء قصدنا وإرادة منع حقوق المساكين وحرمانهم بخلا وشحاً ، إذن نتوب إلى الله ونستغفره من سوء قصدنا وصنيعنا ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ وهم ﴿يَتَلَوْمُونَ﴾ ويوتخون كلّ منهم الآخرين على ما فعلوا ، و ﴿قَالُوا﴾ اعترافا بذنبهم وتندماً وتحسراً : ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ ويا أسفنا ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ قبل اليوم ﴿طَاغِينَ﴾ على الله ومتجاوزين عن الحد الذي حدّه ربنا بمنع المساكين عن حقوقهم في أموالنا ، ثم إنهم بعد التوبة والإقبال على الله أظهروا الرجاء برحمته بقولهم : ﴿عَسَى رَبُّنَا﴾ ويرجى منه ﴿أَنْ يُبَدِّلَنَا﴾ ويعرضنا عن الجنة المحترقة ﴿خَيْرًا﴾ وأنفع ﴿مِنْهَا﴾ بركة إقبالنا إليه وتوبتنا من ذنبنا ﴿إِنَّا﴾ متوجهون ﴿إِلَى رَبِّنَا﴾ بقلوبنا ﴿رَاغِبُونَ﴾ وطالبون عفوه وخيره.

روي أنهم تعاقدوا وقالوا : إن أبدلنا الله خيراً منها ، لنصنعنّ كما صنع أبونا ، فدعوا الله وتضرّعوا إليه ، فأبدلهم الله من لينتهم ما هو خير منها ^(١) .

قيل : إنّ الله تعالى أوحى إلى جبرئيل أن يقلع تلك الجنة المحترقة فيضعها في براري الشام ، ويأخذ من الشام جنة فيجعلها مكانها ^(٢) .

عن ابن مسعود : أنّ القوم لما أخلصوا وعرف الله منهم الصدق ، أبدلهم جنة يقال لها الحيوان ، فيها عنب يحمل البغل عنقوداً ^(٣) .

وعن الباقر عليه السلام قال : إنّ الرجل ليذنب الذنب فيدراً عنه الرزق ، وتلا هذه الآية : ﴿إِذْ أَقْسَمُوا

(٣-١) تفسير روح البيان ١٠ : ١١٧ .

لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ إلى قوله ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾^(١)

وعن القمي ، عن ابن عباس ، أنه قيل له : إنّ قوما من هذه الامة يزعمون أنّ العبد قد يذنب الذنب فيحرم به الرزق. فقال ابن عباس : فو الله الذي لا إله إلا هو ، لهذا أنور في كتاب الله من الشمس الضاحية ، ذكر الله في سورة ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ أنّ شيخا كانت له جنة ، وكان لا يدخل بيته ثمرة ولا إلى منزلة حتى يعطي كل ذي حق حقه ، فلما قبض الشيخ ورثه بنوه ، وكان له خمس من البنين ، فحملت جنته في تلك السنة التي هلك فيها أبوهم حملا لم تكن حملت قبل ذلك ، فراحوا الفتية إلى جنتهم بعد صلاة العصر ، فأشرفوا على ثمرة ورزق فاضل لم يعاينوا مثله في حياة أبيهم ، فلما نظروا إلى الفضل طغوا وبغوا ، وقال بعضهم لبعض : إنّ أبانا كان شيخا كبيرا قد ذهب عقله وخرف ، فهلموا فلنتعاهد عهدا فيما بيننا أن لا نعطي أحدا من فقراء المسلمين في عامنا هذا شيئا حتى نستغني وتكثر أموالنا ، ثم نستأنف الضيعة فيما نستقبل من السنين المقبلة ، فرضي بذلك أربعة وسخط الخامس ، وهو الذي قال الله تعالى : ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ﴾.

فقيل : يا ابن عباس ، كان أوسطهم في السن ! فقال : لا ، بل كان أصغرهم سنا وأكبرهم عقلا ، وأوسط القوم خير القوم ، قال الله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(٢) .

فقال لهم أوسطهم ، اتقوا الله ، وكونوا على منهاج أبيكم تسلموا وتغنموا ، فبطشوا به وضربوه ضربا مبرحا ، فلما أيقن الأخ أنهم يريدون قتله دخل معهم في مشورتهم كارها لأمرهم غير طائع ، فراحوا إلى منازلهم. ثم حلفوا بالله : أن يصرموها إذا أصبحوا ، ولم يقولوا إن شاء الله ، فابتلاههم الله بذلك الذنب ، وحال بينهم وبين ذلك الرزق الذي كانوا أشرفوا عليه ، فأخبر عنهم في الكتاب وقال : ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ* وَلَا يَسْتَشْنُونَ* فطافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ* فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ قال : كالمحترق.

فقيل لابن عباس : ما الصريم ؟ قال : الليل المظلم ، ثم قال : لا ضوء به ولا نور.

فلما أصبح القوم تنادوا مصبحين ﴿أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ قال : ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ﴾.

قيل : وما التخافت يا ابن عباس ؟ قال : يتسارون ، يسار بعضهم بعضا لئلا يسمع أحد غيرهم فقالوا : ﴿لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِّنْكَبٍ* وَعَدُوا عَلَى حَرْثِ قَادِرِينَ﴾ وفي أنفسهم أن يصرموها ، ولا يعلمون ما حلّ بهم من سطوات الله ونقمته ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ وعانوا ما حلّ بهم ﴿قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ

(١) الكافي ٢ : ٢٠٨ / ١٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٢١٢ .

(٢) البقرة : ٢ / ١٤٣ .

* **بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ** ﴿ حرّمهم الله ذل الرزق بذنب كان منهم ولم يظلمهم شيئا ^(١) .

﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ * **إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ**

رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٣) وَ (٣٥) ﴿

ثمّ بالغ سبحانه في تهويل الكفّار بقوله : ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ ﴾ الذي نزل على أصحاب الجنة العذاب الدنيوي الذي ينزل على كلّ من عصى ربّه بحبس حقوق الفقراء وغيره ، كحبس المطر ، وإنزال الآفات على الزروع ، ورفع البركة عنها ، وإشاعة الأمراض ، وسلب الأمانة وغيرها ﴿ وَ ﴾ والله ﴿ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ وأعظم وأشدّ من عذاب الدنيا ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ عظمه لاحترازوا عن العصيان الموجب له . ثمّ لما وعد سبحانه الكفّار عذاب الآخرة ، وعد المؤمنين المتّقين نعمها بقوله : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ في الآخرة مذكور ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ومليّكهم اللطيف بهم ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ عديدة ذوات ﴿ النَّعِيمِ ﴾ الخالصة عن شوب ما ينقصها .

ثمّ قيل : لما نزلت الآية قال الكفّار للمسلمين : إنّ الله فضّلنا عليكم في الدنيا بالنّعم الدنيوية ، فلا بدّ أن يفضّلنا عليكم في الآخرة ، فان لم يكن التفضيل فلا بدّ من التساوي ، فنزل ردّا عليهم ^(٢) : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ في الآخرة ﴿ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ والكفّار العصاة ، ومساوين لهم في الإنعام والإكرام ؟ ! حاشا وكلا .

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ * أم لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * **إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا**

تَخَيَّرُونَ * أم لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْعَقَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ *

سَلُّهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ * أم لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا

صَادِقِينَ (٣٦) وَ (٤١) ﴿

ثمّ بالغ سبحانه في تشديد الإنكار عليهم بتلوين الخطاب بقوله : ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ أيّها الحمقاء ﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ هذا الحكم المستحيل وقوعه ، المستعجب صدوره من عاقل ؟ ! لاستلزامه الظلم على المسلمين من الله الحكيم الغني على الإطلاق ﴿ أَمْ لَكُمْ ﴾ أيّها الكفرة ﴿ كِتَابٌ ﴾ نازل عليكم من السماء من جانب الله أنتم ﴿ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ وتقرؤون مرارا ، وتتأملون عباراته دائما ؟ ! فتبيّن لكم ممّا فيه ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ وتريدون لأنفسكم من المشتبهات ﴿ أَمْ لَكُمْ ﴾ مع سخطنا عليكم

(١) تفسير القمي ٢ : ٣٨١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢١٢ .

(٢) تفسير أبي السعود ٩ : ١٧ ، تفسير روح البيان ١٠ : ١١٩ .

﴿أَيُّمَانٌ﴾ وعهود مؤكدة ثابتة ﴿عَلَيْنَا﴾ وفي عهدتنا ﴿بِالْعَهْدِ﴾ ومنتهية في الصحة والتأكد والنزوم ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لا يجوز لنا حثها ونقضها ، ولا يخرج عن عهدتها ؟ ! وهي ﴿إِنَّ لَكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿لَمَّا تَخْكُمُونَ﴾ لأنفسكم وتطلبون منا ، فيكون علينا بهذه العهود أن نحكمكم في ذلك اليوم ، ونوافقكم فيما تأمرون ، ونعطيكم ما تتوقعون.

ثم لَوْنُ سبحانه الخطاب عنهم إلى رسوله بقوله : ﴿سَلِّمُهُم﴾ يا حبيبي مشافهة ﴿أَيُّهُمْ﴾ ومن يكون منهم ﴿بِذَلِكَ﴾ الحكم المخالف للعقول ﴿رَعِيمٌ﴾ وضامن لاثباته بالحجة والبرهان ؟ ﴿أَمْ لَهُمْ﴾ في ذلك الادعاء ﴿شُرَكَاءُ﴾ يشاركونهم في الدعوى ، ويساعدونهم في هذا القول ؟ ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ عندك وليحضرهم في محضرك حتى يقولوا بقولهم ويصدقهم في دعواهم ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعوى أن لهم شركاء. قيل : إنَّ المراد من شركائهم أصنامهم ^(١) ، والمعني ألهم أصنام يجعلونهم مثل المسلمين في النجاة من العذاب والدخول في الجنة ؟ !

حاصل مفاد الآيات - والله أعلم - أنه ليس لهم دليل عقلي على التسوية بين المطيع والعاصي والمحسن والمسيء ، ولا دليل نقلي من كتاب سماوي يقرؤونه ، ولا عهد مؤكد بالآيمان ، ولا من يوافقهم من العقلاء حتى يقلدوهم ، مع حكم العقل السليم على خلافه ، فظهر أن بطلان دعواهم أظهر من الشمس في رابعة ^(٢) النهار.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ * خاشعة
أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذَلَّةً وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ * فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ
إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٢) و (٤٥) ﴿﴾

ثم بيّن سبحانه سوء حالهم يوم القيامة بقوله : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ قيل : إنَّ المعنى ذكرهم يا محمد يوم الشدة وصعوبة الخطب على الكفار والمنافقين ، فإنَّ كشف الساق كناية عن الوقوع في الشدة ، كما أنَّ من وقع بين الخصوم الأقوياء وانغمر رجلاه في الوحل ، يشمر ذيله ويرفع ثيابه عن ساقه ، كما عن ابن عباس ^(٣) .

وقيل : إنَّ المراد من الساق أصل الامور ، يعني يكشف عن حقائق الامور وواقعتها وخفياتها ^(٤).

(١) تفسير البضاوي ٢ : ٥١٧ .

(٢) في النسخة : رابعة.

(٣) مجمع البيان ١ : ٥٠٩ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ٩٥ .

وقيل : يعني يكشف عن ساق العرش ، أو عن ساق جهنم ، أو عن ساق ملك عظيم مهيب ^(١) .
وعلى أي تقدير ذلك اليوم يوم القيامة ، فأنهم في ذلك اليوم يؤمرون ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ لله
تعنيفا على تركهم إياه في الدنيا تكبرا وتعظما وتحسرا على تفريطهم فيه ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ السجود لسلب
القدرة عنهم.

عن ابن مسعود : تعقم أصلاهم ، أي تصير عظاما لا فواصل لها ، فلا تثني للرفع والخفض ،
فيبقون قياما على حالهم حتى تزداد حسرتهم على التفريط فيه ^(٢) .
وفي الحديث : « وتبقى أصلاهم طبقا واحدا ^(٣) - أي فقارة واحدة - كأن سفافيد الحديد في
ظهورهم » ^(٤) .

عن الرضا عليه السلام قال : حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجدا ، وتدمج ^(٥) أصلاهم
المنافقين فلا يستطيعون السجود ^(٦) حال كونهم ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ متواضعة جوارحهم ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾
وتغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ شديدة وخزي فاحش جزاء لاستكبارهم في الدنيا عن السجود لله ﴿وَ﴾ الحال أنهم
﴿قَدْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يُدْعَوْنَ﴾ من قبل الله بلسان الرسل ﴿إِلَى السُّجُودِ﴾ لله ويؤمنون به ﴿وَهُمْ
سَالِمُونَ﴾ أصحاء مستطيعون له بآتم الاستطاعة ، فاذا كان حالهم في الآخرة كذلك ﴿فَدَرَنِي﴾ يا نبي
الرحمة ودعني ﴿وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا﴾ القرآن الذي هو أحسن ﴿الْحَدِيثِ﴾ وأعظم المعاجز الذي يصدق كل
عاقل منصف ويستدل به على صدق دعواك الرسالة ، فإني أكفيكمهم ، واعلم أنا ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ ونزلهم
في العذاب شيئا فشيئا ﴿مَنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن الجهة التي لا يشعرون أنه بلاء وعذاب.

قيل : إن المراد بالاستدراج توفير النعم. حتى ينسوا الاستغفار ، والمعنى كما قيل : كلما جدّدوا
ذنبا جدّدنا لهم نعمة ^(٧) ، وأغفلناهم عن التوجه إلينا ، ثم نأخذهم بغتة.
وفي الحديث : « إذا رأيت الله ينعم على عبد وهو مقيم على المعصية ، فاعلم أنه مستدرج ، وتلا
هذه الآية » ^(٨) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « من وسع عليه دنياه ، وهو لا يعلم أنه قد مكر به ، فإنه مخدوع عن

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٩٥ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ١٢١ .

(٣) في تفسير روح البيان : طبعاً واحداً .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ١٢١ .

(٥) في النسخة : وتدريج ، وفي تفسير الصافي : ويدبج .

(٦) التوحيد : ١٥٤ / ١ ، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١٢١ / ١٤ .

(٧) تفسير الرازي ٣٠ : ٩٦ .

(٨) تفسير روح البيان ١٠ : ١٢٤ .

عقله « (١) .

﴿وَأْمَلِي لَهُمْ﴾ وأمهلهم في الدنيا بإطالة أعمارهم وتأخير آجالهم ، ليزدادوا إثما ، ويكون لهم أشدّ العذاب في الآخرة ، واعلم ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ وتديري الخفي عنهم في إهلاكهم وازدياد عذابهم ﴿مَتَّيْن﴾ ومستحكم لقوة أثره في إهلاكهم الدنيوي والآخرى . وقيل : إنّ المعنى أنّ أخذي إياهم بالعذاب قويّ شديد لا يدفع بشيء (٢) .

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ *
فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْ لَا أَنْ
تَدَارِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ

الصَّالِحِينَ (٤٦) و (٥٠)﴾

ثمّ إنّ تعالى بعد بيان سوء حال الكفار ، وتهديدهم بأهوال القيامة ، وتسليّة النبي ﷺ بأنّه تعالى كافيهم ، وأنّه معذّبهم على تكذيبهم ، عاد إلى تقرّيعهم وتبكيّتهم في عدم إيمانهم بالرسول بقوله : ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ وتطلب منهم على تبليغاتك عن الله ﴿أَجْرًا﴾ وجعلا ماليا ﴿فَهُمْ﴾ لا يؤمنون بك ﴿مِنْ﴾ جهة ﴿مَغْرَمٍ﴾ وضرر مالي متوجّه إليهم لأجل الإيمان بك ﴿مُثْقَلُونَ﴾ ومتحمّلون حملا ثقيلا فيعرضون عنك ؟ وإلا فليس لهم عذر في الفرار منك وعدم التسليم لرسالتك ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ واللوح المحفوظ الذي لا يعلمه أحد مكتوب فيه أنّهم آمنون يوم القيامة من العذاب فائزون بأعلى الثواب كالمسلمين ﴿فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ويستنسخون منه ويعتمدون عليه . وقيل : يعني أم يدعون أنّ المغيبات حاضرة في عقولهم ، ولذا يكتبون على الله ما شاؤوا وأرادوا (٣) .

ثمّ إنّ تعالى بعد إبطال قول الكفار وزجرهم عمّا يقولون ، أمر رسوله بالصبر على أقوالهم الشنيعة وأعمالهم السيئة بقوله : ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم وتأخير نصرتك عليهم ، وتبليغك الرسالة ، وتحملك الأذى من قومك ، ﴿وَلَا تَكُنْ﴾ ضيق الصدر ، قليل التحمّل ﴿كَصَاحِبِ الْخُوْتِ﴾ وهو يونس النبيّ ﴿إِذْ نَادَى﴾ رثه في بطن الحوت بقوله : لا إله إلا أنت سبحانك إنّني كنت من الظالمين ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ ومملوء غيظا على قومه أو مغموم كما عن الباقر عليه السلام (٤) ، ولا تضجر من أذى قومك كما انضجر هو فتبتلى كما ابتلى ﴿لَوْ لَا أَنْ تَدَارِكُهُ﴾ ووصل إليه ﴿نِعْمَةً﴾ ورحمة عظيمة

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ١٢٤ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ١٢٥ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٩٨ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٨٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٢١٥ .

﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ وهي توفيقه للتوبة وقبولها منه ﴿لَنْبِذَ﴾ وطرح في القيامة ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ والأرض التي لا ستف لها ولا ظل ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ومعلوم عند الله وعند الناس على فعله وهجرته من بين قومه وقلة تحمله لأذاهم. واعلم أنّ هذا التفسير بالنظر إلى قوله تعالى : ﴿قُلُوا لَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^(١) .

وقيل : إنّ المعنى لنبذ من بطن الحوت في هذه الدنيا بالعراء ، في حال كونه مذموماً ، ولكن لما تاب نبذ وطرح من بطن الحوت بالعراء ممدوحاً غير مذموم^(٢) .
﴿فَاجْتَبَاهُ﴾ واصطفاه ﴿رَبُّهُ﴾ بعد الخروج من بطن الحوت للرسالة إلى قومه ، كما كان كذلك قبل دخوله في بطنه.

عن ابن عباس : ردّ الله عليه الوحي وشقّعه في قومه^(٣) ﴿فَجَعَلَهُ﴾ برحمة ﴿مِنْ﴾ الأنبياء ﴿الصَّالِحِينَ﴾ والمعصومين من ارتكاب خلاف الأولى.
روى بعض العامة : أنّها نزلت في أحد حين همّ رسول الله ﷺ أن يدعو على المنهزمين^(٤) .
وقيل : حين أراد أن يدعو على ثقيف^(٥) .

﴿وَإِنْ يَكَاذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٥١) و (٥٢)

ثمّ إنّ تعالى بعد ما أمر نبيّه ﷺ بالصبر على أذى قومه ، بيّن شدة عداوتهم وغضبهم على الرسول حين تلاوته القرآن العظيم بقوله : ﴿وَإِنْ يَكَاذُ﴾ وقد يقرب ﴿الَّذِينَ﴾ عاندوك ﴿كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ﴾ ويصرعونك ﴿بِأَبْصَارِهِمْ﴾ غضبا عليك ﴿لَمَّا سَمِعُوا﴾ منك ﴿الذِّكْرَ﴾ وتلاوة القرآن.
روي أنّه كان في بني أسد عيّانون ، وكان الواحد منهم إذا أراد أن يصيب شيئا بعينه يتجوّع له ثلاثة أيام ، ثمّ يتعرّض له ، ويقول : تالله ما رأيت أحسن من هذا ، فيتساقط ذلك الشيء ، وكان الرجل منهم ينظر إلى الناقة السمينة أو البقرة السمينة ثمّ يعتنيتها ، ثمّ يقول للجارية : خذي المكتل والدرهم فأتيينا بلحم من لحم هذه ، فما تبرح حتى تقع فتنحر ، ولا يمرّ بشيء فيقول فيه : لم أركاليوم مثله إلّا عانه ، وكان سببا لهلاكه وفساده ، فسال بعض كفّار قريش من بعض من كانت له هذه الصفة أن يقول في

(١) الصفات : ٣٧ / ١٤٣ و ١٤٤.

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٩٩.

(٣-٥) تفسير الرازي ٣٠ : ٩٩.

رسول الله ﷺ : ما رأيت مثله ولا مثل حججه ، فعصمه الله ^(١) بهذه الآية.

وقيل : إن زلقه بالأبصار كناية عن شدة الغضب ، والمعنى أنهم من شدة عداوتهم لك ينظرون إليك نظر الغضبان بمؤخر عيونهم ، بحيث يكادون يزّلون قدمك ويصرعونك وقت سماعهم القرآن ^(٢) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لإخوانهم حين رؤيتك : ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ وفاسد العقل ، تنفيرا للناس عنه ، وتوهينا له ، وقد علموا كلهم أنه أعقل الناس.

وقيل : إن المعنى أنّ محمداً معه جنّ يعلمه القرآن ^(٣) ﴿وَو﴾ الحال أنّه ﴿مَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ وعظة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ من الإنس والجنّ ، وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ودنياهم ، فأين من أنزل عليه ذلك وهو مطّلع على أسرارهم وحقائقه ودقائقه ممّا قالوا في حقّه من الجنون ؟ فكيف ينسبونه إليه وليس ما قالوا إلّا من غاية الحمق والجهالة ؟

عن الصادق عليه السلام : أنّه مرّ بمسجد الغدير ، فنظر إلى ميسرة المسجد فقال : « ذاك موضع قدم رسول الله ﷺ حيث قال : من كنت مولاه فعليّ مولاه » ثمّ نظر إلى الجانب الآخر فقال : « ذاك موضع فسطاط أبي فلان وفلان وسالم مولى حذيفة وأبي عبيدة ، فلمّا أن رأوه رافعا يده قال بعضهم لبعض : انظروا إلى عينيه تدوران كأثهما عينا مجنون ، فنزل جبرئيل بهذه الآية » ^(٤) .

أقول : يمكن حمل نزول جبرئيل بها في ذلك الوقت على نزوله بها مرة ثانية.

وعن القمي : ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ قال : لما أخبرهم رسول الله ﷺ بفضل أمير المؤمنين عليه السلام [قالوا : هو مجنون] قال تعالى : ﴿وَمَا هُوَ﴾ يعني أمير المؤمنين عليه السلام ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ^(٥) .

عن الصادق عليه السلام قال : « من قرأ سورة ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ في فريضة أو نافلة ، آمنه الله عزّ وجلّ من أن يصيبه فقر أبداً وأعاده الله إذا مات من ضمة القبر » ^(٦) .

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ١٢٧ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ١٢٧ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ١٣٠ .

(٤) الكافي ٤ : ٥٦٦ / ٢ ، من لا يحضره الفقيه ٢ : ٣٣٥ / ١٥٥٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٢١٦ .

(٥) تفسير القمي ٢ : ٣٨٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٢١٦ .

(٦) ثواب الأعمال : ١١٩ ، مجمع البيان ١٠ : ٤٩٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٢١٦ .

في تفسير سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ

بِالْفَارِغَةِ (١) و (٤)﴾

ثم لما ختمت سورة القلم المتضمنة لتحليل الرسول ﷺ وإبطال نسبة الجنون إليه ، وبيان نزول العذاب الدنيوي على مانعي حقوق الفقراء ، وبيان أن العذاب الدنيوي كذلك ، وعذاب الآخرة أكبر ، وبيان شدة عداوة الكفار للرسول ﷺ وانضجارهم من استماع القرآن مع أنه ذكر للعالمين ، نظمت سورة الحاقة المتضمنة لكثير من العذاب الدنيوي النازل على الامم ، وبيان عظمة عذاب الآخرة ، وشدة عداوة الكفار للنبي ﷺ ، ونسبة الكهانة والشعر إليه ، وإبطال هاتين النسبتين ، وأن القرآن تنزيل من رب العالمين ، وبيان عظمة يوم القيامة ، وذكر بعض أهوالها وشدائدها ، إلى غير ذلك من وجوه التناسب بين السورتين المباركتين ، ثم افتتحها سبحانه بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم ابتدأها بذكر عظمة يوم القيامة بقوله : ﴿الْحَاقَّةُ﴾ وإنما سمي يوم القيامة بالحاقة لأنه يحق وقوعه ويجب ، أو يحق فيه جزاء الأعمال ، أو تحقق فيه الامور وتعرف حقائقها ، أو تحقق فيه كلمة العذاب .

ثم بالغ في التهويل وتفخيم فظاعته بقوله : ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ وأي شيء هي في العظمة والفظاعة ؟ ﴿وَمَا أَذْرَاكَ﴾ وما أعلمك ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ وأي يوم هي ؟ فأتها خارجة عن دائرة علم المخلوق ، كيف ما قدر عظمها كانت أعظم منه ، ومع ذلك ﴿كَذَّبَتْ﴾ قبيلة ﴿ثَمُودُ وَعَادٌ﴾ بهذا اليوم الذي يسمى أيضا ﴿بِالْفَارِغَةِ﴾ لأنها تفرع الناس وتصيبهم بالأفزع والأهوال والعذاب ، والسماء بالانشقاق ، والأرض والجبال بالدك^(١) والنسف ، والنجوم بالطمس والانكدار .

(١) في النسخة : بالباد ، والتصحيح من تفسير روح البيان ١٠ : ١٣١ .

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ *
سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَنَعٌ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ

أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٥) و (٧)﴾

ثم بين سبحانه ما نزل على المكذبين للقيامة من العذاب بقوله : ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا﴾ لتكذيبهم بهذا اليوم ﴿بِالطَّاغِيَةِ﴾ والصيحة المتجاوزة عن حدّ الصيحات في الشدة ^(١) فارجفت الأرض وتقطّعت منها القلوب ﴿وَأَمَّا عَادُ﴾ الذين هم أشدّ طغيانا وعتوّا من ثمود ﴿فَأُهْلِكُوا﴾ لتكذيبهم مع كمال قوتهم ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ وباردة أو شديدة الصوت ﴿عَاتِيَةٍ﴾ ومتجاوزة عن الحدّ في الشدة والعصف ، كأثما عتت على خزائنها ولم يتمكّنوا من ضبطها ﴿سَخَّرَهَا﴾ الله وأرسلها بقدرته القاهرة إلى قوم عاد ، وسلّطها ﴿عَلَيْهِمْ﴾ غضبا وانتقاما منهم ﴿سَنَعٌ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ حال كون تلك الرياح ﴿حُسُومًا﴾ ومتواليات ومتتابعات ، وما خفف هبوبها تلك المدة ساعة حتى أهلكتهم ، أو نحسات حسمت كلّ خير ، أو قاطعات حيث قطعت دابر القوم ﴿فَتَرَى﴾ يا محمد ، أو أيّها الرائي إن كنت حاضرا حينئذ ﴿الْقَوْمَ﴾ جميعهم مع كمال قوتهم وعظم أجسامهم ﴿فِيهَا صَرْعَى﴾ ومطروحين على الأرض ميتين ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في عظم الأجسام وطولها وعدم الحركة لها ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ وأصولها المقطوعة حال كونها ﴿خَاوِيَةٍ﴾ ومجوّفة. قيل : كانت الريح تدخل من أفواههم ، ويخرج ما في أجوافهم من أديبارهم ^(٢) .

﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ * وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ *

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً * إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي

الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَّاعِيَةٌ (٨) و (١٢)﴾

ثم بالغ سبحانه في بيان هلاكه جميعهم بقوله : ﴿فَهَلْ تَرَى﴾ أيّها الرائي ﴿لَهُمْ مِنْ﴾ نفس ﴿بَاقِيَةٍ﴾ حبّه ، أو من بقية من ذكر أو انثى ، أو كبير أو صغير ؟ لا والله لا ترى منهم أحدا ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ كان ﴿قَبْلَهُ﴾ وتقدّمه من الكفار ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ والمنقلبات ، وهي قرى قوم لوط وأتوا ^(٣) ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ والمعصية العظيمة ، أو الأفعال السيئة العظيمة كتكذيب البعث ﴿فَعَصَوْا﴾ كلّهم ﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ حين نوا عما كانوا عليه من القبائح ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ الله بذنوبهم وكفرهم وتكذيبهم البعث وابتلائهم بالعقاب ﴿أَخَذَةً رَابِيَةً﴾ وعقوبة زائدة في الشدة على عقوبات

(١) في النسخة : الشديدة.

(٢) تفسير روح البيان ١ : « ١٣٤ .

(٣) في النسخة : والوا.

سائر الكفرة ، أو على القدر المتصور عند الناس ، لزيادة عصيانهم على عصيان غيرهم ، كغرق أهل العالم ، وتقليب سبع بلاد ^(١) ، وإمطار الحجارة عليهم .

ثم أشار سبحانه إلى قصة قوم نوح بقوله : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ ﴾ وتجاوز عن الحد حتى علا كل شيء في الأرض ، وارتفع على الجبال ، أو طغى على خزائنه ولم يقدرُوا على ضبطه ﴿ حَمَلْنَاكُمْ ﴾ يا بني آدم ﴿ فِي ﴾ السفينة ﴿ الْجَارِيَةِ ﴾ السائرة على الماء ، وإنما كان غرق الكفار ونجاة المؤمنين ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ تَذَكُّرًا ﴾ وعظة ودليلاً واضحاً على قدرتنا وغضبنا على الكفر وتكذيب الرسل ﴿ وَنَعِيهَا ﴾ وتحفظها ﴿ أذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ وحافضة ما هو نافع لصاحبها بتذكُّره والتفكر فيه ، فإن من تفكر في غرق أهل الأرض بالطوفان الذي علا على الجبال الشوامخ خمسة عشر ذراعاً وإنجاء المؤمنين في السفينة ، علم أنَّ للعالم مدبراً قادراً حكيماً رحيماً بمن وجده منتقماً بمن أنكره وكذب رسله .

في ذكر فضيلة أمير المؤمنين عليه السلام

روى الفخر الرازي وغيره من العامة عن النبي ﷺ أنه قال لعلي عليه السلام حين نزلت الآية : « سئل الله تبارك وتعالى أن يجعلها اذنك يا علي » قال علي صلوات الله عليه : « فما نسيت شيئاً بعد ذلك ، وما كان لي أن أنسى » ^(٢) .

وفي رواية ذكرها النقاش : أخذ ﷺ باذن علي بن أبي طالب عليه السلام وقال : « هي هذه » ^(٣) .

﴿ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةً * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ ﴾

الْخَالِيَةِ (١٣) وَ (٢٤)

ثم شرع سبحانه وتعالى في بيان الحاقّة ، وكيفية وقوعها عقيب بيان عظم شأنها وإهلاك مكذّبيها

(١) كذا ، والظاهر : سبع بلدات ، أو سبع مدائن .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ١٠٧ ، تفسير الطبري ٢٩ : ٣٥ ، الكشاف ٤ : ٦٠٠ ، الدر المنثور ٨ : ٢٦٧ ، تفسير روح البيان ١٠ : ١٣٦ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ١٣٦ .

بقوله : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ وقد مرّ بيان الصّور والنفخ فيه ﴿نَفْخَةً وَاحِدَةً﴾ أولية ﴿وَحُمِلَتِ﴾ وقلعت ﴿الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ من أماكنهما بالقدرّة الإلهية ، أو بالزلزلة ﴿فَدَكَّتَا﴾ وضربتا : يعني كلا بالآخر ﴿دَكَّةً﴾ وضربة ﴿وَاحِدَةً﴾ فتسير الجبال بها كتيبا مهيلا ، والأرض هباء منثورا ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ وحينئذ ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ العظيمة ، ونزلت النازلة الهائلة الفظيعة ، وهي على ما قيل صيحة القيامة^(١) ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ وانفرجت لنزول الملائكة إلى الأرض ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ﴾ وفي تلك الوقت ﴿وَاهِيَةً﴾ مسترخية غير متماسكة كالعهن المنقوش ﴿وَالْمَلَكُ﴾ الذي يسكن في السماء يقفون بعد انشقاقها ﴿عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ ونواحيها وأكنافها.

قيل : إنّ الملائكة يقفون في حافات السماء لحظة ثم يموتون لقوله : ﴿فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) ويحتمل أنّ وقوفهم بعد موتهم وإحيائهم ، ويحتمل كون الواقفين المستثنون بقوله : ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾^(٣) .

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ وهو على ما قيل الفلك التاسع^(٤) ، وهو أعظم خلق خلقه الله ، وبه تحدّد الجهات ﴿فَوْقَهُمْ﴾ قيل : يعني فوق الملائكة الذين هم على أطراف السماء ، أو فوق الحملة^(٥) ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الوقت ﴿ثَمَانِيَةً﴾ أملاك.

عن النبي ﷺ : « هم اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة أخرى »^(٦) .

وروي أنّهم ثمانية أملاك أرجلهم في تخوم الأرضين السابعة ، والعرش فوق رؤوسهم ، كلّهم مطرقون مسبّحون^(٧) .

أقول : ومن التخرّص بالغيب قول بعض علماء العامة : الأربعة اللاحقة الأئمة الأربعة : أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد^(٨) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « حملة العرش - والعرش العلم - ثمانية : أربعة منّا ، وأربعة ممن شاء الله »^(٩) .

وعن القمي قال : حملة العرش ثمانية ، لكلّ واحد منهم ثمانية أعين ، كلّ عين طباق الدنيا^(١٠) .

قال : وفي حديث آخر قال : « حملة العرش ثمانية : أربعة من الأولين ، وأربعة من الآخرين ، فأما

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ١٣٧ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ١٠٨ ، تفسير روح البيان ١٠ : ١٣٨ ، والآية من سورة الزمر : ٣٩ / ٦٨ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ١٠٨ ، تفسير روح البيان ١٠ : ١٣٨ ، والآية من سورة الأنعام : ٦ / ١٢٨ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ١٣٨ .

(٥) تفسير أبي السعود ٩ : ٢٤ ، تفسير روح البيان ١٠ : ١٣٩ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ١٣٩ .

(٧) تفسير روح البيان ١٠ : ١٣٩ .

(٨) الكافي ١ : ١٠٢ / ٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٢١٩ .

(٩) بحار الأنوار ٥٨ : ٢٧ / ٤٣ ، وتفسير الصافي ٥ : ٢١٩ ، عن تفسير القمي .

الأربعة من الأولين : فنوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وأمّا من الآخرين : فمحمّد ، وعلي ،
والحسن ، والحسين عليهما السلام . ومعني يحملون العرش : يحملون العلم ^(١) .

أقول : يمكن أن يكون هذا الحديث تأويل الآية ، فيكون المعنيان صحيحين.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أنتم أيّها الناس ﴿تُعْرَضُونَ﴾ على الله للسؤال والحساب ، كما يعرض العسكر على
السلطان لتعرف أحوالهم ﴿لَا تَخْفَى﴾ على الله ممّا صدر ﴿مِنْكُمْ﴾ في الدنيا فعلة ﴿خَافِيَةً﴾ ومستورة من
الغير ، وكذا كلّ نية وسريّة ، فيظهر في ذلك اليوم جميع الضمائر والسرائر على جميع الخلق ، فيكمل
بذلك سرور المؤمنين المخلصين ، ويفتضح الكفار والمنافقين ، ومع ذلك تتطايّر صحف الأعمال ،
ويعطي كلّ أحد كتابه بيده ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ﴾ واعطي ﴿كِتَابَهُ﴾ وصحيفة عمله التي كتبتها الملائكة الحفظة
﴿بِمِيزَانٍ﴾ تعظيما له ﴿فَيَقُولُ﴾ فرحا وسرورا لمحبيه من المؤمنين : ﴿هَؤُلَاءِ﴾ وخذوا ، أو هلمّوا يا إخواني
المؤمنين وأقربائي وأحبائي ﴿اقْرَأُوا كِتَابِيهِ﴾ وانظروا ما فيه من البشارة بالنجاة من النار والدخول في الجنة
﴿إِنِّي طَنَنْتُ﴾ في الدنيا ﴿أَنِّي مُلَاقٍ﴾ يوم القيامة ﴿حَسَابِيهِ﴾ وإن احتملت أنّ الله لا يحاسبني ويدخلني
الجنة بغير حساب لشدة رجائي بكرمه.

وقيل : إنّ الظنّ هنا معني اليقين ^(٢) ، والمعنى أيقنت أنّي أبعث يوم القيامة والاقبي حساب أعمالي
، فتهيّأت لهذا اليوم ﴿فَهُوَ﴾ بفضل الله وبكرمه يستقرّ ﴿فِي عِيشَةٍ﴾ هنيئة وحياة ﴿رَاضِيَةٍ﴾ مرضية صافية
عن الكدورة مقرونة بالنعم والراحة والكرامة ، أعني أنّه متمكّن ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ مرتفعة الدرجات والقصور
والأشجار التي ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ وقريبة ممّن يريدونها ينالها قائما وقاعدا ومضطجعا بيده من غير تعب. وقيل
: لا ينتظر إدراكها ^(٣) .

ويقال لهم ﴿كُلُوا﴾ ممّا شئتم من الثمار بلا منع ﴿وَاشْرَبُوا﴾ من أنهار الخمر والعسل واللبن وماء
غير آسن ﴿هَيَّيْنَا﴾ وسائغا لكم ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ وقدمتم من الأعمال الصالحة ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ والأزمنة
الماضية من زمان عمر في الدنيا. وقيل : في أيام صومكم ^(٤) .

روي أنّه يقول الله : يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشرية
وغارت عيونكم وخمست بطونكم ، فكونوا اليوم في نعيمكم ، وكلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام
الخالية ^(٥) .

(١) تفسير القمي ٢ : ٣٨٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٢١٩ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ١١٢ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ١٤٢ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ١٤٣ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ١٤٣ .

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ * وَلَمْ أَذِرْ مَا
حِسَابِيهِ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ * هَلَكَ عَنِّي

سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٥﴾ و ﴿٢٩﴾﴾

هذا حال المؤمنين الصالحين في الآخرة ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ تحقيرا له بأن تلوى - على ما
قيل - يسراه إلى خلف ظهره ، ويرى ما فيه من قبائح أعماله ﴿فَيَقُولُ﴾ تحزنا وتحسرا ^(١) ﴿يَا﴾ أهل
الحشر ﴿لَيْتَنِي﴾ وأتمنى أنه ﴿لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ﴾ ولم أعط صحيفة أعمالى التي فيها جميع سيئاتى ﴿وَلَمْ أَذِرْ﴾
ولم أعلم ﴿مَا حِسَابِيهِ﴾ فإنه ليس فى أعمالى إلا ما يوجب العذاب.

ثم يتمنى أن الموته التي أدركته فى الدنيا لم يكن بعدها بعث بقوله : ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾
والقاطعة لحياتى بحيث لم يكن بعدها بعث ولا حساب ، ولم ألق ما ألقى من سوء العاقبة واليوم ﴿مَا
أَغْنَى﴾ ولم يدفع ﴿عَنِّي﴾ شيئا من العذاب ﴿مَا﴾ كان (ليه) من المال والأولاد والأتباع.

قيل : إن ﴿مَا﴾ استفهامية على سبيل الإنكار ، والمعنى أى شيء أغنى ما كان لى من اليسار ^(٢)
 . وقيل : يعنى لم يغنى عني المال الذي جمعته فى الدنيا شيئا من العذاب ^(٣) ، بل صار سببا لابتلائي ^(٤)
به .

﴿هَلَكَ﴾ وذهب ﴿عَنِّي﴾ اليوم ﴿سُلْطَانِيَّةٌ﴾ وملكى واستيلائي على الناس ، وبقيت ضعيفا ذليلا
مقهورا.

عن ابن عباس : يعنى ضلّ عني حجّتي التي كنت احتجّ بها على محمّد في الدنيا ^(٥) . وقيل :
يعنى إنما كنت انزع المحقّقين بسبب الملك والسلطنة ، فالآن ذهب ذلك الملك وبقي الوبال ^(٦) .

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً
فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ *
فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا

الْخَاطِئُونَ ﴿٣٠﴾ و ﴿٣٧﴾﴾

وعلى أيّ تقدير يقول الله تعالى للملائكة الغلاظ والشداد غضبا على العاصي : ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾
وقيّده وقلّده ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ وأقلّوه بعنف ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا﴾ وطولها ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾
وأدخلوه وشدّوه بحيث لا يقدر على الحركة.

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ١٤٤ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ١١٤ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ١٤٤ .

(٤ - ٦) تفسير الرازي ٣٠ : ١١٤ .

عن كعب الأحبار قال : لو جمع حديد الدنيا ما وزن حلقة منها ، ولو وضعت حلقة منها على جبل لذاب مثل الرصاص ، تدخل السلسلة في فيه وتخرج من دبره ، ويلوى فضلها على عنقه وجسده ، ويقرن بها بينه وبين شيطانه ^(١) .

قيل : إنّ السبعين كناية عن كثرة الطول ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « لو أنّ حلقة واحدة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على الدنيا لذابت الدنيا من حرّها » ^(٣) .

وعنه عليه السلام : « كان معاوية صاحب السلسلة التي قال الله عزّ وجلّ : ﴿ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا ﴾ » الآية . قال : « وكان فرعون هذه الامة » ^(٤) .

ثمّ كأنه قالت خزنة النار : ماله يعدّ بهذا العذاب الشديد ؟ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ ومن كفر به مع غاية عظمتهم كان عذابه في غاية العظمة .

ثمّ إنّ تعالى بعد بيان سوء اعتقاده بيّن سوء عمله بقوله : ﴿ وَلَا يَخْشَى ﴾ ولا يخش الله ولا يحترق أهله وغيرهم ﴿ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ وإيكا لهم القوت فضلاً عن أن يعطى ويذل من مال نفسه ، وفيه دلالة على أنّ البخل من أعظم المعاصي ، روي عن النبي صلى الله عليه وآله : « البخل كفر ، والكافر في النار » ^(٥) .

﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ ﴾ وفي ذلك الوقت ﴿ هَاهُنَا ﴾ وفي عرصة القيامة ﴿ حَمِيمٌ ﴾ وقريب يحامي عنه وينصره ، أو يحترق له قلبه ، بل أقرباؤه وأصدقاؤه ، يفرّون منه ﴿ وَلَا طَعَامٌ ﴾ له ﴿ إِلَّا مِنْ غَسِيلٍ ﴾ وما يسيل من جلود أهل النار روي أنّه لو وقعت قطرة منه على الأرض لأفسدت على الناس معاشهم ^(٦) ، وعليه يكون إطلاق الطعام عليه مع أنّه شراب من باب المجاز . وقيل : إنّ اسم شجر في النار ^(٧) ﴿ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ طريق توحيد الله ، المشركون به ، كما عن ابن عباس ^(٨) . وقيل : هم الذي يتخطّون الحقّ إلى الباطل ^(٩) ، فيشمل منكر الرسالة والإمامة .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَدَّكُرُونَ * نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٨) و (٤٣)

(٢١) تفسير روح البيان ١٠ : ١٤٦ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٨١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٢١ .

(٤) الكافي ٤ : ٢٤٤ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٢١ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ١٤٧ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ١٤٧ .

(٧) تفسير روح البيان ١٠ : ١٤٨ .

(٩) تفسير الرازي ٣٠ : ١١٦ ، تفسير روح البيان ١٠ : ١٤٨ .

ثمَّ إِنَّه تعالى بعد بيان أهوال القيامة وأحوال السعداء والأشقياء ، وكان المشركون والأشقياء ينكرون جميعها ويكذبون القرآن ، بيّن سبحانه عظمة القرآن وأنه كلام الله المجيد بقوله تعالى : ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ وقيل : إنّ التقدير فلا مجال لتكذيب المكذّبين ^(١) للقرآن وما أخبر به من البعث والنشور ، أقسم ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ وما تشاهدون من الجسمانيات ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ ولا تشاهدون من العقول والروحانيات ﴿إِنَّه﴾ من أوله إلى آخره ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ صادق مبعوث من جانب الله ﴿كَرِيمٍ﴾ عليه عظيم الشأن عنده ، وهو محمد ﷺ أو جبرئيل ، جاء به من قبل الله ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما تزعمون ، وأنتم إيماننا ﴿قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن أنه كلام الله ، وبمن جاء به أنه رسول الله ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ﴾ كما تدعون ذلك مرة أخرى تذكرنا ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ ولذا يلتبس عليكم الأمر.

قيل : إنّ الايمان والتذكر القليل بالشيء الظنّ به والميل إليه ^(٢) وقيل : إنّ القليل في الآيتين كناية عن العدم ^(٣) . وقيل : إنّ الايمان القليل اليقين بالقلب والجحود باللسان ^(٤) . أو الايمان ببعض أحكام القرآن دون ^(٥) بعض.

ولمّا قرن سبحانه عدم الايمان بالشاعرية ؛ لأنّ عدم مشاهجة القرآن بالشعر أمر بيّن لا ينكره إلّا المعاند فلذا وتّخوا على عدم الايمان بخلاف مبانيه ^(٦) للكهانة ، فإنّها ليست بذاك الوضوح ، فإنّ من تذكر أحوال النبي ﷺ ومعاني القرآن وتأمل فيهما ^(٧) علم أنّ القرآن ليس بكهانة ، فإنّ الكاهن يأتيه الشيطان ويلقي إليه أخبار السماء ، وما يقوله النبي ﷺ مشتمل على ذمّ الشياطين وسبّهم ، فكيف يمكن أن يكون ذلك بإلقاء الشياطين ؟ وكذا معاني القرآن [فإنّها تشتمل على] الدعوة إلى العقائد الحقّة وتهذيب الاخلاق والأعمال الصالحة بخلاف أقوال الكهنة ، فلو تذكر كفّار مكّة معاني القرآن ومعاني أقوال الكهنة لما قالوا : إنّهم كاهن ، وإن القرآن كهانة ، بل هو ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نزله بتوسط جبرئيل على رسوله ، فهو قول الله وكلامه لأنّه نزله ، وقول جبرئيل لأنه نزل به ، وقول رسول الله ﷺ لأنّه أنذر به.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّه لَتَذِكْرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ * وَإِنَّه لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّه لَحَقُّ الْيَقِينِ *

(١) تفسير طبري ٢٩ : ٤١ .

(٢-٤) تفسير روح البيان ١٠ : ١٤٩ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ١٤٩ و ١٥٠ .

(٦) في تفسير روح البيان : مباينته .

(٧) في النسخة : منهما .

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٤٤) و (٥٢)

ثم أكد سبحانه أنه كلامه لا كلام النبي ﷺ بقوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ مُحَمَّدٌ ﴿عَلَيْنَا﴾ وَنَسَبَ إِلَيْنَا كَذِبًا ﴿بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ والكلمات التي لم نقلها ﴿لَا خَدْنًا﴾ بعضا ﴿مِنْهُ﴾ للانتقام ﴿بِالْيَمِينِ﴾ والقوة. وقيل : إن المراد باليمين الحق ^(١) والمعنى لانتقمنا منه بالحق ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ والعرق الذي به حياته ، وهو كناية عن إيمانه. وقيل : يعني لضربنا عنقه ^(٢) .

وعلى أي تقدير ، المراد إهلاكه بأفطع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه ﴿فَمَا مِنْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿مَنْ أَحَدٌ﴾ حينئذ ﴿عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ ومانعين بالقوة أو الشفاعة.

ثم إنه تعالى بعد تعظيم كتابه بالغ في مدحه بذكر فائدته العظيمة بقوله : ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكُرَةٌ﴾ وعظة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ من إتباع الهوى والعصية في مذهبه الباطل ، فاهم المنتفعون به ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ﴾ كثيرا ﴿مِنْكُمْ﴾ أيها العرب ﴿مُكَذِّبِينَ﴾ له لحب الدنيا وإتباع الهوى والتوغل في العصية ، وكافرين به حسدا وبغيا ﴿وَإِنَّهُ﴾ يوم القيامة ﴿لَحَسْرَةٌ﴾ وندامة ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ به وبمحمد ﷺ عند مشاهدتهم عظمتهم وشفاعته لتاليه وثواب المصدقين به ، وفي الدنيا أيضا إذا رأوا عز المؤمنين به وذلة الجاحدين له قالوا : ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ وفيه من المبالغة ما لا يخفى ، فاذا كان القرآن أنزله إليك بهذه المرتبة من العظمة والفائدة ، ونعمته عليك فوق جميع النعم ﴿فَسَبِّحْ﴾ الله تنزيها له.

عن الرضا عليه السلام : « بالتقول عليه ، وشكرا له على إحيائه عليك » ^(٣) مستعينا في تسييحه ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قيل : المراد بالاسم المسمى ^(٤) .

روي أنه لما نزلت الآية قال رسول الله ﷺ : « اجعلوها في ركوعكم » ^(٥) .
 روى بعض العامة عن عمر بن الخطاب أنه قال : خرجت بمكة يوما متعرضا لرسول الله ﷺ ، فوجدته قد سبقني إلى المسجد ، فجئت فوقفت وراءه ، فافتتح سورة الحاقة ، فلما سمعت سرد القرآن قلت في نفسي : إنه لشاعر كما تقول قريش ، حتى بلغ إلى قوله : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وما هو بقول شاعر قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ* وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا ما تَذْكُرُونَ* تُنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ* ثم مرّ حتى انتهى إلى آخر السورة ، فأدخل الله في قلبي الإسلام ^(٦) .

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ١١٨ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ١٥١ .

(٣) تفسير الصافي ٥ : ٢٢٣ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ١٥٢ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ١٥٣ .

عن الكاظم عليه السلام : « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » يعني جبرئيل عن الله في ولاية علي عليه السلام « قال : « قالوا : إنّ محمداً كذب على ربّه ، وما أمره الله بهذا في عليّ ، فأُنزل الله تعالى بذلك قرآناً فقال : إنّ ولاية علي «تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ* وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ...» الآية ، ثمّ عطف القول فقال : إنّ ولاية علي لتذكّرة للمتّقين - للعالمين - وإنّ علياً لحسرة على الكافرين ، وإنّ ولايته لحقّ اليقين ، فسبح - يا محمد - باسم ربك العظيم. يقول : اشكر ربك العظيم الذي اعطاك هذا الفضل »^(١).

وعن الصادق عليه السلام : « لما أخذ رسول الله ﷺ بيد علي عليه السلام فأظهر ولايته ، قالاً جميعاً : والله ما هذا من تلقاء الله ، ولا هذا إلّا شيء أراد أن يشرف به ابن عمّه ، فأُنزل الله تعالى : «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا الْآيَاتِ «أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ» يعني فلانا وفلانا «وَأِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ» يعني علياً عليه السلام «^(٢)

عن النبي ﷺ : « من قرأ سورة الحاقة حاسبه الله حساباً يسيراً »^(٣) .
وعن الصادق عليه السلام : « أكثر من قراءة الحاقة ، فإن قراءتها في الفرائض والنوافل من الإيمان بالله ورسوله ، [لأُتمّها] إنّما نزلت في أمير المؤمنين ومعاوية ، ولم يسلب قارئها دينه حتى يلقي الله عزّ وجلّ »^(٤) .
الحمد لله على التوفيق لاتمام تفسيرها.

(١) الكافي ١ : ٣٥٩ / ٩١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٢٣ .

(٢) تفسير العياشي ٣ : ٢٢ / ٢٤٢٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٢٣ .

(٣) تفسير أبي السعود ٢ : ٢٨ .

(٤) ثواب الأعمال : ١١٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٢٣ .

في تفسير سورة المعارج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (١) وَ (٣)﴾

ثم لما ختمت سورة الحاقة المتضمنة لبيان عظمة يوم القيامة وعذاب مكذبيه وأهواله حين وقوعه ، وحسن حال المؤمنين به وسوء حال الكافرين ومانعي حقوق المساكين ، وأنه ليس لهم في ذلك اليوم حميم ، وبيان عظمة القرآن وتسلية الرسول ﷺ ، نظمت سورة المعارج المتضمنة لبيان عذاب الكفار ، وقرب وقوع القيامة وطول مدتها وأهوالها ، وغفلة الحميم عن حميمه ، وحسن حال المؤمنين المؤدّين حقوق الفقراء ، وسوء حال الكفار ، وتسلية النبي ﷺ وأمره ^(١) بالصبر على أذى قومه إلى غير ذلك من وجوه المناسبات بين السورتين ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم حكى سبحانه شدة خبائثة بعض الكفار وجرأته على الله بقوله : ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ ودعا داع ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ لا محالة ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ وعليهم كما عن ابن عباس ، إثم في الدنيا وإثم في الآخرة ^(٢) ﴿لَيْسَ لَهُ﴾ إذا جاء وقته أو اقتضته حكمته ﴿دَافِعٌ﴾ ومانع ﴿مِنْ﴾ جانب ﴿اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ ومالك السماوات التي هي المصاعد للملائكة الذين هم مدبرات الأمور ومقسّمات الأرزاق ، وإثمًا سمي السماوات معارج لكون بعضها فوق بعض كالمدارج ، أو المراد ذي مراتب من النعم ، أو ذي الدرجات التي يعطيها أوليائها في الجنة .

عن ابن عباس : نزلت الآية في النضر بن الحارث من بني عبد الدار حيث قال إنكارا للقرآن واستهزاء به : ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ^(٣) .
وقيل : إنه لما بعث محمد ﷺ وخوف المشركين بالعذاب ، قال بعضهم لبعض : سلوا محمدا لمن

(١) في النسخة : وأمر .

(٢) (٣ و٢) تفسير روح البيان ١٠ : ١٥٣ .

هذا العذاب ، وبمن يقع ؟ فنزلت ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾^(١) .

والباء في قوله : ﴿بِعَذَابٍ﴾ في معنى (عن) . وقيل : إنّ المراد من السائل رسول الله ﷺ ، حيث استعجل بعذاب الكافرين ، فبشّره الله بأنّ العذاب واقع بهم لا دافع له بقرينة قوله بعد ذلك : ﴿فَاصْبِرْ﴾^(٢) .

﴿تَغْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حَمِيمًا (١٠)﴾

ثمّ بيّن سبحانه أنّ إطلاق المعارج على السماوات بلحاظ عروج الملائكة بقوله : ﴿تَغْرُجُ﴾ وتصعد ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ الذين هم مدبّرات الأمور ﴿وَالرُّوحُ﴾ الأمين المسمّى بجبرئيل بعد فراغهم من أمور الدنيا لانهاؤها بأمر الله ﴿إِلَيْهِ﴾ تعالى ﴿فِي﴾ أول ﴿يَوْمٍ﴾ وزمان ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ﴾ من أوّله إلى آخره خمسين ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ من سني الدنيا ، وهو يوم القيامة وزمان وقوف الناس للحساب ، وهذا الطول بالنسبة إلى الكفار ، كما روي أنّه قيل لرسول الله ﷺ : ما أطول هذا اليوم : فقال : « والذي نفسي بيده إنّه ليخفّ عن المؤمن حتّى يكون عليه أخفّ من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا »^(٣) . وعن الصادق عليه السلام : « أنّ للقيامة خمسين موقفاً ، كلّ موقف مقام^(٤) ألف سنة » ثمّ تلا هذه الآية^(٥) .

وقيل : إنّ هذا التقدير على سبيل الفرض ، والمقصود أنّه لو اشتغل بالقضاء بين الناس أعقل الناس وأذكاهم لبقى فيه خمسين ألف عام ، والله يفرغ من حسابهم في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا^(٦) كما عن الصادق أنّه قال : « لو ولي الحساب غير الله لمكثوا فيه خمسين ألف سنة من قبل أن يفرغوا ، والله سبحانه يفرغ من ذلك في ساعة »^(٧) . وقال في رواية أخرى : « لا ينتصف ذلك اليوم حتى يقبل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار »^(٨) .

ويمكن أن يقال : إنّ التقدير لعروج الملائكة لا ليوم القيامة ، كما قال بعض^(٩) . والمعنى أنّ الملائكة يعرجون إلى مواضع لو أراد غيرهم من أهل الدنيا أن يصعد إليها لا يمكنه إلّا في مدّة خمسين ألف

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ١٢١ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ١٢١ ، والآية من سورة المعارج : ٧٠ / ٥ .

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٥٣١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٢٥ ، تفسير الرازي ٣٠ : ١٢٤ .

(٤) في الكافي : مقداره .

(٥) الكافي ٨ : ١٤٣ / ١٠٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٢٥ .

(٦) تفسير الرازي ٣٠ : ١٢٤ .

(٧) مجمع البيان ١٠ : ٥٣١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٢٥ .

(٨) مجمع البيان ١٠ : ٥٣٠ .

سنة ، ولكن الملائكة يصعدون إليها في ساعة قليلة.
وعن أمير المؤمنين عليه السلام وقد ذكر النبي صلى الله عليه وآله قال : « اسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى مسيرة شهر ، وعرج به إلى ملكوت السماوات مسيرة خمسين ألف عام في أقل من ثلث ليلة حتى انتهى إلى ساق العرش » ^(١) .
وروى القمي عن النبي صلى الله عليه وآله قال : « تعرج الملائكة والروح في صبح ليلة [القدر] إليه من عند النبي والوصي » ^(٢) .

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد ، على استهزاء قومك وأذاهم ﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾ حسنا لا جزع فيه ولا شكوى إلى غير الله مع انتظار الفرج بلا استعجال ، ولا تدع على قومك لاستهزائهم بوعدك إيتاهم العذاب ﴿إِنَّهُمْ﴾ لجهلهم وحققتهم ﴿يَرَوْنَهُ﴾ ويزعمونه ﴿بَعِيدًا﴾ عن إمكان الوقوع ويحيلونه ، لاستبعادهم إحياء العظام الرميم ثانيا حتى يمكن لهم التألم بالعذاب ﴿وَوَ﴾ نحن ﴿نَرَاهُ﴾ ونعلمه ﴿قَرِيبًا﴾ من الوقوع لإمكان إعادة خلقهم وقدرتنا عليه واستحقاقهم للعذاب.

وقيل : إنهم يرون الموت والبعث بعيدا لبعده آماهم ، ونراه قريبا لأن كل آت قريب ^(٣) .
وأما وقوعه فأنه ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ﴾ في اللون ﴿كَالْمُهْلِ﴾ وخبث الحديد المذاب ، أو الفضة المذابة كما عن ابن مسعود ^(٤) ، أو كالقير والقطران في سوادهما ^(٥) ، أو كدردي الزيت ^(٦) في سيالانه على مهل لثخانتها ^(٧) ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ﴾ كلها في سيرورتها ألوانا مختلفة ﴿كَالْعِهْنِ﴾ والصفوف المصبوغ ، لاختلاف ألوان الجبال منها بيض ومنها حمر ، ﴿وَوَ﴾ منها غرابيب سود.
ثم لكثرة أهوال اليوم ﴿لَا يَسْتَلُ حَمِيمٌ﴾ وقريب ﴿حَمِيمًا﴾ وقريبا عن حاله ولا يكلمه ، لاشتغال كل بنفسه ، فكيف الأجانب ؟

﴿يُبْصِرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمُنْذِ بَيْنِهِ * وَصَاحِبَتُهُ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَأُطَى * نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى * تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١١) و (١٨)﴾

(١) الاحتجاج : ٢٢٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٢٥ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٨٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٢٥ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ١٥٩ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ١٢٥ ، تفسير روح البيان ١٠ : ١٥٩ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ١٥٩ .

(٦) دردي الزيت : مارسب أسفله .

(٧) تفسير روح البيان ١٠ : ١٥٩ .

ثم دفع سبحانه توهم أن عدم سؤالهم لعلهم لعدم رؤيتهم أو عدم معرفة بعضهم بعضا بقوله : ﴿يُصَرُّوهُمْ﴾ ويعرفونهم ، فيعرف الرجل أباه وابنه وأخاه وعشيرته - وقيل : إن الملائكة يعرفونهم - ومع ذلك لا يسألهم لاشتغالهم بما هم فيه ^(١) .

عن ابن عباس : يتعارفون ساعة ثم يتناكرون ^(٢) .

بل من شدة عذاب ذلك اليوم ﴿يَوْمَ الْمُجْرِمِ﴾ ويشتاق الكافر والعاصي ﴿لَوْ يَفْتَدِي﴾ ويحفظ نفسه ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ الذي ابتلي به ﴿بَيْنِيهِ﴾ وأولاده الذكور الذين هم أعز الأنفس عنده ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ وزوجته المحبوبة عنده ﴿وَأَخِيهِ﴾ الذي كان ظهره ومعينه في الشدائد ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ وأقاربه ﴿الَّتِي﴾ كانت ﴿تُؤْوِيهِ﴾ وتضمه إلى نفسه ، وتحفظه في الدنيا بحق القرابة والمحبة من الشدائد ، كالآباء والأعمام والأخوال وغيرهم ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الجن والإنس ﴿جَمِيعاً﴾ لو كانوا تحت يديه وفي سلطانه ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ ذلك الافتداء .

﴿كَأَنَّ﴾ وهيهات أن الافتداء ينجيه من النار التي وصفها الله سبحانه بقوله : ﴿إِنَّهَا لَطْفٌ﴾ ولهب خالص لا يخالطه دخان وقيل : إن اللظى علم للنار أو للدرك الثاني من جهنم ^(٣) ، وهي ﴿نَزَاعَةٌ﴾ وجذابة ﴿لِلشَّوَى﴾ والأعضاء الواقعة في أطراف الجسد وقلاعه لها بقوة الاحتراق وشدة الحرارة ، أو نزاعة للجلود الرؤوس وتقشيرها عنه .

قيل : لا تترك جلدا ولا لحما ولا عصباً إلا أحرقتة ^(٤) .

﴿تَدْعُوا﴾ وتجلب إلى نفسها كالمغناطيس الذي يجلب الحديد ، أو تهلك ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن التوحيد والحق وأعرض عنه ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن طاعة ربه ورسوله ، واستنكف عنه ، وتلتقطهم كما يلتقط الطير الحب . وقيل : إن المراد جلب زبانية النار بحذف المضاف ^(٥) .

﴿وَجَمَعَ﴾ المال حرصاً وحباً للدنيا ﴿فَأَوْعَى﴾ وكنز لطول الأمل ، ولم يؤد زكاته وحقوقه الواجبة فيه ، وتشاغل به عن الدين ، وتكبر على الفقراء باقتنائه ^(٦) .

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً *
إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ
مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ١٦٠

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ١٦١ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ١٢٨ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ١٢٨ .

(٥) في النسخة : باقتنائه ، وما أثبتناه من تفسير روح البيان ١٠ : ١٦٢ .

مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ
لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ
مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى

صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (١٩) و (٣٤) ﴿﴾

ثم ذم سبحانه الانسان بقوله : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ بالطبع ﴿خُلِقَ هَلُوعاً﴾ ثم فسر سبحانه الهلوع بقوله
: ﴿إِذَا مَسَّهُ﴾ وأصابه ﴿الشَّرُّ﴾ كالمرض والفقر والخوف وغيرها من البلايا كان ﴿جَزُوعاً﴾ وكثير القلق
والشكوى لضعفه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ﴾ ووصل إليه ﴿الْخَيْرُ﴾ من الصحة والغنى كان ﴿مُنُوعاً﴾ وشديد البخل
ومبالغا في الامساك لطول أمله وجهله بالقسمة ﴿إِلَّا الْمُضِلِّينَ﴾ ولكن لا مطلقا بل ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى
صَلَاتِهِمْ دَانُونَ﴾ وعلى أدائها مواظبون لا يشغلهم عنها شاغل ، لاهتمامهم على تقديم رضى الله على
رضى أنفسهم.

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « الذين يقضون ما فاتهم من الليل بالنهار ، وما فاتهم من النهار
بالليل »^(١).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَغْلُوبُونَ﴾ ونصيب معين أو جبهه على أنفسهم تقربا إلى الله
﴿لِلسَّائِلِ﴾ بالكف من الناس ﴿وَالْمَخْرُومِ﴾ ومن لا يسأل حياء وتوكلا على الله.

عن السجاد عليه السلام : « الحق المعلوم شيء يخرج من ماله ، ليس من الزكاة ، ولا من الصدقة
المفروضتين ، هو الشيء يخرج من ماله إن شاء أكثر وإن شاء أقل على قدر ما يملك ، يصل به رحما ،
ويقوى به ضعيفا ، ويحمل به كالا ، ويصل به أخا له في الله أو لنائبة تنوبه »^(٢).

وعن الصادق عليه السلام : « المحروم المحارف^(٣) الذي قد حرم كد يده في الشراء والبيع »^(٤) .
وفي رواية : « المحروم الذي ليس بعقله بأس ، ولم ييسط له الرزق ، وهو محارف »^(٥) . يعني أنهم
أهل الكسب والصنعة لا السؤال.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الدِّينِ﴾ ويؤمنون بدار الجزاء ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون
أن يصيبهم فيتعبون أنفسهم في طاعة ربهم بأداء الواجبات وترك المحرمات وبذل الأموال ،

(١) الخصال : ٦٢٨ / ١٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٢٧.

(٢) الكافي ٣ : ٥٠٠ / ١١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٢٧.

(٣) المحارف : المحروم يطلب فلا يرزق.

(٤) الكافي ٣ : ٥٠٠ / ١٢ ، التهذيب ٤ : ١٠٨ / ٣١٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٢٧.

(٥) الكافي ٣ : ٥٠٠ / ١٢ ، التهذيب ٤ : ١٠٨ / ٣١٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٢٧.

وهم مع ذلك في جميع أحوالهم خائفون لما عملوا ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ وإن بالغوا في الطاعة لجهلهم بعاقبة أمورهم وواقعياتها ، فلعلهم قصّروا فيما هو من وظائفهم ويعذبون عليه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِقُرُوبِهِمْ﴾ وسوّأهم من القبل والدبر ﴿حَافِظُونَ﴾ من نظر الغير ومسته ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ ونسائهم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من الجوّاري ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ على عدم حفظها من مسمين ^(١) ونظرهن ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ عند العقلاء وغير مؤاخذين عند الشرع ، وفيه إشعار بأنّ في ملامة العقلاء على ترك التحفّظ كفاية لا حاجة إلى نهي الشارع ﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ﴾ وطلب لنفسه ﴿وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ المذكور من الأزواج والإماء للاستمتاع ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المبتغون ﴿هُمُ الْعَادُونَ﴾ والمتجاوزون لحدود العقل والشرع الكاملون في الظلم على النفس ، ويدخل فيه الاستمناء فأنّه نكاح النفس. روي أنّ العرب كانوا يستمنون في الأسفار ، فنزلت الآية ^(٢) .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ﴾ وما يودع عندهم ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ سواء كان من العهود التي بينه وبين الله ، أو بينه وبين الناس ﴿رَاعُونَ﴾ ومجدّون في المحافظة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ﴾ ولو على أنفسهم ، أو الوالدين والأقربين ﴿قَائِمُونَ﴾ ومؤدّون حقّ الأداء ، والجمع باعتبار اختلافه الشهادات وكثرتها ، وإنّما خصّها بالذكر مع دخولها في الأمانات لكثرة فضلها. وعن ابن عباس قال : يريد الشهادة بأنّ الله واحد لا شريك له ^(٣) .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بحفظ أجزائها وشرائطها وآدابها. في الحديث : « من حافظ عليها كانت له نورا وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وإبي بن خلف » ^(٤) .

قيل : إنّ ذكر الصلاة أولاً وآخرها للإشارة بأنّها أوّل ما يجب على العبد أدائه بعد الإيمان وآخر ما يجب رعايته بعده ^(٥) .

عن الكاظم عليه السلام : « أولئك أصحاب الخمسين صلاة ^(٦) من شيعتنا » ^(٧) .

وعن الباقر عليه السلام قال : « هي الفريضة ، والذين هم على صلاتهم دائمون هي النافلة » ^(٨) .

﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ * فَمَا لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ

الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٥) و (٣٧)﴾

(١) كذا ، والظاهر : مسهّن.

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ١٦٥ و ١٦٦.

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ١٣١.

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ١٦٧.

(٥) في النسخة : أصحاب الحسين.

(٦) مجمع البيان ١٠ : ٥٣٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٢٨.

(٨) الكافي ٣ : ٢٦٩ / ١٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٢٨.

ثم بين سبحانه نتيجة أعمالهم بقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ المتصفون بتلك الصفات الكريمة مستقرون يوم القيامة ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ لا توصف بالبيان ، ولا يدرك كنهها الانسان ، وهم مع ذلك ﴿مَكْرُمُونَ﴾ بغاية الاكرام ، ومعظمون بنهاية التعظيم.

ثم روي أنّ الكفار والمشركين كانوا محلّقين حول رسول الله خلقا خلقا وفرقا فرقا ، يستمعون القرآن ويستهنؤون به ، ويقولون : إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلها قبلهم ، فنزل قوله : ﴿فَمَا لَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١) وأي حال عرضهم أنّهم ﴿قَبْلَكَ﴾ يا محمد وحولك حال كونهم ﴿مُهْطِعِينَ﴾ ومسرعين نحوك ، أو ما ذين أعناقهم إليك مقبلين بأبصارهم عليك ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ منك ﴿عَزِينَ﴾ ومجتمعين فرقا فرقا ، ومحلقين عليك خلقا خلقا. وقيل : إنّ المراد منهم المنافقون^(٢) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام - وقد ذكر المنافقين - قال : « وما زال رسول الله ﷺ يتألفهم ويقرهم ويجلسهم عن يمينه وشماله حتى أذن الله عز وجل له في إبعادهم بقوله : ﴿اهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾^(٣) » ويقول : ﴿فَمَا لَ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ...﴾ الآيات »^(٤) .

أقول : ويمكن أن يكون المراد المعنى العام.

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ * فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نَبْدَلَ خَيْرًا مِنْهُمْ * وَمَا نَحْنُ بِمَسْتُوفِينَ * فَذَرْنَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ * يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصَبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٣٨) و (٤٤)﴾

ثم أنكر سبحانه عليهم الطمع في دخولهم الجنة بقوله : ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ﴾ ونفس ﴿مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ﴾ في القيامة ﴿جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ كالمسلمين بغير إيمان ﴿كَلَّا﴾ وحاشا أن يدخلوها ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ من نطفة قدرة ، فكيف يتأهلون لدخول الجنة التي هي منزل المطهرين حتى يتطهروا بالايان والمعرفة ؟ وقيل في ارتباط الآية وجوه اخر^(٥) .

ثم بين سبحانه قدرته على إهلاك جميعهم بقوله : ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ﴾ التي تكون للشمس

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ١٣١ ، تفسير روح البيان ١٠ : ١٦٩ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ١٣١ .

(٣) المزمّل : ٧٣ / ١٠ .

(٤) الاحتجاج : ٢٣٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٢٨ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ١٣٢ .

في السنة لكل يوم مشرق ﴿و﴾ برَبِّ ﴿الْمَغَارِبِ﴾ التي تكون فيها. وقيل : جمعها باعتبار الكواكب السيارة لكل مشرق ومغرب ^(١) . أو المراد من المشرق ظهور دعوة نبي ، ومن المغرب موته.

﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ بالذات ﴿عَلَى أَنْ﴾ نخلق جميعهم عقوبة على معاصيهم و﴿نَبِّدَل﴾ منهم خلقا آخر ﴿خَيْرًا﴾ وأفضل ﴿مِنْهُمْ﴾ مكانهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ومغلوبين وعاجزين إن أردنا ذلك ، وإنما أخرنا عقوبتهم للحكم البالغة المقتضية لتأخيرها ﴿فَذَرْنَهُمْ﴾ يا محمد ودعهم ﴿يُخَوِّضُوا﴾ ويشغلوا بباطلهم من عبادة الأصنام والاستهزاء بالقرآن وإيذاء المؤمنين ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ بالدنيا وزخارفها التي لا نفع لها ، كاشتغال الأطفال بالأشغال التي لا غرض عقلائي فيها ، ويستمرروا عليها ﴿حَتَّى يَلَاقُوا﴾ ويعابنوا ﴿يَوْمَهُمْ﴾ الذي يُوعَدُونَ في الدنيا بلسانك أنهم يعدّون فيه عقوبة على كفرهم وسيئات أعمالهم ، أعني من ذلك اليوم ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ والقبور حال كونهم ﴿سَرَّاعًا﴾ وراكضين الى الداعي وهو إسرافيل ، أو إلى عرصة المحشر ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في الإسراع في السير ﴿إِلَى نُصْبٍ﴾ وأحجار نصبوها في الدنيا للعبادة أو للمسابقة إليها بالعدو ﴿يُوفِضُونَ﴾ ويسرعون أو يتسابقون حال كونهم ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ لا يرفعونها من الأرض خوفا من رؤية العذاب ﴿تَرَهَّقُهُمْ﴾ وتحيطهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ ومهانة ﴿ذَلِكَ﴾ اليوم الكثير الأهوال ﴿الْيَوْمَ﴾ الذي كانوا في الدنيا ﴿يُوعَدُونَ﴾ بلسان رسولهم ، وهم ينكرون وقوعه ويستهنؤون بالوعد به.

عن الصادق قال : « أكثروا من قراءة ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ فإن من أكثر قراءتها لم يسأله الله يوم القيامة عن ذنب عمله ، وأسكنه الجنة مع محمد ﷺ » ^(٢) .

(١) تفسير الرازي ٣ : ١٣٢ ، تفسير روح البيان ١٠ : ١٧٠ .

(٢) ثواب الاعمال : ١١٩ ، مجمع البيان ١٠ : ٥٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٢٩ .

في تفسير سورة نوح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ
يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ
دُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّضْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا
* وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ
وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ
وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (١) وَ (٩)﴾

ثم لما ختمت سورة المعارج المتضمنة لسؤال العذاب على الكفار ، وأمر الرسول بالصبر على
تكذيب المكذبين ، وبيان قدرته تعالى على إهلاك جميع الخلق ، اردفت بسورة نوح في النظم المتضمنة
لشكاية نوح من تكذيب المكذبين تسلياً للنبي ﷺ ، وسؤال نوح العذاب على الكفار ، ووقوع إهلاك
جميع الخلق بالطوفان ، فافتتحها سبحانه بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .
ثم شرع سبحانه في ذكر قصة بعثة نوح ، وكيفية دعوته وشكايته منهم ^(١) تسلياً للنبي ﷺ
بقوله : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ الذي هو أول اولي العزم من الرسل وشيخهم ، من جزيرة كان يسكنها - واسمه
عبد الغفار على ما قيل ^(٢) - ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ^(٣) وهم جميع من في الأرض ، وكانوا يعبدون الأصنام ، وقلنا
له : ﴿أَنْ أَنْذِرْ﴾ وخوف ﴿قَوْمَكَ﴾ من عذاب الله على الشرك به وعصيانه ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ﴾ من
جانب الله ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ غضبا عليهم.

(١) في النسخة : عنهم.

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ١٧١ .

(٣) زاد في النسخة : من.

قيل : بعث وهو ابن أربعين ، أو ثلثمائة وخمسين ، أو أربعمائة سنة ^(١) .

فلما جاء نوح بأمر الله إلى قومه ﴿قَالَ﴾ لهم بلين وشفقة : ﴿بَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ﴾ من قبل الله ﴿نَذِيرٌ﴾ ومخوف من سوء عاقبة الشرك بالله وعصيانه ﴿مُبِينٌ﴾ وموضح لكم ما أرسلت به ببيان يفهمه كل أحد وهو ﴿إِنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ بامثال أوامره ، ولا تشركوا به شيئا ﴿وَاتَّقُوا﴾ واحذروا من مخالفته ﴿وَأَطِيعُوا﴾ واسمعوا نصائحي ومواعظي ، فان قبلتم قولي وأجبتكم دعوتي ﴿يَغْفِرَ﴾ الله ﴿لَكُمْ﴾ ما سلف ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ ومعاصيكم كلها ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾ ويكمل عمركم المقدّر ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ووقت معين لموتكم ، ولا يعاجلكم بالعقوبة ولا يهلككم بالعذاب .

﴿إِنْ أَجَلَ اللَّهُ﴾ المقدّر لموت كل أحد مطيعا كان أو عاصيا ، وإذا حلّ الوقت المعين في اللوح المحفوظ لموت كل نفس ﴿إِذَا جَاءَ﴾ ووصل ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ ولا يغير بالزيادة ﴿لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك لسارعتهم إلى الإيمان والطاعة ، وبادرتهم إلى ما أمركم به ، لأتكم لا تدرون متى يجيء ، فلم يعتن بقوله أحد ، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى التوحيد وينصحهم بأبلغ نصح ، فلما طالبت المدّة وعارضه قومه وآذوه حتى ضاق صدره وانقطعت عنه الحيل ، ناجى ربه وشكا إليه قومه ، ﴿قَالَ رَبِّ﴾ إنك تعلم ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ إلى توحيدك وطاعتك ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ من غير توان وفتور .

قيل : كان يجيء باب البيوت في الليالي فيقرع ويقول لصاحب البيت قل لا إله إلا الله ^(٢) .

﴿فَلَمْ يَرْدَهُمْ دُعَائِي﴾ إلى توحيدك وطاعتك ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ مما دعوتهم إليه ، ونفرة مما نصحتهم به ، وامتناعا من قبول دعوتي ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى التوحيد والإقرار برسالي ﴿لَتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ذنوبهم وسيئاتهم ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ وسدّوا مسامعهم لئلا يسمعوا قولي تنفّرا منه ﴿وَاسْتَعْصَمُوا﴾ ولقوا برؤوسهم ﴿ثِيَابَهُمْ﴾ وتغطّوا بها لئلا يروني ولا أراهم ﴿وَأَصْرُوا﴾ على كفرهم ومعاصيهم ، وأقاموا عليها لجاجا وعنادا ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ وتعظّموا عن إقباحي وقبول دعوتي ﴿اسْتِكْبَارًا﴾ شديدا لا يصرفهم عنه شيء ﴿ثُمَّ إِنِّي﴾ لما رأيت أنّ ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾ سرا غير مفيدة ^(٣) هدايتهم ، دعوتهم وأجهرت في دعوتهم ﴿جَهَارًا﴾ بليغا ، وظهرت دعائي إلى الإيمان إظهارا شديدا ﴿ثُمَّ إِنِّي﴾ رأيت أنّ الإجهار وحده لا يؤثّر فيهم ﴿أَعْلَنْتُ﴾ دعوتي ﴿لَهُمْ﴾ في مجامعهم ومجالسهم ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ﴾ الدعوة في أبواب بيوتهم وفي خلواتهم ﴿إِسْرَارًا﴾ وأخفيتهم إخفاء .

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ١٧١ ، وفيه : أربعمائة وثمانين .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ١٧٤ .

(٣) في النسخة : مفيد .

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً *
وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً * مَا لَكُمْ لَا
تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ (١٠) و (١٤)

ثم لما بين مراتب دعوته بين كيفيتها بقوله : ﴿فَقُلْتُ﴾ لهم : يا قوم ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ وأسأله
ستر ذنوبكم ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿كَانَ غَفَّاراً﴾ وستاراً للذنوب ، فاذا استغفرتهم الله ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ وينزل
﴿عَلَيْكُمْ﴾ الأمطار النافعة حال كونها ﴿مِدْرَاراً﴾ وسيلا ، أو متواترا.
قيل : إن قومه قالوا : إن كان ديننا حقاً فكيف نتركه ، وإن كان باطلا فكيف يغفر لنا بعد ما
كنّا عليه دهرا طويلا ؟ فأمرهم الله بالاستغفار ، ووعدهم عليه بالعوائد الدنيوية العاجلة ، لأنّها أوقع في
قلوبهم من المغفرة (١) .

وقيل : لما كذبوا نوحا بعد تكرار الدعوه ، حبس الله عنهم قطر السماء ، وأعقم أرحام نسائهم
أربعين سنة (٢) . وقيل : سبعين ، فوعدهم نوح إن آمنوا أن يرزقهم الخصب ويدفع عنهم ما كانوا فيه (٣)
بقوله : ﴿وَيُمْدِدْكُمْ﴾ ويقوِّبكم ﴿بِأَمْوَالٍ وَيَبِينَ﴾ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ﴾ بسبب إيمانكم
واستغفاركم ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبساتين كثيرة ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ﴾ فيها ﴿أَنْهَاراً﴾ جارية تزيتها بالنبات ، وتحفظها من
البيس ، وتفرح بها القلوب.

ثم لامهم نوح على تركهم الايمان بالله بقوله : ﴿مَا لَكُمْ﴾ وأي مانع فيكم ؟ أنكم ﴿لَا تَرْجُونَ﴾
ولا تعتقدون ﴿لِلَّهِ﴾ الخالق لجميع الأشياء ﴿وَقَاراً﴾ وعظمة مقتضية لايمانكم به وخضوعكم له ﴿وَوَ﴾
الحال أنّه ﴿قَدْ خَلَقَكُمْ﴾ بقدرته ﴿أَطْوَاراً﴾ وتارات مختلفة ، خلقكم أولا ترابا ، ثم أغذية ، ثم أخلاطا ، ثم
نطفًا ، ثم علقا ، ثم مضغا ، ثم عظاما ، ثم لحوما ، ثم أنشأكم خلقا آخر .
وقيل : خلقكم صبيانا ثم شبانا ، ثم كهولا ، ثم شيوخا (٤) .

وقيل : خلقكم طولا وقصارا ، وأقوياء وضعفاء ، ومختلفين في الخلق والخلق (٥) .
وعن القمي : مختلفين في الأهواء والإرادات والمشئيات (٦) وعلى أي تقدير كلّها دالّ على قدرة
الله وحكمته ونهاية عظمته.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ١٧٦ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ١٧٦ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ١٧٧ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ١٧٨ .

(٦) تفسير القمي ٢ : ٣٨٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٣١ ، وفي النسخة : والمشتهيات ، بدل : والمشئيات .

الشَّمْسُ سِرَاجاً * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا
وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطاً * لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا
فِجَاجاً * قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا
خَسَاراً * وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا
سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا (١٥) و (٢٤) ﴿﴾

ثمّ بالغ نوح بعد الاستدلال على عظمة الله بدليل الأنفس في إثبات عظمة الله بدلائل الآفاقية بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ يا قوم ، ولم تشاهدوا ﴿كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ﴾ وأبدع بقدرته ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ عظيمة حال كونها ﴿طِبَاقًا﴾ وقببا بعضها فوق بعض ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ لأهل الأرض في ظلمة الليل. عن ابن عباس رضوان الله عليه : أنّ الشمس والقمر والنجوم وجوها مما يلي السماء ، وظهورها مما يلي الأرض ^(١) .

﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ﴾ التي في السماء الرابعة ﴿سِرَاجًا﴾ لأهل الدنيا ، يزيل بضيائها ظلمة الأرض ، كما يبصر أهل البيت بنور السراج ما يحتاجون إلى رؤيته ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ﴾ وأنشأكم ﴿مِنْ﴾ تراب ﴿الْأَرْضِ﴾ بواسطة إنشاء آدم منه ، أو بواسطة الأغذية المتكوّنة من التراب والماء ﴿نَبَاتًا﴾ وإنشاء عجيبا ، وإنّما عبّر عن الخلق بالإنبات لقوة دلالة على الحدوث ﴿ثُمَّ﴾ بعد إنباتكم من الأرض ﴿يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بالإقبار بعد الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها عند البعث والحشر ﴿إِخْرَاجًا﴾ محققا لاريب فيه للمحاسبة والمجازاة على الأعمال ﴿وَاللَّهُ﴾ العظيم القادر ﴿جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ﴾ البسيطة ﴿بِسَاطًا﴾ وفرشا واسعا تتقلبون عليها كتقلبكم على البسط ﴿لَتَسْلُكُوا﴾ وتستطرقوا ﴿مِنْهَا سُبُلًا﴾ وطرقا ﴿فِجَاجًا﴾ ومتّسعات تمشون فيها ذهابا وإيابا.

﴿قَالَ نُوحٌ﴾ بعد تلك المناجاة الطويلة وبيان كيفية دعوته : ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ وأصروا على مخالفتي ومعارضتي ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ﴾ إلّا بطرا ﴿وَوَلَدَهُ﴾ إلّا غورا ، وليس نتيجة ذلك البطر والغرور ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ وضروا عظيما في الآخرة ، فإنّ الضعفاء رأوا أنّ أتباعهم لجاههم وعزّهم بين الناس أولى وأنفع لهم من اتّباعي ، وأمّا الرؤساء [فقد] احتالوا ﴿وَمَكَرُوا﴾ في الإخلال بأمر رسالتي ﴿مَكْرًا كَبِيرًا﴾ واحتيالا عظيما بأن حرّضوا أتباعهم على سبيّ وضري وإيدائي ﴿وَقَالُوا﴾

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ١٧٨ .

لأَتْبَاعِهِمْ ﴿لَا تَذَرْنِ﴾ وَلَا تَتْرَكْنِ ﴿أَلِهَتُكُمْ وَلَا تَذَرْنِ وَدًّا وَلَا سُوعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ وَلَا تَدْعَنْ عِبَادَتَهَا.

قيل : إنّ تلك الأصنام دفنت في الطّوفان بساحل جدّه ، فأخرجها الشيطان بعد الطّوفان ، فوقع كلّ منها بيد قبيلة من العرب ، فكان ودّ لكلب بدومة الجندل ، وسواع لقبيلة همدان ، ويعوق لقبيلة مراد ، ونسر لحمير ^(١) .

وقيل : ففيت هؤلاء الأصنام بالطّوفان ، ثمّ اتخذت أمثالها وسمّوها بأسمائها وعبدها ^(٢) .

وقيل : إنّ هذه الأسماء المذكورة في السورة كانوا أبناء آدم من صلبه ، وكان يغوث أكبرهم ، وهي أسماء سريانية ، ثمّ وقعت تلك الأسماء إلى أهل الهند ، فسمّوا بها أصنامهم التي زعموا أنّها على صور الداروي ^(٣) السبعة ، وكان الجنّ يكلّمهم من جوفها ، ثمّ أدخلها عمرو بن لحي في أرض العرب ^(٤) .

قيل : كان ودّ على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويعوق على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر ، وهو طائر عظيم ^(٥) .

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ اولئك الرؤساء أو الأصنام خلقا ﴿كَثِيرًا﴾.

﴿وَلَا تَرِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ مِمَّا خَطَبَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا

لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ

دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا * رَبِّ اغْفِرْ لِي

وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَرِدِ الظَّالِمِينَ

إِلَّا تَبَارًا (٢٤) و (٢٨)

ثمّ لما عدّ نوح قبائح أعمال القوم هاج غضبه ودعا عليهم بقوله : ﴿وَلَا تَزِدْ﴾ يا ربّ الكفار

﴿الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بتعريضها للهلاك باختيارهم الشرك ، وعليك بتضييع حقوقك ﴿إِلَّا ضَلَالًا﴾

وضياعا وهلاكا ، أو ضلالا في تمشية مكرهم وترويج مصالح دنياهم ، أو لما يؤس من إيمانهم دعا عليهم

بازدياد شقاوتهم لازدياد استحقاتهم العذاب ، كما قال موسى عليه السلام ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى

يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ^(٦) .

(٢١) تفسير روح البيان ١٠ : ١٨١ .

(٣) الداروي : الكواكب .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ١٨١ و ١٨٢ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ١٨٢ .

(٦) يونس : ١٠ / ٨٨ .

ثم أخبر الله بسوء عاقبتهم بقوله : ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ العظيمة ، ومن أجل فواحشهم الكثيرة في المدة المتطاولة ﴿أُغْرِقُوا﴾ كلهم بالطوفان ﴿فَادْخُلُوا﴾ بمحض خروج الروح من أبدانهم ﴿نَارًا﴾ سجّرها القهار بغضبه في البرزخ قبل القيامة ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ﴾ حين ابتلائهم بالعذاب الدنيوي والاخروي ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومما سواه من الأصنام والأوثان ﴿أَنْصَارًا﴾ وأعوانا يدفعون العذاب عنهم بالقوة أو الشفاعة.

ثم عاد سبحانه إلى حكاية قول نوح بقوله : ﴿وَقَالَ نُوحٌ﴾ بعد يأسه من إيمان قومه واهتدائهم وتوابعهم بعدم ترك عبادة أصنامهم : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي﴾ ولا تدع ﴿عَلَيَّ﴾ وجه ﴿الْأَرْضِ﴾ بسبب إنزال العذاب ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بك وبرسولك ﴿ذِيَارًا﴾ ومتحرّكا.

ثم بيّن نوح أنّ دعاءه عليهم ليس للتشقي وهوى النفس ، بل للغضب لله بقوله : ﴿إِنَّكَ﴾ يا رب ﴿إِنْ تَذَرَهُمْ﴾ وتبقيهم على وجه الأرض كلا أو بعضا ﴿يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ المؤمنين عن طريق التوحيد والقرب إليك ، أو المراد يصدّوا عبادك عن الإيمان بك ، كما روي أن الرجل ينطلق بابنه إلى نوح ويقول له : احذر هذا الرجل ، فانه كذاب ، وإنّ أبي حدّرنه وأوصاني بمثل ذلك ^(١) .

﴿وَلَا يَلِدُوا﴾ من بعد ﴿إِلَّا فَاجِرًا﴾ ومعاديا لدينك ﴿كَفَّارًا﴾ ومصرّا على الشرك وكفران نعمك.

عن الباقر عليه السلام أنّه سئل ما كان علم نوح حين دعا على قومه أنّهم لا يلدوا إلّا فاجرا كفّارا ؟

فقال : « أما سمعت قول الله لنوح : ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ » ^(٢) .

ثمّ دعا لنفسه ولأقاربه وللمؤمنين بقوله : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ خطاياي وزلّاتي ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ ملك بن متوشلخ وشمخا بنت أنوش كانا مؤمنين ﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي﴾ قيل : يعني مسجدي ^(٣) . وقيل : يعني سفينتي ^(٤) حال كونه ﴿مُؤْمِنًا﴾ بك وموحدًا لك ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ عموما إلى آخر الدهر.

ثمّ عاد إلى الدعاء على الكفار بقوله : ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم باختيار الشرك ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾ وهاكا ودمارا.

عن الصادق عليه السلام : من كان يؤمن بالله ويقرأ كتابه ، لا يدع قراءة سورة ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ فأبى عبد قرأها محتسبا صابرا في فريضة أو نافلة أسكنه الله مساكن الأبرار ، وأعطاه ثلاث جنات مع جنته كرامة من الله وزوجه مأتي حوراء وأربعة آلاف ثيب إن شاء الله » ^(٥) .

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ١٨٤ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٢٣٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨٨ ، والآية من سورة هود : ١١ / ٣٦ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ١٨٦ .

(٤) ثواب الأعمال : ١٢٠ ، مجمع البيان ١٠ : ٥٤٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٣٣ .

في تفسير سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي
إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ
صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُ كَانَ يَفْقُولُ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنْ
تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ
بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (١) و (٦)

ثم لما ختمت سورة نوح المتضمنة لبيان إشراك جميع أهل الأرض من الإنس في عصر نوح وإيذائهم آياه وتمردهم عن الإيمان بالله وطاعته ، فأهلكهم الله بالغرق في الطوفان ، نظمت سورة الجن المتضمنة للإخبار بإيمان كثير من الجن بالتوحيد ، وانقيادهم لخاتم الأنبياء ، وتصديقهم كتابه ، وحكمهم بسفاهة المشركين ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم أمر رسوله بحكاية مقالة الجن في شأن التوحيد وعظمة القرآن بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل مكة المنكرين لصدق القرآن والتوحيد : إنه قد ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من جانب ربي واطلعت بإخبار الله تعالى ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ القرآن حين تلاوته ﴿نَفَرٌ﴾ وجماعة ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ . روي أنهم كانوا يهودا ^(١) . وقيل كانوا يهودا ونصارى ومجوسا ومشركين ^(٢) .

﴿فَقَالُوا﴾ لقومهم حين رجوعهم إليهم مع تمردهم وعدم مجانستهم للانس : يا قوم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾ من لسان رسول من الإنس ﴿قُرْآنًا﴾ وكتابا متلوا ﴿عَجَبًا﴾ وبديعا مباينا لكلام البشر في الفصاحة وحسن النظم وعلو المعنى ﴿يَهْدِي﴾ ذلك القرآن ويدل جميع الخلق ﴿إِلَى الرُّشْدِ﴾ ودين الحق ، أو إلى كل خير وصواب في امور الدين والدنيا ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ بمحض استماعه ، وصدقنا أنه كلام الله وكتابه ، وأن من أتى به رسول الله ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ﴾ بعد اليوم بدلالة ذلك الكتاب المثبت للتوحيد

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ١٥٤ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ١٥٤ ، وفيه : ومشركا .

﴿بَرِّئْنَا أَحَدًا﴾ من خلقه وشيئا من مصنوعات.

روي أنه جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال له : كُنَّا في سفر ، فاذا نحن بجيئة جريئة تتشخط في دمها ، فقطع رجل منا قطعة من عمامته فلقها فيها فدفنها ، فلما أمسينا ونزلنا أتتنا امرأتان من أحسن نساء الجنّ فقالتا : أيكم صاحب عمرو ؟ وأي الحية التي دفنتموها. فأشرنا لهما إلى صاحبها ، فقالتا : إنه كان آخر من بقي ممن استمع القرآن من رسول الله ﷺ كان بين كافري الجن ومسلميهم قتال فقتل فيهم ، فان كنتم أردتم به الدنيا ثوبناكم ؟ فقلنا : لا ، إنما فعلنا ذلك لله. فقالتا : أحسنتما وذهبتا ^(١) .

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى﴾ وارتفع ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ وعظمته ، أو غناه ﴿مِمَّا اتَّخَذَ﴾ وما اختار لنفسه ﴿صَاحِبَةً﴾ وزوجة ﴿وَلَا وَلَدًا﴾ ابنا كان أو بنتا لكمال تعاليه عن الحاجة ، فإنَّ اتَّخَذَ المصاحبة لا يكن إلاَّ للحاجة إليهما ، ولا يتَّخَذُ الولد إلاَّ لبقاء النسل والاستعانة به ، وهما ينافيان الغنى المطلق ووجوب الوجود ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ وخفاف العقول منا ، كابليس وغيره من المردة جرأة ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ العظيم القهار قولا ﴿شَطَطًا﴾ وبعيدا عن الحق ، ومتجاوزا عن حدِّ العقل ، وهو القول بأنَّ الملائكة بنات الله أو عيسى أو العزيز ابن الله ، ثم اعتدروا عن اتِّباعهم السفية في القول بقولهم : ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ واعتقدنا ﴿أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ من عند أنفسهم ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ قولا ﴿كَذِبًا﴾ أبدا ، ولذا اتَّبَعْنَاهُمْ في القول بأنَّ الله ولدا ، ولما سمعنا القرآن تبين لنا كذب هذا القول ﴿وَأَنَّهُ كَانَ﴾ قبل ذلك ﴿رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ﴾ ويلتجئون ﴿بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ قيل كان الرجل من العرب إذا أمسى في وادٍ قفر في بعض مسائره ، وخاف على نفسه يقول : أعوذ بسيد هذا الوادي من شرِّ سفهاء قومه ، يريد الجنَّ وكبيرهم ، فيبيت في أمن وجوار حتى يصبح ، فاذا سمعوا ذلك استكبروا وقالوا : سدننا الانس والجنَّ ^(٢) ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ اولئك الانس ﴿رَهَقًا﴾ وعتوا وسفها.

وعن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال : « كان الرجل ينطلق إلى الكاهن الذي يوحى إليه الشيطان فيقول : قل لشيطانك : فلان قد عاذ بك » ^(٣) .

وقيل : إن رجالا من الإنس يعوذون برجال من الجنِّ خوفا من أن يغشاهم الجنُّ ، فزادت الجنُّ في غشيانهم ، بمعنى أنَّ الجنَّ لما رأوا أنَّ الإنس يتعوذون بهم ولا يتعوذون بالله ، استذلَّوهم واجترعوا عليهم فزادوهم ظلما ^(٤) .

قيل : إنَّ المعنى فزاد الجن العائذين غيا بان أضلَّوهم حتى استعاذوا بهم ، وإذا استعاذوا بهم فآمنوا

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ١٨٩ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ١٩١ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣٨٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٣٤ .

(٤) تفسير الرازي ٣ : ١٥٦ .

ظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْجِنَّ ، فَازدادوا رغبة في طاعة الشياطين وقبول وساوسهم ^(١) .

روي عن كردم بن أبي السائب الأنصاري أنه قال : خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة ، وذلك أول ما ذكر النبي ﷺ بمكة ، فاذا في المبيت أتى ^(٢) راعي غنم ، فلما انتصف الليل جاء الذئب فحمل حملا من الغنم فقال الراعي يا عامر الوادي جارك. فنادى مناد لا نراه : يا سرحان أرسله ، فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم ولم تصبه كدمة ، فأنزل الله على رسوله بمكة : ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ ...﴾ ^(٣) إلى آخره.

وعن مقاتل : كان أول من تعوذ بالجنّ قوم من أهل اليمن ، ثم من حنيفة ، ثم فشا ذلك في العرب ، فلما جاء الاسلام عاذوا بالله وتركوهم ^(٤) .

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنَّ لَنَ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا * وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ
الآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا﴾ (٧) و (٩)

ثم إنَّ النفر من الجنّ بعد دعوتهم قومهم إلى التوحيد دعوهم إلى القول بالرسالة بقوله : ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ يا قوم ﴿ظَنُّوا﴾ لجهالتهم ﴿كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ لسفاهتكم ﴿أَنَّ لَنَ يَبْعَثَ اللَّهُ﴾ من بعد موسى ، أو بعد عيسى ، أو مطلقا من أول الخلق ﴿أَحَدًا﴾ بالرسالة ليقيم به الحجّة على خلقه ، ثم علمنا أنه تعالى بعث إلى الإنس محمدا بالرسالة فآمنوا به يا معشر الجنّ.

وقيل : إنّ المراد أنّ الانس ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله بعد الموت للحساب والمجازاة على الأعمال أحدا ^(٥) .

وقيل : إنّ الآيتين من كلام الله ، والمعنى على ذلك القول : وإنّ الجن ظنوا كما ظننتم يا كفّار قريش أن لن يبعث الله أحدا للرسالة ، كما هو مذهب البراهمة ^(٦) .

ثم حكى النفر من الجنّ لقومهم الانقلاب الحاصل في السماء بقولهم : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا﴾ وطلبنا ﴿السَّمَاءَ﴾ وصعدنا إليها لاستماع ما تقول الملائكة من الإخبار بالحوادث ، لنخبر بها الكهنة على دأبنا السابق ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ﴾ من الملائكة حال كونهم ﴿حَرَسًا﴾ وحفظة ﴿شَدِيدًا﴾ وقويا على دفعنا بمنعوننا عن القرب من السماء ﴿وَوَجَدْنَا﴾ ﴿شُهَبًا﴾ وشعلا من النار منقضة من الكواكب

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ١٩١ .

(٢) في تفسير روح البيان : بمكة ، فأذاني المبيت إلى .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ١٩١ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ١٩٢ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ١٩٢ .

(٦) تفسير الرازي ٣ : ١٥٧ .

تحرّق من قرب من السماء ﴿وَأَنَا كُنَّا﴾ قبل هذا اليوم نصعد إلى السماء و﴿نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ بعد صعودنا إليهما ﴿مَقَاعِدَ﴾ خالية من الملائكة الحفظة ﴿لِلسَّمْعِ﴾ واستراق الأخبار من الملائكة ﴿فَمَنْ يَسْمَعِ﴾ الأخبار منّا ﴿الآن﴾ وفي هذا الزمان في مقعد من المقاعد ومرصد من المراصد ﴿يَجِدُ لَهُ﴾ ويصيب لنفسه ﴿شهاباً﴾ وشعلة نار تحرقه وملكا يكون له ﴿رَصِداً﴾ وقاعدا في المكنن ليرجم بالشهاب. وقيل : يعني شهابا راصدا له ، فالرصد بمعنى الراصد ، وتوصيف الشهاب به من باب التنزيل والمشاكلة (١) .

عن عائشة ، عن النبي ﷺ : « أن الملائكة تنزل في السحاب ، فتذكر الأمر الذي قضى في السماء ، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه ، فتوحيه (٢) إلى الكهّان ، فيكذبون معه مائة كذبة من عند أنفسهم » (٣) .

وعن الصادق عليه السلام - في حديث - قال : « وأما أخبار السماء فإنّ الشياطين كانت تقعد مقاعد استراق السمع إذ ذاك ، وهي لا تحجب ولا ترجم بالنجوم ، وإنما منعت من استراق السمع لئلا يقع في الأرض سبب يشاكل الوحي من خبر السماء [فيليس على أهل الأرض ما جاءهم عن الله ، لاثبات الحجة ، ونفي الشبهة. وكان الشيطان يسترق الكلمة الواحدة من خبر السماء] ممّا يحدث من الله في خلقه ، فيختطفها ثمّ يهبط بها إلى الأرض ، فيقذفها إلى الكاهن ، فاذا قد زاد كلمات من عنده ، فيخلط الحقّ بالباطل ، فما أصاب الكاهن من خبر ممّا كان يخبر به فهو ما أبداه إليه شيطانه ممّا سمعه ، وما أخطأه فيه فهو من باطل ما زاد فيه ، فمذ منعت الشياطين عن استراق السمع انقطعت الكهانة » (٤) . وعن ابن عباس قال : كان الجنّ يصعدون إلى السماء فيستمعون الوحي ، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعا ، أما الكلمة فإنّها تكون حقّه ، وأما الزيادات فتكون باطلة. فلمّا بعث النبي ﷺ منعوا مقاعدهم ، ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك. فقال إبليس : ما هذا إلّا لأمر حدث في الأرض ، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائما يصلي (٥) الخبر.

وعن أبي بن كعب : أنّه لم يرم بنجم منذ رفع عيسى حتّى بعث رسول الله ﷺ فرمى بها ، [فرأت] قريش أمرا ما رأوه قبل ذلك (٦) .

أقول : لا يخفى أنّ الآيات الدالة على أنّ النجوم جعلت رجوما للشياطين ، وإن كانت كثيرة ، إلّا أنه

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ١٥٧ .

(٢) في النسخة : فيوقيه .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ١٩٣ .

(٤) الاحتجاج : ٣٣٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٣٥ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ١٥٨ .

لا بدّ من حملها بالنظر إلى هذه الآية والروايات على كونها مانعة من دخول الشياطين فيها لا من قريهم إليها بحيث يستمعون كلام الملائكة ، وبعد ظهور النبي ﷺ وبعثته منعوا بالشَّهَب من قريها .
وأما الاعتراض على الروايات بأنَّ الشَّهَب كامن^(١) قدّم الأيام ، كما دلّ عليه تكلم الفلاسفة فيها ، والأشعار التي حكيت من شعراء زمان الجاهلية .

فنقول : إنّ الشَّهَب التي كانت قبل البعثة فهي الحادثة من كرة النار ، والشَّهَب التي كانت تنقضّ لمنع الشياطين كانت من النجوم ، ومقتضى ذلك كثرة الشَّهَب بعد البعثة لزيادة الشَّهَب التي تحدث من النجوم على الشَّهَب التي كانت قبل ، ولذا استوحشت قريش من رؤيتها .

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا * وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنِ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ (١٠) و (١٢)

ثمّ بعد حكاية النفر من الجنّ تغيير وضع السماء قالوا لقومه : ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ﴾ من ذلك التغيير ﴿يَمَنَ فِي الْأَرْضِ﴾ من الإنس والجنّ ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ وخيرا وصلاحا .
قيل : إنّ المعنى لا ندري أنّ المقصود من إرسال محمد الذي منعنا عنده من استراق السمع أن تكذّبه أمّته فيهلكوا^(٢) كما أهلك الامم المكذّبة قبله ، أم اريد أن يؤمنوا فييهتدوا^(٣) وفي نسبة الخير إلى الله دون الشرّ رعاية الأدب .

ثمّ حكوا اختلاف فرقهم بقولهم : ﴿وَأَنَّا مِنَّا﴾ الأقوام ﴿الصَّالِحُونَ﴾ والراغبون إلى الإيمان والأعمال الخيرية ﴿وَمِمَّا﴾ قوم حالهم ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾ الحال ، وأنقص من مرتبة الكمال ، ففهمهم المقتصد والفاسق والكافر والطاغي ﴿كُنَّا طَرَائِقَ﴾ وذوي مذاهب ﴿قِدَدًا﴾ ومختلفة . وقيل : كنّا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة^(٤) ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ وتيقنا بالدليل القاطع والبرهان الساطع والتفكر في الآيات ﴿أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ﴾ عن إنفاذ إرادته في شأننا أينما كنّا ﴿فِي﴾ وجه ﴿الْأَرْضِ﴾ ومن أقطارها ﴿وَلَنِ نُعْجِزَهُ﴾ ونفوته أبدا إن أراد بنا أمرا أن نهرب من الأرض إلى السماء أو البحار أو الجبال ﴿هَرَبًا﴾ ينجيننا من سطواته ، فلا يمكننا الخروج من سلطانه ومن تحت قدرته .

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا *﴾

(١) كذا ، والظاهر : كانت من .

(٢) في النسخة : فهلكوا .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ١٥٨ ، وفيه : فنهيدوا .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ١٥٩ .

وَأَمَّا مِنَ الْمُسْلِمُونَ وَمِنَ الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا
الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا * وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ
مَاءً غَدَقًا * لِنَفْسِهِمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا
صَعْدًا (١٣) و (١٧)

ثمَّ أنّه بيّن النفر حالهم ، لترغيب غيرهم إلى الايمان بقولهم : ﴿وَأَمَّا لَمَّا سَمِعْنَا﴾ القرآن الذي يكون
﴿الْهُدَى﴾ والرشاد لأهل العالم ﴿أَمَّا بِهِ﴾ بمحض السماع ، وصدّقنا أنّه كلام الله وكتابه الذي من عمل
به نال سعادة الدارين ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ﴾ وبما أنزله من عنده ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ مثل هذا الشخص في الآخرة
﴿بِخَسَا﴾ ونقصا في جزائه ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ وغشيان ظلم أو ذلّة أو عذاب ﴿وَأَمَّا﴾ بعد استماع القرآن ﴿مِنَ
الْمُسْلِمُونَ﴾ والمستسلمون للدين الحقّ ﴿وَمِنَ الْقَاسِطُونَ﴾ والجائرون عن طريق الهدى والايمان والطاعة
﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ لأمر الله وسلّم أحكامه. وعن الباقر عليه السلام : « أقرّ بولايتنا » ^(١) ﴿فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا﴾ وطلبوا
﴿رَشَدًا﴾ وهدايه عظيمة إلى الصراط المستقيم والطريق القويم الموصل إلى جميع الخيرات الدنيوية والاخرية.
﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ﴾ والمنحرفون عن طريق الهدى ودين الحقّ ﴿فَكَانُوا﴾ في الآخرة ﴿لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾
توقد بهم نارها كما توقد بأبدان كفرة الإنس.

ثمَّ إنّّه تعالى بعدها أوحى إلى النبي ﷺ من بيانات الجنّ ودعوتهم إلى الايمان بالقرآن ، بيّن ما
أوحى ذاته المقدسة إلى النبي ﷺ بقوله : ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا﴾ وثبتوا. قيل : إنّ التقدير قل يا محمد أوحى
إليّ أنّ الشأن أنّ الجنّ والانس لو استقاموا أو ثبتوا ﴿عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ المستقيمة وهي دين الاسلام
^(٢) ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ﴾ وأشريناهم ﴿مَاءً غَدَقًا﴾ وكثيرا غزيرا. قيل : هو كناية عن سعة العيش وكثرة المال ^(٣)
﴿لِنَفْسِهِمْ﴾ ومنتحنهم في ذلك الاسقاء أو التوسيع ونختبرهم ﴿فِيهِ﴾ كيف يشكرونه.

وعن الصادق عليه السلام في تأويل الآية قال : لأفدناهم ^(٤) علما كثيرا يتعلّمونه عن الأئمة « ^(٥) .
وعن الباقر عليه السلام : « لو استقاموا على ولاية أمير المؤمنين على عليه السلام والأوصياء من ولده ، وقبلوا
طاعتهم في أمرهم ونهيهم ، لاسقيناهم ماء غدقا ، لأشرينا قلوبهم بالإيمان » ^(٦) .

(١) تفسير القمي ٢ : ٣٨٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٣٦ ، وفيها : الذين أقروا بولايتنا.

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ١٩٦ .

(٤) في النسخة : لأخذنا.

(٥) مجمع البيان ١٠ : ٥٦٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٣٦ .

(٦) الكافي ١ : ١٧١ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٣٦ .

﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ وعبادته ، أو موعظته ، أو وحيه . وعن ابن عباس : عن ولاية علي عليه السلام ^(١) ﴿يَسْئَلُكَ﴾ ويدخله ﴿عَذَاباً صَعِداً﴾ وعال على طاقته وشاق عليه .

عن ابن عباس : أن صعدا اسم جبل في جهنم ، وهو صخرة ملساء ، فيكلف الكافر صعودها ، ثم يجذب من أمامه بسلاسل ، ويضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاه في أربعين سنة ، فإذا بلغ أعلاه جذب إلى الأسفل ، ثم يكلف الصعود مرة أخرى ، فهذا دأبه أبدا ، ونظير هذه الآية : ﴿سَارِهَةٌ صُعُوداً﴾ ^(٢) .

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا * وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا

يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ (١٨) و (١٩)

ثم أخبر سبحانه بأنه أمر النبي ﷺ بالدعوة إلى التوحيد في العبادة بقوله : ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ﴾ والبيوت المبنية لإقامة الصلاة وإتيان العبادات فيها ، أو جميع وجه الأرض ، حيث قال ﷺ : « جعلت لي الأرض مسجدا » ^(٣) ، أو الأعضاء التي يجب وضعها في حال السجود على الأرض من الوجه واليدين والركبتين والاعمامين ، كما عن أمير المؤمنين والصادق والجواد عليهم السلام ^(٤) ، وعليه بعض مفسري العامة ^(٥) . ﴿لِلَّهِ﴾ خاصة لا يشركه فيها غيره من الملائكة والمسيح والعزير والأصنام ﴿فَلَا تَدْعُوا﴾ ولا تعبدوا أيها الناس ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ العظيم المستحق للعبادة ﴿أَحَدًا﴾ غيره ، وعن الكاظم عليه السلام في تأويل الآية : « أن المساجد الأوصياء » ^(٦) . وعن الرضا عليه السلام : « هم الائمة عليهم السلام » ^(٧) .

ثم حكى سبحانه تعجب الجن والمشركين من عبادة الرسول بقوله : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا﴾ قيل : إن المعنى وقد أوحى إلي أن الشأن ^(٨) لما ﴿قَامَ﴾ النبي المفترح بأنه ﴿عَبْدُ اللَّهِ﴾ في مقام العبودية لربه حال كونه ﴿يَدْعُوهُ﴾ ويعبده في منظر المشركين ﴿كَادُوا﴾ وقربوا ﴿يَكُونُونَ﴾ لتظاهروهم ﴿عَلَيْهِ﴾ وتعاونهم على عداوته ﴿لِبَدًا﴾ وكما ليطفئوا نوره ويبتلوا عبادته .

وقيل : إن الآية مما أوحى إليه ، والمعنى أنه قد أوحى إلي أنه لما قام النبي ﷺ يعبد الله بصلاة

(١) تفسير القمي ٢ : ٣٩٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٣٦ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ١٦٢ ، والآية من سورة المدثر : ٧٤ / ١٧ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ١٦٢ ، تفسير روح البيان ١٠ : ١٩٧ .

(٤) من لا يحضره الفقيه ٢ : ٣٨١ / ١٦٢٧ ، تفسير العياشي ٢ : ٤٧ / ١٢٦٩ ، الكافي ٣ : ٣١٢ / ٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٣٧ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ١٦٣ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٤٦ ، تفسير روح البيان ١٠ : ١٩٨ .

(٦) الكافي ١ : ٣٥٢ / ٦٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٣٧ .

(٧) تفسير القمي ٢ : ٣٩٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٣٧ .

(٨) تفسير روح البيان ١٠ : ١٩٨ .

الفجر ، قرب الجنّ أن يكونوا عليه مزدحمين تعجباً ممّا شاهدوا من كيفية عبادته وحسن قراءته واقتداء أصحابه به قائماً وراكعاً وساجداً ، لرؤيتهم ما لم يروا مثله ، وسماعهم ما لم يسمعوا شبيهه (١) .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ * قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا
* قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَاغًا مِنَ
اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا
أَبَدًا (٢٠) و (٢٣)﴾

ثمّ أمر سبحانه النبيّ بالإعلان بتوحيده ومخالفته لقريش بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين بغاية التجلّد ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا﴾ وأعبد ﴿رَبِّي﴾ المستحقّ للعبادة فقط ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ من الملائكة والإنس ، فيكف بالأصنام التي هي جمادات ؟ فلا موقع لتعجبكم ، أو إطباقكم على عداوتي .
روي أنّ كفّار قريش قالوا للنبي ﷺ : إنك جئت بأمر عظيم ، وقد عادت الناس كلّهم ، فارجع عن هذا ، فنزلت الآية (٢) .

ثمّ أمر سبحانه النبي ﷺ بإعلانه للمشركين بأنّ الضرر والنفع والضلال والهداية كلّها بقدرّة الله دون غيره بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين ﴿إِنِّي لَا أَمْلِكُ﴾ ولا أستطيع ﴿لَكُمْ﴾ أيّها الناس ﴿ضَرًّا﴾ ولا نفعا ولا غيا ﴿وَلَا رَشَدًا﴾ بل كلّها بيد الله وحده ، فأنّه المتصرّف في عالم الوجود دون غيره من الموجودات .

ثمّ قيل : إنّ المشركين قالوا له اترك ما تدعوا إليه ونحن نجيرك (٣) ونحفظك من أعدائك ، فأمره الله تعالى أن يجيبهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي﴾ ولن يحفظني ﴿مِنْ﴾ قهر ﴿اللَّهِ﴾ وسخطه وعذابه ، أو ممّا أراد بي ﴿أَحَدٌ﴾ من خلقه إن أشركت به أو خالفت أمره بتبليغ الرسالة ﴿وَلَنْ أَجِدَ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ وممّا سواه ﴿مُلْتَحَدًا﴾ وملجاء ومفترّ ، وحاصل المفاد أنّي لا أملك لنفسي شيئاً ، فكيف أملك لكم ولغيركم أمراً ؟ ﴿إِلَّا بَلَاغًا﴾ وتبليغا كائننا ﴿مِنْ﴾ جانب ﴿اللَّهِ﴾ الذي أمرني به بأن أقول : قال الله كذا ﴿وَوَ﴾ تبليغ ﴿رِسَالَاتِهِ﴾ التي أرسلني بها بلا زيادة ونقصان .

وقيل : إنّ المراد من البلاغ تلقّي الوحي من الله تعالى ، ومن الرسائل تبليغه إلى الخلق (٤) .

ثمّ هدّد الناس على عصيانه بقوله : ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ولم يمتثل أمرهما بالتوحيد وغيره

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ١٦٣ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ١٦٤ .

(٣) تفسير الطبري ٢٩ : ٧٦ ، مجمع البيان ١٠ : ٥٦٢ .

من الواجبات ﴿فَإِنَّ لَهُ﴾ في الآخرة ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ .
﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ * قُلْ إِنَّ
أَذْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا * عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى
غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ
رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ
شَيْءٍ عَدَدًا (٢٤) و (٢٨) ﴿﴾

ثم لما كان الكفار يستضعفون أنصار النبي ﷺ ، ويستقلّون عدد أصحابه ، فكأنّه تعالى قال :
لا يزال المشركون يستضعفون المؤمنين ويستقلّون عددهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ ماتوا و﴿رَأَوْا﴾ بعد الموت ﴿مَا
يُوعَدُونَ﴾ به من فنون العذاب ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عند حلوله بهم ﴿مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ هم أم محمد
وأصحابه .

وقيل : إنّ المراد من ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ عذاب يوم بدر ^(١) .

ثم لما قال سبحانه : ﴿إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ قال المشركون : متى يكون هذا الوعد ؟ فأمر الله تعالى
نبيّه ﷺ أن يجيبهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿إِنْ أَذْرِي﴾ وما أعلم ﴿أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ﴾ من العذاب
﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ ومدة طويلة وأجلا بعيدا ، فإنّ الله لم يعيّن وقته لحكمة رآها في إخفائه ، وهو
تعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ ومطلّع على جميع الخفايا ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ ولا يعلم ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِ﴾ ومعلوماته الخفية
﴿أَحَدًا﴾ من خلقه ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ﴾ وأحبّ إعلامه بالمغيبات ﴿مِنْ رَسُولٍ﴾ .
عن الباقر عليه السلام قال : « وكان محمد ﷺ ممّن ارتضاه » ^(٢) .

وعن الرضا عليه السلام : « فرسول الله ﷺ عند الله مرتضى ، ونحن ورثة ذلك الرسول الذي أطلعه
الله على ما يشاء من غيبه ، فعلمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة » ^(٣) .

﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ﴾ قدام الرسول المرتضى ، ويطبق ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ﴾ يجعل ﴿مِنْ خَلْفِهِ﴾ ووراء ظهره
ومن جميع جوانبه عند إعلامه بالغيب ﴿رَصَدًا﴾ وحرسا من الملائكة يحرسونه من الشياطين .
قيل : يعني إذا نزل جبرئيل بالرسالة نزل معه ملائكة يحفظونه من أن يسمع الجنّ الوحي ، فيلقونه

(١) تفسير أبي السعود ٩ : ٤٧ .

(٢) الكافي ١ : ٢٠٠ / ٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٣٨ .

(٣) الخرائج والجرائح ١ : ٣٤٣ / ٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٣٨ .

إلى الكهنة ، فتخبر به الكهنة قبل الرسول ، فيختلط على الناس أمر الرسالة ^(١) .
وقيل : يرسل الله ملائكته ليخفوه من وساوس الشياطين وتخاليطهم حتى يبلغ ما أوحى به إليه ،
ومن زحمة شياطين الإنس حتى لا يؤذونه ^(٢) .

قيل : ما بعث الله نبيا إلّا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين الذين يتشبهون بصورة الملك ^(٣) .
﴿لِيَعْلَمَ﴾ الله أنّ الأنبياء ﴿أَنْ قَدْ أُبْلَغُوا﴾ إلى الناس ﴿رِسَالَاتٍ رَبِّهِمْ﴾ خالية من الاختطاف
والتخليط بعد ما أبلغها الرّصد إليهم كذلك ﴿وَأَحَاطَ﴾ الله تعالى ﴿بِمَا﴾ عند الرّصد والرّسل و﴿لَدَيْهِمْ﴾
من الأحوال ﴿وَأَحْصَى﴾ وعلم ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ ما كان وما يكون وما هو كائن ﴿عَدَدًا﴾ حتى القطر والرمل
، فكيف لا يحيط بما لديهم.

عن ابن عباس : أحصى ما خلق ، وعرف عدد ما خلق ، لم يفته علم شيء حتى مثاقيل الذرّ
والخردل ^(٤) .

عن الصادق عليه السلام : « من أكثر قراءة ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾ لم يصبه في الحياة الدنيا شيء من أعين الجنّ
، ولا من نفثهم ، ولا من سحرهم ، ولا من كيدهم ، وكان مع محمد ﷺ فيقول : يا رب ما أريد منهم
بدلا ، ولا أريد أن أبتغي عنهم حولا » ^(٥) .

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٠٢ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ١٦٩ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ١٦٩ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٠٣ .

(٥) ثواب الأعمال : ١٢٠ ، مجمع البيان ١٠ : ٥٥٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٣٩ .

في تفسير سورة المزمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزْمَلُ * فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ
وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (١) و (٥)

ثم لما ختمت سورة الجن المتضمنة لتعظيم القرآن ، وبيان تعجب الجن منه ، واشتياقهم إليه ، وإيمانهم به ، وتهديد مكذبيه ، وبيان بعض حوادث أول بعثة الرسول ﷺ ، نظمت سورة المزمل المتضمنة لبيان عظمة القرآن ، وأمر الرسول بتلاوته وترتيله ، وتهديد مكذبي الرسول وكتابه ، وبيان حال النبي ﷺ في أوائل نزول الوحي إليه ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .
ثم ابتدأها بخطاب النبي ﷺ بصفة كانت له في أول نزول الوحي إليه تلطفاً وإيناساً ، كما هو دأب العرب بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزْمَلُ﴾ والمتلف بثيابه .

عن ابن عباس : أول ما جاء جبرئيل إلى النبي ﷺ خافه ، وظن أن به مساً من الجن ، فرجع من جبل حراء إلى بيت خديجة مرتعداً ، وقال : زمّليني ، فبينما هو كذلك إذ جاء جبرئيل وناداه : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزْمَلُ﴾^(١) .

أقول : ما قاله ابن عباس ينافي الأخبار الواصلة في بيان كيفية أول نزول جبرئيل ، وكون سورة (اقرأ) أول ما نزل .

وقيل : إنه كان نائماً متزماً بقطيفة ، فناده جبرئيل بما يهجن تلك الحالة ، والمعنى : يا أيها النائم المتزمل بثوبه ، قم واشتغل بالعبادة^(٢) .

وقيل : إنه كان متزماً في مرط لخديجة مستأنساً بها فقبل له : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزْمَلُ * فَمِ اللَّيْلِ﴾ واترك حظاً لنفسك واشتغل بالعبادة^(٣) ﴿إِلَّا﴾ مقداراً ﴿قَلِيلًا﴾ منه ، أعني ﴿نِصْفَهُ﴾ فإن النصف قليل بالنسبة

(٢١) تفسير الرازي ٣٠ : ١٧١ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ١٧١ .

إلى الكلّ.

وقيل : إنّ تقليل مقدار نومه ﷺ مع كونه نصفاً لظهور كمال الاعتناء بشأن الجزء المقارن للقيام والإيدان بفضلّه ، وكون القيام فيه بمنزلة القيام في أكثره في كثرة الشواب (١) .

عن الصادق عليه السلام قال : « القليل النصف » (٢) .

﴿أَوْ انْقُصْ﴾ القيام ﴿مِنْهُ﴾ مقدارا ﴿قَلِيلاً﴾ بحيث لا يصل إلى الثلث على ما قيل (٣) ﴿أَوْ زِدْ﴾ القيام ﴿عَلَيْهِ﴾ إلى الثلثين ، والحاصل تخيره في القيام للعبادة بين نصف الليل أو أقلّ منه أو أكثر .

وقيل : إنّ المراد من القليل الذي ينقص ويزاد نصف النصف ، فيكون الواجب عليه من القيام للعبادة ربع الليل ، والزائد نفل ومندوب (٤) .

﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ﴾ وأقرأه في أثناء قيامك في الليل على تودة وتبيين حروف ﴿تَرْتِيلاً﴾ بليغا .

وعن ابن مسعود : لا تعجلوا في القرآن ، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة (٥) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « قال أمير المؤمنين : بيّنه بيانا ، ولا تحدّه هذّ الشعر وتنثره نثر الرمل ، ولكن أفرعوا قلوبكم القاسية ، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة » (٦) .

قيل : إنّ الترتيل في القرآن قراءته بنحو يتمكّن القارئ من التأمل في حقائقه ودقائقه ، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر قلبه عظمته وجلاله ، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف ، وحينئذ يتنوّر القلب بنور المعرفة (٧) واليقين ، وتستعدّ النفس لإشراق جلال الله والانكشاف الأتمّ الأعظم ، فكأنّه تعالى قال : إنّما أمرتك بالقيام في الليل بالصلاة والعبادة وترتيل القرآن ، ليزيد استعداد نفسك لتلقّي وحيينا .

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ﴾ والبتة نوحى إليك ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ وكلاّ عظيم القدر والشأن وجليل الخطر ، كما عن ابن عباس (٨) .

وقيل : إنّ المراد قرآنا متضمّنا للأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقّة على العامة وعليك خاصة ، لأنّك تتحمّلها بنفسك وتبليغها إلى امتك (٩) .
وقيل : إنّ المراد ثقل نزوله على الرسول .

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٠٤ .

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٥٦٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٤٠ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ١٧٣ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ١٧٣ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٠٥ .

(٦) الكافي ٢ : ٤٤٩ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٤٠ .

(٧) تفسير الرازي ٣٠ : ١٧٤ .

(٨ و ٩) تفسير الرازي ٣٠ : ١٧٤ .

قيل : كان يرفض^(١) عرقا في اليوم الشديد البرد حين نزوله ، كما عن عائشة^(٢) .
وعن ابن عباس : كان إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وترتد وجهه^(٣) .
وروي أنّ الوحي نزل عليه وهو على ناقته ، فثقل عليها حتى وضعت جرائها^(٤) ، فلم يستطع أن تتحرك^(٥) .
وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « لقد نزلت عليه سورة المائدة وهو على بغلته الشهباء^(٦) وثقل عليه الوحي حتى وقفت وتدلّى بطنها حتى رأيت سرتها تكاد تمس الأرض »^(٧) .
وقيل : يعني ثقيلا في الميزان لكثرة ثواب تلاوته والعمل به^(٨) ، أو ثقيلا على المنافقين حيث إنّه يهتك أسرارهم ويطل أديانهم وأقوالهم^(٩) . أو ثقيلا على العقل لأنّه لا يفي بإدراك فوائده ودقائقه ورقائقه^(١٠) .

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلًا *
وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِلاً * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (٦) و (٩)

ثمّ بيّن سبحانه حكمة أمر نبيه ﷺ بقيام الليل والعبادة فيها بقوله : ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ والنهضة فيه ، أو العبادة فيه ﴿هِيَ﴾ خاصة ﴿أَشَدُّ وَطْناً﴾ أو أكثر كلفة ومشقة على النفس من التي تؤتى بالنهار ، فتكون أفضل ، لأنّ أفضل العبادة أشقّها ، أو أوفق بالخلوص والخشوع ، أو المراد أنّ النفس الناهضة بالليل للعبادة أشدّ ثباتا وأكثر استقامة ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ وأحسن كلاما ، كما عن ابن عباس^(١١) ، أو أحلص قولاً لأن الأصوات تهدأ فيه والحركات تنقطع فيه.
عن الصادق عليه السلام في الآية : ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ قال : « قام قيام الرجل عن فراشه يريد به الله عزّ وجلّ لا يريد به غيره »^(١٢) .

(١) أرفضّ العرق : سال وترشّش.

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ١٧٤ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ١٧٤ .

(٤) الجران : باطن عنق البعير.

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ١٧٤ .

(٦) في النسخة ، وتفسير الصافي : بغلة شهباء.

(٧) تفسير العياشي ٢ : ٣ / ١١٦١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٤٠ .

(٨) تفسير الرازي ٣٠ : ١٧٤ ، تفسير الطبري ٢٩ : ٨٠ ، مجمع البيان ١٠ : ٥٧٠ .

(٩ و ١٠) تفسير الرازي ٣٠ : ١٧٥ .

(١١) تفسير الرازي ٣٠ : ١٧٦ .

(١٢) من لا يحضره الفقيه ١ : ٢٩٩ / ١٣٦٧ ، التهذيب ٢ : ٣٣٦ / ١٣٨٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٤١ .

﴿إِنَّ لَكَ﴾ يا محمد ﴿فِي النَّهَارِ سَبْحًا﴾ وتقلِّباً ^(١) وتصرفاً أو فراغاً ﴿طَوِيلًا﴾ لحاجتك ونومك ، فعليك بالقيام للعبادة في الليل.

ثم بيّن سبحانه ما ينبغي للعبد بعد تلاوة القرآن الاشتغال به بقوله : ﴿وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ بالقلب بذكر نعمائه وكمال قدرته وحكمته وألطافه ، وباللسان بالتهليل والتحميد والتسبيح والتكبير ﴿وَتَسْتَلِّ﴾ وانقطع من الدنيا وما فيها ، بل عن غيره تعالى ﴿إِلَيْهِ﴾ وحده ﴿تَبَتُّلًا﴾ وانقطاعاً تاماً ، لا تسأل غيره في حاجة ، ولا تتوجّه في آن إلى ما سواه.

ثم مدح سبحانه ذاته المقدسة بمدح يوجب العقل الانقطاع إليه بقوله : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ وما بينهما ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود سواه ، فاذا عرفت ربك بهذه العظمة والقدرة الكاملة ﴿فَاتَّخِذْهُ﴾ واختره لنفسك ﴿وَكَيْلًا﴾ ومدبراً لجميع امورك ، ومفوضاً إليه جميع مقاصدك ، وكفيلاً بما وعدك من النصر والغلبة على أعدائك.

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي

النِّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا * إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا

أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَّهِيلًا (١٠) و (١٤)﴾

ثم سلّى سبحانه حبيبه ﷺ بقوله : ﴿وَاصْبِرْ﴾ حبيبي بعد ما اتخذني وكيلاً ﴿عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ هؤلاء المشركون فيك ، وفوّض أمرهم إليّ ، ولا تشغل قلبك باصلاح امورك الراجعة إليهم ﴿وَاهْجُرْهُمْ﴾ واترك مخالطتهم ، واصرف قلبك عن التفكّر في أمرهم ﴿هَجْرًا جَمِيلًا﴾ مقرونا بالمداواة والكفّ عن المفات ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين هم ﴿أُولِي النِّعْمَةِ﴾ والترفّ والرئاسة والتكبر ، وحل بيني وبينهم ، فاني اكا في ما أهلك من مجازاتهم ﴿وَوَ﴾ لكن ﴿مَهَلْهُمْ﴾ وآخر سؤال تعذيبهم زماناً ﴿قَلِيلًا﴾ وهو الزمان الباقي إلى يوم بدر ، أو الباقي من عمرهم في الدنيا.

عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يذكر فيه المنافقين - قال : « وما زال رسول الله ﷺ يتألّفهم ويقرّبهم ويجلسهم عن يمينه وشماله حتى أذن الله عزّ وجلّ في إبعادهم بقوله : ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ » ^(٢). أقول : لا ينافي ذلك العموم لجميع المكذّبين.

ثم بيّن سبحانه ما أعدّ لهم من العذاب في الآخرة بقوله : ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا﴾ وقيوداً ثقالاً لأرجلهم

(١) في النسخة : وتقلّبا.

(٢) الاحتجاج : ٢٥٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٤٢ .

﴿وَجَحِيمًا﴾ ونارا عظيمة شديدة الحرّ في مهواة ﴿وَوَطَعَامًا﴾ ومأكولا ﴿ذَا غُصَّةٍ﴾ وأخذ بالحلق ، لا هو نازل منه ولا خارج ، كالزّقوم والضّريع ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ غير ذلك لا يوصف بالبيان .
روي أنّه لما نزلت الآية حرّ النبي ﷺ مغشياً عليه (١) .

ثمّ عيّن سبحانه وقت النّكال والعذاب بقوله : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ وتولول ﴿الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ التي هي أوتادها ، وتضطربان بهيبة الله ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ﴾ كلّها مع غاية صلابتها ﴿كَفَيًا﴾ وتلا من رمل ﴿مَهِيلاً﴾ وسائلاً من كثرة تفتيتها .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلاً * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مَنفُطَرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا * إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (١٥) و (١٩)

ثمّ هدّد سبحانه المشركين على تكذيبهم الرسول ﷺ بقوله : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ أيّها المشركون ﴿رَسُولًا﴾ عظيم الشأن ، ليكون ﴿شَاهِدًا﴾ يشهد ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة بما صدر منكم من الايمان والكفر والطاعة والعصيان ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾ في مصر ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ سلطان مصر ﴿رَسُولًا﴾ عظيم الشأن ، وهو موسى بن عمران ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ ذلك ﴿الرَّسُولَ﴾ وكذّبه وعارضه ﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾ بسبب عصيانه ﴿أَخَذًا وَبِيلاً﴾ وعذبناه عذابا شديدا ، فاحذروا أيّها المشركون من أن ينزل عليكم بتكذيبكم رسولكم مثل ما نزل بهم ، هبوا أنكم لا تؤخذون بعصيانكم في الدنيا مثل أخذ فرعون ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ وتحفظون أنفسكم ﴿إِنْ كَفَرْتُمْ﴾ في بقية عمركم ودمتم على عصيانكم ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ﴾ من شدة أهواله وعظمة ما فيه من العذاب ﴿الْوِلْدَانَ﴾ والأطفال الصغار ﴿شِيبًا﴾ وشيوخا بيض الشعور .

قيل : هو مثل لشدة الغموم والهموم ؛ لأنّ لازمها انطفاء الحرارة الغريزية واستيلاء البلغم على الاخلاط وايضاض الشعر (٢) .

وقيل : هو كناية عن طول المدة واليوم (٣) .

ثمّ بالغ سبحانه في بيان أهوال اليوم بقوله : و ﴿السَّمَاءُ﴾ مع غاية عظمتها وغلظتها ﴿مَنفُطَرٌ﴾

بسبب

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٢١٤ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ١٨٤ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٢١٧ .

هول ذلك اليوم ، ومنشق ﴿بِهِ﴾ فكيف بغيرها من الخلائق ، واعلموا أنّ هذا اليوم الشديد الأهوال ممّا وعده الله و﴿كَانَ وَعْدُهُ﴾ لا محالة ﴿مَفْعُولًا﴾ ومنجزا ومتحققا لامتناع الخلف فيه ، فليس للعاقل أن يرتاب في وقوعه ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ المذكورات من الأنكال وما بعده ﴿تَذَكُّرَةٌ﴾ وعظة لمن شاء أن يذكر ويتعظ ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ من العقلاء النجاة من الأهوال والعذاب ، والنيل بالراحة الأبدية وعظم الثواب ﴿اتَّخَذَ﴾ وحصل ﴿إِلَى﴾ قرب ﴿رَبِّهِ﴾ ومرضاته ﴿سَبِيلًا﴾ موصلا له إلى مطلوبه ، وهو الايمان بوحداية الله تبارك وتعالى ورسالة رسوله ﷺ وطاعتهما.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَنْتَعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاَقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ (٢٠)﴾

ثمّ إنه روي أنّ الله تعالى لما فرض على النبي ﷺ وأصحابه في أول السورة قيام الليل قاموا حولا كاملا مع مشقة عظيمة ، من جهة أنه كان يعسر عليهم تمييز القدر الواجب ، حتّى قام أكثرهم الليل كلّه خوفا من الخطأ في إصابة القدر المفروض ، وصاروا بحيث انتفخت أقدامهم ، واصفرت ألوانهم ، فأنزل الله تبارك وتعالى التخفيف ^(١) بقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ من نومك ومضجعك للعبادة ﴿أَدْنَىٰ﴾ وأقلّ ﴿مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَ﴾ تقوم ﴿نُصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ امتثالا للأمر ﴿وَطَائِفَةٌ مِنْ﴾ أصحابك ﴿الَّذِينَ مَعَكَ﴾ يقومون مثل قيامك اتّباعا لك ، وأنتم لا تتمكّنون من تقدير ساعات الليل والعلم بها ﴿وَاللَّهُ﴾ وحده ﴿يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ويعلم مقدار ساعاتهما و﴿عَلِمَ أَنَّ﴾ الشأن أتكّم ﴿لَنْ تُحْصُوهُ﴾ ولا تعلمونه أبدا.

عن الباقر عليه السلام قال : « يقولون متى يكون النصف والثلث » ^(٢) .

﴿فَتَابَ﴾ الله ورجع بالترحم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بأن رخص لكم ترك القيام المقدّر ، ورفع التّبعة على تركه ، إذن ﴿فَاَقْرَءُوا﴾ أيّها المؤمنون ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ وسهل عليكم ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾ في أيّ وقت من الليل. قيل :

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٢١٨ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٣٩٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٤٣ .

يقرأ مائة آية ، فإنّ من قرأها كتب من القانتين. وقيل : خمسون. وقيل : سورة ، ولو كانت قصيرة ^(١) .
وقيل : إنّ المراد بقراءة القرآن الصلاة لاطلاق اسم ^(٢) الجزء على الكل ^(٣) .

عن ابن عباس : سقط عن أصحاب رسول الله ﷺ قيام الليل ، وصارت تطوعاً ، وبقي ذلك
فرضا على النبي ﷺ ^(٤) .

ثمّ ذكر سبحانه حكمة أخرى للنسخ بقوله : ﴿عَلِمَ﴾ الله ﴿أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ﴾ لا محالة ﴿مَرْضًى﴾
يعسر عليهم القيام بالليل ﴿و﴾ أشخاص ﴿آخَرُونَ﴾ غير المرضى ﴿يَضْرِبُونَ﴾ ويسافرون ﴿فِي﴾ أقطار
﴿الْأَرْضِ﴾ للتجارة أو طلب العلم أو غيرهما ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ ويطلبون بمسافرتهم شيئاً ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ من ربح
أو علم أو معرفة ﴿و﴾ أشخاص ﴿آخَرُونَ﴾ غير الطائفتين ﴿يَقَاتِلُونَ﴾ الأعداء ، ويجاهدون ﴿فِي سَبِيلِ﴾
الله ﴿وَلَطَلَبِ رِضَاهِ﴾ ، فاذا كان الأمر كذلك ﴿فَأَقْرُوا﴾ أيها المؤمنون بالقرآن ﴿مَا تيسَّرَ﴾ لكم وسهل
عليكم ﴿مِنْهُ﴾ بلا تحمّل مشقة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة بالليل والنهار ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ الواجبة. قيل :
هي الفطرة إن كانت الآية مكية ، والمالية إن كانت مدنية ^(٥) .

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ﴾ من أموالكم بالانفاقات المستحبة ﴿قَرْضاً حَسَنًا﴾ وهو إخراجها من أطيب
الأموال وأنفعها للفقراء بخلوص النية ، وفي التعبير بالفرض غاية الحثّ عليه من حيث تنزيل ذاته المقدسة
مع غنائها المطلق منزلة المحتاج ، والإشعار بعوده إليه مع زيادة.

ثمّ حثّ سبحانه على جميع العبادات بدنية كانت أو مالية بقوله تبارك وتعالى : ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا﴾ من
دنياكم إلى الآخرة نفعاً ﴿لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ من الخيرات وعمل من الأعمال الصالحات ، أيّ خير وعمل
كان ﴿تَجِدُوهُ﴾ بعد الموت ﴿عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ﴾ قيل : إنّ الضمير المنفصل مؤكّد للضمير المتصل ، والمعنى
تجدوه خيراً ^(٦) .

﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ من الوصية به حين الموت ، أو من الدنيا وما فيها ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من ذنوبكم
في جميع أوقاتكم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ وستار للذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده بإعطائهم الثواب العظيم.
عن الصادق عليه السلام : « من قرأ سورة المزمل في العشاء الآخرة أو في آخر الليل كان له الليل
والنهار شاهدين مع سورة المزمل ، وأحياه الله حياة طيبة ، وأماته ميتة طيبة » ^(٧) .
الحمد لله تعالى والشكر له.

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ١٨٧ .

(٢) في النسخة : لاطلاقاً لاسم.

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ١٨٦ و ١٨٧ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ١٨٧ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ١٨٧ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٢١ .

(٦) تفسير الصافي ٥ : ٢٤٤ .

(٧) ثواب الأعمال : ١٢٠ ، مجمع البيان ١٠ : ٥٦٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٤٤ .

في تفسير سورة المدثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ *

وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (١) و (٧)﴾

ثم لما ختمت سورة المزمل المبدوءة بخطاب النبي ﷺ باللقب الدال على التلطف والرحمة ، والمتضمنة للأمر بتلاوة القرآن وتعظيمه وتهديد مكذبيه ، وأمره بالصبر على تكذيبهم وإيذائهم ، اردفت بسورة المدثر المبدوءة بخطاب النبي ﷺ باللقب المشابه للقب المذكور في السورة السابقة ، وأمره بإنذار قومه وصبره على أذاهم ، وتهديد بعض المكذبين ، فافتتحها بالأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم خاطب نبيه الأكرم ﷺ بقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ واللابس لثوب يلبس فوق الثياب للنوم أو الاستدثار^(١) أو اللابس للباس النبوة. قيل : إنَّ السورة من أوائل ما نزل^(٢) . روي عن جابر عن النبي ﷺ قال : « كنت على جبل حراء فنوديت : يا محمد إنَّك رسول الله ، فنظرت عن يميني ويساري فلم أر شيئا ، فنظرت فوقي فرأيت الملك قاعدا على عرش بين السماء والأرض ، فخفت فرجعت إلى خديجة ، فقلت : دثروني دثروني وصبوا عليّ ماء باردا ، فنزل جبرئيل بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ »^(٣) . وقيل : اجتمع أبو جهل وأبو لهب وأبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وامية بن خلف والعاص بن وائل ، وقالوا : إنَّ وفود العرب يجتمعون أيام الحج ويسألوننا عن أمر محمد ، فان اجاب كلّ منا بجواب غير جواب الآخرين ، كأن يقول بعضنا : إنّه كاهن ، ويقول آخر : إنّه شاعر ، ويقول ثالث : إنّه مجنون ، فباختلاف الأجوبة يستدلّون على بطلانها ، فتعالوا نجتمع على تسمية محمد باسم واحد ، فقال واحد : إنّه شاعر. فقال الوليد : سمعت كلام عبيد بن الأبرص وامية بن أبي الصلت وما يشبهه

(١) في النسخة : الاستدثار.

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ١٨٩ ، تفسير البيضاوي ٢ : ٥٤١ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٥٤ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ١٨٩ ، تفسير أب السعود ٩ : ٥٤ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٢٣ .

كلامه كلامهما. وقال آخر إنه كاهن ، قال الوليد : من الكاهن ؟ قالوا : الذي يصدق تارة ويكذب اخرى. قال الوليد : ما كذب محمد قطّ. قال آخر : إنه مجنون. فقال الوليد : من المجنون ؟ قالوا : مخيف الناس. فقال الوليد : ما اخيف محمد قطّ. ثم قام الوليد وانصرف إلى بيته. فقال الناس : صبأ الوليد بن المغيرة ، فدخل عليه أبو جهل ، فقال : مالك يا أبا عبد شمس ؟ هذه قريش تجمع لك شيئا ، زعموا أنك احتجت وصبأت. فقال الوليد : مالي إلى حاجة ، ولكي فكرت في محمد فقلت : إنه ساحر ، لأنّ الساحر هو الذي يفرّق بين الأب وابنه ، والأخوين ، وبين المرأة وزوجها. ثم إنهم اجتمعوا على تلقيب محمد ﷺ بهذا اللقب ، وخرجوا فصرخوا بمكة والناس مجتمعون فقالوا : إنّ محمدا ساحر ، فلمّا سمع رسول الله ﷺ اشتدّ عليه ورجع إلى بيته محزونا ، فتدنّى بثوبه ، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾^(١) .

وقيل : إنه كان نائما متدنّيا بشيابه ، فجاءه جبرئيل وأيقظه ، وقال : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ كأنه قال له : قم واترك التدنّى بالثياب والنوم ، واشتغل بشغل النبوة التي أعطاكها الله^(٢) .

وقيل : إنّ التدنّى كناية عن الاختفاء ، فكأنه تعالى قال : أيّها المختفي عن الناس في جبل حراء ، المتدنّى بدثار الخمول والاختفاء ، قم بأمر الرسالة ، واخرج من زاوية الخمول ، وأنذر الناس ، واشتغل بالدعوة إلى معرفة الله^(٣) .

وعلى أيّ تقدير أمره الله سبحانه بقوله : ﴿قُمْ﴾ من مضجعك على الأول ، أو قم قيام عزم وتصميم على الوجوه الاخر ﴿فَأَنْذِرْ﴾ الناس وخوفهم من عذاب الله على الشرك والعصيان. عن ابن عباس ، قال : قم نذيرا للبشر^(٤) . ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ وعظّم من أن يكون له شريك ، أو ممّا يقوله عبدة الأوثان ، أو فاذكره بالكبرياء ، وقل : الله أكبر.

روي أنّه لما نزلت هذه الآية قام النبي ﷺ وقال : الله أكبر كبيرا ، فكبرت خديجة وفرحت وعلمت أنّه اوحى إليه^(٥) .

وروى أنّه لما نزلت كبر وأيقن أنّه الوحي ، لأنّ الشيطان لا يأمر بذلك^(٦) .

قيل : إنّ حرف الفاء زائدة^(٧) . وقيل : إنه لإفادة الشرط ، والتقدير : وأي شيء كان فلا تدع تكبيره^(٨) .

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ١٨٩ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩٠ .

(٣و٤) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩٠ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩١ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٥٤ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٢٥ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٢٥ .

(٧) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩١ .

(٨) تفسير أبي السعود ٩ : ٥٤ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٢٥ .

﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ من الأقدار بتشميرها ، كما عن الصادق عليه السلام ^(١) .
وعنه ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « غسل الثياب يذهب الهم والحزن ، ويطهور للصلاة ،
وتشمير الثياب طهورها ، وقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي فشمّر » ^(٢) .
وعن الصادق عليه السلام : « معناه : وتيابك فقصر » ^(٣) .
قيل : إنّ العرب كانوا يطيلون ثيابهم ، ويمجّرون أذبالهم خيلاء أو كبرا ، فكانت تتنجّس ، فنهى
الرسول صلى الله عليه وآله عن ذلك ^(٤) .
وروي أنّ المشركين ألقوا على رسول الله صلى الله عليه وآله سلى شاة ، فشقّ عليه ، ورجع إلى بيته حزينا ،
وتدثّر بثيابه ، فقيل : ﴿بِأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ* قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ ولا تمنعك تلك السفاهة عن الانذار ﴿وَرَبُّكَ فَكَبِّرْ﴾
من أن لا ينتقم منهم ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ عن تلك النجاسات والقاذورات ^(٥) .
وقيل : تطهير الثوب كناية عن تطهير الأخلاق وتحسينها ^(٦) . والمراد لا تحملك سفاهتهم على
ترك الإنذار ، بل حسن خلقك ، واصبر على أذاهم ولا تجزع.
﴿وَالرُّجْزَ﴾ قيل : هو الشيطان ^(٧) . وقيل : هو العذاب ^(٨) . وقيل : كلّ عمل قبيح موجب
للعذاب ^(٩) . وقيل : كلّ مستقذر ورجس ^(١٠) . وقيل : هو الأوثان ^(١١) .
﴿فَافْهَرْ﴾ وارفض ولا تقر به ﴿وَلَا تَمْنُنْ﴾ على أحد بإعطاء من مالك شيئا حال كونك
﴿تَسْتَكْبِرُ﴾ وتطلب زيادة مالك بعوض ما أعطيت ، بل كلّما تعطي شيئا لا تطمع أن يعوّضك ممّا
أعطيت أكثر منه ، فأنّه لا يليق بمقامك الرفيع ومنصبك العظيم ، لأنّ الطمع في مال الناس من أخلاق
طلاب الدنيا.
وعن الباقر عليه السلام : « لا تعط العطية تلمس أكثر منها » ^(١٢) .
وقيل : يعني لا تعط شيئا وأنت تستكثره ، بل عليك أن تستحقّره وتستقلّه ، وتكون كالمعتذر من
قلّته ^(١٣) .
وقيل : إنّ المراد لا تمنن على الناس بما تعلّمهم من أمور دينهم ، كمن يستكثر ذلك الإنعام ،
فاتّك

(١) الكافي ٦ : ٤٥٥ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٤٥ .

(٢) جمع البيان ١٠ : ٥٨١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٤٦ .

(٣) جمع البيان ١٠ : ٥٨١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٤٥ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩٢ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩١ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٢٥ .

(٧) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩٣ .

(٨) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩٣ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٢٦ .

(٩ و ١٠) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩٣ .

(١١) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩٣ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٢٦ .

(١٢) تفسير القمي ٢ : ٣٩٣ ، عن أبي الجارود ، تفسير الصافي ٥ : ٢٤٦ .

(١٣) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩٥ .

كنت مأمورا بالتبليغ فلا منة لك عليهم ^(١) .

وقيل : يعني لا تمنن بنبتك عليهم ، لتستكثر وتأخذ منهم أجرا ^(٢) .

وقيل : يعني لا تمنن على ربك بهذه الأعمال الشاقة التي امرت بها في السورة ، لكونها في نظرك

كثيرا ^(٣) .

عن الصادق عليه السلام في هذه الآية : « لا تستكثر ما عملت من خير الله تعالى » ^(٤) .

﴿وَلِرَبِّكَ﴾ المتان عليك بالنعم العظام ﴿فَاصْبِرْ﴾ على مشاق تكاليفه وأذى المشركين ، لا

الاغراض النفسانية والدنيوية كالمال والجاه.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ فذلك يومئذ يوم عسير * على الكافرين غير يسير *
ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيداً * وَجَعَلْتَ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَيْنَ شُهُوداً *
وَمَهْدَتْ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِيباً * سَأَرْهَقُهُ

صَعُوداً (٨) و (١٧) ﴿﴾

ثم إنه تعالى بعد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر ، سلى قلبه الشريف بتهديد الكفار ومعانديه بقوله تعالى :

﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ ونفخ ﴿فِي النَّاقُورِ﴾ والصّور النفخة الثانية للإحياء والنشور ﴿فَذَلِكَ﴾ اليوم الذي بين أيديهم

﴿يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ وشاق في الغاية. وقيل : يعني فذلك النقر يومئذ نقر يوم عسير ^(٥) . ﴿عَلَى

الْكَافِرِينَ﴾ لابتلائهم بالأهوال الفظيعة والشدائد العظيمة.

ثم أكّد سبحانه عسره بقوله : ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ لهم بوجه من الوجوه. عن ابن عباس : لما قال غير

يسير على الكافرين فهم أنّه كان يسيرا على المؤمنين ^(٦) .

ثم خصّ سبحانه التهديد بأشقى المكذّبين للنبي صلى الله عليه وسلم وكتابه ، وهو الوليد بن المغيرة بقوله تعالى :

﴿ذُرِّي﴾ يا محمد ، ودعني والوليد ﴿وَو﴾ هو ﴿مَنْ خَلَقْتَ﴾ حال كونه ﴿وَحِيداً﴾ لا مال له ولا

ولد ولا أعوان ، فإني أكفيكه واجازيه وأنتقم لك منه.

وقيل : إنّ المراد خلقتة حال كوني وحيدا في خلقه لا يشاركني فيه غيري ^(٧) .

وقيل : إنّ الوحيد لقب الوليد ، وكان يقول : أنا الوحيد بن الوحيد ، ليس لي ولا لأبي نظير ^(٨) .

والمعنى :

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩٤ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩٤ .

(٣) الكافي ٢ : ٣٦٢ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٤٦ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩٧ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩٨ .

(٦) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩٨ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٢٨ .

خلّ بيني وبين الوليد ، أعني وحيدا في ظنّه واعتقاده ، أو وحيدا في الشقاوة والضلالة والدناءة^(١) ، أو وحيدا لا يعرف له أب ، لأنّه كان حقيقا بقريش.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ﴾ في هذه الدنيا ﴿مَالاً مَمْدُوداً﴾ يأتيه شيئا فشيئا على الدوام كالضّرع والزّرع والتجارة.

وعن ابن عباس قال : كان ماله ممتدّا ما بين مكة إلى الطائف [من] البساتين التي لا ينقطع نفعها شتاء وصيفا ، والإبل والخيل^(٢) .

وقيل : إن الممدود كناية عن الكثير الذي يمتدّ تعدّده^(٣) .

﴿وَبَيْنَ﴾ كانوا كلّهم ﴿شُهُوداً﴾ وحضورا عنده لا يفارقونه ، أو شهودا معه في المجمع والمحافل.

قيل : كانوا عشرة^(٤) . وقيل : سبعة منهم خالد بن الوليد^(٥) .

﴿وَمَهْدُ﴾ وبسّط ﴿لَهُ﴾ الرئاسة والجاه في قريش ، وفي العيش والعمر ﴿تَمْهِيداً﴾ وبسّطا عجيبا ، فأتممت عليه النعم الدنيوية ﴿ثُمَّ﴾ إنّ مع ذلك ﴿يَطْمَعُ﴾ من شدّة حرصه على الدنيا ﴿أَنْ أَرْبِدَ﴾ على ما اعطيته حاشا و ﴿كَلا﴾ كيف يطمع [في] ذلك.

ثمّ كانه قيل : لم لا يطمع ولا يزداد ؟ فأجاب سبحانه بقوله : ﴿إِنَّهُ﴾ لخبث ذاته ﴿كَانَ لَا يَأْتِنَا﴾ ودلائل توحيدنا ومعجزات رسولنا وإبراهيم البعث والقيامة من قديم الأيام ، أو آياتنا القرآنية ﴿عَبِيداً﴾ ومبغضا ومعارضيا بلسانه ، وإن كان معتقدا بقلبه ، ولذا ﴿سَأَرْهُقُهُ﴾ واغشيه واكلفه كرها بل^(٦) ما يطعمه في الدنيا ﴿صَعُوداً﴾ وارتقاء عقبه شاقة المصعد بحيث تغشاه الشدّة والعذاب من كلّ جانب.

عن النبي ﷺ : « الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفا ثمّ يهوي كذا أبدا »^(٧) .

وقيل : إنّ اسم عقبة في النار ، كلّما وضع يده عليها ذابت ، فاذا رفعها عادت^(٨) .

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ
وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ * وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ

(١) في النسخة : والذئامة.

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩٨ و ١٩٩ ، وقد المصنف خلط بين قول ابن عباس ومقاتل ، تفسير أبي السعود ٩ : ٥٦ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩٩ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩٩ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٥٦ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٢٨ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ١٩٩ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٥٦ .

(٦) كذا ، والظاهر : بدل ، راجع تفسير روح البيان ١٠ : ٢٢٩ .

(٧) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٠٠ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٥٧ .

(٨) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٠٠ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٥٧ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٢٩ .

البَشَر (١٨) و (٢٥)

ثم بيّن سبحانه كيفية عناده بقوله : ﴿إِنَّهُ﴾ لعنه الله ﴿فَكَرَّ﴾ في القرآن وتدبر ﴿وَقَدَّرَ﴾ ورتّب في خواطره كلاماً لصرف الناس عنه.

ثم أظهر سبحانه التعجّب من قوة فكره وتهيئة ردّه بقوله : ﴿فَقُتِلَ﴾ اللعين ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ورتّب هذا الكلام وقيل : إنّ مدح كلامه على سبيل الاستهزاء ، والمراد إظهار أنّه في غاية الركاكة ^(١) .
ثم بالغ سبحانه في إظهار التعجّب من كلامه بقوله : ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ورتّب كلامه الكذب من قبل نفسه ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ فيما قدّر.

قيل : فكّر أولاً وقدّر الكلام ثانياً ، ثمّ نظر وتأمل في ذلك المقدّر احتياطاً ثالثاً ^(٢) أو نظر في القرآن ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ وقطب وجهه من الغضب والعناد حيث رأى نفسه عاجزاً عن ردّه وإبطاله ﴿وَبَسَرَ﴾ وتغيّر وجهه واسودّ ، أو قيص ما بين عينيه ، أو استعجل في عبوسه وأظهره في غير موقعه.
﴿ثُمَّ أَذْبَرَ﴾ عن الحقّ ، وأعرض عنه ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ عن أتباعه ﴿فَقَالَ﴾ عقيب إعراضه واستكباره : ﴿إِنْ هَذَا﴾ القرآن الذي جاء به محمد ، وما هذا الكلام الذي يتحدّى به ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ ويتعلّم من الغير ، وليس هو بكلام الله ﴿إِنْ هَذَا﴾ وما ذلك ﴿إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ .

قيل : إنّ مراده من البشر يسار وجبير ، كانا عبيدين من فارس ، وكان النبي ﷺ يراودهما ، وأبوه فكيهة كان غلاماً رومياً يتردّد إلى مكّة من طرف مسيلمة الكذاب في اليمامة ^(٣) .

روي أنّ الوليد مرّ بالنبي ﷺ وهو يقرأ حم السجدة ^(٤) - وقيل : فواتح حم المؤمن ^(٥) - فقال لبني مخزوم : والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجنّ ، إنّ له لحلاوة ، وإنّ عليه لطلاوة ، وإنّ أعلاه لمثمر ، وإنّ أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه. فقالت قريش صبا والله الوليد ، لتصبأً قريش ، أي بمتابعته فقال ابن أخيه أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فقعد عنده حزينا ، وكلّمه بما أغضبه ، فقال الوليد : ألم تعلم قريش أنا أكثرهم مالا وولداً إلى أن قال : أتزعمون أنّ محمداً مجنون ، فهل رأيتموه أنّه يخلق ؟ فإنّ العرب كانت تعتقد أنّ الشيطان يخلق الجنون ويتخبّطه ، أو تقولون : إنّّه كاهن ، فهل رأيتموه يتكهّن ؟ أو تزعمون أنّه شاعر ، فهل رأيتموه يتعاطى الشعر قطّ ؟ أو تزعمون أنّه كذاب ، فهل جرّيتم عليه شيئاً من الكذب.

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٠٠ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٢٩ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٠٠ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٣١ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٠٢ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٢٩ .

فقالوا في كل ذلك : اللهم لا تمّ قالوا : فما هو ؟ وما تقول في حقّه ؟ ففكّر فقال : ما هو إلّا ساحر ، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، وما الذي يقوله إلّا سحر يأتريه عن مسيلمة وعن أهل بابل ، فارتجّ النادي فرحا ، فتفرّقوا متعجبين منه راضين به ^(١) .

وعن القمي : نزلت في الوليد بن المغيرة : وكان شيخا كبيرا مجربا من دهاة العرب ، وكان من المستهزئين برسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ يقعد في الحجرة ويقرأ القرآن ، فاجتمعت قريش إلى الوليد بن المغيرة ، فقالوا : يا أبا عبد شمس ، ما هذا الذي يقول محمد ، أشعر ، أم كهانة ، أم خطب ؟ فقال : دعوني أسمع كلامه ، فدنا من رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد ، أنشدني من شعرك ، فقال : « ما هو شعر ، ولكنّه كلام الله الذي ارتضاه لملائكته وأنبيائه ورسله » فقال : اتل عليّ منه شيئا فقرأ عليه رسول الله ﷺ : حم السجدة ، فلما بلغ قوله : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ * يا محمد قريش ﴿فَقُلْ أَندَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ ^(٢) فاقشعر الوليد ، وقامت كلّ شجرة في رأسه ولحيته ، ومرّ إلى بيته ، ولم يرجع إلى قريش من ذلك.

ومشوا إلى أبي جهل فقالوا : يا أبا الحكم ، إنّ أبا عبد شمس صبا إلى دين محمد ، أما تراه لم يرجع إلينا. فعدا أبو جهل إلى الوليد ، وقال له : يا عم ، نكّست رؤوسنا وفضحتنا ، وأشمت بنا عدوّنا ، وصبوت إلى دين محمد ! فقال : ما صبوت إلى دينه ، ولكيّ سمعت كلاما صعبا ، تقشعرّ منه الجلود. فقال له أبو جهل : أخطب هو ؟ قال : لا. إنّ الخطب كلام متصل ، وهذا كلام منثور ، ولا يشبه بعضه بعضا. قال : أفشعر هو ؟ قال : لا ، أما اتّ سمعت أشعار العرب بسيطها ومديدها ورملةا ورجزها ، ما هو بشعر. قال : فما هو ؟ قال : دعني أفكّر فيه.

فلما كان من الغد قال له : يا أبا عبد شمس ، ما تقول فيما قلنا ؟ قال : قولوا هو سحر ، فأنّه أخذ بقلوب الناس ، فأنزل الله على رسوله : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ * وإنا سميّ وحيدا لأنّه قال لقريش : أنا أتوحد بكسوة البيت سنة ، وعليكم في جماعتكم سنة. وكان له مال كثير وحدائق ، وكان له عشر بنين بمكّة ، وكان له عشرة عبيد ، عند كلّ [عبد] ألف دينار يتجر بها ^(٣) .

﴿سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَاحِةً لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً

(١) جوامع الجامع : ٥١٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٤٨ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٥٧ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٢٩ .

(٢) فصلت : ٤١ / ١٣ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٣٩٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٤٧ .

لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ تَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدُّوا الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا
يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ
وَمَا يَعْلَمُ خُتُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ * كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا
أُدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَصْفَرَ * إِنَّهَا لَإِخْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لِمَن شَاءَ
مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٢٦) و (٣٧) ﴿﴾

ثم فسّر سبحانه تهديده بإرهاقه الصعود بقوله : ﴿سَأُصْلِيهِ﴾ وادخله عنفا وجبرا ﴿سَقَرُ﴾ وجهنم .
قيل : إن سقر أحد أسماء جهنم ^(١) . وعن ابن عباس : أنه اسم للطبقة السادسة من جهنم ^(٢) .
ثم بالغ سبحانه في التهويل بقوله : ﴿وَمَا أَذْرَاكَ﴾ وأي شيء أعلمك يا محمد ﴿مَا سَقَرُ؟﴾ فإنّ
العلم بما وبوصفها وشدة حرّها خارج عن إدراك العقول في هذا العالم ، إنّما الممكن من إدراكها أن يقال :
إنّما ﴿لَا تَبْقَى﴾ ممّا ألقى فيها شيئا بل تهلكه بالإحراق ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ هالكا حتّى يعاد .
عن ابن عباس : أنّها لا تبقي من الدم واللحم والعظم شيئا ، فاذا اعيدوا خلقا جديدا لا تذر أن
تعاود إحراقهم بأشدّ ممّا كانت ، وهكذا أبدا ^(٣) ، ولا تبقي من المستحقّين للعذاب إلّا عذبّتهم ، ثمّ لا
تذر من أبدان أولئك المعذبّين شيئا إلّا أحرقتهم .
وقيل : يعني لا تبقي من أبد ان المعذبّين شيئا ، ولا تذر من قوّتها وشدّتها شيئا إلّا أعملت تلك
القوة والشدة في تعذيبهم ^(٤) .

وقيل : إنّ الجملتين مترادفتان ذكرا للتأكيد ^(٥) .

وتلك الجحيم ﴿لَوَاحِةً﴾ وظاهرة ﴿لِلْبَشَرِ﴾ وبني آدم من مسيرة خمسين عام ، ويصل إلى الكافر
سمومها وحورورها ، كما يصل إلى المؤمن ريح الجنة ونسيمها من تلك المسافة ، كذا قيل ^(٦) . وقيل : إنّ
المعني مغيرة لظاهر الجلد ^(٧) ويصير لوّنها أسود كالليل المظلم ، ومأمور من قبلنا بتنظيم امور سقر ، وموكل
﴿عَلَيْهَا﴾ ومسلط على أهلها ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ من الملائكة الغلاظ الشداد . قيل : أعينهم كالبرق ، وأنياهم
كالصياصي ، وأشفارهم تمسّ أقدامهم ، يخرج لهب النار من أفواههم ، ما بين منكبّي كلّ منهم مسيرة
سنة ، كفّ أحدهم يسع مثل ربيعة ومضر ، نزع من الرأفة والرحمة ، رئيسهم

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٣١ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٠٢ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٣١ .

(٣-٥) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٠٢ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٣١ .

(٧) تفسير أبي السعود ٩ : ٥٨ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٣١ .

مالك (١) .

ثم روي أنه لما نزلت الآية قال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمهاتكم ، قال ابن أبي كبشه أن خزنة النار تسعة عشر ، وأنتم الجمع العظيم أيعجز (٢) كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ؟ فقال أبو الأشد أو أبو الأسود - بن أسيد بن كلدة الجمحي ، وكان شديد البطش : أنا أكفيكم سبعة عشر ، وأكفوني أنتم اثنين. فلما قال أبو جهل وأبو الأشد - أو أبو الأسود - ذلك قال المسلمون : ويحكم لا تقاس الملائكة بالحدادين أي السحانين. فنزلت ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ﴾ (٣) وخزنتها الذين يقومون بأمرها ﴿إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ وكل واحد منهم أقوى من جميع الإنس والجن ، وأطوع لأوامر الله ، وليس لهم رافة بالثقلين لمخالفتهم إياهم في الجنس.

عن النبي ﷺ قال : « لقوة أحدهم مثل قوة الثقلين ، يسوق أحدهم الامة وعلى رقبته جبل فيرمي بهم في النار ، ويرمي بالجبل عليهم » (٤) .

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا﴾ العدد الذي يكون ﴿فِتْنَةً﴾ وسببا لزيادة الكفر ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصروا على كفرهم وعنادهم ، وما أخبرنا بعددهم الا ﴿لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى بصحة نبوة محمد ﷺ وصدق كتابه ، لما شاهدوا من موافقته لكتبهم من أن محمدا امي لم يقرأها ولم يسمع شيئا من علمائهم ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ وكتابه ﴿إِيمَانًا﴾ ويقينا بهما بما رأوا من تصديق أهل الكتاب ما في القرآن.

روي أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن خزنة النار وعددهم ، فأجاب ﷺ بأنهم تسعة عشر (٥) .

﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ ولا يعترهم الشك بعد يقينهم بنوة محمد ﷺ وصدق كتابه ، ولا تعرض لهم (٦) شبهة ما ، بل يكون يقينهم يقينا ثابتا جازما ﴿وَلِيَقُولَ﴾ المنافقون ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ الكفر والنفاق والشك ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ المتجاهرون بالكفر المصرّون عليه استهزاء بالقرآن وإنكار الآية من عند الله : ﴿مَا ذَا﴾ وأي شيء ﴿أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا﴾ العدد الذي عين لخزنة جهنم ؟ وهو العدد الناقص عن العقد ، ولم يقل عشرون أو ثلاثون ، فهو يكون ﴿مَثَلًا﴾ في الغرابة ﴿كَذَلِكَ﴾ الذي ذكرنا من هداية أهل الكتاب ، وازدياد يقين المؤمنين بنزول هذه الآية ، وإضلال الكافرين والمنافقين ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ إضلاله على خبث طبيئته وذمائم أخلاقه

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٠٣ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٣١ و ٢٣٢ .

(٢) في النسخة : أيفجر .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٠٣ .

(٤) تفسير أبي السعود ٩ : ٥٩ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٣٣ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٣٤ .

(٦) في النسخة : ولا يعرضهم .

وسيات أعماله ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته بمقتضى طيب طبيئته وحسن نيته وأخلاقه ، وإنما يكون اختيار هذا العدد القليل لخزان جهنم لحكمة مقتضيه لذلك ، لا لقلّة الملائكة الذين هم جنود الله ، فإنهم من كثرتهم بحيث لا يحصون ^(١) ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة وسائر الموجودات ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى ، فهو قادر على أن يكثر عدد الخزنة ، بل لكل واحد منهم أعوان من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله ، وليست عدّة الخزنة ، أو سقر ، أو تلك الآيات ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى﴾ وعظة ﴿لِلْبَشَرِ﴾ كافة ولبنى آدم عامة.

﴿كَأَلَّا﴾ لا يتذكرون بتلك الذكريات ^(٢) والمواعظ إلا العقلاء وأهل الإيمان ، أو المراد ليس لأحد مجال إنكار سقر ﴿وَالْقَمَرِ﴾ المضيء الذي تعرف به الأوقات والآجال ، وتظهر به عجائب الصنع وكمال قدرته في حركاته المختلفة التي هي مع كثرتها واختلافها على نظام واحد. وقيل : يعني أقسم بخالق القمر ^(٣) .

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ وحين ذهب وانقضى ، كما عن ابن عباس ^(٤) . ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ وأضاء ، وهو من الأوقات الشريفة التي يظهر فيها قدرة الله ورحمته ﴿إِنَّهَا﴾ قيل : إن الضمير راجع إلى سقر ^(٥) ، والمعنى أقسم بهذه الأيمان المذكورة أنّ سقر ﴿لِإِخْدَى﴾ الطبقات ، أو الدواهي ﴿الْكَبَرِ﴾ والعظام ، والطبقات الآخر لظى والحطمة والسعير والجحيم والهاوية وجهنم.

وقيل : إنّه راجع إلى الزبانية التسعة عشر ، والمعنى أنّ التسعة عشر من إحدى الحجج العظام على قدرة الله على تعذيب جميع العصاة من بدو الخلقة إلى آخر الدهر بعدة قليلة من الملائكة ^(٦) ، وجعلنا ذلك ﴿نَذِيرًا﴾ وخوفا أو انذارا وتخويفا ﴿لِلْبَشَرِ﴾ أعني ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أَنْ يَتَّقَدَّمَ﴾ ويسبق إلى الخيرات بهداية الله تعالى ﴿أَوْ﴾ لم يشأ و﴿يَتَأَخَّرَ﴾ ويكف نفسه عنه باضلال الله.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ *
عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ
نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ *
حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٣٨) و (٤٧) ﴿﴾

(١) في النسخة : لا يحصى.

(٢) في النسخة : الذكريات.

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٣٨ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٠٨ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٠٩ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٣٨ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٣٨ .

أيها الناس اعلّموا أنّه ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس رجلا كان أو امرأة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ وعملت في الدنيا لآخرتها ﴿رَهِيْنَةً﴾ عند الله ومحبوسة بسيئاتها ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ وذوي الأعمال الصالحة من المؤمنين ، فإنّهم - بامتنال ما عليهم من التكليف ، وأداء حقوق الله إليه ، وبإبراء ذمهم من الواجبات وترك المحرّمات - فاكّون رقابهم كما يفكّ الراهن رهنه بأداء دينه.

وقيل : إنّ المراد بهم أطفال المسلمين ^(١) فهم ﴿فِي جَنّاتٍ﴾ وهم لما يعرفوا في الدنيا التكليف والذنب ﴿يَتَسَاءَلُونَ* عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين يروّهم في جهنّم ، ويقولون لهم : ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ وأي شيء حبسكم ، أو أدخلكم ﴿فِي﴾ دركة ﴿سَقَرٍ﴾ وقال القائلون بالقول الأول : إنّ المؤمنين لسال بعضهم بعضا عن المجرمين : أين هم ؟ فلمّا رأوهم قالوا لهم : ما سَلَكَكُمْ في سقر ؟ ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم : إنّنا ﴿لَمْ نَكُ﴾ في الدنيا ﴿مِنَ﴾ جملة ﴿الْمُصَلِّينَ﴾ والمؤدّين للصلاة الواجبة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا [عليها] واستكثروا منها ، وتقربوا بها ، فإنّها كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ، ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سئلوا : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ* قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ » ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « اعني لم نك من أتباع الأئمة الذين قال الله تعالى لهم : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ* أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ » ^(٣) أما ترى الناس يسمّون الذي يلي السابق مصليا ، فذلك الذي [عني] حيث قال : ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ أي لم نك من أتباع السابقين » ^(٤) .

وعن الكاظم عليه السلام قال : « يعني أنّا لم نتولّ وصيّ محمد ﷺ والأوصياء من بعده ، ولم نصلّ عليهم » ^(٥) .

أقول : هاتان الروايتان تأويل لا تفسير.

﴿وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ﴾ ولم نعظمهم الزكاة الواجبة ، أو المراد نبخل بأموالنا ﴿وَكُنَّا﴾ في الدنيا ﴿نُخْوضُ﴾ ونشرع في الأقوال الباطلة ، كذمّ النبي ﷺ والاستهزاء به وبكتابه ﴿مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ والشارعين فيها ﴿وَكُنَّا﴾ مع جميع ذلك ﴿نُكَذِّبُ بَيُّومَ الدِّينِ﴾ ونحدد دار الجزاء ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ وأدركنا الموت.

﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ* فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُغْرِضِينَ* كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٢١٠ .

(٢) نهج البلاغة : ٣١٦ الخطبة ١٩٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٥١ .

(٣) الواقعة : ٥٦ / ١٠ و ١١ .

(٤) الكافي ١ : ٣٤٧ / ٣٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٥١ .

(٥) الكافي ١ : ٣٦٠ / ٩١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٥١ .

مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسُورَةٍ (٤٨) و (٥١)

ثم لما حكى سبحانه سبب استحقاق المجرمين للعقاب ، بيّن عدم المانع من تعذيبهم بقوله تعالى : ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ﴾ لدفع العذاب ﴿شَفَاعَةُ﴾ جميع الأنبياء والأوصياء والأولياء ﴿الشَّافِعِينَ﴾ للعصاة ، لو فرض محالاً بشفاعتهم لهم ، لا شراط قبولها بقابلية المشفوع له للشفاعة ، ولا قابلية للكفار لها ، فإذا كان هذا حال المكذّبين بالقرآن ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ وأي داع دعاهم إلى أن يكونوا ﴿عَنِ﴾ القرآن الذي هو عين ﴿التَّذْكَرَةِ﴾ والموعظة للناس لشدة لزومه لها ﴿مُعْرِضِينَ﴾ مع تعاضد موجبات الإقبال عليه ، وتأكد الدواعي للإيمان به والاتعاظ منه ، والعجب مع ذلك أنهم يفرّون من استماع القرآن ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾ وحشية كما عن ابن عباس ^(١) ﴿مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ وهاربة ﴿فَرَّتْ﴾ وهربت ﴿مِنْ قَسُورَةٍ﴾ عن ابن عباس : القسورة : الأسد بلسان الحبشة. وقال : الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت ، كذلك المشركون إذا رأوا محمداً ﷺ هربوا منه ^(٢) .

وقيل : القسورة : جماعة الرماة الذين يتصيدون الحمر ^(٣) . وقيل : ركز الناس وأصواتهم ^(٤) وفيه غاية ذمهم وتهجين حالهم وشهادة عليهم بالبلد ^(٥) حيث إنّه لا نفار مثل نفار الحمر الوحشية واطرادها في العدو إذا خافت من شيء.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً * كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ * كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ

التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٢) و (٥٦)

ثم لما قال سبحانه : ما لهم يعرضون عن النبي ﷺ ، أو القرآن ، بيّن سبب ذلك بقوله : ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ﴾ ورجل ﴿مِنْهُمْ﴾ ويتوقع كل فرد من أفرادهم ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ من جانب الله ﴿صُحُفًا﴾ وكتبا ﴿مُنَشَّرَةً﴾ ومفتوحة.

وروي أنّ أبا جهل وعبد الله بن أمية وأصحابهما قالوا لرسول الله ﷺ : لن نتبعك حتى تأتي كل واحد منّا بكتب ، أو قالوا : يصبح عند رأس كل رجل منّا أوراق منشورة ، عنوانها : من رب العالمين إلى فلان بن فلان ، نؤمر فيها باتّباعك ^(٦) .

(٢١) تفسير الرازي ٣٠ : ٢١٢ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٢١٢ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٤١ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ٢١٢ .

(٥) في تفسير الرازي : بالبله. والبلد : قلة الذكاء. والبله : ضعف العقل وغلبة الغفلة.

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٤٢ .

وقيل : قالوا : إن كان محمد صادقا ، فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءة من النار^(١) .

﴿كَلَّا﴾ لم يقولوا هذه الكلمات ، ولم يقترحوا تلك الآيات لرفع الشبهة ﴿بَلْ﴾ للعناد واللجاج ﴿لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ وشدائدها ، لأنهم ينكرونها ويستغرقون في حب الدنيا وشهواتها ﴿كَلَّا﴾ ليس لأحد أن يعرض عن القرآن حيث ﴿إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ بليغة كافية ، وموعظة شافية لأهل العالم ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ الذكر والعظة ﴿ذَكَرَهُ﴾ واتَّعَظَ به ، وجاز به خير الدارين .

وقيل : إنَّ الضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ و﴿ذَكَرَهُ﴾ راجع إلى التذكير في قوله : ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ لأنَّها في معنى الذكر والقرآن^(٢) .

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ ولا يتَّعَظُونَ ولا يهتدون به ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ تذكَّروهم واتَّعَظَهم ، أو هدايتهم به ، وفيه دلالة على أنَّه بمشيئة الله وإرادته العبد ، لأنَّه لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين ، كما حقَّقناه في أوائل البقرة .

ثمَّ وصف سبحانه ذاته المقدَّسة بما يوجب الخوف والرجاء بقوله : ﴿هُوَ﴾ تعالى ﴿أَهْلُ التَّقْوَى﴾ وحقيق بأن يخاف منه ومن عقابه على ترك الإيمان وطاعته ، لأنَّه ذو انتقام وشديد العقاب ﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ وحقيق بأن يغفر لمن آمن به وأطاعه .

عن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال : « قال الله تبارك وتعالى : أنا أهل أن أتقى ولا يشرك بي عبدي شيئا ، وأنا أهل إن لم يشرك بي عبدي شيئا أن أدخله الجنة » . وقال عليه السلام : « [إن الله تبارك وتعالى] أقسم بعزته وجلاله أن لا يعذب أهل توحيده بالنار أبدا »^(٣) .

عن الباقر عليه السلام : « من قرأ في الفريضة سورة المدثر ، كان حقا على الله عزَّ وجلَّ أن يجعله مع محمد ﷺ في درجته ، ولا يدركه في الحياة الدنيا شقاء أبدا إن شاء الله تعالى »^(٤) .

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٢١٢ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٢١٣ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٤٢ .

(٣) التوحيد : ٢٠ / ٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٥٢ .

(٤) ثواب الأعمال : ١٢٠ ، مجمع البيان ١٠ : ٧٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٥٢ .

في تفسير سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ

نَجْمَعَ عِظَامَهُ (١) و (٣)﴾

ثم لما ختمت سورة المدثر المتضمنة لبيان بعض أهوال القيامة وبيان عظمة القرآن ، وأنّ مكذّبيه لا يخافون الآخرة ، نظمت سورة القيامة المتضمنة لبيان بعض آخر من أهوال القيامة ، وبيان عظمة القرآن المجيد ، وأنّ مكذّبيه يحبّون العاجلة ويذرون الآخرة ، وغير ذلك من المناسبات بين السورتين الشريفتين ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله تبارك وتعالى : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم شرع سبحانه في إثبات المعاد بقوله : ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ على وقوع المعاد ﴿بِیَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ﴾ عليه ﴿بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ لعظمة شأنهما وعدم الحاجة في وقوعه إلى القسم لوضوحه . وقيل : إنّ حرف ﴿لَا﴾ زائدة للتأكيد ^(١) . والمعنى أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة أنكم لتبعثنّ .

عن ابن عباس : كلّ نفس تلوم نفسها يوم القيامة [سواء] كانت فاجرة أو برّة ، أمّا البرّة فلاجل أنّها لم تزد على طاعتها ، وأمّا الفاجرة فلاجل أنّها لم تشتغل بالتقوى ^(٢) .

وقيل : إنّ المراد النفوس المتقية التي تلوم النفس العاصية يوم القيامة ^(٣) .

وقيل : إنّ المراد النفوس الشريفة التي تلوم نفسها وإن اجتهدت في الطاعة ^(٤) .

وقيل : إنّها النفوس الشقية ، فإنّها تلوم نفسها إذا شاهدت أهوال القيامة ^(٥) . قيل : وجه المناسبة

بين المقسمين أنّ ظهور شدّة اللوم يكون في ذلك اليوم ^(٦) .

ثم أنكر سبحانه استبعاد البعث أو امتناعه أو أظهر التعجّب منه بقوله : ﴿أَيَحْسَبُ﴾ ويتخيّل

﴿الْإِنْسَانُ﴾ العاقل ﴿أَلَنْ﴾ نقدر على أن ﴿نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ بعد موته . عن ابن عباس : أنّ المراد

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٢١٤ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٤٣ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٢١٥ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٢١٦ .

(٤و٥) تفسير الرازي ٣٠ : ٢١٦ .

(٦) مجمع البيان ١٠ : ٥٩ .

بالانسان أبا جهل ^(١) .

وروي أنّ عديّ بن أبي ربيعة ختن الأخنس بن شريق ، وهما اللذان قال رسول الله ﷺ فيهما :
« اللهم أكفني شرّ جاري السوء » قال لرسول الله ﷺ : يا محمد ، حدثني عن يوم القيامة متى يكون ،
وكيف أمره ؟ فأخبره رسول الله ﷺ ، فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم اصدقك يا محمد ولم أوّمن بك ،
كيف يجمع الله العظام ^(٢) .

﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه * بل يريّد الإنسان ليفجر أمامه * يستلّ

أيّان يوم القيامة * فإذا برق البصر * وحسف القمر * وجمع الشمس

والقمر * يقول الإنسان يومئذ أين الممرّ (٤) و (١٠)﴾

ثم ردّ سبحانه المنكرين بقوله : ﴿بلى﴾ نحن كنّا ﴿قادرين على أن نسوي﴾ ونصنع ﴿بنانه﴾
وأصابه وأطرافها كما كانت بعد صيرورتها رميما ورفاة مختلطا بالتراب متفرقا في أقطار الأرض مع صغرها
ورقتها ، فكيف بغيرها من العظام الكبار الغلاظ ؟

ثم نبّه سبحانه على أنّ الحساب ليس بشبهة وترديد في إمكان إحياء الموتى وقدره الله عليه ﴿بل
يريد الإنسان﴾ المنكر للبعث ﴿ليفجر﴾ ويكذب بما يكون ﴿أمامه﴾ وقّده من البعث والحساب .
وقيل : ليدوم على فجوره وعصيانته فيما يستقبله من الزمان لا ينزع عنه ^(٣) .

وعن القمي وسعيد بن جبیر : ليقدم الذنب ويؤخر التوبة ويقول : سوف أتوب ، حتى يأتيه
الموت على شرّ أحواله وأسوأ أعماله ^(٤) . وهو لإصراره على الذنب ﴿يستلّ﴾ تكذيبا واستهزاء بإخبار الله
ورسوله بالبعث ﴿أيّان يوم القيامة﴾ ومتى يكون ؟ فأجابه سبحانه بقوله : ﴿فإذا برق﴾ وتخيّر ﴿البصر﴾
وشخص برؤية الأحوال الفازعة في يوم تشخص فيه الأبصار ، أو يوم الموت برؤية أسبابه والملائكة
الحاضرين لقبض روحه ، فعند ذلك يتيقن بأن إنكاره البعث كان خطأ وغلطا ﴿وإذا﴾ إذا ﴿حسف القمر﴾
وذهب ضوؤه أو انعدم جرمه بالكلية ﴿وجمع الشمس والقمر﴾ في ذهاب النور ، كما عن النبي
ﷺ وفي الإعدام. ^(٥)

وقيل : يجمعان أسودين مكوّرين كأتهما ثوران عقيران في النار ^(٦) . وقيل : يجمعان ثم يقذفان في

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٢١٧ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٢١٧ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٦٥ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٤٤ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٩١٨ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٩٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٥٤ ، تفسير الرازي ٣٠ : ٢١٨ ، عن سعيد بن جبیر .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٤٦ .

(٦) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٢٠ .

[البحر ، فهناك] نار الله الكبرى ^(١) ليكون حسرة على من عبدهما ، وإنما ذكر الفعل لأنّ الكلام في تأويل جمع بينهما أو جمع النوران ، أو لتقدّم الفعل.

فعند ذلك ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ المنكر للبعث من كثرة التحير وشدة الوحشة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ووقت مشاهدة الأهوال : إياسا عن إمكان الفرار : ﴿أَيْنَ الْمَفْرُ﴾ وهل إلى موضع يحفظني سبيل ؟
﴿كَأَلَا لَا وَزَرَ﴾ * إلى ربك يومئذ المستقر * يُنبئ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخّر
* بلى الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره (١١) و (١٥) ﴿﴾

ثمّ ردعهم سبحانه عن الطمع في الفرار بقوله : ﴿كَأَلَا﴾ وحاشا أن تجدوا مفرا ﴿لَا وَزَرَ﴾ ولا ملجأ ولا معاد لأحد من العذاب ، بل ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ومشيتته وحكمه ﴿يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ والمرجع لا إلى غيره. وقيل : يعني إلى مشيئة ربك مستقرهم ومنزلهم من الجنة والنار ^(٢) .

﴿يُنَبِّئُ﴾ ويخبر ﴿الْإِنْسَانُ﴾ المكلف في الدنيا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الوقت ﴿بِمَا قَدَّم﴾ من عمل خير وصدقة مال وعبادة خالصة ﴿و﴾ ما ﴿أَخَّر﴾ وترك ولم يعمل. وقيل : يعني ممّا قدّم من أعماله مطلقا خيرا كان أو شرا ، أو بما أخّر من زمان حياته من سنة حسنة أو سيئة ^(٣) .
عن الباقر عليه السلام : « بما قدّم من خير وشر ، وما أخّر من سنة يستقر بها من بعده ، فان كان شرا كان عليه وزر من عمل بها ، ولم ينقص من وزرهم شيئا ، وإن كان خيرا كان له مثل أجورهم ، ولا ينقص من أجورهم شيئا » ^(٤) .

وقيل : إنّ معنى (ما ﴿أَخَّر﴾ ما خلفه من المال ، أو أوقفه ، أو أوصى به ^(٥) .
﴿بَلِ الْإِنْسَانُ﴾ لا يحتاج إلى أن ينبأ بأعماله ويخبره غيره بها ، لأنّه ﴿عَلَى﴾ جميع أعمال ﴿نَفْسِهِ﴾ في الخلوات والجلوات صغيرها وكبيرها حجة ﴿بَصِيرَةٍ﴾ وبيّنة واضحة ، أو المراد ذو بصيرة كاملة ، لحضور جميع أعماله في نظره بصورتها البرزخية ، وشهادة جوارحه بها ، وتقبل شهادتها عليه ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ وأرخصى ستوره وأراد إخفاء أعماله.

قيل : إنّ الستور استعمل مجازا في الأعذار بعلامة المشابهة ، فكما أنّ الستور تمنع رؤية المحتجب ،

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٢٠ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٢١ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٦٦ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٤٦ .

(٣) تفسير أبي السعود ٩ : ٦٦ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٤٧ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٩٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٥٥ .

(٥) تفسير أبي السعود ٩ : ٦٦ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٤٧ .

كذلك المعذرة تمنع قبح الذنب ^(١) .

وقيل : يعني ولو جاء بأعذاره ، بأن يقول : حملني على العصيان الضرورة وشدة الحاجة ، أو الجهل بالحكم ، أو خوف ذهاب الجاه ونحوها من الأعذار ، فأتى لا تنفعه ، لعلمه ، بأنه كاذب فيها ، أو صادق ولا تكون عذرا فيه ^(٢) .

عن الصادق عليه السلام قال : « ما يصنع أحدكم أن يظهر حسنا ، ويستتر سيئا ؟ أليس إذا رجع إلى نفسه يعلم أنه ليس كذلك ، والله عز وجل يقول : ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ إنَّ السريّة إذا صلحت قويت العلانية » ^(٣) . وعنه عليه السلام أنه تلا هذه الآية فقال : « ما يصنع الانسان أن يعتذر إلى الناس بخلاف ما يعلم الله منه ؟ إنَّ رسول الله ﷺ كان يقول : من أسر سريرة ألبسه الله رداءها إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر » ^(٤) .

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ *
ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ * كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ (١٦) و (٢١)

ثم لما ذكر سبحانه أن علم الانسان يوم القيامة بما صدر منه في الدنيا كاف لا يحتاج إلى إخبار الغير به في ذلك اليوم ، وكان النبي ﷺ يستعجل في قراءة ما يقرؤه عليه جبرئيل من القرآن ليحفظه ، بين سبحانه أنك يا محمد لا تحتاج إلى التعجيل في القراءة في حفظك القرآن بقوله : ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ بالقرآن ولا تنطق ﴿بِهِ لِسَانَكَ﴾ حال قراءة جبرئيل عليه آياته ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ وتسارع إلى أخذه وحفظه مخافة أن ينفلت ، فكما أن علينا جمع العظام النخرة ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ في صدرك بحيث لا ينفلت منه شيء من آياته وكلماته وحروفه ، ولا يخفى عليك شيء من معانيه ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ﴾ عليك بلسان جبرئيل وتمت قراءته وتلاوته وسكت ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ وتلاوته عليك ، واتله كما تلي ، ولا تكلف نفسك بالقراءة مقارنة لقراءته.

أقول : فظهر أنه ليس في الآية نهي تحريم حتى يرد إشكال ، بل هو إرشاد إلى الأسهل ورفع للكلفة عنه.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا﴾ في كل ما أشكل عليك فهمه ﴿بَيَانَهُ﴾ وتوضيحه ، فلا تعجل في السؤال عن مشكلاته بين قراءة جبرئيل عليك ، فظهر من الآية المباركة أنه ﷺ كان يقرأ مع قراءة جبرئيل ويسأل في أغنائها عن مشكلاته ومعانيه ، لحرصه على العلم ، فارشد إلى تركهما.

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٢٢ ، وفيه : المعذرة عقوبة الذنب.

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٤٧ .

(٣) الكافي ٢ : ٢٢٣ / ١١ ، مجمع البيان ١٠ : ٥٩٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٥٥ .

(٤) الكافي ٢ : ٢٢٣ / ٦ ، مجمع البيان ١٠ : ٥٩٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٥٥ .

ثم لما نهي سبحانه النبي ﷺ عن التعجيل في القرآن والسؤال للذين هما من أعمال الدين ذم سبحانه الناس على حب الدنيا العاجلة بقوله تبارك وتعالى : ﴿كَلَّا﴾ ليس لأحد التعجيل في الأمور ، وليس اعتذاركم أيها الناس في القيامة صدقا ﴿بَلْ﴾ عصيتم ربكم لأنكم خلقتكم من عجل وطعتم عليه ، ولذا كنتم ﴿نَجِبُونَ﴾ الدنيا ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ وتعملون لها ﴿وَتَذَرُونَ﴾ وتتركون النشأة ﴿الْآخِرَةَ﴾ وتعرضون عنها.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ * كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالتَّقَتَّى السَّاقِ بِالسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقِ (٢٢) و (٣٠)﴾

ثم بين سبحانه حسن حال المؤمنين وسوء حال الكافرين فيها لحث الناس على العمل لها بقوله : ﴿وُجُوهٌ﴾ كثيرة وهي وجوه المؤمنين الصالحين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الوقت ﴿نَاصِرَةٌ﴾ وحسنة ومشقة بهية من أثر النعمة والراحة ، وهي ﴿إِلَى﴾ رحمة ﴿رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

عن الرضا عليه السلام قال : « يعني مشقة تنتظر ثواب ربها » (١).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام - في حديث - قال : « ينتهي أولياء الله بعد ما يفرغون من الحساب إلى نحر يسمى الحيوان فيغتسلون فيه ويشربون منه ، فتبييض وجوههم إشراقا ، فيذهب عنهم كل قذى ووعث ثم يؤمرون بدخول الجنة ، فمن هذا المقام ينظرون إلى ربهم كيف يثيبهم » قال : « فذلك قوله تعالى : ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وإنما يعني بالنظر إليه إلى ثوابه تبارك وتعالى ».

والناظرة في بعض اللغة : هي المنتظرة ، ألم تسمع إلى قوله : ﴿فَنَاصِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ؟﴾ أي منتظرة (٢).

أقول : قد غلط جمهور أهل اسنة - وهم الأشاعرة - حيث تمسكوا بالآية لإثبات أن المؤمنين يرون الله تعالى بأبصارهم في القيامة ، لعدم جواز التمسك بظواهر الآيات لإثبات المحال العقلي ، مع أن الآية غير ظاهرة في مدعاهم ، لجواز كون الناظرة بمعنى منتظرة.

﴿وُجُوهٌ﴾ كثيرة ، وهي وجوه الكفار ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ، وحين قيام القيامة ﴿بَاسِرَةٌ﴾ وعابسة كالحلة ، مظلمة ألوانها معدمة آثار السرور والنعمة منها ، لظهور الشقاء واليأس من رحمة الله ، فعند ذلك

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١١٤ / ٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٥٦.

(٢) الاحتجاج : ٢٤٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٥٦.

﴿تَنْظُنْ﴾ وتعتقد ، أو تتوقع تلك الوجوه ﴿أَنْ يُفْعَلَ بِهَا﴾ في ذلك اليوم عقوبة ﴿فَاقِرَةٌ﴾ وداهية تكسر فغار الظهر. قيل : اريد بها أنواع العذاب في النار ^(١) .

ثم ردع سبحانه الناس عن إشار الدنيا على الآخرة بقوله : ﴿كَأَلَا﴾ وارتدعوا عما أنتم عليه من حب الدنيا.

قيل : إن المراد لما عرفتم سعادة السعداء وشقاوة الأشقياء في الآخرة ، فارتدعوا عن إشار الدنيا على الآخرة ، وتنبهوا على [ما] بين أيديكم من الموت الذي تنقطع عنده الدنيا العاجلة عنكم ^(٢) . واذكروا ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ الروح ﴿التَّرَاقِي﴾ والحناجر والعظام المحيطة بالنحر. وقرب خروجها من جسدكم ﴿وَقِيلَ﴾ تمنيا أو انكارا ، لاحتمال شفائه بالرقية والتعويد ﴿مَنْ رَأَى﴾ ومن يقدر على إحيائه بالأوراد والتعويد ^(٣) . وقيل : يعني من الرفع بروحه إلى السماء ^(٤) .

عن ابن عباس : أنَّ الملائكة يكرهون القرب من الكافر ، فيقول ملك الموت : من يرقى بهذا الكافر ^(٥) .

وقيل : يحضر العبد عند الموت سبعة أملاك من ملائكة الرحمة ، وسبعة من ملائكة العذاب مع ملك الموت ، فاذا بلغت نفس العبد التراقي ، نظر بعضهم إلى بعض أيتهم يرقى بروحه إلى السماء ^(٦) . ﴿وَوَظَنَ﴾ المحتضر حين بلوغ روحه الترقوة وأحاط به ملائكة الموت ﴿أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ من الدنيا المحبوبة ونعيمها التي ضيع العمر في كسبها ، وأهلك نفسه بالالتذاذ والاشتغال بها ، أو فراق الروح من البدن ، أو الفراق من الأهل والأولاد والأموال.

قيل : عبر سبحانه عن اليقين بالموت هنا بالظن ، لأنَّ الانسان مادام فيه حشاشة يطمع في الحياة لشدة حرصه عليها ^(٧) . في الحديث : « أنَّ العبد ليعالج كرب الموت وسكراته ، وإنَّ مفاصله ليسلم بعضها على بعض ، تقول : السَّلام عليك ، افارقك وتفارقني إلى يوم القيامة » ^(٨) .

﴿وَالْتَقَّتْ﴾ والتوت ﴿السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ عند قلق الموت ، أو في الكفن ، أو ليسهما ^(٩) بالموت. وقيل : إنَّ الساق كناية عن الشدة ، والمراد التقت شدة فراق الدنيا بشدة لقاء الآخرة ، أو شدة مفارقة الأهل وشدة ترك المال والجاه ، وشدة شماتة الأعداء وغم الأولياء ، أو شدة الذهاب إلى الآخرة وشدة القدوم على الله ، أو شدة فراق الأحباب وشدة الورود في دار الغربة ^(١٠) . وعند ذلك ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾

(٢١) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٣٠ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٣١ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٥٤ .

(٤) تفسير الطبري ٢٩ : ١٢١ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٥٥ .

(٦و٥) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٣١ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٥٥ .

(٧) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٣١ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٥٥ .

(٨) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٥٥ .

(٩) في النسخة : أو ليليسهما ، راجع تفسير الرازي ٣٠ : ٢٣٢ .

(١٠) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٣٢ .

وحده ، ونحو محضر عدله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ والازدهاب بالعنف والقهر ، أو إلى ربك مفوض سوقهم.

عن الباقر عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال : « ذلك ابن آدم إذا حلَّ به الموت قال : هل من طبيب ؟ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفِرَاقِ﴾ أيقن بمفارقة الأحبة ﴿وَالْتَفَتَ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ التفت الدنيا بالآخرة ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ قال : المصير إلى رب العالمين » (١) .

﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَمَاطُ *﴾

أُولَى لَكَ فَأُولَى * ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى (٣١) و (٣٥)

ثم بين سبحانه أعظم معاصيهم الموجبة لاستحقاقهم العذاب بقوله : ﴿فَلَا صَدَقَ﴾ بالرسول ودينه وكتابه ودار الجزاء ﴿وَلَا صَلَّى﴾ الصلوات الواجبة ﴿وَلَكِنْ﴾ لم يكتف بترك التصديق ، بل ﴿كَذَبَ﴾ الرسول وكتابه والبعث بعد الموت ﴿وَتَوَلَّى﴾ وأعرض عن الدين وعبادة رب العالمين ﴿ثُمَّ﴾ مع ذلك ﴿ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ وعياله وعشيرته وهو ﴿يَمَاطُ﴾ ويتبخر ويختال في مشيه افتخارا بتكذيب الرسول والإعراض عن عبادة الله ، فقل يا محمد لهذا الكافر : ﴿أُولَى لَكَ﴾ الهلاك ، أو بعدا ، أو ويل لك ﴿فَأُولَى﴾ لك ﴿ثُمَّ﴾ كرر القول ، وقل : ﴿أُولَى لَكَ فَأُولَى﴾ بعد أخرى. وقيل : أولى مأخوذ من آل يقول ، والمعنى : عقباك النار (٢) .

قال جمع من المفسرين : أخذ رسول الله ﷺ بيد أبي جهل : ثم قال : أولى لك فأولى ، توعدده ، فقال أبو جهل : بأي شيء تهددني ؟ لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل بي شيئا ، وإني لأعز أهل هذا الوادي. ثم انسلّ ذاهبا ، فأنزل الله تعالى كما قال رسول الله ﷺ له ، فأولى لك دعاء عليه بأن يليه ما يكرهه (٣) . وقيل : إنه وعيد مبتدأ من الله للكافر (٤) .

عن الجواد عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقال : « يقول الله عز وجل بعدا لك من خير الدنيا ، وبعدا لك من خير الآخرة » (٥) .

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَى * ثُمَّ كَانَ

عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الرُّوحَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ

عَلَى أَنْ يُخَيِّ الْمَوْتَى (٣٦) و (٤٠)

(١) الكافي ٣ : ٢٥٩ / ٣٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٥٧ .

(٢) تفسير البضاوي ٢ : ٥٥٠ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٦٩ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٣٣ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٥٧ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٣٣ .

(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٥٤ / ٢٠٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٥٧ .

ثم لما حكى سبحانه في أول السورة إنكار المشركين البعث في الآخرة بقوله : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ﴾^(١) استدلل هنا على وجوب البعث بقوله : ﴿أَيَحْسَبُ﴾ ويتوهم ﴿الْإِنْسَانُ﴾ العاقل ﴿أَنْ يُشْرَكَ﴾ من قبل الله ﴿سُدِّي﴾ ومهملاً لا يكلف في الدنيا ولا يحاسب بعمله في الآخرة ؟ حاشا وكلاً كيف يمكن ذلك مع أنه تعالى أعطاه القدرة وآلات الأعمال والعقل ، وذلك مقتض لنهييه عن القبائح وأمره بالمحسنات ، وإلا يكون هذا الخلق الكامل عبثاً ، ويكون راضياً بوقوع القبائح منه ، وذلك مناف للحكمة البالغة ، ولو كان التكليف ولم تكن دار الجزاء لزم تساوي المطيع والعاصي ، وذلك باطل بالبداهة ، وإن كان إنكارهم من جهة عدم قدرة الله على الخلق ثانياً فنقول : ﴿أَلَمْ يَكُنْ﴾ ذلك الانسان قبل خلقه الأول ﴿نُطْفَةً﴾ قدرة وماء قليلاً ﴿مِنْ مَّيِّ﴾ متكوّن في صلب الرجل ﴿يُمْنِي﴾ ويصبّ من مخرج بوله في رحم انثى ﴿ثُمَّ﴾ بعد انصبابه في الرحم ﴿كَانَ﴾ ذلك المنيّ ، أو ذلك الانسان ﴿عَلَقَةً﴾ وقطعة دم ﴿فَخَلَقَ﴾ الله وقدره ﴿فَسَوَّى﴾ خلقه وعدّل قامته وأعضاءه وأكمل نشأته .

عن ابن عباس : ﴿فَخَلَقَ﴾ أي نفخ فيه الروح ﴿فَسَوَّى﴾ أي فكمّل أعضائه^(٢) .
﴿فَجَعَلَ﴾ وخلق ﴿مِنْهُ﴾ بقدرته ﴿الرَّؤُوفِينَ﴾ والصنفين من الانسان ، أعني ﴿الذِّكْرَ وَالْأُنْثَى﴾ مع اختلافهما في الطبيعة والأخلاق ﴿أَلَيْسَ﴾ أيها الشاعر ﴿ذَلِكَ﴾ الخالق العظيم الذي خلق أولاً هذا الخلق البديع بلا مثال من ماء ﴿بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ ويخلقهم ثانياً من تراب ، مع أنّ الخلق الثاني في نظر العقل أهون وأسهل من الأول .

روي أنّ النبي ﷺ كان إذا قرأها قال : « سبحانك اللهم بلى »^(٣) .
وعن (المجمع) أنّه روي عن الباقر والصادق عليهما السلام^(٤) .
وعن ابن عباس من قرأها فليقل : سبحانك اللهم بلى ، إماما كان أو مأموماً^(٥) .
وفي رواية : كان النبي ﷺ يقول : « بلى والله ، بلى والله »^(٦) .
عن الباقر عليه السلام : « من أدام قراءة ﴿لَا أُفْسِمُ﴾ وكان يعمل بما بعثه الله مع رسول الله ﷺ من قبره في أحسن صورة ، ويشّره ويضحك في وجهه حتّى يجوز على الصراط والميزان »^(٧) .
ووقّنا الله وجميع المؤمنين لإدمان تلاوتها ، والحمد لله تعالى على التوفيق لإتمام تفسيرها .

(١) القيامة : ٧٥ / ٣ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٣٤ .

(٣) تفسير الرازي ١٠ : ٢٥٨ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٥٨ .

(٤) مجمع البيان ١٠ : ٦٠٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٥٨ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٥٨ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٥٨ .

(٧) ثواب الاعمال : ١٢١ ، مجمع البيان ١٠ : ٥٩٤ ، عن الصادق عليه السلام ، تفسير الصافي ٥ : ٢٥٨ .

في تفسير سورة الانسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا

الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (١) و (٢)﴾

ثم لما ختمت سورة القيامة ببيان بدو خلق الانسان وخلق صنفين منه الذكر والانثى ، اردفت بسورة الانسان المبدوءة ببيان ابتداء خلق الانسان ، وجعله صنفين الشكور والكفور ، وقال سبحانه في السورة السابقة : إِنَّ الْكَفَّارَ يَجْتَوِ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ الْآخِرَةَ ، وفي هذه السورة أهتم بيجتو العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم ابتدأها بذكر بدو خلق الانسان بقوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَى﴾ ومضى ﴿عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ في بدو خلقه ﴿حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ ومدة طويلة من الزمان وهو ﴿لَمْ يَكُنْ﴾ في تلك المدة ﴿شَيْئاً﴾ وموجودا ﴿مَذْكُوراً﴾ باسم من الأسماء ، بل كان في هذا العالم معدوما صرفا ، وإنما كان في علم الله مقدورا عنها ، كان مذكورا في علم الله ولم يكن مذكورا في الخلق.

وعن الصادق عليه السلام : « كان مقدورا غير مذكور » ^(١) .

وعنه عليه السلام : « كان شيئا مقدورا ولم يكن مكونا » ^(٢) . قيل : إن المراد من الانسان في الآية آدم أبو البشر ^(٣) . روي عن ابن عباس : أنه خلق من طين ، فأقام أربعين سنة ، ثم من صلصال فأقام أربعين سنة ، ثم من حمأ مسنون ، فأقام أربعين سنة ، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ، ثم نفخ فيه الروح ^(٤) .

وفي رواية اخرى عنه : أن المراد من ﴿حِينَ﴾ هنا هو الزمن الطويل الممتد الذي لا يعرف مقداره ^(٥) .

أقول : المراد من الزمن الطويل الذي لا يعرف مقداره مدة كونه مقدورا في علم الله.

ثم بين سبحانه خلق أولاد آدم بقوله : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ وأولاد آدم ﴿مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾

(١) الكافي ١ : ١١٤ / ٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٥٩ .

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٦١٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٥٩ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٣٥ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٧٠ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٣٥ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٧٠ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٣٥ ، ولم ينسبه إلى أحد .

ومختلط ومركب من ماء الرجل وماء المرأة ، على ما روى عن الباقر عليه السلام ^(١) .

قيل : لكل من المائين أوصاف تغاير أوصاف الآخر ، فإن ماء الرجل أبيض غليظ له قوة العقد ، وماء المرأة أصفر رقيق فيه قوة الانعقاد ، فما كان في الولد من عصب وعظم وقوة فمن ماء الرجل ، وما كان فيه من لحم ودم وشعر فمن ماء المرأة. قيل : إنه مروي ^(٢) .

وقيل : إن المراد اختلاط ماء الرجل بدم الحيض ^(٣) .

قال بعض المفسرين : إنه يختلط الماء أولاً بدم الحيض ، ثم يصير علقه ^(٤) .

وقيل : إن المعنى من نطفة ذات أمشاج ، واختلاط من الطبائع كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ^(٥) .

وقيل : يعني ذات أطوار وألوان ، فإن النطفة تصير علقه ، ثم مضغة ، ثم عظاما إلى تمام الخلق ، وهو مروي عن ابن عباس ^(٦) .

ثم بين سبحانه حكمة هذا الخلق البديع بقوله : ﴿ تَبْلِيهِ ﴾ والتقدير لنبتيه بالتكليف. وقيل : إنه حال ، والمعنى : حال كوننا مرادين ابتلاءه وامتحانه ^(٧) .

ثم بين سبحانه أنه أعطاه ما يصحّ معه ابتلاؤه. بقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ فبالسمع يدرك الآيات التنزيلية والمواعظ الإلهية وبالبصر يدرك الآيات التكوينية والعبر النافعة.

وقيل : إن المراد أعطيناها الحواس الخمس ، وإنما خصّ الحسّين السمع والبصر - بالذكر لكونهما أعظمها وأشرفها وأنفعها ^(٨) . وقيل : إن المراد بهما الفهم والتمييز ^(٩) ، والمعنى : جعلناه فهِيمًا مميّزا.

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا * إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا * إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ (٣) و (٦)

ثم بين سبحانه إتمام لطفه به بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ ﴾ بتوسط إعطائه العقل وإرسال الرسول وإنزال الكتب السماوية ﴿ السَّبِيلَ ﴾ الذي يوصله إلى قربنا ، وكأنه تعالى قال : خلقتة للابتلاء ، وأعطيته جميع ما يحتاج إليه في التعيش والهداية إلى الحق ليكون ﴿ إِمَّا شَاكِرًا ﴾ لنعم الله بالايان والطاعة

(١) تفسير القمي ٢ : ٣٩٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٥٩ .

(٢) تفسير أبي السعود ٩ : ٧٠ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٦٠ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٦٠ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٣٦ .

(٥) تفسير أبي السعود ٩ : ٧٠ ولم ينسبه إلى أحد.

(٦) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٣٧ .

(٨) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٣٧ .

(٩) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٣٧ .

﴿وَأَمَّا كَافُورًا﴾ لنعمه بالكفر والعصيان.

وقيل : إنّ المعنى أنّا هديناه ، فان شاء فليشكر ، وإن شاء فليكفر ^(١) .

وقيل : إنّ المراد إنّّا مكّناه سلوك الطريق الموصل إلى المطلوب في حالتي شكره وكفرانه ^(٢) .

عن الصادق عليه السلام قال : « عرّفناه إمّا آخذاً ، وإمّا تاركاً » ^(٣) .

وعن الباقر عليه السلام : « إمّا آخذ فشاكِر ، وإمّا تارك فكافر » ^(٤) .

ثمّ بيّن حال الكافرين في الآخرة بقوله : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ في الآخرة ﴿سلاسل﴾ يقادون بها ﴿وَأَغْلَالًا﴾ وقيوداً يقيّدون بها. وقيل : إنّ السلاسل بها تشدّ أرجلهم ، والأغلال تشدّ بها أيديهم إلى رقابهم ^(٥) ﴿وَسَعِيرًا﴾ ونارا مشتعلة موقدة بأجسادهم كما توقد بالحطب.

ثمّ بيّن سبحانه حال الشاكرين بقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ والشاكرين الأخيار ﴿يَشْرَبُونَ﴾ في الآخرة ﴿مِنْ كَأْسٍ﴾ وإناء خمر ﴿كَانَ﴾ في علم الله ﴿مِزَاجُهَا﴾ وخليطها شيئاً يشبه ﴿كَافُورًا﴾ في البياض والبرودة وطيب الرائحة عن ابن عباس : أنّ المراد بالكأس هو الخمر ^(٦) .

وقيل : إنّ الكافور اسم عين في الجنة مأوّهة في البياض والبرودة والرائحة كالكافور ، ولكن ليس فيه طعمه ومضرتّه ، والمراد أنّ شراهم ممزوج بماء تلك العين ^(٧) ، أعني ﴿عَيْنًا﴾ صفتها أنّه ﴿يَشْرَبُ﴾ الخمر ممزوجة ﴿بِهَا﴾ أو يلتذّ بها ﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾ الأبرار ، وهم ﴿يُفَجَّرُونَهَا﴾ ويجرونها حيث شاءوا من منازلهم ﴿تَفْجِيرًا﴾ سهلاً لا كلفة عليهم فيه.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعَمُونَ السَّامِعَ عَلَى حُبِّهِ
مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا
شُكْرًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا غَیْبًا قَمَطًا لَكُمْ فِيهِ فُجُورٌ مُّبِينٌ * فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ
وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَّكِئِينَ فِيهَا
عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (٧) و (١٣)﴾

ثمّ بيّن سبحانه أعمالهم التي يستحقّون بها هذا الأجر ، كأنّه قيل : بماذا استحقّوا هذا الأجر ؟ فقال سبحانه : ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ ويؤدّون ما أوجبوا على أنفسهم بسبب النذر ، فكيف بما أوجبه الله عليهم ؟

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٣٨ .

(٢) تفسير أبي السعود ٩ : ٧١ .

(٣) الكافي ١ : ١٢٤ / ٣ ، التوحيد : ٤١١ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٥٩ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٣٩٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٥٩ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٤٠ .

(٦) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٤٠ .

﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ مع ذلك ﴿يَخَافُونَ﴾ لاحتمال التقصير في عبادة ربهم ﴿يَوْمًا﴾ عظيما ﴿كَانَ شَرُّهُ﴾ وهو له وعذابه ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ ومنتشرا في أقطار العالم غاية الانتشار ، وبالغا أقصى المبالغ ، وواصلًا إلى كلِّ أحدٍ إلَّا من آمنه الله من المؤمنين المطيعين ، أو المعنى : شرُّه سريع الوصول إلى العصاة. وعن الباقر عليه السلام « كلو حبا عبوسا » ^(١) .

﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ﴾ مع شدة حاجتهم إليه ، وكونهم ﴿عَلَى حَبِّهِ﴾ عن الباقر عليه السلام يقول : « على شهوتهم » ^(٢) . وقيل : إطعاما كائنا على حبِّ الله ^(٣) ﴿مُسْكِينًا﴾ وفقيرا من المؤمنين ﴿وَيَتِيمًا﴾ من يتاماهم ﴿وَأَسِيرًا﴾ من الكفار.

عن الباقر عليه السلام قال : « مسكينا من مساكين المسلمين ، ويتيما من يتامي المسلمين ، وأسيرا من أسارى المشركين » ^(٤) .

وهم يقولون : لا نمنَّ عليكم بإطعامكم لأنَّ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ وطلبنا لمرضاته ﴿لَا نُرِيدُ﴾ ولا نطلب ﴿مِنْكُمْ﴾ بإطعامنا إياكم ﴿جَزَاءً﴾ وأجرا بالمال والنفس ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ وعوضا بالمدح والدعاء. عن الباقر عليه السلام قال : يقولون إذا أطعموهم ذلك قال : « والله ما قالوا هذا لهم ، ولكنهم أضمره في أنفسهم ، فأخبر بإضمارهم ، يقولون : لا نريد منكم جزاء تكافؤنا به ، ولا شكورا تشنون علينا به ، ولكننا إنما أطعمناكم لوجه الله وطلب ثوابه » ^(٥) .

وكذا ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ﴾ عذاب ﴿رَبِّنَا يَوْمًا﴾ تكون الوجوه فيه ﴿عَبُوسًا قَنْطَرِيرًا﴾ ومنقبضا شديد الانقباض. روي أنَّ الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل العرق من بين عينيه كالقطران ^(٦) . وقيل : إنَّه شبَّه اليوم بالأسد العبوس في الشدة والضراوة ^(٧) ، فيكون المعنى : أننا نخاف من اليوم الذي كالأسد العبوس الشديد العبوسة ، ولذا نعطيكم ليقينا الله برحمته من شرِّ ذلك اليوم العظيم.

﴿فَوَقَّاهُمْ اللَّهُ﴾ وحفظهم ودفع عنهم ﴿شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ بسبب عطائهم وخوفهم ﴿وَلَقَّاهُمْ﴾ وأعطاهم بسبب طلبهم رضى الله ﴿نَضْرَةً﴾ وبهجة كاملة في وجوههم بدل عبوس الكفار ﴿وَسُرُورًا﴾ عظيما في قلوبهم بدل غمِّ الفجَّار وحزنهم ﴿وَجَزَاهُمْ﴾ في القيامة ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على الجوع وإيثار المحتاجين على أنفسهم ﴿جَنَّةً﴾ ذات أشجار وثمار وقصور عالية يسكنونها ويأكلون من ثمارها ونعمها التي لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر مثلها بقلب أحد ﴿وَحَرِيرًا﴾ ولباسا من

(٢١) أمالي الصدوق : ٣٣٣ / ٣٩٠ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٦٥ .

(٤) أمالي الصدوق : ٣٣٣ / ٣٩٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٦٠ .

(٥) أمالي الصدوق : ٣٣٣ / ٣٩٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٦٠ .

(٦) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٤٧ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٦٧ .

(٧) تفسير أبي السعود ٩ : ٧٢ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٦٧ .

سندس واستبرق يلبسونه ويتزيتون به حال كونهم ﴿مُتَكَيِّنِينَ فِيهَا﴾ ومعتمدين كالسلاطين على الوسائد التي تكون ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ والسرر الموضونة بقضبان الذهب والفضة وأنواع الجواهر ، موضوعة في البيوت المزينة بالثياب والستور ، كذا قيل ^(١) .

﴿لَا يَرَوْنَ﴾ اولئك الأبرار الساكنون في الجنة ﴿فِيهَا﴾ وقتا من الاوقات ﴿شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً﴾ ولا يحسّون حرا ولا بردا ، بل هواؤها في غاية الاعتدال في الحديث : « هواء الجنة سحسج ^(٢) لا حرّ فيه ولا قرّ » ^(٣) .

روى بعض العامة عن ابن عباس أنّه قال : بينما أهل الجنة في الجنة إذ رأوا ضوء كضوء الشمس ، وقد أشرقت الجنان له ، فيقول أهل الجنة : يا رضوان ، قال ربنا عزّجّل : ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً﴾. فيقول لهم رضوان : ليست هذه شمس ولا قمر ، ولكن هذه فاطمة وعلى ضحكا ضحكا أشرقت الجنان من نور ضحكهما ، وفيهما أنزل الله ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ إلى قوله : ﴿وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُوراً﴾ ^(٤) .

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا * قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٤) و (١٧)

ثم بيّن سبحانه حالهم من حيث الراحة بقوله : ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ﴾ أغصان أشجار الجنة ، وقريبة منهم ﴿ظِلَالُهَا﴾ .

قيل : إنّ المراد لمن خاف ربّه جنتان : جنة فيها حرير لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ، وجنة اخرى دانية عليهم ظلالها ، والمقصود أنّه لو كان فيها شمس كانت أشجارها مظلة لهم ^(٥) .
﴿وَذُلِّلَتْ﴾ وقربت منهم ، أو انقادت لهم ﴿قُطُوفُهَا﴾ وثمارها ﴿تَذْلِيلًا﴾ تاما بحيث لا يصعب لمن يريدتها اقتطافها في حال القيام والقعود والاضطجاع. عن البراء بن عازب ، قال : ذلت لهم فهم يتناولون منها كيف شاءوا ، فمن أكل قائما لم يؤذه ، ومن أكل جالسا لم يؤذه ^(٦) .

عن النبي ﷺ : « ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ من قربها منهم ، يتناول المؤمن من النوع الذي

يشتتية

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٦٩ .

(٢) يقال : يوم سحسج : لا حرّ فيه ولا برد .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٧٠ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٧٠ ، والآيات من سورة الانسان : ٧٦ / ١ - ٢٢ .

(٥) تفسير ابي السعود ٩ : ٧٣ ، تفسير الرازي ٣٠ : ٢٤٩ .

(٦) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٤٨ .

من الثمار بعينه ^(١) وهو متكيء ^(٢) .

﴿وَيْطَافُ﴾ ويدور ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في قصورهم ﴿بِأَنِيَّةٍ﴾ وأوعية كالقدح والكأس مخلوقة ﴿مِنْ﴾ جنس ﴿فِضَّةٍ﴾ لها غاية اللطافة ﴿وَأَكْوَابُ﴾ وكيزان لا عربي لها ولا آذان يصب منها المشروب في الآنية ﴿كَانَتْ﴾ ووجدت حال كونها في الصفاء والشفافية تشبه ﴿قَوَارِيرًا﴾ وآنية زجاجية ، ولكن لا قوارير متكونة من الرمل كما القارورة في الدنيا كذلك ، بل ﴿قَوَارِيرًا﴾ متكونة ﴿مِنْ فِضَّةٍ﴾ فكما أنّ الله قادر على أن يقلب الرمل الكثيف في الدنيا زجاجة صافية شفافة ، قادر على أن يقلب فضة الآخرة زجاجة صافية ، ففي آنية الآخرة صفاء الزجاج وشفافيته ، ونقاء ^(٣) الفضة وشرفها.

عن ابن عباس : ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء ^(٤) . وقيل : إنّ الأكواب تكون من فضة ، ولكن لها صفاء القارورة ^(٥) . عن الصادق عليه السلام : « ينفذ البصر في فضة الجنة ، كما ينفذ في الزجاج » ^(٦) .

وقيل : إنّ المراد من ﴿قَوَارِيرًا﴾ في الآية ليس هو الزجاج ، فإنّ العرب تسمّى ما استدار من الأواني التي تجعل فيها الأشربة ورقّ وصفا قارورة ، فمعنى الآية : وأكواب من فضة مستديرة صافية رقيقة ^(٧) .

ثمّ لما بيّن سبحانه صفاء الأواني بقوله : ﴿كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ ونقاها بقوله : ﴿مِنْ فِضَّةٍ﴾ بيّن شكلها بأنّ الشارين ﴿قَدَرُوها﴾ على قدر ربه ^(٨) بارادتهم واشتغالهم ، أو بأعمالهم الحسنة ﴿تَقْدِيرًا﴾ موافقا لميلهم واشتغالهم من غير زيادة ونقصان ، وهو ألدّ لأهل الجنة ^(٩) .

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾ بأمر الله ﴿كَأَسَاكَانَ مِزَاجِهَا﴾ وخليطها شيئا يشبه ﴿زَنْجَبِيلًا﴾ في الطعم والرائحة ، ولكن ليس فيه لذعة وإحراقه ، وكان الشراب الممزوج به أطيب ما تستطيه العرب وألدّ ما تستلذه.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ

حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا﴾ (١٨) و (١٩)

ثمّ لما كان تسمية المزاج بالزنجبيل موهمة لأن لا يكون له سلاسة الانحدار في الخلق وسهولة المساغ ، كما هو مقتضى اللذع والإحراق ، دفع سبحانه التوهم بقوله : ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى﴾ عند أهل الجنة وخزنتها ﴿سَلْسِيلًا﴾ ومشروباً في غاية العذوبة وسهولة المساغ ، ونهاية السلاسة.

(١) في الكافي بغيره.

(٢) الكافي ٨ : ٩٩ / ٦٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٦٣ .

(٣) في النسخة : وشفافته ، ونقلوا.

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٤٩ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٧١ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٤٩ .

(٦) مجمع البيان ١٠ : ٦٢١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٦٣ .

(٧) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٤٩ .

(٨) في النسخة : يريهم .

(٩) في النسخة : ألدّ أهل الجنة بقوله .

روى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام : « أن معنى سلسبيل : سل سبيلا إليها » ^(١) .
أقول : الظاهر أنه بيان وجه التسمية ، فإنه لا يشرب منها إلا من سأل سبيلا إليها بالأعمال الصالحة.

وعن (الخصال) عن النبي صلى الله عليه وآله : « أعطاني الله خمسا : وأعطى عليا خمسا ؛ أعطاني الكوثر ، وأعطاه السلسبيل » ^(٢) .

ثم وصف سبحانه الخدام الطائفين بقوله : **﴿وَيَطُوفُ﴾** بالكأس **﴿عَلَيْهِمْ﴾** في الجنة **﴿وَلَدَانِ﴾** وغلمان **﴿مُخَلَّدُونَ﴾** وبقون أبدا على ما هم عليه من الحياة والحسن والطراوة والمواظبة على الخدمة. وعن الفراء والقمي : يعني مسؤرون ^(٣) . وقيل : يعني محلون ^(٤) . وقيل : مقرطون ^(٥) **﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾** أيها الرائي **﴿حَسِبْتَهُمْ﴾** في صفاء الألوان وانتشارهم في المجالس **﴿لَوْلَوْ﴾** رطباً أخرج من صدفة **﴿مَنْشُوراً﴾** ومتفرقا. قيل : إن اللؤلؤ إذا انتشر وتفرق كان احسن في المنظر لوقوع شعاع بعضه على بعض ^(٦) .

روى عن أمير المؤمنين عليه السلام : « هم ولدان المسلمين الذين يموتون صغارا » ^(٧) .

وعن سلمان الفارسي : « هم أطفال المشركين خدام أهل الجنة » ^(٨) .

أقول : لا منافاة بينهما ، لاحتمال كون كلهم خداما.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ

وَإِسْتَبْرَقٌ وَخُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (٢٠) و (٢١)

ثم بين سبحانه كمال نعمه عليهم وإكرامه لهم بقوله : **﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾** أيها الرائي **﴿ثُمَّ﴾** وهناك **﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾** وافرا لا يوصف حسنه ولذته. عن ابن عباس : لا يقدر واصف وصف حسنه ولا طيبه ^(٩) **﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾** قيل : إن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام ، ويرى أقصاه كما يرى أدناه ^(١٠) .

وقيل : إن الكبير بمعنى أنه لا زوال له ^(١١) . وعن الصادق عليه السلام : « أي لا يزول ولا يفنى » ^(١٢) .

وقيل : إن الملك الكبير هو كثرة التعظيم ^(١٣) والاكرام. روي أن الرسول يأتي من عند الله بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف إلى ولي الله وهو في منزله فيستأذن عليه ، ولا يدخل عليه رسول رب العزة من الملائكة المقرئين إلا بعد الاستئذان ^(١٤) .

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٥٠ .

(٢) الخصال : ٢٩٣ / ٥٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٦٤ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٥١ ، تفسير القمي ٢ : ٣٩٩ ، وفيه : مستوون ، تفسير الصافي ٥ : ٢٦٤ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٥١ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٧٣ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٧٤ .

(٧) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٥٢ .

(٨) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٥٢ .

(٩) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٥٢ .

(١٠) مجمع البيان ١٠ : ٦٢٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٦٤ .

(١١) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٥٢ . (١٤) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٥٢ .

عن الباقر عليه السلام ، عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث : « وإنّ الملائكة من رسل الله لتستأذن عليه ، ولا يدخلون عليه إلّا بإذنه ، فذلك الملك العظيم » ^(١) .

وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل ما هذا الملك الكبير الذي كثره الله عزّ وجلّ حتّى سمّاه كبيراً ؟ قال : إذا أدخل الله أهل الجنة الجنة أرسل رسولاً إلى وليّ من أوليائه ، فيجد الحجة على بابهِ ، فتقول له : قف حتّى نستأذن لك ، فما يصل إليه رسول ربّه إلّا بإذنه ، فهو قول الله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ ^(٢) .

﴿عَالِيَهُمْ﴾ وفوقهم وعلى ظهورهم ، أو على خيامهم المضروبة عليهم ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ وديباج رقيق ﴿خُضْرٌ وَ﴿إِسْتَبْرَقٌ﴾ وحرير غليظ. قيل : إنّ الآية بيان للباس الولدان ^(٣) . ﴿وَحُلُوءًا﴾ وزيّتوا أولئك الأبرار أو الولدان ﴿أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ قيل : كان الملوك يحلّون بها في الزمن الأول ^(٤) . وقيل : أساور الذهب - كما في سورة الكهف - للأبرار ، والفضّة للولدان ، أو كلاهما للأبرار يتعاقبون أو يجمعون بينهما ^(٥) .

﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ مضافاً إلى الشرايين السابقين الممزوجين ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ هو أفضل وأعلى منهما : كما يدلّ عليه إسناد سقيه إلى ذاته المقدّسة ووصفه بالطّهورية.

قيل : هو عين على باب الجنة تنبع من ساق شجرة من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غلّ وغشّ وحسد ، وما كان في جوفه من قدر أو أذى ^(٦) .

وقيل : يؤتون بالطعام والشراب ، فإذا كان في آخر ذلك يؤتون بالشراب الطهور فيشربون فتطهر بذلك بطونهم ويفيض عرق من جلودهم مثل ريح المسك ^(٧) .

وعن الباقر عليه السلام في حديث « وعلى باب الجنة شجرة ، إنّ الورق منها ليستظلّ تحتها ألف رجل من الناس ، وعن يمين الشجرة عين مطهّرة مركّبة » قال : « فيسقون منها شربة فيطهر الله بها قلوبهم من الحسد ، ويسقط من أبشارهم الشعر ، وذلك قول الله : ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ » ^(٨) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « يطهّروهم من كلّ شيء سوى الله » ^(٩) .

(١) تفسير القمي ٢ : ٢٤٨ ، الكافي ٨ : ٩٨ / ٦٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٦٤ .

(٢) معاني الأخبار : ٢١٠ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٦٤ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٥٣ .

(٤) تفسير روح البيان ٣٠ : ٢٥٣ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٧٥ ، وفيه : فللمقبرون الذهب والأبرار الفضة .

(٦) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٥٤ .

(٧) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٥٤ .

(٨) تفسير القمي ٢ : ٥٤ ، عن الصادق عليه السلام ، الكافي ٨ : ٩٦ / ٦٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٦٥ .

(٩) مجمع البيان ١٠ : ٦٢٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٦٥ .

﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ (٢٢)

ثمَّ يقول الله ، أو الملائكة ، للأبرار : ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي ترون من العطايا والكرامات ﴿كَانَ﴾ في علم الله ﴿لَكُمْ جَزَاءً﴾ وعوضاً بمقابلة أعمالكم الحسنة وعباداتكم المقبولة ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ﴾ وسرعتكم في الخيرات وتعبكم في الطاعات ﴿مَشْكُورًا﴾ عند الله ومرضيا له ومقابلا بالثواب العظيم ، فيزداد بذلك الخطاب فرحهم وسرورهم.

روى كثير من مفسري العامة كالواحدي والزنجشري وأبي السعود وإسماعيل حقي وغيرهم : أنَّ الآيات نزلت في شأن علي وفاطمة والحسن والحسين ، لرواية ابن عباس ^(١) ، وهي كما في (روح البيان) : أنَّ الحسن والحسين عليهما السلام مرضا فعادهما رسول الله ﷺ في ناس معه ، فقالوا لعلي عليه السلام : لو نذرت علي ولديك نذر ؟ فنذر علي وفاطمة عليهما السلام وفصة جارية لهما إن برءا مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام تقربا إلى الله وطلبا لمرضاته وشكرا له ، فشفيا فصاموا وما معهم شيء يفطرون عليه ، فاستقرض علي عليه السلام من شمعون اليهودي الخيري ثلاثة أصوع من الشعير ، فطحنت فاطمة عليهما السلام صاعا وخبزت خمسة أقرص على عددهم ، فوضعوا بين أيديهم وقت الإفطار ليفطروا به ، فوقف عليهم سائل ، فقال : السَّلام عليكم يا أهل بيت محمد ، أنا مسكين من مساكين المسلمين ، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة.

فقال علي لفاطمة عليهما السلام :

فاطم ذات المجد واليقين يا بنت خير الناس أجمعين
أما ترين البائس المسكين قد قام بالباب له حنين
يشكو إلى الله ويسكتين يشكو إلينا جائعا حزين
فقلت فاطمة عليها سلام الله :

أمرك يا بن عم سمع طاعه ما بي من لؤم ولا ضراعة
أرجو إذا أشبعت ذا مجاعه ألحق بالأخيار والجماعه
و أدخل الخلد ولي شفاعه

فآثروه كلهم وباتوا ولم يذوقوا إلا الماء ، وأصبحوا صياما ، فطحنت فاطمة ثلثا آخر وخبزت ، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم ، وقف عليهم يتيم ، فقال : السَّلام عليكم يا أهل بيت محمد ، يتيم من أولاد المهاجرين ، استشهد والدي يوم العقبة ، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة.

(١) اسباب النزول : ٢٤٨ ، الكشف : ٤ : ٦٧٠ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٧٣ ، تفسير الرازي ٣٠ : ٢٤٤ .

فقال : علي عليه السلام لفاطمة عليها السلام :

إني لاعطيـه ولا ابـالي و أوثر الله على عيـالي
أمسوا جـياعا وهم أشـبالي أصـغرهم يقتل في القتـال
فآثروه بطعامهم ، وأفطروا بالماء ، وباتوا جـياعا ، وأصبحوا صـياما ، فطحنت فاطمة التـلث الباقي
وخبزت ، فلمّا أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف أسير ، فقال : السـلام عليكم يا أهل بيت النبوة ،
أسير من الاسارى ، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنّة ، فآثروه ولم يذوقوا إلّا الماء.
فلمّا أصبحوا في اليوم الرابع أخذ علي بيد الحسن والحسين عليهما السلام ، فأقبلوا النبي صلى الله عليه وآله ، فلمّا
أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع ، قال صلى الله عليه وآله : « ما أشدّ ما يسوؤني ما أرى بكم ! » وقام
فانطلق معهم ، فرأى فاطمة سلام الله عليها في محرابها قد التصق بطنها بظهرها ، وغارت عيناها ، فساءه
ذلك فنزل جبرئيل وقال : خذ يا محمد ، هنّاك الله في أهل بيتك ، فأقرأه السورة ^(١) ، انتهى .
قال إسماعيل حقي صاحب تفسير (روح البيان) : الرواية ضعيفة لضعف راويها إلّا أنّها مشهورة
بين العلماء مسفورة في الكتب ^(٢) .

أقول : من العجب أنّ العامة يعتمدون على ما هو أضعف منها ، ومع ذلك يظهرون الشكّ فيها
مع اعترافهم بكونها من المشهورات .
ثمّ أنّهم قد ذكروا في ردّ هذه القضية : أنّ السورة مكّية ، وكان نكاح فاطمة في المدينة بعد وقعة
احد .

وفيه : أنّ جمعا من علماء العامة ومفسّريهم منهم : مجاهد وقتادة قائلون بأنّ السورة مدنية إلّا آية
واحدة ، وهي قوله : ﴿وَلَا تُطْغِ مِنْهُمْ أَيْمَأً أَوْ كُفُوراً﴾ فإنّها مكّية ، وكذا قال الحسن وعكرمة والمارودي على
ما نقل عنهم أنّها مدنية إلّا آية ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ...﴾ إلى آخره . ومّا يدلّ على أنّها مدنية أن الأسير
إنّما كان بالمدينة بعد آية القتال ^(٣) .

وقال صاحب (روح البيان) : نحن لا نشكّ في صحّة القصّة ^(٤) ، فلا يصغى إلى ما قال الفخر
الرازي من أنّه لم يذكر أحد من أكابر المعتزلة كأبي بكر الأصمّ وأبي علي الجبائي ، وأبي القاسم الكعبي ،
وأبي مسلم الأصفهاني ، والقاضي عبد الجبار بن أحمد في تفاسيرهم أنّ هذه الآيات نزلت في حقّ علي بن
أبي طالب عليه السلام ^(٥) .

أقول : عدم ذكرهم القصّة لا يدلّ على إنكارهم بأنّ ظاهر الآيات العموم ولا وجه لتخصيصها ،
مع أنّ

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٦٨ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٦٩ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٦٩ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٤٣ .

[القول بأن] تخصيصها ينافي بنظم الآيات من الأغلاط ، فإنّ نزول آية في حقّ أحد لا يستلزم تخصيص عمومها ، فإنّ نزول آية : ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ في شأن الوليد ^(١) ، وآية : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في حقّ علي عليه السلام وإنفاقه ^(٢) . ونزول آية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ في البراء بن عازب واستنجائه بالماء وتهنئته الرسول ﷺ بنزول الآية فيه ^(٣) . نزول آية ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ في شأن عمّار بن ياسر ^(٤) ، لا يوجب تخصيص عموم الآيات ، بل معناه أنّ فعل أحد صار منشأ لنزول الآية ، وكان النظر في الآية إلى ذلك الشخص تفصيلا - وإن كان الحكم في الآية شاملا لغيره إلى يوم القيامة - يدلّ على فضيلة عظيمة لذلك الشخص ، كما ادّعوا نزول آية ﴿وَسَيَجْزِيهَا الْأَثَقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ في حقّ أبي بكر وإنفاقه على المسلمين ويعدّونه من فضائله ^(٥) .

وروى في (المجالس) عن الصادق عليه السلام ما يقرب من رواية عبد الله بن عباس ، وفي آخره : فهبط جبرئيل فقال : يا محمد ، خذ ما هنّا الله لك ^(٦) في أهل بيتك . فقال : ما آخذ يا جبرئيل ؟ فقال : ﴿هَلْ أَتَى﴾ إلى قوله : ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ ^(٧) .

وعن (المناقب) أنّه رواه عن أكثر من عشرين من كبار المفسرين ^(٨) .

وفي بعض الروايات عن الباقر عليه السلام : فرأهم النبي ﷺ جياعا ، فنزل جبرئيل ومعه صحيفة من الذهب مرصعة بالدرّ والياقوت ، مملوءة من الثريد ، وعراق ^(٩) يفوح منها رائحة المسك والكافور ، فجلسوا وأكلوا حتى شبعوا ، ولم تنقص منها لقمة واحد ، فخرج الحسين عليه السلام ومعه قطعة عراق ، فنادته يهودية : يا أهل بيت الجود - أو الجوع - من أين لكم هذه ! أطعمنيها ، فمدّ يده الحسين عليه السلام ليطعمها ، فهبط جبرئيل وأخذها من يده ، ورفع الصّحفة إلى السماء ، فقال عليه السلام ، لو لا ما أراد الحسين عليه السلام من إطعام الجارية تلك القطعة لترك تلك الصّحفة في أهل بيتي يأكلون منها إلى يوم القيامة ، وكانت الصدقة في ليلة خمس وعشرين من ذي الحجة ، ونزل ﴿هَلْ أَتَى﴾ في يوم الخامس

(١) تفسير الرازي ٢٨ : ١١٩ ، تفسير أبي السعود ٨ : ١١٨ ، والآية من سورة الحجرات : ٤٩ / ٦ .

(٢) تفسير الرازي ٧ : ٨٣ ، تفسير أبي السعود ١ : ٢٦٥ ، والآية من سورة البقرة : ٢ / ٢٧٤ .

(٣) من لا يحضره الفقيه ١ : ٢٠ / ٥٩ ، الخصال : ١٩٢ / ٢٦٧ ، وفيهما : البراء بن معرور ، والآية من سورة البقرة : ٢ / ٢٢٢ .

(٤) تفسير أبي السعود ٥ : ١٤٣ ، تفسير روح البيان ٥ : ٨٤ ، والآية من سورة النحل : ١٦ / ١٠٦ .

(٥) تفسير أبي السعود ٩ : ١٦٨ ، والآيتين من سورة الليل : ٩٢ / ١٧ و ١٨ .

(٦) في المصدر : ما هيّا الله لك .

(٧) أمالي الصدوق : ٣٣٢ / ٣٩٠ .

(٨) مناقب ابن شهر آشوب ٣ : ٣٧٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٦٢ .

(٩) العراق : العظم أكل لحمه .

والعشرين منه ^(١) .

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ

كُفُورًا﴾ (٢٣) و (٢٤)

ثم لما ذكر سبحانه حسن طاعة الشاكرين وحالهم في الآخرة ، صلى رسوله وقوى قلبه على تحمل أذى المشركين بقوله : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا نبي الرحمة ﴿الْقُرْآنَ﴾ العظيم الشأن بتوسط جبرئيل ﴿تَنْزِيلًا﴾ مقرونا بجهات من الإعجاز وشواهد الصدق ، أو تنزيلا مفرقا منجما ، لاقتضاء الحكمة البالغة اختصاص كل آية أو سورة بوقت معين ، فلا تعتز بقول المعاندين إنه سحر ، أو شعر ، أو كهانة ، أو اختلاق البشر ، فاذا علمت تلك النعمة العظيمة ﴿فَاصْبِرْ﴾ على أذى المشركين ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بتأخير الإذن في قتالهم ونصرك على أعدائك ، فإن له عاقبة حميدة ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ كل من كان ﴿آثِمًا﴾ وعاصيا لربه في أمرك بعصيان الله بترك تبليغ الرسالة ﴿أَوْ﴾ كان ﴿كُفُورًا﴾ ومصرًا على الكفر والطغيان في أمرك بالرجوع إلى دينهم.

قيل : إن المراد بالآثم عتبة بن ربيعة ، فإنه كان متعاطيا إلى أنواع الفسوق ، وبالكفور الوليد بن المغيرة فإنه كان غالبا في الكفر ^(٢) وقيل : بالعكس ، فان الله سمى الوليد أثيما ، حيث قال في حقه : ﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ﴾ ^(٣) .

روي أن عتبة قال للنبي ﷺ : ارجع عن هذا الأمر حتى ازوجك بنتي ، فأي من أجمل قریش بناتا: وقال الوليد : أنا اعطيك من المال حتى ترضى ، فأي من أكثرهم مالا ، فقرأ عليهم رسول الله عشر آيات من أول حم السجدة ، إلى قوله : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ ^(٤) فانصرفا عنه ، قال أحدهما : ظننت أن الكعبة ستقع عليّ ^(٥) .

﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا *

إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا * نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ

وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ (٢٥) و (٢٨)

(١) مناقب ابن شهر آشوب ٣ : ٣٧٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٦٢ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٥٨ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٧٥ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٥٨ ، والآية من سورة القلم : ٦٨ / ١٢ .

(٤) فصلت : ٤١ / ١٣ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٥٨ .

ثم لما أمر سبحانه النبي ﷺ بالصبر أمره بالعبادة الموجبة لراحة قلبه الشريف بقوله: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ واشغل قلبك بالتوجه إليه ﴿بُكْرَةً﴾ وأول النهار ﴿وَأَصِيلًا﴾ وآخره. قيل: إنَّ المراد المداومة على الذكر في جميع الأوقات ^(١). وقيل: إنَّ المراد المداومة على صلاة الفجر والظهر والعصر، فإنَّ الأصيل يطلق على ما بعد الزوال إلى المغرب ^(٢).

﴿وُ﴾ في بعض ﴿مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ قيل: إنَّ المراد بالسجدة صلاة المغرب والعشاء ^(٣) ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ قيل: أريد به التهجد وصلاة نافلة الليل في ثلثيه ونصفه وثلثه ^(٤). وقيل: إنَّ المراد بالذكر والتسبيح نفسهما. قال: ﴿ادْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ^(٥).

ثم إنَّه تعالى بعد تسليية النبي ﷺ شرع في بيان سوء حال الكفار والمتمردين بقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ الكفار ﴿يُحِبُّونَ﴾ الدنيا ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ الفانية، ويشتاقون إلى لذاتها ومشتياتها ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ﴾ ويدعون خلف ظهورهم ﴿يَوْمًا تَقِيلًا﴾ عليهم شديدا أهواله لهم، ولذا عرضوا عن الإيمان بك وبكتابك، ولا يعتنون بمواعظك التي فيها نفع آخرتهم، وليس عدم إيمانهم لشبهة في نظرهم حتى تزيلها بالدلائل، وإلا لو كانوا تابعين ^(٦) لعقولهم كان عليهم إطاعة أوامرنا والانقياد لأحكامنا ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾ وأعطيناهم الأعضاء والقوى التي يكمل بها خلقهم وتهيأ ^(٧) لهم حياتهم ﴿وَشَدَدْنَا﴾ ما حكمنا ﴿أَسْرَهُمْ﴾ وأعضائهم، ليتمكنوا من القيام والقعود والحركات التي ينتفعون بها من اللذائذ الدنيوية ﴿وَإِذَا شِئْنَا﴾ أهلكناهم و﴿بَدَّلْنَا﴾ وعوضنا عنهم في الأرض خلقا آخر ﴿أَمْثَالَهُمْ﴾ في الخلقة والشكل ﴿تَبْدِيلًا﴾ بديعا. حاصل المراد والله أعلم أنهم محتاجون في الحياة والبقاء في الدنيا والالتذاذ بشهواتها إلينا، ونحن مستغنون عنهم لعدم حاجتنا إلى الخلق، ولو فرض لنا حاجة لنا إليهم، بل نحن بقدرتنا الكاملة الذاتية قادرون على خلق أمثالهم.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا* وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾

(١) تفسير أبي السعود ٩ : ٧٥ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٧٨ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٧٨ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٥٩ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٧٦ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٧٨ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٧٨ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٥٩ ، والآيتان من سورة الاحزاب : ٣٣ / ٤١ و ٤٢ .

(٦) في النسخة : تابعوا .

(٧) كذا الظاهر ، والكلمة غير منقطة في النسخة .

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ

عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)

ثمَّ إِنَّه تعالى بعد بيان حال الشاكرين والكافرين نَبَّه على الغرض من هذه البيانات بقوله : ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ المذكورات من الوعد والوعيد والترغيب والترهيب والدلائل والحكم ﴿تَذَكُّرَةً﴾ وعظة شافية لمن تأمل فيها ، وتبصرة لمن تفكَّر في لطائفها ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ أيها الناس خير الدارين وسعادة النشأتين ﴿اتَّخَذْ﴾ واختار لنفسه بالعمل بهذا القرآن ﴿إِلَى رَبِّهِ﴾ القرب إليه ﴿سَبِيلًا﴾ يصله إلى مرضاته وحبته والنعم الدائمة ﴿وَمَا تَشَاؤُنَ﴾ شيئاً من الهداية وغيرها في حال من الأحوال ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ذلك الشيء بالمشيئة التكوينية من غير أن يلزم جبران ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ﴾ بذاته ﴿عَلِيمًا﴾ بمصالح العباد واستعداداتهم ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يشاء لعباده ، فلا يشاء لهم إلا ما تستدعيه وتقتضيه حكمته .

عن القائم عجل الله فرجه أنه سئل عن المفوضه - كذا في النسخة - قال : « كذبو ، بل قلوبنا أوعية لمشية الله عَزَّوَجَلَّ ، فاذا شاء شيئاً شئنا » ثم تلا هذه الآية (١) .

ثم بيّن سبحانه حكم مشيئته بقوله : ﴿يُدْخِلُ﴾ الله ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ سعاداته ودخوله ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ بإعطائه التوفيق وتأييده وتسديده ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ الذين ضيعوا حقوق نعم الله بالكفر ﴿أَعَدَّ﴾ الله وهيباً ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لا يوصف بالبيان .

عن النبي ﷺ : « من قرأ سورة ﴿هَلْ أَتَى﴾ كان جزاؤه على الله جنّة وحريراً » (٢) .

وعن الباقر عليه السلام : « من قرأ ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ كلّ غداة من الخميس ، زوجّه الله من الحور العين ثمانمائة عذراء ، وأربعة آلاف ثيب ، وكان مع محمد ﷺ » (٣) .

وعن الهادي عليه السلام : « من أحبّ أن يقيه الله شرّ [يوم] الاثنين ، فليقرأ في أول ركعة من صلاة الغداة ﴿هَلْ أَتَى﴾ » (٤) .

(١) الخرائج والجرائج ١ : ٤٥٩ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٦٦ .

(٢) تفسير البيضاوي ٢ : ٥٥٥ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٧٧ .

(٣) ثواب الأعمال : ١٢١ ، مجمع البيان ١٠ : ٦٠٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٦٦ .

(٤) أمالي الطوسي : ٢٢٤ / ٣٨٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٦٦ .

في تفسير سورة المرسلات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ غَضًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا﴾

* فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نَذْرًا (١) و (٦) ﴿﴾

ثم لما ختمت سورة الإنسان المتضمنة لذم الكفار بأنهم يذرون وراءهم يوما ثقيلا ، وذكر دلائل وقوعه ، وسوء حال المكذبين ، وحسن حال المؤمنين ، ونظمت سورة المرسلات المتضمنة لإثبات وقوع ذلك اليوم الثقيل ، وشرح ثقله بذكر أهواله وشدائده ، وتهديد مكذبيه ، وبيان سوء حالهم ، وحسن حال المؤمنين ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم ابتدأها بالقسم بالملائكة إظهارا لعظمتهم وكرامتهم عنده وتأكيذا للمدعى بقوله : ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ من قبل الله من الملائكة ، لإيصال النعم إلى الخلق ، وتبليغ الأحكام والعلوم إلى الرسل ، ولخلق ما في الأرحام ، وكتابة الأعمال ، وحفظ النفوس من البلياء ، وإنزال العذاب ، إرسالاً ﴿عُرْفًا﴾ ومتابعا كعرف الفرس ، أو معروفا ومستحسنا عند العامة ، أو المؤمنين ، فإن نزول العذاب على الأعداء إحسان إلى الأولياء .

ثم رتب سبحانه على رسالتهم بيان سرعتهم في امتثال أوامر الله بقوله : ﴿فَالْعَاصِفَاتِ﴾ في طيرائهم ، والمسرعات بالشدّة في امتثال أوامر الله ، كما تصف الرياح ﴿غَضًا﴾ وسيرا شديدا ، وقيل : إنّ المراد بالعاصفات الملائكة الذين يلهبون بأرواح الكفار ويهلكونها ^(١) ﴿وَالنَّاشِرَاتِ﴾ بأجنحتهم عند انخراطهم إلى الأرض ، أو الشرائع في أهل الأرض ، أو للرحمة والعذاب ، أو لصحف الأعمال يوم الحساب ، أو للنفوس الموتى بالكفر والجهل [بطريق] الوحي الذي هو حياة القلوب ﴿نَشْرًا﴾ معجبا بديعا .

ثم رتب سبحانه على نشرهم أمرين : الأول بقوله : ﴿فَالْفَارِقَاتِ﴾ والمميزات بين الحقّ والباطل

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٦٤ .

﴿فَرَقًا﴾ وتميزا ظاهرا ، والثاني بقوله : ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ﴾ إلى الأنبياء ﴿ذِكْرًا﴾ وعظة شافية ، أو علما وحكمة ، أو كتابا سماويا. قيل : هو القرآن ، وإطلاق صيغة الجمع وإرادة جبرئيل وحده لتعظيمه ، وإنما يلقون الذكر ليكون ﴿عَذْرًا﴾ وقاطعا للحجة بالنسبة إلى الكافرين ، أو عذرا للمعتذرين إلى الله بالتوبة والاستغفار والمحققين ﴿أَوْ نَذْرًا﴾ وتخويفا للكافرين والمبطلين ، أو بمن اتبع الذكر.

وقيل : إنَّ المراد من المرسلات والعاصفات الرياح المرسلة للعذاب ، ومن الناشرات رياح الرحمة نشرن في الجوّ وفرّقن السحاب ، أو نشرن للموات ففرّقن كلّ صنف منها عن سائر الأصناف ، أو فرّقن بين الشاكرين لنعم الله وكفورها وبين الموحّد والمشرّك ، وألقين الذكر والایمان في قلوب المؤمنين ^(١) .

وقيل : إنَّ المراد من الجميع آيات القرآن ، فإنّها المرسلات المتتابعات ، أو بكلّ خير ومعروف ، وهي العاصفات والمذهبات بالأديان الباطلة ، وهي الناشرات للهداية والحكم في الأقطار ، والفارقات بين الحقّ والباطل ^(٢) ، والدوات الطيبة والخبيثة ، والملقيات لذكر الله في القلوب ، وفيها العذر والتّذر.

وقيل : إنَّ المراد من الثلاثة الأول الرياح ، ومن الاثنين الآخرين الملائكة فأنهم بإنزال الوحي يفرّقون بين الحقّ والباطل ، ويلقون الذكر إلى الرسل ^(٣) .

وقيل : إنَّ المراد بالأوليين الرياح ، وبالثلاثة الباقية الملائكة ، لأنهم ينشرون الوحي والدين ، وبه يفرّقون بين الحقّ والباطل ، ويظهرون الذكر في القلوب والألسنة ^(٤) .

والجمع بين القسم بالرياح والملائكة ، لكونهما شبيهتين في اللطافة وسرعة السير ، واحتمل غير ذلك ممّا لا يهّمنا ذكره بعد وضوح كون التفسير الأول أقرب في النظر وأنسب.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعَ * فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا

الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْتَتْ * لَأَيَّ يَوْمٍ أَجَلَتْ * لَيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا

أَذْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ * وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ

نُنْعِيهِمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٧) و (١٩)﴾

ثمّ ذكر سبحانه المقسم عليه بقوله : ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أيّها الناس بلسان الأنبياء من الحشر والحساب ومجازاة الأعمال ﴿لَوَاقِعَ﴾ لا محالة لاقتضاء الحكمة البالغة ذلك ، وامتناع الخلف للوعد

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٦٤ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٦٦ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٦٧ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٦٧ .

على الله.

ثم عَيَّن سبحانه وقته بذكر علاماته بقوله : ﴿فَإِذَا النُّجُومُ﴾ والكواكب كلها ﴿طُمِسَتْ﴾ وانعدمت أجزامها ، أو محقت أنوارها. عن الباقر عليه السلام : « طموسها ذهاب ضوؤها » ^(١) ، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ لنزول الملائكة ، أو فتحت أبوابها ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ﴾ كلها ﴿نُسِفَتْ﴾ وقتت وذريت كالرمل فوق الأرض ، أو قلعت من أماكنها بسرعة لانقضاء الدنيا وعدم الفائدة في بقائها أو بقاء السماء وما فيها من الكواكب ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ﴾ والأنبياء الذين هم شهداء على أممهم ﴿أُفْتُتْ﴾ وعينت لهم أوقات شهادتهم ، أو بلغوا الميقات الذي كانوا ينتظرونه ، وكانوا يعدّون وقوعه ، وهو يوم القيامة والمجازاة بالأعمال.

ثم يقال تعجّبا من عظمة القيامة : أيها الناس لا تدرون ﴿لَأَيَّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ واخترت الأمور الراجعة إلى الرسل من جمعهم وإحضارهم وتعذيب مكذّبيهم وإثابة مصدّقيهم والمؤمنين بهم. ثم كأنه قال تعالى : إنما آخرت جميع ذلك ﴿لِيَوْمِ الْقُصْلِ﴾ والقضاء بين الخلائق ، كما عن ابن عباس ^(٢) .

ثم بالغ سبحانه في تعظيم ذلك اليوم بقوله : ﴿وَمَا أَذْرَاكَ﴾ وأي شيء أعلمك يا محمد ﴿مَا يَوْمُ الْقُصْلِ﴾ في كثرة الأهوال والشدائد وشدة الفظاعة ﴿وَوَيْلٌ﴾ وهلاك دائم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الوقت الهائل ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالأخبار بوقوع ذلك اليوم وبالرسل الذين أخبروا بوقوعه وتوحيد الله ، ثم استشهد سبحانه على قدرته على إثبات ذلك اليوم وتعذيب المكذّبين به بما أنزل على الامم السابقة من العذاب المستأصل بقوله : ﴿أَلَمْ نُهْلِكْ﴾ الامم ﴿الْأُولَى﴾ والسابقين بتكذيبهم التوحيد والرسل والمعاد ، كقوم نوح وعاد وثمود بالعذاب الشديد ﴿ثُمَّ﴾ نحن ﴿نُنَبِّئُهُمْ﴾ في الاهلاك والعذاب الامم ﴿الْآخِرِينَ﴾ الذين هم نظراؤهم والسالكون مسلكهم في الكفر وتكذيب الرسل والمعاد ﴿كَذَلِكَ﴾ الفعل الذي فعلنا بالامم السابقين المكذّبين ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ والطاغين الذين هم في عصرك وبعده ﴿وَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ وفي زمان إهلاكهم ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بآيات الله وأنبيائه.

قيل : إنّه تعالى كرّر قضية الويل في السورة المباركة عشر مرات ؛ لأنّ تكرار القضية المرعبة في مقام التوعيد والترهيب دأب العرب ، وهو من البدائع والمحسنات ^(٣) .

وعن الكاظم عليه السلام في تأويل الآية أنّه قال : « يقول : ﴿وَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يا محمد بما أوحيت إليك من ولاية عليّ » قال : « الأولين الذين كذبوا الرسل في طاعة الأوصياء و﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾

(١) تفسير القمي ٢ : ٤٠١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٦٨ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٧٠ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٨٤ .

قال : من أجرم إلى آل محمد وركب من وصيته ما ركب » (١) .

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ *
فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ * وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا *
أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا * وَبَلَّ
يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٠) و (٢٨)﴾

ثم أنكر سبحانه على الكفار تكذيبهم بالمعاد لاستبعادهم إياه بتقريرهم بالخلق الأول الدال على إمكان الخلق الثاني وقدرته عليه بقوله : ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ﴾ أيها المنكرون للمعاد في الدنيا بقدرتنا ﴿مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ ومبتذل لا يعتنى به ، والنطفة القذرة التي يتنقّر منها ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ ومكناه ﴿فِي قَرَارٍ﴾ ومقرّر ﴿مَكِينٍ﴾ وحصين ومحفوظ من الآفات والعوارض الخارجية ، وهو الرحم الذي هو وعاء الولد حال كونه باقيا فيه ﴿إِلَى قَدَرٍ﴾ وأجل معين ومقدار ﴿مَعْلُومٍ﴾ من الوقت الذي قدره الله تعالى للولادة ، وهو من ستة أشهر إلى تسعة أشهر ﴿فَقَدَرْنَا﴾ وخلقنا جسده وأعضاءه وجوارحه أكمل خلق ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ نحن .

قيل : يعني فقدّرنا في ذلك المكان الضيق المظلم على خلقه وتصويره كيف شئنا ، فنعم القادرون حيث خلقناه على أحسن صورة وهيئة (٢) تكون مع صغره نموذجا للعالم الكبير .

﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بقدرتنا على إعادته التي هي أهون .

قيل : إنّ الله تعالى خوّف الكفار بكثرة نعمه عليهم ، فإنّ نعم المنعم إذا كانت أكثر كان عصيانه أقبح وعقابه أشدّ (٣) ، فذكر الله سبحانه في الآية السابقة نعمة التي في أنفسهم ، ثم ذكر نعمه الخارجية الآفاقية بقوله : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ لكم ﴿الْأَرْضَ﴾ الواسعة التي تحت أقدامكم ﴿كِفَاتًا﴾ وجامعا أو حافظا (٤) أو مساكن في حال كونكم ﴿أَحْيَاءَ وَ﴾ كونكم ﴿أَمْوَاتًا﴾ .

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام ، أنّه نظر في رجوعه من صقّين إلى مقابر الكوفة ، وقال : « هذه كفات الأموات » ثمّ نظر إلى بيوت الكوفة فقال : « هذه كفات الأحياء » أي مساكنهم ، ثمّ تلا هذه الآية (٥) .

﴿وَجَعَلْنَا﴾ لكم بعد خلق الأرض ﴿فِيهَا﴾ جبالا ﴿رَوَاسِيَ﴾ وثوابت ﴿شَامِخَاتٍ﴾ ومرتفعات

(١) الكافي ١ : ٣٦١ / ٩١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٦٩ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٧٣ .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٧٣ .

(٤) كذا ، والظاهر : وجامعة أو حافظة .

(٥) تفسير القمي ٢ : ٤٠٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٦٩ .

وطوالا ، لتكون أوتادا لها ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ﴾ برحمتنا من السماء والأرض ﴿مَاءً فُرَاتًا﴾ وعذبا أو لذيذا ﴿وَنِلًّا﴾ وعذاب أليم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الزمان الخطير ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذه النعم العظام ، والمنكرين لقدرتنا على إعادة الخلق في يوم القيامة.

﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا

ظَلِيلٌ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٢٩) و (٣١)﴾

ثم ذكر سبحانه كيفية عذاب المكذبين يوم القيامة. قيل : إنَّ الشمس تقرب فيه من رؤوس الخلائق وليس عليهم لباس وكنان ، فتلفحهم ^(١) الشمس وتأخذ بأنفاسهم ، ويمتد ذلك اليوم ، وينجى الله المؤمنين إلى ظلِّ عرشه ، فهناك يقولون : ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ ^(٢) ويقول خزنة جهنم للمكذِّبين : ﴿انْطَلِقُوا﴾ والعبوا أيها المكذَّبون ﴿إِلَى مَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ من العذاب.

ثم يبالغون في تفريعهم بتكرار الأمر بقوله : ﴿انْطَلِقُوا﴾ أيها المكذَّبون واذهبوا ﴿إِلَى ظِلٍّ﴾ من دخان غليظ عظيم من نار جهنم ، أو ظلٍّ من نار ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ قيل : شعبة عن يمينهم ، وشعبة عن يسارهم ، وشعبة فوق رؤوسهم ، فيكونون محاطين بالدخان أو النار ^(٣) .

قيل : يخرج لسان من النار محيط بالكافر كالسرداق ، فيتشعب ثلاث شعب يكون فيها حتى يفرغ من الحساب ^(٤) ﴿لَا ظَلِيلٌ﴾ ذلك الظلُّ ولا مانع لهم من حرِّ الشمس ، وقيل : يعني لا بارد ^(٥) ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ الكفار ﴿مِنْ﴾ حرِّ اللَّهَبِ ولا يبعدهم أو لا يسترهم منه.

عن الباقر عليه السلام قال : « بلغنا والله أعلم أنه إذا سيق ^(٦) أهل النار وينطلق بهم قبل أن يدخلوا النار ، فيقال لهم : ادخلوا إلى ظلٍّ ذي ثلاث شعب من دخان النار ، فيحسبون أنها الجنة ، ثم يدخلون النار أفواجا [أفواجا و] ذلك نصف النهار » انتهى ^(٧) .

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا

يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٢) و (٣٧)﴾

(١) في النسخة : فتلفحهم.

(٢) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٧٥ . والآية من سورة الطور ٥٢ : ٢٧ .

(٤) تفسير أبي السعود ٩ : ٨٠ ، تفسير روح البیان ١٠ : ٢٨٦ .

(٥) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٧٥ .

(٦) في تفسير القمي والصافي : استوى.

(٧) تفسير القمي ٢ : ١١٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٧٠ .

ثم وصف سبحانه النار التي كان ذلك الظل دخانا لها بقوله : ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ﴾ وشعلات ، كل شر وشعلة في العظمة ﴿كَالْقَصْرِ﴾ العظيم والبناء الرفيع ، عن ابن عباس : يريد القصور العظام^(١). وروي عنه : أنَّ هذا التشبيه ورد في بلاد العرب ، وقصورهم قصيرة السمك^(٢) جارية مجرى الخيمة^(٣) . وفي رواية أخرى عنه ، أنه سئل عن القصر ، فقال : هو خشب كنا ندخره للشتاء نقطّعه^(٤) . وقيل : هو اصول الشجر العظام والتخل^(٥) .

ثم شبه سبحانه كل شر في اللون والتتابع والسرعة والكثرة والاختلاط بجماعة الابل السود بقوله : ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ﴾ وجماعة ابل ﴿صَفْرٌ﴾ كل شررة كأنها جمل أصفر . قيل : عبر سبحانه عن الأسود بالأصفر ، لأنّ لون الصفرة هو السواد المختلط بالبياض ، أو لأنّ الإبل السوداء سوداء يضرب إلى السفرة ، أو لأنّ الإبل الصفراء يشوب رؤوس أشعارها السواد^(٦) . قيل : إنّ ابتداء الشرر يعظم فيكون كالقصر ، ثم يفترق فتكون القطع المتفرقة كالجمالة الصفر^(٧) .

قيل : في تشبيه الشرر بالجمالة الصفر تقرير بالكفار ، فأنهم كانوا يحبون الجمال ، ويعتقدون أنّ ملكها تمام النعمة ، كأنه^(٨) قيل لهم : إنّكم كنتم تتوقعون من دينكم نعمة كثيرة^(٩) أهمّها عندكم جمالة وجماعة من الإبل ، فاليوم صارت الجمالة المحبوبة عندكم هذه الشرارات .

﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذه الأحوال ﴿هذا﴾ اليوم الذي فيه تلك الأحوال العظيمة ﴿يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ هؤلاء المكذبون بشيء قيل : إنّ الكفار حين السؤال ينطقون ، فلما انقضى السؤال والحساب لا ينطقون من الوحشة وعدم القدرة على التكلم^(١٠) ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ من قبل الله ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ عن تقصيراتهم لعدم عذر لهم بعد إتمام الحجة عليهم في الدنيا ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذه الأخبار .

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعًاكُمْ وَالْأُولَيْنِ * فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ * وَيَلَّ﴾

يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٨) و (٤٠)﴾

ثم يقال لهم توبيخا وتقريعا : ﴿هذا﴾ اليوم العظيم الذي ترون أهواله ﴿يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين الحق

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٧٦ .

(٢) السمك : السقف أو الارتفاع .

(٣) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٧٧ .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٧٦ .

(٦) في النسخة : لأنّ الابل الأسود سواده يضرب إلى الصفرة ، أو لأنّ الإبل الأصفر يشوب رؤوس أشعاره بالسواد . راجع : تفسير روح البيان ١٠ : ١٨٨ .

(٧-٩) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٧٧ .

(١٠) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٧٩ .

والباطل ، أو القضاء بين الناس أجمعين ﴿جَمَعْنَاكُمْ﴾ يا أمة محمد في هذا اليوم ﴿وَالْأُولَئِينَ﴾ والامم السابقين لفصل القضاء والحكم للمحقق وعلى المبطل ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها الكفار المبطلون ﴿كَيْدٌ﴾ وحيلة في هذا اليوم لدفع العذاب عنكم ، كما كان لكم في الدنيا مكائد لإبطال دعوة الرسل وصرف الناس عنهم ﴿فَكِيدُون﴾ واحتالوا وتخلصوا من عذابي ، ولكن لا تقدرّون اليوم على كيد وحيلة ، فعليكم أن تتحملوا ألم العذاب ﴿وَلَيْلٌ يُؤْمِنُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين لا حيلة لهم من التخلص من العذاب.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَلَيْلٌ يُؤْمِنُ لِلْمُكَذِّبِينَ * كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ * وَلَيْلٌ يُؤْمِنُ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤١) و (٤٧)﴾

ثم بيّن سبحانه حسن حال المتقين بقوله : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ والمحترزين عن الكفر والتكذيب في ذلك اليوم مستقرون ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ يظلمهم من حرّ الشمس وغيره ، وهو ظلّ العرش ، أو أشجار الجنة ، لا كظلّ المكذّبين الذي ليس بظليل عن القمي في ظلال من نور أنور من نور الشمس ^(١) . وعن الكاظم : « هم نحن وشيعتنا » ^(٢) .

﴿و﴾ في ﴿عُيُونٍ﴾ عذبة لذيذة يدفعون بمائها عطشهم ﴿و﴾ في ﴿فَوَاكِهٍ﴾ كثيرة ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ويميلون إليه : والحاصل أنّهم مستغرقون في فنون النعم وأنواع الترفّه ، ويقال لهم تفرّحوا لقلوبهم : أيها المتقون ﴿كُلُوا﴾ من نعم الجنة وفواكهها ﴿وَاشْرَبُوا﴾ من أنواع أشربتها ﴿هَنِيئًا﴾ لكم ، وشربا بلا داء ولا ضرر ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الصالحة والعبادات المرضية ﴿إِنَّا﴾ بفضلنا ورحمتنا ﴿كَذَلِكَ﴾ الجزاء الجزيل والثواب العظيم ﴿نَجْزِي﴾ المؤمنين ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ في عقائدهم وأعمالهم وأخلاقهم ، وبسبب طاعتهم لربهم.

﴿وَلَيْلٌ يُؤْمِنُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ حيث يرون أنفسهم في غاية الدلّ والعذاب ، وأعداءهم المخاصمين لهم في نهاية الكرامة والنعم والراحة ، وأمّا المحرمون المكذّبون فيقال لهم في الدنيا : ﴿كُلُوا﴾ من نعم الدنيا ﴿وَتَمَتَّعُوا﴾ وانتفعوا بمشتهياتها زمانا ﴿قَلِيلًا﴾ أو انتفاعا يسيرا ينقضي بموتكم ، فإنّ تلذذكم بها كتلذذ من يأكل لقمة حلواء مسمومة مهلكة ، ثم يموتون ويهلكون بها ، وأنتم تبتلون بالعذاب لأجل ﴿إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ وطاغون على ربكم ﴿وَلَيْلٌ يُؤْمِنُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ حيث عرضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتّع القليل.

(١) تفسير القمي ٢ : ٤٠٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٧١ .

(٢) الكافي ١ : ٣٦١ / ٩١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٧١ .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ * وَإِنَّا لَنُؤْمِنُ بِالْمُكَدِّبِينَ * فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ

يُؤْمِنُونَ (٤٨) و (٥٠)﴾

ثمَّ بيّن سبحانه شدّة طغيانهم على الله بقوله : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾ أو اخضعوا لربكم المنعم عليكم بتلك التّعظيم العظام الدنيوية وعظّموه شكرا عليها ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ [* وَإِنَّا لَنُؤْمِنُ بِالْمُكَدِّبِينَ] ﴾ ويصرون على كفرهم. عن ابن عباس : أنّ المراد بالركوع في الآية الصلاة ^(١) ، فلمعنى أنّ الكفار إذا دعوا للصلاة لا يصلّون ، فذمّهم سبحانه على ترك انقيادهم لله في الاصول والفروع ، وفيه دلالة على أنّ الكفار مكلفون بالفروع كما أنّهم مكلفون بالاصول ومعاقبون عليهما.

قيل : نزلت في ثقيف حين أمرهم الرسول ﷺ بالصلاة فقالوا : لا ننحني فأثما سبّة ^(٢) .

ثمّ لما بالغ سبحانه في كتابه الكريم في إقامة البراهين على وجوب الايمان بالله والانقياد له ، وزجر الكفار عن العتوّ والعصيان ، ومع ذلك لم يؤمنوا ولم يتأثروا ولم يتعظوا بمواعظه ، ختم السورة المباركة بإظهار التعجّب من عدم إيمانهم بقوله : ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ وبيان غير القرآن و﴿بَعْدَهُ﴾ مع كونه إعجازا وجامعا للمواعظ الشافية والعلوم والحكم ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فاذا لم يؤمنوا به فهم في غاية القساوة واللجاج والعناد.

عن الصادق عليه السلام : « من قرأ سورة ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ غُرْفًا﴾ عرّف الله بينه وبين محمّد

ﷺ » ^(٣).

(١) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٨٤.

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٦٣٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٧١ ، تفسير البيضاوي ٢ : ٥٥٩.

(٣) ثواب الاعمال : ١٢١ ، مجمع البيان ١٠ : ٦٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٧٢.

في تفسير سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ (١) و (٣) ﴿

ثم لما ختمت السورة المباركة المتضمنة لبيان عظمة القيامة وأهوالها والاستفهامات التقريرية لإثبات وقوعها بقوله : ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾^(١) إلى آخره ، وبيان سوء حال المكذّبين بها وحسن حال المتّقين ، نظمت السورة المباركة النبأ المتضمنة لبيان عظمة ذلك اليوم وأهواله ، والاستفهامات التقريرية لإثبات وقوعه بقوله : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾^(٢) إلى آخره ، وبيان سوء حال المكذّبين به ، وحسن حال المتّقين في الآخرة ، فافتتحها سبحانه على دأبه بذكر الأسماء المباركات بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم ابتدأها على القول الصحيح ببيان عظمة يوم القيامة بقوله : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وعن أي خبر أولئك الكفار يستخبرون بعضهم بعضا ، أو كلّهم المؤمنين استهزاء ، أو المؤمنون الرسول زيادة لليقين والبصيرة ؟ يتساءلون ﴿عَنِ النَّبَاِ﴾ والخبر ﴿الْعَظِيمِ﴾ الشأن الذي لا أعظم منه. قيل : إنّ المراد من النبأ نبوة محمد^(٣) . وقيل : هو القرآن^(٤) ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ فبعضهم يقولون : إنّّه سحر وبعضهم يقولون : إنّّه شعر ، وبعضهم يقولون : كهانة.

وقيل : إنّ المراد به وقوع يوم القيامة^(٥) ، وهو الأظهر ، فإنّ الكفار كانوا فيه مختلفين ، فبعضهم ينكرونه ، وبعضهم يظهرون الشكّ فيه ، وبعضهم ينكرون المعاد الجسماني دون الروحاني ، وفي الاستفهام غاية تفخيم شأنه.

وعن الصادق عليه السلام - في تأويله - قال : « ﴿النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾ الولاية »^(٦) .

وعن الباقر عليه السلام أنّه سئل عن تفسير ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قال : « هو أمير المؤمنين عليه السلام » وقال :

« كان أمير

(١) المرسلات : ٧٧ / ٢٠ .

(٢) النبأ : ٧٨ / ٦ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ٤ .

(٤) مجمع البيان ١٠ : ٦٣٩ ، تفسير الرازي ٣١ : ٤ .

(٥) تفسير الرازي ٣١ : ٣ .

(٦) الكافي ١ : ٣٤٦ / ٣٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٧٣ .

المؤمنين عليه السلام يقول : ما لله عَجَبٌ آية أكبر مِنِّي ، وما لله نَبَأٌ أعظم مِنِّي ^(١) .
وعن الرضا عليه السلام أنه سئل عنه قال : « قال أمير المؤمنين عليه السلام : ما لله نَبَأٌ أعظم مِنِّي ، وما لله آية أكبر مِنِّي ، وقد عرض فضلي على الامم الماضية على اختلاف ألسنتهم فلم تقرّ لفضلي » ^(٢) .
وعن أبيه [عن آبائه] عن الحسين بن عليّ : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ : يا عليّ ، أنت حجة الله ، وأنت باب الله ، وأنت الطريق إلى الله ، وأنت النَبَأُ العظيم » ^(٣) .
وروي العلامة عليه السلام في (نهج الحق) عن العامة تأويله بأمر المؤمنين عليه السلام ^(٤) أيضا .
أقول : هذه الروايات لا تنافي إرادة الله ظاهر الآية ، وإن انطبق عنوان النَبَأُ العظيم على أمير المؤمنين عليه السلام أيضا .

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) و (٥)﴾

ثمّ ردع سبحانه الكفار عن الاختلاف في المعاد بقوله : ﴿كَلَّا﴾ ليس الأمر كما يقوله الكفار في يوم القيامة ، فإنهم ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ أنه حقّ واقع لا محالة .
وقيل : إنّ ﴿كَلَّا﴾ هنا بمعنى حقّا ^(٥) .
ثمّ كرّر سبحانه الردع وأبلغ فيه بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ بقوله : ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ أنه واقع لا دافع له ، فلا مجال للشكّ فيه ، ولا للتساؤل عنه لوضوحه .
وقيل : يعني كَلَّا سيعلمون حقيقته عند التّزع ، ثمّ سيعلمون به يوم القيامة ، أو سيعلمون حين البعث من القبور بالقيامة والحشر والحساب ^(٦) . ثمّ سيعلمون بالعذاب على التكذيب ، أو سيعلمون ما الله فاعل بهم ثمّ سيعلمون أنّ الأمر ليس كما يتوهمون من أنّ الله غير باعثهم ، أو سيعلمون بما نزل بهم في الدنيا من العذاب وسيعلمون بما ينالهم في الآخرة ، أو سيعلمون الكفار سوء عاقبة تكذيبهم وسيعلمون المؤمنون حسن عاقبة تصديقهم ^(٧) .
وهذا التفسير أبعد من الكلّ ، لظهور الآيتين في غاية التهديد والتشديد ، والسين . في الفعلين للتقريب والتأكيد .

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا

(١) الكافي ١ : ١٦١ / ٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٧٣ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٤٠١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٧٣ .

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٦ / ١٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٧٣ .

(٤) نهج الحق : ٢١١ .

(٥) تفسير الرازي ٣١ : ٥ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٩٣ .

(٧) تفسير الرازي ٣١ : ٥ .

نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ
سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا *
لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (٦) و (١٦) ﴿﴾

ثم لما كان عمدة إنكار المنكرين بالنظر إلى استبعاد الإعادة المبني على عدم المعرفة بقدرة الله ،
ذكر سبحانه الشواهد على كمال قدرته بقوله : ﴿الَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ﴾ بقدرتنا لكم ﴿مِهَادًا﴾ وفرشا
تتقلبون عليها كما تتقلبون على فرشكم ﴿وَالْجِبَالَ﴾ الرواسي في الأرض ﴿أَوْتَادًا﴾ لها لتسكن ولا تميد
بأهلها ﴿وَحَلَقْنَاهُمْ﴾ من الماء المهيّن ﴿أَزْوَاجًا﴾ وأصنافا ذكرا وانثى ، ليسكن كل صنف إلى الآخر ،
وينتظم أمر المعاش والمعاشرة والتناسل ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وصيرنا ﴿نَوْمَكُمْ﴾ لطفًا بكم ﴿سُبَاتًا﴾ وقاطعا لحركات
أعضائكم ، وراحة لكم ، ورافعا لتعبكم ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وصيرنا ﴿اللَّيْلَ﴾ المظلم لكم ﴿لِبَاسًا﴾ وساترا لكم
بظلمته عن عيون الناس ، كما يستر الناس عن عيونكم ، فتسترجون فيه ، وتقفون عن الحركة في مطلب
المعاش ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ﴾ لكم ﴿مَعَاشًا﴾ وزمان اكتساب الرزق والتقلب في وجه الأرض لطلب المعاش
﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ﴾ من السماوات ﴿سَبْعًا﴾ غير العرش والكرسي ﴿شِدَادًا﴾ وغلاظا غلظ كل سماء مسيرة
خمسائة عام ، أو محكمات الخلق لا يؤثر فيها مر الدهور وكرّ العصور ، ولا فطور فيها ولا فروج .
قيل : إن إطلاق البناء على السقف مع أنه لا يستعمل إلا في أسافل البيت ^(١) ، للدلالة على
كمال الاستحكام ، أو لتنزيلها منزلة القبات المضروبة على الخلق ^(٢) .

﴿وَجَعَلْنَا﴾ وخلقنا لأهل العالم ﴿سِرَاجًا﴾ ومصباحا ﴿وَهَّاجًا﴾ ووقّادا ، أو مضيئا في الغاية . عن
ابن عباس : الوهّاج مبالغة في النور ^(٣) .

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ والرياح المثيرات للسحاب ، كما عن ابن عباس ^(٤) ، أو السحاب كما
في رواية أخرى عنه ^(٥) ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ وشديد الانصباب ومتتابع القطر عظيم النفع ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ﴾ من
الأرض ﴿حَبًّا﴾ ونباتا له الاكرام والثمار ﴿وَنَبَاتًا﴾ لا أكمام له كالحشائش ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ وبساتين ﴿أَلْفَافًا﴾
ومتداخلات أو متقاربات ، لتتفكّها بثمارها ، فذكر سبحانه أولا أغذية الانسان بقوله : ﴿حَبًّا﴾ ثم ذكر
علوفة الحيوانات بقوله : ﴿وَنَبَاتًا﴾ وبعدها ما يستلذّ به الانسان من الفواكه .

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا * وَفُتِحَتْ

(١) تفسير الرازي ٣١ : ٨ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٩٦ .

(٣-٥) تفسير الرازي ٣١ : ٨ .

السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (١٧) و (٢٠)

ثمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَمَالَ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتَهُ وَإِتْمَامَ نِعْمَتِهِ عَلَى الْخَلْقِ مِنْ حَيْثُ الْمَسْكَنُ وَأَسْبَابُ الْمَعِيشَةِ وَالرَّاحَةِ فِي الدُّنْيَا ، ذَكَرَ أَحْوَالَ الْآخِرَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنَّ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي هُوَ ﴿يَوْمَ الْفُضْلِ﴾ والقضاء بين الناس ﴿كَانَ﴾ بتقدير الله ﴿مِيقَاتًا﴾ وزمانا تنتهي إليه الدنيا أو الخلائق ، أو موعدا للجزاء على الأعمال أو لاجتماع الخلائق.

ثمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ بِقَوْلِهِ : ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ النفخة الثانية التي هي نفخة الإحياء ﴿فَتَأْتُونَ﴾ أيها الناس بعد إحيائكم في القبور وبعثكم منها إلى المحشر حال كونكم ﴿أَفْوَاجًا﴾ وجماعات قيل : يَأْتِي كُلُّ نَبِيٍّ مَعَ أُمَّتِهِ ^(١) ، وقيل : يعني فرقا مختلفة ^(٢) .

روي عن معاذ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْهُ فَقَالَ : « يَا مَعَاذُ ، سَأَلْتُ عَنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ مِنَ الْأُمُورِ » ثُمَّ أَرْسَلَ عَيْنِيهِ وَقَالَ : « يَحْشُرُ عَشْرَةَ أَصْنَافٍ مِنْ أَتَمَّتِ بَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقِرْدَةِ ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْخَنَازِيرِ ، وَبَعْضُهُمْ مَنْكُوسُونَ أَرْجُلَهُمْ فَوْقَ وُجُوهِهِمْ يَسْجُبُونَ عَلَيْهَا ، وَبَعْضُهُمْ عَمِي ، وَبَعْضُهُمْ صَمٌّ بِكُمْ ، وَبَعْضُهُمْ يَمْضَغُونَ أَلْسِنَتَهُمْ وَهِيَ مَدْلَاةٌ عَلَى صُدُورِهِمْ يَسِيلُ الْقَيْحُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ يَتَقَدَّرُ أَهْلُ الْجَمْعِ مِنْهُمْ ، وَبَعْضُهُمْ مَقْطُوعَةُ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ ، وَبَعْضُهُمْ مُصَلَّبُونَ عَلَى جَذُوعٍ مِنْ نَارٍ ، وَبَعْضُهُمْ أَشَدُّ نَتْنَا مِنَ الْجَيْفِ ، وَبَعْضُهُمْ مَلْبَسُونَ جُبَابًا سَابِغَةً مِنْ قَطْرَانٍ لَازِقَةٍ بِجُلُودِهِمْ .

فَأَمَّا الَّذِينَ عَلَى صُورَةِ الْقِرْدَةِ فَالْقَتَاتُ مِنَ النَّاسِ ، وَأَمَّا الَّذِينَ عَلَى صُورَةِ الْخَنَازِيرِ فَأَهْلُ السَّحْتِ ، وَأَمَّا الْمَنْكُوسُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فَأَكَلَةُ الرِّبَا ، وَأَمَّا الْعَمِي فَالَّذِينَ يَجُورُونَ فِي الْحُكْمِ ، وَأَمَّا الصَّمَمُ الْبِكْمُ فَالْمَعْجُونَ بِأَعْمَالِهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ يَمْضَغُونَ أَلْسِنَتَهُمْ فَالْعُلَمَاءُ وَالْقَضَاةُ الَّذِينَ تَخَالَفَ أَقْوَالُهُمْ أَعْمَالُهُمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ فَهُمْ الَّذِينَ يُوْذُونَ الْجِيرَانَ ، وَأَمَّا الْمُصَلَّبُونَ عَلَى جَذُوعِ النَّارِ فَالسَّعَاةُ بِالنَّاسِ إِلَى السَّلْطَانِ ، وَأَمَّا الَّذِينَ هُمْ أَشَدُّ نَتْنَا مِنَ الْجَيْفِ فَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَاتِ وَمَنَعُوا حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، وَأَمْوَالُهُمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ يَلْبَسُونَ الْجُبَابَ فَأَهْلُ الْكِبَرِ وَالْفَخْرِ وَالْخِيَلَاءِ » ^(٣) .
ورواه في (المجمع) عن النبي ^(٤) .

﴿وُفِّحَتِ السَّمَاءُ﴾ وانشقَّتْ شقوقا كثيرة ﴿فَكَانَتْ﴾ السماء لكثرة الشقوق ^(٥) ﴿أَبْوَابًا﴾ لنزول

(٢٠١) تفسير الرازي ٣١ : ١٠ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ١٠ ، جوامع الجامع : ٥٢٦ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٨٩ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٢٩٩ .

(٤) مجمع البيان ١٠ : ٦٤٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٧٥ .

(٥) زاد في النسخة : كَأَنَّهَا ، وَلَا تَصِخْ ، لِأَنَّ لَفْظَ الْآيَةِ بَعْدَهَا مَنْصُوبٌ .

الملائكة قيل : إنّ التقدير فكانت تلك المواضع المفتوحة أبواباً ^(١) . وقيل : إنّ المراد من فتحها إزالتها وإعدامها ، فكانت مكانها طرق ومسالك للملائكة ^(٢) ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ في الجوّ بعد انقلاعها من أماكنها ﴿فَكَانَتْ﴾ وصارت في الأنظار شيئاً وليست بشيء ، كما ترى ﴿سَرَاباً﴾ تحسبه ماء وليس بماء . قيل : إنّ الله تعالى أخبر عن الجبال بحالات ؛ فأولها أنّها تندك وتقطّع ، ثمّ تصير كثيباً مهيلًا وتلا من رمل ، ثمّ تصير كالعهن ، ثمّ تنسفها الرياح فتصير هباءً وذرات منبثة في الهواء ، فتصير في الهواء كقطعة من الأرض تسير في الجوّ ، وترى الأرض التي تحتها بارزة ، وهي في هذه الحالة مثل السراب ، فكما أنّ السراب تحسبه ماء وليس بماء ، كذلك الجبال تحسبها جبالاً وليست بجبال في الحقيقة ، بل هي غبار ^(٣) .

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً * لِلطَّاغِينَ مَاباً * لَا يَبْنِي فِيهَا أَحْقَاباً * لَا يَذُوقُونَ

فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَاباً * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وَفَاقًا﴾ (٢١) و (٢٦)

ثمّ إنّ تعالى بعد بيان خراب الدنيا ومجيء الناس إلى الحشر ، بيّن حال جهنّم بقوله : ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ﴾ في علم الله ، أو صارت ﴿مِرْصَاداً﴾ ومحلاً لترقب خزنتها ورود الناس ، فالمؤمنون يمرون عليها كالبرق الخاطف أو كالراكب ، وتكون ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ والعتاة والمتمردين خاصة ﴿مَاباً﴾ ومرجعاً ومستقراً حال كونهم ﴿لَا يَبْنِي﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا أَحْقَاباً﴾ ودهورا كثيرة لا نهاية لها .

عن ابن عباس : أنّ الأحقاب ثلاثة وأربعون حقبا ، كلّ حقب سبعون خريفا ، كلّ خريف سبعمئة سنة ، كلّ سنة ثلاثمئة وستون يوما ، كلّ يوم ألف سنة من أيام الدنيا ^(٤) .

وعن النبي ﷺ : « لا يخرج من النار من دخلها حتّى يمكث فيها أحقابا ، والحقب ثمانون سنة ، والسنة ثلاثمئة وستون يوما ، واليوم كألف سنة ممّا تعدّون ، فلا يتكلّف أحد على أن يخرج من النار » ^(٥) . وعن الصادق عليه السلام قال : « الأحقاب ثمانية حقب ، والحقب ثمانون سنة ، والسنة ثلاثمئة وستون يوما ، واليوم كألف سنة ممّا تعدّون » ^(٦) .

(١) تفسير الرازي ٣١ : ١١ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٠ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٠١ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٠٢ .

(٥) مجمع البيان ١٠ : ٦٤٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٧٦ .

(٦) معاني الأخبار : ٢٢٠ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٧٦ .

وعن الصادقين عليه السلام : « هذه في الدين يخرجون من النار » ^(١) .

وقيل : إنه كناية عن الدوام والخلود ^(٢) ، وعلى أيّ تقدير أهل النار ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ ولا يحسّون ﴿بِزْدَادٍ﴾ ينتفعون ويستريحون به ، وعن بعض مفسري العامة والقمي : يعني نوما ^(٣) ﴿وَلَا شَرَاباً﴾ رافعا لعطشهم ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ وماء متناهي في الحرارة ﴿وَعَسَافًا﴾ وقيحا سائلا من جلود أهل النار ، إنّا نجازيهم ﴿جَزَاءً﴾ يكون ﴿وَفَاقًا﴾ لعقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم ، بلا زيادة عليها ولا نقصان ، ومطابقا لها في العظم والصغر .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾

كِتَابًا (٢٧) و (٢٩)﴾

ثمّ حكى سبحانه اعتقادهم الموجب لذلك العذاب بقوله : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ ولا يهتملون ﴿حِسَابًا﴾ لأعمالهم في الآخرة ، وجزاء على سيئاتهم ، ولذا كانوا لا يبالون منكرا ، ولا يرغبون في معروف .

ثمّ حكى سبحانه أسوأ أعمالهم بقوله : ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على التوحيد والبعث والحساب ﴿كَذَابًا﴾ وتكذيبا مفرطا إسرارا على الكفر وفنون القبائح والمعاصي ، فلمّا كانت سيئاتهم بهذه الدرجة من العظمة استحقّوا هذه الدرجة الشديدة من العذاب ، للزوم موافقة عذابهم وأعمالهم ومعاصيهم .

ثمّ بيّن سبحانه علمه بميزان الأعمال ومقدار الجزاء بقوله : ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء منها الأعمال وجزاؤها ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ وعلمناه حال كونه ﴿كِتَابًا﴾ ومثبتا في اللوح المحفوظ ، أو المراد علمناه علما يكون في القوة والثبات كأنّه مكتوب ، أو المراد أحصيناه إحصاء ، وكتبناه كتابا في اللوح المحفوظ ، أو في صحف الحفظة .

﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا * إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا *
وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأَسَاءَ دِهَاقًا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا * جَزَاءً مِّنْ

رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٠) و (٣٦)﴾

(١) مجمع البيان ١٠ : ٦٤٣ ، وتفسير الصافي ٥ : ٢٧٦ ، عن الباقر عليه السلام .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٠٢ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ١٤ ، تفسير القمي ٢ : ٤٠٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٧٦ .

ثم لما بين سبحانه شدة عذاب الطغاة أظهر شدة غضبه عليهم بتوجيه العتاب إليهم بقوله : ﴿فَذُوقُوا﴾ أيها الكفرة الطغاة طعم العذاب كما ذقتم في الدنيا لذّة مشتهاها ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ﴾ إلى الأبد ﴿إِلَّا عَذَابًا﴾ قيل : كلما استغاثوا من عذاب اغيثوا بأشد منه (١) .

عن النبي ﷺ : « أن هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار » (٢) .

قيل : إنهم لما كانوا يزيدون تدريجاً في تكذيب النبي ﷺ وإيذائه وإيذاء المؤمنين ، زاد الله متدرجاً في عذابهم لتحقيق الموافقة في الجزاء ، فلا يرد ما قيل من أنه لو كان العذاب الزائد مستحقاً في أول ورودهم في جهنم كان تركه عفواً وإحساناً ، فلا ينبغي للحكيم رجوعه عن عفوه وإحسانه ، وإن كان غير مستحقّ فزيادته ظلم (٣) ، مع أن التخفيف إلى مدة لا ينافي عذابه فيما بعد .

ثم بين سبحانه حسن حال المتقين في الآخرة بقوله : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ والمتقين عن الكفر وتكذيب الرسول والمعاد والعصيان في الآخرة ﴿مَفَازًا﴾ وظفراً بأقصى المطالب وأهم المقاصد بعد النجاة من النار ، أعني بالمفازة ﴿حَدَائِقَ﴾ وبساتين ذات أشجار كثيرة وثمار وافرة لم تر مثلها عين ، ولم تسمع مثلها اذن ﴿وَأَعْنَابًا﴾ طيبة كثيرة . قيل : إنما خصّها بالذكر لشرفها وفضلها (٤) .

﴿وَلَهُمْ نِسَاءٌ﴾ لهم نساء ﴿كَوَاعِبَ﴾ ومستديرات الثديين ، أو مرتفعاتها و﴿أُتْرَابًا﴾ ومتساويات في السن . عن الباقر عليه السلام : « ﴿كَوَاعِبَ أُتْرَابًا﴾ فتيات ناهدات » (٥) .

﴿وَلَهُمْ﴾ ان لهم ﴿كَأْسًا﴾ من خمر ﴿دِهَاقًا﴾ ومملوءة كما عن ابن عباس (٦) ، أو متتابعة كما عن جماعة (٧) ، أو صافية (٨) .

وهؤلاء المتقون الذين هم في الجنة ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ من أحد ﴿فِيهَا﴾ كلاماً ﴿لَغَوًا﴾ وباطلاً ﴿وَلَا كَذِبًا﴾ الذي كان الطاغوت يقولونه في الآيات . والحاصل أن المتقين لا يسمعون في الجنة كلاماً مشوشاً ولا كلاماً ككلام الطغاة .

وقيل : إن ضمير ﴿فِيهَا﴾ راجع إلى الكأس (٩) ، والمعنى لا يسمعون في حال شربهم الخمر كلاماً لغواً وباطلاً ، إذ لا تتغير عقولهم ، ولا يتكلمون بما لا فائدة فيه ، كل ذلك يكون ﴿جَزَاءً﴾ على عقائدهم الصحيحة وأعمالهم الصالحة ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ الكريم الجواد ، ويكون ﴿عَطَاءً﴾ لهم ﴿حِسَابًا﴾ وكافياً ، أو كثيراً زائداً عن استحقاقهم بإزاء عملهم ، فإن الاحسان إلى المطيع بمقدار عمله واجب على الله ،

(١) تفسير الرازي ٣١ : ١٩ ، وتفسير روح البيان ١٠ : ٣٠٧ ، عن النبي ﷺ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ١٩ ، وتفسير روح البيان ١٠ : ٣٠٧ ، هذا الحديث والذي قبله حديث واحد .

(٣) تفسير الرازي ١٠ : ٣٠٧ .

(٤) تفسير الرازي ١٠ : ٣٠٨ .

(٥) تفسير القمي ٢ : ٤٠٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٧٧ .

(٦-٩) تفسير الرازي ٣١ : ٢٠ .

لأنّهُ لو لم يحسن لزِم البخل وتساوي المطيع والمعاصي ، وهما محالان ، وأمّا الزائد فإحسان حسن غير واجب ، فلذا جمع سبحانه في ثوابهم بين الجزاء والإحسان ، وهذا مراد من قال : العطاء موضع الفضل لا موضع الجزاء ، لأنّ الجزاء على الأعمال ، والفضل موهبة من الله مختصة بالخواص من أوليائه .
عن (الأماي) عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث قال : « حتى إذا كان يوم القيامة حسب لهم حسناتهم ، وأعطاهم بكلّ واحدة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله تعالى : ﴿ جَزَاءٌ مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴾ » (١) .

﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا * يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ (٣٧) و (٣٨)

ثم بيّن سبحانه علّة جزائه وكثرة عطائه بقوله : ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ هو ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ والفيّاض المطلق على جميع الممكنات بجميع الخيرات ، فمن كان بهذه العظمة والجود لا يضيع عمل عامل عنده ، ولا يكون عطائه قليلا ، بل كان في غاية العظمة ، ويكون من عظمتهم وكبريائهم أنّ الأنبياء والرسل وأعظم الملائكة ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ ﴾ لغاية عظمتهم وكبريائهم ﴿ حِطَابًا ﴾ ومكالمة معه والاعتراض عليه في ثواب أو عقاب .

ثم لما كان المشركون مدّعين أنّ الملائكة والأصنام شفعاؤهم عند الله يوم القيامة ، ردّهم سبحانه بقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ ﴾ الذي هو أعظم من جميع الملائكة ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ الذين هم سكّان السماوات وأقرب الموجودات إلى الله تعالى ﴿ صَفًّا ﴾ واحدا أو أكثر ﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ في ذلك اليوم إجلالا له وخضوعا لديه وخوفا منه ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ في التكلّم والشفاعة ﴿ وَقَالَ ﴾ ذلك المأذون قولا ﴿ صَوَابًا ﴾ وحقا واقعا في محله ومرضيا عنده ، فكيف بغيرهم ؟

وقيل : لا يتكلّمون في حقّ أحد إلّا في حقّ شخص أذن له الرحمن وقال ذلك الشخص صوابا وحقا - وهو التوحيد - دون غيره من أهل الشرك (٢) . وفي ذكر الرحمن هنا إشعار بأنّ مناط الإذن هو الرحمة الواسعة .

(١) أمالي الطوسي : ٢٦ / ٣١ ، تفسير الصافي : ٥ : ٢٧٧ .

(٢) تفسير روح البيان : ١٠ : ٣١٠ .

قيل : إنّ المراد بالروح جبرئيل ^(١) ، وتخصيصه بالذكر لكونه أفضلهم ، وقال جمع : إنّّه أعظم من جبرئيل ^(٢) .

عن ابن مسعود : أنّه أعظم من السماوات والجبال ^(٣) .

وعن بن عباس : أنّه ملك من أعظم الملائكة خلقا ^(٤) .

وعن القمي : أنّه ملك أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول الله ﷺ وهو مع الأئمة عليهم السلام ، وهو مروى عن الصادق عليه السلام ^(٥) .

وعن الكاظم عليه السلام : « نحن والله المأذونون لهم يوم القيامة ، والقائلون صوابا » . قيل : ما تقولون إذا تكلمتم ؟ قال : « نحمّد ربّنا ، ونصلّي على نبيّنا ، ونشفع لشيعتنا ولا يردّنا ربّنا » ^(٦) .

﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءً * إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ

يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (٣٩) و (٤٠)

ثمّ أكّد سبحانه ثبوت ذلك اليوم ورغب الناس في التهيّة له بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ اليوم ﴿الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ الثابت الذي لا ريب فيه ، أو اليوم الذي يحقّ فيه كلّ حقّ ويبطل فيه كلّ باطل ، فاذا علمتم ذلك ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ النجاة من العذاب والتّيل بالثواب ﴿اتَّخَذْ﴾ واختار لنفسه ﴿إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءً﴾ وسبيلا بالإيمان بتوحيده ورسالة رسوله ، وبالأعمال الصالحة.

ثمّ أعلن سبحانه في الناس إتماما للحجّة عليهم بقوله : ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ﴾ أيّها الناس في هذه السورة ، أو في القرآن ﴿عَذَابًا﴾ في الآخرة ﴿قَرِيبًا﴾ وقوعه على الكفّار والعصاة ، فإنّ كلّ آت قريب وإن تروّنه بعيدا.

ثمّ بالغ سبحانه في التخويف والإنذار بقوله : ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ﴾ والانسان المكلف إلى ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ والذي ارتكبت جوارحه في الدنيا من الطاعة والعصيان.

وقيل : يعني اذكروا يوم ينظر الانسان أي شيء قدّم يده من الخير والشرّ والطاعة والعصيان بالنظر إلى صحيفة أعماله ، فان رأى فيها الأعمال الصالحة فرح ورجا ثواب الله ، وإن رأى فيها الأعمال السيئة حزن وخاف العقاب ^(٧) .

(١) تفسير الرازي ٣١ : ٢٤ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٣١٠ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ٢٣ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٢٦ و ٤٠٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٧٧ .

(٥) الكافي ١ : ٣٦١ / ٩١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٧٧ .

(٦) مجمع البيان ١٠ : ٦٤٧ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣١١ و ٣١٢ .

﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ حين رأى تبعات كفره وعصيانته وخلوّ صحيفته من الحسنات : ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ﴾ في الدنيا ﴿تُراباً﴾ ولم أكن إنساناً مكلفاً حتى ابتلي بالعذاب ، أو ليتني كنت في هذه اليوم تراباً ولم ابعث كما كنت تراباً قبل الإحياء وقيل : يعني يا ليتني كنت متواضعاً ولم أكن متكبراً ^(١) .
وقيل : إنّ المراد بالكافر إبليس ، وهو يقول : يا ليتني كنت مخلوقاً من تراب كآدم ، ولم أكن مخلوقاً من النار ^(٢) حتى اتكبر على آدم ، ومن السجود له.

وعن (العلل) عن ابن عباس ، أنّه سئل : لم سمى رسول الله ﷺ علياً عليه السلام أبا تراب ؟ قال : « لأنه صاحب الأرض وحجة الله على أهلها بعده ، وبه ^(٣) بقاؤها ، وإليه سكونها » . قال : لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه إذا كان يوم القيامة ورأى الكافر ما أعد الله تبارك وتعالى لشيعة عليّ من الثواب والزلفى والكرامة قال : يا ليتني كنت ترابغ ، أي من شيعة عليّ ، وذلك قول الله : ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً﴾ ^(٤) .

عن الصادق عليه السلام : « من قرأ سورة ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ لم تخرج سنته - إذا كان مدمنها في كل يوم - حتى يزور بيت الله الحرام إن شاء الله تعالى » ^(٥) .

(١) تفسير الرازي ٣١ : ٢٦ .

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٦٤٨ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٩٥ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣١٢ .

(٣) في النسخة وتفسير الصافي : وله .

(٤) علل الشرائع ١٥٦ / ٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٧٨ .

(٥) ثواب الاعمال ١٢١ ، مجمع البيان ١٠ : ٦٣٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٧٨ .

في تفسير سورة النازعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ

سَبْقًا * فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ

يُؤْمِنُذِ وَاجِفَةً * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ إِنَّنا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ *

أِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذْ أَكَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ *

فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١) و (١٤) ﴿﴾

ثم لما ختمت السورة النبأ المتضمنة لأحوال القيامة ، والاستدلال على وقوعها ، وسوء حال الكافرين المكذبين لها ، وحسن حال المؤمنين المقربين بها ، نضمت سورة النازعات المتضمنة لتلك المطالب العالية ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم ابتدأها بذكر الإيمان بأصناف الملائكة بقوله : ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ والجاذبات من الملائكة لأرواح الكفار ﴿غَرْقًا﴾ ونزعا وجذبا شديدا من أجسادهم كما ينزع في القوس بشدة حتى ينتهي إلى التصل ﴿وَالنَّاشِطَاتِ﴾ والمخرجات من الملائكة أرواح المؤمنين ﴿نَشْطًا﴾ إخراجا برفق ولطف من أبدانهم ، كما يخرج الدلو من البئر ﴿وَالسَّابِحَاتِ﴾ والمرفقات في ذلك الإخراج لئلا يصل إليهم ألم وشدة ، كما يرفق السابح في الماء في حركاته لئلا يغرق في الماء ﴿سَبْحًا﴾ ورفقا بالغلا لئلا يحسوا تعباً ﴿فَالسَّابِقَاتِ﴾ والمسرعات من الملائكة بأرواح الكفار إلى الغار وأرواح المؤمنين إلى الجنة والراحة والتعفة ، ليروا صدق مواعيد الله ﴿سَبْقًا﴾ وسرعة لا يشابهها ^(١) سبق سابق وسرعة سريع ﴿فَالْمُدْبِرَاتِ﴾ من أولئك الملائكة ﴿أَمْرًا﴾ أراد الله في حق كل منهم من العقاب والثواب للذين أعدهما ^(٢) الله لهم في الآخرة ، على ما رواه العامة عن أمير المؤمنين ، وابن عباس ، ومسروق ^(٣) .

(١) في النسخة : لا يشابهه.

(٢) في النسخة : أعدّه.

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ٢٧ ، وفي النسخة : ابن مسروق.

قيل : نكتة عطف الثاني والثالث بالواو ^(١) مع اتّحاد الكلّ الإشعار بأنّ كلّ واحد من الأوصاف من الصفات العظيمة الجلييلة الحقيقة بأن يكون كلّ على حياله مناطا لاستحقاق موصوفه للتعظيم والاجلال ، وعطف الرابع والخامس بالفاء لتفرعها على الأول.

وعن الصادق عليه السلام : قوله ﴿النَّازِعَاتِ﴾ قال : « هم ملائكة الموت ينزعون النفوس » ^(٢) .

وعن الباقر عليه السلام : « ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ تسبق أرواح المؤمنين إلى الجنة » ^(٣) .

وقيل : إنّ المراد من الثلاثة الآخر عموم الملائكة المأمورين لأمور العالم ^(٤) ، والمراد من السابحات طوائف الملائكة الذين ينزلون من السماء بسرعة كالسباح في الماء لعامة الأمور ، ولازم السرعة هو التقدّم في السير وإجراء الأمور وتغييرها بغير تراخ.

وقيل : إنّ السابقات الملائكة الذين يسبقون الشياطين بالوحي إلى الأنبياء ^(٥) .

وقيل : النازعات صفة النجوم التي تكون ذوات نزع وجذب من تحت الأرض إلى فوقها نزعا شديدا ^(٦) ، والناشطات هي النجوم التي تسير من برج إلى برج ، فالمراد من نزعها حركتها اليومية ، ومن نشطها حركاتها الخاصة في أفلاكها بحركة ملائمة لذواتها ، والمراد من السابحات هي النجوم تسبح في الفلك ، كما قال تعالى : ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ^(٧) ووصفها بالسابقات باعتبار سبق بعضها على بعض ، ووصفها بالمدبّرات باعتبار ما يترتب عليها من الآثار كاختلاف الفصول وتمييز الأوقات واختلاف الأحوال ، وعلى أيّ تقدير كلّها قسم على وقوع البعث والقيامة ، والتقدير : اقسم بهذه الأمور العظام لتبعث بعد الموت ، أو لننفخن في الصور ، أو إن ما توعدون لواقع.

وقيل : إنّ جواب القسم مذكور ، وهو قوله : ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ ^(٨) والمعنى : أن ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ وتترنزل وتضطرب شديدا جميع الأجرام الساكنة كالأرض والجبال بالنفخة الاولى التي هي ﴿الرَّاجِفَةُ﴾ والمحركة لكلّ شيء ، فأسند الفعل إلى سببه لأنّ النفخة سبب لاضطراب الاجرام ، ثمّ ﴿تَتَّبِعُهَا﴾ وتحذّر بعدها النفخة الثانية التي هي ﴿الرَّادِفَةُ﴾ للإحياء ، والمراد باليوم الزمان الممتدّ الذي يقع بين النفختين.

(١) تفسير أبي السعود ٩ : ٩٦ .

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٦٥١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٧٩ ، وفيهما : هو الموت ينزع النفوس .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٤٠٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٧٩ .

(٤) مجمع البيان ١٠ : ٦٥٢ .

(٥) تفسير الرازي ٣١ : ٢٨ .

(٦) تفسير الرازي ٣١ : ٢٩ .

(٧) الأنبياء : ٢١ / ٣٣ .

(٨) تفسير الرازي ٣١ : ٣٣ .

عن النبي ﷺ : « أَنَّ بَيْنَ النَفْخَتَيْنِ أَرْبَعِينَ عَامًا » (١) .

وروي أَنَّ فِي هَذِهِ الْأَرْبَعِينَ يَمُطِرُ اللَّهُ الْأَرْضَ ، وَيَصِيرُ ذَلِكَ الْمَاءُ عَلَيْهَا كَالنَّطْفِ (٢) .

وقيل : إِنَّ الرَّادِفَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٣) .

وقيل : إِنَّ الرَّاحِفَةَ الْأَرْضَ وَالْجِبَالَ (٤) ، وَالرَّادِفَةَ السَّمَاءَ ، فَهَئِذَا تَنَشَقُّ ، وَالْكَوَاكِبُ فَهَئِذَا تَنْثَرُ (٥) .

وقيل : الرَّادِفَةُ زَلْزَلَةٌ ثَانِيَةٌ تَتَّبِعُ الزَّلْزَلَةَ الْأُولَى حَتَّى تَتَقَطَّعَ الْأَرْضُ وَتَفْنَى (٦) .

﴿قُلُوبٌ﴾ كثيرة للكفار ﴿يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ ومضطربة من خوف الله وأهوال ذلك اليوم ، ومن لوازم اضطراب القلوب وخوف النفوس ما أخبر سبحانه بقوله : ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ وخاضعة ذليلة مترقبة لما ينزل بها من الأمور العظام ، فَإِنَّ أَوَّلَ الْكَفَّارِ كَانُوا ﴿يَقُولُونَ﴾ إنكارا للبعث أو استهزاء به : ﴿إِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ بعد الموت ﴿فِي الْحَافِرَةِ﴾ والحالة الأولى التي كانت لنا من البنية والحياة والقوة ؟ ثُمَّ يَبَالِغُونَ فِي الْإِنْكَارِ بِقَوْلِهِمْ : ﴿إِذَا كُنَّا﴾ وصرنا في القبور ﴿عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ وبالية يمكن بعثنا وإحيائنا ؟ هيهات لا يكون ذلك أبدا . ثُمَّ ﴿قَالُوا﴾ بطريق الاستهزاء بالبعث : ﴿تِلْكَ﴾ الرجعة إلى الحياة التي تدعوها ﴿إِذَا﴾ وعلى ما تقولون ﴿كَرَّةٌ﴾ ورجعة ﴿خَاسِرَةٌ﴾ ومضرة لنا إذ كنا ننكرها ونكذب مدعيها .

ثُمَّ لَمَّا كَانُوا يَسْتَصْعِبُونَهَا عَلَى اللَّهِ لَزَعَمَهُمْ عَجْزُهُ عَنْهَا ، بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ نَهَايَةَ سَهُولَتِهَا عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ حاصلة لا محالة وما توجدها إِلَّا ﴿زَجْرَةٌ﴾ وصيحة ﴿وَاحِدَةٌ﴾ بأمرنا ، لا تكرر فيها ، فَيَسْمَعُهَا جَمِيعُ الْخَلْقِ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ وَأَفْطَارِهَا ، كَنَفْخِ وَاحِدٍ فِي صُورِ النَّاسِ لِإِقَامَةِ الْقَافِلَةِ وَالْعَسْكَرِ ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ محيون ومبعثون ﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾ والأرض البيضاء المستوية بعد ما كانوا أمواتا وعظاما وترابا .

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى

فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى *

فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى * فَخَشِرَ فَنَادَى *

فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (١٥) وَ (٢٦)

ثم لما كان تكذيب المشركين للنبي ﷺ في إخباره بالمعاد ودار الجزاء مؤلماً لقلبه الشريف ، سلاه سبحانه بحكاية معارضة فرعون موسى بن عمران في دعوته إلى التوحيد ، وإنه مع إنكاره ادعى الربوبية ، فابتلاه الله بالعذاب مع كونه أقوى من قومه بقوله : ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ يا محمد ، وقيل : إِنَّ ﴿هَلْ﴾ هنا بمعنى (قد) ^(١) والمعنى قد جاءك ﴿حَدِيثٌ﴾ دعوة ﴿مُوسَى﴾ فرعون. وقيل : إِنَّ المعنى : هل بلغك خبره ، أم أنا اخبرك به ؟ ^(٢) وهذا التعبير للترغيب في الاستماع ليتسلى به.

ثم ذكر الحديث بقوله : ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ قيل : إِنَّ التقدير اذكر حين ناداه ربّه ^(٣) ﴿يَا نُؤَادُ الْمَقْدَسِ﴾ والأرض المطهرة عن الشرك ، واسم ذلك الوادي ﴿طُوًى﴾ وهو على ما قيل : واقع بين المدينة ومصر ^(٤) . وقيل : إنه واد بالشام عند الطّور ^(٥) . وعن ابن عباس : أَنَّ طوى بمعنى الرجل بالعبيرانية ^(٦) ، والمعنى : يا رجل ﴿أَذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ وقيل : إنه بمعنى ساعة من الليل ^(٧) اذهب برسالي إلى فرعون ملك مصر ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ وتجاوز عن الحد في الكفر والعصيان والتكبر على الخلق حتى استبعدهم على ما قيل ^(٨) . فاذا جئته ﴿فَقُلْ﴾ له بلسان لئلا يا فرعون ﴿هَلْ لَكَ﴾ ميل ورغبة ﴿إِلَى أَنْ تَرْكَبَ﴾ وتتطهر من دنس الكفر والكبر والأخلاق السيئة الرديّة. ﴿وَأَهْدِيكَ﴾ وأدلك إلى الطريق المقرب ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ ومعرفته وطاعته ﴿فَتَخْشَى﴾ من عصيانه وعذابه بعد معرفته والعلم بوجوب طاعته ؟

فجاء موسى بأمر ربّه وحسب رسالته إلى فرعون ، وجرى بينه وبينه ما جرى إلى أن قال فرعون : فان كنت جئت بأية فات بها ﴿فَأَرَاهُ﴾ موسى ﴿الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ والمعجزة العظمى بإلقائه عصاه وصيرورتها ثعباناً عظيماً ، أو باليد البيضاء ، أو بهما ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون بموسى ونسب معجزاته إلى السحر ﴿وَعَصَى﴾ ربّه وتمرد عن طاعته مع علمه بصدق رسوله. ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ وأعرض عن الإيمان بموسى وهو ﴿يَسْعَى﴾ ويجتهد في إبطال أمر رسالته وإطفاء نوره عناداً ولجاجاً.

قيل : لما رأى فرعون الثعبان أدبر وأسرع في مشيته ^(٩) خشية منه ﴿فَحَشَرَ﴾ وجمع السحرة لمعارضة موسى وسائر الناس ليروا غلبة السحرة عليه ﴿فَنَادَى﴾ في مجتمعهم بنفسه ، أو بتوسط مناد منه قبله ﴿فَقَالَ﴾ : ﴿أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ﴿أَنَا رَبُّكُمْ﴾ وإلهمكم ﴿الْأَعْلَى﴾ من كلّ من يلي أموركم من الملوك والامراء ، أو من الأصنام التي تعبدونها ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ﴾ بسبب طغيانه ودعواه الربوبية والالوهية ونكّل

(١) تفسير الرازي ٣١ : ٣٨ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٩٩ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ٣٨ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣١٩ .

(٣) تفسير الطبري ٣٠ : ٢٥ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٣١٩ .

(٥) تفسير الرازي ٣١ : ٣٨ .

(٦) تفسير الرازي ٣١ : ٣٨ .

(٧) تفسير الرازي ٣١ : ٣٩ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٢٠ .

(٨) الكشف ٤ : ٦٩٦ ، تفسير الرازي ٣١ : ٤٢ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٢١ .

به ﴿نَكَالَ الْآخِرَةِ﴾ وعاقبة بالعقوبة الشديدة ، وهي إحراقه في القيامة بالنار ﴿وَو﴾ نكال ﴿الْأُولَى﴾ والعقوبة الدنيوية ، وهي غرقه في الماء .

وقيل : إنّ المراد من الأولى قوله ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾^(١) ومن الآخرة قوله : ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(٢) .

عن الباقر عليه السلام : « أنه كان بين الكلمتين أربعون سنة »^(٣) .

وعنه عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : قال جبرئيل : قلت : يا رب تدع فرعون وقد قال : ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ « فقال : إنما يقول هذا مثلك من يخاف الفوت »^(٤) .
وقيل : إنّ الأولى تكذيبه موسى^(٥) .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذكر من طغيان فرعون وتعذيبه في الدنيا بغرقه في الماء وإحراقه بالنار في الآخرة والله ﴿لَعِبْرَةٌ﴾ عظيمة وموعظة شافية ﴿لِمَنْ يَخْشَى﴾ ربه ويخاف عذابه .

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمَ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا
وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا *
وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (٢٧) و (٣٣)

ثمّ لما حكى سبحانه النكار المشركين للبعث وسهولته عليه تعالى ، بيّن كمال قدرته على خلق أعظم من إعادتهم وخلقهم ثاني مرّة بقوله : ﴿أَنْتُمْ﴾ أيّها المنكرون للبعث ﴿أَشَدُّ﴾ وأصعب ﴿خَلْقًا﴾ في زعمكم ﴿أَمَ السَّمَاءُ﴾ التي ﴿بَنَاهَا﴾ الله مع كمال عظمتها وقوّة تأليفها وانطوائها في البدائع التي تحار في أدائها العقول ؟ ! وقيل : إنّ التقدير أم السماء أشد ؟^(٦)

ثمّ ابتدأ الكلام في بيان كيفية خلقها بقوله : ﴿بَنَاهَا﴾ والمراد غاية استحكامها كاستحكام أسافل القصور والبيوت ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا﴾ وعلّوها على الأرض كثيرا مسير خمسمائة عام . وقيل : إنّ المراد بالسّمك ارتفاع السطح الأعلى بين السطح الأسفل الذي يعبر عنه بالتّحن والغلط^(٧) .

﴿فَسَوَّاهَا﴾ وعدلها وأقامها على وفق الحكمة والصواب ، أو سوّى تأليفها أو نفى الشّقوق عنها ﴿وَأَغْطَشَ﴾ وأظلم ﴿لَيْلَهَا﴾ والقطعة من الزمان التي تغيب الشمس فيها ضوء الشمس بحركتها

(١) القصص : ٢٨ / ٣٨ .

(٢) جمع البيان : ١٠ : ٦٥٦ ، تفسير الرازي ٣١ : ٤٣ .

(٣) الخصال : ٥٣٩ / ١١ ، جمع البيان : ١٠ : ٦٥٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٨١ .

(٤) جمع البيان : ١٠ : ٦٥٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٨١ .

(٥) تفسير الرازي ٣١ : ٤٣ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٢٤ .

(٧) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٢٤ .

ودورانها ﴿وَأَخْرَجَ﴾ وأبرز ﴿ضُحَاهَا﴾ والقطعة من الزمان التي يظهر فيها ضوء الشمس بحركتها.
 قيل : إنما عبّر سبحانه عن النهار بالضحي الذي هو وقت ارتفاع الشمس ، لكونه أشرف أوقاته
 (١) ، فكان أحق بالذكر في مقام الامتنان ، كما أنّ تأخير ذكره عن الليل لأنّ إضاءة النور بعد الظلمة أتمّ
 في الانعام.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الخلق العظيم ﴿دَحَاهَا﴾ وبسطها ومهدّها لسكنى أهلها وتقلّبهم في
 أقطارها. قيل : إنّ الله تعالى خلق الأرض أولاً قبل السماء غير قابلة للسكنى ، ثمّ خلق السماء ، ثمّ بسط
 الأرض بعد خلق السماء ، كما عن ابن عباس (٢) .

وقيل : إنّ كلمة ﴿بَعْدَ﴾ هنا بمعنى (مع) والمعنى : أنّ الأرض مع ذلك دحاهها ، كما في قوله :
 ﴿عَتَلْتُ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٍ﴾ (٣) روى لك أيضا عن ابن عباس (٤) .

وقيل : إنّ المراد من دحوها بسطها بحيث تكون مهيأة لبنات الأقوات (٥) ، ولذا قال سبحانه بعد
 بيان نعمة دحو الأرض : ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ وفجّر عيونها ﴿وَوَجَّعْنَا فِيهَا أَنْهَارَ﴾ وأثبت منها ما يأكل
 الناس والأنعام من نباتاتها ﴿وَالْجِبَالَ﴾ على الأرض ﴿أَرْسَاهَا﴾ وأثبتها ، وأنما خلق الله سبحانه جميع ذلك
 ليكون ﴿مَتَاعاً﴾ وما به الانتفاع ﴿لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿وَلَأَنْعَمَكُمْ﴾ ومواشيكم.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ

لِمَنْ يَرَى * فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى

* وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ

الْمَأْوَى (٣٤) و (٤١)﴾

ثمّ لما بيّن سبحانه كمال قدرته على إحياء الأموات وأعظم منه وبعثهم للحساب ، أخبر عن
 وقوعه وشدة أهواله بقوله : ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ والداهية العظمى التي تصغر عندها كلّ داهية
 سواها ، وبلغ وقت ظهورها ، أعنى ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ المكلف في ذلك اليوم العظيم الهائل ﴿مَا سَعَى﴾
 وما عمله في الدنيا من خير أو شرّ برؤيته بصورته الاخرية ، أو في صحيفة أعماله ، وقد نسبته للغفلة ،
 أو لطول المدّة ، أو للوحشة والدهشة.

(١) تفسير أبي السعود ٩ : ١٠١ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٢٤ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ٤٨ ، ولم ينسب إلى أحد.

(٣) القلم : ٦٨ / ١٣ .

(٤) تفسير الرازي ٣١ : ٤٨ .

قيل : إنّ الداهية الكبرى هي وقت تطاير الكتب يوم القيامة وقرأتهم أعمالهم فيها ^(١) .
وعن (الإكمال) عن أمير المؤمنين عليه السلام : « إنّ الطامة الكبرى خروج دابة الأرض » ^(٢) .
﴿وَبَرَزَتْ الْجَحِيمُ﴾ وأظهرت جهنم إظهارا مكشوفاً ﴿لَمَنْ يَرَى﴾ ويصير من أهل المحشر كائنا من
كان روي أنه يكشف عن الجحيم [فتتظلى] فيراها كل ذي بصر مؤمن وكافر ^(٣) .
﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ على الله وتجاوز عن الحدّ بالعصيان بالكفر والشرك. وعن أمير المؤمنين عليه السلام : «
﴿مَنْ طَغَى﴾ أي ظلّ على عمد ^(٤) بلا حجة » ^(٥) . ﴿وَأَنزَلَ﴾ ورجّح في نظره لنفسه ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾
ولذا تمّ وجع زخارفها ، وقدمها على الآخرة ونعمها ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ والمقرّر له في الآخرة أبدا لا
نجاة له منها.

قيل : نزلت في النضر بن الحارث وأبيه الغالبين في الكفر والطغيان ^(٦) .
﴿وَأَمَّا مَنْ﴾ آمن و﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ وحين قيامه بالحكومة بين الناس وحضور نفسه في محضر
عدل خالقه للحساب ، أو مقامه بين يدي ربه وخالقه ﴿وَوَدَّ﴾ لذا ﴿نَهَى النَّفْسَ﴾ ومنعها ﴿عَنِ﴾ اتباع
﴿الْهَوَى﴾ والعمل بما ترغّب فيه من الشهوات واللذات الدنيوية المانعة عن اتباع الحق والعمل بما فيه رضا
خالقه ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ﴾ العالية وقصورها ﴿هِيَ الْمَأْوَى﴾ والمقرّر له في الآخرة أبدا لا غيرها.
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ فيم أنت من ذكرها * إلى ربك
مُنْتَهَاهَا * إنما أنت مُنْذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا * كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً
أَوْ ضُحَاهَا (٤٢) و (٤٦)

ثمّ لما ذكر سبحانه وقع القيامة بعد إثبات إمكانه ، حكى استهزاء المستهزئين من المشركين
بالسؤال عن وقت وقوعه أنّه قريب أو بعيد بقوله : ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا محمد ، أولئك الكفار استهزاء
﴿عَنِ﴾ وقت ﴿السَّاعَةِ﴾ والقيامة ويقولون : ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ وفي أيّ وقت إتيانها وقيامها ؟ أخبرنا به إن
كنت من الصادقين.

ثمّ ردّهم الله سبحانه وأنكر عليهم سؤالهم عنها بقوله : ﴿فِيمَ أَنْتَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ وفي
أي شيء تكون من أن تبين لهم وقتها ، وتعليمهم به مع اختصاص العلم بها بعلام الغيوب ، وعدم
اطلاع غيره تعالى عليها كائنا من كان من ملك أو نبي مرسل ؟ ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ العالم بكلّ شيء

(١) تفسير الرازي ٣١ : ٥٠ .

(٢) أكمل الدين : ٥٢٧ / ١ ، تفسير الصافي : ٥ : ٢٨٢ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٢٦ .

(٤) في النسخة : عمل .

(٥) الكافي ٢ : ٢٨٩ / ١ ، تفسير الصافي : ٥ : ٢٨٢ .

(٦) تفسير أبي السعود : ٩ : ١٠٤ .

﴿مُنْتَهَاها﴾ وإلى راجع علمها ، فإنَّ حكمته اقتضت إخفاءها ، فكيف يسألونك عنها ؟
﴿إِنَّمَا أَنْتَ﴾ يا محمد ﴿مُنْذِرٌ﴾ من قبل الله بالإخبار بوقوعها ﴿مَنْ يَخْشَاهَا﴾ وليست وظيفتك
إلا تخويف الناس بإتيانها وإقترابها ^(١) وبيان أهوالها وشدائدها ، ولا يجب عليك تعيين وقت وقوعها بجميع
الخصوصيات ، وأما تعيينها إجمالاً فهو وقت انقضاء عمر الدنيا ، وهو في غاية السرعة ، وإن كان بعد
مائة ألف سنة وأزيد ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ ويشبه أن المنكرين ﴿يَوْمَ﴾ تقع القيامة وحين ﴿يَرُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا﴾ ولم يمكثوا
في الدنيا ولو عمّروا فيها ألف سنة ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾ وساعة من آخر يوم ﴿أَوْ صُحَاها﴾ وساعة من أول يوم
تلك العشية ، ولم يتخيّلوا أنّ مكثهم فيها يوماً كاملاً لسرعة انقضاء عمرهم فيها ، كما قال الله تعالى :
﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ ^(٢) .

عن النبي ﷺ : « من قرأ سورة ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ كان ممّن حبسه الله في القبر ^(٣) والقيامة حتى
يدخله الجنة قدر صلاة مكتوبة » ^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام : « من قرأ ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ لم يمّت إلا رتانا ، ولم يبعثه الله إلا رتانا ، ولم
يدخله إلا رتانا » ^(٥) .

الحمد لله على توفيقه لاتمام تفسيرها.

(١) في النسخة : وإقترابها.

(٢) يونس : ١٠ / ٤٥ .

(٣) (القبر و) ليست في تفسير البيضاوي.

(٤) تفسير البيضاوي ٢ : ٥٦٧ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٣٠ .

(٥) ثواب الاعمال : ١٢١ ، مجمع البيان ١٠ : ٦٤٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٨٣ .

في تفسير سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى * أَوْ يَذْكُرُ فَتَنَعُهُ
الذِّكْرَى * أَمْ مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى *
وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١) و (١٠)﴾

ثم لما ختمت سورة (والنازعات) المتضمنة لبيان تكذيب المشركين للمعاد ، والاستدلال على إمكانه والإخبار بوقوعه ، وتهديدهم بأنه يوم الطامة الكبرى ، وبيان حال المكذّبين بالمعاد والمؤمنين به ، نظمت سورة (عبس) المتضمنة لتلك المطالب ، وتهديد المكذّبين بالصاخرة المتقارب للطامة ، فافتتحها بذكر أسمائه بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم شرع سبحانه في تأديب المسلمين بتوجيه العتاب إلى عثمان بن عفّان بقوله : ﴿عَبَسَ﴾ عثمان وقبض وجهه وجمع الجلدة التي بين عينيه غضبا ﴿وَتَوَلَّى﴾ وأعرض لأجل ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ قال القمي رحمه الله : إنّها نزلت في عثمان وابن أم مكتوم ، وكان ابن أم مكتوم مؤدّنا لرسول الله ، وكان أعمى ، وجاء إلى رسول الله وعنده أصحابه ، وعثمان عنده ، فقدمه رسول الله ﷺ على عثمان ، فعبس عثمان وجهه وتولّى عنه ، يعني عثمان أن جاءه الأعمى ^(١) .

وعن الصادق عليه السلام نزلت في رجل من بني أمية كان عند النبي ﷺ فجاء ابن أم مكتوم فلما رآه تغدّر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه فحلى الله ذلك وانكره عليه ^(٢) .
وروى بعض العامة أن ابن أم مكتوم ، وكان اسمه عبد الله بن شريح بن مالك من بني عامر بن لؤي ^(٣) .

وقيل : اسمه [عمرو بن] قيس بن زائدة من بني عامر بن هلال ، ابن خال خديجة ، وكان (أم مكتوم) كنية جدّه ^(٤) . وقيل : كنية أمّه ^(٥) ، روي إنه أتى رسول الله ﷺ وهو بمكة وعنده صنابير قريش منهم عتبة

(١) تفسير القمي ٢ : ٤٠٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٨٤ .

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٦٦٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٨٤ .

(٣) الكشف ٤ : ٧٩٩ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٣٠ .

(٤و٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٣٠ .

وشيبة بن ربيعة وابو جهل والعباس بن عبد المطلب وامه خلف والوليد بن مغيرة يدعوههم إلى الاسلام رجاء أن يسلم باسلامهم غيرهم فقال للنبي ﷺ اقربني وعلمني مما علمك الله ، وكرر ذلك ، فكره النبي ﷺ قطعه الكلام وعبس وأعرض عنه ، فنزلت هذه الآيات ^(١) .

وكان رسول الله ﷺ يكرمه ويقول : إذا مدحه : مرحبا بمن عاتبني فيه ربّي ، رواه الزمخشري ، والفخر الرازي ، وأبو السعود ، وإسماعيل الحقي ^(٢) ، وقال الفخر : أجمع المفسرون على أنّ الذي عبس وتولى هو الرسول ﷺ ، وأجمعوا على أنّ الأعمى ابن أم مكتوم ^(٣) .

وقال بعض علماء أصحابنا ، ما اشتهر من تنزيل هذه الآيات في النبي ﷺ دون عثمان يأباه سياق مثل هذه المعاتبات للنبي ﷺ الغير اللاتقة بمنصبه ، وكذا ما ذكر بعدها إلى آخر السورة ^(٤) .

ووجه بعض العامة فعل النبي ﷺ بأن أم مكتوم كان سؤاله حراما في الواقع عن النبي ﷺ لكونه إيذاء ومانعا له عما هو الأهم من دعوة جمع من صناديد قريش إلى الإسلام ، وكان الواجب على النبي ﷺ ، الإعراض عنه والاشتغال بالأهم مع أنّه كان مأذونا في تأديب المسلمين ، ولذا كان ابن أم مكتوم مستحقا للعتاب ، ولكن لما كان فعل النبي ﷺ موهبا لتقديمه الأغنياء على الفقراء ، أو لأنّه كان ميل النبي ﷺ إلى إسلامهم لقرابتهم وشرفهم وعلو منزلتهم ، والنفرة على الأعمى الذي لا قرابة له ولا شرف ^(٥) ، والعبوس والتوليّ كانا لتلك الداعية ، عاتبه الله عليه ، لأنّه ترك للأولى ، والتعبير عن ابن أم مكتوم بالأعمى الدالّ على تحقيره ، وإن نافي تعظيمه بتوجيه العتاب إلى النبي ﷺ بسبب إعراضه عنه وتعيين وجهه ، إلّا أنّ في التعبير إشعارا باستحقاق الأعمى مزيد الرفق والرأفة ، أو لعذر في قطع كلام النبي ﷺ ، أو لزيادة الإنكار كأنه قال تعالى : تولى لكونه أعمى ، مع أنّه لا يليق هذا بمن له خلق كريم.

أقول : بعد الاعتراف بأنّه كان الواجب على النبي ﷺ الأعراض والتوليّ عنه ، والاشتغال بما هو الأهم ، وكون تأديب المسلمين وظيفته ﷺ ، وكون ميل النبي ﷺ إلى إسلامهم لقرابتهم وشرفهم ، مع كونه مأمورا بإنذار خصوص أقربائه بقوله : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ^(٦) وكون إسلامهم سببا لاسلام عامة قريش ، بل أكثر العرب ، أي مجال للعتاب وتوهين النبي ﷺ إلى يوم القيامة بأداء الواجب عليه ، وكون داعية إسلامهم موجبا لغاية تعظيمه ، لا توهينه وتعظيم الأعمى ، وأمّا دعوى أنّه

(١) الكشف ٤ : ٧٠٠ ، تفسير الرازي ٣١ : ٥٤ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٠٧ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٣٠ .

(٢) الكشف ٤ : ٧٠١ ، تفسير الرازي ٣١ : ٥٤ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٠٧ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٣١ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ٥٥ .

(٤) تفسير الصافي ٥ : ٢٨٥ .

(٥) تفسير الرازي ٣١ : ٥٥ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٣٢ .

(٦) الشعراء : ٢٦ / ٢١٤ .

كان في قلب النبي ﷺ النفرة عن الأعمى لعدم القرابة بينه وبينه وعدم شرفه ففرية (١) عليه ﷺ ، مع قولهم في توجيه التعبير بالأعمى بأنه لزيادة الإنكار على النبي ﷺ فكأنه تعالى قال : توَلَّى لكونه أعمى ، فرية (٢) على الله ، لأنه علم أنه ما توَلَّى لكونه أعمى ، بل توَلَّى عنه للاشتغال بدعوة الأعاضم الذين إسلامهم في نهاية الأهمية.

ثم شدد سبحانه العتاب على العابس المتوَلَّى بتوجيه الخطاب إليه بقوله : ﴿وَمَا يُذْرِكُ﴾ وأي شيء أعلمك بحال الأعمى ؟ ﴿لَعَلَّهُ يَزْغَى﴾ ويتطهر بما يتعلم ويتلغن من الشك والأخلاق الرذيلة ﴿أَوْ يَذْكُرُ﴾ ويتعظ ﴿فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ والموعظة بزيادة رغبته في العبادة والطاعة.

ثم بالغ سبحانه في اللوم بقوله : ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ وكان ذامال وثروة ﴿فَأَنْتَ﴾ يا عثمان ﴿لَهُ تَصَدَّى﴾ وإليه تعرض ، وعليه تقبل بوجهك ، وتقربه إليك ﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾ ولا تبالي ﴿أَلَا يَزْغَى﴾ إذا كان الجاني غنيا ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ﴾ حال كونه ﴿يَسْعَى﴾ إلى الخير وتعلم أحكام الاسلام ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ الله ويخاف عقابه ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ وتعرض ، ولا تقبل إليه ، ولا تعني به ﴿كَأَلَّا﴾ لا تتعرض عن المسلم المسترشد.

وأما على ما ذكر أهل السنة من شأن نزولها ، فالمعنى ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ وأظهر عدم الحاجة إلى الايمان ، أو إلى الله ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ وعليه تقبل بوجهك ، وتقربه إليك ، ﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد وزر ووبال في ﴿أَلَا يَزْغَى﴾ ولا يتطهر ذلك المستغني بالاسلام حتى تهتم بأمره ودعوته ، وتعرض عمن أسلم فاته ليس عليك إلا البلاغ ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى﴾ الله ﴿فَأَنْتَ﴾ يا محمد ﴿عَنْهُ تَلَهَّى﴾ وتعرض ولا تقبل عليه ﴿كَأَلَّا﴾ لا تتعرض للمستغني ، ولا تعرض عن المسلم.

قال بعض مفسري العامة : لما تلا جبرئيل هذه الآيات على النبي ﷺ عاد وجهه كأنما ذرّ عليه الرماد ، وينتظر ما يحكم الله عليه ، فلما قال : ﴿كَأَلَّا﴾ سري عنه (٣) .

أقول : حبّهم لعثمان بعثهم على صرف الآيات عنه وتوجيهها إلى النبي ﷺ ، مع أن المسلم لا يرضى به ، مع القطع بأنه حبيب الله ، ولا يرضى الله بإيلاام قلب حبيبه وتوهينه في أمته لإعراضه الواجب عليه عن الأعمى.

﴿كَأَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ *

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١١) و (١٦)﴾

(١) في النسخة : فرية.

(٢) في النسخة : قريا.

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ٥٧ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٣٣ .

ثم إنَّه تعالى بعد هذه الموعظة النافعة مدح القرآن العظيم المشتغل عليها بقوله : ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ وعظة لأهل العالم إلى يوم القيامة ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ التذكُّر والاتِّعاض بالقرآن ﴿ذِكْرُهُ﴾ واتَّعظ به أو حفظه ولا ينساه ، فإنَّه مكتوب آياته ﴿فِي صُحُفٍ﴾ ودفاتر منتسخة من اللوح المحفوظ ﴿مُكْرَمَةٍ﴾ تلك الصُّحُف عند الله ، لكونها صحف القرآن الكريم ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ في السماوات ، موضوعة في البيت المعمور الذي يكون في السماء الرابعة ، أو في بيت العزَّة الذي يكون في السماء الدنيا ، أو مرفوعة القدر والمنزلة ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ ومنزَّهة من مساس أيدي الشياطين ، منتسخة في السماء ، أو منزلة إلى الأرض ﴿بِأَيْدِي﴾ ملائكة ﴿سَفَرَةٍ﴾ الذين يسافرون بالوحي بين الله وبين رسله ، أو الكتبة كما عن ابن عباس^(١) ﴿كِرَامٍ﴾ أولئك الملائكة على رُءُوسهم ، أو متكرِّمين من أن يكونوا مع ابن آدم عند الجماع وقضاء الحاجة ﴿بِرَّةٍ﴾ ومطيعين لله.

قيل : إنَّ المراد من الصُّحُف صحف الأنبياء^(٢) ، والمراد من السَّفرة الكرام أصحاب الرسول^(٣) ، أو القراء^(٤) ، وليس بشيء.

﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْقَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرُهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ (١٧) و (٢٣)

ثم لما كان الكفَّار تكبَّروا عن الإيمان بهذا القرآن الذي يكون في نهاية العظمة ، واستنكفوا عن تصديقه وقبوله ، ذمَّهم سبحانه ، وأظهر الغضب عليهم بقوله : ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ﴾ وهو دعاء عليه بما يكون عند العرب أشنع الدعوات ﴿مَا أَكْفَرُهُ﴾ وأشد كفره برَّبِّه مع كثرة إحسانه إليه وإنعامه عليه ، أما يتفكَّر في أنَّه ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ﴾ حقير مهين ﴿خَلَقَهُ﴾ الله وكوَّنه. قيل : نزلت في عتبة بن أبي لهب^(٥). ثم بيَّن سبحانه ذلك الشيء القدر الذي كان مبدأ خلقه بقوله : ﴿مِنْ نُطْقَةٍ﴾ قدرة ﴿خَلَقَهُ﴾ الله وأوجده ﴿فَقَدَرُهُ﴾ وسوَّاه إنساناً كامل الأعضاء والجوارح والقوى. وقيل : يعني قدر كلِّ عضو منه كميته وكيفية بالقدر اللائق بمصلحته^(٦). وقيل : يعني قدره أطواراً نطفة ثم علقه ثم مضغه إلى آخر خلقه ، ذكرها أو أنثى ، سعيداً أو شقياً^(٧) ، فمن كان أصله ومبدأ خلقه ذلك الشيء الحقير المهين ، كيف يرى لنفسه العظمة ويتكبر ويتبخر ؟

(١-٤) تفسير الرازي ٣١ : ٥٨.

(٥) تفسير الرازي ٣١ : ٥٩.

(٦) تفسير الرازي ٣١ : ٦٠.

(٧) تفسير الرازي ٣١ : ٦٠ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٣٥.

﴿ثُمَّ﴾ بعد إتمام خلقه في الرحم ﴿السَّيْلَ﴾ إلى الخروج منه ﴿يَسْرَهُ﴾ وسهله بأن فتح له باب الرحم ونكسه وقلبه بأن صيرّ رجله من فوق ورأسه من تحت ، أو المراد أنّه تعالى بعد كبره سهل له سبيل الخير والشرّ في الدين والسعادة والشقاوة ، ومكّنه من السلوك فيهما ﴿ثُمَّ﴾ إنّهُ تعالى بعد انقضاء أجله ومدة حياته ﴿أَمَاتَهُ﴾ بقدرته ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾ ودفنه في الأرض تكريماً له وحفظاً له من أن يبقى على الأرض فتأكله السباع والطيور ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ﴾ ربه انشأه ﴿أَنْشَرَهُ﴾ وبعثه للحساب وجزاء الأعمال.

﴿كَلَّا﴾ ليس للإنسان التكبر والترفع والكفر والطغيان وإنكار البعث ﴿لَمَّا يَفْضُ﴾ الإنسان ولم يمثل ﴿مَا أَمَرَهُ﴾ الله به من الإيمان والطاعة ، بل أحلّ به بالكفر والعصيان مع أنّ حقّ نعمائه أن يؤدّي جميع ما أمره به.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا *
فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَبْنَا وَقَضَبًا * وَزَيَّنَّا وَنَحْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا *
وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٢٤) و (٣١)﴾

ثمّ عدّ سبحانه إنعامه على الإنسان بقوله : ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ومأكوله الذي يعيش به ، كيف دبرنا أمره ؟ وعن الباقر عليه السلام أنّه سئل : ما طعامه ؟ قال : « علمه الذي يأخذه عمّن يأخذه » (١).

﴿أَنَا صَبَبْنَا﴾ وأنزلنا من السماء بالأمطار ﴿الْمَاءَ﴾ أولاً ﴿صَبًّا﴾ نافعاً وافياً للنباتات ﴿ثُمَّ﴾ بعد إنزال الماء ﴿شَقَقْنَا الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿شَقًّا﴾ لائقاً بما يخرج من الأرض ما ينبت منها صغراً وكبراً ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ بقدرتنا ورحمتنا ﴿حَبًّا﴾ كثيراً نافعاً من الحنطة والشعير وأضرابهما ممّا يحصد ﴿وَعَبْنَا﴾ وشجر كرم ثمرة غذاء وفاكهة ﴿وَقَضَبًا﴾ ورطباً مقطوعاً من النخل ، كما عن ابن عباس (٢) . أو الرطوبة التي يقال لها بالفارسية (اسپست) وإذا ييست سميت (بالف) وهو علف الدوابّ والأنعام ، كما في رواية أخرى عن ابن عباس (٣) . وقيل : إنّهُ كلّ نبات يؤكل رطباً كالكرّاث (٤) . وقيل : إنّهُ مطلق العلف (٥) .

﴿وَزَيَّنَّا وَنَحْلًا﴾ الذين هما أنفع الأشجار ﴿وَحَدَائِقَ﴾ وبساتين ﴿غُلْبًا﴾ ومتكاثفة الأشجار ، أو ملتفها ، أو ذوات أشجار عظام ، كما عن ابن عباس (٦) ﴿وَفَاكِهَةً﴾ وثماراً يلتذّ بها ﴿وَأَبًّا﴾ وحشيشاً

(١) الكافي ١ : ٣٩ / ٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨٧ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٣٨ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ٦٢ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٣٨ .

(٥) تفسير الرازي ٣١ : ٦٢ .

(٦) تفسير الرازي ٣١ : ٦٣ .

ومرعى .

روي أنّ أبا بكر سئل عن قول الله : ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ فلم يعرف معنى الأب وقال : أيّ سماء تطلّني ، أم أرض تقلّني ، أم كيف أصنع إن قلت في كتاب الله بما لا أعلم ، أما الفاكهة فنعرفها وأما الأب فالله أعلم به فبلغ أمير المؤمنين عليه السلام مقالته في ذلك ، فقال : « سبحان الله ! أما علم أنّ الأب هو الكالأ والمرعى » (١) .

أقول : من العجائب أنّه كان في تمام زمان البعثة في حضور الرسول ﷺ وكانت قراءة القرآن من العبادات الشائعة في ذلك الزمان ، وكان الرسول ﷺ يدرّس القرآن ومعانيه وتفسيره ، وهو بعد عمره كان جاهلا باللغة المستعملة في القرآن ، ولم يسأل النبي ﷺ وأصحابه ، فكيف بسائر العلوم والأحكام؟

﴿مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ * فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ *

وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٢) و (٣٧)﴾

ثمّ لما ذكر سبحانه ما يغتدي به الناس والأنعام ، وجّه الخطاب إلى الناس تكميلاً لامتنانه عليهم بقوله : ﴿مَتَاعاً﴾ والتقدير خلقنا هذه الأغذية لتكون متاعاً ومنفعة ﴿لَكُمْ﴾ أيّها الناس ﴿وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ ومواشيكم ، فلا ينبغي لكم في حكم العقل أن تكفروا هذه النعم ، وتتمردوا عن طاعة المنعم عليكم ، وتكبروا على رسوله وسائر عبيده .

ثمّ ذكر سبحانه بعض أهوال يوم القيامة ودار الجزاء إرعاباً للقلوب وتذكيراً لمعادهم بعد بيان مبدأ خلقهم ومعاشهم بقوله : ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ﴾ ونزلت بكم الداهية العظيمة ، وهي الصيحة التي تخرج من الصّور بالنفخة الثانية التي يحيا بها الأموات في القبور فتفتح ، وتفتك شدّتها آذانهم ، أو يفتحون ويستمعون لها ، أعني من الصّاعّة .

﴿يَوْمَ يَفِرُّ﴾ فيه ﴿الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ مع كمال الأنس بينهما في الدنيا وتظاهرها في الشدائد ﴿وَو﴾ من ﴿أُمِّهِ﴾ التي لها عليه حقوق كثيرة ﴿وَو﴾ من ﴿أَبِيهِ﴾ الذي كان في غاية العطفة به والشفقة عليه ﴿وَو﴾ من ﴿صَاحِبَتِهِ﴾ وزوجته التي كانت أنيسته في الدنيا ﴿وَو﴾ من ﴿بَنِيهِ﴾ وأولاده الذين كانوا أحبّ الخلق إليه وأفلاذ كبده ، وذلك الفرار إنّما هو لأجل أن ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ﴾ وشغل عظيم وخطب هائل فظيع ﴿يُغْنِيهِ﴾ ويكفيه في الاهتمام به بحيث لا مجال له أن يلتفت إليهم ، أو يغنيه ويصرفه عنهم ، وهو اشتغاله بنجاة نفسه - التي هي أعزّ النفوس عنده من الأهوال والعذاب .

(١) إرشاد المفيد ١ : ٢٠٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٨٦ .

وقيل : إن علّة الفرار تضييعه لحقوقهم وارتكاب الظّلم عليهم ^(١) .

عن الرضا عليه السلام قال : « قام رجل يسأل أمير المؤمنين عليه السلام عن آية ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ﴾ وقال : من هم ؟ قال : قابيل يفرّ من هابيل ، والذي يفرّ من أمّه موسى ، والذي يفرّ من أبيه إبراهيم » ^(٢) . أقول : لا بدّ من حمل الرواية على بيان المثال .

روى في (المجمع) عن سودة زوج النبي صلى الله عليه وآله أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يبعث الناس حفاة عراة غرلا ^(٣) ، يلجمهم العرق ، ويبلغ شحمة الاذن » قلت : يا رسول الله ، واسوأته ينظر بعضنا إلى بعض ^(٤) ؟ قال : شغل الناس عن ذلك وتلا هذه الآية ^(٥) .

وروى بعض العامة أنّ عائشة قالت : يا رسول الله ، كيف يحشر الناس ؟ قال : « حاة عراة » قالت : وكيف تحشر النساء ؟ قال : « حفاة عراة » قالت : واسوأته النساء مع الرجال حفاة عراة ؟ فقرا رسول الله هذه الآية : ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ﴾ إلى آخرها ^(٦) .

﴿وَجُودٌ يُؤْمِنُ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوَجُودٌ يُؤْمِنُ عَلَيْهَا غَبْرَةٌ *

تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (٣٨) و (٤٢)

ثمّ ذكر سبحانه حسن حال المؤمنين بقوله : ﴿وَجُودٌ﴾ للمؤمنين ﴿يُؤْمِنُ﴾ وفي ذلك الوقت الهائل ﴿مُسْفِرَةٌ﴾ ومشرقة كالشمس المضيئة ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ وفرحة للعلم بالفوز بالسعادة الأبدية ، والنجاة من آلام الدنيا ومتاعها ، والفراغ من الحساب بسرعة ويسر ﴿مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ بالنعيم المقيم والراحة الدائمة من قبل الله ، أو الملائكة فاتّهم يقولون لهم : ﴿أَبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ^(٧) . ﴿وَوَجُودٌ﴾ آخر للأشقياء ﴿يُؤْمِنُ عَلَيْهَا غَبْرَةٌ﴾ وكدورة من شدّة الخوف ﴿تَرْهَقُهَا﴾ وتغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ وظلمة وسواد كالدخان من الخجلة والوحشة ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بسواد الوجه والغبرة ﴿هُمُ الْكَافِرَةُ﴾ بالله ورسوله ﴿الْفَجَرَةُ﴾ في أعمالهم ، والعصاة لخالقهم .

عن الصادق عليه السلام : « من قرأ سورة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ و ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ كان تحت جناح الله من الجنان ، وفي ظلّ الله وكرامته في جنّاته ، ولا يعظم ذلك على الله إن شاء الله تعالى » ^(٨) .

(١) تفسير الرازي ٣١ : ٦٤ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١١٣ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٤٥ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٨٨ .

(٣) الغرل : جمع أغرل ، وهو الذي لم يختن .

(٤) زاد في النسخة وتفسير الصافي : إذا جاء .

(٥) مجمع البيان ١٠ : ٦٦٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٨٨ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٤٠ .

(٧) فصلت : ٤١ / ٣٠ .

(٨) ثواب الأعمال : ١٢١ ، مجمع البيان ١٠ : ٦٦١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٨٩ .

في تفسير سورة التكوير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا
الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا
النَّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْزُدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ
نُشِِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ *
عِلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُخْفِيََتْ * فَلَ أُنْفِيسُ بِالْخَنَسِ * الْجَوَارِ الْكُنَسِ * وَاللَّيْلِ
إِذَا عَسَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١) و (١٨)﴾

[ثم لما ختمت سورة عبس المتضمنة بيان أهوال القيامة وعظمة القرآن وموعظته للخلق ، نظمت بعدها سورة التكوير المتضمنة أيضا بيان بعض أهوال القيامة وتعظيم القرآن ، وكون ذلك موعظة للعالمين إلى يوم القيامة ، فافتتحها سبحانه بذكر أسمائه الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .
ثم شرع سبحانه بذكر بعض أهوال يوم القيامة بقوله : ﴿إِذَا الشَّمْسُ﴾ التي هي كالسراج لأهل الأرض ﴿كُوِّرَتْ﴾ والقيت من السماء ، كما عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ نوران مكوران في النار يوم القيامة » (٢) أو انكشف وازيل ضوءها. عن القمي : أنها تصير سوداء مظلمة (٣) .

﴿وَإِذَا النُّجُومُ﴾ التي هي مصابيح الليل في الدنيا ﴿انْكَدَرَتْ﴾ وتناثرت. قيل : تمطر السماء يومئذ نجوما ، فلا يبقى في السماء نجم إلا وقع على وجه الأرض (٤) ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ﴾ التي هي أوتاد الأرض

(١) هذا النص سقط من النسخة ، وأثبتناه بعد ترجمته من النص الفارسي .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ٦٦ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٤٣ ، ولم ينسبه إلى أحد .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٤٠٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٠ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٤٤ .

﴿سَبَرْتُ﴾ ورفعت في الأرض ، وحركت بسرعة كالسحاب في وجهها ، أو في الجوّ بالزلزلة الحاصلة بالنفخة الثانية ﴿وَإِذَا الْعِشَاءُ﴾ والتّوق الحوامل التي مضت من مدّة حملها عشرة أشهر ، وهي أحبّ الأموال عند العرب ﴿عُطِّلَتْ﴾ وتركّت مسيئة مهملة لا داعي لها ، لاشتغال أهلها بأنفسهم ، وهي كناية عن غفلة الناس عن أموال الدنيا لرفع حاجتهم عنها ، وغلبة الوحشة والدهشة عليهم ﴿وَإِذَا الْخُوشُ﴾ والحيوانات البرية الفارة عن غير جنسها ﴿حُشِرَتْ﴾ وجمعت في موقف القيامة واحتلط بعضها ببعض وبالإنسان بلا تعرّض للغير من شدّة أهوال اليوم.

وقيل : يعني بعثت للقصاص إظهارا للعدل ^(١) ، قيل : يحشر كلّ حيوان حتّى الذّباب للقصاص ، فإذا قضى بينها ردّت ترابا ، فلا يبقى منها إلّا ما فيه سرور بني آدم وإعجاب المؤمن بصورته أو بصوته كالطّاوس والبلبل ^(٢) . وعن ابن عباس : حشرها موتها ^(٣) .

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ﴾ كلّها ﴿سُجِّرَتْ﴾ وانقلب ماؤها نارا ، كما عن ابن عباس ^(٤) . وعن ابن عمر أنّه لما رأى بحرا قال : يا بحر متى تعود نارا ^(٥) . وقيل : يعني ملئت بتفجّر بعضها إلى بعض ، فيصير الكلّ بحرا واحدا ، أو حميت ^(٦) ، أو نشفت فلا يبقى فيها رطوبة ^(٧) .

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ﴾ والأرواح ﴿زُوجَتْ﴾ بالأجساد ، أو قرنت بمن كان مثلها في الخير والشرّ ، فيضمّ الصالح بالصالح ، والفاجر بالفاجر ، أو جعلت أزواجا ثلاثة : أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ، والمقرّين ، أو قرنت بالملائكة الذين كانوا كتّابه أعمالهم ، أو قرنت بأعمالهم ، أو قرنت بشياطينهم. وعن ابن عباس : زوجت نفوس المؤمنين بالخور العين ، وقرنت نفوس الكفّار بالشياطين ^(٨) . أو قرنت كلّ نفس بأهل دينها ^(٩) ، اليهود باليهود ، والنصارى بالنصارى ، والمجوس بالمجوس ^(١٠) .

﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ﴾ والبنت المدفونة حيّة ﴿سُئِلَتْ﴾ من جانب الله أنّها ﴿يَأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ تبكيها لقاتلها ، وتسليها لها ، وإظهارا لشدّة الغضب على وائدها.

قيل : كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها ، ألبسها جبّة من صوف أو شعر ، ترعى له الإبل أو الغنم في البادية ، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا بلغ سنّها ستّ سنين ، فيقول لامّها ، طيبيها وزيّنيها حتّى أذهب بها إلى أحبّائها ، وقد حفر لها بئرا في الصحراء ، فيبلغ بها البئر ، ويقول لها : انظري فيها ، ثمّ يدفعها فيها من خلفها ، ويهيل عليها التّراب حتّى يستوي البئر بالأرض ، خوفا من الفقر أو من الأسر ،

(٢١) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٤٥ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ٦٨ .

(٥٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٤٥ .

(٦) تفسير أبي السعود ٩ : ١١٥ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٤٥ .

(٧) تفسير الرازي ٣١ : ٦٨ .

(٨) تفسير الرازي ٣١ : ٦٩ .

(٩) في النسخة : دينه .

(١٠) تفسير الرازي ٣١ : ٦٩ .

أو لحوق عاد من قبلها ^(١) .

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ ودفاتر الأعمال ﴿نُشِرَتْ﴾ وفتحت للحساب ، فيقضى بإيمان أصحابها وأعمالهم ، فيقفون على ما فيها.

وفي الحديث : « يحشر الناس عراة حفاة » فقالت أم سلمة : فكيف بالنساء ؟ فقال : « شغل الناس يا أم سلمة » قالت : ما شغلهم ؟ قال : « نشر الصحف ، فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل » ^(٢) .
وقيل : يعني فرقت بين أصحابها ^(٣) . وقيل : إذا كان يوم القيامة تطايرت الكتب من تحت العرش ، فتقع صحيفة المؤمن في يده في الجنة العالية ، وصحيفة الكافر في يده في سموم وحميم ^(٤) . قيل : يعني مكتوب فيها ، وهي صحف غير صحف الأعمال ^(٥) .

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ وكشفت عما فوقها ، وظهر ما وراءها من العرش والجنة. وقيل : يعني نزعت ، أو طويت ^(٦) ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ واولدت للكافرين إيقادا شديدا غضبا عليهم ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ وقربت من المتقين ليدخلوها ، والمقصود تقررت منها ، وعند ذلك ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ حضرت ما تدري أي نفس وما حالها ﴿مَا أَحْضَرَتْ﴾ وجلبت فيه من الأعمال خيرا أو شرا ، يرونها في صحائفها ، أو يرون مجازاتها ، أو يرون نفسها لتجسستها.

عن ابن عباس : أنه قرأ السورة فلما بلغ إلى قوله : ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ قال : لهذه اجريت القصّة ^(٧) .

﴿فَلَا﴾ ليس الأمر كما تزعمون أيها الكفرة ﴿أُفْسِمُ بِالْخُنُوسِ﴾ والكواكب الرواجع ، وهي الخمسة المتحيرة التي ترجع من آخر البرج إلى أوله. عن أمير المؤمنين عليه السلام : « هي خمسة أنجم : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد » ^(٨) .

و ﴿الْجَوَارِ﴾ والسيارات ﴿الْكُنُوسِ﴾ والمختفيات تحت ضوء الشمس بعد رجوعها إلى أول البرج ، كما يكنس ويدخل الوحش في كناسته وبيته الذي اتخذ لاختفائه.

وقيل : إنّ المراد جميع الكواكب ، وخنوسها غيبوبتها عن الأنظار في النهار ، وكنوسها ظهورها بالليل في أماكنها ، كالوحش في كنسها ، وهو أيضا مروى عن أمير المؤمنين عليه السلام ^(٩) وقيل : الكُنُوس : المتواريات

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٤٦ .

(٢-٤) تفسير أبي السعود ٩ : ١١٦ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٤٧ .

(٥) تفسير أبي السعود ٩ : ١١٦ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٤٧ .

(٦) تفسير الرازي ٣١ : ٧٠ .

(٧) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٤٨ .

(٨) مجمع البيان ١٠ : ٦٧٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩١ .

(٩) تفسير الرازي ٣١ : ٧١ .

تحت ضوء الشمس^(١) . وعن القمي قال : التَّحُومُ تَكُنْسُ بالنهار فلا تَبِينُ^(٢) .
وعن الباقر عليه السلام أَنَّهُ سئل عنها فقال : « إِمَامٌ يَخْنُسُ سَنَةً سَتَيْنِ وَمَائَتَيْنِ ، ثُمَّ يَظْهَرُ كَالشَّهَابِ
يَتَوَقَّدُ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلَمَاءِ ، وَإِنْ أَدْرَكَتْ زَمَانَهُ قَرَّتْ عَيْنُكَ »^(٣) .
أقول : هذا تأويل ، والأول تنزيل .
﴿وَاللَّيْلَ إِذَا عَسَّسَ﴾ وأقبل ظلامه ، أو أدبر ﴿وَالصُّبْحَ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ وأقبل بطلوعه روح ونسيم أو
تكامل ضوءه وامتدَّ .

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ

أَمِينٍ (١٩) و (٢١)﴾

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ الْمُقَسَّمُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ كَوْنُ الْقُرْآنِ كَلَامَ اللَّهِ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ﴾ اللَّهُ الْعَظِيمِ النَّازِلِ
بِتَوَسُّطِ ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ عَلَى اللَّهِ رِسَالَةٌ مِنْهُ وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ أَنَّ هَذَا الَّذِي أَخْبَرَكَمُ مِنْ أَمْرِ السَّاعَةِ الْقَوْلُ
جِبْرِئِيلُ بِالرِّسَالَةِ مِنَ اللَّهِ^(٤) . وَقِيلَ : إِنَّ مِنْ كَرَمِ جِبْرِئِيلَ أَنَّهُ يُعْطِي أَفْضَلَ الْعَطَايَا ، وَهُوَ الْوَحْيُ وَالْمَعْرِفَةُ
وَالْهُدَايَةُ ، وَيُعْطِفُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَيَقْهَرُ أَعْدَاءَهُمْ^(٥) .
﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ شَدِيدَةُ وَقْدَرَةٍ عَلَى امْتِثَالِ أَوْامِرِ اللَّهِ تَعَالَى . رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِجِبْرِئِيلَ : « ذَكَرَ
اللَّهُ قُوَّتَكَ ، فَأَخْبَرَنِي بِشَيْءٍ مِنْ آثَارِهَا . قَالَ : رَفَعْتَ قَرَى قَوْمِ لُوطٍ الْأَرْبَعَ مِنَ الْمَاءِ الْأَسْوَدِ بِقَوَادِمِ جَنَاحِي
حَتَّى سَمِعَ أَهْلَ السَّمَاءِ نَبَاحَ الْكَلْبِ وَأَصْوَاتَ الدِّيكَةِ ثُمَّ قَلْبَتْهَا »^(٦) .

وقيل : إِنَّ الْمُرَادَ الْقُوَّةَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، وَتَرَكَ الْإِحْلَالَ بِهَا مِنْ أَوَّلِ الْخَلْقِ إِلَى آخِرِ الدُّنْيَا^(٧) .
﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ الْعَظِيمِ وَالسُّلْطَانِ الْقَاهِرِ الْغَالِبِ ﴿مَكِينٍ﴾ وَرَفِيعِ الْمَنْزِلَةِ وَعَظِيمِ الشَّأْنِ ﴿مُطَاعٍ﴾
ثُمَّ ﴿وَفِي السَّمَاءِ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ لَا يَتَخَلَّفُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِهِ﴾ ﴿أَمِينٍ﴾ عَلَى وَحْيِ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ، قَدْ
عَصَمَهُ اللَّهُ مِنَ الْخِيَانَةِ وَالزَّلَلِ .

عن (الجمع) : في الحديث : « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لِجِبْرِئِيلَ : مَا أَحْسَنَ مَا أَتْنِي عَلَيْكَ رَبُّكَ ﴾ ذِي
قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿ فما كانت قوتك وما كانت أمانتك ؟ فقال : أَمَا قوتي فاني
بعثت إلى مدائن لوط ، وهي أربع مدائن ، في كل مدينة أربعمئة ألف مقاتل سوى الذراري ، فحملتهم

(١) تفسير الصافي ٥ : ٢٩٢ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٤٠٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٢ .

(٣) الكافي ١ : ٢٧٦ / ٢٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٢ .

(٤) تفسير الرازي ٣١ : ٧٣ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٥١ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٥١ .

من الأرض السفلى حتى سمع أهل السماوات أصوات الدجاج ونباح الكلاب ^(١) ، ثم هويت بمنّ وقلبتهنّ ، وأما أمانتي فاني لم أوامر بشيء فعدوته إلى غيره » ^(٢) .

وعن النبي ﷺ أنه قال لجبرئيل لما نزلت : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ^(٣) : « أصابك من هذه الرحمة شيء ؟ » قال : نعم ، إني كنت أخشى عاقبة الأمر ، فأمنت بك لما أثنى الله عليّ بقوله : ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ ^(٤) .

عن الصادق عليه السلام - في قوله ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ - قال : « يعني جبرئيل » . قوله : ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ؟﴾ قال : « يعني رسول الله ﷺ هو المطاع عند ربّه ، الأمين يوم القيامة » ^(٥) .

أقول : لا شبهة أن الوصفين منطبقان على رسول الله ﷺ ولكن الظاهر أنّهما وصفان لجبرئيل .

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ
بِضَيِّينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاوُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ

الْعَالَمِينَ (٢٢) و (٢٩)﴾

ثم إنّ تعالى بعد إثبات كون القرآن كلام الله ، ردّ قول مكذّبي الرسول ونسبتهم إياه إلى الجنون بقوله : ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ﴾ محمد ﷺ المدّعي للرسالة فيكم ، يا أهل مكّة ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ كما تزعمون بل هو أعقل أهل العالم ، ومخبركم عن الله جميع ما يقول لكم بتوسّط جبرئيل .

﴿وَوَلَّى﴾ بالله ﴿لَقَدْ رَآهُ﴾ وعائين شخصه ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ وعند مطلع الشمس الأعلى ، والأظهر في السماء ، وليس محمد ﴿وَمَا هُوَ عَلَى﴾ ما أخبركم من ﴿الْغَيْبِ﴾ كقصص الأنبياء السابقة والامم السالفة ﴿بِضَيِّينٍ﴾ ومتّهم بالكهانة والتعلّم من العلماء والكذب في الاختلاق .

وقيل : يعني بخیل بأداء الوحي ، فيخبر ببعضه ويمسك عن بعض حتى يأخذ شيئاً من الناس ، كما هو دأب الكاهن ^(٦) .

ثمّ لما كان المشركون يقولون : إنّ الشيطان يجيء بهذا القرآن ويلقيه على لسان محمد ؛ ردّهم الله بقوله : ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ﴾ مستترق للسمع ﴿رَّجِيمٍ﴾ ومطرود بالشّهب ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أيّها

(١) في النسخة : الكلب .

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٦٧٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٢ .

(٣) الأنبياء : ٢١ / ١٠٧ .

(٤) مجمع البيان ٧ : ١٠٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٣ .

(٥) تفسير القمي ٢ : ٤٠٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٣ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٥٣ .

المشركون ؟ وإلى أي درجة تضلّون عن طريق الحقّ في شأن القرآن ومحمد ؟ وإلى أي حدّ تبعدون عن منهج الصواب حتّى تتولوا ما تقولون ؟

﴿إِنْ﴾ هذا القرآن ، وما ﴿هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ وعظة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ من الجنّ والإنس أجمعين ، وإتّما نفعه ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ﴾ يا أهل العالم ﴿أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ بتحريّ الحقّ والملازمة للصواب .
روي أنّ أبا جهل لما سمع الآية قال : الأمر إلينا ، إن شئنا استقمنا ، وإن شئنا لم نستقم ^(١) .
فردّه الله تعالى بقوله : ﴿وَمَا تَشَاؤُنَ﴾ الاستقامة ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ الذي هو ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وخالفهم ومدبّر أمورهم بالرزق وغيره ممّا يصلحهم وما يليق بهم .

عن الصادق عليه السلام - في قوله : ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضِيقٍ﴾ - قال : « وما هو تبارك وتعالى على نبيه ﷺ بغيه بضنين عليه » ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ قال : « يعني الكهنة الذين كانوا في قريش ، فنسب كلامهم إلى كلام الشياطين الذين كانوا معهم يتكلمون على ألسنتهم فقال : ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ مثل أولئك ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [في] عليّ عليه السلام ، يعني ولايته أين تفرون منها ؟ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ . قال : لمن أخذ الله ميثاقه على ولايته ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ قال : في طاعة عليّ والأئمة عليهم السلام من بعده ﴿وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قال : لأنّ المشيئة إليه تبارك وتعالى لا إلى الناس » ^(٢) .

وعن الكاظم عليه السلام : « إنّ الله جعل قلوب الأئمة موردا لإرادته ، فاذا شاء الله شاءوا ، وهو قوله : ﴿وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ » ^(٣) .

في الحديث : « من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين ، فليقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ فإنّ فيها بيان أهواله الهائلة على التفصيل » ^(٤) .
الحمد لله على التوفيق لإتمام تفسيرها ، والشكر له .

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٥٤ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٤٠٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٢ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٤٠٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٤ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٥٥ .

في تفسير سورة الانفطار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَشَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ * يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (١) و (٨)﴾

ثمّ لما ختمت سورة التكويد اردفت بسورة الانفطار الرادفة لها في المطالب وبيان أهوال القيامة ، فافتتحها سبحانه على دأبه بذكر أسمائه الحسنی المباركة بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .
ثمّ ابتدأها بذكر بعض أهوال القيامة بقوله : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ وانشقت أبوابا لنزول الملائكة ، أو لرفعها ^(١) وطبها ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ﴾ كلّها ﴿انْتَشَرَتْ﴾ وتساقطت وتفرقت لانتقاض تركيب السماء وطبها ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ وارتفعت الحواجز من بينها بحيث يصير الكلّ بحرا واحدا ، أو ذهب ماؤها فيبست ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ وقلب أسفلها أعلاها وباطنها ظاهرها ، لخروج الموتى منها ، فبعد وقوع تلك الأشرار العلوية والسفلية للساعة قامت القيامة وحينئذ ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ﴾ أي نفس كانت ﴿مَا قَدَّمَتْ﴾ ليومها ^(٢) ذلك من الأعمال التي عملها حال حياته ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ وتركت ^(٣) من سنة حسنة أو سيئة يستقرّ بها بعد موته ، ثمّ يقال : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ العاقل بعد ما أخبرك الأنبياء بأنّ الله يعذبك على الكفر والعصيان في دار الجزاء أشدّ العذاب ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ وأي شيء جرّأك على عصيانه وأمنك من عقابه إلى حدّ لا يجوز ، مع غاية كرمه العفو عنك والتجاوز عن الانتقام منك ؟
قيل : إنّ توصيف ذاته المقدّسة بالكرم حسبما كان الشيطان يغويه بقوله : افعل ما شئت فإنّ ربك كريم ، مع أنّ كرمه لا يوجب الاعتذار به ^(٤) .

(١) في النسخة : لرفعهن.

(٢) في النسخة : ليومه.

(٣) زاد في النسخة : أو أين.

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٥٧ .

عن النبي ﷺ : أنه لما قرأها قال : « غرّه جهله » ^(١).

وقيل : إنّ ذكره الوصف لتلقين العاصي أن يقول : غرّني كرمك ^(٢).

قيل : إنّ الكرم يلازم الحكمة ^(٣) لأنّ العفو العطاء إذا كانا بداعي الحكمة ، كانا كرما ، فكونه كرميا يدلّ على كونه حكيما ، كان عليه أن يعيد الخلق للمجازاة ويحشرهم للحساب ، بل يدلّ وصفه بالكرم على وجوب البعث من جهتين : من جهة إيصال النعمة ، ومن جهة الحكمة.

عن ابن عباس : أنّ الآية نزلت في الوليد بن المغيرة ^(٤) . وقيل نزلت في الأسود بن كلداء الجمحي ، قصد النبي ﷺ في بطحاء مكة ، فلم يتمكن منه ، فلم يعاقبه الله على ذلك ^(٥).

ثمّ وصف سبحانه ذاته بشؤون الكرم بقوله : ﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ وأعطاك نعمة الوجود ﴿فَسَوَّاهُ﴾ وجعل أعضائك سوية سليمة من العيوب معدّة لمنافعها ﴿فَعَدَّلَكَ﴾ وجعل أعضائك متناسبة متساوية. وقيل : يعني فصرك عن الخلقة المكروهة وأعطاك أحسن الهيئة ^(٦) . وعن ابن عباس : جعلك قائما معتدلا حسن الصورة لا كالبهيمة المنحنية ^(٧) ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ﴾ من الصور ﴿مَا شَاءَ﴾ أن يرّبك فيها ﴿رَبِّكَ﴾ قيل : إنّ حرف ﴿مَا﴾ زائدة ^(٨) ، والمعنى : في أيّ صورة شاء واقتضت الحكمة ربّك. وقيل : في أيّ صورة من صور الأب والامّ وأقاربهما ^(٩) . وقيل : إنّ المراد من الصور المختلفة الاختلاف بحسب الطول والقصر والحسن والقبح والذكورة والانوثة ، فإنّ اختلاف التّطفة المتشابهة والأجزاء المتّحدة بالطبيعة في الآثار دليل على خالق قادر مختار ^(١٠).

﴿كَأَلَّا بَلَّ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ

مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٩) و (١٢)

ثمّ لما أثبت البعث ردع الناس عن الاغترار بقوله : ﴿كَأَلَّا﴾ ليس لكم أن تغتروا ﴿بَلَّ﴾ لم تغتروا بكرمه ، وإنّما أنتم ﴿تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ ودار الجزاء ، أو بالاسلام المتضمّن للتكاليف وبيان المجازات عليها ﴿وَالْحَالِ﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْكُمْ﴾ أيّها الناس من قبلنا ﴿لَحَافِظِينَ﴾ وضابطين لأعمالكم من الملائكة حال كونهم ﴿كِرَامًا﴾ على الله ، أو على العباد ، حيث يسارعون إلى كتب الحسنات ، ويتوقّفون في

(١) مجمع البيان ١٠ : ٦٨٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٥ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ٨٠ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ٧٨ و ٧٩ .

(٤) تفسير الرازي ٣١ : ٧٩ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٥٧ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٥٩ .

(٧) تفسير الرازي ٣١ : ٨٠ .

(٨) تفسير الصافي ٥ : ٢٩٦ .

(٩) تفسير الرازي ٣١ : ٨١ .

(١٠) تفسير الرازي ٣١ : ٨١ .

كتب السيئات رجاء أن يتوبوا ، أو يتداركوها بالحسنات ، أو يصعدون بأعمالهم إلى الله ، فان كانت حسنة شهدوا بها ، وإن كانت سيئة سكتوا ، وقالوا : ربنا أنت الستار ﴿كَاتِبِينَ﴾ للأعمال ﴿يَعْلَمُونَ﴾ لحضورهم عندكم في جميع الأوقات والأحوال ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ من الأفعال قليلها وكثيرها خفيها وجليها . في الحديث : « أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى الحالتين : الجنابة والغائط » (١) .

وعن القمي [﴿كَأَلَّا بَلَّ تُكَذَّبُونَ بِالدِّينِ﴾ قال : بالنبي ﷺ (٢) وأمير المؤمنين عليه السلام : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ قال : الملكان الموكلان بالإنسان (٣) ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ يبادرون بكتابة الحسنات لكم ، ويتوانون بكتابة السيئات عليكم ، لعلكم تتوبون وتستغفرون (٤) .

وعن الكاظم عليه السلام قال : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا هَمَّ بِالْحَسَنَةِ خَرَجَ نَفْسَهُ طِيبَ الرِّيحِ ، فَقَالَ صَاحِبُ الْيَمِينِ لَصَاحِبِ الشَّمَالِ : قِفْ فَإِنَّهُ قَدْ هَمَّ بِالْحَسَنَةِ ، فَإِذَا هُوَ عَمَلُهَا كَانَ لِسَانُهُ قَلَمَهُ وَرِيقُهُ مَدَادَهُ فَأُثْبِتَهَا لَهُ ، فَإِذَا هَمَّ بِالسَّيِّئَةِ خَرَجَ نَفْسُهُ نَتْنُ الرِّيحِ ، فيقول صاحب الشمال لصاحب اليمين : قِفْ فَإِنَّهُ قَدْ هَمَّ بِالسَّيِّئَةِ ، فَإِذَا هُوَ فَعَلُهَا كَانَ رِيقُهُ مَدَادُهُ وَلِسَانُهُ قَلَمُهُ فَأُثْبِتَهَا عَلَيْهِ » (٥) .

وعن الصادق عليه السلام أنه سئل : ما علة الموكلين بعباده يكتبون ما عليهم ولهم ، والله عالم السر وما هو أخفى ؟ قال : « استعبدتهم بذلك ، وجعلهم شهودا على خلقه ، ليكون العباد لملازمتهم إيتاهم أشدهم على طاعة الله مواظبة ، ومن معصيته أشد انقباضا ، وكم من عبد يهَمُّ بمعصيته فذكر مكانهم فارعوى وكفّ ، فيقول : ربّي يراني ، وحفظتي علي بذلك تشهد » (٦) .

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٣) و (١٩)﴾

ثم بيّن سبحانه حسن حال المؤمنين في ذلك اليوم وسوء حال الكفار والعصاة بقوله : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ والصلحاء من المؤمنين ومطيعيهم لربهم ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ عظيم دائم لا انقطاع له ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾ والعصاة والعصاة ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ ونار سحرها القهار بغضبه ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويقاسون حرّهما

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٦٠ .

(٢) في النسخة : القمي عن النبي .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٤٠٩ .

(٤) تفسير الصافي ٥ : ٢٩٦ .

(٥) الكافي ٢ : ٣١٣ / ٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٦ .

(٦) الاحتجاج : ٣٤٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٦ .

ويأشرونها بجميع أعضائهم ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ ووقت الجزاء على الأعمال ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا﴾ في آن من زمان حياتهم الأبدية ﴿بِغَائِبِينَ﴾ ومخرجين.

ثم لما ذكر سبحانه يوم الدين عظم شأنه تحويلا للناس بقوله : ﴿وَمَا أَذْرَاكَ﴾ وأي شيء أعلمك ﴿مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ وأي حد له في الشدة والفضاعة ؟

ثم كرر سبحانه الجملة مبالغة في التهويل معطوفة بثم للدلالة على الترقّي في التأكيد بقوله : ﴿ثُمَّ مَا أَذْرَاكَ﴾ أيها الانسان الدراك ﴿مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ وأي شيء صفته ؟ فإن إدراكه خارج عن طوق البشر في هذا العالم.

ثم بين سبحانه فضاعة ذلك اليوم بطريق الإجمال بقوله : ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾ من النفوس ﴿لِنَفْسٍ﴾ أخرى ﴿شَيْئًا﴾ من النفع والضرر ، ولا قدرة لأحد في حق غيره قريبا كان أو صديقا أو غيرها على أمر من الامور ﴿وَالْأَمْرِ﴾ والسلطنة المطلقة الكاملة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الوقت الهائل ﴿لِلَّهِ﴾ وحده لا يزاحمه ولا يشاركه أحد فيما أراد.

في الحديث : « من قرأ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ أعطاه الله من الأجر بعدد كل قبر حسنة ، وبعدد كل قطر ماء حسنة ، وأصلح الله شأنه يوم القيامة » ^(١) .

وعن الصادق عليه السلام : « من قرأ هاتين السورتين ، وجعلهما نصب عينيه في صلاة الفريضة والنافلة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ لم يحجبه الله من حاجة ، ولم يحجزه من الله حاجز ، ولم يزل ينظر إلى الله إليه حتى يفرغ من حساب الناس » ^(٢) .

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٦٣ .

(٢) ثواب الأعمال : ١٢١ ، مجمع البيان ١٠ : ٦٧٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٧ .

في تفسير سورة المطففين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُواهُمْ أَوْ
وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ
النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١) و (٦)﴾

ثم لما ختمت سورة الانفطار المتضمنة لبيان عظمة يوم القيامة وظهور السلطنة المطلقة الإلهية ،
وأن لكل نفس ملائكة يكتبون أعمالها ، وأن الأبرار في نعيم ، وأن الفجار في جحيم ، نظمت سورة
التطفيف المتضمنة لبيان عظمة يوم القيامة ، وقيام الناس فيه لرب العالمين ، وأن كتاب الأبرار في عليين ،
وكتاب الفجار في سجين ، أن الأبرار في نعيم : فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ﴾ .

ثم لما هدّد سبحانه العصاة في آخر السورة السابقة ، وكان التطفيف من أعظم المعاصي ابتداء هذه
السورة بتهديد المطففين بقوله : ﴿وَيْلٌ﴾ وشرّ شديد ، أو هلاك فظيع ، أو عذاب أليم - وعن الباقر
عليه السلام في حديث « بلغنا - والله أعلم - أنها بئر في جهنم » ^(١) - ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ والباخسين حقوق
الناس خفية بالمكيال والميزان. عن الباقر عليه السلام : « أنزل في الكيل والوزن » ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ولم يجعل الويل
لأحد حتى يسمّيه كافرا ، قال الله : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخره ^(٢) .

وهم : ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا﴾ وأخذوا بالكيل ما لهم ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ أو إضرارا عليهم ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾
ويأخذونه كاملا وافيا ، أو وافرا وزائدا على حقهم بالحيل والسرقة من أفواه المكايل أو السنة الموازين :
﴿وَإِذَا كَالُواهُمْ﴾ وأعطوا حقهم بالكيل ﴿أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ وأعطوا حقهم بالوزن ﴿يُخْسِرُونَ﴾ وينقصونه ، مع
أنّ الكيل والوزن جعلتا لتسوية الحقوق وتعديلها.

عن ابن عباس : لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أبخس الناس كيلا ، فأنزل الله هذه الآية ،

(١) تفسير القمي ٢ : ٤١٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٨ .

(٢) الكافي ٢ : ٢٧ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٨ .

فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

وقيل : كان أهل المدينة تجارا يطقّفون ، وكانت يبيعهم المنابذة والملامسة والمخاطرة ، فنزلت هذه الآية ، فخرج رسول الله ﷺ فقرأها عليهم ، وقال : « خمس بخمس » قيل : يا رسول الله ، وما خمس بخمس ؟ قال : ما نقض قوم العهد إلّا سلّط الله عليهم عدوّهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلّا فشا فيهم الفقر ، وما ظهر فيهم الفاحشة إلّا فشا فيهم الموت ، ولا طقّفوا الكيل إلّا منعوا النبات واخذوا بالسّنين ، ولا منعوا الزّكاة إلّا حبس عنهم المطر^(١) .

وعن الباقر عليه السلام قال : « نزلت على نبيّ الله حين قدم المدينة ، وهم يومئذ أسوأ الناس كيلا ، فأحسنوا بعد عمل الكيل »^(٢) .

ثمّ وبّخ سبحانه المطقّفين بقوله : ﴿أَلَا يَنْظُرُ أُولَئِكَ﴾ المطقّفون ولا يحسبون ﴿أَنَّهُمْ﴾ من هذا العمل القبيح الشنيع ﴿مَبْعُوثُونَ﴾ من قبورهم : ﴿لَيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لا يقادر قدر عظمتها لعظم أهواله وشدائده ، لوضوح أنّ الظنّ يأتیان هذا اليوم كاف في التحزّز من القبائح التي يظنّ الابتلاء بتبعاتها.

وقيل : إنّ المراد من الظنّ العلم^(٣) ، لكون النظر في الآية إلى أهل المدينة ، وهم كانوا مصدّقين بالبعث في زمان نزولها. عن أمير المؤمنين عليه السلام : أليس يوقنون ﴿أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾^(٤) ﴿لَيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أعني : ﴿يَوْمَ﴾ القيامة الذي ﴿يَقُومُ﴾ فيه ﴿النَّاسُ﴾ من قبورهم ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وللمحاسبة عنده ، وحيثُ تظّهر لهم عظمة شناعة العمل القبيح وعقابه ، وإن كانوا يرونه في الدنيا حقيرا ، أو يحتمل أنّ المراد من القيام الحضور عنده تعالى.

روي عن النبي ﷺ أنّه قال : « يقوم الناس مقدار ثلاثمائة سنة من الدنيا لا يؤمر فيهم بأمر »^(٥).

وروي عنه عليه السلام : « أنّه يقوم أحدكم في رشحته إلى أنصاف اذنيه »^(٦) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « مثل الناس يوم القيامة إذا قاموا لربّ العالمين مثل السّهم في القراب ، ليس له من الأرض إلّا موضع قدمه »^(٧) .

أقول : في الآية غاية التهديد حيث أثبت الويل للمطففين ، ثمّ وبّخهم ثانيا بأشدّ التوبيخ ، ثمّ وصف يومهم بالعظمة وما عظّمه الله تعالى كان في غاية العظمة ، ثمّ ذكرهم القيامة مع غاية الخشوع والذلّة لربّ العالمين الذي هو في غاية العظمة والهيبة والقدرة ، وفيه دلالة على كمال حكمته وعدالته

(١) تفسير الرازي ٣١ : ٨٨ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٤١٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٨ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ٨٩ .

(٤) الاحتجاج : ٢٥٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٨ .

(٥) تفسير الرازي ٣١ : ٩٠ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٦٥ .

(٦) الكافي ٨ : ١٤٣ / ١١٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٩ .

المقتضية لأن لا يرضى بأقل قليل من الظلم ، فكيف بالكثير .

قيل : إنّ أعرابيا قال لعبد الملك بن مروان : قد سمعت ما قال الله في المطففين - أراد أنّه تعالى بالغ في تهديد المطفّف في أخذ القليل بالكيل والوزن - فكيف حالك وأنت تأخذ الكثير من أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن (١) .

﴿كَأَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِّينَ * وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَجِّينَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ *
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيُّومَ الدِّينِ * وَمَا يُكْذَبُ بِهِ إِلَّا كَلٌّ
مُعْتَدٍ أَتَيْمٌ * إِذَا تُلِيَّ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٧) و (١٣)﴾

ثمّ بالغ سبحانه في تهديد المطففين والردع عنه بقوله : ﴿كَأَلَّا﴾ ليس أمر التطفيف بهذه الحقارة التي تظنّونها . وقيل : إنّ ﴿كَأَلَّا﴾ هنا بمعنى حقّا (٢) ﴿إِنَّ كِتَابَ﴾ أعمال ﴿الْفُجَّارِ﴾ الذين منهم المطفّفون ﴿لَفِي سَجِّينَ﴾ والأرض السابعة السفلى ، كما عن الباقر عليه السلام وابن عباس (٣) ، لغاية بشاعته وحقارته ، أو في أسفل منها في مكان مظلم هو مسكن إبليس وذريته ، كما عن بعض المفسّرين (٤) . أو في صخرة تحت الأرض السفلى ، كما عن بعض آخر (٥) .

وعن النبي ﷺ ، قال : « سَجِّينَ جَبَّ فِي جَهَنَّمَ » (٦) .

أقول : الظاهر أنّه علم مأخوذ من السجن .

عن الباقر عليه السلام - في رواية - « وأما الكافر فيصعد بعمله وروحه حتّى إذا بلغ في السماء نادى

مناد : اهبطوا به إلى سَجِّينَ ، وهو واد بحضر موت يقال له : برهوت » (٧) .

أقول : يحتمل أن يكون لسَجِّينَ معنيان .

وعن الكاظم عليه السلام أنّه سئل عن قوله تعالى : ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِّينَ﴾ قال : « هم الذين

فجروا في حقّ الأئمة واعتدوا عليهم » (٨) .

أقول : الظاهر أنّهم أظهر مصاديق الفجّار ، كما أنّ قول الصادق عليه السلام قال : «هو فلان

وفلان» كذلك (٩) .

ثمّ عظم سبحانه السجّين إرغابا للقلوب بقوله : ﴿وَمَا أَذْرَاكَ﴾ أيّها الإنسان ﴿مَا سَجِّينَ﴾ ثمّ قيل

: إنّ

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٦٦ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ٩٢ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٦٦ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٤١٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٩ ، ولم ترد فيهما كلمة : السفلى ، تفسير الرازي ٣١ : ٩٢ .

(٤) تفسير الرازي ٣١ : ٩٢ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٢٦ .

(٥) تفسير الرازي ٣١ : ٩٢ .

(٦) مجمع البيان ١٠ : ٦٨٨ ، تفسير الرازي ٣١ : ٩٢ .

(٧) مجمع البيان ٤ : ٦٤٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٩ .

(٨) الكافي ١ : ٣٦١ / ٩١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٩ .

(٩) تفسير القمي ٢ : ٤١١ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٩٩ .

الله تعالى ذمّ كتاب الفجّار ^(١) بقوله : ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ ومكتوب فيه أعمال الكفّار والفجّار والفسقة من الجنّ والإنس ، تشهد الشياطين . وقيل : مرقوم بمعنى مختوم ^(٢) . وقيل : يعني كتاب معلّم (بعلامة) دالة على شقاوة صاحبه وكونه من أصحاب النار ^(٣) ﴿وَنُيْلَ﴾ عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي وقت قيام الناس لربّهم ، أو وقت تطائر الكتب ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أعني ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيِّمَ الدِّينِ﴾ وأعرضوا عن الآيات البينات الناطقة به .

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ ومتجاوز عن حدود العقل ، ومقتصر على التقليد غال فيه ﴿أَثِيمٍ﴾ ومصرّ على عصيان الله ، منهمك في الشهوات الفانية ، غافل عمّا وراءها من اللذات الباقية ، من حيث ذاته وإصراره على الكفر : ﴿إِذَا تُتْلَى﴾ وتقرأ ﴿عَلَيْهِ﴾ لإنذاره وهدايته ﴿آيَاتِنَا﴾ المنزلة في القرآن الدالة على صدق النبي ﷺ في دعوى رسالته وصحة البعث . ﴿قَالَ﴾ عنادا ولجاجا : إنّها ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهي من أكاذيب الأنبياء السابقين ، أو الأخبار المسطورة في دفاتر الأمم السالفين ، وتعلّمها محمد ونسبها إلى الله .

قيل : إنّ القائل الوليد بن المغيرة ^(٤) . وقيل : النضر بن الحارث ^(٥) .

وعن الصادق عليه السلام في تأويله : « هو الأول والثاني ، كانا يكذبان رسول الله ﷺ » ^(٦) .

﴿كَأَلَّا بَلَّ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤)

ثمّ ردعهم الله سبحانه عن التكذيب بقوله : ﴿كَأَلَّا﴾ ليس الأمر كما يقولون ﴿بَلَّ رَانَ﴾ وغلب ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أو غطّى عليها أو طبع عليها ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ويرتكبون من الكفر والفجور والعصيان حتّى صار كالصدأ على مرآة .
عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : (أنّ العبد كلّما أذنب ذنبا حصل في قلبه نكتة سوداء حتّى يسودّ قلبه ^(٧)) .

وعن الباقر عليه السلام : « ما من عبد إلّا وفي قلبه نكتة بيضاء ، فإذا أذنب ذنبا خرج في تلك النكتة نكتة سوداء ، فإن تاب ذهب ذلك السواد ، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتّى يغطّي البياض ، [فإذا غطّي البياض] لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً ، وهو قوله تعالى : ﴿بَلَّ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٦٦ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ٩٣ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٦٦ .

(٤و٥) تفسير الرازي ٣١ : ٩٤ .

(٦) تفسير القمي ٢ : ٤١١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٠٠ .

(٧) تفسير الرازي ٣١ : ٩٤ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٢٧ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٦٧ .

يَكْسِبُونَ ﴿١﴾ » .

أقول : لعلّ المراد بالبياض لين القلب ونورانيته ، وبالسواد قسوته وظلمته ، وبعده عن التأثر بالمواعظ الإلهية والآيات القرآنية ، وجرأته على الله إلى أن ينتهي أمره إلى الكفر ، كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَصَاؤُا السُّوْى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٢) .

﴿كَأَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ

يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٥) و (١٧)﴾

ثُمَّ رَدَعَهُمْ سَبْحَانَهُ عَنْ تَوَهُّمٍ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِمْ تَبَعَةٌ فِي تَكْذِيبِهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿كَأَلَّا﴾ ليس الأمر كما يتوهمون من أنهم لا يؤاخذون بما يقولون ، بل ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ﴾ ثواب ﴿رَبِّهِمْ﴾ وكرامته ، كما عن أمير المؤمنين عليه السلام (٣) ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي وقت قيامهم من القبور ، أو في محضر العدل والحساب ﴿لَمَحْجُوبُونَ﴾ ومحرومون ، فلا تشملهم الرحمة الواسعة الإلهية أبدا لعدم قابليتهم لنيلها .

: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾ مع حرمانهم من الرحمة والكرامة ﴿لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ وملقون فيها بعنف وقهر ، ومباشرون حرّما من غير حاجز وحائل أصلا : ﴿ثُمَّ﴾ يضاف على عذابهم الجسماني العذاب الروحاني إذ ﴿يُقَالُ﴾ لهم توبيخا وتقريعا والقائل الزبانية والملائكة الغلاظ الشداد حين إشرافهم على النار ، أو بعد إلقائهم فيها : أيها الكفرة المنكرون للبعث والحساب وجزاء الأعمال ﴿هَذَا﴾ العذاب ﴿الَّذِي﴾ ترونه بأعينكم وابتليتم به اليوم ، هو العذاب الذي أخبركم به الأنبياء والمؤمنون في الدنيا و﴿كُنْتُمْ بِهِ﴾ عنادا ولجاجة ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ وتستهزئون .

﴿كَأَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّنْ * وَمَا أَذْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ *

يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (١٨) و (٢١)﴾

ثُمَّ رَدَعَهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَنْ تَوَهُّمٍ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ مَسَاوُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ ، بل هم أحسن حالا منهم بقوله : ﴿كَأَلَّا﴾ ليس الأمر كما تتوهمون من أنكم في الآخرة على تقدير تحقّقها ووقوعها كالمؤمنين في حسن الحال ، وأنهم مثلكم فيها ، بل ﴿إِنَّ كِتَابَ﴾ أعمال المؤمنين ﴿الْأَبْرَارِ﴾ والصلحاء الأخيار ﴿لَفِي عَلَيِّنْ﴾ وأعلى الأمكنة ، أو أعلى الجنة .

(١) الكافي ٢ : ٢٠٩ / ٢٠ ، مجمع البيان ١٠ : ٦٨٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٠٠ .

(٢) الروم : ٣٠ / ١٠ .

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٦٨٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٠٠ .

عن ابن عباس : أنَّ عليَّين السماء الرابعة ^(١) . وفي رواية أخرى عنه : أنَّه السماء السابعة ^(٢) .
وقيل : هي سدرة المنتهى ^(٣) . وقيل : هي قائمة العرش اليمنى ^(٤) . وقيل : هي مراتب عالية مخفوفة
بالجلالة والاكرام قد عظمها الله وأعلى شأنها ^(٥) . وقيل : هي عند ديوان أعمال الملائكة ^(٦) ، إن كان
لهم أيضا ديوان كما للانسان .

وعلى أي تقدير قد عظمه الله تعالى بقوله : ﴿وَمَا أَذْرَاكَ﴾ أيها العاقل الدراك ﴿مَا عَلَيُّونَ﴾ وأي
مكان هو في عظمة الشأن ورفع المنزلة عند الله وعند أوليائه ؟ فإن إدراككم وعقلكم قاصر عن دركه
والإحاطة به في الدنيا .

ثم مدح سبحانه كتاب الأبرار بقوله : ﴿كِتَابٌ﴾ وديوان ﴿مَرْفُوعٌ﴾ ومكتوب فيه أعمالهم الخيرية ،
يعرفها كل من نظر فيه ، أو معلّم بعلامة دالة على أنَّ أصحابه من السعداء ، أو مختوم : ﴿يَشْهَدُهُ﴾
الملائكة ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ عند الله . قيل : كما وكلهم الله باللوح المحفوظ كذلك وكلهم بحفظ كتاب الأبرار في
جملة ذلك الكتاب الذي هو أم الكتاب إعظاما له ^(٧) .

والحاصل على ما قيل : إنَّ الحفظة إذا صعدت بكتب الأبرار يسلمونها إلى هؤلاء المقرّبين ،
فيحفظونها كما يحفظون كتب أنفسهم ، أو ينقلون ما في تلك الكتب إلى ذلك الكتاب الذي وكلوا
بحفظه ، فيصير علمهم شهادة ^(٨) .

وقيل : إنَّ المراد كتاب موضوع في عليّين ، كتب فيه ما أعدّ الله لهم من الكرامة والثواب ^(٩) .

عن ابن عباس : إنّه مكتوب في لوح من زبرجد معلق تحت العرش ^(١٠) .

قيل : يشهد ذلك الكتاب إذا سعد به إلى عليّين المقرّبون من الملائكة كرامة للمؤمن ^(١١) .

روي أنَّ الملائكة لتصعد بعمل العبد فيستقلّونه ، فإذا انتهوا إلى ما شاء الله من سلطانه أوحى
إليهم : أنكم الحفظة على عبدي ، وأنا الرقيب على ما في قلبه ، وإنّه أخلص عمله ، فاجعلوه في عليّين ،
فقد غفرت له . وإنّها تصعد بعمل العبد فيزكّونه ، فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله أوحى إليهم : أنتم الحفظة
على عبدي ؛ وأنا الرقيب على قلبه ، إنّه لم يخلص لي عمله ، فاجعلوه في سجين ^(١٢) .

عن الباقر عليه السلام قال : « إنَّ الله خلقنا من أعلى عليّين ، وخلق قلوب شيعتنا ممّا خلقنا منه ،
وخلق أبدانهم من دون ذلك ، وقلوبهم تهوي إلينا ، لأنّها خلقت ممّا خلقنا منه » ثم تلا هذه الآية ﴿كَأَلَّا
إِنَّ

(١-٦) تفسير الرازي ٣١ : ٩٧ .

(٧) تفسير الرازي ٣١ : ٩٧ .

(٨-١١) تفسير الرازي ٣١ : ٩٧ .

(١٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٧٠ .

كِتَاب الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيْنِ^(١) .

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرْئِكَ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ

الْمُتَنَافِسُونَ (٢٢) وَ (٢٦)﴾

ثمَّ إِنَّه تعالى بعد بيان عظمة كتاب الأبرار بيّن حال أنفسهم في الآخرة بقوله : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ والصلحاء من المؤمنين في الآخرة ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ ورزق كريم ، وإنما كيفية نعمهم أهم : ﴿عَلَى الْأَرْئِكَ﴾ والسّرر التي في الحجال ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى ما أعدّ الله لهم من البساتين والقصور والأطعمة والأشربة والفواكه والخور والغلمان وسائر ما تشتهيبه الأنفس وتلذّ الأعين ، وإلى حال أعدائهم وشدة عذابهم : ﴿تَعْرِفُ﴾ أيّها الناظر ﴿فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ وبهجته وبهاءه والاستبشار ، وقيل : يزيد في وجوههم من الحسن والجمال والنور ما لا يصفه واصف^(٢) و ﴿يُسْقَوْنَ﴾ بأيدي الخور والغلمان ﴿مِنْ رَحِيقٍ﴾ وخمر صاف خالص لا غش ولا غائلة فيه ﴿مَخْتُومٍ﴾ بأمر الله مطبوع عليه لئلا تمسه يد لامس إكراما له بالصيانة على ما جرت العادة من ختم ما يصران ويكرم ﴿خِتَامُهُ﴾ وما يختتم به بدل الطين ﴿مِسْكٌ﴾ أذفر رطب ينطبع فيه الخاتم.

وقيل : يعني عاقبته مسك ، بمعنى أنّ الشارب إذا رفع فاه من آخر شربة وجد ريحه كريح المسك^(٣). وقيل : يعني خلطة المسك تطيبها لطعمه ورائحته^(٤) . وقيل : هو كناية عن صحة أبدانهم وقوة شهوته ، حيث إنّ خلط المسك معين على الهضم وقوة الشهوة^(٥) . وعن أبي الدرداء : شراب أبيض مثل الفضة يهتمون به آخر شربهم ، ولو أنّ رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثمّ أخرجها لم يبق ذو روح إلّا وجد طيب ريحه^(٦) . ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ النعيم المذكور ، أو الرحيق المختوم ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ وليرغب الراغبون ، لا في النعم الدنيوية الكدرة السريعة السؤوال والفناء.

﴿وَمِمَّا جَاءَهُ مِنْ تَنْبِيهِ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ

(١) الكافي ١ : ٣٢٠ / ٤ ، و ٢ : ٣ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٠١ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ٩٩ .

(٤) تفسير الرازي ٣١ : ٩٩ .

(٥) تفسير الرازي ٣١ : ٩٩ و ١٠٠ .

(٦) تفسير الرازي ٣١ : ١٠٠ .

انْقَلَبُوا فَكَيْهِنَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ

حَافِظِينَ (٢٧) و (٣٣)

ثمّ بالغ سبحانه في مدح الرحيق بقوله : ﴿وَمِزَاجُهُ﴾ وخليطه شيء ﴿مِنْ﴾ ماء ﴿تَنْسِيمٍ﴾ أعني : ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ سئل ابن عباس عن تسنيم فقال : هذا ممّا يقول الله : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(١) .

وقال أيضا : أشرف شراب أهل الجنة هو تسنيم ، لانه يشربه المقرّبون صرفا ، ويمزج لأصحاب اليمين^(٢) .

روي أنّها تجري في الهواء متسنّمة فتتنصبّ في أوانيهم ، فاذا ملئت مسك الماء حتى لا تقع قطرة منه على الأرض ، فلا يحتاجون إلى الاستسقاء^(٣) .

ثمّ لمّا ذكر سبحانه كرامة الأبرار وعلوّ منزلتهم عنده في الآخرة ، ذكر توهين الكفّار إياهم وتحقيرهم واستهزائهم بهم بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ وأصروا على الكفر والعصيان كأبي جهل والوليد بن المغيرة وأحزابهما ﴿كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿مِنْ﴾ حال ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالنبي عن صميم القلب ﴿يَضْحَكُونَ﴾ استهزاء بهم لما هم فيه من الفقر والشدة ، ﴿وَ﴾ إنّ المؤمنين ﴿إِذَا مَرُّوا بِهِمْ﴾ وهم في أنديتهم ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ ويعيرونهم ، ويشيرون إليهم بالأحفان والحواجب ، ويقولون : انظروا إلى هؤلاء السفهة يتعبون أنفسهم ويجرمونها من اللذات ويخاطرون بها^(٤) في طلب ثواب موهوم : ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا﴾ وانصرفوا من مجامعهم ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ وأقاربهم ﴿انْقَلَبُوا﴾ وانصرفوا حال كونهم ﴿فَكَيْهِنَ﴾ ومعجبين بما هم فيه من الشرك والتنعم ، أو متلذذين بذكر المسلمين بالسوء والاستهزاء.

﴿وَإِذَا﴾ يشاهدوا المؤمنين و﴿رَأَوْهُمْ قَالُوا﴾ تحقيرا لهم : ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ المؤمنين ﴿لَضَالُّونَ﴾ حيث تركوا دين آبائهم والتنعم بالنعم ، واغترّوا بوعده محمد ووعيده ﴿وَ﴾ الحال أنّ المجرمين و﴿مَا أُرْسِلُوا﴾ من قبلنا إلى المؤمنين ليكونوا ﴿عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ يحفظونهم من الضلال ، ويرشدونهم إلى الحق والصواب ، فيعيون عليهم ما يعتقدونه ضلالا . وفيه إشعار بأن تعيين الحق والضلال شأن المرسلين من الله ، لا شأن الناس الجهلة والحمقاء.

روى بعض العامة منهم الفخر ، أنّه جاء عليّ عليه السلام في نفر من المسلمين ، فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ، ثمّ رجعوا إلى أصحابهم فقالوا : رأينا الأصلح ، فضحكوا منه ، فنزلت الآيات قبل أن

(١) تفسير الرازي : ٣١ : ١٠٠ ، والآية من سورة السجدة : ٣٢ / ١٧ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ١٠٠ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٧٢ .

(٤) في النسخة : ويخاطرونها .

يصل عليّ ﷺ إلى رسول الله ﷺ (١) .

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ

تُؤْتِبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٤) و (٣٦)

ثم بيّن سبحانه أنّ الجرمين يجازون في الآخرة على ضحكهم من المؤمنين بقوله : ﴿فَالْيَوْمَ﴾ الذي هو يوم الحساب والجزاء على الأعمال ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ويسخرون حين يرونهم أذلاء ، معذبين ومعلولين لتحزّزهم وتكبرهم في الدنيا ، وإلّهم يأكلون الرّقوم ويشربون الحميم والغساق بعد تنعمهم وترفعهم .

روي أنّهم يفتح لهم باب إلى الجنّة فيقال لهم : اخرجوا إليها ، فإذا وصلوا اغلق دونهم ، فيضحك المؤمنون منهم (٢) حال كونهم جالسين : ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ والسّرر المحجّلة ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى سوء حال الجرمين في النار ، وهم يقولون ، أو الله ، أو الملائكة يقولون : ﴿هَلْ تُؤْتِبُ الْكُفَّارُ﴾ وعوّضوا ﴿مَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَفْعَلُونَ﴾ من الضّحك من المؤمنين والاستهزاء بهم . وفيه تسلية للمؤمنين بأنّه سينقلب الحال ويكون الكفار في الآخرة مضحوكا منهم ، وتعظيم للأولياء .

عن الصادق ﷺ : « من قرأ في الفريضة ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ أعطاه الله الأمن يوم القيامة من النار ، ولم تره ولا يراها ، ولا يمرّ على جسر جهنّم ، ولا يحاسب يوم القيامة » (٣) . قد تمّ تفسير السورة بحمد الله ومنّه (٤) .

(١) تفسير الرازي ٣١ : ١٠١ .

(٢) جوامع الجامع : ٥٣٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٠٣ ، في النسخة : المؤمن منهم .

(٣) ثواب الأعمال : ١٢٢ ، مجمع البيان ١٠ : ٦٨٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٠٣ .

(٤) في النسخة : والمئة .

في تفسير سورة الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا
فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ
كَدْحًا فَلَمَّا لَقِيَهُ (١) وَ (٦)﴾

ثم لما ختمت سورة التطفيف المتضمنة بيان عظمة يوم القيامة ، وعظمة كتاب أعمال الأبرار ، ومهانة أعمال الفجار ، ورجوع الكافرين ^(١) إلى أهلهم مسرورين بكفرهم باستهزائهم بالمؤمنين ، نظمت سورة الانشقاق المتضمنة لبيان أهوال القيامة ، وحسن حال المؤمنين الذين يؤتون كتاب أعمالهم بأيمانهم ، وسوء حال الفجار الذين يؤتون كتابهم بشمالهم ، ورجوع المؤمنين في الآخرة إلى أهلهم مسرورون ، فابتدئها بذكر الأسماء المباركات بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .
ثم افتتحها ببيان أهوال يوم القيامة بقوله : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ لنزول الملائكة أو للسقوط ، أو الانطواء أو لهول القيامة .

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « تنشق من المحرّة ، وهي البياض المستطيل في وسط السماء » ^(٢) .
﴿وَأَذْنَتْ﴾ السماء وانقادت ﴿لِرَبِّهَا﴾ وخالقتها حين أراد انشقاقها ، كانقياد العبد المطيع لأمر مولاه المطاع ، أو الرعية لحكم السلطان القاهر المقتدر ﴿وَحُقَّتْ﴾ السماء ، حقيقتها بالانقياد له ، لكونها موجودة بإيجاد ، باقية بأبقائه ، مقهورة تحت قدرته ، مربوبة بتربته ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ﴾ بأمره تعالى ﴿مُدَّتْ﴾ وبسطت بإزالة جبالها وتلالها وأكامها عن مقارّها بحيث صارت كالصحيفة الملساء ، أو زبدت في سعتها لتتسع لوقوف الأولين والآخرين عليها للحساب .

عن ابن عباس : إذا كان يوم القيامة مدّ الله الأرض مدّ الأديم العكاظي ^(٣) .

(١) في النسخة : المؤمنين .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٧٥ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ١٠٣ ، وفيه : الأديم العكاظي ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٧٥ ، ولم يذكر الراوي .

﴿وَأَلْقَتْ﴾ ورمّت ﴿مَا فِيهَا﴾ من الكنوز والموتى من بطنها إلى ظاهرها بالزلزال ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ عمّا تحمله بحيث لا يبقى فيها شيء ﴿وَأَذِنَتْ﴾ وانقادت ﴿لِرَبِّهَا﴾ في الإلقاء والتخلّي ﴿وُحُقَّتْ﴾ بهذا الانقياد ، وحقيقته لأنّه شأن الممكن بالنسبة إلى الواجب ، فعند ذلك وقعت الواقعة العظمى ، وظهرت الأحوال التي قصرت الألسن عن شرحها ووصفها.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ الغافل عن عاقبة أمرك ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ ومجدّ وساع في دنياك ، ومجتهد في تحصيل شهواتك ﴿إِلَى﴾ لقاء ﴿رَبِّكَ﴾ بالموت ﴿كَذْحًا﴾ وجدّا بليغا ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ بعد الموت لا محالة ، وحاضر في محكمة عدله تعالى البتة لا مفرّ منه.

وقيل : إنّ ضمير (ملاقيه) راجع إلى الكدح ^(١) ، والمعنى فأنت ملّاق كدحك وعملك بملاقاة صحيفة الأعمال.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَنُقِلَتْ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ * بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا * فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (٧) و (١٨)﴾

ثمّ بيّن سبحانه اختلاف أفراد الانسان في كتاب الأعمال بقوله : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾ يوم القيامة ﴿بِيَمِينِهِ﴾ وهو المؤمن الصالح الذي كتب أعماله الملك القاعد عن يمينه ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ﴾ هذا المؤمن ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾ وسهلا لا مناقشة فيه ولا اعتراض عليه بما يسوء ، وهو على ما قيل : أن يعرف طاعته ومعصيته ، فيثاب على طاعته وتغفر معصيته ^(٢) .

﴿وَوُذِّنَ﴾ إذن ﴿يُنْقَلِبُ﴾ وينصرف ﴿إِلَى أَهْلِهِ﴾ وعياله وذريّاته إن كانوا في الجنّة ، أو إلى حور العين ﴿مَسْرُورًا﴾ وفرحا بنجاحه من النار وفوزه بالجنة.

عن عائشة قالت : سمعت رسول الله يقول : « اللهمّ حاسبني حسابا يسيرا » قلت : ما الحساب اليسير ؟ قال : « ينظر في كتابه ويتجاوز عن سيئاته ، فأما من نوقش في الحساب فقد هلك » ^(٣) .
وعنها أمّا قالت : قال رسول الله ﷺ : « من نوقش في الحساب فقد هلك » فقلت : يا رسول الله ، إنّ

(١) تفسير الرازي ٣١ : ١٠٥ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ١٠٦ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٧٧ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ١٠٦ .

الله يقول : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ* فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾ قال : « ذلك العرض ، ولكن من نوقش في الحساب عذب » (١) .

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ﴾ وأعطي ﴿كِتَابَهُ﴾ وصحيفة عمله بشماله الذي جعل ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ بعد ما غلّت يده اليمنى على ما قيل (٢) ، وقيل : تخلع يده اليسرى وتجعل من وراء ظهره (٣) . وقيل : إنّ يده في محلّها ، ولكن يعطى الكتاب بها من وراء ظهره. وقيل : يحوّل وجهه إلى قفاه ، فيقرأ الكتاب كذلك (٤) ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا بُرُوراً﴾ وهلاكاً لنفسه ، ويقول : واثيراه ، لعلمه بذلك أنّه من أصحاب النار ﴿وَوَ﴾ بعد ذلك ﴿يَصْلَى سَعِيرًا﴾ أو يدخل نارا لأجل ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ في الدنيا ﴿فِي أَهْلِهِ﴾ وعياله وعشيرته ﴿مَسْرُورًا﴾ بالنعم والراحة من تعب العبادة ومشقة امتثال التكليف ، لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر ، وعدم خوفه من الحساب ، أو مسرورا بما هو عليه من الكفر والتكذيب بالبعث ، وكان يضحك ممّن آمن بهما ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ﴾ ولن يرجع بعد الموت إلى الحياة الدنيا ، أو إلى الآخرة ، أو إلى الله ، كما عن ابن عباس (٥)

﴿بَلَى﴾ يحور ويرجع إلى الحياة ويبعث ﴿إِنَّ رَبَّهُ﴾ الذي خلقه ﴿كَانَ﴾ حين خلقه ﴿بِهِ﴾ وبخبت طينته وشقاوته وسوء عمله وعاقبته ﴿بَصِيرًا﴾ وعالما ﴿فَلَا﴾ يظنّ أن يهمله الله ولا يعاقبه على كفره ومعاصيه ﴿أَفَسِمُ﴾ أيها الانسان ﴿بِالشَّقِّ﴾ والحمرة الباقية في الافق بعد غروب الشمس ، كما عن ابن عباس (٦) ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ وجمع الليل بظلمته من النجوم والحيوانات التي يرجع إلى أماكنها من الدوابّ والسباع والوحوش والهوامّ والحشرات ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا انَّسَقَ﴾ واجتمع وتمّ وصار بدرا. قيل. اقسام الله تعالى بهذه الامور لظهور التحوّل والتغيير فيها (٧) الدالّ على قدرته الكاملة.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩)﴾

ثمّ بيّن سبحانه المقسم عليه بقوله : ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ ولتلاقن أيها الناس حالا ﴿طَبَقًا﴾ وموافقا لحال السابق متجاوزا في الشدة ﴿عَنْ طَبَقٍ﴾ وحال موافق لسابقه. حاصل المراد - والله أعلم - لتلاقن حالا بعد حال كلّ واحدة مطابقة لاحتها في الشدة والهول أو فوقها. وقيل : إنّ الطّبّق جمع طبقة ، وهي المرتبة ، والمعنى : لتركبنّ أحوالا بعد أحوال هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض ، وهي وما بعدها من مواطن البرزخ والقيامة ودواهيها إلى حين

(١-٤) تفسير الرازي ٣١ : ١٠٦ .

(٥) تفسير الرازي ٣١ : ١٠٧ .

(٦) تفسير الرازي ٣١ : ١٠٨ .

(٧) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٨٠ و ٣٨١ .

الاستقرار في الجنة أو النار ^(١) .

وقيل : إنه المقصود أنّ الناس تنتقل أحوالهم يوم القيامة ممّا كانوا عليه في الدنيا ^(٢) فإنّ الله لما أخبر عن حال من يؤتى كتابه وراء ظهره ، وأنّه كان في أهله مسرورا ، وأنه ظنّ أن لن يحور ، أخبر أنه يحور. ثمّ أقسم على أنّ الناس يركبون طبقا عن طبق في الآخرة ، أي حالا بعد حالهم في الدنيا.

وقيل : يعني لتركب سنّة الأولين ممّن كانوا قبلكم في تكذيب الرسل والقيامة ^(٣) .

عن الصادق عليه السلام : « ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ أي سنن من كان قبلكم » ^(٤) .

وعنه عليه السلام : « لتركب سنن من كان قبلكم من الأولين وأحوالهم » ^(٥) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « أي لتسلكن ^(٦) سبيل من كان قبلكم من الامم في الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء » ^(٧) .

وعن الباقر عليه السلام قال : « أولم تتركب هذه الامّة بعد نبيها طبقا عن طبق في أمر فلان وفلان وفلان » ^(٨) .

وعن القمي : يقول : لتركب سبيل ^(٩) من كان قبلكم ، حذو النعل بالنعل ، والقذّة بالقذّة لا تحطئن طريقهم ، ولا يخطئ ^(١٠) شبر بشير وذراع بذراع وباع بباع ، حتى أنّه لو كان من كان قبلكم دخل في جحر ضبّ لدخلتموه ؟ قالوا اليهود والنصارى : من تعني يا رسول الله ؟ قال : « فمن أعني ، لتنفض عرى الاسلام عروة عروة ، فيكون أول ما تنفضون من دينكم الإمامة ، وآخره الصلاة » ^(١١) .

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا
يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٠) و (٢٥)﴾

ثمّ لما بيّن سبحانه صحّة البعث بالآيات المعجزات ، وبخّ المشركين على عدم إيمانهم ، وأظهر التعجّب منه بقوله : ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ من العذر ، وأي مانع لهم أنّهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا القرآن وما فيه من الإخبار بالبعث والحساب ؟ ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ﴾ مع ما فيه من العلوم والإعجاز ﴿لَا﴾

(١) تفسير الرازي ٣١ : ١٠٩ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٨١ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ١١٠ .

(٣) كمال الدين : ٤٨٠ / ٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٠٥ .

(٤) جوامع الجامع : ٥٣٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٠٥ .

(٥) في النسخة : لتركب .

(٦) الاحتجاج : ٢٤٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٠٦ .

(٨) تفسير القمي ٢ : ٤١٣ ، الكافي ١ / ٣٤٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٠٦ .

(٩) في المصدر : سنّة .

(١٠) في المصدر : ولا تحطئون طريقهم .

(١١) تفسير القمي ٢ : ٤١٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٠٦ .

يَسْجُدُونَ ولا يخضعون لله عن ابن عباس : المراد بالسجود الصلاة ^(١) . وعن جماعة من المفسرين : المراد نفس السجود ^(٢) .

روي أنّ النبي ﷺ قرأ ذات يوم : **﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾** ^(٣) فسجد هو ومن معه من المؤمنين ، وقريش تصفّق فوق رؤوسهم وتصفر ، فنزلت الآية ^(٤) .

ثمّ بيّن سبحانه علّة عدم سجودهم وإيمانهم بقوله : **﴿يَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** بالله وبكتابه واليوم الآخر **﴿يُكَذِّبُونَ﴾** الرسول والقرآن في إخبارهما بالبعث عنادا ولجاجا وتقليدا لأبائهم ، ولذا لا يخافون **﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾** من أنفسهم **﴿بِمَا يُوعُونَ﴾** وما يضمرون في قلوبهم من الحسد والبغي واللّجاج ، أو بما يجمعون في صحف أعمالهم من الكفر والعصيان **﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾** يا محمد **﴿بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾** في الدنيا والآخرة ، فأنهم بأعمالهم يظهرون أنّه مطلوبهم **﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** منهم بعد كفرهم.

وقيل : إنّ الاستثناء منقطع ^(٥) ، والمعنى : لكن الذين آمنوا **﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** من الطاعات والعبادات **﴿لَهُمْ﴾** في الآخرة **﴿أَجْرٌ﴾** وثواب عظيم **﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾** ومقطوع ، بل متّصل ودائم ، أو غير ممنون به عليهم ، فإنّ المنّة تكدر النعمة.

قد مرّ ذكر ثواب قراءتها.

(١) تفسير الرازي ٣١ : ١١١ .

(٢) العلق : ٩٦ / ١٩ .

(٣) جوامع الجامع : ٥٣٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٠٦ .

(٤) الكشف ٤ : ٧٢٨ ، تفسير الرازي ٣١ : ١١٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٠٦ .

في تفسير سورة البروج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ مُّشْهُودٍ * قَتِيلٍ أَصْحَابِ

الْأُخْدُودِ (١) وَ (٤)﴾

ثم لما ختمت سورة الانشقاق المتضمنة لانكار المشركين بالبعث ودار الجزاء ، وعدم إيمانهم بالقرآن وتكذيبهم الرسول ﷺ ، وكان فيه تألم قلبه الشريف ، نظمت سورة البروج المتضمنة لحكاية امتناع أصحاب الاخدود من الايمان ، وإحراقهم المؤمنين بالنار ، وتهديد الذين يؤذون المؤمنين بالعذاب ، لتسليّة قلب النبي ﷺ فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم ابتدأها سبحانه بالقسم بأشياء عظيمة القدر والشرف ، لظهور آثار قدرته وحكمته بها بقوله : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ الاثني عشر التي فيها تسير الشمس في السنة الشمسية. وقيل : إنّ المراد بالبروج منازل القمر ^(١) ، وهي ثمانية وعشرون كوكبا ^(٢) . وقيل : هي الكواكب العظام ^(٣) وتسميتها بالبروج لظهورها ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ للناس بلسان الأنبياء ، وهو يوم القيامة ، كما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ ^(٤) وهو يوم فصل القضاء ، وظهور تفرّد الله تعالى بالملك والسلطان ﴿وَشَاهِدٍ﴾ وحاضر في ذلك اليوم من الملائكة والجنّ والإنس ، ﴿وَوَ﴾ يوم ﴿مَشْهُودٍ﴾ وهو يوم القيامة ، كما عن ابن عباس ^(٥) ، لمعينة العجائب التي ليست في غيره ، ولقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ ^(٦) . وعن أبي موسى الأشعري : أنّ النبي ﷺ قال : « اليوم الموعود يوم القيامة ، والشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة » ^(٧) .

(١) تفسير الرازي ٣١ : ١١٣ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٣٥ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٨٥ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٨٥ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ١١٣ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٣٥ .

(٤) تفسير الرازي ٣١ : ١١٣ .

(٥) تفسير الرازي ٣١ : ١١٤ .

(٦) هود : ١١ / ١٠٣ .

(٧) تفسير الرازي ٣١ : ١١٥ .

وعن أبي هريرة مرفوعا قال : « المشهود يوم عرفه والشاهد يوم الجمعة ، ما طلعت شمس ولا غربت على أفضل منه ، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب له ، ولا يستعيد من شر إلا أعاده منه » (١) .

وعن ابن المسيب مرسلا عن النبي ﷺ قال : « سيد الأيام يوم الجمعة ، وهو الشاهد ، والمشهود يوم عرفة » (٢) .

ورواية العامة عن أمير المؤمنين (٣) رواه أصحابنا عن الصادق (٤) وعن الباقر عليه السلام أنه سئل عن ذلك فقال : « ما قيل لك » فقال السائل : قالوا شاهد يوم الجمعة ، ومشهود يوم عرفة. فقال : « ليس كما قيل لك ، الشاهد يوم عرفة ، والمشهود يوم القيامة ، أما تقرأ القرآن ؟ قال الله عز وجل : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ » (٥) .

وعن الصادق عليه السلام أنه سئل عن ذلك فقال : « النبي ﷺ ، وأمير المؤمنين عليه السلام » (٦) . وعلى أي تقدير قيل : إنّ جواب القسم محذوف (٧) ، والتقدير : لعن كفار مكة كما ﴿ قُتِلَ ﴾ ولعن ﴿ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ وأهل الخنادق. قيل : كانوا ثلاثة : انطيانوس الرومي بالشام ، وبخت نصر بفارس ، ويوسف ذو نؤاس الحميري بنجران يمن ، كل واحد منهم حفر خندقا عظيما ، طوله أربعون ذراعا ، وعرضه اثنا عشر ذراعا ، وملأوه نارا ، وألقوا فيه المؤمنين (٨) .

قيل : إنّ المقصود بأصحاب الاخدود في الآية ذو نؤاس النجراني اليهودي وجنوده ، قالوا : إنّ عبدا صالحا يقال له : عبد الله بن الثامر ، وقع إلى بنجران ، وكان على دين عيسى عليه السلام ، فدعاهم فأجابوه ، فسار إليهم ذو نؤاس بجنود من حمير ، فخيرهم بين النار واليهودية ، فأبوا اليهودية ، فحفر الخنادق وأضرم فيها النيران ، فجعل يلقي فيها كل من أتبع ابن الثامر حتى أحرق نحو من اثني عشر ألفا ، أو عشرين ألفا أو سبعين ألفا ، وكان اسم ذو نؤاس زرعة بن حسان ملك حمير ، وسمى نفسه يوسف (٩) . وروي أنه انفلت رجل من أهل بنجران ، اسمه دوس ذو ثعلبان ، ووجد إنجيلا محترقا بعضه ، فأتى به ملك الحبشة ، وكان نصرانيا ، فقال له : إنّ أهل دينك أوقدت لهم نار فأحرقوا بها واحرقت كتبهم ، وهذا بعضها. فأراه الذي جاء به ، ففزع لذلك ، فكتب إلى صاحب الروم يستمدّه بنجران يعملون له

(٢١) تفسير الرازي ٣١ : ١١٥ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ١١٥ .

(٤) معاني الأخبار : ٢٩٨ / ٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٠٨ .

(٥) معاني الأخبار : ٢٩٩ / ٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٠٨ .

(٦) الكافي ١ : ٣٥٢ / ٦٩ ، معاني الأخبار : ٢٩٩ / ٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٠٨ .

(٧) تفسير الرازي ٣١ : ١١٦ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٨٥ .

(٨) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٨٦ .

(٩) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٨٦ .

السفينة ، فبعث إليه صاحب الروم من عمل له السفن ، فركبوا فيها ، فخرجوا إلى ساحل اليمن ، فخرج إليهم أهل اليمن ، فلقوهم بتهامة ، واقتتلوا ، فلم ير ملك حمير له بهم طاقة ، وخاف أن يأخذوه ، فضرب فرسه حتى وقع في البحر فمات فيه ، فاستولى الحبشة على حمير وما حولها وتملكوا ، وبقي الملك لهم إلى وقت الإسلام ^(١) .

وفي الحديث : « كان ملك فيمن كان قبلكم » كان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إني كبرت فابعث إليّ غلاما أعلمه السحر. فبعث إليه غلاما يعلمه ، فكان في طريقه راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضرب لمكثته ، فكشأ إلى الراهب ، فقال له : إذا خشيت الساحر فقل له : حبسني أهلي.

ثم إنَّ الغلام رأى يوما في طريقه حيّة فقال : اليوم أعلم أنّ الساحر أفضل أم الراهب ، فأخذ حجرا وقال : اللهم إن كان الراهب أحبّ إليك من الساحر فقوّني على قتلها ، فرماها فقتلها ، ومضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره ، فقال الراهب : أي بني ، أنت اليوم أفضل ممّي ، قد بلغ من أمرك ما أدري ، وإنّك ستبتلى ، فان ابتليت فلا تدلّ عليّ.

وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ، ويشفي المريض. فسمع ذلك جليس الملك ، وكان أعمى ، فأتاه بهدايا ، فقال : ما هاهنا لك أجمع إن شفيتني. قال الغلام : إني لا أشفي أحدا ، إنّما يشفي الله ، فان آمنت بالله دعوت الله فشفاك ، فآمن بالله فشفاه الله.

فأتى الملك فجلس إليه ، كما كان يجلس ، فقال الملك : من ردّ بصرك ؟ قال : ربّي. قال : أولك ربّ غيري ؟ قال : ربّي وربّك الله. فأخذه فلم يزل يعذّبه حتى دلّ على الغلام ، فجاءه بالغلام فقال له الملك. أي بني ، قد بلغت من سحرك أنّك تبرئ الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل !

فقال : أنا لا أشفي أحدا ، إنّما يشفي الله ، فآخذه ولم يزل يعذّبه حتى دلّ على الراهب ، فجاءه بالراهب. فقال له : ارجع عن دينك فأبى ، فدعا بالمنشار فوضعه في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ، ثمّ جيء بجليس الملك فقال له : ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار على مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ، ثمّ جيء بالغلام فقال له : ارجع عن دينك فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه. فقال لهم : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا ، فاصعدوا به الجبل ، فاذا بلغت ذروته فان رجع عن دينه وإلا فاطرحوه.

فذهبوا به فصعدوا به الجبل ، فقال الغلام : اللهم أكفينهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا ،

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٨٦.

فجاء الغلام يمشي إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله .
فدفعه إلى نفر آخر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به فاحملوه في قرقور ^(١) ، فتوسّطوا به البحر ،
فان رجع عن دينه وإلا فاقذفوه في البحر ، فذهبوا به ، فقال الغلام : اللهم أكفينهم بما شئت ،
فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء الغلام يمشي إلى الملك ، فقال الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال :
كفانيهم الله .

فقال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به . قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في
صعيد واحد وتصلبني على جذع ، ثم خذ سهمًا من كناني ، ثم ضع السهم في كبد القوس ، ثم قل :
بسم الله رب الغلام ، ففعل كما قال الغلام ، ثم رماه فوق السهم في صدغه ، فوضع يده على صدغه في
موضع السهم فمات . فقال الناس : آمنا برب الغلام .

فاقي الملك فقيل له : أ رأيت قد وقع ما كنت تحذر منه ، والله قد نزل بك حذرنا ؛ أي قد آمن
الناس ، فأمر بالاختدود في افواه السكك ، فحددت واضرم النار فيها ، وقال : من لم يرجع عن دينه
فأقحموه فيها ، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي رضيع لها . قيل في بعض الروايات : كان لها ثلاثة
أولاد أحدهم رضيع ، فقال لها الملك : ارجعي عن دينك وإلا ألقيتك وأولادك في النار فأبوت ، فأخذ
ابنها الأكبر وألقاه في النار ، ثم قال لها : ارجعي عن دينك فأبوت ، فألقي ابنها الأوسط في النار ، ثم قال
لها : ارجعي عن دينك فأبوت ، فأخذوا الصبي ليلقوه فيها فهتت بالرجوع ، فقال الصبي : يا أمه ، لا
ترجعي عن الاسلام ، فأتك على الحق ولا بأس عليك » ^(٢) .

وقيل : إنّه قال : فإن بين يديك نارا لا تطفأ ، فألقى الصبي في النار ، وانه على أثره .
قيل : كان ذلك الملك ذو نؤاس الحميري ، وكانت القصّة قبل مولد النبي بتسعين سنة ^(٣) .
قال بعض العامة : روي أن ضربة احتفرت في زمن خلافة عمر بن الخطاب ، فوجد الغلام الذي
قتله الملك وإصبعه على صدغه ^(٤) .

وفي بعض التفاسير : فوجدوا عبد الله بن الثامر - ولعله اسم ذلك الغلام - واضعا يده على
صدغه ، إذ اميطت يده عنها سال دمه ، وإذا تركت على حالها انقطع ، وفي يده خاتم من حديد فيه :
ربي الله ، فكتبوا إلى عمر ، فكتب بأن يواروه يعيدوا التراب عليه ، وكتب إليهم ، إن ذلك الغلام
صاحب الاختدود فاتركوه على حاله حتى يبعثه الله يوم القيامة على حاله ^(٥) .
وروي في (المجمع) جميع ما ذكر بأدنى تفاوت ^(٦) .

(١) أي السفينة الطويلة العظيمة .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٨٧ .

(٣-٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٨٨ .

(٦) مجمع البيان ١٠ : ٧٠٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣١٠ .

وعن القمي قال : كان سببهم أن الذي هبّ الحبيشة على غزوة اليمن ذو نواس ، وهو آخر من ملك حمير ، تهوّد واجتمعت معه حمير على اليهودية ، وسمّى نفسه يوسف ، وأقام على ذلك حيناً من الدهر ، ثم أخبر أنّ بنجران بقايا قوم على دين النصرانية والمسيحية وعلى حكم الإنجيل ، ورأس ذلك الدين عبد الله بن رياح^(١) ، فحمّله أهل دينه على أن يسير إليهم ويحملهم على اليهودية ، يدخلهم فيها ، فسار حتّى قدم بنجران ، فجمع من كان بها على دين النصرانية ، ثمّ عرض عليهم دين اليهودية والدخول فيها ، فأبوا عليه ، فجادلهم وعرض عليهم وحرص الحرص^(٢) كلّهم ، فأبوا عليه ، وامتنعوا من اليهودية والدخول فيها ، واختاروا القتل ، فاتّخذ لهم اخدوداً ، وجمع فيه^(٣) الحطب ، وأشعل فيه النار ، فمنهم من أحرق بالنار ، ومنهم من قتل بالسيف ، ومثّل بهم كلّ مثله ، فبلغ عدد قتل وأحرق بالنار عشرين ألفاً ، وأفلت رجل منهم يدعى دوس ذو ثعلبان على فرس له وركضه^(٤) ، واتبعوه حتّى أعجزهم في الرمل ، ورجع ذو نواس إلى ضيعة^(٥) في جنوده^(٦) .

وروى الفخر الرازي عن أمير المؤمنين عليه السلام : أنّهم حين اختلفوا في أحكام الجحوس قال : « هم أهل الكتاب ، وكانوا متمسكين بكتابهم ، وكانت الخمر قد احتلت لهم ، فتناولها بعض ملوكهم ، فسكرو فوقع على اخته ، فلمّا صحا ندم وطلب المخرج ، فقالت له : المخرج أن تخطب الناس فتقول : إنّ الله تعالى قد أحلّ نكاح الأخوات ، ثمّ تخطبهم بعد ذلك فتقول : إنّ الله حرّمه ، فخطب فلم يقبلوا منه ذلك فقالت له : ابسط فيهم السوط ، فلم يقبلوا ، فقالت : ابسط فيهم السيف ، فلم يقبلوا ، فأمرته بالأخاديد وإيقاد النيران ، وطرح من أبي فيها ، فهم الذين أراد الله بقوله : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ »^(٧) .

وعن الباقر عليه السلام قال : « ارسل عليّ عليه السلام إلى أسقف بنجران يسأله عن أصحاب الاخدود ، فأخبره بشيء . فقال : ليس كما ذكرت ، ولكن ساخبرك عنهم ، إنّ الله بعث رجلاً حبشياً نبياً ، وهم حبشة فكذبوه ، فقاتلهم فقتلوا أصحابه ، وأسروه وأسروا أصحابه ، ثمّ بنوا له حيراً^(٨) ، ثمّ ملأوه ناراً ، ثمّ جمعوا الناس فقالوا : من كان على ديننا وأمرنا فليعتزل ، ومن كان على دين هؤلاء فليمر نفسه في النار معه ، فجعل أصحابه يتهافون في النار ، فجاءت امرأة معها صبيّ لها ابن شهر ، فلمّا قرئت هابت ورقت على ابنها ، فناداها الصبيّ ، لا تهأبني وارميني ونفسك في النار ، فإنّ هذا والله في الله قليل . فرمت بنفسها

(١) في المصادر : عبد الله بن برياء ، وفي تفسير الصافي : عبد الله بن برياء ، وفي تاريخ الطبري ٢ : ١٢٢ ، والكامل في التاريخ ١ : ٤٢٩ ، عبد الله بن الثامر .

(٢) في النسخة : بينهم وحرص الحرص .

(٣) في النسخة : فيها من .

(٤) ركض الفرس برجله : استحثّه للعدو .

(٥) في المصادر : ضيعته .

(٦) تفسير القمي ٢ : ٤٢٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٠٩ .

(٧) تفسير الرازي ٣١ : ١١٧ .

(٨) الحير : شبه الحظيرة أو الحمى .

في النار وصبيها ، وكان مَن تكلم في المهدي (١) .

أقول : قد ظهر أنَّ الروايات في القصة مختلفة ، وجمعها وإن كان ممكنا إلا أنه لا يهمننا ، لعدم حاجتها في المقام ، وإنَّما المعلوم من جميعها أنَّ ملكا من الكفار ، أو قوما منهم ، حفروا اخدودا وأحرقوا جمعا من المؤمنين بالنار لإيمانهم ، ولا يبعد أنَّ القصة كانت مشهورة في العرب ، ذكرها سبحانه تسلية للنبي ﷺ والمؤمنين المبتلين بإيذاء المشركين.

﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ

شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥) و (٩)﴾

ثم فسّر سبحانه الاخدود بقوله : ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ﴾ والتقدير : أعني بالاخدود النار التي اوقدت بالحطب في الاخدود ، فارتفع لهبها وأحرق أولئك القوم ﴿إِذْ هُمْ﴾ بعد إيقاد النار وإلقاء المؤمنين فيها كانوا ﴿عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ على سرر وكراسي على ما قيل (٢) ، ينظرون إلى احتراق المؤمنين فيها ﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من الإحراق والتعذيب ﴿شُهُودٌ﴾ عند الملك ، يشهدون أنَّ أحدا من المأمورين لم يقصّر فيما أمرته لرحم وإشفاق.

وقيل : إنَّهم شهدوا على عملهم الشنيع يوم القيامة ، حيث إنَّه تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون (٣) .

﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ أولئك الجبارون من المؤمنين ، وما أنكروا ﴿مِنْهُمْ﴾ عملا ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ أولئك المؤمنون ﴿بِاللَّهِ﴾ الذي يجب بحكم العقل الايمان به ، لأنَّه تعالى هو ﴿الْعَزِيزُ﴾ والقاهر على كلِّ شيء ، وهو ﴿الْحَمِيدُ﴾ والمستحق للحمد ، لكونه منعما على جميع الموجودات ، فعلى العاقل أن يخاف من سطوته وقهاريته إن لم يؤمن به ، ويرجو نعمه وإحسانه إن آمن به ، وهو ﴿الَّذِي لَهُ﴾ وحده ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والسلطنة المطلقة في عوالم الملك والملكوت ، يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ والإله المستجمع لجميع الكمالات والخالق لكلِّ شيء ، وهو ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أفعال الكفار والمؤمنين وغيرها من الموجودات الحقيرة والخليلة الظاهرة والخفية حتى الخواطر والضمائر ﴿شَهِيدٌ﴾ ومطلع إطلاع الحاضر المشاهد ، فيعذب الكفار والعصاة

(١) مجمع البيان ١٠ : ٧٠٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٠٩ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٧٠٦ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٨٩ .

على ظلمهم وعصيانهم ، ويثيب المؤمنين المطيعين على صبرهم وطاعتهم ، وكيف ينكرون الإيمان على المؤمنين ويغضبون عليهم مع أنهم مستحقون لغاية التكريم والتجليل !

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ

عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠)﴾

ثم بالغ سبحانه في تهديد الكفار المؤذنين للمؤمنين والمؤمنات بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أو محتوهم بتعذيبهم وإيذائهم. وعن ابن عباس : أحرقوهم بالنار ^(١) ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك لم يؤمنوا و﴿لَمْ يَتُوبُوا﴾ من كفرهم وعصيانهم إلى الله ﴿فَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ جزاء على كفرهم وعصيانهم و﴿وَلَهُمْ﴾ مضافا إلى ذلك ﴿عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ والشديد على إيذائهم للمؤمنين ، أو زائدا على تعذيب غيرهم.

وقيل : إنَّ المراد من عذاب الحريق تعذيبهم في الدنيا بالنار ^(٢) .

روي أنَّ الجبارون لما ألقوا المؤمنين في النار وقعدوا حولها ارتفعت النار فوقهم أربعين ذراعا ، فوقعت عليهم وأحرقتهم ، ونجا المؤمنون سالمين ^(٣) .

وقيل : إنَّ الله قبض أرواح المؤمنين قبل أن تمسَّهم النار ^(٤) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ

الْفَوْزُ الْكَبِيرُ * إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ * وَهُوَ

الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ (١١) و (١٦)﴾

ثم أردف سبحانه تهديد الكفار بوعده المؤمنين عموما بالثواب العظيم بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ سواء كانوا من المفتونين أو غيرهم ﴿لَهُمْ﴾ جزاء على إيمانهم وأعمالهم ﴿جَنَّاتٍ﴾ ذات أشجار كثيرة وقصور عالية ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة و﴿ذَلِكَ﴾ الثواب العظيم هو ﴿الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ والتَّيْلُ بأعلى المقاصد الذي تصغر عندها الدنيا وما فيها.

ثم أكد سبحانه وعيده الكفار بقوله مخاطبا للنبي ﷺ : ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ يا محمد ، وأخذه بالقوة ﴿لَشَدِيدٌ﴾ لا يطيقه ^(٥) أحد ، وإنما أمهلهم للحكمة البالغة لا للإهمال ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي﴾ الخلق في

الدنيا

(١) تفسير الرازي ٣١ : ١٢١ .

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٧١٠ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٣٨٩ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٨٩ .

(٤) في النسخة : لا يطيق له .

﴿وَيُعِيدُ﴾ هم ، ويخلقهم ثانيا في الآخرة ، ليجازيهم على أعمالهم. وعن ابن عباس : أنَّ أهل جهنم تأكلهم النار حتى يصيروا فحما ثم يعيدهم خلقا جديدا ، وذلك هو المراد من قوله : ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ﴾^(١) .

ثم أكد سبحانه وعده للمؤمنين بقوله : ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ للذنوب ﴿الْوَدُودُ﴾ بالمؤمنين ، والمحِبُّ لهم ، وهو ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ وصاحب سرير الملك والسلطنة ، أو خالقه ﴿الْمَجِيدُ﴾ والعظيم في ذاته ، والشريف في أفعاله ، وهو ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ لا يزاحمه شيء في إنفاذ إرادته ، ولا يمنعه مانع من إتمام مراده ، يفعل ما يشاء كيف يشاء ، وذكر صيغة المبالغة لكثرة أفعاله من الإحياء والإماتة والإغناء والافقار والإعزاز والإذلال وغيرها.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنُ وَثُمَّودُ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾

* وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (١٧ و ٢٢)

ثم استشهد سبحانه على شدة بطشه بقصة أخذه الامم المكذبة للرسول بقوله : ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ يا محمد ، وهل سمعت منا ﴿حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ الكافرة وخبر الجماعات المكذبة للرسول ؟ أعني ﴿فِرْعَوْنُ وَثُمَّودُ﴾ قوم صالح ، كيف فعلوا ، وكيف فعلنا بهم وأهلكناهم بعذاب شديد ؟ فذكر قومك بما نزل عليهم من العذاب لعلهم يتذكرون ، وأتى لهم الذكرى ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قومك وأصروا على العناد والطغيان ليسوا مثل الامم السابقة ، بل هم أشد كفرا وعنادا ، لأنهم مستقرون ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ عظيم لرسالتك وكتابك بحيث لا ينصرفون عنه مع دلالة الأدلة الباهرة على صحتهما.

ثم بالغ سبحانه في تسليته نبيه ﷺ على تكذيب قومه بقوله : ﴿وَاللَّهُ﴾ القادر القاهر ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ بهم لا يقدر على الفرار من أخذه وعذابه ، فلا تتألم من تكذيبهم إياك ، فإني انتقم منهم أشد الانتقام ، وليس تكذيبهم لكتابك موهنا له ، ولا نسبته إلى الشعر والسحر والكهانة مسقطا له عن الأنظار ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ وكتاب شريف عالي القدر في الكتب السماوية الإلهية ، مثبت ومضبوط ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ عند الله مصون من مساس الشياطين وتحريف المبطلين.

عن ابن عباس : أنَّ الله خلق لوحا محفوظا من درة بيضاء ، دفتاه ياقوتة حمراء ، طوله ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، ينظر الله فيه كل يوم ثلاثمائة وستين مرة ، يحيي ويميت ، ويعزّز ويدلّ ، ويفعل ما يشاء ، وفي صدر اللوح : لا إله إلا الله وحده ، ودينه الاسلام ، ومحمد

(١) تفسير الرازي ٣١ : ١٢٢ .

عنده ورسوله ، فمن آمن به وصدق وعده واتبع رسله أدخله الجنة ^(١) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وآله جالس وعنده جبرئيل ، إذ حانت من جبرئيل نظرة قبل السماء إلى أن قال : قال جبرئيل : إن هذا إسرافيل حاجب الرب ، وأقرب خلق الله منه ، واللوح بين عينيه من ياقوتة حمراء ، فاذا تكلم الرب تبارك وتعالى بالوحي ضرب اللوح جبينه فنظر فيه ، ثم ألقاه إلينا نسعى به في السماوات والأرض » ^(٢) .

وعن القمي رحمه الله ، قال : اللوح [المحفوظ] له طرفان ، طرف على يمين العرش ، وطرف على جهة إسرافيل ، فاذا تكلم الرب جلّ جلاله بالوحي ضرب اللوح جبين إسرافيل ، فنظر في اللوح ، فيوحي بما في اللوح إلى جبرئيل ^(٣) .

أقول : هذه الأخبار مما لا تدركه ^(٤) عقولنا ، وإنما تذكر لاحتمال أن ينظر إليها من نور الله قلبه للإيمان ، فيفهم منها معاني غير ظاهرها.

عن الصادق : « من قرأ سورة ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ في فريضة ، فاتها سورة النبيين ، كان محشره وموقفه مع النبيين والمرسلين والصالحين » ^(٥) .

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٩٥ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٢٧ ، عن الباقر عليه السلام ، تفسير الصافي ٥ : ٣١٢ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٤١٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣١٢ .

(٤) في النسخة : يدرك.

(٥) ثواب الأعمال : ١٢٢ ، مجمع البيان ١٠ : ٧٠٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٣١٢ .

في تفسير سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ (١) وَ (٣)﴾

ثم لما ختمت سورة البروج المبدؤة بالخلف بالسماء ذات البروج ، المتضمنة لبيان كونه تعالى مبدأ الخلق ومعيدهم للجزاء ، وكونه محيطا بالكفار ، وبيان عظمة القرآن ، وتكذيب الكفار إياه ، نظمت سورة الطارق المبدؤة بالخلف بالسماء والنجم الثاقب ، المتضمنة لبيان كونه تعالى حافظا لجميع النفوس ، وبيان بدء خلقه الانسان وإرجاعه بعد الموت إلى الحياة لجزاء الأعمال ، وبيان كون القرآن فاصلا بين الحق والباطل ، وأن الكفار يكيّدون في إبطاله ، وتحديدهم بالعذاب ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم ابتدأها بالخلف بما فيه ظهور كمال قدرته بقوله : ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ التي فيها من العجائب والآيات ما فيه دلالة ظاهرة على كمال قدرته وحكمته ، ﴿وَالشَّيْءِ﴾ الطَّارِقِ والظاهر بالليل ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وأي شيء أعلمك ﴿مَا الطَّارِقُ﴾ وأي شيء هو .

ثم كأنه قيل : ما هو ؟ فقال سبحانه : ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ والكواكب المضيئة الذي ينفذ نوره في الأفلاك ، وهو زحل ، حيث إنه في السماء السابعة .

عن الصادق عليه السلام : أنه قال لرجل من أهل اليمن : « ما زحل عندكم في النجوم ؟ » قال اليماني : نجم نحس . فقال : « لا تقولوا هذا ، فإنه نجم أمير المؤمنين ، وهو نجم الأوصياء ، وهو النجم الثاقب الذي قال الله في كتابه » .

فقال اليماني : فما يعني بالثاقب ؟ قال : « لأنّ مطلعته السماء السابعة ، وإنه يثقب بضوئه حتى أضاء في السماء الدنيا ، فمن ثمّ سمّاه الله النجم الثاقب » (١) .

روى بعض العامة : أنّ أبا طالب أتى النبي ﷺ فأتحفه بخبز ولبن ، فبينما هو جالس يأكل إذ

انخطّ

(١) الخصال : ٤٨٩ / ٦٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٣١٣ .

نجم ، فامتلاً ماء ثم نارا ، ففزع أبو طالب ، وقال : أي شيء هذا ؟ فقال ﷺ : « هذا نجم رمي به ، وهو آية من آيات الله » فعجب أبو طالب ، فنزلت السورة ^(١) .

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ * فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ

* يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى

السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (٤) و (١٠)﴾

ثم ذكر الله سبحانه المقسم عليه بقوله : ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ وما من أحد ﴿لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ وقيب عالم بأحواله وأفعاله ومصالحه ومنافعه ، وهو الله الخالق له.

وقيل : إنه الملائكة الحافظون لأعماله الكاتبون لها دقيقها وجليلها ^(٢) ، أو المراد الحافظون لها بحفظ رزقها وأجلها ، الصائنون لها من المهالك ، فإذا استوفت أجلها ورزقها قبضها إلى ربها وسلمها إلى المقابر ^(٣) .

ثم لما بين إحاطته بالنفوس ، بين قدرته على إعادة خلقه للمجازاة ، واستدلّ عليها بقدرته على خلقه في الدنيا بقوله : ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ﴾ ويتفكر العاقل المنكر للبعث أنه ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ ومن أي شيء تكون في هذا العالم ؟

ثم كآته قيل : مم خلق يا رب ؟ فأجاب سبحانه : ﴿خُلِقَ﴾ وتكون ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾ لزج قذر ﴿دَافِقٍ﴾ ومنصب في الرحم ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ﴾ والتخاع الذي في ظهر الرجل ﴿وُ﴾ من بين ﴿التَّرَائِبِ﴾ والعظام التي في صدر المرأة.

وعن أمير المؤمنين ﷺ وابن عباس : من بين الثندين ^(٤) .

قيل : إذا تولّد شيء من بين شيئين متباينين يقال إنه خرج من بينهما ^(٥) . والدّق وإن كان صفته ماء الرجل ، ولكن إذا اجتمع مع غيره يصحّ أن يوصف الكلّ بصفة الجزء ، ويقال للمجموع دافق ، فدلّت الآية على أنّ الولد يخلق من ماء الرجل والمرأة ، كما دلّ عليه ما روي عن النبي ﷺ من قوله : « إذا غلب ماء الرجل يكون الولد ذكرا ، ويعود شبهه إليه وإلى أقاربه ، وإذا غلب ماء المرأة فإليها وإلى أقاربها يعود الشبه » ^(٦) .

قيل : تتكون النطفة من جميع أجزاء البدن ، ثم تجتمع نطفة الرجل في فقار ظهره ، ونطفة المرأة في

(١) تفسير الرازي ٣١ : ١٢٧ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ١٢٨ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٩٨ .

(٥) تفسير الرازي ٣١ : ١٢٩ .

(٦) تفسير الرازي ٣١ : ١٢٩ .

تراثها^(١) .

فإذا ظهر أنّ القادر الحكيم خلق الانسان الذي هو أنموذج العالم الكبير من النطفة ، ظهر عنده كالشمس في رائعة النهار ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ﴾ وإعادة خلقه بعد موته وصيرورته ترابا ﴿لَقَادِرٌ﴾ فيخلقه بقدرته ﴿يَوْمَ تُبْلَى﴾ وتخبر ﴿السَّرَائِرُ﴾ والضمائر من العقائد والنيات وغيرها من المخفيات لجميع الناس ، فيتباهى المؤمن الخالص الحسن السريّة ، ويفتضح المنافق المرائي السيء السريّة.

عن (المجمع) عن النبي ﷺ أنّه سئل : ما هذه السرائر التي ابتلى الله بها العباد في الآخرة ؟ فقال : سرائركم هي أعمالكم من الصلاة والصيام والزكاة والوضوء والغسل من الجنابة ، وكلّ مفروض ، لأن الأعمال كلّها سرائر خفية ، فان شاء الرجل قال : صلّيت ولم يصل ، إن شاء قال : توضّأت ولم يتوضّأ ، فذلك قوله : ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾^(٢) . ﴿فَمَا﴾ للانسان ، وليس ﴿لَهُ﴾ في ذلك اليوم ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ في نفسه يدفع بها العذاب الذي حلّ به ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ ينتصر به فيحفظه من العذاب بالقوة والحيلة والشفاعة.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ * إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أُمُهِلُهُمْ رُؤُودًا﴾ (١١) و (١٧)

ثمّ بيّن سبحانه عظمة القرآن بقوله : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ وصاحبة المطر ، كما عن ابن عباس^(٣) ، إنّما سمّي المطر رجعا لظنّ العرب أنّ السحاب يحمل الماء من الأرض ، ثمّ يرجعه إليها ، ويحتمل كون المراد بتوصيف السماء بالرجوع كونها ذات حركة دورية. وقيل : إنّّه باعتبار أنّ شمسها وقمرها ونجومها تغيب وتطلع^(٤) . ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ والانشقاق لنبعان العيون وخروج النباتات. ثمّ ذكر سبحانه المقسم عليه ، وهو عظمة القرآن بقوله : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ وقاطع للمراء والجدال ، وفاصل بين الحقّ والباطل ، ومميّز كلّ منهما عن الآخر ، لظهور الاعجاز فيه وكونه كلام الله ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ بل كلّ جدّ مطابق للواقع ، فحقّه أن يهتدى به ويطرح ما خالفه. ثمّ ذمّ كفّار مكّة بقوله : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ﴾ ويحتالون في إبطاله وإطفاء نوره بالقاء الشبهات نسبته إلى الشعر والسحر والكهانة والاختلاق ﴿كَيْدًا﴾ بليغا ﴿وَأَكِيدُ﴾ أنا أيضا ، وادبر في ترويجه وإبطال

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٣٩٩ .

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٧١٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣١٤ .

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٧١٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣١٤ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٠٠ .

مساعيتهم^(١) ﴿كَيْدًا﴾ وتديبرا متينا لا يمكنهم رده ، وهو نصرة محمد ﷺ ، وإعلاء دينه ، وإذلال أعدائه ﴿فَمَهْلٍ﴾ أنت يا محمد ﴿الْكَافِرِينَ﴾ المعاندين للحق ، ولا تستعجل في إهلاكهم والانتقام منهم .
ثم كرّر سبحانه الأمر بامهالهم مع اختلاف اللفظين لزيادة التسكين من الرسول بقوله :
﴿أَمَهُلْهُمْ﴾ إمهالا ﴿رُؤُودًا﴾ وقليلًا وعلى رفق وتؤدة ، أمهلهم حال كونك غير مستعجل في الانتقام إلى يوم القيامة ، أو إلى موتهم ، أو إلى أن يبلغ في الدنيا وقت الانتقام منهم .
عن الصادق عليه السلام : « من كانت قرأته في الفرائض ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ كان له عند الله يوم القيامة جاه ومنزلة ، وكان من رفقاء النبيين وأصحابهم في الجنة »^(٢) .

(١) في النسخة : مساعيتهم .

(٢) ثواب الاعمال : ١٢٢ ، مجمع البيان ١٠ : ٧١٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣١٥ .

في تفسير سورة الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾

ثمّ لما ختمت سورة الطارق المتضمنة لبيان مبدأ خلق الانسان والمِنَّة عليه بنعمة إيجاده وبيان عظمة القرآن وكونه فاصلا بين الحقّ والباطل ، المقتضي لتسبيحه وتعظيمه ، نظمت سورة الأعلى المبتدئة بأمر النبيّ بتسبيحه وتنزيهه ، وبيان خلق الانسان ، والمِنَّة عليه بنعمه هذه تعالى ، فافتتحها بذكر الأسماء المباركات بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثمّ ابتدأها بأمر النبي ﷺ بتسبيحه بقوله : ﴿سَبِّحْ﴾ يا محمد نزّه عن العيوب والنقائص ﴿اسْمَ رَبِّكَ﴾ وما يطلق على ذاته ﴿الْأَعْلَى﴾ والأرفع من جميع الموجودات شأنًا ومقامًا وسلطانًا ، أو أعلى من أن يصفه الواصفون ويذكره الذاكرون .

وقيل : إنّ المراد بالاسم علمه تعالى ، والمقصود تنزيه ذاته ببيان أبلغ وأكد ، حيث إن من كان اسمه واجب التنزيه والتقديس ، كان تنزيه ذاته أوجب وألزم ^(١) .

وقيل : إن تنزيه اسمه عدم تسمية غيره تعالى به ^(٢) ، ومثل صونه عن الابتذال ، والذكر على وجه التعظيم والخشوع ^(٣) .

وقيل : إنّ المراد من الاسم ذاته ^(٤) ، وقيل : صفته ^(٥) ، والمعنى : نزّه صفته المنبئة عن ذاته المقدسة عن النقائص الإمكانية .

وقيل : إنّ لفظ اسم زائد ، والمراد : سَبِّحْ رَبَّكَ الْأَعْلَى ^(٦) .

عن الباقر عليه السلام قال : « إذا قرأت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فقل : سبحان ربّي الأعلى ، وإن كنت في الصلاة فقل فيما بينك وبين نفسك » ^(٧) .

(١) مجمع البيان ١٠ : ٧١٩ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ١٣٥ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٠٣ .

(٤) تفسير الرازي ٣١ : ١٣٥ .

(٥) تفسير الرازي ٣١ : ١٣٦ .

(٦) مجمع البيان ١٠ : ٧١٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٣١٦ .

وعن ابن عباس : كان النبي ﷺ إذا قرأ سورة ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال : « سبحان ربِّي الأعلى » (١) .

وروى بعض العامة عن عقبة بن عامر : أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال [رسول الله ﷺ] : اجعلوها في سجودكم (٢) .
وقالوا : روي أنه ﷺ كان يقول في سجوده : « سبحان ربِّي الأعلى » (٣) .
وقيل : إن المراد بالتسبيح الصلاة ، والمعنى : صلّ باسم ربك (٤) ، والظاهر هو الوجه الأول الذي ذكرنا.

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ
غُثَاءً أَخْوَى (٢) و (٥)﴾

ثم وصف سبحانه ذاته المقدسة بصفات دالة على كمال قدرته وحكمته المقتضي لاستحقاق التسبيح بقوله : ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ الانسان أولا من تراب ، ثم من نطفة ﴿فَسَوَّى﴾ خلقه بأن عدل قامته ، أو جعله بحيث يمكنه أن يأتي بجميع الأفعال التي لا يقدر عليها غيره من الموجودات ، ومنها العبادات .
وقيل : يعني خلق الميزان فسوى خلقه بأن جعل له أعضاء أو حواسا يتوقف تعيُّشه عليها (٥) ، أو خلق كل شيء فسوى خلقه بأن أحكمه وأتقنه (٦) .

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ كل إنسان ، أو كل شيء بقدر مخصوص يناسبه من الجنة والعظم والصغر واللون والشكل وغيرها من الصفات ومدة البقاء والسعادة والشقاوة ﴿فَهَدَى﴾ الانسان بإعطائه العقل وإرسال الرسل إلى خيره وشره ، أو الحيوان إلى ما به من التناسل وتدبير التعيُّش ، وجلب ما فيه صلاحه ودفع ما فيه ضرره ، أو جميع الموجودات إلى ما به تكامله بجعل القوى المصلحة فيه ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ﴾ وأنبث من الأرض ﴿الْمَرْعَى﴾ والكأ الاخضر ، كما عن ابن عباس (٧) ﴿فَجَعَلَهُ﴾ بعد طراوته وخضرته ﴿غُثَاءً أَخْوَى﴾ ويابساً أسود بسبب برودة الهواء ولصوق المكدرات كالغبار أو ما يحمله السيل من الأجزاء الكدرة.

﴿سَنُفِرُّكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى * وَنُيَسِّرُكَ

(١) مجمع البيان ١٠ : ٧١٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٣١٦ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ١٣٧ .

(٤) تفسير الرازي ٣١ : ١٣٥ .

(٥) تفسير الصافي ٥ : ٣١٦ ، تفسير البيضاوي ٢ : ٥٨٩ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٠٤ .

(٦) تفسير أبي السعود ٩ : ١٤٣ ، جوامع الجامع : ٥٣٨ .

(٧) تفسير الرازي ٣١ : ١٤٠ .

لِلْيَسْرَى (٦) وَ (٨)

ثمَّ حَتَّ سُبْحَانَهُ خُصُوصَ النَّبِيِّ ﷺ بِذِكْرِ أَكْمَلِ نَعْمَةٍ بِقَوْلِهِ : ﴿سُقِّرْتُكَ﴾ يَا مُحَمَّد ، وَتَلَوُ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ الَّذِي فِيهِ عُلُومُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، وَمَا يَكُونُ وَمَا هُوَ كَائِنْ ، وَجَمِيعُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ شَيْئًا مِنْهُ أَبَدًا ، بَلْ هُوَ بَاقٍ فِي حِفْظِكَ ، فَلَا تَخَفُ مِنْ نَسْيَانِهِ ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أَنْ تَنْسَاهُ ، وَلَا يَشَاءُ ذَلِكَ أَبَدًا ، وَإِنَّمَا الْفَرَضُ مِنَ الْاسْتِثْنَاءِ إِظْهَارُ أَنَّ بَقَاءَهُ فِي حِفْظِهِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَفَضْلِهِ عَلَيْهِ لَا بِقُدْرَةِ نَفْسِهِ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ يَقْرَأُ مَخَافَةَ أَنْ يَنْسَاهُ ، فَكَانَ لَا يَفْرَغُ جِبْرِئِيلُ مِنْ آخِرِ الْوَحْيِ حَتَّى يَتَكَلَّمَ هُوَ بِأَوَّلِهِ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ لَمْ يَنْسَ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئًا ^(١) .
ثمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ مَخَيَّرَ بَيْنَ الْجَبْرِ فِي الْقِرَاءَةِ وَإِخْفَاتِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنَّهُ﴾ تَعَالَى ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ﴾ إِنْ جَهَرْتَ بِالْقِرَاءَةِ ﴿وَو﴾ يَعْلَمُ ﴿مَا يَخْفَى﴾ مِنْ قِرَاءَتِكَ.

وَقِيلَ : إِنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُ عَالِمٌ بِجَهْرِكَ فِي الْقِرَاءَةِ مَعَ جِبْرِائِيلَ ، وَعَالِمٌ بِالسِّرِّ الَّذِي فِي قَلْبِكَ ^(٢) .
﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾ وَنُوفِّقُكَ ﴿لِلْيَسْرَى﴾ وَالطَّرِيقَةَ الْأَسْهَلَ فِي حِفْظِ الْقُرْآنِ ، أَوْ لِلشَّرِيعَةِ الَّتِي هِيَ أَسْهَلُ الشَّرَائِعِ . وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ : الْيَسْرَى الْجَنَّةُ ، وَالْمَعْنَى نَيْسِرُكَ لِلْعَمَلِ الْمُؤَدِّي إِلَيْهَا ^(٣) .

﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَنْجِنُهَا الْأَشْفَى * الَّذِي

يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٩) وَ (١٣)﴾

ثمَّ لَمَّا بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ لَطْفَهُ بِنَبِيِّهِ ﷺ بِنَزُولِ الْقُرْآنِ ، أَمَرَهُ بِدَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ : ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ وَالْعِظَةُ فِيهِمْ ، وَالتَّكْنِةُ فِي ذِكْرِ هَذَا الشَّرْطِ مَعَ وَجُوبِ الْعِظَةِ عَلَيْهِ نَفْعَتُ أَوْ لَا تَنْفَعُ ، حَتَّى النَّاسُ عَلَى الْإِتِّعَاضِ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ فَائِدَةٌ إِمَامِ الْحُجَّةِ.

وَقِيلَ : إِنَّ فَائِدَتَهُ تَنْبِيهِ الرُّسُولِ ﷺ بِأَنَّ الذِّكْرَ لَا يَنْفَعُهُمْ ، كَأَنَّهُ قَالَ : ذَكَّرَهُمْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ، وَلَا أَرَى أَنْ تَنْفَعَهُمْ ^(٤) .

ثمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ الْمُنْتَفِعِينَ بِالْعِظَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿سَيَذَكِّرُ﴾ وَيَنْتَفِعُ الْبَتَّةَ بِذِكْرِكَ وَعِظَتِكَ ﴿مَنْ يَخْشَى﴾ اللَّهُ وَالرَّجُوعَ إِلَيْهِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَقْطَعُ بَعْدَ الْبَعْثِ ، وَلَمَّا كَانَ الْقَاطِعُ غَيْرَ مُعَيَّنٍ يَجِبُ تَعْمِيمُ الْعِظَةِ.

(١) مجمع البيان ١٠ : ٧٢٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣١٧ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ١٤٢ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ١٤٣ .

(٤) تفسير الرازي ٣١ : ١٤٤ .

قيل : إنّ الآية نزلت في ابن أم مكتوم. وقيل : في عثمان ^(١) .

ثمّ بيّن غير المنتفع بقوله : ﴿وَيَجْنِبُهَا﴾ ويحترز منها ولا يسمعها سماع القبول ﴿الْأَشَقَى﴾ وأقسى الناس قلبا وأعداهم للنبي ﷺ ، كأبي جهل والوليد وأضرابهما ﴿الَّذِي يَصَلِّي﴾ ويدخل ﴿النَّارَ الْكُبْرَى﴾ والطبقة الأسفل في جهنّم ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيتخلّص من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ حياة ينتفع بها. قيل : إنّ نفس كلّ منهم [تصير] في حلقة ، فلا تخرج فيموت ، ولا ترجع إلى موضعها فيحيى ^(٢) .

قيل : إنّ ذكر كلمة ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أنّ هذه الحالة أشدّ وأقطع من الصلي ، فهو متراح في مراتب الشدّة ^(٣) .

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ * وَفُوسَى (١٤) و (١٩)﴾

ثمّ لما ذكر سبحانه حال الأشقى ، ذكر حسن حال المتقي عن الكفر بقوله : ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ وفاز بأعلى المقاصد ﴿مَنْ تَزَكَّى﴾ وتطهّر من دنس الكفر عن ابن عباس : معنى ﴿تَزَكَّى﴾ أن يقول : لا إله إلا الله ^(٤) ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ وعرفه بقلبه. وعن ابن عباس : ذكر معاده ، ووقوفه بين يدي ربّه ^(٥) ﴿فَصَلَّى﴾ قيل : مراتب أعمال الانسان ثلاثة : إزالة العقائد الفاسدة عن القلب وهي التزكية ، وإنارة القلب بنور معرفة الله وهي ذكر الربّ ، ثمّ الاشتغال بالعبادة وهو الصلاة ^(٦) .

وعن ابن عمر : إن المراد بالتزكي إخراج صدقة الفطرة ^(٧) . وقيل : المراد بالتزكي المضى إلى المصلّى ، وبالذكر أن يكثر في الطريق حين خروجه إلى المصلّى ، وبالصلاة [أن يصلي صلاة] العيد بعد ذلك مع الامام ^(٨) .

وعن الصادق عليه السلام : أنّه سئل عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ قال : « من أخرج الفطرة » قيل له : ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى؟﴾ قال : خرج إلى الجبّانة فصلى ^(٩) . وعنه عليه السلام : قال لرجل : ما معنى قوله : ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى؟﴾ قال : كلّما ذكر اسم ربّه قام فصلى .

(١) تفسير الرازي ٣١ : ١٤٥ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ١٤٦ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ١٤٧ .

(٤) تفسير الرازي ٣١ : ١٤٧ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٠٩ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٤١٠ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٤١٠ .

(٧) من لا يحضره الفقيه ١ : ٣٢٣ / ١٣٧٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٣١٧ .

قال : « لقد كلف الله هذا شططا » قال : فكيف هو ؟ فقال : « كلما ذكر اسم ربه صلى على محمد وآله » ^(١) .

ثم كانه قيل : لا تفعلون ايها الكفار ذلك ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ وتختارون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ولذاها ﴿و﴾ الحال أنّ ﴿الْآخِرَةَ خَيْرٌ﴾ وأفضل من الدنيا ؛ لأن نعمها ولذاها أعلى وأخلص من شائبة الآلام والغوائل ﴿وَأَبْقَى﴾ وأدوم ، بل لا انقطاع لها ولا انصرام ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المذكور من الفلاح بالتركية ، وأن الآخرة خير وأبقى ﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ والكتب السابقة المنزلة من السماء ، أعني ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل ﴿و﴾ صحف ﴿مُوسَى﴾ بن عمران الكليم.

روي أنّ جميع ما أنزل الله من كتاب مائة وأربعة كتب ، أنزل على آدم عشر صحف ، وعلى شيث خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف ، والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، فصحف موسى هي الألواح التي كتبت فيها التوراة ^(٢) . وقيل صحفه كانت قبل التوراة ، وهي عشر ^(٣) .

وعن (الخصال) عن أبي ذرّ رضوان الله عليه : أنّه سأل رسول الله ﷺ : كم أنزل الله من كتاب ؟ قال : « مائة كتاب وأربعة كتب ، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشرين صحيفة ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان » .

قلت : يا رسول الله ، ما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : « كانت أمثالا كلّها ، وكان فيها : أيها الملك المبتلى ، إيّ لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ، ولكيّ بعثتك لتردّ عني دعوة المظلوم ، فإني لا أردّها وإن كانت من كافر ، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبا أن يكون له أربعة ساعات : ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة فيها يتفكر فيما صنع الله عزّ وجلّ إليه ، وساعة يخلو فيها بحظّ نفسه من الحلال ، فإنّ هذه الساعة عون لتلك الساعات » .

إلى أن قال : « وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شأنه ، حافظا للسانه ، فإنّ من حسب كلامه من علمه قلّ كلامه إلّا فيما يعنيه ، وعلى العاقل أن يكون طالبا لثلاث : مرّة لمعاش ، أو تزوّد لمعاد ، أو تلذّذ في غير محرم » .

قال : قلت : يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى ؟ قال : « كانت عبرا كلّها ، عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، ولمن أيقن بالنار كيف يضحك ، ولمن يرى الدنيا وتقلّبها كيف يطمئنّ إليها ، ولمن يؤمن بالقدر كيف ينصب ، ولمن يؤمن بالحساب ثمّ لا يعمل » هكذا النسخة.

(١) الكافي ٢ : ٣٥٩ / ١٨ ، وتفسير الصافي ٥ : ٣١٨ ، عن الامام الرضا عليه السلام .

(٢) و(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٤١١ .

قال : قلت : فهل في أيدينا ممّا أنزل الله عليك شيء ممّا كان في صحف إبراهيم وموسى ؟ قال :
يا أبا ذر ، اقرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ إلى آخر السورة ^(١) .
وعن الصادق عليه السلام : « ما أعطى الأنبياء شيئاً إلّا وقد أعطاه محمداً ﷺ » . قال : وقد أعطى
محمداً ﷺ جميع ما أعطى الأنبياء ، وعندنا الصحف التي قال الله عز وجل : ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ .
قيل : هي الألواح ؟ قال : « نعم » ^(٢) .
عن الصادق : « من قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ في فريضة ونافلة قيل له يوم القيامة : ادخل
الجنة من أيّ أبواب الجنة شئت إن شاء الله » ^(٣) .
وعنه : « الواجب على كلّ مؤمن إذا كان لنا شيعة أن يقرأ في ليلة الجمعة بالجمعة و﴿سَبِّحْ اسْمَ
رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ » ^(٤) .

(١) الخصال : ٥٢٤ / ١٣ ، تفسير الصافي : ٥ : ٣١٨ .

(٢) الكافي : ١ / ١٧٦ ، تفسير الصافي : ٥ : ٣١٩ .

(٣) ثواب الأعمال : ١٢٢ ، مجمع البيان : ١٠ : ٧١٧ ، تفسير الصافي : ٥ : ٣١٩ .

(٤) ثواب الأعمال : ١١٨ ، مجمع البيان : ١٠ : ٤٢٧ ، تفسير الصافي : ٥ : ٣١٩ .

في تفسير سورة الغاشية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وَجُوهُ يُؤْمِنُ خَاشِعَةً * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى
نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسْنِنُ
وَلَا يُغْنِي عَنْهُ جُوعٌ (١) وَ (٧)﴾

ثم لما ختمت سورة الأعلى المختتمة بذكر الكفار بإشار الدنبا على الآخرة مع كون الآخرة خير وأبقى من الدنيا ، نظمت سورة الغاشية المتضمنة لبيان أحوال الآخرة ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم ابتدأها بذكر أهوال القيامة بقوله : ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ يا محمد ﴿حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ وخبر القيامة التي تكون داهية تغشي الناس بشدائدها وتغطيهم وتحيط بهم أهوالها ، فإنه من عجائب الأخبار وبدائع الآثار التي حقها أن يبادر إلى سماعها العقلاء ، ويشتاق إلى تلقيها الأركياء ^(١) وفي رواية : « الذين يخشون الإمام » ^(٢) .

ثم كأنه قيل : ما خبرها وكيف هي ؟ فأجاب سبحانه بقوله : ﴿وَجُوهُ يُؤْمِنُ خَاشِعَةً﴾ وفي ذلك الوقت أصحابها ﴿خَاشِعَةً﴾ ذليلة قد عراهم الخزي والهوان ؛ لأهم تكبروا عن طاعة الله ورسوله ﴿عَامِلَةٌ﴾ ومتحملة للمشاق ، كالعبور على الصراط ، وجرّ السلاسل والأغلال ﴿نَاصِبَةٌ﴾ وتعبة لطول الوقوف عراة حفاة جياعا عطاشا ، أو لثقل السلاسل التي ذرعها سبعون ذراعا .

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « كلّ ناصب - وإن تعبد واجتهد - منسوب إلى هذه الآية ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ » ^(٣) .

وعن الصادق عليه السلام : « لا يبالي الناصب صلى أم زنا ، وهذه الآية نزلت فيهم : ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ » ^(٤) .

أقول : هذه الروايات تأويل لا تنزيل .

(١) في النسخة : سماعة العقلاء ، ويشتاق إلى تلقيّة الأركياء .

(٢) الكافي ٨ : ١٧٩ / ٢٠١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٢١ .

(٣) الكافي ٨ : ٢١٣ / ٢٥٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٢١ .

(٤) الكافي ٨ : ١٦٠ / ١٦٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٢١ .

ثم بعد ذلك ﴿تَصَلَّى﴾ وتدخل ﴿نَارًا حَامِيَةً﴾ وبالغة أعلى درجة الشدة في الحرارة ﴿تُسْقَى﴾ تلك الوجوه وأصحابها بعد استغاثتهم في مدة طويلة من شدة العطش ﴿مِنْ عَيْنِ آيَةٍ﴾ ومتناهية في الحرارة. قيل : لو وقعت قطرة منها على جبال الدنيا لذابت ، وإذا ادنيت من وجوههم تناثرت لحومها ، وإذا شربوا قطعت أمعاءهم (١) .

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ وشوك يابس فيه سم قاتل ، كما قيل (٢) . وعن ابن عباس : الضريع شيء في النار يشبه الشوك ، أمر من الصبر ، وأنتن من الجيفة ، وأشدّ حرًا من النار (٣) .

أقول : الظاهر أن المراد نار الدنيا. قيل : هذا طعام بعض أهل النار ، والزقوم والغسلين طعام آخرين (٤) . عن الصادق عليه السلام في تأويل الآيات ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ﴾ قال : « يغشاهم القائم عليه السلام بالسيف ﴿خَاشِعَةً﴾ لا تطيق الامتناع ﴿عَامِلَةً﴾ قال : عملت بغير ما أنزل الله ﴿نَاصِبَةً﴾ قال نصبت غير ولاة أمر الله ﴿تَصَلَّى نَارًا﴾ الحرب في الدنيا على عهد القائم ، وفي الآخرة نار جهنم» (٥) . ثم روي أن كفار قريش قالوا استهزاء : إِنَّ الضريع ليسمن إبلنا (٦) ، فنزلت ﴿لَا يُسْمِنُ﴾ الضريع أكله ، لأنه يصير جزء بدنه ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ ولا يكفي ﴿مِنْ جُوعٍ﴾ لأنه ليس بطعام للبهائم فضلا عن الإنس ، إذ ليس فيه منافع الغذاء ، بل أكله عذاب فوق العذاب.

﴿وَجُوعٌ يَوْمِئِذٍ نَاعِمٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاحِظٌ * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ (٨) و (١٦)

ثم لما ذكر سبحانه سوء حال الكفار في الآخرة ، بين حسن حال المؤمنين فيها بقوله : ﴿وَجُوعٌ﴾ اخر ﴿يَوْمِئِذٍ نَاعِمٌ﴾ ومبتهجة وحسنة مضيئة ، أو متنعمة بالتعم الجسمانية والروحانية ﴿لِسَعْيِهَا﴾ وعملها في الدنيا ﴿رَاضِيَةٌ﴾ لرضائها بشماتها وثوابها متمكنة ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ ومرتفعة فوق السماوات ، أو عالية المقدار لكمال شرفها وما فيها من التعم ﴿لَا تَسْمَعُ﴾ تلك الوجوه ﴿فِيهَا﴾ كلمة

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٤١٣ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٤١٣ .

(٤) تفسير الرازي ٣١ : ١٥٣ .

(٥) الكافي ٨ : ٥٠ / ١٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٢١ .

(٦) تفسير الرازي ٣١ : ١٥٣ .

﴿لَاغِيَةً﴾ لا فائدة فيها ولا اعتداد بها ، إذ هي ما تؤذي السمع ﴿فِيهَا عَيْنٌ﴾ كثيرة مياهها ﴿جَارِيَةً﴾ دائما. قيل : هي أشدّ بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، من شرب منها لا يظما بعدها أبدا ^(١) ﴿فِيهَا سُرُرٌ﴾ ألواحها - كما عن ابن عباس - من ذهب مكلّلة بالدرّ والياقوت والزّبرجد ^(٢) ﴿مَرْفُوعَةً﴾ السّمك عالية في الهواء ، عن النبي ﷺ : ارتفاعها كما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام ^(٣) .

قيل : إذا جاء وليّ الله ليجلس عليها تطامنت له ، فإذا استوى عليها ارتفعت ^(٤) ، فيرى جميع ما أعطاه ربّه في الجنّة من النّعم الكثيرة والملك العظيم.

﴿و﴾ فيها ﴿أَكْوَابٌ﴾ وأواني لا عرى لها ﴿مَوْضُوعَةً﴾ بين أيدي المؤمنين يشربون منها ، لا يحتاجون إلى أن يدعوا بها ، ولا ينافي أن يكون بعض أواني الشّرب بيد الغلمان ﴿و﴾ فيها ﴿نَمَارِقُ﴾ ووسائد ﴿مَصْفُوفَةً﴾ بعضها إلى جنب بعض ، كما تشاهد في بيوت الأكابر ، يستندون إليها للاستراحة ﴿و﴾ فيها ﴿زُرَابِيٌّ﴾ وبسط فاخرة ﴿مِثْنُوتَةً﴾ ومبسوطة على السّر زينة وتمتعا أو مفرقة في المجالس. عن أمير المؤمنين عليه السلام « [لو لا] أنّ الله قدرها لا لتمعت ^(٥) أبصارهم بما يرون » ^(٦) .

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (١٧) و (٢٠)

ثمّ لما كان حسن حال المؤمنين موقوفا على معرفة الله والايمان بالمعاد ، أمر الناس بالتفكر في صنائعه العجيبة ، ليستدلّوا بها على كمال قدرته وحكمته المستلزمين لتوحيده وإعادة الخلق للجزاء على الأعمال بقوله : ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ﴾ ولا يتفكّرون أنّها ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ قيل : إنّ التقدير : أينكرون ما ذكر من البعث ويستبعدون وقوعه عن قدرة الله ؟ ! أفلا ينظرون نظر الاعتبار إلى الإبل التي نصب أعينهم ، يستعملونها كلّ حين ، أنّها كيف خلقت خلقا بديعا معدولا به عن سنن خلق سائر الحيوانات في عظم جثتها ، وشدّة قوتها ، وعجيب هيئتها اللائقة بتأّي ما يصدر عنها من الأفاعيل الشاقة ، كالنهوض من الأرض بالأوقار الثقيلة ، وجرّ الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة ، وفي صبرها على الجوع والعطش ، حتى أن ظمأها يبلغ العشر فصاعدا ، واكتعائها باليسير ، ورعيها لكلّ ما يتيسر من شوك وشجر ، وغير ذلك ممّا لا يكاد يراعاه سائر البهائم ، وفي انقيادها مع ذلك للانسان في الحركة

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٤١٥ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ١٥٥ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٤١٥ .

(٤) في النسخة : لتمعت .

(٦) مجمع البيان ١٠ : ٧٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٢٢ .

والسكون والبروك والنهوض ، حيث يستعملها في ذلك كيف يشاء ويقتادها بقطارها كل صغير وكبير ، كما قال أبو السعود (١) .

وتبول من خلفها ، لأنّ قائدها أمامها ، فلا يترشّش عليه بولها ، وعنقها سلّم إليها ، وتتأثر من المؤدّة والغرام وتسكر منهما إلى حيث تنقطع من الأكل والشرب زمانا ممتدّا ، وتتأثر من الأصوات الحسنة والحداء ، وتصير من كمال التأثر إلى حيث تهلك نفسها من سرعة الجري ، ويجري الدمع من عينها عشقا وغراما ، هذا مع مالها من المنافع من جهة وبرها ولحمها ولبنها وبولها وروثها ، والجمال الذي يكون فيها ، ولما كان العرب أعرف من سائر الناس بها ، أمرهم بالتفكر فيها ، والاستدلال بعجيب خلقتها على صانعها وحكمته الموجبة للبعث.

قيل : لما كانت مسافرة الأعراب على الإبل منفردين (٢) وكان مجال التفكر في الخلوة التي لا شاغل فيها ، وهي لهم على ظهر الإبل ، وهم حينئذ لا يرون إلّا الإبل والسماء والأرض والجبال ، أمرهم أولا بالتفكر في خلق الإبل (٣) ، ثمّ في السماء بقوله : ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ مع عظمها رفعا بعيدا بلا عمد ﴿وَالِى الْجِبَالِ﴾ العظام ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ على الأرض نصبا ثابتا لا تسيل ولا تزول أوتادا لها ﴿وَالِى الْأَرْضِ﴾ البسيطة ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ وبسطت كالأديم للضرب فيها والتقلّب عليها ، فمن تفكر في هذه الأشياء علم بكمال قدرة خالقها وحكمته وتوحيده ، وتيقن بوقوع ما وعده من البعث الذي هو موافق للحكمة البالغة.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ﴾
الله الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢١) و (٢٦)﴾

فلما شرحنا الدلائل القاطعة على التوحيد والبعث ﴿فَذَكِّرْ﴾ يا محمد قومك ، وأمرهم بالنظر والتفكر والایمان ، وحذّروهم عن تركها ، وليس عليك أن يتذكروا أو لا يتفكروا ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ومبعوث إلى الناس للتبليغ والتذكير ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من قبل ربك ﴿بِمُصَيِّرٍ﴾ ومسلّط حتى تقتلهم أو تكرهمهم على النظر والایمان ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى﴾ وأعرض عنك وعن تذكارك ﴿وَكَفَرَ﴾ وأصرّ على عنادك. قيل : إنّ التقدير فذكر قومك إلّا من تولى وكفر منهم فأنّه ليس عليك تذكيره لعدم الفائدة فيه (٤).

(١) تفسير أبي السعود ٩ : ١٥٠ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤١٦ .

(٢) في النسخة : منفردا .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٤١٧ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٤١٨ .

وقيل : إنّ الاستثناء منقطع ^(١) ، والمعنى : ولكن من تولى وكفر ^(٢) ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ﴾ يوم القيامة ﴿الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ﴾ في نار جهنم التي حرّها شديد ، وقعرها بعيد ، ومقامعها حديد ، فأنّه تعالى قاهر ومسيطر عليهم . واعلم أنّهم لا يفوتوننا ولا يخرجون من ملكنا ومن تحت قدرتنا ﴿إِنَّ إِلَيْنَا﴾ بعد الموت ﴿يَأْتِيهِمْ﴾ ورجوعهم من الدنيا لا إلى غيرنا . ﴿ثُمَّ﴾ بعد رجوعهم إلينا ﴿إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ في المحشر نحاسبهم على التقير والقطمير من عقائدهم وأعمالهم ، وفيه تسليّة النبي ﷺ .

عن الباقر عليه السلام : « إذا كان يوم القيامة وجمع الله الأولين والآخرين لفصل القضاء ، دعا رسول الله ﷺ ودعا أمير المؤمنين عليه السلام ، فيكسى رسول الله ﷺ حلّة خضراء تضيء ما بين المشرق والمغرب ، ويكسى عليّ مثلها ، ويكسى رسول الله ﷺ حلّة وردية يضيء لها ما بين المشرق والمغرب ، ويكسى عليّ مثلها ، ثمّ يصعدان عندها ، ثمّ يدعى بنا فيدفع إلينا حساب الناس ، فنحن والله ندخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار » ^(٣) .

وعن الكاظم عليه السلام قال : « إلينا إياب الخلق ، وعلينا حسابهم ، فما كان لهم من ذنب بينهم وبين الله حتمنا على الله في تركه لنا فأجابنا إلى ذلك ، وما كان بينهم وبين الناس استوهيناه منهم وأجابوا إلى ذلك وعوّضهم الله عزّ وجلّ » ^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « إذا كان يوم القيامة وكلنا الله بحساب شيعتنا ، فما كان لله سألنا الله أن يهبه لنا فهو لهم ، وما كان لنا فهو لهم » ^(٥) .

عن الصادق : « من أدمن قراءة ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ في فريضة أو نافلة ، غشّاه الله برحمته في الدنيا ، آتاه الأمن من عذاب النار » ^(٦) .

(١) تفسير الرازي ٣١ : ١٥٩ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤١٨ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٤١٨ .

(٣) الكافي ٩ : ١٥٩ / ١٥٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٢٣ .

(٤) الكافي ٨ : ١٦٢ / ١٦٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٢٣ .

(٥) أمالي الطوسي : ٤٠٦ / ٩١١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٢٣ .

(٦) ثواب الأعمال : ١٢٢ ، مجمع البيان ١٠ : ٧٢٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٢٣ .

في تفسير سورة الفجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ

قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ﴾ (١) و (٥)

ثم لما ختمت سورة الغاشية المتضمنة لبيان عظمة يوم القيامة وشدة عذاب الكفار فيه ، وأمر النبي ﷺ بتذكير الناس وعدم تذكر المصيرين على الكفر ، ووعيدهم بالعذاب الأكبر ، وإياهم في القيامة إليه نظمت سورة الفجر المتضمنة لوعيد الكفار بما نزل على الامم السابقة من العذاب الدنيوي ، وتذكيرهم في يوم لا ينفعهم التذكر فيه ، وإرعاب قلوبهم ببيان بعض أهوال القيامة ، وبيان إياب النفوس المطمئنة إليه ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم ابتدأها بالقسم بما فيه كمال الشرف لدلالته على كمال قدرته جريا على عادة العرب على ما قيل من إكثار القسم على مقاصدهم^(١) بقوله : ﴿وَالْفَجْرِ﴾ وطلوع نور الشمس من افق المشرق المسمى بالصبح الصادق ، كما عن ابن عباس^(٢) ، قبلا للكاذب ، وهو ظهور بياض مستطيل بالافق كذنب السرحان ، فإنّ بطلوع الصبح الصادق انقضاء الليل ، وظهور الضوء ، وانتشار الناس والحيوانات في طلب الرزق ، كنشور الموتى في القيامة للحساب جزاء الأعمال.

وقيل : إن المراد جميع النهار^(٣) . وقيل : إن المراد صلاة الفجر ؛ لأنها في أول النهار ، وفي مشهد ملائكة الليل والنهار^(٤) . وقيل : فجر يوم النحر^(٥) الذي هو يوم عظيم عند الله وعند العرب . وقيل : إن المراد به فجر أول المحرم الذي قيل إنه أعظم الشهور عند الله ، وعن ابن عباس ، قال : فجر السنة هو محرم^(٦) .

وقيل : عنى به العيون التي ينفجر منها المياه ، وفيها حياة الخلق^(٧) . وقيل : إنه فجر ذي الحجة لقوله تعالى بعده : ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾^(٨) من ذي الحجة ، فإنها ليال مخصوصة بفضائل لا تكون في غيرها ، كما دلّ

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٢٠ .

(٢-٥) تفسير الرازي ٣١ : ١٦١ .

(٦-٨) تفسير الرازي ٣١ : ١٦٢ .

عليه تنكيرها.

وفي الخبر : ما من أيام العمل الصالح فيها أفضل من أيام العشر ^(١) .

وفي الحديث : « ما من أيام أزكى عند الله ولا أعظم أجرا من خير عمل في عشر الأضحى » قيل : يا رسول الله ، ولا المجاهد في سبيل الله ؟ [قال : « لا ولا المجاهد في سبيل الله »] إلا رجل خرج بنفسه وماله ولم يرجع من ذلك بشيء ^(٢) .

وقيل : إنها العشر الأول من المحرم ^(٣) ، وقيل : إنها العشر الآخر من شهر رمضان ^(٤) . روي أن النبي ﷺ إذا دخل العشر الآخر من رمضان شدّ المئزر وأيقظ أهله ^(٥) .

﴿وَالشَّفْعُ﴾ والزوج من الصلوات ﴿وَالْوَتْرُ﴾ والفرد منها. عن عمران بن الحصين ، عن النبي ﷺ قال : « هي الصلوات ، منها شفع ، ومنها وتر » قيل : لأنّ الصلاة تالية القرآن ^(٦) . وعن القمّي قال : الشفع ركعتان ، والوتر ركعة ^(٧) . أقول : الظاهر أنّ المراد ثلاث ركعات بعد نوافل الليل.

وقيل : الشفع : سجدتان ، والوتر : الركوع ^(٨) .

وقيل : الشفع : يوم النحر ، والوتر : يوم عرفة ^(٩) . وقيل : الشفع : يومان بعد يوم النحر ، والوتر : اليوم الثالث ^(١٠) . وعنهما عليهما السلام : « الشفع [يوم التروية ، والوتر] يوم عرفة » ^(١١) .

وقيل : الشفع : جميع الممكنات لأنّها زوج تركيبي ، والوتر : الواجب الوجود ^(١٢) .

وقيل : الشفع : آدم وحواء ، والوتر : هو الله تعالى ^(١٣) .

وقيل : إن شيئا من المخلوقات لا ينفكّ عن كونه زوجا أو فردا ، فأقسم سبحانه بجميع الموجودات ^(١٤) .

وقيل : الشفع : أبواب الجنة أو درجاتها ، وهي ثمانية ، والوتر : أبواب النار ودرجاتها ، وهي سبعة ^(١٥) .

وعن مقاتل الشفع : هو الأيام التي لها ليال ، والوتر : اليوم الذي لا ليل له ، وهو يوم القيامة ^(١٦) . وقيل وجوه آخر كلّها على الظاهر من التفسير بالرأي.

(١) تفسير الرازي ٣١ : ١٦٢ . (٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٢٠ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ١٦٢ . (٤) تفسير الرازي ٣١ : ١٦٢ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٢٠ .

(٥) تفسير الرازي ٣١ : ١٦٢ ، وفي النسخة : والقيظ . (٦) تفسير الرازي ٣١ : ١٦٣ ، وفيه : تالية للإيمان .

(٧) تفسير القمي ٢ : ٤١٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٢٤ . (٨) تفسير الرازي ٣١ : ١٦٤ .

(٩ و ١٠) . تفسير الرازي ٣١ : ١٦٢ .

(١١) مجمع البيان ١٠ : ٧٣٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٢٤ .

(١٢-١٤) تفسير الرازي ٣١ : ١٦٣ .

(١٥) تفسير الرازي ٣١ : ١٦٤ .

(١٦) تفسير الرازي ٣١ : ١٦٣ .

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَسُرُّ﴾ ويمضي وينقضي. وقيل : يعني إذا جاء وأقبل ^(١) ، وعن القمي : هو ليلة جمع

(٢)

ثم أظهر سبحانه فخامة هذه الأشياء التي أقسم بها بقوله : ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من الأشياء الجلية الحقيقة بالإعظام ﴿قَسَمٌ﴾ معتد به موجب للاعتماد عليه ﴿لِذِي حِجْرِ﴾ وصاحب عقل منور وفكر صائب وإدراك قوي ، والمقسم عليه مقدّر معلوم وهو : ليعذبن الكفار.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * آلِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي

الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَانَبُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (٦) و (١٠)﴾

ثم استشهد سبحانه بما فعل بالامم المكذبة بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد حينما كنت في عالم الأشباح مطلعاً على الوقائع في العالم ، أو المعنى : ألم تعلم بالوحي ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ قوم هود ، وبأي عذاب شديد عذبهم ؟ أعني من عاد ؟ ﴿إِرَمَ﴾ قيل : إنه اسم لعاد الاولى ، سموا باسم جدّهم ، وهو إرم بن سام بن نوح ^(٣) . والتقدير : سبط إرم ، أو أهل إرم ، على ما قيل ^(٤) ، من أنّ إرم اسم بلدتهم أو أرضهم التي كانوا يسكنونها ، وهي على ما قيل بين عمان وحضر موت ^(٥) ، وعلى أي تقدير كانوا قبيلة.

﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ وقُدود طوال تشبّيها لقماقمهم بالأعمدة والأساطين ﴿آلِي لَمْ يُخْلَقْ﴾ نظير تلك

القبيلة و﴿مِثْلُهَا﴾ في القوّة وعظم الجسم وطول القامة ﴿فِي الْبِلَادِ﴾ التي على وجه الأرض.

وقيل : إنّ الوصفين لمدينتهم التي بناها شداد بن عاد ^(٦) ، وقد وصفوها بأوصاف تفرع الأسماع. روي أنّ لعاد ابنين : شديد ، وشداد ، فملكا وقهرا ، ثم مات شديد ، وخلص الأمر لشداد ، فملك جميع الدنيا ، ودانت له ملوكها ، فسمع بذكر الجنة فقال : أبني مثلها ، فبنى إرم في بعض صحارى عدن في ثلاثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة ، وهي مدينة عظيمة ، قصورها من الذهب والفضّة ، وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الأشجار والأنهار ، فلما تمّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته ، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا ^(٧) ، ثم غاب البلد عن أعين الناس جميعا.

﴿وَتَمُودَ﴾ وهم قوم صالح ﴿الَّذِينَ جَانَبُوا﴾ وقطعوا ﴿الصَّخْرَ﴾ والحجر الشديد الصلابة بقوتهم

(١) تفسير الرازي ٣١ : ١٦٤.

(٢) تفسير القمي ٢ : ٤١٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٢٤ ، وجمع : هو المزدلفة ، سمي جمعا لاجتماع الناس فيه.

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ١٦٦ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٢٢ و ٤٢٣.

(٤) - ٦ تفسير روح البيان ١٠ : ٤٢٣.

(٥) تفسير الرازي ٣١ : ١٦٧ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٥٤.

﴿بِالْوَادِ﴾ والمنفرج بين الجبلين. قيل : هو وادي القرى بالقرب من المدينة من جهة الشام ^(١) .
 عن ابن عباس : أھم كانوا يجعلون من الصخور بيوتا وأحواضا وما أرادوا من الأبنية ^(٢) .
 قيل : أول من تحت الجبال والصخور والزحام ثمود ، وبنوا ألفا وسبعمئة مدينة كلھا من
 الحجارة ^(٣) .

﴿و﴾ ألم تر كيف عذب الله ﴿فِرْعَوْنَ﴾ ملك مصر ، وكان ملقبا بلقب ﴿ذِي الْأُوتَادِ﴾ وقيل :
 لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربونها في منازلهم ويربطونها بالأوتاد ^(٤) .
 وعن ابن عباس : أن فرعون إنما سمي ذي الأوتاد لأن امرأة خازنة كانت ماشطة بنت فرعون ، إذ
 سقط المشط من يدها فقالت : تعس من كفر بالله تعالى : فقالت ابنة فرعون : وهل لك إله غير أبي ؟
 فقالت : إلهي وإله أبيك وإله السماوات والأرض واحد لا شريك له. فقامت ودخلت على أبيها وهي
 تبكي فقال : ما يبكيك ؟ قالت : إن الماشطة امرأة خازنك تزعم أن إلهها وإلهك وإله السماوات والأرض
 واحد لا شريك له ، فأرسل إليها فسألها عن ذلك ، فقالت : صدقت. فقال لها : ويحك اكفري بإلهك.
 قالت : لا أفعل ، فمدها بين أربعة أوتاد ، ثم أرسل إليها الحيات والعقارب ، وقال : اكفري بالله وإلا
 عذبتك بهذا العذاب شهريْن. فقالت : لو عذبتني سبعين شهرا ما كفرت به. وكانت لها بنتان ، فجاء
 بابنتها الكبرى فذبحها على فيها ، وقال لها : اكفري بإلهك وإلا ذبحت الصغرى على فيك أيضا ، وكانت
 رضيعة ، فقالت : لو ذبحت من في الأرض على في ما كفرت بالله. فأتى بابنتها ، فلما اضجعت على
 صدرها وأرادوا ذبحها جزعت المرأة ، فأطلق الله لسان ابنتها فتكلمت ، وهي من الأربعة الذين تكلموا
 أطفالا ، وقالت : يا أمه لا تجزعي ، فإن الله قد بنى لك بيتا في الجنة ، اصبري فانك تفيضين إلى رحمة
 الله تعالى وكرامته. فذبحت فلم تلبث أن ماتت وأسكنها الله في جوار رحمة ^(٥) .

﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ

عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِمٌ صَادٍ (١١) و (١٤)﴾

ثم بين سبحانه علّة استحقاقهم العذاب بقوله : اولئك الطوائف والامم ﴿الَّذِينَ طَغَوْا﴾ على الله
 ﴿فِي الْبِلَادِ﴾ فإن عاد طغوا في بلاد اليمن ، وثمود في بلاد الشام ، وفرعون في بلاد مصر ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا

الْفُسَادَ﴾ بالكفر والعصيان والظلم على العباد ﴿فَصَبَّ﴾ الله وأراق ﴿عَلَيْهِمْ﴾ من فوقهم ﴿رَبُّكَ سَوْطَ

عَذَابٍ﴾ شديد ، وإنما عبر عن عذابهم بالسوط تنبيها على أن نسبته إلى عذاب الآخرة كنسبة

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٢٥ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ١٦٧ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ١٦٧ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٢٥ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٢٥ .

السوط إلى السيف.

وقيل : لما كان الضرب بالسوط عند العرب أشدَّ العذاب عبّروا عن العذاب بالسوط ، والتعبير عن إنزاله بالصَّبِّ للإيذان بكثرة وتتابعه واستمراره ^(١) .

ثم بيّن سبحانه أنّه مراقب لأعمال عباده بقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لِبِأَلْمِزْصَادٍ﴾ وفي المكان الذي تتوقّف فيه السائلة ليظفر بالجائي ولأخذ المقصّر بحيث لا يفوته أحد ، فيعاقب قومك على طغيانهم وعصيانهم كما عاقب غيرهم من الامم المكذّبة للرسول.

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا

ابْتَلَاهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا

تَخَاضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ (١٥) و (١٨)﴾

ثمّ إنّ تعالى بعد بيان كونه مراقبا لأعمال العباد ومجازاتهم ، بيّن عدم اعتناء الانسان بذلك ، لا همّاهه بلذائذ الدنيا بقوله : ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾ فهو غافل عن ذلك ولذا ﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ وامتنحه ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ بالجاه والثروة ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ ووسّع عليه في رزقه ، ليظهر أنّه شاكراً أو كافر ﴿فَيَقُولُ﴾ مفتخراً : ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ وفضلني على غيري بالمال والجاه ، ويغترّ بذلك ، ولا يخطر بباله أنّه امتحان وابتلاء ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ بالفقر ﴿فَقَدَّرَ﴾ وضيق ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ ليظهر أنّه صابر أو جزوع ﴿فَيَقُولُ﴾ تضرّجاً : ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾ وأذلني بالفقر ، ولا يخطر بباله أنّه امتحان.

وعلى أيّ تقدير ليس له توجه إلى الآخرة ، ولا يلتفت إلى أنّ إقبال الدنيا ليس إكراماً من الله ، وإدبارها ليس إهانة من الله ، لذا ردع الانسان عن توهّماته بقوله : ﴿كَلَّا﴾ ليس ما يقول في الحالين حقّاً وصواباً.

ثمّ التفت سبحانه إلى خطاب الكفّار تشديداً لتقريعهم ببيان سوء أفعالهم بعد بيان سوء أقوالهم بقوله : ﴿بَلْ لَا تَكْرُمُونَ﴾ أيّها الأشقياء ﴿الْيَتِيمَ﴾ الذي يجب إكرامه بالرعاية وإعطاء النفقة ﴿وَلَا تَخَاضُونَ﴾ ولا تحزّضون غيركم ﴿عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ لشدة بخلكم فضلاً عن أنّ تطعموه من أموالكم. قيل : كان قدامة بن مظعون يتيماً في حجر امية بن خلف ، فكان يدفعه عن حقّه ، فنزلت الآيات ^(٢) .

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٢٦ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ١٧١ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٢٩ .

وعن ابن عباس : أُنْزِلَتْ فِي عَتَبَةِ بْنِ رَبِيعَةَ وَأَبِي حَذِيفَةَ بْنِ الْمَغِيرَةِ ^(١) .

﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا * كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ
دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ
الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ
عَذَابُهُ أَحَدًا * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا (١٩ و) (٢٦)﴾

ثمّ بالغ سبحانه في تقريرهم بقوله : ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ﴾ وتتصرفون في الميراث ، الذي لليتامى ، أو في ميراث مورثكم ﴿أَكْلًا﴾ وتصرفا ﴿لَمًّا﴾ وجامعا بين الحلال من إرثكم والحرام الذي هو حقّ اليتامى ، أو بين الحلال والحرام ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ﴾ والأمتعة الدنيوية ﴿حُبًّا جَمًّا﴾ وكثيرا ، وتحرصون على جمعه وحفظه حرصا شديدا ، وتغفلون عن الموت والآخرة.

﴿كَلَّا﴾ لا ينبغي أن تكونوا بهذه الدرجة من الغفلة عن الآخرة ، واذكروا أهوال يوم القيامة ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ﴾ ودُكَّتْ بالزلازل ﴿دَكًّا﴾ هائلا و﴿دَكًّا﴾ متتابعا حتى تكون هباء منبعا ، فلا يبقى عليها جبل ولا تلّ فضلا عن الأبنية والعمارات ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ وظهر قهره ، أو صدر أمره بالمحاسبة والمجازاة ، أو ظهرت آثار قدرته ومهابة سلطانه. ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ في العرصات من كلّ سماء ، ويقومون حول المحشر حال كونهم ﴿صَفًّا﴾ طويلا و﴿صَفًّا﴾ آخر بعد ذلك الصفّ. قيل : تكون صفوفهم سبعة على عدد السماوات ^(٢) ﴿وَجِيءَ﴾ بتوسط الملائكة الغلاظ الشداد ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وحين ظهور سلطان الله وقهره ﴿بِجَهَنَّمَ﴾ في مرأى الخلق.

عن ابن مسعود ، قال : تقاد جهنّم بسبعين ألف زمام ، معه سبعون ألف ملك ، يجرونها حتى تنصب عن يسار العرش ، لها تعيظ وزفير ، فتشرد شرده لو تركت لأحرقت أهل الجمع ، ويجثو كلّ نبي ووليّ من الهول والهيبه على ركبته ، ويقول : نفسي ، حتّى يعترض لها رسول الله ﷺ ويقول : « أمّتي أمّتي » فتقول النار : مالي ولك يا محمد ، لقد حرّم الله لحمك عليّ ^(٣) .

وعن الباقر عليه السلام قال : « لما نزلت هذه الآية ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ سئل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : أخبرني الروح الأمين أن الله لا إله غيره إذا برز الخلائق وجمع الأولين والآخرين ، أتى بجَهَنَّمَ تقاد بألف زمام ، أخذ بكلّ زمام مائة ألف تقودها من الغلاظ الشداد ، لها هدّة وغضب وزفير وشهيق ،

(١) تفسير الرازي ٣١ : ١٧٠ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٣٠ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٣٠ .

(٤) في النسخة : قال .

وإنّما لتزفر زفرة ، فلو لا أنّ الله أخرهم للحساب لأهلكك الجمع ، ثم يخرج منها عنق فتحيط بالخلائق البرّ منهم والفاجر ، ما خلق الله عبدا من عباد الله ملكا ولا نبيا إلّا ينادي : نفسي نفسي ، وأنت يا نبي الله تنادي : امتي امتي ، ثم يوضع عليها الصّراط أدقّ من الشّعر ، وأحد من حدّ السيف ، عليه ثلاث قناطر ، فأما واحدة فعليها الأمانة والرّحم ، والثانية فعليها الصلاة ، والثالثة فعليها ربّ العالمين لا إليه غيره ، فيكلّفون الممرّ عليها ، فيحبسهم الرّحم والأمانة فإن نجوا منهما حبستهم الصلاة ، فإن نجوا منها كان المنتهى إلى ربّ العالمين ، وهو قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ والناس على الصّراط ، فمتعلّق بيد وتزلّ قدم ويستمسك بقدم ، والملائكة حولها ينادون : يا حليم اعف وصفح وعد بفضلك وسلّم ، والناس يتهافون في النار كالفرّاش فيها ، فاذا نجا نجا فبرحمة الله مرّ بها فقال : الحمد لله وبنعمته تتمّ الصالحات وتزكو الحسنات ، والحمد لله الذي أنجاني منك بعد إياس بمنة فضله ، إنّ ربي لغفور شكور»^(١) .

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ﴾ ويتعظ ويندم ﴿الْإِنْسَانُ﴾ على ما فرط في جنب الله ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ وأي نفع له في الاتعاظ والتّندم بعد فوات أوانه ؟ و ﴿يَقُولُ﴾ تندما وتحسّرا ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ﴾ وأتيت بطاعة الله ورسله ، وعملت بما كلّفت به من قبلهم ﴿لِحَيَاتِي﴾ هذه ويوم بعثي هذا أو في وقت حياتي في الدنيا أعمالا تنجيني اليوم من العذاب.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ وحين انتقام الله من العصاة ﴿لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ فإن شدّة عذابه فوق ما يتصوّر ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ﴾ ولا يشدّ بالعمل والأغلال مثل شدّة ﴿أَحَدٍ﴾ فإنّ شدّه بسلسلة ذرعه سبعون ذراعا.

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي

عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (٢٧) و (٣٠)

ثمّ لما ذكر سبحانه سوء حال النفوس الشقيّة الأمارة بالسوء ، ذكر حال النفوس الطيّبة الزكيّة وسعادتها بقوله : ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ بذكر الله الساكنة في جوار رحمة الله ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ﴾ ما أعدّ لك من كرامة ﴿رَبِّكَ﴾ الكريم وثوابه العظيم حال كونك ﴿راضية﴾ بما أعدّ الله لك من الجنّة والقصور العالية والتّعّم الباقية ﴿مَرْضِيَّة﴾ عند الله ﴿فَادْخُلِي فِي﴾ زمرة ﴿عِبَادِي﴾ الصالحين المخلصين ﴿وَادْخُلِي﴾ معهم في ﴿جَنَّتِي﴾ .

قيل : إذا أراد الله قبضها اطمأنت إلى الله ، ورضيت عن الله ، ورضي الله عنها^(٢) .

(١) تفسير القمي ٢ : ٤٢١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٢٦ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٣٢ .

وعن ابن عمر قال : إذا توفّي العبد المؤمن أرسل الله ملكين ، وأرسل إليه تحفة من الجنة فيقال لها : اخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى روح وريحان وربّ عنك راض ، فتخرج كأطيب ريح مسك وجده أحد في أنفه ، والملك على أرجاء السماء يقولون : قد جاء من الأرض روح طيبة ونسمة طيبة ، فلا تمرّ بباب إلّا فتح لها ، ولا بملك إلّا صلّى عليها ، حتّى يؤتى بها إلى الرحمن ، ثمّ يقال لميكائيل : اذهب بهذه فاجعلها مع أنفس المؤمنين.

ثمّ يؤمر فيوسّع عليه قبره سبعون ذراعاً [عرضه ، سبعون ذراعاً] طوله ، وينبذ له فيه الريحان ، فإن كان معه شيء من القرآن كفاه نوره ، وإن لم يكن جعل له نور مثل نور الشمس في قبره ، فيكون مثله مثل العروس ينام ولا يوقظه إلّا أحبّ أهله ^(١) .

وعن سعيد بن جبیر قال : مات ابن عباس بالطائف ، فشهدت جنازته ، فجاء طائر لم ير مثله وعلى خلقته ، فدخل نعشه ، ثمّ لم ير خارجاً منه فلمّا دفن تليت هذه الآية على شفير قبره لا يرى من تلاها : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ ^(٢) .

عن الصادق عليه السلام أنّه سئل : هل يكره المؤمن على قبض روحه ؟ قال : « لا والله ، إنّّه إذا أتاه ملك الموت لقبض روحه جزع لذلك ، فيقول له ملك الموت : يا وليّ الله لا تجزع ، فوالذي بعث محمداً لأنّا أبرّ بك وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك ، افتح عينيك فانظر ، فيمثّل [له] رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام رفاؤك ، فيفتح عينيه فينظر ، فينادي روحه مناد من قبل ربّ العزّة فيقول : يا أيتها النفس المطمئنة إلى محمد وأهل بيته ، ارجعي إلى ربّك راضية بالولاية مرضية بالثواب ، فادخلي في عبادي يعني محمداً وأهل بيته - وادخلي جنتي . فما من شيء أحبّ إليه من استلال روحه واللّحوق بالمنادي » ^(٣) .

وعنه عليه السلام في هذه الآية : « يعني الحسين بن علي عليه السلام » ^(٤) .
وعنه عليه السلام : « اقرءوا سورة الفجر في فرائضكم ونوافلكم ، فاتّھا سورة الحسين بن علي عليه السلام ، من قرأها كان مع الحسين عليه السلام يوم القيامة في درجته من الجنة » ^(٥) .
ومن الله علينا بالتوفيق لتلاوتها ، كما منّ لاتمام تفسيرها .

(٢١) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٣٢ .

(٣) الكافي ٣ : ١٢٧ / ٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٢٨ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٤٢٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٢٨ .

(٥) ثواب الأعمال : ١٢٣ ، مجمع البيان ١٠ : ٧٣٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٢٨ .

في تفسير سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ (١) و (٥) ﴿بِسْمِ

اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. ثم لما ختمت سورة الفجر المتضمنة للوم على الحرص على من جمع مال الدنيا وترك الاحسان إلى اليتيم والمسكين ، اردت سورة البلد المتضمنة للوم عليهما ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ

اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. ثم ابتداء بالحلف بمكة المشرفة بقوله : ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ الحرام. قيل : إن حرف لا زائدة جيء بها لتأكيد القسم ، فإن العرب تقول : لا والله ما فعلت ، أو لا والله لأفعلن^(١) . ويحتمل أن تكون ناهية ، والمعنى : لا تتوهموا أن يكون الواقع خلاف ما أقول ، اقسام بهذا البلد المعظم ﴿وَأَنْتَ﴾ يا محمد ﴿حِلٌّ﴾ ومقيم ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ونازل فيه ، فزيد بهذا شرفه.

وقيل : يعني وأنت مع نهاية حرمتك حلال الدم والعرض عند المشركين بهذا البلد ولا يحلّ عندهم قتل شيء من الطيور والوحوش والحشرات^(٢) .

عن الصادق عليه السلام قال : « كانت قريش تعظم البلد وتستحلّ محمدا فيه ، فقال الله : ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يريد أنهم استحلّوك فيه ، فكذبوك وشتموك ، وكان لا يأخذ الرجل منهم قاتل أبيه ، ويتقلّدون لحاء شجرة الحرم فيأمنون بتقليدهم إياه ، فاستحلّوا من رسول الله ﷺ ما لم يستحلّوا من غيره ، فعاب الله عليهم »^(٣) .

﴿وَوَالِدٍ﴾ عظيم الشأن ، قيل : إن المراد إبراهيم^(٤) ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ من إسماعيل وإسحاق ويعقوب وذريتهما. وقيل : محمد وذريته^(٥) ، وإيثار كلمة (ما) على (من) لمعنى التعجب ممّا أعطاهم الله من الكمال ، كذا قيل^(٦) .

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٣٣ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ١٧٩ .

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٧٤٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٢٩ .

(٤) تفسير أبي السعود ٩ : ١٦٠ .

(٥) جوامع الجامع : ٥٤٢ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٣٤ .

وعن الصادق عليه السلام : « يعني آدم وما ولد من الأنبياء والأوصياء وأتباعهم » ^(١) . [وفي الكافي مرفوعا قال] ^(٢) : « أمير المؤمنين ومن ولد من الأئمة عليهم السلام » ^(٣) .

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤)﴾

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه بقوله : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ حال كونه من أول خلقه مستغرقا ﴿فِي كَبَدٍ﴾ وتعب ومشقة. وقيل : يعني في الشدة ، وهي شدائد الدنيا من صعوبة ولادته ، وقطع سرته ، وحبسه في القمط ، وإيذاء المرئي والمعلم ، وزحمة التكسب والتزوج والأولاد والخدم وجمع الأموال ، وتهاجم الأوجاع والهموم والغموم ، كالاتلاء بالتكاليف الإلهية إلى غير ذلك من الشدائد ^(٤) .

وقيل : إن المراد في شدة الخلق والقوة ^(٥) . وقيل : يعني في الاستواء والاستقامة ^(٦) .

عن الصادق عليه السلام أنه قيل له : إنا نرى الدواب في بطون أيديها الرقعتين مثل ^(٧) الكبي ، فمن أي شيء ذلك ؟ فقال : « ذلك موضع منخره في بطن أمه ، وأما ابن آدم فرأسه منتصب في بطن أمه ، وذلك قول الله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ وما سوى بن آدم فرأسه في دبره ، ويداه بين يديه » ^(٨) .

وعن ابن عباس ، قال : ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي قائما منتصبا ، والحيوانات الاخر تمشي منكسة ، فهذا امتنان عليه بهذه الخلقة ^(٩) .

ثم لا يخفى أن في الآية بناء على التفسير الأول تسليية النبي ﷺ في مكابدة الأعداء من كفار قريش .

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَغْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بُدَّ * أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ

يَرَهُ أَحَدٌ (٥) و (٧)﴾

ثم ذم سبحانه الانسان بقوله : ﴿أَيَحْسَبُ﴾ ويتوهم من ضعفه وابتلائه بالشدائد على التفسير الأول ، أو بالنظر إلى شدة خلقه وقوته على الثاني ﴿أَنْ لَنْ يَغْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ بأن يجازيه على سيئاته ، أو بأن يغير أحواله ويمنعه عن مراداته ؟ ! بلى إن الله القادر على كل شيء قادر على تعذيبه والانتقام منه ، أو على تعجيزه ومنعه عن مراداته .

ثم إن هذا الكافر المدعي لكمال القدرة والقوة ﴿يَقُولُ﴾ مفتخرا : إني ﴿أَهْلَكْتُ﴾ وصرفت في

(١) مجمع البيان ١٠ : ٧٤٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٢٩ .

(٢) في النسخة : وعن .

(٣) الكافي ١ : ٣٤٢ / ١١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٢٩ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٣٤ .

(٥) تفسير الرازي ٣١ : ١٨١ .

(٦) في النسخة : قبل .

(٨) علل الشرائع ٤٩٥ : ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٠ .

(٩) تفسير الرازي ٣١ : ١٨٢ .

عداوة محمد ﴿مَالاً لَبِداً﴾ وكثيراً.

عن الصادق عليه السلام : « قال عمرو بن عبدود حين عرض عليه علي بن أبي طالب عليه السلام يوم الخندق : فأين ما أنفقت فيكم من مال لبد ؟ وكان أنفق مالا في الصدّ عن سبيل الله ، فقتله علي عليه السلام » (١) .

ثم وبّخه سبحانه على إنفاقه وهدّده بقوله : ﴿أَيَحْسَبُ﴾ هذا الكافر المباهي بإنفاقه ﴿أَنْ لَمْ يَرَهُ﴾ حين إنفاقه الشنيع ﴿أَحَدٌ﴾ بلى إنّ الله رآه وسأله يوم القيامة عن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه . وقيل : إنّّه كان كاذبا لم ينفق شيئا ، فقال الله تعالى : أبطّظّ هذا الكافر أنّ الله ما رأى ذلك منه ، فعل أو لم يفعل ، أنفق أم لم ينفق . بلى رآه وعلم منه خلاف ما قال (٢) .

﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ

الْعَقَبَةَ * وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُ رَقَبَةً * أَوْ إِطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ *

يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (٨) و (١٦)﴾

ثمّ لما حكى سبحانه إنكار الكافر قدرة الله عليه ورؤيته إياه ، أقام الدليل عليها بقوله : ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ﴾ بقدرتنا ﴿عَيْنَيْنِ﴾ يبصر بهما ويرى ، فكيف يمكن أن يكون معطي الرؤية فاقدا لها ولا يراه؟ ﴿وَلَا﴾ ألم نجعل له ﴿لِسَاناً وَشَفَتَيْنِ﴾ ينطق بها ، فكيف ينبغي أن يتكلّم بها الكلمات الشنيعة غير المرضية لمعطيها ؟ ﴿وَهَدَيْنَاهُ﴾ بعد اتمام النعمة عليه بتكميل خلقه وقواه ﴿النَّجْدَيْنِ﴾ والطريقين الواضحين إلى خيره وشرّه .

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « سبل الخير ، وسبل الشر » (٣) .

وعن الصادق عليه السلام : « نجد الخير والشر » (٤) .

﴿فَلَا اقْتَحَمَ﴾ وما دخل شكرا لتلك النعم الجليلة ﴿الْعَقَبَةَ﴾ والأعمال الصالحة التي هي الطريق إلى كلّ خير ، وإنّما أطلق عليها العقبة - التي هي الطريق الصعب السلوك في الجبل - لصعوبة سلوكها . ثمّ عظم العقبة بقوله : ﴿وَمَا أَذْرَاكَ﴾ وأي شيء أعلمك يا محمد ﴿مَا﴾ تلك ﴿الْعَقَبَةُ؟﴾ فإنّ المراد بها ليس العقبة المعروفة ، إنّما هي ﴿فَكُ رَقَبَةً﴾ وإعتاق المملوك ، والدخول فيها الاقدام عليه ﴿أَوْ إِطْعَمَ﴾ وإشباع من المأكول ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ وفي زمان غلاء وقحط ، فإنّ الصرف في هذا الزمان أثقل على النفس وأوجب للأجر ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ وصاحب رحم فاقدا لإطعامه أفضل

(١) تفسير القمي ٢ : ٤٢٢ ، عن أبي جعفر عليه السلام ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٠ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ١٨٣ .

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٧٤٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣١ .

(٤) الكافي ١ : ١٢٤ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣١ .

لاشتماله على الصدقة وصلة الرحم ﴿أَوْ مُسْكِينًا ذَا مَثَرَةٍ﴾ وفاقة. عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ذَا مَثَرَةٍ﴾ «الذي مأواه المزابيل» ^(١) وعن ابن عباس : يعني البعيد التربة ، يعني الغريب ^(٢) . وفي الحديث : «الساعي على الأرملة والمسكين كالساعي في سبيل الله ، وكالقائم لا يفتر ، والصائم لا يفطر» ^(٣) .
عن الصادق عليه السلام : «من أطعم مؤمنا حتى يشبعه ، لم يدر أحد من خلق الله ماله من الأجر في الآخرة لا ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا الله رب العالمين» ثم قال : «من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان» ثم تلا هذه الآية ^(٤) .

وعن الرضا عليه السلام : أنه إذا أكل أتى بصحفة فتوضع قرب مائدته ، فيعمد إلى أطيب الطعام بما يؤتى به فيأخذ من كل شيء فيضع في تلك الصحفة ، ثم يأمر بها للمسكين ، ثم يتلو هذه الآية ، ثم يقول : «علم الله أنه ليس كل إنسان يقدر على عتق رقبة ، فجعل لهم السبيل إلى الجنة» ^(٥) .
وعن الصادق أنه سئل عن هذه الآية فقال : «من أكرمه الله بولايته فقد جاز العقبة ، ونحن تلك العقبة التي من اقتحمها نجح» ثم قال : «الناس كلهم عبيد النار غيرك وأصحابك فإن الله فك رقابكم من النار بولايته أهل البيت» ^(٦) .

وعنه عليه السلام : «بنا تفك الرقاب ومعرفتنا ، ونحن المطعمون في يوم الجوع وهو المسغبة» ^(٧) .

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ (١٧) وَ (٢٠)﴾

ثم بيّن سبحانه شرط قبول تلك الأعمال بقوله : ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ ذلك الذي يفك الرقبة ويطعم اليتيم والمسكين ﴿مِنْ﴾ زمرة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسله واليوم الآخر ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ وأمروا أقرباءهم وأصدقاءهم ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على طاعة الله ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ والعطوفة بعباد الله ، أو بموجبات رحمة الله من الخيرات والصلحات. وذكر كلمة ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على تراخي رتبة الايمان على تلك الأعمال ، ورفعة محله بالنسبة إليها.

﴿أُولَئِكَ﴾ المتصفون بالصفات المذكورة هم يوم القيامة ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ يعطون كتبهم بأيمانهم ، أو نسلك بهم من الطريق الأيمن إلى الجنة ، أو هم أهل اليمن والخير والسعادة ، أو القائمون

(١-٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٣٨ .

(٤) الكافي ٢ : ١٦١ / ٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣١ .

(٥) الكافي ٤ : ٥٢ / ١٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣١ .

(٦) الكافي ١ : ٣٥٧ / ٨٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣١ .

(٧) تفسير القمي ٢ : ٤٢٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٢٢ .

عن يمين المحشر ، أو يمين العرش.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ ودلائل توحيدنا ورسالة رسولنا ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ وأهل الشؤم والشرّ والشفاعة ، أو هم الذين يعطون كتابهم بشمائلهم ، أو وراء ظهورهم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿نَارٌ﴾ أبوابها ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ ومطبقة لا يفتح لهم باب ، فلا يخرج منها غمّ ، ولا يدخل فيها روح أبدا ، أو المراد نار محيطة بهم.

عن الصادق عليه السلام : « من كان قراءته في فريضة ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ كان في الدنيا معروفا [أنه من الصالحين ، وكان في الآخرة معروفا] أنّ له من الله مكانا ، وكان يوم القيامة من رفقاء النبيين والشهداء والصالحين » ^(١).

(١) ثواب الأعمال : ١٢٣ ، مجمع البيان ١٠ : ٧٤٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٢.

في تفسير سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ * وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاها * وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلُ إِذَا
يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا *
فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (١) و (٨)﴾

ثم لما ختمت سورة البلد المتضمنة لمنته سبحانه على الانسان بخلقه في كبد واستقامة ، وبهدياته إلى الخير والشر ، وترغيبه إلى الايمان والأمر بالمعروف ، وتهديد الكفار المكذبين بعذاب الآخرة ، نظمت سورة الشمس المتضمنة لمنته على الانسان بتعديل خلقه وإلهامه فجوره وتقواه وترغيبه إلى تزكية نفسه المتوقفة على الايمان والعمل ، وتهديد الكفار ، فافتتحها بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم ابتدأها بالقسم بقوله : ﴿وَالشَّمْسُ﴾ التي فيها فضل عظيم ومنافع عظيمة لموجودات عالم الملك ﴿وَضُحَاهَا﴾ وارتفاع نورها واشتداد ضوؤها ، وهو قريب من نصف النهار ﴿وَالْقَمَرُ﴾ الذي هو بعد الشمس أنفع الكواكب ﴿إِذَا﴾ تبع الشمس وحين ﴿تَلَاها﴾ ويطلع بعد غروبها .

عن ابن عباس : هو في النصف الأول من الشهر ^(١) بعد ما سمّي قمرا . وقيل : يعني إذا تبعها وصار مثلها في الاستدارة وكمال النور ، وهي في الليالي البيض ^(٢) .

﴿وَالنَّهَارُ إِذَا﴾ ظهر الشمس وحين ﴿جَلَّاهَا﴾ قيل : إن الضمير راجع إلى الظلّة ^(٣) وتجليتها إذهابها . وقيل : إلى الدنيا ، أو إلى الأرض ، وإن لم يسبق لهما ذكر ^(٤) لمعلوماتها ، وتجليتهما إنارتها ^(٥) .

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا﴾ يغطي الشمس و﴿يَغْشَاهَا﴾ ويذهب نورها ، فكأنّ الليل بظلمته ^(٦) صار سببا لغروب الشمس وزوال ضوئها ، ولذا حسن القول بأنّ النهار يجليها ﴿وَالسَّمَاءُ﴾ المظلل على الأرض ﴿وَمَا

(٢١) تفسير الرازي ٣١ : ١٨٩ .

(٤٣) تفسير الرازي ٣١ : ١٩٠ .

(٥) في النسخة : لمعلوماتها ، وتجليتها إنارتها .

(٦) في النسخة : تظلمته .

بناها ﴿﴾ على غاية العظمة ونهاية الوقعة.

قيل : ذكر كلمة ﴿ما﴾ للإشارة إلى الوصفية ، والمعنى : والشيء العظيم الذي بناها ^(١) ، ويحتمل كون كلمة ﴿ما﴾ مصدرية ، فحلف أولاً بذاتها ، وثانياً بكيفية بنائها.

﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاها﴾ ومن بسطها على السماء من كلِّ جانب ﴿وَنَفْسٍ﴾ ناطقة متميزة من نفوس الحيوانات ﴿وَمَا سَوَّاهَا﴾ ومن عدلها بإعطائها القوى الظاهرة والباطنة ، ويحتمل كون ﴿ما﴾ مصدرية في كلتا الجملتين. وقيل : إنّ المراد بالنفس الشخص ، وتسويتها تعديلها بتكميل أعضائها ^(٢).

﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ وعزفها بتكميل عقلها وإرسال الرسل ﴿فَجُوزَهَا﴾ وشروورها لتجنبها ﴿وَتَقْوَاهَا﴾ ومحاسن أعمالها لتعمل بها.

عن الصادق عليه السلام قال : « بيّن لها ما تأتي وما تترك » ^(٣) .

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (٩) و (١٠)﴾

ثمّ بيّن سبحانه المقسم عليه بقوله : ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ وظفر بأعلى المقاصد والمطالب ﴿مَنْ رَزَّاهَا﴾ وطهرها من دنس الكفر والأخلاق الرذيلة ومن رجس الذنوب والقبائح ، أو المراد أنماها بالخيرات والبركات.

عن النبي ﷺ : أنّه كان إذا قرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّاهَا﴾ وقف وقال : « اللهم آت نفس تقواها ، أنت وليها وأنت مولاه ، وزكّاه أنت خير من رزّاه » ^(٤) .

﴿وَقَدْ خَابَ﴾ وحرم من جميع الخيرات أو خسر ﴿مَنْ دَسَّاهَا﴾ وأدخلها في المعاصي حتّى انغمس فيها ، أو دسّ في نفسه الفجور بسبب مواظبته عليها.

عن الصادق عليه السلام : « قد أفلح من أطاع ، وقد خاب من عصى » ^(٥) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « من رزّاه ربّه » ^(٦) .

﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ

وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا

(١) تفسير الرازي ٣١ : ١٩١ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ١٩١ .

(٣) الكافي ١ : ١٢٤ / ٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٣ .

(٤) مجمع البيان ١٠ : ٧٥٥ ، تفسير الرازي ٣١ : ١٩٣ .

(٥) مجمع البيان ١٠ : ٧٥٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٤ ، وفيهما عنهما عليه السلام .

(٦) تفسير القمي ٢ : ٤٢٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٤ .

يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)

ثم هدد سبحانه المكذبين للرسول ببيان تكذيب ثمود رسولهم وابتلائهم بالعذاب بقوله : ﴿كَذَّبَتْ قَبِيلَةٌ يُقَالُ لَهَا **ثُمُودٌ** رَسُولُهَا **بَطْغُوا**﴾ وبسبب عتوها على الله ، أو المعنى كذبت بما أوعدهم الرسول من عذاب ذي طغيان كما قال الله تعالى : ﴿فَأَمْلِكُوا **بِطَاغِيَةٍ**﴾.

﴿إِذْ أُنْبِئَتْ﴾ وحين أسرع في طاعة رؤسائها قدار الذي هو ﴿أَشْقَاهَا﴾ وأحبثها وأطغها في عقر الناقة ﴿فَقَالَ لَهُمْ﴾ صالح ﴿رَسُولُ اللَّهِ ﷺ﴾ : يا قوم احذروا أن تؤذوا ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ التي هي من آياته ، واحذروا أن تمنعوها ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ ومشربها ، فإن مسستموها بسوء يأخذكم عذاب قريب ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما أوعدهم به من العذاب ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ وضربوا رجلها بالسيف وقتلوها.

روى بعض العامة عن النبي ﷺ أنه قال لعلي : « يا علي أتدري من أشقى الأولين ؟ » قال : الله ورسوله أعلم ، قال : « عاقر الناقة » قال : « أتدري من أشقى الآخرين » ، قال : « الله ورسوله أعلم » قال : « قاتلك » ^(١).

﴿فَدَمْدَمَ﴾ واطبق ﴿عَلَيْهِمْ رُثُومٌ﴾ العذاب ، وأهلك جميعهم بالصيحة الهائلة ، أو الزلزلة ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ وبسبب عصيانهم بتكذيب الرسول وعقر الناقة ﴿فَسَوَّاهَا﴾ قيل : إن الضمير راجع إلى الدمدة ، والمعنى : فعمتهم الدمدة ^(٢) . وقيل : راجع إلى الأرض ، والمعنى : فسوى عليهم الأرض بأن أهلكهم فجعلهم تحت التراب ^(٣) ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ الله بالدمدة عليهم ﴿عُقْبَاهَا﴾ وتبعها لأنها كانت باستحقاقهم والعمل بالحكمة.

وقيل : هذا الكلام لبيان تحقير إهلاكهم ، والمعنى أنه أهون من أن تخشى فيه عاقبة الأمر ^(٤) . وقيل : إن المعنى لا يخاف قدار الأشقى فيما أقدم من عقر الناقة عقبا وتبعة سوءها ، بل كان آمنا من الهلاك ففعل مع الخوف الشديد فعل من لا خوف له ، وفيه دلالة على غاية حمقه ، وعلى هذا التفسير تكون الآية في حكم المتقدم ، كأنه قال : إذ انبعث أشقها ولا يخاف عقباها ^(٥) .

روي أن صالحا لما وعدهم بالعذاب بعد ثلاث ، قال الذين عقروا الناقة : هلموا فلنقتل صالحا ، فإن كان صادقا عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذبا ألحقناه بتاقتة ^(٦) فأتوه ليقتلوه فدمغتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح ، فوجدوهم قد رضحوا بالحجارة ، فقالوا لصالح : أنت قتلتهم ، ثم هتموا به ، فقامت عشيرته دونه ^(٧) ولبسوا السلاح ، وقالوا لهم : والله لا تقتلونه ، قد وعدكم أن العذاب

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٤٦ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ١٩٥ و ١٩٦ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ١٩٦ .

(٤) في النسخة : بناقة .

(٥) في النسخة : دوحا .

نازل بكم في ثلاث ، فان كان صادقا زدتم ربكم عليكم غضبا ، وإن كان كاذبا فأنتم من وراء ما تريدون ، فانصرفوا عنه تلك الليلة ، فأصبحوا ووجوههم مصفرة ، فايقنوا بالعذاب ، فطلبوا صالحا ليقتلوه ، فهرب صالح والتجأ إلى سيد بعض بطون ثمود ، وكان مشركا ، فغيبه عنهم فلم يقدروا عليه ، ثم شغلهم عنه نزول العذاب (١) . فهذا هو قوله : ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾.

عن الصادق عليه السلام : « من أكثر قراءة الشمس والليل والضحى وألم نشرح ، في يوم وليلة ، لم يبق بحضرته إلا شهد له يوم القيامة حتى شعره وبشره ولحمه ودمه وعروقه وعصبه وعظامه وجميع ما أقلت الأرض منه ، ويقول الرب تبارك وتعالى : قبلت شهادتكم لعبدي ، وأجزتها له ، انطلقوا به إلى جناتي حتى ، يتخير منها حيث أحب ، فأعطوه من غير من ، ولكن رحمة مني وفضلا [عليه فهنئا لعبدي] » (٢).

(١) تفسير الرازي ٣١ : ١٩٦ .

(٢) ثواب الأعمال : ١٢٣ ، مجمع البيان ١٠ : ٧٥٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٥ .

في تفسير سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ

لَشَتَّى (١) و (٤)﴾

ثم لما ختمت سورة ﴿وَالشَّمْسِ﴾ المتضمنة لذكر الصنفين من الناس : صنف زكى نفسه من الشرك والعصيان والاحلاق الرذيلة ، وصنف دس نفسه فيها ، وذكر أنّ الله ألهم فجورها وتقواها ، أردفها بسورة ﴿وَاللَّيْلِ﴾ المتضمنة لذكر صنفين من الناس : صنف من الناس بذل ماله في طاعة الله واتقى المعاصي وصدق بتوحيد الله والدار الآخرة ، وصنف بخل بماله واشتغل بالمعاصي والشهوات وكذب بتوحيد الله واليوم الآخر ، وما لكلّ منهما من الدرجات والدركات ، وإنّ الله هو الهادي إلى كلّ خير وسعادة ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم ابتدأها بالحلف بعجائب خلقه وبدائع صنفه بقوله : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ ويغطي الشمس ، أو يستر النهار ، أو سائر الموجودات غير المضيئة بظلمته ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ وحين انكشف بطلوع الشمس وظهر بزوال ظلمة الليل ، ومن المعلوم أنّ في الإقسام بما دلالة على شرفهما وكثرة نفعهما وقيام نظام العالم بهما وبتعاقبهما.

وعن الباقر عليه السلام في تأويل الآيتين قال : « الليل في هذا الموضع الثاني ، غشي أمير المؤمنين عليه السلام في دولته التي جرت له عليه ، وأمير المؤمنين عليه السلام يصبر في دولتهم حتى تنقضي » ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ قال : « النهار هو القائم منّا أهل البيت ، إذا قام غلب دولة الباطل » قال : « والقرآن ضرب به الأمثال للناس ، وخاطب نبيّه به ونحن ، فليس يعلمه غيرنا » (١) .

﴿وَمَا خَلَقَ﴾ قيل : يعني والقادر العظيم الذي خلق بقدرته ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ من ماء واحد (٢) . وقيل : كلمة ﴿مَا﴾ مصدرية ، والمعنى : وخلق الذكور والانثى من جميع أصناف الحيوانات.

(١) تفسير القمي ٢ : ٤٢٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٦ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ١٩٧ .

وعن الباقر عليه السلام في تأويله «الذكر أمير المؤمنين عليه السلام ، والانشى فاطمة» (١) .
ثم ذكر سبحانه المقسم عليه بقوله : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾ وأعمالكم أيها الناس في الدنيا ﴿لَشَتَّى﴾
ومتفرقات في الحسن والقبح ، والخير والشر ، والعقاب والثواب .

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ
بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ
إِذَا تَرَدَّى﴾ (٥) و (١١)

ثم بين سبحانه ما هو المقصود من اختلاف الأعمال وفضله بقوله : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ المال
وأنفقه في سبيل الله ووجه البر ، أو أعطى حقوق الله من الأعمال الواجبة ﴿وَاتَّقَى﴾ الله بترك المحرمات
واحتراز الشهوات ﴿وَصَدَّقَ﴾ عن صميم القلب ﴿بِالْحُسْنَى﴾ والكلمة المرضية عند الله من الإقرار
بالتوحيد والرسالة والمعاد ، أو بالملّة والشرعية الحسنة ، وهو دين الاسلام .

وعن الصادق عليه السلام قال : « بالولاية » (٢) .
﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ ونوفقه ﴿لِلْيُسْرَى﴾ والأعمال المؤدية إلى الجنة والراحة الأبدية ، ونسّهلها عليه حتى
يكون أيسر الأمور عليه وقيل : إن المراد باليسرى الجنة والراحة (٣) ، والمعنى : نهيته لدخول الجنة بسهولة .
﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بماله وامتنع من صرفه في سبيل الله ، أو امتنع من أداء حقوق الله وصرف قواه في
طاعته ، ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ بالشهوات الدنيوية عن النعم الاخرية ولم يرغب في ثواب الله ، كأنّه مستغن عنه ،
ولم يتق من المعاصي ﴿وَكَذَّبَ﴾ قولا وعملا ﴿بِالْحُسْنَى﴾ بأحد المعاني السابقة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ ونهيته
﴿لِلْعُسْرَى﴾ والخصلة المؤدية إلى ما فيه المشقة والشدة من النار والهوان والعذاب بتثقيل الطاعة عليه
وإيكاله إلى نفسه الأمارة بكلّ سوء وشر ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ﴾ ولا يكفي في نجاته من العذاب ﴿مَالُهُ﴾ الذي
جمعه في الدنيا وبخل به عن صرفه في سبيل الله ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾ وهلك هالكا أبديا ، أو سقط في قعر جهنم
، أو في حفيرة وقبره .

وقيل : إن كلمة ﴿مَا﴾ في قوله : ﴿مَا يُغْنِي﴾ للاستفهام الانكاري ، والمعنى : أي شيء يغني عنه
ماله مع أنّه يبقى لوارثه ، ولم يصحب منه شيئا في الآخرة (٤) .

(١) مناقب ابن شهر آشوب ٣ : ٣٢٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٦ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٤٢٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٧ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٤٨ .

(٤) تفسير الرازي ٣١ : ٢٠١ .

في (الكافي) في تفسير الآيات عن الباقر عليه السلام : « **﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ﴾** مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ **﴿وَاتَّقَى﴾** * **﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾** أي بَأَنَّ اللَّهَ يعطي بالواحدة عشرة إلى مائة ألف فما زاد **﴿فَسَيُسْرُهُ لِلْيُسْرَى﴾** لا يريد شيئا من الخير إلَّا يسره الله **﴿وَأَمَّا مَنْ يَخْلُ﴾** بما آتاه الله **﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾** بَأَنَّ اللَّهَ يعطي بالواحدة عشرة إلى مائة ألف **﴿فَسَيُسْرُهُ لِلْعُسْرَى﴾** لا يريد شيئا من الشر إلَّا يسره له **﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾** قال : والله ما تردَّى من جبل ، ولا من حائط ، ولا في بئر ، ولكن تردَّى في نار جهنم « ^(١) .

وعنه عليه السلام في تأويله : **﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى﴾** وأثر بقوته ، وصام حتَّى وفي بنذره ، وتصدَّق بخاقمه وهو راعع ، وأثر المقداد بالدينار على نفسه **﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾** وهي الجنة والثواب من الله **﴿فَسَيُسْرُهُ﴾** لذلك ، بأن جعله إماما في الخير وقدوة وأبا للائمة ، يسره الله **﴿لِلْيُسْرَى﴾** ^(٢) .

وعن (المجمع) عن ابن عباس : أنَّ رجلا كانت له نخلة ، فرعها في دار رجل فقير ذي عيال ، وكان الرجل إذا جاء فدخل الدار وسعد النخلة ليأخذ منها التمر ، فرمى سقطت التمرة فيأخذها صبيان الفقير ، فنزل الرجل من النخلة حتَّى يأخذ التمر من أيديهم ، فإن وجدها في يِّ أحدهم أدخل إصبعه حتَّى يخرج التمر من فيه ، فشكا ذلك الرجل إلى النبي ﷺ ^(٣) فقال ﷺ لصاحب النخلة : « يعني نخلتك هذه بنخلة في الجنة » فقال : لا أفعل ، وانصرف ، فمضى إليه أبو الدحداح واشتراها منه ^(٤) . وفي رواية : اشتراها منه بحائطه ^(٥) . وفي رواية : بأربعين نخلة ^(٦) .

وأتى إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، خذها وأجعل لي في الجنة الحديقة التي قلت لهذا ولم يقبلها. فقال رسول الله ﷺ : « لك في الجنة حدائق وحدائق » ^(٧) .

وفي رواية ابن عباس : فذهب إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله ، إنَّ النخلة قد صارت لي ، فهي لك فذهب رسول الله ﷺ إلى صاحب الدار فقال له : « النخلة لك ولعيالك ، فأنزل الله **﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى...﴾** السورة » ^(٨) .

وفي رواية القمي رحمته الله قال : **﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ﴾** يعني النخلة **﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾** يعني بوعده رسول الله ^(٩) .

(١) الكافي ٤ : ٤٦ / ٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٨ .

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ٣ : ٣٢٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٨ .

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٧٥٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٧ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٤٢٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٧ .

(٥) قرب الاسناد : ٣٥٦ / ١٢٧٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٧ .

(٦) مجمع البيان ١٠ : ٧٥٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٧ .

(٧) تفسير القمي ٢ : ٤٢٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٧ .

(٨) مجمع البيان ١٠ : ٧٦٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٨ .

(٩) قرب الاسناد : ٣٥٦ / ١٢٧٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٧ ، ولم نعثر عليها في تفسير القمي .

أقول : على الروایتين السورة مدنية ، لأنَّ أبا الدَّحداح كان من الأنصار ومن أهل المدينة.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٢) و (١٣)﴾

ثمَّ لما بيَّن سبحانه فائدة الإعطاء والتقوى والایمان وضرر البخل والكفر ، بيَّن أنَّ الهداية إلى ما فيه الخير والشرَّ من شأن الربوبية بقوله : ﴿إِنَّ﴾ الواجب ﴿عَلَيْنَا﴾ بمقتضى الحكمة البالغة واللطف ﴿لَلْهُدَىٰ﴾ وبيان الطريق المؤدِّي إلى كلِّ خير وسعادة ، وإلى الشرور والضلالة ، وقد فعلنا بما لا نزيد عليه ، حيث بيَّنا حال من سلك كلا من الطريقين ترغيباً وترهيباً. عن القمي : أنَّ علينا أن نبيِّن لهم ^(١) .

وعن ابن عباس : يريد ارشاد أوليائي إلى العمل بطاعتي وأحول بين أعدائي أن يعملوا بطاعتي ^(٢) .

أقول : معنى حيلولته خذلانه ، وإيكا لهم إلى أنفسهم عقوبة على كفرهم وطغيانهم.

ثمَّ بيَّن سبحانه غناه عن عبادة الناس ، وإنَّما تكون هدايتهم للنفع العائد إليهم بقوله : ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ وتلك العقبي والاولى ، لا يزيد في ملكنا اهتداؤكم ، ولا يضرنا ضلالكم ، فمن طلب سعادة الدارين فليطلبها مِنِّي ، وليعمل بطاعتي.

﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ *

وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَىٰ * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٤) و (١٨)﴾

ثمَّ هدَّد سبحانه الذين لا يهتدون بهداه بقوله : ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ﴾ أيها الناس فيما أنزلت إليكم من القرآن ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ وتلَّهَّب وتتوقَّد بغضبي ، وخوَّفْتُكم بما لترتدعوا عن عصياني ومخالفتي ، واعلموا أنَّه ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ ولا يدخلها ﴿إِلَّا﴾ الكافر ﴿الْأَشْقَىٰ﴾ من جميع العصاة والأبعد من كلِّ خير وسعادة ، وهو ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ بآيات ربِّه ورسالة رسله ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عن قبول الحق ، واستنكف عن طاعة ربِّه.

وعن ابن عباس في رواية اخرى : أمَّا نزلت في امية بن خلف وامثاله الذين كذبوا محمداً والأنبياء قبله ^(٣) .

أقول : وهو جار في حقِّ كلِّ كافر إلى يوم القيامة ، إذ لا يكون الكفر إلا بالتكذيب ولو بإنكار ضروري من ضروريات الدين ، ومقتضى الحصر أن لا يدخل النار من كان مؤمناً عاصياً ولا يبعد ذلك ، نعم

(١) تفسير القمي ٢ : ٤٢٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٨ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ٢٠٢ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ٢٠٢ .

بعض المعاصي يوجب ذهاب الايمان عن قلب المؤمن ، كترك الصلاة والزكاة والحج ، فيحشر في صف الكفار .

وقيل : إنّ المراد بالأشقى هو الشقي ، وبالصلي الدخول مع الخلود ^(١) . وعن (المجمع) : الأشقى هو صاحب النحلة ^(٢) . وعن القمي : يعني هذا الذي يخل على رسول الله ^(٣) . وعن الصادق عليه السلام - في هذه الآية - قال : « في جهنم واد فيه نار لا يصلها إلا الأشقى ، يعني فلان الذي كذب رسول الله ﷺ في علي عليه السلام وتولى عن ولايته » ثم قال : « النيران بعضها دون بعض ، فما كان من نار هذا الوادي فللنصاب » ^(٤) .

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ ويبعد عنها بحيث لا يسمع حسيها المؤمن ﴿الْأَتَقَى﴾ والأحرز من الشرك والعصيان ، وهو ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ﴾ ويعطيه الفقراء ويصرفه في سبيل الله حال كونه ﴿يَتَزَكَّى﴾ ويقصد ببذله الطهارة من رجس الذنوب وذنس البخل ، وهو أبو الدحداح ، كما عن (المجمع) ^(٥) والقمي ^(٦) .

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (١٩) و (٢٠)

ثم بين سبحانه خلوص نيته في البذل لوجه الله بقوله : ﴿وَمَا لِأَحَدٍ﴾ ممن يعطيه المال ﴿عِنْدَهُ﴾ شيء ﴿مِنْ نِعْمَةٍ﴾ ومنة يكون من شأنها أن ﴿تُجْزَى﴾ وتكافأ فيقصد باعطائه مجازاتها ، فما يكون إعطاؤه وبذله لغرض من الأغراض ﴿إِلَّا﴾ بغرض واحد وهو ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾ الذي هو ﴿الْأَعْلَى﴾ والأرفع من كلّ موجود ذاتا وصفاتا .

في ردّ بعض العامة

ثم لما كان طلب ذات الله تعالى محالا ، كان التقدير : ابتغاء رضا ذات الربّ أو ثوابه ، وإمكان حبّ ذات الربّ ، لا يوجب صحّة طلب الذات ، كما ادّعاها بعض العامة ^(٧) . نعم لا يحتاج في قوله : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ إلى تقدير شيء في الآية ، لأنّ الإطعام لوجه الله معناه الإطعام لأنّه مستحقّ للطاعة ، كما عن أمير المؤمنين : « عبدتك لا خوفا من نارك ، ولا طمعا في ثوابك ، بل لأنك مستحق للعبادة » ^(٨) .

فظهر الفرق بين قوله : أطعت الله ابتغاء لوجهه ، وبين القول : بائي أطعت الله لوجهه ، وأنّ

الخلوص

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٥٠ .

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٧٦٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٨ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٤٢٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٨ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٤٢٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٨ .

(٥) مجمع البيان ١٠ : ٧٦٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٩ .

(٦) تفسير القمي ٢ : ٤٢٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٣٩ .

(٧) تفسير الرازي ٤ : ٢٠٦ ، ٣١ : ٢٠٦ .

(٨) بحار الأنوار ٤١ : ١٤ و ٧٢ : ٢٧٨ « نحوه » .

في الثاني أكمل من الأول ، ولا ينافي هذه الدرجة من الخلوص وجود الخوف من العقاب ، أو الرجاء للثواب ، فأنهما في المرتبة المتأخرة ، كما كان لرسول الله ﷺ جميع المراتب من الخلوص .

ومن المعلوم أنّ من كان له جميع المراتب أفضل وأكمل ممّن كان له مرتبة الرجاء للثواب ، فما ذكرنا ظهر فساد ما حكاه الفخر الرازي عن أبي بكر الباقلائي في هذه الآية من قوله : إنّ الآية الواردة في شأن علي عليه السلام ﴿ إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِهِ اللَّهُ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا^(١) وهذه الآية الواردة في حقّ أبي بكر ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ فدلّت الآيتان على أنّ كلّ واحد منهما فعل ما فعل لوجه الله ، إلّا أنّ آية علي يدلّ على أنّه فعل ما فعل لوجه الله وللخوف من يوم القيامة على ما قال : ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ وأمّا آية أبي بكر فأنّها دلّت على أنّه فعل ما فعل لمحض وجه الله من غير أن يشوبه طمع فيما يرجع إلى رغبته في ثواب أو رهبته من عقاب ، فكان مقام أبي بكر أعلى وأجل^(٢) . مع أنّ نزول الآية في حقّ أبي بكر غير ثابت ، وإنّما حكاه الفخر الرازي عن القفال الذي هو أحد مفسّري العامة ، فإنّه قال : نزلت هذه السورة في أبي بكر وإنفاقه على المسلمين ، وفي اميّة بن خلف وبخله وكفره بالله^(٣) .

ولا يقاوم قول هذا الناصب قول ابن عباس الذي هو حبر هذه الامة واستاذ المفسّرين من أنّها نزلت في حقّ أبي الدّحداح والبخيل الذي كان يدخل إصبغه في فم صغار الفقير ليخرج ثمر نخلته من فيهم ، كما مرّ عن (المجمع)^(٤) .

وروى الفخر الرازي عنه أنّه نزلت في امية بن خلف وأمّثاله الذين كذبوا محمّدا والأنبياء قبله^(٥) ، ولم يحك عنه القول بأنّ المراد بالأتقى أبو بكر .

نعم روى بعض العامة أنّ النبي ﷺ مرّ ببلال بن رباح^(٦) الحبشي وهو يقول : أحد فقال عليه السلام : « أحد يعني الله الأحد ينجيك » ثمّ قال ، أبي بكر : إنّ بلالا يعذب في الله فعرف مراده ، فانصرف إلى منزله ، فأخذ رطلا من ذهب ، ومضى به إلى اميّة بن خلف ، فقال له : أتبيعي بلالا ؟ فقال : نعم ، فاشتراه وأعتقه ، فقال المشركون : ما أعتقه ابو بكر إلّا ليد كانت له عنده ، فنزلت^(٧) .

أقول : الظاهر من الآية مدح الأتقى الذي يؤتي ماله في سبيل الله ، وهو موافق لإعطاء أبي الدّحداح ،

(١) الإنسان : ٧٦ / ٩ و ١٠ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ٢٠٥ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ١٩٧ .

(٤) مجمع البيان ١٠ : ٧٥٩ .

(٥) تفسير الرازي ٣١ : ٢٠٢ .

(٦) في النسخة : رباح .

(٧) تفسير أبي السعود ٩ : ١٦٨ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٥١ .

لا لاعتناق أبي بكر ، فإنّ الاعتناق ليس بدلا وإعطاء للغير ، بل هو تحرير وفكّ ملك.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)﴾

ثمّ وعد سبحانه الأتقى البازل ماله في سبيل الله بالثواب المرضي مقرونا باليمين بقوله : ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ ذلك الاتقى بما يؤتية الله من الثواب في الآخرة.

قيل : إنّ المعنى إلّا ابتغاء رضا ربّه ، وو الله لسوف يرضى الربّ عنه ^(١) . وفيه : أنّ رضا الله لا تأخير فيه ، وإنّما التأخير في الثواب الاخروي ، وهو وعد بنيل جميع ما يبتغيه ويطلبه من الثواب على أكمل الوجوه وأجملها.

قال بعض العامة : لم ينزل هذا الوعد إلّا لرسول الله ﷺ في قوله : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ ^(٢) ولأبي بكر هاهنا ^(٣) . وفيه : أنّ الآيات الدالة على وعد المؤمنين عموما بثواب فيه رضاهم كثيرة ، وليس في خصوصية التعبير دلالة على فضيلة من وعده الله بأن يرضيه بثوابه إذا أدخله الجنة بهذا التعبير على غيره من المؤمنين الذين قال في حقّهم ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ^(٤) بل في هذا التعبير وفي قوله : ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً﴾ ^(٥) احتمال فضيلة خاصة ، لاحتمال كون المراد راضية ومسرورة بلقاء الله والوصول إلى مقام الرضوان ، والآية المذكورة كالنصّ في إرادته رضاه بالثواب ودخوله في الجنة ، مع أن ادعاء كون نزول الآية في حقّ أبي بكر ممنوع أشدّ المنع ، حشرهم الله معه بتكليفهم في إثبات فضيلة له مع أنّه خرط القتاد ، بل تمسّكهم بأمثاله كتمسّك الغريق المتشبّث بكلّ حشيش.

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٥٢ .

(٢) الضحى : ٩٣ / ٥ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٥٢ .

(٤) المائدة : ٥ / ١١٩ .

(٥) الفجر : ٨٩ / ٢٨ .

في تفسير سورة الضحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى (١) وَ (٢)﴾

ثم لما ختمت سورة والليل المتضمنة لبيان كون الدنيا والآخرة لله ، وفضيلة المؤمنين المنفقين في سبيل الله خالصا لوجهه ، وأن الله يرضيهم في الآخرة بثوابه ، نظمت سورة الأضحى المتصدرة بالإيمان المناسبة لما صدر ما قبلها من الإيمان المتضمنة لبيان كون الآخرة خيرا من الدنيا ، ولمنته على رسوله ، وفيه ^(١) على الانفاق على الفقير ، ووعدده بإعطائه ما يرضى به من الدرجات العالية التي يغبطه بها الأولون والآخرون ، والشفاعة التي هي المقام المحمود ، وغيرها من النعم التي لا تدركها العقول ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم ابتدأها بالإيمان البالغة بقوله : ﴿وَالضُّحَى﴾ وبوقت ارتفاع الشمس وتحلي النهار ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى﴾ وسكن ظلامه ولا يزيد ولا ينقص إلى طلوع الفجر ، وقيل : يعني إذا سكن أهله ^(٢) ، وقيل : إذا أظلم ^(٣) . وعن ابن عباس : إذا غطى الدنيا بالظلمة ^(٤) .

قال الفخر الرازي : سورة ﴿وَاللَّيْلُ﴾ سورة أبي بكر ، وسورة ﴿وَالضُّحَى﴾ سورة محمد ﷺ ، وإثما قدّم الله الليل على النهار في سورة أبي بكر ، لأنّ أبا بكر سبقه كفر ، وفي هذه السورة قدّم الضحى لأنّ الرسول ما سبقه كفر ، والإشارة إلى أنّه [إذا] ذكرت الليل أولا وهو أبو بكر ، وجدت بعده النهار وهو محمد ﷺ ، إن ذكرت أولا الضحى وهو محمد ، وجدت بعده الليل وهو أبو بكر ^(٥) .

أقول : على تقدير تسليم كون سورة ﴿وَاللَّيْلُ﴾ سورة أبي بكر ، يحتمل كون النكتة في تقديم الليل فيها على النهار الإشعار بظهور الظلمة الظلماء بعد وفاة الرسول ﷺ وبعد الظلمة ينجلي نور ولاية أوصيائه في آخر الزمان ، والنكتة في تقديم الضحى في هذه السورة على الليل الإشارة إلى ظهور نور

(١) كذا ، والظاهر : وحته.

(٢) تفسير أبي السعود ٩ : ١٦٩ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٥٣ .

(٣) تفسير الرازي ٣١ : ٢٠٧ .

(٤) تفسير الرازي ٣١ : ٢٠٨ .

محمد ودينه أولا وظهور الطّحية العمياء بعد وفاة الرسول ﷺ .

وفي التكنية عن أبي بكر بالليل ، وعن النبي ﷺ بالنهار والضحي ، على اعترافه ، إشارة إلى أنّ أبا بكر باطنه ضدّ باطن الرسول ، فأنّه ظلمة محضة ، كما أنّ الرسول نور محض ، وكما أنّ الرسول أعضاء الدنيا بنور علمه وهدايته ، كذلك أظلم أبو بكر الدنيا بظلمة جهله وغوايته.

وقيل : إنّ نكتة تقدّم الليل في سورة وتقدّم الضحى في سورة الإشارة إلى أنّ لكلّ منهما شرف وفضيلة ، وأنّ بهما ينتظم أمر العالم ^(١) ، فإنّ المراد بالضحي جميع النهار ، وبالليل جميعه. وروى بعض العامة عن الصادق عليه السلام : « أنّ المراد بالضحي هو الضحى الذي كلّّم الله فيه موسى وبالليل ^(٢) ليلة المعراج » ^(٣) .

وقيل : إنّ المراد بالضحي الضحى الذي ألقى فيه السحرة سجداً ، حيث قال تعالى : ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ ^(٤) .

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ

رَبُّكَ فَتَرْضَى (٣) و (٥)﴾

ثمّ ذكر سبحانه المقسم عليه بقوله : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ وما بالغ في تركك بالخطّة عن درجة القرب والكرامة والوحي ﴿وَمَا قَلَى﴾ وما أبغضك ^(٥) بتركك وروى بعض العامة ، بل نسب إلى مفسّريهم : أنّه أبطاء [الوحي] عليه أربعين ليلة ، فشكا ذلك إلى خديجة ، فقالت : لعلّ ربك نسيك أو قلاك ^(٦) . وروى بعضهم : أنّ مشركي قريش أرسلوا إلى يهود المدينة وسألوه عن أمر محمد ﷺ ، فقالت لهم اليهود : سلوه عن أصحاب الكهف ، وعن قصّة ذي القرنين ، وعن الرّوح ، فان أخبركم عن قصّة أهل الكهف ، وقصّة ذي القرنين ، ولم يخبركم عن أمر الروح ، فاعلموا أنّه صادق. فجاءه المشركون سألوهم عنها ، فقال : إرجعوا سأخبركم غدا « ولم يقل : إن شاء الله ، فاحتبس الوحي عنه ، فقال المشركون : إنّ محمدا ودّعه ربّه وقلاه ^(٧) ، فنزلت السورة.

وروى بعضهم ، أنّ جروا دخل البيت ، فدخل تحت السرير ومات ، فمكث نبي الله ﷺ أياما لا ينزل عليه الوحي ، فقال لخادمتة : « يا خولة ، ما حدث في بيتي ، إنّ جبرئيل لا يأتيّني » قالت خولة : فكشفت :

(١) تفسير الرازي ٣١ : ٢٠٧.

(٢) في النسخة : وبالليلة.

(٣) تفسير أبي السعود ٩ : ١٦٩.

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٥٢ ، والآية من سورة طه : ٢٠ / ٥٩.

(٥) زاد في النسخة : كي.

(٦) تفسير الرازي ٣١ : ٢٠٩.

(٧) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٥٤.

البيت ، فأهويت بالمكنسة تحت السرير ، فاذا جرو ميت ، فأخذته والقيته خلف الجدار ، فجاء نبي الله ﷺ يرتعد ، وكان إذا انزل الوحي استقبلته الرعدة ، فقال : « يا حولة ، دثريني ، فأنزل الله هذه السورة ، فلما نزل جبرئيل سأله النبي ﷺ عن سبب تأخيرها ، فقال : أما علمت أننا لا ندخل بيتا فيه كذب ولا صورة » ^(١) .

وعن القمي ، عن الباقر عليه السلام : « أن جبرئيل أبطأ على رسول الله ﷺ وكانت أول سورة نزلت ﴿ أَفَرَأَى بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ^(٢) ثم أبطأ عليه فقالت خديجة : لعل ربك قد تركك فلا يرسل إليك ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ ^(٣) فليس الأمر كما قالوه ، بل الوحي يأتيك مدة عمرك ، وتدوم محبتي لك في الدنيا والآخرة .

﴿ وَلَآخِرَةُ ﴾ الباقية الصافية عن شوائب المضار والموم والآلام ، وما أعددت له فيها من النعم والشرف والكرامات ﴿ خَيْرٌ لَّكَ ﴾ وأفضل ﴿ مِنَ الْأُولَى ﴾ والدنيا الفانية الزائلة . وعن الصادق قال : « يعني الذكرة » ^(٤) .

﴿ وَ ﴾ والله ﴿ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ ﴾ وعن قريب يتم نعمه الجسمانية والروحانية والظاهرية والباطنية والدينية والآخرية عليك ﴿ فَتَرْضَى ﴾ غاية الرضا بعطاء ربك وإفضاله . قيل : لما قال سبحانه ﴿ لَآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ كأنه قيل : ما جهة خيريتها ؟ قال سبحانه : إن الله يعطيه في الآخرة كل ما يريده مما لا تتسع الدنيا له ^(٥) .

عن ابن عباس ، أنه قال : ألف قصر في الجنة من لؤلؤ أبيض ، ترابه المسك ، وفيها ما يليق [بها] ^(٦) .

عن الصادق عليه السلام : « يعطيك من الجنة ما ترضى » ^(٧) . وعنه عليه السلام : « دخل رسول الله ﷺ على فاطمة عليها السلام وعليها كساء من ثلثة ^(٨) الإبل وهي تطحن بيدها ، وترضع ولدها ، فدمعت عينا رسول الله ﷺ لما أبصرها ، فقال : يا بنتاه تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة ، فقد أنزل الله علي ﴿ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ » ^(٩) . وفي رواية : قالت : « يا رسول الله ، الحمد لله على نعمائه ، والشكر على آلائه ، فأنزل الله ﴿ وَلَسَوْفَ ﴾ »

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٥٤ .

(٢) العلق : ٩٦ / ١ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٤٢٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٠ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٤٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٠ .

(٥) تفسير الرازي ٣١ : ٢١٢ .

(٦) تفسير الرازي ٣١ : ٢١٢ .

(٧) تفسير القمي ٢ : ٤٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٠ .

(٨) الثلثة : الصوف .

(٩) مجمع البيان ١٠ : ٧٦٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٠ .

يُعْطِيكَ ﴿١﴾ الآية.

وروى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام : « أَنَّ هَذَا هُوَ الشَّفَاعَةُ فِي الْأَمَةِ » ^(٢) وروى أيضا عن ابن عباس ^(٣) .

وروي أنه عليه السلام لما نزلت هذه الآية قال : « إِذَا لَا أَرْضَى وَوَاحِدٌ مِنْ أُمَّتِي فِي النَّارِ » ^(٤) .
وروى بعض العامة عن الصادق عليه السلام أنه قال : « رِضَا جَدِّي أَنْ لَا يَدْخُلَ فِي النَّارِ مُوَحَّدٌ » ^(٥) .
وروا عن الباقر عليه السلام : « أَهْلُ الْقُرْآنِ يَقُولُونَ : أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ ^(٦) وَإِنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ نَقُولُ : أَرْجَى آيَةٍ قَوْلُهُ : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ وَاللَّهُ إِذَا شَفَاعَةً ، لِيُعْطَاهَا فِي أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حَتَّى يَقُولَ : رَضِيتَ » ^(٧) .

وعن محمد بن الحنفية أنه قال : يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، تَرْعَمُونَ أَنَّ أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ وَإِنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ نَقُولُ : أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ...﴾
الآية ، هِيَ وَاللَّهُ الشَّفَاعَةُ ، لِيُعْطِيَهَا فِي أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حَتَّى يَقُولَ : رَضِيتَ » ^(٨) .

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ (٦ و ٨)

ثُمَّ قَرَّرَ سُبْحَانَهُ حَبِّهِ إِيَّاهُ بِتَعْدَادِ نِعَمِهِ السَّابِقَةِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ رَبُّكَ يَا مُحَمَّد ، وَلَمْ يَعْلَمْكَ فِي بَدْوٍ وَلَادَتِكَ مِنْ أُمِّكَ ﴿يَتِيمًا﴾ وَصَغِيرًا مُنْقَطِعًا عَنْ أَبِيكَ بِمَوْتِهِ ﴿فَآوَى﴾ وَكَفَلَكَ عَبْدَ الْمَطْلَبِ وَأَبَا طَالِبٍ فِي الْأَثَرِ ، إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ الْمَطْلَبِ تَوَقَّى بِالْمَدِينَةِ وَأَمَّ رَسُولُ اللَّهِ حَامِلٌ بِهِ ، ثُمَّ وَلَدَ رَسُولُ اللَّهِ عليه السلام فَكَانَ مَعَ جَدِّهِ عَبْدَ الْمَطْلَبِ وَأُمُّهُ آمَنَةُ سِتُّ سِنِينَ ، ثُمَّ مَاتَتْ أُمُّهُ فَكَانَ عِنْدَ جَدِّهِ سَنَتَيْنِ ، فَلَمَّا قَرِبتْ وَفَاةُ جَدِّهِ عَبْدَ الْمَطْلَبِ أَوْصَى بِهِ أَبَا طَالِبٍ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانَ سِنِينَ ، وَإِنَّمَا أَوْصَاهُ بِهِ لِأَنَّ أَبَا طَالِبٍ وَعَبْدُ اللَّهِ كَانَا مِنْ أُمَّ وَاحِدَةٍ ، فَكَانَ أَبُو طَالِبٍ يَكْفُلُ رَسُولَ اللَّهِ بَعْدَ جَدِّهِ إِلَى أَنْ بَعَثَهُ اللَّهُ فَقَامَ بِنَصْرَتِهِ إِلَى حِينِ وَفَاتِهِ ، فَلَمْ يَظْهَرْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ يَتَم ، فَكَانَ هَذَا نِعْمَةً عَظِيمَةً مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ ^(٩) .

روي انه قال أبو طالب يوما لأخيه العبا : ألا اخبرك بما رأيت من محمد ؟ فقال : بلى . فقال :
إِنِّي ضَمَمْتُهُ إِلَيَّ ، فَكُنْتُ لَا أَفَارِقُهُ سَاعَةً مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، وَلَا أَتَمَنَّ عَلَيْهِ أَحَدٌ حَتَّى آتِي كُنْتُ أَنْوَمُهُ فِي فِرَاشِي ، فَأَمَرْتُهُ أَنْ يَخْلَعَ ثِيَابَهُ وَيَنَامَ مَعِي ، فَرَأَيْتُ الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِهِ ، لَأَكُنَّ كَرَهُ أَنْ يَخَالَفَنِي ، فَقَالَ : « يَا عَمَّاهُ ، أَصْرَفَ وَجْهَكَ عَنِّي حَتَّى أَخْلَعَ ثِيَابِي ، إِذْ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى جَسَدِي » فَتَعَجَّبْتُ مِنْ

(١) مناقب ابن شهر آشوب ٣ : ٣٤٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤١ .

(٢-٥) تفسير الرازي ٣١ : ٢١٢ .

(٦) الزمر : ٣٩ / ٥٣ .

(٧) تفسير الرازي ٣١ : ٢١٢ .

(٨) مجمع البيان ١٠ : ٧٦٥ ، جوامع الجامع : ٥٤٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤١ .

(٩) تفسير الرازي ٣١ : ٢١٤ .

قوله ، وصرفت بصري حتى دخل الفراش ، فلمّا دخلت معه الفراش إذا بيني وبينه ثوب ، والله ما أدخلته فراشي ، فاذا هو في غاية اللين وطيب الرائحة ، كأنّه غمس في المسك فجهدت لأنظر إلى جسده ، فما كنت أرى شيئا ، وكثيرا ما كنت افتقده من فراشي ، فاذا قمت لطلبه ناداني : « [ها] أنا يا عمّ » فأرجع ، ولقد كنت كثيرا ما أسمع منه كلاما يعجبني ، وذلك عند مضيّ بعض الليل ، وكنا لا نسوّي على الطعام والشراب ، ولا نحمد بعده ، وكان يقول في أوّل الطعام : بسم الله الأحد ، فاذا فرغ من طعامه قال: الحمد لله ، فتعجّبت منه ، ثمّ لم أر منه كذبة ولا ضحكا ولا جاهلية ، ولا وقف مع صبيان يلعبون^(١) .

سئل الصادق عليه السلام : لم أوتم النبي ﷺ عن أبيه ؟ فقال : « لأن لا يكون لمخلوق عليه حقّ »^(٢) .

أقول : يعني الحقّ العظيم الذي يكون تالي حقّ الله .
وقيل : إنّ المراد باليتيم الفريد في الفضل والعزّ عديم النظير في قريش ، أو في البشر ، فأواك وجعل لك من تأوى إليه وهو أبو طالب .

وفي (الكشف) : ومن بدائع التفسير أنّه من قوله : درّة يتيمة ، والمعنى ألم يجدك واحدا في قريش عديم النظير ، أي في العزّ والشرف ، فأواك في دار أعدائك ، فكنت بين القوم معصوما محروسا^(٣) . وعن العياشي عن الرضا عليه السلام : « ﴿ يَتِيمًا ﴾ فردا لا مثل لك في المخلوقين ﴿ فَأَوَى ﴾ الناس إليك »^(٤) .

وفي (العيون) عنه ما يقرب منه^(٥) .
﴿ وَوَجَدَكَ ﴾ وراك ﴿ ضَالًّا ﴾ عن معالم النبوة وأحكام الشريعة ، غافلا عنها ﴿ فَهَدَى ﴾ إليها ، كما عن ابن عباس^(٦) .

وقيل : يعني ضالا عن النبوة ، يعني ما كنت تطمعها فهذاك الله إليها^(٧) .
وقيل : يعني وجدك خاليا عن العلم والمعارف في بدو خلقتك ، فهذاك بأن أعطاك العقل الكامل والمعرفة الكاملة^(٨) .

وقيل : يعني وجدك راغبا إلى فعال الجاهلية فهذاك وحال بينك وبينها^(٩) .
روي عن علي عليه السلام أنّه قال النبي ﷺ : « ما هممت بشيء ممّا كان أهل الجاهلية يعملون به

غير

(١) تفسير الرازي ٣١ : ٢١٤ .

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٧٦٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٢ .

(٣) الكشف ٤ : ٧٦٧ « نحوه » ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٥٧ .

(٤) مجمع البيان ١٠ : ٧٦٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤١ .

(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١٩٩ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤١ .

(٦) تفسير الرازي ٣١ : ٢١٥ و ٢١٦ .

(٧) تفسير الرازي ٣١ : ٢١٥ و ٢١٦ .

(٨) تفسير الرازي ٣١ : ٢١٧ .

مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما اريد من ذلك ، ثم ما هممت بعدها بسوء حتى أكرمني الله برسالته » (١) .

أقول : المذهب الذي عليه أهل الحق أنّ النبي ﷺ معصوم من الهمّ بالمعصية من أول عمره إلّا أن يحمل السوء في الرواية على ترك الاولى .

وقيل : إنّ العرب تسمي الشجرة الفريدة في الفلاة ضالة ، والمعني وجدك في تلك البلاد كشجرة في مفازة الجهل ، لا يحمل ثمرة الايمان إلا أنت ، فهديت بك الخلق (٢) .

وقيل : يعني وجدك ضالا ومنفردا عن الضالين بجانب لدينهم ، فهديك إلى معاشرتهم ، ودعوتهم إلى الدين المبين (٣) .

وقيل : وجدك ضالا عن مرضعتك حليلة حين أرادت أن تردك إلى جدك ، فدخلت على هبل فشكت إليه فتساقطت الأصنام ، وسمعت صوتا يقول : إنّما هلاكنا بيد هذا الصبي (٤) .

وروي أنّه عليه السلام قال : « ضللت عن جدّي عبد المطلب وأنا صبيّ ضائع ، كاد الجوع يقتلني ، فتعلّق باستار الكعبة وهو يقول :

يا ربّ ، ردّ ولدي محمدا [اردده ربي واصطنع عندي يدا]

فما زال يردّد هذا عند البيت حتّى أتاه أبو جهل على ناقة ومحمّد بين يديه ، وهو يقول : لا تدري ما ذا ترى من ابنك ؟ فقال عبد المطلب : ولم ؟ قال : إنّّي أنخت الناقة وأركبته من خلفي فأبت الناقة أن تقوم ، فلمّا أركبته أمامي قامت الناقة » (٥) .

وعن ابن عباس أنّه قال : ردّه الله إلى جدّه بيد عدوّه كما فعل بموسى حين حفظه على يد عدوه (٦) .

وقيل : إنّّه ﷺ خرج مع غلام خديجة ، فأخذ كافر بزمام بعيره حتى ضلّ ، فأنزل الله تعالى جبرئيل في صورة آدمي فهداه إلى القافلة (٧) .

وقيل : إنّ أبا طالب خرج به إلى الشام ، فضلّ عن الطريق ، فهداه الله إليه (٨) .

وقيل : يعني وجدك ضالا ومغمورا في الكفّار ، فقواك الله حتّى أظهرت دينك (٩) .

وعن الرضا عليه السلام : « ووجدك ضالا في قوم لا يعرفون فضل نبوتك فهداهم الله بك » (١٠) .

وفي رواية عنه عليه السلام : « ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا ﴾ يعني عند قومك ﴿ فَهَدَى ﴾ أي هداهم إلى معرفتك »

(١١) .

(١) تفسير الرازي ٣١ : ٢١٧ .

(٢و٣) تفسير الرازي ٣١ : ٢١٦ .

(٤-٩) تفسير الرازي ٣١ : ٢١٦ .

(١٠) تفسير القمي ٢ : ٤٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤١ ، ولم ينسبها إلى الإمام الرضا عليه السلام .

(١١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١٠٠ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤١ .

﴿وَوَجَدَكَ﴾ وراك ﴿عَائِلًا﴾ وفقيرا وعديما لا مال لك ﴿فَأَغْنَى﴾ ك بترية أبي طالب ، ثم بمال خديجة ، ثم باعانة الأنصار ، ثم بالغنائم.

روي أنه ﷺ دخل على خديجة وهو مضموم ، فقالت له : مالك ؟ فقال : « الزمان زمان قحط ، فان أنا بذلت المال ينفد مالك فأستحي منك ، وإن لم أبذل أخاف الله تعالى » فدعت خديجة قريشا وفيهم أبو بكر ، قال أبو بكر : فأخرجت خديجة دنانير وصبتّها حتّى بلغت مبلغا لم يقع بصري على من كان جالسا قدامي لكثرة المال ، ثم قالت : اشهدوا أنّ هذا المال مال محمد ، إن شاء فرقّه ، وإن شاء أمسكه ^(١) .

وقيل : يعني أغني قلبه بالقناعة ، كما قال ﷺ : « الغني غني النفس » ^(٢) . وعن الرضا عليه السلام : ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ يقول بأن جعل دعاءك مستجابا ^(٣) .

وعن القمي : يعني فأغنك بالوحي ، فلا تسأل عن شيء أحدا ^(٤) .
وعن الرضا عليه السلام : « ووجدك عائلا تعول أقواما بالعلم ، فأغناهم الله بك » ^(٥) .

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾
فَحَدِّثْ (٩) و (١١)

ثم لما منّ سبحانه على رسوله بإيوائه ورعاية حاله في اليتيم ، أمره بشكر تلك النعمة بقوله : ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ولا تضجره بكلام تكسر قلبه ، وعامل معه كما عاملت معك.
﴿وَأَمَّا السَّائِلَ﴾ سواء سأل المال أو العلم أو غيرهما ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ ولا تستقبله بكلام يضجره.
وعن القمي عليه السلام قال : فلا تطرده ^(٦) ، قيل : المخاطبة للنبي ﷺ والمعنى للناس ^(٧) .
﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ من الغنى والنبوة والهداية أو الكتاب ﴿فَحَدِّثْ﴾ وأظهرها بين الناس.
عن الصادق عليه السلام : « معناه فحدّث بما أعطاك الله وفضلك ورزقك وأحسن إليك وهذاك » ^(٨) .
وعن الحسين بن علي عليه السلام : « أمره أن يحدّث بما أنعم الله عليه من دينه » ^(٩) .
وقيل : يعني إذا وفقك الله لرعاية حقّ اليتيم والسائل ، فحدّث بذلك التوفيق الذي هو نعمة الله عليك ليقتدي الناس بك ^(١٠) .

(١) تفسير الرازي ٣١ : ٢١٨ . (٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٥٨ .

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٠٠ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٢ . (٤) تفسير القمي ٢ : ٤٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٢ .

(٥) مجمع البيان ١٠ : ٧٦٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٢ . (٦) في المصدر وتفسير الصافي : أي لا تظلم .

(٧) تفسير القمي ٢ : ٤٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٢ . (٨) مجمع البيان ١٠ : ٧٦٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٢ .

(٩) المحاسن ٢١٨ / ١١٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٢ . (١٠) تفسير الرازي ٣١ : ٢٢٠ .

روى بعض العامة عن الحسين بن علي عليه السلام أنه قال : « إذا عملت خيرا فحدث إخوانك ليقتدوا بك » ^(١) .

وروا عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سئل عن الصحابة ، فأثنى عليهم وذكر خصاله ، فقالوا له : فحدثنا عن نفسك. فقال : « مهلا ، فقد نهي الله عن التزكية » فقيل له : أليس الله تعالى يقول : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فقال : « فإني أحدث : كنت إذا سألت اعطيت ، وإذا سكّت ابتدئت ، وبين الجوانح علم جمّ فاسألوني » ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « إذا أنعم الله على عبده بنعمة وظهرت عليه سميّ حبيب الله محدثا بنعمة الله ، وإذا أنعم الله على عبده بنعمة فلم تظهر عليه سميّ بغيض الله مكذبا بنعمة الله » ^(٣) .
قيل : إنّما قدّم الله حقّ اليتيم والفقير على حقّ نفسه للإشعار بأنّه غنيّ ، واليتيم والفقير محتاجان ، فإذا كان كذلك فتقديم المحتاج أولى ، وإمّا قال : ﴿فَحَدِّثْ﴾ ولم يقل : فأخبر ، لدلالة الحديث على الإعادة مرّة بعد أخرى لئلا ينساه ^(٤) .

قد مرّ ثواب تلاوة السورة المباركة ، والحمد لله على التوفيق لتفسيرها.

(١) تفسير الرازي ٣١ : ٢٢٠ .

(٢) تفسير الرازي ٣١ : ٢٢٠ .

(٣) الكافي ٦ : ٤٣٨ / ٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٢ .

(٤) تفسير الرازي ٣١ : ٢٢٠ .

في تفسير سورة الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١)﴾

ثم لما ختمت سورة ﴿وَالضُّحَى﴾ المتضمنة لبيان منتهى تعالى على الرسول ﷺ ، نظمت سورة الانشراح المتضمنة أيضا لبيان بعض منتهى الاخرى ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم شرع سبحانه في تعديد بعض نعمه على رسوله ﷺ بقوله : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ ولم نوسع ﴿لَكَ﴾ يا محمد ﴿صَدْرَكَ﴾ ولم نفسح قلبك للعلم والحكمة وتلقي الوحي ؟ بلى وسعناه بحيث صار خزانة علمي ، ومحيطا بعوالم الملك والملكوت ، ومطلعا على أسرار السماوات والأرض .
روي أن جبرئيل أتاه وشق صدره ، وأخرج قلبه وغسله وأنقاه ، ثم ملأه علما وإيمانا ووضع في صدره (١) .

أقول : لعل غسل قلبه وإنقائه كناية عن تقويته لتحمل ما فوق طاقة البشر من العلوم والأسرار والمعارف ، وتطهيره عن الميل إلى غير الله ، والتوجه إلى الراحة واللذائذ الدنيوية وقبول الأهواء الرائعة النفسانية . وقد أشار سبحانه إلى مرتبة منه بقوله : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَزْبًا﴾ (٢) .

وقد سبق في تفسير الآية وأنه عن النبي ﷺ ، أنه قيل له : أينشرح الصدر ؟ قال : « نعم » قالوا : يا رسول الله ، وهل لذلك علامة يعرف بها ؟ قال : « نعم ، التجاني عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإعداد للموت قبل نزوله » (٣) .

أقول : فمن كان قلبه متوجها إلى الله معرضا عن غيره لعلمه بحقارة الممكنات وعظمة خالقها ، صار منزها عن كل دنس مطهرا عن كل رجس ، منورا بأنوار المعارف ، ومملوءا بالعلم والحكمة .

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ٢ .

(٢) الأنعام : ٦ / ١٢٥ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٣ .

﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (٢) و (٤)

ثمَّ منَّ سبحانه عليه بتخفيف أعباء الرسالة بقوله : ﴿وَوَضَعْنَا﴾ وحططنا ﴿عَنْكَ وَزْرَكَ﴾ وثلثك ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ قيل : إنّ الحمل إذا كان في غاية الثقل سمع للظهر صوت خفيّ يقال له النقيض ^(١) . فوصف الثقل بكونه منقضا ، كناية عن كونه في غاية الثقل ، وليس هو إلّا ثقل أعباء الرسالة ، وقد خففه الله عليه بتقوية قلبه ، وإمدادا بعلي بن أبي طالب عليه السلام والملائكة المؤمنين .

وقيل : إنّ المراد بالوزر وذنوب أمته ، والمراد بوضعها وعده بقبول شفاعته فيهم حتّى يرضى ^(٢) . قيل : إنّ عطف ﴿وَوَضَعْنَا﴾ على معنى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ والمعنى : إنّنا شرحنا لك صدرك ، وإنّا وضعنا عنك وزرك ^(٣) .

﴿وَإِنَّا رَفَعْنَا﴾ وعلونا ﴿لَكَ ذِكْرَكَ﴾ بحيث تذكر إذا ذكرت ، كما عن القمي ^(٤) .

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال : « قال : لي جبرئيل : قال الله عزّ وجلّ : إذا ذكرت ذكرت معي » ^(٥) . وقيل : إنّ تعالى رفع ذكره ^(٦) بالنبوة ، وشهر اسمه في السماوات والأرضين ، وكتبه على العرش ، وفي الكتب السماوية المتقدمة ، وقرن ذكره بذكره في القرآن حيث قال : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ^(٧) وقال : ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ ^(٨) إلى غير ذلك ^(٩) .

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (٥) و (٦)

ثمَّ لما كان المشركون يعيرونه بالفقر حتّى وقع في قلبه أنّ فقره مانع عن إسلام المتكبرين ، سلبه سبحانه بقوله : ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ﴾ والضيق الذي أنت فيه ﴿يُسْرًا﴾ وسعة كاملة في الدنيا ، فلا تحزن بالفقر الذي يطعنك به الكفرة ، كذا قيل ^(١٠) .

ثمَّ بالغ سبحانه في تسليته بتكرار القضية تأكيدا بقوله : ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ قال الفراء والزجاج : إنّ العسر المعروف بأل منصرف إلى الجنس لعدم العهد وهو حقيقة واحدة ، وأمّا كلمة ﴿يُسْرًا﴾ لما كان منكرا قابلة لإرادة نوعين منه ، كما عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « لن يغلب عسر يسرين » ^(١١) . وعن ابن عباس أنّه قال : يقول الله ، خلقت عسرا واحدا بين يسرين ، فلن يغلب عسر يسرين ^(١٢) .

قيل : إنّ تنكير اليسر دالّ على عظمتها ، كأنّه قال : [إنّ] مع العسر يسرا عظيما ^(١٣) ، والمراد بالمعية مع كونهما ضدّين التعاقب بغير فصل ، أو مع الفصل بزمان قليل .

(٢١) تفسير الرازي ٣٢ : ٤ .

(٣) تفسير أبي السعود ٩ : ١٧٢ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٤٢٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٣ .

(٥) مجمع البيان ١٠ : ٧٧١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٣ .

(٦) في النسخة : ذكرنا .

(٧) النساء ٤ : ٥٩ .

(٨) التوبة ٩ : ٦٢ .

(٩) تفسير الرازي ٣٢ : ٥٠ .

(١٠-١٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٦ .

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (٧) و (٨)

ثمَّ إنَّه تعالى بعد تعديد نعمه الجليلة أمره بالشكر والاجتهاد في العبادة بقوله : ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من تبليغ الرسالة ، أو من تنظيم ما هو من ضروريات معاشك ، أو من المهام الدنيوية ، أو من الجهاد ﴿فَانصَبْ﴾ وأتعب نفسك في العبادة.

وقال جمع من المفسرين : يعني إذا فرغت من الصلاة المكتوبة ، فانصب نفسك في الدعاء ^(١) ﴿وَإِلَى﴾ مسألة ﴿رَبِّكَ﴾ وحده ﴿فَارْغَبْ﴾ وبقلبك إليه فتوجهه.

عن الباقر والصادق عليه السلام : « فإذا فرغت من الصلاة المكتوبة ، فانصب إلى ربك في الدعاء ، وارغب إليه في المسألة يعطك » ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « هو الدعاء في دبر الصلاة وأنت جالس » ^(٣) .

وقيل : يعني إذا فرغت من عبادة عقبها باخرى وأوصل بعضها ببعض ، ولا تخلّ وقتنا من أوقاتك فارغا لم تشغله بعبادة ^(٤)

وعن الباقر عليه السلام ، قال : « فإذا فرغت من نبوتك ، فانصب عليا عليه السلام ، وإلى ربك فارغب في ذلك » ^(٥) .

وعنه عليه السلام في حديث قال : « يقول الله : ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ علمك وأعلن وصيّك ، وأعلمهم فضله علانية ، فقال : من كنت مولاه ... » قال : « وذلك حين أعلم بموته نعت إليه نفسه » ^(٦) .

أقول : يحتمل أن تكون هذه الأخبار بيان مصداق العبادة التي وجب إتيان النفس فيها بعد الفراغ من العبادة ، والمراد إذا فرغت من تبليغ الرسالة فأتعب نفسك فيما هو الأهم بعده ، وهو تعيين الخليفة ، فظهر أنّ صحّة مضمون الأخبار ليست موقوفة على قرابة ، فانصب بكسر الصاد من التّصب بالسكون فنسبة الزمخشري المتعصب قراءة (فانصب) بالكسر وتفسيره بالأمر بنصب علي عليه السلام للإمامة إلى بدع الشيعة من الأغلاط.

ثمَّ اعلم أنّ قوله - : بأنّه لو صحَّ هذا للرافضي لصحَّ للناصبي أن يقرأ هكذا ، ويجعله أمرا بالنصب الذي هو بغض عليّ وعداوته ^(٧) - ممّا تضحك به الثكلى ؛ لأنّ جواز بغض عليّ عليه السلام مخالف لضرورة الاسلام والأخبار المتواترة الدالة على وجوب حبّه وولايته ، نعوذ بالله من خبث الطينة ، وعمى القلب ، وسوء السريرة ، والضلال عن الحقّ.

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ٧ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٧٣ ، تفسير البيضاوي ٢ : ٦٠٧ .

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٧٧٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٤ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٧ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٤٢٩ ، وتفسير الصافي ٥ : ٣٤٤ ، عن الصادق عليه السلام .

(٥) الكافي ١ : ٢٣٣ / ٣ ، وتفسير الصافي ٥ : ٣٤٤ ، عن الصادق عليه السلام .

(٦) الكشف ٤ : ٧٧٢ .

عن الصادق عليه السلام : « ولا يجمع بين سورتين في ركعة واحدة إلا الضحى وألم نشرح ، وألم تر كيف ولا يلاف قريش » ^(١) .

وقد سبق ثواب قراءتها في سورة (والشمس) وفي رواية : « من قرأها فكأنما جاءني وأنا مغتَم ففرج عني » ^(٢) .

قد تم تفسير السورة المباركة.

(١) مجمع البيان ١٠ : ٨٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ٩ : ١٧٣ .

في تفسير سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿التِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ (١)

ثمّ لما ختمت السورتان المتضمّنتان لمن الله على أشرف الخلق وأفضل البشر ، نظمت سورة التين ، المتضمّنة لبيان منتهى على عموم البشر بتحسين خلقهم ، وعلى مؤمنهم بالأجر العظيم ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثمّ ابتدأها بالقسم بخير الفواكه وأحدها بقوله : ﴿التِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ المشهورين ، كما عن ابن عباس أنّه قال : هو تينكم وزيتونكم هذا (١) ، أمّا القسم بالتين فلفضله وخواصّه ، حيث إنّ غداء وفاكهة ودواء . قيل : إنّ الأطباء قائلون بأنّه طعام لطيف سريع الهضم ، يلين الطبع ، ويسمن البدن ، ويقلل البلغم ، ويظهر الكليتين ، ويزيل الرمل المتكون في المثانة ويفتح مسامّ الكبد والطّحال (٢) . وروي : أنّه اهدي لرسول الله ﷺ طبق من تين ، [فاكل منه] ثمّ قال للصحابه : « كلوا . فلو قلت : إنّ فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه ، لأنّ فاكهة الجنة بلا عجم ، فكلوها فأنّها تقطع البواسير ، وتنفع من النقرس » (٣) .

وعن الرضا عليه السلام بطريق عامي : « التين يزيد نكهة الفم ، ويطوّل الشعر ، وهو أمان من الفالج » (٤) .

وأما الزيتون فهي ثمرة الشجرة المباركة المذكورة في القرآن ، هو أيضا غذاء ودواء وفاكهة ، ودهنه كثير المنافع مع حصوله في بقاع لا دهن فيها كالجبال ، قيل : تعمّر شجرته ثلاثة آلاف سنة ، وتصبر عن الماء مدّة طويلة ، ورماد ورقها ينفع العين كحلا ويقوم مقام التوتيا (٥) . وفي الحديث العامي : « عليكم بالزيت ، فإنّه يكشف المرّة ، ويذهب البلغم ، ويشدّ العصب ،

ويمنع

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ٨ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ٨ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٨ ، والنقرس : مرض مؤلم يحدث في مفاصل القدم وفي إصبعها أكثر ، ويسمّى داء الملوك .

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ٨ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٦٦ ، والتوتياء : حجر يكتحل بمسحوقه .

الغشي ، ويحسن الخلق ، ويطيب النفس ، ويذهب الهمم »^(١) .

وعن ابن عباس : أنَّ التين والزيتون جبلان من الأرض المقدسة يقال لهما بالسريانية : طور تينا وطور زيتا لأتتهما منبتا للتين والزيتون ، وشرفاً لأنَّ الأول محلَّ عيسى بن مريم ، والثاني هو الشام ، وهو مبعث أكثر الأنبياء من بني إسرائيل^(٢) .

وقيل : إنَّ التين مسجد دمشق ، والزيتون مسجد بيت المقدس^(٣) .

وقيل : إنَّ الأول مسجد أصحاب الكهف ، والثاني مسجد إيليا^(٤) .

وعن ابن عباس : التين مسجد نوح النبي على الجودي ، والزيتون مسجد بيت المقدس^(٥) ، وإنَّما سميت تلك المساجد بمهذين الاسمين لكثرة الشجرين في مكانها^(٦) .

وقيل : إنَّ التين اسم دمشق^(٧) . وقيل : اسم الكوفة ، والزيتون اسم بيت المقدس^(٨) . وقيل : اسم الشام^(٩) .

قيل : إنَّما أقسم سبحانه بمهذين البلدين لكثرة نعم الدنيا فيهما^(١٠) .

﴿وَطُورِ سَيْنِينَ* وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٢) وَ (٣)﴾

ثم أقسم سبحانه بالطَّور ، وهو جبل كلَّم الله موسى عليه بقوله : ﴿وَطُورِ سَيْنِينَ﴾ قيل : إنَّ ﴿سَيْنِينَ﴾ و﴿سَيْنَاءَ﴾ اسمان للوادي الذي فيه ذلك الجبل^(١١) .

وعن ابن عباس : أنَّ ﴿سَيْنِينَ﴾ بمعنى الحسن بلغة الحبشة^(١٢) . وقيل : بمعنى المبارك^(١٣) . وقيل : بمعنى ذي شجر ، والمراد القسم بجبل واقع بأرض حسنة ومباركة^(١٤) .

ثم إنَّه تعالى بعد القسم بالأماكن التي يعظمها اليهود والنصارى أقسم بالمكان الذي يعظمه المشركون والمسلمون بقوله : ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ وتلك القرية الآمنة من الغوائل ، وهي بالاتفاق مكَّة المعظمة ، وإنَّما أقسم سبحانه بمهذين المكانين لغاية شرفهما ، بكون الأول مبعث موسى ، والثاني مبعث خاتم الأنبياء ، ولكثرة النعم الدينية فيهما.

عن الكاظم عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ : إنَّ الله تبارك وتعالى اختار من البلدان أربعة ، فقال : ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ* وَطُورِ سَيْنِينَ* وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ فالتين المدينة ، والزيتون بيت المقدس ،

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٦٧ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ٩ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٩ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٧٤ .

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ٩ .

(٥) تفسير الرازي ٣٢ : ١٠ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٧٤ .

(٦ - ٨) تفسير الرازي ٣٢ : ١٠ .

(٩) تفسير الرازي ٣٢ : ١٠ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٦٧ .

(١٠) تفسير الرازي ٣٢ : ١٠ .

(١١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٠ .

وطور سنين الكوفة ، وهذا البلد الأمين مكة » ^(١) .

وعنه عليه السلام في تأويل الكلمات قال : « التين والزيتون الحسن والحسين عليهما السلام ، وطور سينين أمير المؤمنين عليه السلام ، وهذا البلد الأمين محمد » ^(٢) .

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٤) و (٥)﴾

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه بقوله : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا﴾ وأوجدنا ﴿الْإِنْسَانَ﴾ كائنا ﴿فِي أَحْسَنِ﴾ ما يكون من ﴿تَقْوِيمٍ﴾ وتعديل صورة ^(٣) ومعنى ، حيث سواه مستوي القامة ، متناسب الأعضاء ، حسن الشكل ، مدبراً في الأمور ، متصرفاً في الموجودات ، جامعاً لانموذج ما في عالم الوجود ، قابلاً ^(٤) للكمالات الظاهرية والباطنية ﴿ثُمَّ﴾ بعد استجماعه لجميع ما يتوقف عليه صعوده إلى أعلى عليين ﴿رَدَدْنَاهُ﴾ بالخذلان وسوء الأخلاق والأعمال من أحسن تقويم وجعلناه ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ وأقبح ^(٥) المخلوقين وأنزل الموجودين ، وصيرناه إلى النار.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : « وضع أبواب جهنم بعضها أسفل من بعض ، فيبدأ بالأسفل فيملا وهو أسفل سافلين » ^(٦) .

وعن ابن عباس : يريد أرذل العمر ^(٧) ، والمعنى ثم جعلناه أضعف الضعفاء ، وهم الزمى الذين لا يستطيعون حيلة ولا يجدون سبيلاً.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ

بِالَّذِينَ (٦) و (٧)﴾

ثم أعلم أنه على التفسير الأول يصح الاستثناء المتصل بقوله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرٌ﴾ وثواب ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ومنقطع ولا منقوص ، أو المراد ثواب لا مئة فيه. وعلى التفسير الثاني يكون الاستثناء منقطعاً ، والمعنى : ولكن الضعفاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر دائم على إيمانهم وأعمالهم وصبرهم على الابتلاء بالضعف والهرم على مقاساة المشاق وتحمل كلفة العبادة.

وعن الكاظم عليه السلام في تأويل الآيات قال : « الانسان : الأول ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ببغضه

أمير

(١) الخصال : ٢٢٥ / ٥٨ ، معاني الأخبار : ٣٦٤ / ١ ، تفسير الصافي : ٥ : ٣٤٦ .

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ٣ : ٣٩٤ ، تفسير الصافي : ٥ : ٣٤٦ .

(٣) في النسخة : صورتنا .

(٤) في النسخة : قاتلاً .

(٥) في النسخة : وافتح .

(٦ و ٧) تفسير الرازي ٣٢ : ١١ .

المؤمنين ﷺ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ الى آخره ، قال : علي بن أبي طالب ﷺ « (١) .
﴿فَمَا يَكْذِبُكَ﴾ أيها الانسان ، وأي شيء يلجئك ويحملك ﴿بَعْدُ﴾ ووراء الآيات البينات والمعجزات الباهرات على التكذيب ﴿بِالَّذِينَ﴾ ودار الجزاء ؟ أو المراد : فما يجعلك أيها الانسان كاذبا بسبب الدين وإنكاره بعد هذا الدليل ؟ وهو خلق الانسان من نطفة من ماء مهين في أحسن تقويم ، فإنّ القادر على ذلك قادر على البعث والجزاء ، أو المراد : فأَيّ ، يكذبك يا محمد بعد ظهور هذه الدلائل بالدين.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨)﴾

ثم إنّ تعالى بعد إثبات قدرته ببيان خلقه الانسان في احسن الصور وردّه إلى أقبحها ، أو إلى أرذل العمر ، أنكر على من أنكر حكمته بإنكار البعث للجزاء بقوله : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ﴾ الذي فعل ما فعل ﴿بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ وأتقن من جميع المتقنين للامور صنعا وتدييرا ؟ فاذا قالوا : بلى ، لعدم إمكان إنكاره ، كان عليهم الاقرار بالإعادة والجزاء ؛ لأنّ إنكارهما لا يمكن إلّا لقولهم بعجزه عن الإعادة ، أو لقولهم بكونه عابثا ، وكلاهما مناف للقرار بكونه تامّ القدرة (٢) والحكمة.
وقيل : إنّ المعنى : أليس الله بأقضى القاضين ؟ فهو يحكم ويقضي بينك وبين من يكذبك في الرسالة والإخبار بالبعث ، فهو وعيد للمكذّبين (٣) .

روي عن أنّ النبي ﷺ كان إذا قرأها يقول : « بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين » (٤) .
روي أنّه ﷺ كان يأمر أصحابه أن يقولوا إذا قرأوها ذلك (٥) .
وروي عن أمير المؤمنين وعن الرضا ﷺ أنّهما لما قرأها قالوا : « بلى ، وإنا على ذلك من الشاهدين » (٦) .

روى عن بعض العامة : أنّ من قرأ هذه السورة أعطاه الله خصلتين : العافية ، واليقين ، مادام في الدنيا [فاذا مات أعطاه الله] من الأجر (٧) بعدد من قرأها (٨) .
وعن الصادق ﷺ : « من قرأ (والتين) في فرائضه ونوافله ، أعطى من الجنة حيث يرضى » (٩) .
الحمد لله على التوفيق لتفسيرها.

(١) مناقب ابن شهر آشوب ٣ : ٣٩٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٧ .

(٢) في النسخة : القدر .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٧٠ .

(٤) مجمع البيان ١٠ : ٧٧٧ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٧٦ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٧٠ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٧٠ .

(٦) الخصال : ٦٢٩ ، عيون أخبار الرضا ﷺ ٢ : ١٨٣ / ٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٧ .

(٧) في النسخة : ويعطى من الأجرة .

(٨) تفسير البيضاوي ٢ : ٦٠٨ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٧٦ .

(٩) ثواب الأعمال : ١٢٣ ، مجمع البيان ١٠ : ٧٧٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٧ .

في تفسير سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (١) وَ (٢)﴾

ثم لما ختمت السورة المباركة المتضمنة لبيان نعم الله على الانسان بخلقه في أحسن تقويم وأنه مع ذلك يردّ إلى أسفل سافلين ، نظمت سورة العلق المتضمنة لبيان خلقه من أحسن الأشياء ، وترقيته إلى أعلى الدرجات من العلم بالكتاب وتعليمه العلوم ، وطغيانه مع ذلك على الله العظيم ، فافتتحها بذكر الاسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ولما ذكر سبحانه في السورتين السابقتين منته على رسوله ، ابتداء السورة بذكر أعلى منته عليه ، وهو رسالته وإنزال الوحي إليه بقوله : ﴿أَقْرَأْ﴾ يا محمد ، ما يوحى إليك من كتاب ربك ، روي أنه ﷺ قال : « كيف اقرأ ، وما أنا بقارئ ؟ » فكأنه تعالى قال : اقرأ القرآن مفتتحا أو مستعينا ^(١) ﴿بِسْمِ رَبِّكَ﴾ وإنما وصف سبحانه ذاته المقدسة بالربوبية وأضافها إليه ليزول الفزع عنه ؛ لأنه أول ما أنزل إليه. عن الباقر عليه السلام قال : « إنها أول سورة نزلت » ^(٢) .

وليرغبه في طاعته ، فكأنه تعالى قال : هو الذي ربك حين كنت علقا ، فكيف يضيّعك بعد ما صرت أشرف الموجودات.

ثم قيل : لما كانت العرب يطلقون الرب على الصنم ، ويسمّون الأصنام أربابا ^(٣) ، وصف ذاته المقدسة بما يخرجهم عن توهم الشركة ، وبما لا يمكنهم إنكاره وإثباته للأصنام بقوله : ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ كل شيء بقدرته ، لاعترافهم بأن الخلق مختص بالله وحده. وعن الباقر عليه السلام : « الذي خلق نورك القدم قبل الأشياء » ^(٤) .

ثم خصّ سبحانه الانسان بالذكر لاستقلاله ببديع الصنع والتدبير ، أو بين ما أهم في قوله :

﴿الَّذِي

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٣ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٤٢٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٨ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٧٢ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٤٣٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٨ .

﴿خَلَقَ﴾ بقوله : **﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾** الذي هو أعجب المخلوقات وأشرفها **﴿مَنْ عَلَّقَ﴾** وقطعات دم متكوّنة من نطف قدرة ، وإمّا قال : **﴿عَلَّقَ﴾** بصيغة الجمع باعتبار معنى الانسان وكثرته ، أو لمراعاة الفواصل ، فنّبه سبحانه على أنّ من خلق الانسان الحي القادر القابل للكمالات العلمية والعملية من مادة خسيصة بعيدة من الحياة ، قادر على أن يعلّمك القراءة وأنت حيّ متكلّم قابل للعلوم.

﴿اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلَّا إِنَّ

الْإِنْسَانَ لَيْطَغَى * أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى (٣) و (٧)﴾

ثمّ أكّد سبحانه وجوب القراءة بقوله ثانيا : **﴿اِقْرَأْ﴾** وقيل : إنّ الأول أمر بقراءته لنفسه ، والثاني أمر بقراءته للتبليغ والتعليم ^(١) .

ثمّ استأنف سبحانه ذكر أوصافه ومننه بقوله : **﴿وَرَبُّكَ﴾** هو **﴿الْأَكْرَمُ﴾** المبالغ في الإحسان والوجود حيث إنّّه يحسن بعبده بعد العصيان والتقصير كما يحسن قبله ، وإنّ كلّ كريم ينال بكرمه خيرا لنفسه ، وربّك لا يكون كرمه إلّا لحض حسنه. وقيل : يعني أنت كريم ، وربّك أكرم منك ^(٢) ، ومن كرمه أنّه **﴿الَّذِي عَلَّمَ﴾** الانسان الكتابة **﴿بِالْقَلَمِ﴾** وفيه تنبيه على فضيلة الكتابة والخطّ. روي عن سليمان عليه السلام أنّه سأل عفريتاً عن الكلام فقال : ربح لا ييقى. قال : فما قيده ؟ قال : الكتابة ^(٣) .

قيل : إنّ القلم لا ينطق ، ومع ذلك يسمع الشرق والغرب ^(٤) ولو لا الخطّ ما استقامت امور الدين والدنيا ^(٥) .

وقيل : إنّ المراد علّم الانسان بسبب الكتابة وقراءة الكتب ، فالقلم كناية عن الكتابة ^(٦) . ثمّ بيّنه بقوله : **﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ﴾** بسبب مطالعة الكتب **﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾** وأمّا على التفسير الأول يكون تعليمه علوما كثيرة نعمة فوق نعمة تعليم الخطّ ، فذكر سبحانه في السورة مبدأ الانسان ومنتهاه ، وامتدّ عليه بنقله من أدنى المراتب وهي المرتبة العلقية الخسيصة النجسة إلى أعلاها ، وهي مرتبة العلم ، وهو أشرف الكمالات الانسانية ، ومن الواضح أنّ ذلك لا يكون إلّا بقدره قادر حكيم ، فيدلّ على ربوبيته وأكرميته واستحقاقه للطاعة والعبودية.

﴿كَلَّا﴾ لا يعلم الانسان أنّ الله هو الذي خلقه من العلقه وعلمه بعد جهله ، ثمّ بيّن سبحانه علّة غفلته بقوله : **﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَى﴾** ويتكبر ويصير مستغرق القلب في حبّ الدنيا لأجل **﴿أَنْ رَأَاهُ﴾** وعلم

(٢١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٦ .

(٤٣) تفسير الرازي ٣٢ : ١٧ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٧٣ .

(٦) تفسير الرازي ٣٢ : ١٧ .

شخصه أنه ﴿استغنى﴾ وصار ذا مال وجاه وقدرة فلا يتفكر في أطوار خلقته وترقيته من أحسن الأحوال إلى أعلاها ، وأتته من أول وجوده تحت قدرة قادر قاهر حكيم .

وقيل : إن كلمه ﴿كَلَّا﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله بطغيانه ^(١) .

روي أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ : أتزعم أن من استغنى طغى ، فاجعل لنا جبال مكة فضة وذهبا ، لعلنا نأخذ منها فنطغى ، فندع ديننا ونسبع دينك . فنزل جبرئيل فقال : إن شئت فعلنا ذلك ، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة ، فكف رسول الله ﷺ عن الدعاء إبقاء عليهم ورحمة لهم ^(٢) .

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (٨) وَ (١٠)﴾

ثم هدّد سبحانه الانسان الطاغى عليه بقوله : ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ومالك أمرك وحده أيها الانسان ﴿الرُّجْعَى﴾ والمصير بالموت ، أو بالبعث ، فترى سوء عاقبة طغيانك .

وقيل : إنّ المعنى أنّ مرجع الانسان إلى الله ، فكما أنّه ردّه من النقصان إلى الكمال ، يرده ويرجعه إلى النقصان والفقر والموت ^(٣) .

ثم بيّن سبحانه غاية طغيان الانسان مظهرًا للتعجب منه بقوله : ﴿أَرَأَيْتَ﴾ وهل عاينت يا محمد ، أو أيها الرائي ، الطاغى ﴿الَّذِي﴾ بلغ بطغيانه إلى أنّه ﴿يَنْهَى﴾ ويمنع عن الصلاة والقيام بوظيفة العبودية لربّ الأرباب ﴿عَبْدًا﴾ محضًا في العبودية له ﴿إِذَا صَلَّى﴾ وقام بخدمة مولاه ؟

روي أن أبا جهل قال في ملأ من طغاة قريش : هل يعقر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم . قال : فو الذي خلف به لئن رأيته يصلي لأطعن عنقه ، ثم إنّه رأى رسول الله ﷺ في الصلاة - قيل : هي صلاه الظهر - فجاءه ^(٤) ، وقيل : همّ أن يلقي على رأسه حجرا فنكص على عقبيه ، فقالوا : مالك ؟ فقال : إنّ بيني وبينه لخندقا من نار وهولا شديدا أجنحة ^(٥) . وقال نبي الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لو دنا منّي لاختطفته الملائكة عضوا عضوا » فنزلت ^(٦) .

قال الفخر الرازي في وجه إظهار الله تعالى العجب من طغيان أبي جهل ومنعه الرسول ﷺ عن

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٧٤ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ٢٠ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٧٨ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٧٤ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٢٠ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٧٥ .

(٥) في النسخة : واضحة ، والمراد أجنحة الملائكة ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٧٥ .

(٦) مجمع البيان ١٠ : ٢٨٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٩ ، تفسير الرازي ٣٢ : ٢٠ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٧٥ .

الصلاة : إنه يروى أنّ يهوديا من فصحاء اليهود جاء إلى عمر في أيام خلافته ، فقال : أخبرني عن أخلاق رسولكم. فقال عمر : اطلبه من بلال ، فهو أعلم به مني. ثمّ إنّ بلالا دلّه على فاطمة ، ثمّ فاطمة دلّته على عليّ عليه السلام ، فلمّا سأل عليا عنه قال : « صف لي متاع الدنيا حتى أصف لك أخلاقه » فقال الرجل : هذا لا يتيسّر لي. فقال علي عليه السلام : « عجزت عن وصف متاع الدنيا ، وقد شهد الله على قلّته حيث قال : ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ ^(١) فكيف أصف أخلاق النبي صلى الله عليه وآله وقد شهد الله تعالى بأنّه عظيم حيث قال : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ^(٢) . فكأنّه قال : ينهى أشدّ الخلق عبودية عن العبودية ، وذلك عين الجهل والحمق ^(٣) .

وقيل : إنّ امية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة ^(٤) .

وعن القمي : كان الوليد بن المغيرة ينهى الناس عن الصلاة وأن يطاع الله ورسوله ^(٥) .

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى *

أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى * كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١١) وَ (١٥)﴾

ثمّ بيّن سبحانه غاية سفاهة هذا الطاغوي بقوله : ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يا محمد ﴿إِنْ كَانَ﴾ هذا الطاغوي ثابتا ﴿عَلَى الْهُدَى﴾ ودين الحقّ ، كما أنت عليه ﴿أَوْ أَمَرَ﴾ الناس ﴿بِالتَّقْوَى﴾ والاحتراز عن الشرك كما تأمر ، أما كان خيرا له من الكفر بالله والنهي عن طاعته.

وقيل : إنّ الخطاب مع الكافر ، فإنّه تعالى بعد خطاب النبي صلى الله عليه وآله بقوله : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُنْهَى﴾ التفت إلى الكافر ، وقال : أ رأيت يا كافر إن كان النبيّ في صلاته على الهدى ، ودعاه إلى الله أو أمر بالتقوى ، أأنتهاه مع ذلك ؟ فجعل سبحانه نفسه كالحاكم الذي حضر عنده المدّعي والمدّعى عليه ، فخاطب هذا مرّة وهذا أخرى ^(٦) .

ثمّ خاطب نبيه صلى الله عليه وآله بقوله : ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يا محمد ، وأخبرني ﴿إِنْ﴾ كان الكافر ﴿كَذَّبَ﴾ الدلائل التي ذكرنا مع كونها ظاهرة جلية عند كلّ عاقل ﴿وَتَوَلَّى﴾ وأعرض عن الصلاة التي هي أهمّ خدمات مولاه ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ﴾ بعقله ﴿بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ منه هذه القبائح ويجازيه عليها في الآخرة فيزجره علمه ذلك عن ارتكابها ؟

وقيل : إنه خطاب مع الكافر ، والمراد : أ رأيت أيّها الكافر إن كان محمد كذب بآيات الله وتولّى

عن

(١) النساء : ٤ / ٧٧.

(٢) القلم : ٦٨ / ٤.

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٢١.

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ٢٠ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٨٠ ..

(٥) تفسير القمي ٢ : ٤٣٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٤٩.

(٦) تفسير الرازي ٣٢ : ٢١.

خدمة مولاه ، ألم يعلم بأن الله يراه ويعاقبه عليه حتى ينتهي بعلمه ذلك ^(١) .
ثم ذم سبحانه الكافر بقوله : ﴿ كَذَّابٌ ﴾ لا يعلم بأن الله يرى وو الله ﴿ لَنْ لَمْ يَنْتَه ﴾ ولم يرتدع عما
هو فيه من الطغيان ﴿ لَنْتَفَعَا ﴾ ولناخذن البتة يوم القيامة ﴿ بِالنَّاصِيَةِ ﴾ وشعر مقدّم رأس هذا الكافر
الطاغي بشدة ونسحبناه بها إلى النار .

﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ (١٦) و (١٨)

ثم بالغ سبحانه في ذمه بالكذب في إنكار الآيات والرسالة والبعث ، وخطئه في إيذاء الرسول
ﷺ بتوصيف ناصيته بالكذب والخطأ ، بقوله : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ فإنّ اللعين بإصراره على الكذب
والخطأ صار بحيث يظهر الكذب والخطأ من ناصيته وشعر مقدّم رأسه ، وفي الجرّ بالناصية غاية الإذلال
والإهانة .

قيل : إنّ المراد من قبض ناصيته قبضها في الدنيا إن عاد إلى النهي عن الصلاة ، فعاد إلى
النهي ^(٢) .

روي أنّه لعنه الله مرّ برسول الله ﷺ وهو يصلي فقال : ألم أنحك ، فأغلظ رسول الله ﷺ في
جوابه ، فقال : أتهدّدي وأنا أكثر أهل الوادي ناديا ؟ ! يريد كثرة من يعينه ، فنزلت ^(٣) ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾
وأهل مجلسه ليعينوه ﴿ سَنَدْعُ ﴾ في مقابل أعوانه ﴿ الزَّبَانِيَةَ ﴾ وملائكة العذاب ، فلمّا عاد إلى النهي مكن
الله المسلمين من ناصيته يوم بدر فجزّوه على وجهه .

روي أنّه لما نزلت سورة الرحمن قال ﷺ : « من يقرأها على رؤساء قريش ؟ » فتناقلوا ، فقام
ابن مسعود رضی الله عنه فقال : أنا يا رسول الله ، فأجلسه ، ثمّ قال ثانيا : « من يقرأها عليهم ؟ » فلم
يقم إلّا ابن مسعود ، ثمّ قال ثالثا فقال ابن مسعود : أنا ، فأذن له ، وكان ﷺ يتقي عليه ، لما كان
يعلم من ضعفه وصغر جسّته ، ثمّ إنّّه وصل إليهم فرأهم مجتمعين حول الكعبة ، فافتتح قراءة السورة ، فقام
أبو جهل فلطمه فشقّ أذنه وأدماها ، فانصرف وعينه تدمع ، فلمّا رآه ﷺ رقّ قلبه وأطرق رأسه مغموما
، فاذا جبرئيل جاء ضاحكا مستبشرا ، فقال : « يا جبرئيل تضحك وببكي ابن مسعود ! » فقال :
سيعلم . فلمّا ظفر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ في الجهاد ، فقال ﷺ له : «
خذ رمحك والتمس في الجرحى من كان له رمق فاقتله ، فإنّك تنال ثواب المجاهدين » فأخذ يطالع القتلى
، فاذا أبو جهل مصروع يخور ، فخاف أن يكون به قوة فيؤذيه ، فوضع الرمح في منحره من بعيد فطعنه .
ولعلّ هذا

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ٢٢ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٧٦ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٢٥ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٨٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٠ .

[معنى] قوله : ﴿سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾^(١) على رواية ابن عباس أنه نزل فيه ، ثم لما عرف عجزه لم يقدر أن يصعد على صدره لضعفه ، فارتقى عليه بحيلة ، فلما رآه أبو جهل قال له : يا رويحي الغنم ، لقد ارتقيت مرتقا صعبا. فقال ابن مسعود : الاسلام يعلو ولا يعلى عليه فقال له أبو جهل : أبلغ صاحبك أنه لم يكن أحد أبغض إليّ منه في حال مماتي.

روي أنه ﷺ لما سمع ذلك قال : فرعوني أشدّ من فرعون موسى ، فأنه قال حين موته ﴿آمَنْتُ﴾^(٢) وهو قد زاد عتوا.

ثم قال اللعين يابن مسعود ، اقطع رأسي بسيفي هذا ، فأنه أحد وأقطع. فلما قطع رأسه لم يقدر على حمله ، فشقّ اذنه ، وجعل الخيط فيها ، وجعل يجزّه إلى رسول الله ﷺ وجبرئيل بين يديه يضحك ، ويقول : يا محمد ، اذن باذن [لكن] الرأس هنا مع الاذن مقطوع^(٣) .

قيل : إن الناصية كناية عن الوجه^(٤) ، ﴿لَتَسْفَعَا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي لنلطمن وجهه^(٥) . وقيل : يعني لنسودن وجهه^(٦) .

﴿كَأَلَّا لَا تُطْفِئُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)﴾

ثم لما قابل سبحانه دعوة الطاعني ناديه بدعوة الزبانية ، ردع نبيه ﷺ عن الخوف من الطاعني بقوله : ﴿كَأَلَّا﴾ لا يجترئ على أن يدعو ناديه ، ولئن دعاهم لن ينفعوه ، فهو أذلّ وأحقر من أن يقاومك ، ولذا ﴿لَا تُطْفِئُهُ﴾ ولا تعتن بنهيه إياك عن الصلاة والسجود لربك ﴿وَاسْجُدْ﴾ وواضب على صلاتك وخضوعك لله ، ولا تكثر بالطاعني وأمثاله ﴿وَاقْتَرِبْ﴾ إلى ربك بالسجود والصلاة له ، وتقرب إليه بعبادته.

في الحديث العامي : « أقرب ما يكون العبد من ربه إذا سجد »^(٧) فأكثروا من الدعاء في السجود.

وعن الرضا عليه السلام : « أقرب ما يكون العبد من الله عز وجل وهو ساجد ، وذلك قوله تعالى : ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ »^(٨) .

وقيل : إنّ خطاب ﴿اسْجُدْ﴾ مع النبي ﷺ ، وخطاب ﴿وَاقْتَرِبْ﴾ مع أبي جهل ، والمعنى : اسجد أيها النبي ، ولا تعتن بنهي من ينهاك ، ليزداد غيظا ، واقترب أيها الكافر وادن منه حتى تبصر ما ينالك من

(١) القلم : ٦٨ / ١٦ .

(٢) يونس : ١٠ / ٩٠ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٢٣ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٧٦ .

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ٢٤ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٧٧ .

(٥) تفسير الرازي ٣٢ : ٢٣ .

(٦) تفسير الرازي ٣٢ : ٢٦ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٨١ .

(٨) الكافي ٣ : ٢٦٤ / ٣ ، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٧ / ١٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٠ .

أخذ الزبانية إِيَّاكَ ^(١) .

عن الصادق عليه السلام : « أَنَّ العزائم أربع : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ والنجم ، وتنزيل السجدة ، و [حم] السجدة » ^(٢) .

عن الصادق عليه السلام : « مَنْ قرأ في يومه أو ليلته ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ثمّ مات شيدا وبعثه الله شهيدا ، وأحياه شهيدا ، وكان كمن ضرب بسيفه في سبيل الله مع رسول الله ﷺ » ^(٣) .

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ٢٦ .

(٢) الخصال : ٢٥٢ / ١٢٤ ، مجمع البيان ١٠ : ٧٨٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٠ .

(٣) ثواب الأعمال : ١٢٤ ، مجمع البيان ١٠ : ٧٧٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٠ .

في تفسير سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (١) وَ (٢)﴾

ثمّ لما ختمت السورة العلق المبدوءة بالأمر بقراءة القرآن العظيم ، نظمت بعدها سورة القدر المبدوءة بتعظيم القرآن الكريم ، وبيان زمان نزوله ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثمّ ابتدأها ببيان عظمة القرآن بقوله : ﴿إِنَّا﴾ أثبتنا القرآن الحكيم في اللوح المحفوظ ثمّ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ منه جملة ودفعة في البيت المعمور الذي هو أشرف بقاع السماوات ، كما في بعض رواياتنا ^(١) ، أو في بيت العزة الذي يكون في السماء الدنيا ، كما في بعض روايات العامة ^(٢) ، وبعض روايات الخاصة ^(٣) ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ . قيل : إنّ الله سبحانه يبيّن أولاً أنّه نزل في شهر رمضان بقوله : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ ^(٤) ولم يبين أنّه نزل في الليل أو النهار . ثمّ بين أنّه نزل بالليل بقوله : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ﴾ ^(٥) ولم يبيّن أيّها أيّ ليل ، ثمّ بيّن في هذه السورة أنّها ليلة القدر ^(٦) .

فلا شبهة أنّها تكون في شهر رمضان ، وإنّما الخلاف في أنّها كانت في ليلة واحدة ، لأنّ فضل نزول القرآن كان في ليلة واحدة ، وجلّ العلماء قائلون بأنّها باقية في كلّ سنة ، ثمّ اختلفوا في أنّها آية ليلة . قيل : إنّ الله تعالى أخفاها ولم يعيّن لها ليرغب المؤمنون في إحياء جميع ليالي رمضان طلباً لدرك ثواب إحيائها ^(٧) ، والمشهور قائلون بتعيينها ، والأكثر على أنّها في أوتار العشر الآخر بقوله ﷺ : «^(٨) التمسوها في العشر الآخر ^(٩) من شهر رمضان ، فاطلبوها في كلّ وتر ^(١٠)» .

وأكثر العامّة على أنّها الليلة السابعة والعشرون ، ونسبوه إلى ابن عباس ^(١١) ، وأسندوه إلى

اعتبارات

(١) الكافي ٢ : ٤٦٠ / ٦ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ٢٩ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٧٩ .

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٧٨٦ .

(٤) البقرة : ٢ / ١٨٥ .

(٥) الدخان : ٤٤ / ٣ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨٠ .

(٧) تفسير الرازي ٣٢ : ٢٩ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨١ .

(٨) في تفسير روح البيان : الاواخر .

(٩) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨١ .

(١٠) تفسير الرازي ٣٢ : ٣٠ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨١ .

لا اعتبار بها.

وقال بعضهم : إنّها آخر ليلة من الشهر ، لقوله ﷺ : « إنّ الله تعالى في كلّ ليلة من شهر رمضان عند الإفطار يعتق ألف ألف عتيق من النار كلّهم استوجبوا العذاب ، فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان أعتق الله في تلك الليلة بعدد من أعتق من أول الشهر إلى آخره » ^(١) .

وعن بعض الصحابة : أنّها الليلة التاسعة والعشرون ^(٢) ، ورووا عن أبي ذرّ : أنّها الخامسة والعشرون ^(٣) ، وعن ابن مسعود : أنّها الرابعة والعشرون ^(٤) ، وعن ابن عباس : أنّه الثالثة والعشرون ^(٥) ، وعن محمد بن إسحاق : أنّها الحادية والعشرون ^(٦) ، وعن أنس : أنّها التاسعة عشرة ^(٧) ، وعن الحسن البصري : أنّها السابعة عشرة ^(٨) ، وعن ابن رزين أنّها الليلة الأولى منه ^(٩) .

وعن (الكافي) عن الباقر عليه السلام أنّه سئل عن قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ ^(١٠) قال : « نعم ، ليلة القدر ، وهي في كلّ سنة في شهر رمضان في العشر الأواخر » ^(١١) .

وعنه عليه السلام أنّه سئل عن ليلة القدر قال : « التمسها ليلة إحدى وعشرين ، أو ليلة ثلاث وعشرين » ^(١٢) .

وفي رواية « ليلة تسع وعشرة ، وإحدى وعشرين ، وثلاث وعشرين » ^(١٣) .

قيل : فان أخذت إنسانا الفترة أو علّة ، ما المعتمد عليه من ذلك ؟ فقال : « ثلاث وعشرون » ^(١٤) .

أقول : يريد رواية الجهني المعروفة ^(١٥) وإنّما سميت تلك الليلة ليلة القدر ، لتقدير امور السنة فيها ، كما قال سبحانه : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ ^(١٦) .

وعن ابن عباس : أنّ الله قدّر فيها كلّما يكون في تلك السنة من مطر ورزق وإحياء وإمانة وغيرها إلى مثل هذه الليلة من السنة الآتية ^(١٧) ، فيسلّمه إلى مدبّرات الامور من الملائكة.

وفي (المعاني) عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يا علي ، أتدري ما معنى ليلة القدر ؟ قلت : لا ، يا رسول الله . قال : إنّ الله قدّر فيها ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فكان فيما قدّر ولايتك وولاية الأئمة من ولدك إلى يوم القيامة » ^(١٨) .

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨١ .

(٢و٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٢٩ .

(٤ - ٩) تفسير الرازي ٣٢ : ٢٩ .

(١٠) الدخان : ٤٤ / ٣ .

(١١) الكافي ٤ : ١٥٧ / ٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٢ .

(١٢) الكافي ٤ : ١٥٦ / ١ ، وتفسير الصافي ٥ : ٣٥٢ ، عن الصادق عليه السلام .

(١٣) الكافي ٤ : ١٥٨ / ٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٢ .

(١٤) من لا يحضره الفقيه ٢ : ١٠٣ / ٤٦٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٢ .

(١٥) الكافي ٤ : ١٥٦ / ٢ ، من لا يحضره الفقيه ٢ : ١٠٣ / ٤٦١ .

(١٦) الدخان : ٤٤ / ٤ .

(١٧) تفسير الرازي ٣٢ : ٢٨ .

(١٨) معاني الأخبار : ٣١٥ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥١ .

أقول : ظاهر الرواية وقوع جميع التقديرات الكائنة في العالم إلى يوم القيامة في أول ليلة من ليالي القدر ، وهذا غير المعني المروي عن ابن عباس ، ولا منافاة بينهما .
وقيل : إنّ القدر هنا بمعنى الشرف ، ومعنى ليلة القدر أنّها ليلة يحصل لمن أحيائها وقصد فيها الشرف والمنزلة عند الله ^(١) .

وقيل : لأنّه نزل فيها كتاب ذو قدر ، على لسان ملك ذي قدر ، لأنّه لها قدر ^(٢) .
وعن الخليل : القدر هنا بمعنى الضيق ، وإنّما سمّيت الليلة ليلة القدر لأنّ الأرض تضيق فيها بالملائكة ^(٣) .

وأما دلالة الآية على عظمة القرآن ، فلاسناد إنزاله إلى ذاته المعبر عنها بنون العظمة المستلزم لعظمة ما أنزله ، ولارجاع الضمير إليه من غير سبق ذكره الدالّ على غاية اشتهاره وتميّزه من الكتب المنزلة ، ولتعظيم وقت نزوله وهو ليلة القدر بقوله : ﴿وَمَا أَذْرَاكَ﴾ وأي شيء أعلمك يا محمد ﴿مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ في علوّ القدر والشرف ، فإنّ العلم بها خارج عن طرق البشر إلّا بالوحي من الله العالم بكنه الأشياء وحقائقها .

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (٣)

ثمّ بيّن سبحانه فضيلة العبادة فيها بقوله : ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ والعبادة فيها ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل ﴿مِنْ﴾ العبادة في ﴿أَلْفِ شَهْرٍ﴾ ليس فيها ليلة القدر في الحديث العامي : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر » ^(٤) .

قيل : إنّ لفظ ألف كناية عن الكثير ، ولم يرد حقيقتها ^(٥) .
وقيل : إنّ في الامم السابقة لا يقال لرجل : إنّه عابد ، حتّى يعبد الله ألف شهر ، فأعطى الله هذه الامة ليلة من أحيائها من المؤمنين كان أعبد من أولئك العباد ^(٦) .
وقيل كان ملك سليمان خمسمائة شهر ، وملك ذي القرنين خمسمائة شهر ، فجعل الله العمل في هذه الليلة خير من ملكهما ^(٧) .

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ٢٨ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨٢ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ٢٨ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨٢ .

(٣) تفسير الرازي ٢ : ٢٨ ، ولم ينسبه إلى أحد ، تفسير الرازي ١٠ : ٤٨٢ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨٠ .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨٣ .

(٦) تفسير أبي السعود ٩ : ١٨٢ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨٣ .

(٧) تفسير أبي السعود ٩ : ١٨٣ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨٣ .

وقيل : إنّ النبي ﷺ رأى أعمال الامم فاستقصر أعمار امته ، فخاف أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر ، وجعلها خيرا من ألف شهر لسائر الامم ^(١) .
وروي أنّ النبي ﷺ ذكر رجلا من بني إسرائيل اسمه شمسون أو شمعون ، لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر ، فتعجب المؤمنون منه ، وتقاصرت إليهم أعمارهم ، فأعطوا ليلة هي خير من مدة جهاد ذلك الرجل ^(٢) .

وعن ابن عباس : أنّه ذكر عند رسول الله ﷺ رجل من بني إسرائيل أنّه حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر ، فعجب من ذلك عجبا شديدا ، وتمتّى أن يكون ذلك في امته ، فقال : « يا ربّ ، جعلت امّي أقصر الامم أعمارا ، وأقلّها أعمالا ، فأعطاه الله ليلة القدر ، وقال : ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ الذي حمل الإسرائيلي السلاح في سبيل الله [لك] ولا تمتك من بعدك إلى يوم القيامة في كلّ رمضان » ^(٣) .

وروي بعض العامة أنّه لما عوتب الحسن بن علي رضي الله عنهما في تسليمه الأمر لمعاوية قال : « إنّ الله أرى نبيه في المنام بني امية ينزون على منبره نزو القردة ، فاجتمعت لذلك ، فأعطاه الله ليلة القدر ، وهي خير له ولدزيته وأهل بيته من ألف شهر ، وهي مدة ملك بني امية ، وأعلمه أنهم يملكون أمر الناس هذا القدر من الزمان » ^(٤) .

وعن القمي ، قال : رأى رسول الله ﷺ في نومه : كأنّ قريدا ^(٥) تصعد منبره ، فغمته ذلك ، فأنزل الله سورة القدر ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ إلى قوله : ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ تملكه بنو امية ليس فيها ليلة القدر ^(٦) .

وفي (الكافي) عن الصادق عليه السلام قال : « اري رسول الله في منامه أنّ بني امية يصعدون منبره من بعده ، ويضللون الناس عن الصراط القهقري ، فأصبح كئيبا حزينا ، فهبط عليه جبرئيل ، فقال : يا رسول الله ، مالي أراك كئيبا حزينا. قال ﷺ : إني رأيت بني امية في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي ، يضلّون الناس عن الصراط القهقري. فقال : والذي بعثك بالحق نبيا ، إنّني ما اطّلت عليه ، فخرج إلى السماء ، فلم يلبث أن نزل عليه بآي من القرآن يؤنسه بما قال : ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ* ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ٣١ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٨٣ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨٣ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ٣٠ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٨٢ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨٣ .

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٧٨٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٢ .

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ٣١ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨٣ .

(٥) في النسخة : قال : قال رسول الله ﷺ كأنّ قريدا.

(٦) تفسير القمي ٢ : ٤٣١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٢ .

كَانُوا يُوعَدُونَ* مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ^(١) وأنزل عليه ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ* لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ جعل الله ليلة القدر لنبيه ﷺ خيرا من ألف شهر ملك بني امية^(٢) .

ذكر اشكال بعض العامة وردّه

ثمّ اعلم أنّه طعن بعض العامة في تلك الروايات بأنّ أيام ملك بني امية كانت مذمومة ، فكيف يبيّن الله تعالى فضل تلك الليلة بكونها خيرا من الشهور المذمومة^(٣) ؟ وردّه بعضهم بأنّ أيام ملكهم كانت أياما عظيمة بحسب السعادات الدنيوية ، فيكون المراد أنّ ليلة القدر بحسب السعادات الدنيوية أفضل من تلك السعادات الدنيوية ، كقوله : ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٤) . الكفار من الأموال والزخارف الدنيوية^(٥) .

والأولى في دفعه أن نقول : إنّ الله صلّى نبيه ﷺ ببشارة نزول غمّه ، فأنّه ﷺ اغتمّ بسلطنة بني امية وإضلالهم الناس عن الصراط ، فسّر الله قلبه الشريف بالبشارة بأفضلية عبادة تلك الليلة لاقتمه من عبادة تلك المدّة ، كما يسأل من تلفت أمواله ببشارته برجوع ولده من سفر خطير سالما غانما.

﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا يَأْذِنُ رَبُّهُمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤)﴾

ثمّ إنّّه تعالى بعد بيان علوّ قدر تلك الليلة ذاتا ، بيّن ما استتبع ذلك الشرف وعلوّ القدر من الفضل بقوله : ﴿تَنْزِيلُ﴾ وتحيط ﴿الْمَلَائِكَةِ﴾ المقرّبون كلّهم فوجا إلى الأرض ، أو إلى السماء الدنيا ، ليروا عبادة أهل الأرض واجتهادهم فيها ، ويسلموا عليهم ويزورهم ويصافحوا معهم. روي عن أمير المؤمنين عليه السلام : « أنّهم ينزلون ليسلموا علينا ، وليشفعوا لنا ، فمن أصابته التسليمه غفر له ذنبه »^(٦) أو ليزيد فضل عباده المؤمنين بحضورهم.

﴿و﴾ ينزل ﴿الرُّوحُ﴾ القدس ، وهو جبرئيل ، وإفراده بالذكر مع كونه من الملائكة لتعظيمه. عن كعب : أنّ في سورة المنتهى ملائكة لا يعلم عددهم إلّا الله تعالى ، يعبدون الله ، ومقام جبرئيل في وسطها ، ليس فيها ملك إلّا وقد اعطى الرّأفة والرحمة للمؤمنين ، ينزلون مع جبرئيل ليلة القدر ، فلا تبقى بقعة من الأرض إلّا وعليها ملك ساجد أو قائم يدعو للمؤمنين والمؤمنات ، أحدا إلّا صافحه ، وعلازمة ذلك من اقشعرّ جلده ورقّ قلبه ودمعت عيناه ، فإنّ ذلك من مصافحة جبرئيل.

(١) الشعراء : ٢٦ / ٢٠٥ - ٢٠٧ .

(٢) الكافي : ٤ / ١٥٩ ، تفسير الصافي : ٥ / ٣٥١ .

(٣) تفسير الرازي : ٣٢ : ٣١ .

(٤) آل عمران : ٣ / ١٥٧ .

(٥) تفسير الرازي : ٣٢ : ٣١ .

(٦) تفسير الرازي : ٣٢ : ٣٣ .

إلى أن قال : وأول من يصعد جبرئيل حتى يصير أمام الشمس ، فيسقط جناحين أخضرين ، لا ينشرهما إلا تلك الساعة من يوم تلك الليلة ، ثم يدعو ملكا ملكا ، فيصعد الكل ، ويجتمع نور الملائكة ونور جناح جبرئيل ، فيقيم جبرئيل ومن معه من الملائكة بين الشمس والسماء الدنيا يومهم ذلك مشغولين بالدعاء والرحمة والاستغفار للمؤمنين ولمن صام شهر رمضان احتسابا ... الخیر (١) .

وقيل : إنّ الروح ملك عظيم لو التقم السماوات والأرضين كان ذلك له لقمة واحدة (٢) .

وقيل : هو ملك رأسه تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة ، وله ألف رأس ، كل رأس أعظم من الدنيا ، وفي كل رأس ألف وجه ، وفي كل وجه ألف فم ، وفي كل فم ألف لسان ، يسبح الله بكل لسان ألف نوع من التسبيح والتحميد والتمجيد ، لكل لسان لغة لا تشبه الاخرى ، فاذا فتح أفواهه بالتسبيح خر كل ملائكة السماوات سجدا مخافة أن يحرقهم نور أفواهه ، وإنما يسبح الله غدوة وعشية ، فينزل تلك الليلة فيستغفر للصائمين والصائمات من أمة محمد ﷺ بتلك الأفواه إلى طلوع الفجر (٣) .

أقول : على تقدير صحة النقل لا بدّ من تأويل نزوله بغير المعنى المتبادر منه .

وعن الباقر عليه السلام : « أنّ الروح أعظم من جبرئيل ، وأنّ جبرئيل من الملائكة ، وأنّ الروح خلق أعظم من الملائكة ، أليس يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ ﴾ » (٤) .

وعلى أي تقدير تنزل جميع الملائكة مع الروح لشرف تلك الليلة ﴿ فيها ﴾ إلى الأرض بعد استئذانهم شوقا إلى لقاء المؤمنين ﴿ يَأْذِنُ رَبُّهُمْ ﴾ في النزول ﴿ مِنْ ﴾ أجل ﴿ كُلِّ أَمْرِ ﴾ قدر في تلك السنة من خير أو شرّ .

عن الصادق عليه السلام : « إذا كان ليلة القدر نزلت الملائكة والروح والكتب إلى السماء الدنيا ، فيكتبون ما يكون من قضاء في تلك السنة » (٥) .

وعن القمي عليه السلام ، قال : تنزل الملائكة والروح القدس على إمام الزمان ، ويدفعون إليه ما كتبوه [من هذه الامور] (٦) .

وعنه ، عن الباقر عليه السلام أنّه سئل : أتعرفون ليلة القدر ؟ فقال : « فكيف لا نعرف والملائكة يطوفون بنا

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ٣٣ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ٣٤ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨٤ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨٤ .

(٤) الكافي ١ : ٣١٧ / ١ ، وتفسير الصافي ٥ : ٣٥٣ ، عن الصادق عليه السلام .

(٥) تفسير القمي ١ : ٣٦٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٣ .

(٦) تفسير القمي ٢ : ٤٣١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٣ .

فيها « (١) .

﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)﴾

ثمَّ بيّن سبحانه الفضيلة الأخرى لتلك الليلة بقوله : ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ من الملائكة للمؤمنين من أولها ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ وظهور الصبح الصادق ، فإن كثرة سلام الملائكة فيها كأنما صير الليل كله سلاما . وفي الحديث العامي : « ينزل جبرئيل ليلة القدر في كبكبة من الملائكة يصلّون ويسلمون على كلّ عبد قائم أو قاعد يذكر الله » (٢) .

وعن السجاد عليه السلام يقول : « يسلم عليك يا محمد ملائكتي وروحي سلامي » (٣) من أول ما يهبطون إلى مطلع الفجر » (٤) .

وعن القمي عليه السلام قال : تحية يحيى بها الإمام إلى أن يطلع الفجر » (٥) .

وقيل : إنّ السلام بمعنى السلامة من جميع الآفات والشّور ومكائد الشيطان ووساوسه (٦) .

في الحديث العامي : « من قرأ سورة القدر اعطي ثواب من صام رمضان وأحيا ليلة القدر » (٧) .

وعن الباقر عليه السلام : « من قرأ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ فجهر بها ، كان كالشاهر سيفه في سبيل الله ، ومن قرأها سرا كان كالمشحط بدمه في سبيل الله تعالى ، ومن قرأها عشر مرات محّا الله عنه ألف ذنب من ذنوبه » (٨) .

الحمد لله الموفق لاتمام تفسيرها.

(١) تفسير القمي ٢ : ٤٣٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٣ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨٥ .

(٣) في الكافي : سلامي .

(٤) الكافي ١ : ١٩٣ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٣ .

(٥) تفسير القمي ٢ : ٤٣١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٣ .

(٦) مجمع البيان ١٠ : ٧٩٠ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨٥ .

(٧) تفسير أبي السعود ٩ : ١٨٣ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨٦ .

(٨) ثواب الأعمال : ١٢٤ ، مجمع البيان ١٠ : ٧٨٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٣ .

في تفسير سورة البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ

الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (١) وَ (٣)﴾

ثم لما ختمت سورة القدر المتضمنة لبيان عظمة القرآن ، نظمت سورة البينة المتضمنة لبيان عظمة الرسول ﷺ وكتابه بتوصيفه بأنه جامع لجميع ما في الكتب السماوية ، فابتدأها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم افتتحها بذكر أهل الكتاب والمشركون بقوله : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله سواء كانوا ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ كاليهود والنصارى ﴿و﴾ من ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ وعبداء الأصنام والأوثان ﴿مُنْفَكِينَ﴾ ومفارقين عما هم عليه من الكفر والعقائد الفاسدة على حسب قولهم ووعدهم ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمْ﴾ من قبل الله الحجة ﴿الْبَيِّنَةُ﴾ والآية الواضحة على بطلان دينهم ، وتلك البينة على ما أخبرت به الكتب السماوية هو ﴿رَسُولٌ﴾ عظيم الشأن ، مبعوث ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿اللَّهِ﴾ في آخر الزمان ، ولما كان جامعاً لمطالب الكتب السماوية ﴿يَتْلُوا﴾ بتلاوته عن ظهر القلب ﴿صُحُفًا﴾ وكتباً سماوية ﴿مُطَهَّرَةً﴾ ومنزهة عن كل باطل ^(١) لا قبيح وشين وذكر بسوء ، أو مطهرة من أن يمسه غير المطهر.

وفي رواية عامية عن الصادق عليه السلام : « أن النبي ﷺ كان يقرأ من الكتاب وإن كان لا يكتب » ^(٢) .

قيل : إن اليهود والنصارى والمشركون كانوا قبل بعثة النبي ﷺ يقولون : لا ننفك عما نحن فيه من ديننا ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود ، والذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل ^(٣) ، فحكى سبحانه ما كانوا يقولونه.

(١) في النسخة : عن كامل وباطل .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ٤٢ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٣٨ .

وقيل : إنّ المراد أنّهم كانوا غير منفكّين عمّا كانوا عليه من الوعد باتّباع الحقّ ، والايّمان بالنبي المبعوث في آخر الزمان ، والعزم على إنجازهِ ، وهذا الوعد من أهل الكتاب ممّا لا ريب فيه حتى أنّهم كانوا يستفتحون ويقولون : اللهم افتح علينا ، وانصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان. ويقولون لأعدائهم من المشركين : قد أظلمَ زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، وأمّا من المشركين فلعلّه قد وقع من متأخريهم بعد ما شاع ذلك من أهل الكتاب واعتقدوا صحّته بما شاهدوا من نصرتهم على أسلافهم ، كما يشهد به أنّه كانوا يسألونهم عن الرسول ، هل هو المذكور في كتبهم ^(١) .

وعليه يكون ﴿تَأْتِيهِمْ﴾ بمعنى (أتتهم) والتعبير بالمضارع باعتبار حال المحكي لا الحكاية ، وإنّما عبّر عن الرسول بالبيّنة للتنبيه على غاية ظهور أمره بسبب المعجزات الكثيرة الباهرة ، وبمجموع الأخلاق الكريمة البالغة حدّ كمال الإعجاز ، فكأنّ صفاته ﷺ بيّنة على رسالته.

وقيل : إنّ المراد بالبيّنة مطلق الرسول ، والمراد حتى تأتيهم رسل من الملائكة تتلو عليهم صحفا مطهرة ، كما قال سبحانه : ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ ^(٢) وفيه : أنّه لا يناسب وصف الصحف بقوله : ﴿فِيهَا كُتُبٌ﴾ ومكتوبات ﴿قِيَمَةٌ﴾ مستقيمة ناطقة بالصواب ، أو مستقلة بالحجّة والدلالة على الحقّ.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ (٤) و (٥)﴾

ثمّ إنّ تعالى بعد حكايته وعد أهل الكتاب والمشركين بإيمانهم بالرسول الموعود واجتماع كلمتهم على الحقّ ، بيّن ازدياد كفرهم بعد وضوح رسالته لهم وافتراق كلمتهم بقوله : ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ عن الحقّ ، وما تباعدوا عن الايمان بالرسول الموعود مع كونهم من أهل العلم والاطلاع بالكتب وبأوصاف الرسول ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ﴾ بسبب انطباق الصفات المذكورة في التوراة والانجيل للنبي الموعود عليه وكثرة معجزاته ﴿الْبَيِّنَةُ﴾ والدلالة الواضحة على أنّ محمداً ﷺ هو النبي الموعود بحيث لم يبق مجال للعاقل المنصف ردّها وجحودها.

وإنّما أفرد سبحانه أهل الكتاب بالذكر بعد الجمع بينهم وبين المشركين في أول السورة للدلالة

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨٦ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ٤١ و ٤٢ ، والآية من سورة النساء : ٤ / ١٥٣ .

على كمال شناعة حالهم ، وأنهم لما تفرقوا مع كونهم من أهل العلم كان غيرهم أولى بذلك ؛ لأنّ جحود العالم أقبح وأشنع من إنكار الجاهل ، وفيه تسلية النبي ﷺ حيث بيّن أنّ تفرقهم ليس لقصور الحجة وخفاء الحق ، بل للعناد والعصبية. ﴿وَوَالْحَالِ أَنَّهُمْ﴾ الحال أنهم ﴿مَا أُمِرُوا﴾ بشيء في كتبهم ﴿إِلَّا لِيُعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ولأجل أن يتدلّلوا له حال كونهم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ﴾ تعالى ﴿الدِّينَ﴾ ومحضين أنفسهم له بالعبودية ، وآتين أعمالهم لصرف الداعية الالهية بحيث لا يكون في أعمالهم شائبة الشرك والرياء والعناد والعصبية والنفسانية.

وقيل : يعني موخّدين له في العبادة ، لا يعبدون معه غيره ^(١) ، وحال كونهم ﴿خَفَاءَ﴾ ومعرضين عن كلّ باطل ، أو متّبعين ملّة إبراهيم الذي تبرأ من نفسه حين سلّمها للنيران ، أو مستقيمين في العقائد والأعمال والأخلاق ، أو مؤمنين بجميع الرسل ، أو حجاجا كما عن ابن عباس ^(٢) .

وقيل : إنّ اللام في قوله ﴿لِيُعْبُدُوا اللَّهَ﴾ بمعنى (أن) والمعنى إلّا أن يعبدوا الله ^(٣) .

وقيل : إنّ المراد وما امروا على لسان محمد ﷺ إلّا أن يوحدوا الله ويعبدوه عبادة خالصة من الشرك ^(٤) ﴿وَوَالْحَالِ أَنَّهُمْ﴾ أن ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ التي هي أهمّ العبادات البدنية ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ التي هي أهمّ العبادات المالية.

﴿وَذَلِكَ﴾ المذكور من الخلوّص في عبادته وأداء الصلاة والزكاة هو ﴿دِينٌ﴾ الملّة ﴿الْقِيَمَةُ﴾ الباقية التي لا تنسخ ، أو المستقيمة التي لا عوج فيها. وقيل : إنّ القيّمة صفة للدين ، والتاء للمبالغة ^(٥) . وقيل : إنّ القيّمة اسم أو صفة للامة ^(٦) ، والمعنى دين الامة القائمة بالقسط. والحاصل أنّ الآية دالّة على أنّ الدين القيم مركّب من الاعتقاد الحقّ والعمل الصالح ، فعلى كلّ عاقل أن يقبله ولا يستنكف منه ^(٧) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ

الْبَرِيَّةِ (٦) و (٧)﴾

ثمّ ذكر سبحانه سوء حال الكفّار الذين لا يقبلون هذا الدين في الآخرة بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ من اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ كعبدة الأصنام والأوثان والكواكب والنيران وغيرهم ، كلّهم يوم القيامة متمكّنون ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبدا

(٢١) تفسير الرازي ٣٢ : ٤٦ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٤٤ .

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ٤٣ .

(٥) تفسير الرازي ٣٢ : ٤٧ ، وفيه : والهاء للمبالغة.

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٨٨ و ٤٨٩ .

(٧) في النسخة : يقبلوه ولا يستنكفوا منه.

لا يرجون الخلاص منها ، لأنَّ ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء من رحمة الله ومن كلِّ خير وسعادة ﴿هُمْ﴾ بالخصوص ﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ وأحبث الخليقة ، فاستحقوا الخلود في النار ، وإن كان بعضهم أحبث من بعض وعذابهم أشدَّ.

ثم مدح سبحانه المؤمنين الصالحين بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والمرضىات عند الله ﴿أُولَئِكَ﴾ المؤمنون الصالحون ﴿هُمْ﴾ بالخصوص ﴿خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ وأفضل الخليقة.

روى الصدوق عن جابر بن عبد الله ، قال : كنّا عند النبي ﷺ فأقبل علي بن أبي طالب فقال النبي ﷺ : « قد أتاكم أخي » ثم التفت إلى الكعبة فضربها بيده ، ثم قال : « والذي نفسي بيده ، إنّ هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة » ثم قال : « إنّ أولكم إيماناً معي ، وأوفاكم بعهد الله ، وأقومكم بأمر الله ، وأعدلكم في الرعية ، وأقسمكم بالسوية ، وأعظمكم عند الله مزية » . قال : فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.

قال : وكان أصحاب محمد ﷺ إذا أقبل علي عليه السلام قالوا : جاء خير البرية ^(١) . وعن النبي ﷺ في هذه الآية أنّه التفت إلى علي عليه السلام وقال : « هم والله أنت وشيعتك يا علي ، وميعادك وميعادهم الحوض غداً غراً محجلين متّوجّين » ^(٢) . وعن الباقر عليه السلام قال : « هم شيعتنا أهل البيت » ^(٣) .

﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (٨)

ثم بيّن حسن حالهم في الآخرة بقوله : ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ المدخر ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ومليكمهم اللطيف بهم في الآخرة على إيمانهم وصالح أعمالهم ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ﴾ وبساتين دائمة ذات أشجار وقصور ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة أو الأربعة المعهودة في القرآن حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ومتنعمين فيها بفنون النعم دائماً لا يخافون الخروج منها وزوال نعمها أو نقصها.

ثم بشّرهم سبحانه بما هو أفضل وأعظم من جميع النعم الجسمانية بقوله : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ فإنّ الرضوان من الله أكبر وأعظم من كلّ نعمة.

(١) أمالي الطوسي : ٢٥١ / ٤٤٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٥ ، ولم نعر عليه في أمالي الصدوق.

(٢) أمالي الطوسي : ٤٠٥ / ٩٠٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٥ ، مجمع البيان ١٠ : ٧٩٥ .

(٣) المحاسن : ١٦٩ / ١٣٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٥ .

عن النبي ﷺ أنه قال : « الخلود في الجنة خير من الجنة ورضى الله خير من الجنة ومن الخلود »^(١) .

قيل : إنّ جنة الجسد هي الجنة الموصوفة ، وجنة الروح هي رضا الرب ، ومبتدأ الانسان عالم الجسد ، ومنتهاه عالم العقل والروح ، فلا جرم ابتداء سبحانه بالجنة ، وجعل المنتهى رضا الله^(٢) .
﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ تعالى بسبب تفضله عليهم بما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ثم بين سبحانه أنّ منشأ كمال الايمان والأعمال الصالحة هي الخشية من الله بقوله ﴿ذَلِكَ﴾ الجزء الجزيل من الجنة الموصوفة والرضوان ، أو الايمان والعمل الصالح اللذين يترتب عليهما الجزء العظيم ﴿لِمَنْ﴾ **خَشِيَ رَبَّهُ** وخاف منه أشدّ الخوف ، وتلك الخشية خاصة بالعلماء بشؤون الله والعرفاء به ، وهي مبدأ جميع الكمالات العلمية والعملية المستتعبة للسعادات الدنيوية والدينية .

عن الصادق عليه السلام أنه قال لرجل من الشيعة : « أنتم أهل الرضا عن الله جل ذكره برضاه عنكم ، والملائكة إخوانكم في الخير ، فاذا اجتهدتم ادعوا ، وإذا غفلتم اجهدوا ، وأنتم خير البرية ، دياركم لكم جنة ، وقبوركم لكم جنة ، للجنة خلقتكم ، وفي الجنة نعيمكم ، وإلى الجنة تصيرون »^(٣) .
وعن الباقر عليه السلام : « من قرأ سورة ﴿لَمْ يَكُنْ﴾ كان بريئاً من الشرك ، وادخل في دين محمد ﷺ ، وبعثه الله مؤمناً ، وحاسبه حساباً يسيراً »^(٤) .

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ٥٥ ، واسقط كلمة : ومن الخلود .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ٥٥ .

(٣) الكافي ٨ : ٣٦٦ / ٥٥٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٥ .

(٤) ثواب الأعمال : ١٢٤ ، مجمع البيان ١٠ : ٧٩١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٦ .

في تفسير سورة الزلزال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا

لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (١) وَ (٤)﴾

ثم لما ختمت سورة البينة بذكر القيامة وبيان أحوال الكفار والمؤمنين فيها ، نظمت بعدها سورة الزلزال المتضمنة لبيان بعض أهوال القيامة وبعث الناس ، فافتتحها سبحانه بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم شرع سبحانه في بيان أهوال القيامة بقوله : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ وحركت ﴿زِلْزَالَهَا﴾ وحركة شديدة متكررة لائقة بها في الحكمة الالهية ، أو الحركة الممكنة المتصورة لها ، أو الموعودة المكتوبة عليها ﴿وَوُجُوهٌ﴾ بتلك الحركة ﴿أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ﴾ من بطنها ﴿أَثْقَالَهَا﴾ وأحمالها من الكنوز والموتى . قيل : بزلزلة النفخة الاولى تخرج دفائنها ، وبزلزلة النفخة الثانية تخرج الأموات ^(١) .

في الخبر العامي : تقيء الأرض أغلاذ كبدها أمثال الاسطوانة من الذهب ، فيجىء القاتل فيقول : في هذا قتلت ، ويجىء القاطع رحمه فيقول : في هذا قطعت رحمي ، ويجىء السارق فيقول : في هذا قطعت يدى ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا ^(٢) . قيل : يمتلئ ظهر الأرض ذهباً ، ولا أحد يلتفت إليه ، كأن الذهب يصيح ويقول : أما كنت تخرب دينك ودينك لأجلي ^(٣) .

﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ﴾ بعد بعثه من القبر وغاية هشته وتعجبه مما رأى من تزلزل الأرض : ﴿مَا لَهَا﴾ وأي حالة عرضها بزلزلتها هذه الزلزلة الشديدة التي تخرج ما في بطنها . قيل : هذا قول الكافر والمؤمن تعجباً مما يرون من العجائب التي لم تسمع بها الآذان ^(٤) .

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ٥٩ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٩٢ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٩٢ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٥٨ .

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ٥٩ .

وقيل : هذا قول الكافر الذي يقول : ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾^(١) وأما المؤمن فأنه يقول : ﴿هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾^(٢) .

﴿يُؤْمِنُ﴾ وحينئذ ﴿تُحَدِّثُ﴾ وتنبئ الأرض للخلق ﴿أَخْبَارَهَا﴾ أو تبث إلى أولياء الله وملائكته شكواها من أعمال الخلق على ظهرها.

عن الباقر عليه السلام : « أنه قرئت هذه السورة عند أمير المؤمنين عليه السلام فقال : أنا الانسان ، وإياي تحدثت »^(٣) .

وفي (العلل) عن تميم بن حاتم^(٤) ، قال : كنا مع علي عليه السلام حيث توجهنا إلى البصرة قال : فبينما [نحن] نزل ، اذ اضطربت الأرض ، فضر بها علي عليه السلام بيده الشريفة ، وقال لها : « مالك ؟ » ثم أقبل علينا بوجهه الكريم [ثم] قال لنا : « اتها لو كانت الزلزلة التي ذكرها الله عز وجل في كتابه العزيز لأجابتني ، ولكنها ليست بتلك »^(٥) .

وفي (العلل) عن فاطمة عليها السلام قالت : « أصاب الناس زلزلة على عهد أبي بكر ، وفرغ الناس إلى أبي بكر وعمر ، فوجدوهما قد خرجا فزعين إلى علي عليه السلام ، فتبعهما الناس إلى أن انتهوا إلى باب علي عليه السلام ، فخرج عليهم عليه السلام غير مكترث لما هم فيه ، فمضى وأتبعه الناس حتى انتهى إلى تلعة فقعد عليها وقعدوا حوله وهم ينظرون إلى حيطان ترتجج جائية وذاهبة . فقال لهم علي عليه السلام : كأنتكم قد هالكم ما ترون ؟ قالوا : وكيف لا يهولنا ولم نر مثلها قط . قال : فحرك شفتيه ، ثم ضرب الأرض بيده الشريفة ثم قال : مالك اسكني ؟ فسكنت بإذن الله ، فتعجبوا من ذلك أكثر من تعجبهم الأول حيث خرج إليهم فقال لهم : إنكم قد عجبتم من صنيعتي^(٦) ؟ قالوا : نعم . قال : أنا الرجل الذي قال الله : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ فانا الانسان الذي يقول لها : مالك ﴿يُؤْمِنُ تَحَدَّثُ أَخْبَارَهَا﴾ إياي تحدثت »^(٧) .

قيل : إن تحديث الأرض إنما هو بلسان الحال ، فإن انتقاض الأرض بسبب الزلزلة تحدث أن الدنيا قد انقضت ، وأن الآخرة قد أقبلت^(٨) .

وقال جل المفسرين : إن الأرض تنطق كما تنطق الجوارح يوم القيامة ، وتشهد لمن أطاع وعلى من

(١) يس : ٣٦ / ٥٢ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ٥٩ ، والآية من سورة الأحزاب : ٣٣ / ٢٢ .

(٣) الخرائج والجرائح ١ : ١٧٧ / ١٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٧ .

(٤) في المصدر : جذم ، راجع قاموس الرجال ٢ : ٤٢٣ .

(٥) علل الشرائع : ٥ / ٥٥٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٧ .

(٦) في المصدر : صنيعة ، وفي تفسير الصافي : صنيعة .

(٧) علل الشرائع : ٨ / ٥٥٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٧ .

(٨) تفسير الرازي ٣٢ : ٥٩ .

عصى على ظهرها ^(١) ، ورووا عن النبي ﷺ : « أَنَّ الْأَرْضَ لَتُخْبِرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِكُلِّ عَمَلٍ عَلَيْهَا » ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ^(٢) .

ورواوا عن علي عليه السلام أَنَّهُ كَانَ إِذَا فَرَّغَ بَيْتَ الْمَالِ صَلَّى فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ، وَيَقُولُ : « لَتَشْهَدَنَّ أَيُّ مَلَأْتُكَ بِحَقٍّ ، وَفَرَّغْتُكَ بِحَقٍّ » ^(٣) .

ورواوا أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ صَعْصَعَةَ كَانَ يَتِيمًا فِي حَجَرٍ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو سَعِيدٍ : يَا بَنِي ، إِذَا كُنْتَ فِي الْبُؤَادِي فَارْفَعْ صَوْتَكَ بِالْأَذَانِ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ : « لَا يَسْمَعُهُ جَنَّ وَلَا إِنْسٌ وَلَا حَجَرٌ وَلَا شَجَرٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ » ^(٤) .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَوْحَىٰ لَهَا * يُؤْمِنُ يَصُدُّ النَّاسَ أَشْتَاتًا لِّيرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٥) وَ (٨)﴾

والحاصل أَنَّ الْأَرْضَ تَبْدُلُ غَيْرَ الْأَرْضِ ، وَتَصِيرُ حَيَّةً عَاقِلَةً نَاطِقَةً ، تَشْهَدُ عَلَى الْإِنْسَانِ وَلَهُ بِمَا عَمَلَ عَلَى ظَهْرِهَا ، كَمَا يَشْهَدُ الْيَوْمُ وَاللَّيْلُ وَالْجَوَارِحُ ، وَذَلِكَ التَّحْدِيثُ وَالشَّهَادَةُ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ وَبَسَبَّ أَنَّ مَلِيكَكَ ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ وَأَمَرَهَا بِمَا إِرْعَابًا لِلْعَصَاةِ وَتَبْشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿يُؤْمِنُ يَصُدُّ النَّاسَ﴾ وَيُحْشِرُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ ، وَيَرْجِعُونَ إِلَى رَبِّهِمْ حَالُ كَوْنِهِمْ ﴿أَشْتَاتًا﴾ وَمُتَفَرِّقِينَ وَمُخْتَلِفِينَ فِي الْأَحْوَالِ بَعْضُهُمْ بِيضُ الْوُجُوهِ ، وَبَعْضُهُمْ سُودُ الْوُجُوهِ ، فَزَعِينَ .

عَنِ الْقَمِيِّ : يَحْيُونَ أَشْتَاتًا مُؤْمِنِينَ وَكَافِرِينَ وَمُنَافِقِينَ ^(٥) . وَقِيلَ : أَشْتَاتًا مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ^(٦) ، ﴿لِّيرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ الَّتِي عَمَلُوهَا فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، كَمَا دَلَّتِ الْأَخْبَارُ عَلَى تَجَسُّمِهَا ، أَوْ الْمَرَادُ لِيَرَوْا جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ أَوْ لِيَرَوْهَا مَكْتُوبَةً فِي صُحُفِهِمْ .

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ﴾ مِنَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وَمَقْدَارُ نَمْلَةٍ ، أَوْ وَزْنُ مَا يَرَى فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ عَمَلًا ﴿خَيْرًا﴾ وَحَسَنًا ﴿يَرَهُ﴾ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وَأَقَلَّ قَلِيلٍ عَمَلًا ﴿شَرًّا﴾ وَسُؤًا ﴿يَرَهُ﴾ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، فِي تَفْسِيرِ الذَّرَّةِ قَالَ : إِذَا وَضَعْتَ رَا حَتَكَ عَلَى الْأَرْضِ ثُمَّ رَفَعْتَهَا ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِمَّا لَزِقَ بِهَا مِنَ التُّرَابِ ذَرَّةٌ ^(٧) .

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ٥٩ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٨٨ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٩٣ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ٥٩ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٨٨ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٦٠ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٩٣ .

(٥) تفسير القمي ٢ : ٤٣٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٨ .

(٦) تفسير الرازي ٣٢ : ٦٠ .

(٧) تفسير الرازي ٣٢ : ٦١ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٩٤ .

وعنه رضى الله عنه : ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيرا أو شرا إلا أراه الله إياه ، أما المؤمن فيغفر له سيئاته ويثيبه بحسناته ، وأما الكافر فيردّ حسناته تحسيرا له ويعذب بسيئاته ^(١) .

وعن الباقر عليه السلام - في هذه الآية - قال : « يقول : إذا كان من أهل النار وقد عمل في الدنيا مثقال ذرة خيرا يره يوم القيامة حسرة ، إنه كان عمله لغير الله ، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ » يقول : إذا كان من أهل الجنة وعمل شرا ، رأى ذلك الشرّ يوم القيامة ثم يغفر له ^(٢) .

وقيل : من يعمل مثقال ذرة من خير وهو كافر فإنه يرى ثواب ذلك في الدنيا حتى يلقي الآخرة ، وليس فيها شيء ، وهو مروى عن ابن عباس ^(٣) .

قيل : نزلت هذه الآية في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل ، فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة ، ويقول : ما هذا بشيء ، وإنما نؤجر على ما نعطي ^(٤) ، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ، ويقول : لا شيء عليّ من هذا ، إنما الوعيد بالنار على الكبائر ، فنزلت هذه الآية ترغيبا في القليل من الخير ، فإنه يوشك أن يكثر ، وتحذيرا من اليسير من الذنب ، فإنه يوشك أن يكبر ^(٥) . قيل : إنها أحكم آية ، وسميت الجامعة ^(٦) .

روى أنّ جدّ الفرزدق بن صعصعة بن ناجية أتى رسول الله ﷺ يستقرئه ، فقرأ هذه الآية ، فقال : حسبي حسبي ، فألقى نفسه على الأرض وبكى ^(٧) .

وروي أنّ رجلا جاء إلى النبي ﷺ ، فقال : علّمني ممّا علّمك الله ، فدفعه إلى رجل يعلمه القرآن ، فعلمه ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ حتى بلغ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ إلى آخره ، فقال : حسبي ، فأخبر بذلك النبي ﷺ فقال : « دعه فقد فقه الرجل » ^(٨) .

وفي الحديث العامي : « إذا زلزلت تعدل ربع القرآن » ^(٩) وفي بعض الأخبار أنّها تعدل نصف القرآن ^(١٠) .

وعن الصادق عليه السلام : « لا تملّوا من قراءة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ فإنّ من كانت قراءته في نوافله لم يصبه الله بزلزلة أبدا ، ولم يمّت بها ، وبصاعقة ، ولا بأفة من آفات الدنيا ، فإذا مات امر به إلى الجنة ، فيقول الله عزّ وجلّ : عبدي أبحتك جنتي ، فاسكن منها حيث شئت وهويت ... » الخبر ^(١١) .

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ٦١ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٨٩ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٩٤ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٤٣٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٨ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٦١ .

(٤) في النسخة : يؤخر على ما يعطي .

(٥) تفسير الرازي ٣٢ : ٦٢ ، وفي النسخة : أن يكثر .

(٦) مجمع البيان ١٠ : ٨٠٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٨ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٤٩٥ .

(٧ - ١٠) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٩٥ .

(١١) ثواب الأعمال : ١٢٤ ، مجمع البيان ١٠ : ٧٩٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٥٩ .

في تفسير سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا

* فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ (١) و (٥)

ثم لما ختمت سورة الزلزال المتضمنة لبعض أهوال القيامة ، وحشر الناس إلى الموقف ، وشهادة الأرض بأعمالهم ، نظمت سورة ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ المتضمنة لبيان بعث الناس من القبور ، وشهادة الانسان على نفسه بالكفران ، وبيان علم الله تعالى بأعمال الناس من خير أو شر ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم ابتدأها بالقسم بخيل الغزاة والمجاهدين في سبيل الله حال عدوها بقوله : ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ من الخيل نحو الأعداء ، وهي تضبح وتنفس من شدة العدو ﴿ضَبْحًا﴾ ونفسا له صوت ، ليس بصهيل وحممة ، يسمع من أفواه الأفراس ^(١) وأجوافها . وقيل : إن العدو لما كان ملازما للضبح ^(٢) ، كأنه أراد بالعاديات الضابحات ، والمعنى ، والضابحات ضبحا شديدا ﴿فَالْمُورِيَاتِ﴾ والمخرجات للنار من الأحجار ﴿قَدْحًا﴾ وضربا بخوافهن وسنابكهن الحجارة ، فإن الإيراء من لوازم العدو الشديد في أرض ذات حجارة . عن ابن عباس : يريد ضرب الخيل بخوافها الجبل ، فأورت منه النار ، مثل الرند إذا قدح ^(٣) . وقيل الإيراء بالقدح وحبك حوافر الخيل كناية عن تهيج الحرب بين أصحاب الخيل وبين عدوهم ^(٤) .

وقيل : أريد من الموريات جماعة الغزاة ^(٥) يورون النار بالليل لحوائجهم وطعامهم . وقيل : الموريات أفكار الرجال توري نار المكر والخديعة ، ونسب ذلك إلى ابن عباس ^(٦) .

(١) في النسخة : الفرس .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٩٦ .

(٣ - ٥) تفسير الرازي ٣٢ : ٦٥ .

(٦) تفسير الرازي ٣٢ : ٦٥ .

وقيل : اريد بالموريات قدحا المنجحات أمرا ، والمراد الذين وجدوا مقصودهم وفازوا بمطلوبهم من الغزو ^(١) .

﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾ على عدوّ حال كون الوقت ﴿صُبْحًا﴾ كما هو المعتاد عند العرب على ما قيل في الغارات يعدون ليلا ليلا يشعر بهم العدو ، ويهجمون عليهم صباحا على حين الغفلة ليروا ما يأتون وما يدرون ^(٢) .

﴿فَأَنْزَلَ﴾ وهيحن ﴿بِهِ﴾ قيل : يعني بالعدوّ ^(٣) . وقيل : يعني في ذلك الوقت ، أو في ذلك المكان ^(٤) ﴿نَقْعًا﴾ وغبارا أو صياحا ^(٥) من النوائح. قيل : إنّه عطف على الفعل الذي دلّ عليه اسم الفاعل ، والمعنى : واللائي عدون فأورين ، وأغرّن وأثرن ^(٦) ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾ وفي ذلك الوقت ، أو بسبب العدو ﴿جَمْعًا﴾ من جموع الأعداء ، ودخلن بينهم ^(٧) .

روى أنّه بعث رسول الله ﷺ إلى الناس من بني كنانة سرّيّة ، واستعمل عليها المنذر بن عمرو الأنصاري ، وكان أحد النّقباء ، فأبطأ عليه خبرها شهرا ، فقال المنافقون : إنهم قتلوا ، فنزلت السورة إخبارا للنبي ﷺ بسلامتها ، والبشارة له بإغارتها على القوم ^(٨) .

وفي (الأماي عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه السورة فقال : وجّه رسول الله ﷺ عمر بن خطاب في سرّيّة فرجع منهزما يخبّئ أصحابه ويخبّئونه ، فلمّا انتهى إلى النبي ﷺ قال لعليّ عليه السلام : أنت صاحب القوم ، فسر أنت ومن تريد من فرسان المهاجرين والأنصار ، فوجّهه رسول الله ﷺ وقال له : اكمن النهار وسر الليل ولا تفارقك العين ، قال : « فانتهى عليّ ، إلى ما أمره رسول الله ﷺ فسار إليهم ، فلمّا كان عند الصبح أغار عليهم ، فأنزل الله على نبيّه : ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ إلى آخرها » ^(٩) .

والقمي عنه : أنّها نزلت في أهل وادي اليباس ... اجتمعوا اثني عشر ألف فارس ، وتعاهدوا وتعاهدوا وتوثقوا [على] أن لا يتخلف رجل عن رجل ، ولا يخذل أحد أحدا ، ولا يفرّ رجل عن صاحبه حتّى يموتوا كلّهم على حلف واحد ، ويقتلوا محمدا ﷺ وعلي بن أبي طالب عليه السلام ، فنزل جبرئيل فأخبره بقصّتهم ، وما تعاهدوا عليه وتوثقوا وأمره أن يبعث أبا بكر إليهم في أربعة آلاف من المهاجرين فصعد رسول الله ﷺ المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : يا معشر المهاجرين والأنصار ، إنّ جبرئيل قد أخبرني أنّ أهل وادي اليباس اثنا عشر ألفا استعدّوا وتعاهدوا وتعاهدوا على

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ٦٥ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٩٦ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٦٦ .

(٤) في النسخة : صبحا .

(٥) تفسير الرازي ٣٢ : ٦٦ ، وفي النسخة : وأغرّن وأثرن .

(٦) في النسخة : يبينهن .

(٧) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٩٧ .

(٨) أمالي الطوسي : ٤٠٧ / ٩١٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٦١ .

أن لا يغدر رجل منهم بصاحبه ، ولا يفتر عنه ، ولا يخذله حتى يقتلوني وأخي علي بن أبي طالب ، وأمرني أن أسير إليهم أبا بكر في أربعة آلاف فارس ، فجدّوا في أمركم ، واستعدوا لعدوكم ، وانحسروا إليهم على اسم الله وبركته يوم الاثنين إن شاء الله.

فأخذ المسلمون عدّتهم وتهيّؤوا ، وأمر رسول الله ﷺ أبا بكر بأمره ، وكان فيما أمره به أنّه إذا رأيهم أن يعرض عليهم الاسلام ، فإنّ تابعوا وإلا واقعههم - أي حاربهم.

فقتل مقاتليهم ، وسبي ذراريهم ، واستباح أموالهم ، وخرب ضياعهم وديارهم. فمضى أبو بكر ومن معه من المهاجرين والأنصار في أحسن عدّة وأحسن هيئة ، يسير سيرا رفيقا حتى انتهوا إلى أهل وادي الياض ، فلمّا بلغ القوم نزولهم عليهم ، ونزل أبو بكر وأصحابه قريبا منهم ، خرج عليهم من أهل وادي الياض مائتا رجل مدجّحين بالسلاح ، فلمّا صادفوه قالوا لهم : من أنتم ، ومن أين أقبلتم ، وأين تريدون ؟ ليخرج إلينا صاحبكم حتى تكلمه.

فخرج إليهم أبو بكر في نفر من أصحابه المسلمين ، فقال لهم : أنا أبو بكر صاحب رسول الله. قالوا : ما أقدمك علينا ؟ قال : أمرني رسول الله أن أعرض عليكم الاسلام ، وأن تدخلوا فيما دخل فيه المسلمون ، ولكم ما لهم ، وعليكم ما عليهم ، وإلا فالحرب بيننا وبينكم. قالوا : أما واللّات والعزّى ، لو لا رحم ماسّة قرابة قريّة لقتلناك وجميع أصحابك قتلة تكون حديثا لمن [يكون] بعدكم ، فارجع أنت ومن معك وارتحوا ^(١) العافية ، فإنّا نريد صاحبكم بعينه وأخاه علي بن أبي طالب.

فقال أبو بكر لأصحابه : يا قوم ، القوم أكثر منكم أضعافا ، وأعدّ منكم ، وقد نأت داركم عن إخوانكم المسلمين ، فارجعوا نعلم رسول الله بحال القوم. فقالوا له جميعا : خالفت يا أبا بكر رسول الله ﷺ وما أمرك به ، فاتّق الله ، وواقع القوم ، ولا تخالف قول رسول الله. فقال : إني أعلم ما لا تعلمون ، والشاهد يرى ما لا يرى الغالب.

فانصرف وانصرف الناس اجمعون ، فأخبر النبي ﷺ بمقالة القوم ، وما ردّه عليهم أبو بكر ، فقال ﷺ : يا أبا بكر ، خالفت أمري ، ولم تفعل ما أمرتك ، فكنت لي والله عاصيا فيما أمرتك.

فقام النبي ﷺ وصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : يا معشر المسلمين ، إني أمرت أبا بكر أن يسير إلى أهل وادي الياض ، وأن يعرض عليهم الإسلام ، ويدعوهم إلى الله ، فان أجابوه وإلا واقعههم ، وإنه سار إليهم وخرج منهم إليه مائتا رجل ، فلمّا سمع كلامهم وما استقبلوه به انتفخ سحره ^(٢)،

(١) في المصدر : وارحوا.

(٢) في المصادر والنسخة وتفسير الصافي : صدره ، وانتفخ سحره : امتأل خوفا وجبن.

ودخله الرعب منهم ، وترك قولي ، ولم يطع أمري ، وإن جبرئيل أمرني عن الله أن أبعث إليهم عمر مكانه في أربعة آلاف فارس ، فسر يا عمر على اسم الله ، ولا تعمل كما عمل أبو بكر أخوك ، فإنه قد عصى الله وعصائي ، وأمره بما أمر به أبا بكر .

فخرج عمر والمهاجرون والأنصار الذين كانوا مع أبي بكر ، يقتصد بهم في مسيرهم حتى شارفوا القوم ، وكانوا قريبا بحيث يراهم ويرونه ، وخرج إليهم مائتا رجل ، وقالوا له ولأصحابه مثل مقاتلتهم لأبي بكر ، فانصرف وانصرف الناس معه [وكاد أن يطير قلبه مما رأى من عدة القوم وجمعهم ، ورجع يهرب منهم .

فنزل جبرئيل عليه السلام فأخبر محمدا ﷺ بما صنع هذا وأنه قد انصرف وانصرف المسلمون معه ، فصعد النبي ﷺ المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وأخبر بما صنع عمر ، وما كان منه ، وأنه قد انصرف وانصرف المسلمون معه مخالفا لأمر عاصيا لقولي ، فقدم عليه فأخبره بمثل ما أخبر به صاحبه ، فقال رسول الله : يا عمر ، عصيت الله في عرشه وعصيتني ، وخالفت قولي ، وعملت برأيك ، ففتح الله رأيك ، وإن جبرئيل أمرني أن أبعث علي بن أبي طالب في هؤلاء المسلمين ، وأخبرني أن الله يفتح عليه وعلى أصحابه .

فدعا عليا ، وأوصاه بما أوصاه به أبا بكر وعمر ، وأصحابه أربعة آلاف ، وأخبره أن الله سيفتح عليه وعلى أصحابه ، فخرج علي عليه السلام ومعه المهاجرون والأنصار ، وسار بهم غير سير أبي بكر وعمر ، وذلك أنه أعنف بهم [في] السير حتى خافوا أن ينقطعوا من التعب وتحفى^(١) دوائهم ، فقال لهم : لا تخافوا فإن رسول الله قد أمرني بأمر وأخبرني أن الله سيفتح علي وعليكم ، وابتشروا فأنكم على خير ، وإلى خير . فطابت نفوسهم وقلوبهم ، وصاروا على ذلك السير والتعب حتى إذا كانوا قريبا منهم حيث يرونهم ويراهم ، أمر أصحابه أن ينزلوا ، وسمع أهل وادي اليباس بمقدم علي بن أبي طالب وأصحابه ، فاخرجوا إليهم منهم مائتي رجل شاكين بالسلاح .

فلما رآهم علي عليه السلام خرج إليهم في نفر من أصحابه ، فقالوا لهم : من أنتم ، ومن أين أقبلتم ، وأين تريدون ؟ قال علي عليه السلام : أنا على بن أبي طالب ، ابن عم رسول الله وأخوه ، ورسوله إليكم ، أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، ولكم إن آمنتم ما للمسلمين ، وعليكم ما على المسلمين من خير وشر . فقالوا له : إيتاك أردنا وأنت طلبتنا ، قد سمعنا مقاتلتك ، فخذ حذرک ، واستعدّ

(١) حفي من كثرة المشي : رقت قدمه أو حافره .

للحرب العوان ^(١) . واعلم أنا قاتلوك وقاتلوا أصحابك ، والموعود فيما بيننا وبينك غدا [ضحوه] ، وقد أعدرنا فيما بيننا وبينك.

فقال علي عليه السلام : ويلكم تهددوني بكثرتكم وجمعكم ، فأنا استعين بالله وبملائكته والمسلمين عليكم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فانصرفوا إلى مراكزهم ، وانصرف علي إلى مركزه. فلما جئته الليل أمر أصحابه أن يحسنوا ^(٢) إلى دوابهم ويقضمو ^(٣) ويسرجوا ، فلما انشقق عمود الصبح صلى بالناس بغلس ، ثم غار عليهم بأصحابه ، ولم يعلموا حتى وطقتهم الخيل ، فما أدرك آخر أصحابه حتى قتل مقاتليهم ، وسبى ذراريهم ، واستباح أموالهم ، وخرب ديارهم ، وأقبل بالأسارى والأموال معه.

فنزّل جبرئيل وأخبر رسول الله ﷺ بما فتح الله على علي عليه السلام وجماعة المسلمين ، فصعد رسول الله المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، أخبر الناس بما فتح الله على المسلمين ، وأعلمهم أنّه لم يصب منهم إلا رجلين ونزل ، فخرج يستقبل عليا عليه السلام في جميع أهل المدينة من المسلمين حتى لقيه على ثلاثة أميال من المدينة ، فلما رآه علي عليه السلام مقبلا نزل عن دابته ، ونزل النبي ﷺ حتى التزمه وقبّل ما بين عينيه ، فنزل جماعة المسلمين إلى حيث نزل رسول الله ﷺ وأقبل بالغنيمة والأسارى وما رزقهم الله من أهل وادي الياثب .

ثم قال الصادق عليه السلام : « ما اغتم المسلمون مثلها قط ، إلا أن يكون من خير ، فأنما مثل خير ، وأنزل الله في ذلك اليوم هذه السورة ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ يعني بالعاديات ، الخيل تعدو بالرجال ، والضبح : ضبحها في أعنتها ولجمها ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ فـالْمُغِيرَاتِ ضَبْحًا﴾ فقد أخبرك أنّها غارت عليهم صبحا ﴿فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا﴾ قال : يعني الخيل يآثرن بالوادي [نقعا] ﴿فَوْسَطْنَنَ بِهِ جَمْعًا﴾ ... » الخبر ^(٤) . وروى بعض العامة عن علي عليه السلام وابن مسعود ، أن المراد بالعاديات الإبل ^(٥) .

وروا عن ابن عباس أنّه قال : بينا أنا أجالس في الحجر إذ أتاني رجل فسألني عن ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ ففسرتها بالخيول ، فذهب إلى علي عليه السلام وهو تحت سقاية زمزم ، فسأله وذكر له ما قلت ، فقال : « ادعه لي » فلما وقفت على رأسه قال : تفني الناس بما لا علم لك به ! والله إن كانت لأوّل غزوة في الاسلام بدر ، وما كان معنا إلا فرسان : فرس للزبير ، وفرس للمقداد ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ الإبل من

(١) وهي الحرب التي قوتل فيها مرة بعد أخرى كأنهم جعلوا الأولى بكرا ، والحرب العوان ، هي أشدّ الحروب.

(٢) في النسخة : يجهشوا.

(٣) أقضم القوم : امتاروا شيئا قليلا في القحط ، وأقضم الدابة : علفها القضم ، وهو نبت من الحمض.

(٤) تفسير القمي ٢ : ١٣٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٦١.

(٥) تفسير الرازي ٣٢ : ٦٣.

عرفة إلى : مزدلفة ، ومن المزدلفة إلى منى ، يعني إبل الحاج . قال ابن عباس : فرجعت من قولي إلى قول علي عليه السلام (١) .

وعلى هذا ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ يعني أنّ الحوافر ترمي بالحجر من شدة العدو ، فتضرب به حجرا آخر فتتوري النار (٢) ، أو المراد إبراء الحاج النيران لحوائجهم بالمزدلفة (٣) . والمراد بالمغيرات صبحا المسرعات من المزدلفة إلى منى في صباح يوم التّحر (٤) . قالوا : الإغارة جاء بمعنى السرعة في السير ، وأثرن بالعدو نقتل وغبارا . وقيل : النّقع اسم للوادي الذي بين المزدلفة ومنى (٥) .

وقوله : ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ يعني توسط بالعدو المزدلفة ، فإنّ المزدلفة تسمّى جمعا لاجتماع الناس فيها ، والغرض من القسم بإبل الحاج ، أو بخيل الغزاة في سبيل الله ، إظهار شرفها المشعر بغاية كرامة راعيها وفضلهم ، والترغيب في الجهاد والحج .

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكْ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لَحُبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ *
أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ
يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ (٦) و (١١)

ثمّ ذكر سبحانه المقسم عليه بقوله : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ بالطبع والجلّة الأصيلة ﴿لِرَبِّهِ﴾ المنعم عليه بالتّعم العظام ﴿لَكَنُودٌ﴾ وكفور ، كما عن ابن عباس وجمع من المفسرين (٦) . وعن أبي امامة ، عن النبي ﷺ : « أنّ الكنود الكفور الذي يمنع رفته ، ويأكل وحده ، ويضرب عبده » (٧) وقيل : أصل الكنود مانع الحقّ والخير (٨) . وقيل : إنّ البخل (٩) . وقيل : يعني لؤام لربه يذكر المصيبات ، وينسى النّعم (١٠) . وعلى أيّ تقدير يكون ببخله وعصيانه ومنعه حقوق ربه ونسيانه نعمه شديد الكفران .

﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكْ﴾ المذكور من كفرانه لربه ﴿لَشَهِيدٌ﴾ يشهد بذلك على نفسه ، لظهور آثاره في أخلاقه وأفعاله بحيث لا يمكنه إنكاره ﴿وَإِنَّهُ لَحُبُّ الْخَيْرِ﴾ والاشتياق إلى الأموال الدنيوية ﴿لَشَدِيدٌ﴾ وبالغ غايته ، وإنّما سمى المال خيرا جريا على عادة الناس .

ثمّ ذمّه سبحانه على كفرانه لنعم ربه مع علمه بكفرانه ، وإكثاره في حبّ المال المستلزم للبخل الشديد ، وغفلته عن سوء عاقبته بقوله : ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ هذا الانسان الكفور الطالب لمال الدنيا أنّ الله مجازيه ومعاقبه على سيئاته ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ وأخرج ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾ من الأموات وبعث إلى المحشر

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ٦٣ .

(٢ - ٥) تفسير الرازي ٣٢ : ٦٣ .

(٦) تفسير الرازي ٣٢ : ٦٧ ، عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة .

(٧ - ١٠) تفسير الرازي ٣٢ : ٦٧ .

للمجازاة على أعمالهم في الدنيا ﴿وَحُصِّلَ﴾ واخرج كما يخرج الدّهن من اللّبن ﴿مَا فِي الصُّدُورِ﴾ من ضمائر السوء والنيّات الرديّة الفاسدة وكشف عنها ، فضلا عن أعمالهم القبيحة الجليلة ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ﴾ وخالق أرواحهم وأجسادهم وقلوبهم وشرائير وجودهم ﴿بِهِمْ﴾ وبأعمالهم وأحوالهم وأخلاقهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وحين خروجهم من القبور ﴿لِخَيْرٍ﴾ بصير ، فيجازيهم على أعمالهم من النّقيير والقطمير .

وفي الرواية السابقة عن الصادق عليه السلام في قوله : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ قال : « لكفور » . ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ* وَأَنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ قال : « يعنيهما ، قد شهدا [جميعا] وادي اليابس ، وكانا لحب الحياة حريصين » ، ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ إلى آخر السورة قال : « نزلت الآيتان فيهما خاصة ، يضميران ضمير السوء ، ويعملان به ،

فأخبره الله خبرهما وفعالهما » ^(١) .

وعنه عليه السلام : « من قرأ سورة والعاديات ، وأدمن قراءتها ، بعثه الله عزّ وجلّ مع أمير المؤمنين عليه السلام

يوم القيامة ، وكان في رفقائه » ^(٢) .

(١) تفسير القمي ٢ : ٤٣٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٦٥ .

(٢) ثواب الأعمال : ١٢٥ ، مجمع البيان ١٠ : ٨٠١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٦٥ .

في تفسير سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ

الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (١) و (٥)﴾

ثم لما ختمت سورة ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ المتضمنة لبيان خروج الناس من القبور ، نظمت سورة القارعة المنبئة بكيفية البعث والمخيرة بحساب الأعمال وحسن حال المؤمنين ، فافتتحها بذكر الاسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم شرع فيها ببيان بعض أهوال القيامة بقوله : ﴿الْقَارِعَةُ﴾ والحادثة العظيمة التي تفرع القلوب والأسماع.

ثم بالغ سبحانه في تحويلها بقوله : ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ وأي يوم عجيب هي في الفحامة والفضاعة والشدّة ، وكرّر سبحانه ذكر القارعة لازدياد التهويل والتأكيد.

ثم لما استفهم عن شئونها تعجيباً له ، بيّن أنّ شأنها وعظم خطرها ممّا لا تناله البشر إلّا بالوحي السماوي بقوله : ﴿وَمَا أَذْرَاكَ﴾ يا محمد ، وأي شيء أعجب ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ وما مقدار عظمتها ؟ فإنّ عظم شأنها فوق إدراك البشر.

قيل : إنّما سمّيت القيامة بالقارعة لأنّ الفزع هو الضرر ، وفي القيامة تصطك ^(١) الأجرام العلوية والسفلية اصطكاكا شديدا عند تخريب عالم الدنيا ، أو لأنّ القيامة تفزع الناس بالأهوال الاقراخ حيث إنّ السماوات تنشقّ وتنفطر ، والشمس والقمر تتكوران ، والكواكب تنتشر ، والجبال تندكّ ، والأرض ترتزل وتبدّل ، أو لأنها تفزع أعداء الله بالعذاب والخزي والتكال ^(٢) .

ثم بيّن سبحانه بعض أهوالها بقوله : ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ﴾ بعد إحيائهم وبعثهم من القبور ﴿كَالْفَرَاشِ﴾ والحيوانات التي تطير وتهافت على السراج فتحترق ﴿الْمَبْثُوثِ﴾ والمفرّق في الهواء والأرض ، لا تتوجّه إلى جهة واحدة. قيل : وجه الشّبه الكثرة والانتشار والضعف والدلّة والاضطراب والتطايير إلى الداعي كتطايير الفراش إلى النار ^(٣) .

(١) في النسخة : اصطك.

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ٧٠ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٩٩ .

وقيل : وجه الشبه في الآية اختلافهم إلى جهات مختلفة ، وتشبيههم في الآية الأخرى بالجراد المنتشر في الكثرة ^(١) .

ثم إنَّه تعالى بعد بيان تفرُّق الناس في وجه الأرض ، بيّن سبحانه سعة وجه الأرض بقوله : ﴿وَتَكُونُ﴾ في ذلك اليوم ﴿الْجِبَالُ﴾ التي على وجه الأرض ﴿كَالْعِهْنِ﴾ والصَّوْفُ المتلون بالألوان المختلفة ﴿الْمَنْفُوشِ﴾ والمتفرقة ^(٢) أجزاؤه بالتدفع ، والمنشور بالإصبع أو آلة أخرى ، وفيه تنبيه على أنَّ حال الجبال الرواسي إذا كان كذلك عند القارعة ، فكيف يكون حال الإنسان الضعيف !
﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ *

فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ * نَارُ حَامِيَةٍ﴾ (٦) و (١١)

ثم بيّن سبحانه اختلاف الناس في مقدار الأعمال الحسنة حيث إنَّها توزن في ذلك اليوم بالميزان بقوله : ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ وأعماله الموزونة ، أو كفة ميزان أعماله الحسنة حين توضع فيها بعد تحسُّمها ، أو توضع صحيفتها فيها ﴿فَهُوَ﴾ سبب رجحان أعماله الحسنة على أعماله السيئة مستقرَّ ﴿فِي عِيشَةٍ﴾ وحياة ﴿رَاضِيَةٍ﴾ محبوبة. قيل : يعني ذات رضا ، يرضى بها صاحبها ^(٣) . ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ﴾ في ذلك اليوم ﴿مَوَازِينُهُ﴾ لقلَّة حسناته وكثرة سيئاته ﴿فَأُمُّهُ﴾ التي يأوي إليها كالولد هي ﴿هَاوِيَةٌ﴾ وجهنم يهوى فيها. وقيل : يعني أم رأسه هاوية في النار ، فإنَّ أهل النار يهونون فيها على رؤوسهم ^(٤) . وقيل : إنَّ أمه هاوية كناية عن الهلاكة ، فإنَّ العرب إذا دعوا على رجل بالهلاك قالوا : هوت أمه ، لأنَّ الهالك تحوي أمه حزنا وثكلا ^(٥) .

ثم عظم سبحانه الهاوية أو الداهية التي دلَّ عليها قوله : ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ بقوله : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ يا محمد ﴿مَا هِيَةٌ﴾ وما حقيقتها ؟ ثم أعلمه بقوله : ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ أشدَّ الحرارة بحيث تكون سائر النيران بالنسبة إليها باردة ، نعوذ الله منها.

عن الباقر عليه السلام : « من قرأ وأكثر من قراءة القارعة ، آمنه الله من فتنة الدجال أن يؤمن به ومن قبح ^(٦) جهنم يوم القيامة » ^(٧) قد تم تفسيرها بتوفيق الله تعالى ومنه.

(١) تفسير روح البيان ١٠ : ٤٩٩ .

(٢) في النسخة : والمتفرق .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٧٣ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٠٠ .

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ٧٤ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٠٠ .

(٥) في ثواب الأعمال ، وتفسير الصافي : فيح ، والفيح : سطوح الحز وفورانه .

(٦) ثواب الأعمال : ١٢٥ ، مجمع البيان ١٠ : ٨٠٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٦٧ .

في تفسير سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (١) وَ (٢)﴾

ثمّ لما ختمت سورة القارعة المتضمنة لتهويل يوم القيامة وبيان بعض أهواله ، وتهديد العصاة بالهلاوية ، نظمت سورة التكاثر المتضمنة لتوبيخ الناس على الغفلة عن التفكر في الآخرة ، وعدم الاشتغال بما ينجيهم من الأهوال والعذاب فيها من طاعة الله ورسوله ، وتهديدهم برؤية الجحيم ، والسؤال عن النعم الدنيوية ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ شرع سبحانه بتوبيخ الناس على الغفلة عن الآخرة بالاشتغال بالدنيا بقوله : ﴿الْهَآكُمُ﴾ وصرفكم أيها الناس عن ذكر الله وطاعته وعبوديته ، والتفكر في آيات توحيده ، والتدبر في أمر الآخرة ، وتحصيل موجبات السعادة الأبدية ﴿التَّكَاثُرُ﴾ والتفاخر والتباهي بكثرة العدد والأقرباء ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ وتوجهتم إلى الأموات ، واستوعبتم عددهم ، وتفاخرتم بكثرة أقبائكم منهم .
روي أنّ بني سهم وبني عبد مناف تفاخروا أيّهم أكثر ، فكان بنو عبد مناف أكثر ، فقال بنو سهم : عدوا مجموع أحيائنا وأمواتنا [مع] مجموع أحيائكم وأمواتكم ، ففعلوا فزاد بنو سهم ، فنزلت .^(١)

وإنّما عبّر سبحانه عن انتقالمهم إلى ذكر الأموات بزيارتهم للتهكم بهم ، فإنّ زيارة القبور التي حقّها أن تكون مذكّرة للموت مرغّبة إلى الزهد في الدنيا والإعراض عنها وترك التباهي والتفاخر ، جعلوها سببا للقسوة وحب الدنيا.

وقيل : إنّ المعنى الهاكم التكاثر بالأموال والأولاد ، إلى أن ممّت وأقبرتم مضيعين أعماركم في طلب الدنيا ، معرضين عمّا يهّمكم من السعي لآخرتكم ، فتكون زيارة القبور كناية عن الموت ^(٢) .
روي أنّ النبي ﷺ سمع أنّه يقرأ هذه الآية ويقول بعدها : « يقول ابن آدم ، مالي مالي ، وهى لك إلّا ما

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ٧٦ ، تفسير أبي السعود ٩ : ١٩٥ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٠٢ .

(٢) تفسير أبي السعود ٩ : ١٩٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٦٨ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٠٢ .

أكلت فأفنيته ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ » (١) .

وفي التعبير عن ورود القبر بالزيارة إشعار بالخروج منه إلى الحشر وموقف الحساب ، حيث إنّ الزائر منصرف ومفارق لا مقيم ، وإنّما لم يذكر سبحانه الملهى عنه ليذهب ذهن السامع كلّ مذهب ، فيحتمل جميع ما فيه السعادة الأبدية والخيرات الآخروية وما فضّل به [من] المقامات العالية والدرجات الرفيعة.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ *

لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٣) وَ (٦)﴾

ثمّ ردّ سبحانه المتكاثرين عمّا هم فيه من التكاثر بقوله : ﴿كَلَّا﴾ ليس الأمر كما تتوهمون من أنّ السعادة بكثرة العدد أو المال والأولاد ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ خطأكم ، وعن قريب تطّلعون على ضلالتكم ، وذلك العلم والاطّلاع حين خروج روحكم من أبدانكم ، حيث إنكم حينئذ ترون وحدتكم وعدم نفع الأقرباء والأموال لكم وشدائد الأهوال قدامكم ، أو حين دخولكم في القبور ، حيث إنكم تعذبون فيها ولا ناصر لكم.

في الحديث : يسّط على الكافر في قبره تسعة وتسعون تيّنا تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة ، لو أن تيّنا منها نفخ في الأرض ما أنبتت خضراء » (٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « لو دخلتم قبوركم » (٣) .

ثمّ أكّد سبحانه التهديد بقوله : ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وفي لفظ ﴿ثُمَّ﴾ دلالة على أنّ الإنذار الثاني أبلغ من الأول ، لأنّ فيه تنزيلا لبعده المرتبة منزلة بعد الزمان.

وقيل : إنّ التهديد الأول بعذاب القبر ، والثاني بأهوال القيامة ، كما روي عن ذرّ أنه قال : ما زلنا نشكّ في عذاب القبر حتّى سمعت عليا عليه السلام يقول : « ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي سوف تعلمون في القبر ، ثمّ في القيامة » (٤) .

وقيل : إنّ الأول عند الموت حين يقال له : لا بشرى ، والثاني في سؤال القبر ، من ربّك ، ومن نبيك ، وما دينك ؟ (٥)

(١) مجمع البيان ١٠ : ٨١٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٦٨ ، تفسير الرازي ٣٢ : ٧٧ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٠٢ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٠٣ .

(٣) روضة الواعظين : ٤٩٣ ، عن النبي ﷺ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٦٩ ، لم ينسبه إلى أحد.

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ٧٨ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٠٣ .

(٥) تفسير الرازي ٣٢ : ٧٨ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٠٣ .

عن الصادق عليه السلام : « لو خرجتم من قبوركم إلى محشركم » .
وقوله : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾^(١) عند النشور حين ينادي المنادي : فلان شقي شقاوة لا
سعادة بعدها أبداً أو حين يقال : ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾^(٢) .
وعن الصادق عليه السلام قال : « ذلك حين يؤتى بالصراط فينصب بين جسري جهنم »^(٣) .
وتوصيف العلم باليقين وإضافته إليه ، للدلالة على قوة العلم .
وعن الصادق عليه السلام في الآية قال : « المعاينة »^(٤) .
وقيل : إنّ المراد باليقين الموت والبعث والقيامة ، لأحدهما إذا وقعا جاء اليقين وزال الشك ، فالمعنى :
لو تعلمون علم الموت وما يلقي الإنسان معه وبعده في القبر وفي الآخرة لم يلهكم التكاثر والتفاخر عن
ذكر الله وعن الاستعداد للآخرة^(٥) .
وقيل : إنّ المعنى لو تعلمون ما يجب عليكم لتمسككم به ، أو لو تعلمون لأيّ أمر خلقتكم
لاشتغلتكم به^(٦) .
وقيل : يعني لو تعلمون ما بين أيديكم على الأمر اليقين ، أي ما تستيقنونه ، لفعلتم ما لا
يوصف ولا يكتنه ، ولكنكم ضلال جهلة^(٧) .
ثم أوضح سبحانه ما أجمعه من الإنذار والوعيد بقوله : ﴿ لَتَرَوُنَّ ﴾ رؤية العين ﴿ الْعَجِيمَ ﴾ يوم
القيامة ، وهو جواب قسم مقدّر ، والمعنى : والله لترونها .
وقيل : إنّ جواب ﴿ لَوْ ﴾^(٨) والمعنى : لو تعلمون الجزاء علم اليقين الآن لتروا رؤية بالقلب الجحيم
، وتكون دائما في نظركم ، لا تغيب عنكم أصلا .
﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (٧) و (٨)
ثم أكد سبحانه ذلك بقوله : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ رؤية تكون هي ﴿ عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ ونفسه ، وفي جعل
الرؤية التي هي سبب اليقين من المبالغة ما لا يخفى .
وقيل : إنّ الرؤية أولا من البعيد ، والثانية إذا صاروا إلى شفير جهنم^(٩) . وقيل : تكرارها للدلالة
على دوامها^(١٠) .

(١) روضة الواعظين : ٤٩٣ ، عن النبي ﷺ تفسير الصافي ٥ : ٣٦٩ ، لم ينسبه إلى أحد .

(٢) يس : ٣٦ / ٥٩ .

(٣) روضة الواعظين : ٤٩٣ ، عن النبي ﷺ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٦٩ ، لم ينسبه إلى أحد .

(٤) المحاسن : ٢٤٧ / ٢٥٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٦٩ .

(٥) تفسير الرازي ٣٢ : ٧٩ .

(٦) تفسير الرازي ٣٢ : ٧٩ .

(٧) تفسير الرازي ٣٢ : ٧٨ .

(٨) تفسير الرازي ٣٢ : ٨٠ .

(٩) تفسير الرازي ٣٢ : ٨٠ .

﴿ثُمَّ﴾ والله أيتها المتكاثرون ﴿لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ﴾ وفي وقت رؤية الجحيم ﴿عَنِ النَّعِيمِ﴾ الذي أهلكم الالتذاذ به عن الدين والعمل به ، فتعذبون على كفرانه وترك شكره.

قيل : إنّ النعمة المسؤول ^(١) عنها الصحة والفراغ ^(٢) ، لما روي عن النبي ﷺ قال : « نعمتان معنون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » ^(٣) . وقيل : هي الماء البارد ، لقول النبي ﷺ : « أول ما يسأل العبد [عنه] من النعيم فيقال له : ألم نصح جسمك ، ونروك من الماء البارد » ^(٤) .
وقيل : إنّها النعم الخمس شبع البطن ، ويرد الشراب ، ولذة النوم ، وظلال المساكن ، واعتزال الخلق ^(٥) ، كما عن الصادق عليه السلام ^(٦) .

وقيل : ما سوى كنّ يؤويه ، وثوب يواريه ، وكسرة تقويه يسأل عنه ^(٧) .
وقيل : هو نعمة وجود محمد ﷺ وبعثه حيث قال تعالى : ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ ^(٨) .
وعنها عليه السلام : « هو الأمن والصحة » ^(٩) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « الرطب والماء البارد » ^(١٠) .
وفي (الفقيه) قال : قال رسول الله ﷺ : « كلّ نعيم مسؤول عنه صاحبه إلّا ما كان في غزو أو حج » ^(١١) وعن الصادق عليه السلام قال : « تسأل هذه الامة عما أنعم الله عليهم برسول الله ﷺ ثم بأهل بيته عليهم السلام » ^(١٢) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث : « أنّ النعيم الذي يسأل عنه رسول الله ﷺ ومن حلّ محله من أصفياء الله ، فإنّ الله أنعم بهم على من اتّبعهم من أوليائهم » ^(١٣) .
وعن الصادق عليه السلام أنّه سأل أبا حنيفة عن هذه الآية فقال : « ما النعيم عندك ، يا نعمان ؟ »
قال : القوت من الطعام والماء البارد. فقال : « لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه حتى يسألك عن كلّ أكلة أكلتها أو شربة شربتها ليطولنّ وقوفك بين يديه » .

قال : فما النعيم ، جعلت فداك ؟ قال : « نحن أهل البيت النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد ، وبنا ائتلفوا ،

(١) في النسخة : المسؤولة.

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٠٤ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٠٤ .

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ٨١ و ٨٢ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٠٤ .

(٥) روضة الواعظين : ٤٩٣ ، عن النبي ﷺ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٦٩ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٠٤ .

(٨) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٠٤ ، والآية من سورة النحل : ١٦ / ٨٣ .

(٩) مجمع البيان ١٠ : ٨١٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٦٩ .

(١٠) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٣٨ / ١١٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٦٩ .

(١١) من لا يحضره الفقيه ٢ : ١٤٢ / ٦٢١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٦٩ .

(١٢) تفسير القمي ٢ : ٤٤٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٦٩ .

(١٣) الاحتجاج : ٢٥٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧٠ .

بعد أن كانوا مختلفين ، وبنا أَلَفَ الله بين قلوبهم ، وجعلهم إخوانا بعد أن كانوا أعداء ، وبنا هداهم الله إلى الاسلام ، وهو النعمة التي لا تنقطع ، والله سائلهم عن حقّ النعيم الذي أنعم به عليهم ، وهو النبي ﷺ وعترته ﺍﻟﻤُﺒَﺘَّﺎﺭﻯ « (١) .

وفي رواية أخرى أنه ﺍﻟﻤُﺒَﺘَّﺎﺭﻯ قال : « بلغني أنك تفسّر النعيم في هذه الآية بالطعام الطيب والماء البارد في اليوم الصائف ؟ » قال : نعم. قال : « لو دعاك رجل واطعمك طعاما طيبا وسقاك ماء باردا ثم امتن عليك به إلى ما كنت تنصبه ؟ » قال : إلى البخل. قال : « افتبخل الله تعالى ؟ ! » قال : فما هو ؟ قال : « حبّنا أهل البيت » (٢) .

وعن الرضا ﺍﻟﻤُﺒَﺘَّﺎﺭﻯ قال : « ليس في الدنيا نعيم حقيقي » فقال له بعض الفقهاء ممّن حضر : يقول الله تعالى : ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّهُ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أما هذا النعيم في الدنيا هو الماء البارد ؟ فقال له الرضا ﺍﻟﻤُﺒَﺘَّﺎﺭﻯ وعلا صوته : « كذا فسرقتموه أنتم ، وجعلتموه على ضروب ، فقالت طائفة : هو الماء البارد ، وقال غيرهم : هو الطعام الطيب ، وقال آخرون : هو طيب النوم ، ولقد حدّثني أبي عن أبيه أبي عبد الله ﺍﻟﻤُﺒَﺘَّﺎﺭﻯ أنّ أقوالكم هذه ذكرت عنده في قول الله ﻋَزَّوَجَلَّ ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّهُ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ فغضب وقال : إنّ الله ﻋَزَّوَجَلَّ لا يسأل عباده عمّا تفضّل عليهم به ، ولا يمتنّ بذلك عليهم ، والامتنان بالانعام مستقبح من المخلوقين ، فكيف يضاف إلى الخالق ﻋَزَّوَجَلَّ ما لا يرضى المخلوقون به ؟ ! ولكن النعيم حبّنا أهل البيت ومولاتنا ، يسأل الله عنه بعد التوحيد والنبوة ، لأنّ العبد إذا وفى بذلك أدّاه إلى نعيم الجنة الذي لا يزول» (٣) .

وعن الصادق ﺍﻟﻤُﺒَﺘَّﺎﺭﻯ - في هذه الآية - قال : « إنّ الله أكرم وأجلّ أن يطعمكم طعاما فسوّغكموه ثمّ يسألكم عنه ، ولكن يسألكم عمّا أنعم عليكم بمحمد وبآل محمد » (٤) .

وعن الباقر ﺍﻟﻤُﺒَﺘَّﺎﺭﻯ « إنّما يسألكم عمّا أنتم عليه من الحقّ » (٥) .

وعن الصادق ﺍﻟﻤُﺒَﺘَّﺎﺭﻯ : « ثلاثة لا يحاسب العبد المؤمن عليهم : طعام يأكله ، وثوب يلبسه ، وزوجة سالحة تعاونه ويحصن بها فرجه » (٦) .

وفي رواية قال : « إنّ الله أكرم من أن يسأل مؤمنا عن أكله وشربه » (٧) .

(١) مجمع البيان ١٠ : ٨١٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧٠ .

(٢) تفسير الصافي ٥ : ٣٧٠ ، بحار الأنوار ١٠ : ٢٢٠ .

(٣) عيون أخبار الرضا ﺍﻟﻤُﺒَﺘَّﺎﺭﻯ ٢ : ١٢٩ / ٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧٠ .

(٤) الكافي ٦ : ٢٨٠ / ٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧١ .

(٥) الكافي ٦ : ٢٨٠ / ٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧١ .

(٦) المحاسن ٣٩٩ / ٨٠ ، الكافي ٦ : ٢٨٠ / ٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧١ .

(٧) المحاسن ٣٩٩ / ٨١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧١ .

عن الصادق عليه السلام : « من ذكر اسم الله على الطعام ، لم يسأل عن نعيم ذلك الطعام » ^(١) .
أقول : الظاهر وجه الجمع بين الأخبار أنّ النعيم ^(٢) الذي يسأل عنه جميع الناس ، نعمة رسالة الرسول صلى الله عليه وآله وولاية أهل بيته عليه السلام أتمّ هل أدّوا شكرها بقبولها والعمل بلوازمها ؟ فإذا تبين شكرهم لها لم يسألوا عن صرف ما يحتاجون إليه من النعم في حوائجهم ، بل يسألون عن صرف ما زاد عليه من الطيبات ، وإذا لم يكونوا مؤمنين بالرسالة مسلمين ^(٣) للولاية يسألون عن جميع النعم التي صرفت ^(٤) في غير طاعة الله زائدا على الضروريات ، والله أعلم.

عن الصادق عليه السلام : « من قرأ سورة ﴿الْهَاجِمُ التَّكَاثُرُ﴾ في فريضة كتب له أجر مائة شهيد ، ومن قرأها في نافلة كتب له أجر خمسين شهيد ، وصلى معه في فريضته أربعون صفاً من الملائكة إن شاء الله تعالى » ^(٥) .

(١) المحاسن : ٤٣٤ / ٢٦٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٦٩ .

(٢) في النسخة : النعم .

(٣) في النسخة : والمسلمين .

(٤) في النسخة : الذي صرف .

(٥) ثواب الأعمال : ١٢٥ ، مجمع البيان ١٠ : ٨١٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧١ .

في تفسير سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ (١)﴾

ثمّ لما ختمت سورة التكاثر المتضمنة لذمّ الانسان على التكاثر بالعدد والمال ، وتهديده برؤية الجحيم والسؤال عن النعيم ، نظمت سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾ المتضمنة لبيان كون الانسان بسبب رغبته في النعم الدنيوية في خسران وضرر عظيم ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثمّ ابتدأها بالقسم بالعصر بقوله : ﴿وَالْعَصْرِ﴾ قيل : إنّ الله أراد به الدهر ومطلق الزمان ، لما روي عن النبي ﷺ أنّه تعالى أقسم بالدهر ^(١) ، الدهر ^(٢) مشتمل على السراء والضراء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ^(٣) وغيرها من آثار قدرة الله تعالى ، ولأنّه من أصول النعم الذي لو ضيعه يسأل عنه .

وقيل : إنّّه تعالى أراد به وقت العصر ، والعشي الذي هو بعد مضيّ قليل من الزوال إلى الغروب ، وأقسم به كما أقسم بالضحى لظهور آثار قدرة الله فيهما ، ولأنّ لوقت العصر بسبب خلق آدم فيه شرفا زائدا على سائر الأوقات ^(٤) ، ولأنّ في القسم به تنبيهها على أنّه وقت إذا لم يحصل الانسان فيه رجاء كان من الخاسرين .

وقيل : أراد به سبحانه عصر النبوة ^(٥) ، فأنّه أشرف الأزمنة فاقسم سبحانه بزمان النبي ﷺ كما أقسم بمكانه بقوله : ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ^(٦) وأقسم بعمره بقوله : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ^(٧) .

وقيل : إنّ المراد به صلاة العصر ، لظهور كثير من الأخبار في كمال فضيلتها ^(٨) .

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ٨٤ .

(٢) في النسخة : ولا الدهر .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٨٤ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٠٦ .

(٥) تفسير أبي السعود ٩ : ١٩٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧٢ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٠٦ .

(٦) البلد : ٩٠ / ١ و ٢ .

(٧) الحجر : ١٥ / ٧٢ .

(٨) تفسير أبي السعود ٩ : ١٩٧ ، تفسير الرازي ٣٢ : ٨٥ .

أقول : ويحتمل كون المراد عصر ظهور القائم عليه السلام [وسياقي] ، عن الصادق عليه السلام ^(١) .

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ

وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (٢) و (٣)

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه بقوله : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ بجميع أفرادهِ ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ عظيم ونقصان وضرر لا نهاية له من حيث تضييع عمره وإتلاف ماله وإهلاك نفسه باتباع الشهوات والإهمالك والذات والاستغراق في حب الدنيا والاشتياق إليها ، مع كونه قادرا في مدة عمره على تحصيل السعادة الأبدية والراحة السرمدية والتعم الدائمة بطاعة ربه واتباع رضوانه .

وعن الصادق عليه السلام : « ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ إلى آخر الدهر » ^(٢) .

وعن ابن عباس : اريد من الانسان هنا جماعة المشركين ، كالوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب ^(٣) . وقيل : اريد أبو لهب ^(٤) . وروي أنه اريد به أبو جهل ^(٥) . وروي أن هؤلاء كانوا يقولون : إن محمدا لفي خسار ، فأقسم الله تعالى إن الأمر بالضد مما توهموه ^(٦) .

أقول : لا منافاة بين إرادة العموم من الآية ، ونزولها في بعضهم ، كإرادة العموم من قوله ﴿إِنَّ جَاءَكُمْ فَأَسِقِ بْنِيَا﴾ ^(٧) ونزوله في حق الوليد ، ويشهد لإرادة العموم الاستثناء بقوله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ واكتسبوا بأعمارهم وأموالهم الفضائل والخيرات لأنفسهم المستتعبة للدرجات الرفيعة والمقامات العالية في الآخرة ، فأنهم في تجارة لن تبور ، حيث باعوا الدنيا الدنيئة الخسيسة ، واشتروا الآخرة الباقية النفيسة ، فialها من صفقة ما أرباحها !

وهم مضافا إلى تكميل نفوسهم بالايمان والعمل ، يسعون في تكميل نفوس غيرهم بأن ردعوهم عن الشرك ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ وتعاهدوهم على الايمان ﴿بِالْحَقِّ﴾ وهو التوحيد ، ورسالة الرسول ، وتصديق كتابه والعمل به وباحكامه ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ وتعاهدوا على طاعة الله ﴿بِالصَّبْرِ﴾ عليها وتحمل مشاقها ، وكف النفس عن المعاصي التي تشتاق إليها .

ثم إنه بناء على كون الحق أعم من الايمان والعمل ^(٨) [فإن تخصيص هذا التواصي بالذكر مع

(١) إكمال الدين : ٦٥٦ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧٢ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٤٤١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧٢ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٨٦ .

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ٨٦ و ٨٧ .

(٥) تفسير الرازي ٣٢ : ٨٧ .

(٦) الحجرات : ٤٩ / ٦ .

(٨) جواب هذه العبارة سقط من النسخة ، وقد أكملناه من تفسير أبي السعود ٩ : ١٩٧ ، وتفسير روح البيان ١٠ : ٥٠٧ ، وكذا سقط أول الحديث الآتي عن الصادق عليه السلام وأثبتناه من إكمال الدين .

اندراجہ تحت التواصي بالحق ، لإبراز كمال الاعتناء به ، أو لأنّ الأول عبارة عن رتبة العبادة التي هي فعل ما يرضى به الله تعالى ، والثاني عن رتبة العبودية التي هي الرضا بما فعل الله تعالى ، فان المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تشوق إليه من فعل وترك ، بل هو تلقّي ما ورد منه تعالى بالجميل ، والرضا به ظاهرا وباطنا.

وعن الصادق عليه السلام قال : « العصر عصر خروج [القائم عليه السلام] . **﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾** يعني أعداءنا **﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** يعني بآياتنا **﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** يعني بمواساة الاخوان **﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾** يعني الامامة **﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾** يعني بالعترة » (١) .

والقمي عنه عليه السلام ، قال : « استثنى أهل صفوته من خلقه حيث قال : **﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾** **﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** بولاية أمير المؤمنين **﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾** ذرياتهم ومن خلقوا بالولاية تواصوا بها وصبروا عليها » (٢) .

وعنه عليه السلام : « من قرأ **﴿وَالْعَصْرَ﴾** في نوافله بعثه الله يوم القيامة مشرقا وجهه ، ضاحكا سنّه ، قريرة عينه (٣) حتى يدخل الجنة » (٤) .
الحمد لله على التوفيق لتفسيرها.

(١) اكمال الدين : ٦٥٦ / ١ ، تفسير الصافي : ٥ : ٣٧٢ .

(٢) تفسير القمي : ٢ : ٤٤١ ، تفسير الصافي : ٥ : ٣٧٢ .

(٣) في النسخة : قريرا عينيه .

(٤) ثواب الأعمال : ١٢٥ ، مجمع البيان : ١٠ : ٨١٤ ، تفسير الصافي : ٥ : ٣٧٣ .

في تفسير سورة الهمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١)﴾

ثم لما ختمت سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾ المتضمنة لبيان أنَّ جميع الناس غائرون في الخسران لحبهم الدنيا وتفخارهم بالأموال والأقارب ، نظمت بعدها سورة الهمة المتضمنة لذم من جمع الأموال وافتخر بها ورأى لنفسه فضلا وفخرا على غيره ، وتهديده بالخلود في جهنم في الآخرة ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم شرع سبحانه في ذم من يبالي بنفسه ويتعرض لأعراض الناس وتعييبهم بقوله : ﴿وَيْلٌ﴾ وهلاك ، أو شر وقباحة ، أو جبل نار في جهنم ، على ما روي ^(١) ﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ ومغتاب للناس و﴿لُّمَزَةٍ﴾ وعياب لهم ، كما عن ابن عباس ^(٢) . وفي رواية أخرى عنه : الهمة : هم المشاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة . واللمزة : الناعتون للناس بالعيب ^(٣) .

وقيل : الهمة : هو العياب باليد والرأس والعين بالاشارة ، واللمزة هو العياب باللسان ^(٤) .

وقيل : الهمة : العياب بالمواجهة أو بالجهرة واللمزة : العياب بظهر الغيب أو سرا ^(٥) .

قيل : إنَّ السورة نزلت في الأخنس بن شريق ، كان يلمز الناس ويغتابهم وخاصة رسول الله

ﷺ ^(٦) . وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه ، ويطعن عليه في وجهه

^(٧) وقيل : نزلت في امية بن خلف ^(٨) ، وعلى أي تقدير لا يخصص مورد النزول العام.

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي

الْحُطَمَةِ (٢) و (٤)﴾

(٢١) تفسير الرازي ٣٢ : ٩١ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٩٢ .

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ٩١ و ٩٢ .

(٥) تفسير الرازي ٣٢ : ٩٢ .

(٦ - ٨) تفسير الرازي ٣٢ : ٩١ .

ثم وصف سبحانه المذموم بالويل بقوله : ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا﴾ كثيرا لنفسه ، أو حقيرا غير قابل لأن يفتخر به ﴿وَعَدَّدَهُ﴾ وذخره لحوادث الدهر ، أو أحصاه مرة بعد اخرى لالتذاذ نفسه به ، أو كثرته وافتخر به . وقيل : يعني جمع مالا وعدد قومه الذين ينصرونه ^(١) ، وإنما ذكر صفة جمعه المال لكونه سبب همزه ولمزه ، وهو من جهله وجمعه ﴿يَحْسَبُ﴾ ويظن ﴿أَنَّ مَالَهُ﴾ الذي جمعه ﴿أَخْلَدَهُ﴾ في الدنيا ، وأمنه من الموت .

وقيل : إنَّ المعنى : اعتقد أنه إن انتقص ماله يموت ، فيحفظه من التلف والتقصان ليبقى حيا ^(٢) . وقيل : فيه تعريض بالعمل الصالح ، فإنه هو الذي يخلد صاحبه في الدنيا بالذكر الجميل ، وفي الآخرة في النعيم المقيم ^(٣) .

﴿كَأَلَّا﴾ ليس الآخرة كما يظن ، ولا ينبغي له هذا الحسبان ، أو المعنى : حقا والله ﴿لَيَنْبَذَنَّ﴾ ذلك الذي جمع المال ، وليطرحن ذلك الظان للخلود ﴿فِي الْخُطْمَةِ﴾ كالحصا الذي يطرح في البئر .

﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ * الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأُفْنِدَةِ * إِنَّهَا

عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (٥) و (٩)﴾

ثم بالغ سبحانه في تحويل الخطمة بقوله : ﴿وَمَا أَذْرَاكَ﴾ يا محمد ، وأي شيء أعلمك ﴿مَا الْخُطْمَةُ﴾ وأي شيء هي ؟ هي ﴿نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ﴾ والمشتعلة بأمره وقدرته وغضبه ، لا يطفئها شيء . ولا يشبهها شيء من نيران الدنيا .

في الحديث : « أوقد عليها ألف سنة حتى احمرت ، ثم ألف سنة حتى ابيضت ، ثم ألف سنة حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة » ^(٤) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « عجا بمن يعصي الله على وجه الأرض والنار تسعر من تحته ! »

^(٥) .

﴿الَّتِي تَطْلُعُ﴾ وتعلو ﴿عَلَى الْأُفْنِدَةِ﴾ وأوساط القلوب وتغشاها .

حاصل الآية والله أعلم أن نار جهنم تحطم وتكسر العظام ، وتأكل اللحوم ، وتدخل في أجواف العصاة وأهل الشهوات ، وتقبل إلى صدورهم ، وتستولى على أفئدتهم ، وتخصيص الأفئدة بالذكر لما أن الفؤاد ألطف ما في الجسد ، وأشد تألما بأدنى الأذى ، أو لأنه محل العقائد الفاسدة والضمائر الخبيثة ومنشأ الأعمال السيئة .

(١ - ٣) تفسير الرازي ٣٢ : ٩٣ .

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ٩٤ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٠٩ .

(٥) تفسير الرازي ٣ : ٩٤ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٠٩ .

روي عن النبي ﷺ « أَنْ النَّارَ تَأْكُلُ أَهْلَهَا حَتَّى إِذَا اطَّلَعَتْ عَلَى افْتَدَتْهُمْ انْتَهَتْ ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعِيدُ لِحَوْمِهِمْ وَعِظَامِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى » (١) .

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ يَأْسَ الظَّالِمِينَ الْخُلُودَ فِي الدُّنْيَا مِنْ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْجَحِيمِ ، وَتَيَقَّنَهُمْ بِالْخُلُودِ فِي النَّارِ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّصَدَّدَةٌ﴾ ومغلقة الأبواب حال كونهم موثقين ﴿فِي عَمَدٍ﴾ وأعمدة ﴿مُمَدَّدَةٌ﴾ ومطوّلة التي هي أثبت من القصيرة ، مثل المقاطر والخشب التي تجعل فيها أرجل اللصوص كيلا يهربوا .
وقيل : يعني تطبق عليهم أبواب النيران ، ويجعل على الأبواب العمدة الطويلة استيثاقا في استيثاق ، لئلا يخرجوا منها ، ولا يدخل عليهم روح (٢) ، والمعنى أَنَّ النار عليهم طبقة الأبواب بأعمدة مدّت عليها ، وإنما لم يقل (بعمد) للإشعار بكثرتها بحيث صارت كأنّ الأبواب فيها .
القَمِيّ رحمه الله قال : إذا مدّت العمدة كان والله الخلود (٣) .

وعن الصادق عليه السلام : « مَنْ قرأ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِهِ ، أَبْعَدَ اللَّهُ عَنْهُ الْفَقْرَ ، وَجَلَبَ عَلَيْهِ الرِّزْقَ ، وَدَفَعَ عَنْهُ مِئَةَ السُّوءِ » (٤) .
قد تمّ تفسيرها .

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ٩٤ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٥١٠ ، وزاد المؤلف هنا ثلاث كلمات غير مقروءة في النسخة ، والذي في تفسير روح البيان : لا يدخلها روح ولا يخرج منها غم .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٤٤٢ ، وفيه : العمدة أكلت والله الخلود ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧٤ .

(٤) ثواب الأعمال : ١٢٦ ، مجمع البيان ١٠ : ٨١٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧٥ .

في تفسير سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)﴾

ثم لما ختمت سورة الهزمة المتضمنة لدم العيايين للنبي ﷺ الطاعنين فيه لإطفاء نوره وإحلالا بأمر رسالته ، نظمت سورة الفيل المتضمنة لبيان حفظ الله بيته من الخراب وتعذيب قاصديه ، مبشرا له ﷺ بإهلاك أعداء بيته الحرام ، وتسليية لقلبه الشريف المتألم بمكايد أعدائه في الإحلال بأمر رسالته ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم شرع سبحانه في تسليية قلب حبيبه بيان قصة إهلاك أعداء بيته بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ، حين كنت في عالم الأشباح محيطا بقضايا هذا العالم ، أو المراد ألم تعلم بالتواتر علما نازلا منزلة الرؤية ﴿كَيْفَ فَعَلَ﴾ وعامل ﴿رَبُّكَ﴾ اللطيف بك ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ وجند أبرهة القاصدين تخريب الكعبة ، إبقاء لها ، لتكون قبلة صلاتك ، وإعظاما لك ، وتشريفاً لمقدمك الشريف . روي أنّ أبرهة بن الصباح الملقب بالأشرم لما ملك اليمن من قبل أصحمة بن بحر النجاشي ، ورأى توجه الناس في أيام الموسم إلى حج البيت الحرام ، حسد اهل الحجاز على الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة ، فأراد صرف الناس عن الكعبة إلى بلده ، فبنى كنيسة بصنعاء من رخام ملون ، واجتهد في زخرفتها ، ونقل إليها أحجارا منقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان النبي ﷺ ، وجعل فيها صلبانا من الذهب والفضة ومنابر من عاج والأبنوس ، وسمّاها القليس ، لارتفاع بناهاتها وعلوها ، ودعا الناس إليها ، ووعد زائريها بالهدايا والتحف والجوائز ، فتوجه الناس إليها بطمع أخذ الدراهم والدنانير ، فلم يزرها أحد إلا وإنه يرجع بالتحف والهدايا ، وكان رئيس مكة في ذلك الوقت عبد المطلب ، فجاء إليه رجل من بني كنانة يقال له زهير بن بدر ، فاستأذن عبد المطلب أن يذهب إلى تلك الكنيسة ويفعل فيها ما يصرف الناس عنها ، فذهب إليها ، واشتغل بالعبادة فيها أياما ، فاستأذن من خدامها أن يبيت فيها

ليلة ليتعب فيها فأذنوا له ^(١) في ذلك ، فأقام فيها الليل وحده ، فتغوط فيها ، وطلّى به جدرانها وإيوانها ومحرابها ، ثم خرج منها وهرب ، فانتشر الخبر في الآفاق ، فتنفّر الناس منها ، فلمّا سمع ذلك أبرهة غضب وحلف أن يخرّب الكعبة. وقيل : بلغ الخبر إلى النجاشي ، فاعتم لذلك وأغراه ^(٢) أبرهة وقال : لا تحزن ، إنّ لهم كعبة هي فخرهم فنخرّب بنيانها ونبيح دماءها ، فخرج أبرهة بجند كثيف ، ومعه فيل أبيض اللون لم ير مثله في عظم الجثّة وشدّة القوّة ، يقال له : محمود ، فلمّا قرب من الحرم نزل ، وبعث رجلا حبشي ^(٣) يقال له الأسود ، حتّى انتهى إلى مكّة ، فساق إليه أموال تامة ومواشيها ^(٤) .

قيل : لما بلغ أبرهة المغمّس - وهو منزل في طريق الطائف - خرج إليه عبد المطلب ، وعرض إليه ثلث أموال تامة ليرجع فأبى ^(٥) .

وقيل : لما نزل المغمّس بعث حناطة الحميري إلى مكّة ، وقال له : سل من سيّد هذا البلد وشريفهم ، وقال له : إنّ الملك يقول : إيّ لم آت لحربكم ، وإنّما جئت لهدم هذا البيت ، فان لم تتعرضوا لدونه لحرب فلا حاجة لي في دماءكم ، فإن لم يرد حربي فأتني به ، فجاء عبد المطلب ومعه جماعة من بني هاشم ، فسبقهم الرسول إلى أبرهة ، وقال له : جاءك رئيس مكة ^(٦) .

وقيل : استأذن لعبد المطلب بعض وزراء أبرهة ، يقال له أنيس سائس الفيل ، وقال : جاءك سيد قريش وصاحب غير مكّة الذي يطعم الناس في السهل ، والوحوش في رؤوس الجبال ، فأحسن أبرهة رأيه ، وجلس على السرير ، فأجاز لعبد المطلب في الدخول ، فلمّا ورد قال أبرهة ، ونزل عن السرير [كيلا تجلسه معه] ، لأنّه كره أن تراه الحبشة على سرير ملكه ، وجلس مع عبد المطلب على الأرض ، وأكرمه وعظّمه ، وأعجبه حسن كلامه ، وقال في نفسه : لو شفع في انصرافه من البيت لأجابه ، فقال له : فاسأل مني كلّما تريد. فقال له عبد المطلب : اريد منك أن تامر برّد إبلي التي كانت ترعى بذي المجاز ، فساقها بعض جيشك. فقال أبرهة لترجمانه : قل له : لم لم تشفع في البيت الذي يكون شرفا وعزّا لك ولقومك من قديم الدهر ، وأنا اريد أن اخربه ، وما قدر الإبل التي تريدها ؟ !

وقيل : إنّ قال : سقطت من عيني ، جئت لأهدم البيت الذي هو دينك ودين آبائك ، فالهاك عنه ذود اخذلك ^(٧) .

قال عبد المطلب : أنا ربّ الابل ، وللبيت ربّ يحفظه كما حفظه من تبع وسيف بن ذي يزن

(١) في النسخة : فأذنوه.

(٢) في النسخة : وغراه.

(٣) في النسخة : حبشية.

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٥١١.

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ١٣ . ٥

(٧) الذود : القطيع من الإبل بين الثلاث إلى العشر ، راجع تفسير الرازي ٣٢ : ٩٦ .

فرجع عبد المطلب ، وأمر أهل مكة أن يجمعوا أموالهم وأمتعتهم ويضعوها على الجبل ، فلم يبق في مكة أحد تخوفاً من معرة الجيش ، فجهّز أبرهة جيشه ، وقدم الفيل الأعظم ^(١) . قيل : سقوه الخمر ليذهب تمييزه ، فكانوا كلّما وجهوه إلى جهة الحرم برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى اليمن أو إلى سائر الجهات هروا ، وجاء عبد المطلب وأخذ بحلقة البيت ، وقال :

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ

عن عائشة : أُمُّهُمَا أَشْبَاهُ الْخَطَاطِيفِ وَالْوَطَاوِيطِ ، وَلَهَا خِرَاطِيمُ الطَّيْرِ ، وَأَكْفَ الْكِلَابِ وَأُنْيَاهَا ^(٥)

وقيل : من طير السماء ﴿تُرْمِيهِمْ﴾ من فوقهم ﴿بِحِجَارَةٍ﴾، فيها مكتوب اسم من قتل بها مخططة بالحمرة كالجزع ^(٩) الظفاري ، كما عن ابن عباس ^(١٠) ، كائنة ﴿مِنْ سَجِيلٍ﴾ وطين متحجر ، معرب سنك

وكل ، كما عن ابن عباس ^(١) . وقيل : هو علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار ، كأنه قال : بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون ^(٢) . وقيل : السجيل : اسم السماء الدنيا ^(٣) . وقيل : إنه اسم جهنم ، وكان سجين فابدلت نون آخره لاما ^(٤) .

وقد مرَّ أنَّ كلَّ طائر كان يحمل ثلاثة أحجار ، حجر بمنقاره ، وحجران برجليه ، تقتل بكلِّ واحد رجلا ، ما وقع منها في موضع إلَّا خرج من الجانب الآخر ، وإن وقع على رأسه خرج من دبره ^(٥) . وفي رواية عن ابن عباس : لم يقع حجر على أحد إلَّا نفط ^(٦) جلده وثار به الجدرى ^(٧) . ﴿فَجَعَلَهُمُ﴾ الله ﴿كَعَصْفٍ﴾ وورق زرع ﴿مَأْكُولٍ﴾ أكلته الديدان ، وإنما سمى ورق الزرع عصفا ؛ لأنَّه يعصف به الرياح من مكان إلى مكان ، وتوصيفه بالمأْكول لأنَّه حدث بهم بسبب رميهم منافذ وشقوق كورق أكله الدود.

وقيل : يعني كزرع اكل حبّه وبقي صفرا منه ، شبّههم به في ذهاب أرواحهم وبقاء أجسادهم ^(٨) .

وعن ابن عباس : يعني كزرع وتبن أكلته الدوابّ ثمَّ ألقته روثا ، ثمَّ يجفّ وتتفرق أجزاؤه ، شبّه تقطّع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث ^(٩) .

وعلى أيّ تقدير هلك جيش أبرهة وفيلاته ، واخذ أبرهة داء أسقط أنامله وأعضاءه ، ووصل إلى صنعاء كذلك ، وهو مثل فرخ الطير ، ومات فملك ابنه يكسوم بن أبرهة اليمن ، وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يتحلّق فوق رأسه حتّى بلغ النجاشي فقصى عليه القصّة ، فلما أتمّها وقع عليه الحجر فخرّ ميتا بين يديه ^(١٠) .

وقيل : هلك كلّهم إلّا أبرهة ، فخرج من مكّة ، وجاء إلى الحبشة ، وكان على رأسه طير ولم يعلم به حتّى وقف بين يدي النجاشي ، فلما قصّ عليه القصة تعجّب النجاشي ، وقال : كيف يهلك الطير الجند الكثير ! فنظر أبرهة إلى الطير الذي كان على رأسه ، فقال : هذا واحد من تلك الطيور ، فألقى ذلك الطير حجرا على رأسه ، فهلك عند النجاشي ^(١١) .

روي أنّ عبد المطلب وأبو مسعود الثقفي كانا يشاهدان هلاك عسكر أبرهة من فوق الجبل حين

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٠١ .

(٢) ٤ - ٢ (تفسير الرازي ٣٢ : ١٠١ .

(٥) تفسير الرازي ٣٢ : ١٠٠ .

(٦) نفط جلده : أصابه الجدرى .

(٧) تفسير الرازي ٣٢ : ١٠٠ .

(٨) تفسير روح البيان ١٠ : ٥١٨ .

(٩) تفسير الرازي ٣٢ : ١٠١ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥١٨ ، ولم ينسبه إلى أحد .

(١٠) تفسير روح البيان ١٠ : ٥١٥ و ٥١٦ .

(١١) تفسير روح البيان ١٠ : ٥١٦ .

رماهم الطير بالحجارة ، فقال عبد المطلب لصاحبه : صار القوم بحيث لا يسمع لهم ركز ^(١) ، فانحطاً من الجبل ودخلا العسكر ، فاذا هم موتى ، فجمعا من الذهب والجواهر ، وحفر كلّ منهما لنفسه حفيرة وملاها من المال ، وكان ذلك سبب غناهما ، وصارت بقية أمتعتهم غنيمة لقريش وأهل مكة ، هذا كله ما رواه العامة ^(٢) .

وقال القمي عليه السلام : نزلت في الحبشة حين جاءوا بالفيل ليهدموا به الكعبة ، فلما أدنوه من باب المسجد ، قال له عبد المطلب : تدري أين يؤمّ بك ؟ قال برأسه : لا . قال : أتوا بك لتهدم كعبة الله ، أتفعل ذلك ؟ قال برأسه : لا ، فجهدت به الحبشة ليدخل المسجد فامتنع ، فحملوا عليه بالسيوف وقطعوه ، فأرسل الله عليهم طيرا أبابيل ، قال : بعضها على أثر بعض ترميهم بحجارة من سجيل ، قال : كان مع كلّ طير ثلاثة أحجار : حجر في منقاره ، وحجران في مخالبه ، وكانت ترفرف على رؤوسهم ، وترمي في دماغهم ، فدخل في دماغهم ويخرج من أدبارهم وينتقض ^(٣) أبدانهم ، فكانوا كما قال الله : ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ قال : العصف : التبن ، والمأكول : هو الذي يبقى من فضله ^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام : « بعث الله عليهم الطير كالخطاطيف في مناقيرها حجر كالعدسة أو نحوها ، فكانت تحاذي رأس الرجل ، ثم ترسلها على رأسه ، فتخرج من دبره حتى لم يبق منهم إلا رجل هرب فجعل يحدث الناس بما رأى ، فطلع عليه طائر منها فرفع رأسه فقال : هذا الطير منها ، وجاء الطير حتى حاذى رأسه ثم ألقاها عليه ، فخرجت من دبره فمات » ^(٥) .

وعن الباقر عليه السلام أنه سئل عن قول الله تعالى ﴿وَأَرْسَلْ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال : « كان طير ساف ^(٦) جاءهم من قبل البحر ، رؤوسها كأمثال رؤوس السباع ، وأظفارها كأظفار السباع من الطير ، مع كلّ طائر ثلاثة أحجار : في رجله حجران ، وفي منقاره حجر ، فجعلت ترميهم بها حتى جدّرت أجسادهم ، فقتلهم بها ، وما كان قبل ذلك رؤي شيء من الجدي ، ولا رأوا ذلك من الطير قبل ذلك اليوم ولا بعده » .

قال : « ومن أفلت منهم يومئذ انطلق حتى إذا بلغوا حضر موت - وهو واد دون اليمن - أرسل الله عليهم سيلا فغرقهم أجمعين » . قال : « وما رأي في ذلك الوادي ماء قطّ قبل ذلك اليوم بخمس عشرة سنة » قال : « ولذلك سمّي حضر موت حين ماتوا فيه » ^(٧) .

(١) الركز : الصوت الخفي .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٥١٦ .

(٣) في النسخة : وتنقص .

(٤) الكافي تفسير القمي ٢ : ٤٤٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧٦ .

(٥) الكافي ٤ : ٢١٦ / ٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧٦ .

(٦) أسفّ الطائر : دنا من الأرض .

(٧) الكافي ٨ : ٨٤ / ٤٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧٧ .

وعن الكاظم عليه السلام : « أَنَّ أَبْرَهَةَ بْنَ يَكْسُومٍ قَادَ الْفِيلَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ لِيَهْدِمَهُ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلَبِ : إِنَّ لِهَذَا الْبَيْتِ رَبًّا يَمْنَعُهُ ، ثُمَّ جَمَعَ أَهْلَ مَكَّةَ فَدَعَا ، وَهَذَا بَعْدَ مَا أَخْبَرَهُ سَيْفُ بْنُ ذِي يَزَنَ ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَا بَيْلَ ، وَدَفَعَهُمْ عَنْ مَكَّةَ وَأَهْلِهَا » ^(١) .

وعن الصادق عليه السلام : « مَنْ قَرَأَ فِي فَرَائِضِهِ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلَّ سَهْلٍ وَجَبَلٍ وَمَدْرٍ بِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُصَلِّينَ ، وَيُنَادِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنَادٌ : صَدَقْتُمْ عَلَى عَبْدِي ، قَبِلْتُ شَهَادَتَكُمْ لَهُ وَعَلَيْهِ ، أَدْخَلُوهُ الْجَنَّةَ وَلَا تَحَاسِبُوهُ ، إِنَّهُ مِمَّنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَأَحَبَّ عَمَلُهُ » ^(٢) .

وعن العياشي : « ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ﴾ و﴿لَا يَلَابِ﴾ سُورَةٌ وَاحِدَةٌ » ^(٣) .

(١) قرب الإسناد : ٣١٩ / ١٢٢٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧٧ .

(٢) ثواب الأعمال : ١٢٦ ، مجمع البيان ١٠ : ٨٢٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧٧ .

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٨٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧٨ .

في تفسير سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِلَافٍ قُرَيْشٍ * إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (١) وَ (٢)﴾

ثم لما ختمت سورة الفيل المتضمنة لبيان إنعام الله على قريش بدفع أصحاب الفيل عنهم ، وحفظ الكعبة التي كان بها عزهم وشرفهم ، نظمت سورة قريش المتضمنة لبيان منته عليهم بإدامة تجارتهم إلى اليمن والشام وإطعامهم من الجوع ، وتوسعة معاشهم ، وأمنهم من الخوف من أصحاب الفيل وغيرهم ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم ابتدأها ببيان حكمة من حكم إهلاك أصحاب الفيل ، وهي إنعامه على قريش بقوله : ﴿إِلَافٍ قُرَيْشٍ﴾ قيل : إن التقدير جعل الله أصحاب الفيل كعصف مأكول وأهلكهم أشنع إهلاك ، لأجل إبقاء قريش على ما التزموا به ^(١)

ثم كآته قيل : [ما] ذلك الإيلاف والالتزام ؟ فأجابه سبحانه بقوله : ﴿إِلَافِهِمْ﴾ والتزامهم ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ﴾ والسفر في الأزمنة الباردة للتجارة إلى اليمن ﴿و﴾ في ﴿الصَّيْفِ﴾ والأزمنة الحارة إلى الشام ، ولأجل أن يألفوا هاتين الرحلتين ، ويجمعوا بينهما ، ويدوموا عليهما.

عن ابن عباس قال : كانت قريش إذا أصاب أحدهم فقر وجوع أخذ بيد عياله وخرج إلى الصحراء ، وضرب على نفسه وعياله خيمة ، وبقي هناك حتى يموت هو وعياله ، وكانوا على ذلك إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف ، وكان سيد قومه ، وكان له ابن يقال له أسد ، وكان له ترب ^(٢) من بني مخزوم يحبّه ويلعب معه ، فشكا إليه ضرر المجاعة ، فدخل أسد على أمه يبكى ، فأرسلت إلى أولئك بدقيق وشحم ، فعاشوا به أياما ، ثم أتى ترب أسد إليه مرة أخرى ، وشكا إليه من الجوع ، فقام هاشم خطيبا في قريش فقال : إنكم أجديتم جدبا تفلون فيه وتذلون ، وأنتم أهل حرم الله ، وأشراف ولد آدم ، والناس لكم تبع.

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٠٣.

(٢) الترب : المائل في السن.

قالوا : نحن تبع لك ، وليس عليك منا خلاف ، فجمع جميع أولاد النضر ^(١) بن كنانة على الرحلتين ^(٢) في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام ، ليتجروا فيما بدا لهم من التجارات ، فما ربح الغني قسم بينه وبين فقراءهم حتى كان فقيرهم كغنيهم ، فجاء الاسلام وهم كانوا على ذلك ، فلم يكن في العرب بنو أب واحد أكثر مالا ولا أعز من قريش ^(٣) .

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٣) وَ (٤)﴾

ثم أعلم أن بعض من فسر السورة بهذا التفسير وقال بتعلق لام ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ بالسورة السابقة ، قال بكونها سورة واحدة ، ويؤيده جعل ^(٤) كعب بن أبي السورتين في مصحفه سورة واحدة ، ولم يفصل بينهما بالبسملة ^(٥) .

وروى العياشي عن أحدهما أنه قال : « ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ﴾ و ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ سورة واحدة » ^(٦) .

وقيل : إن اللام متعلقة بقوله تعالى : ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ لا يلا فهم ، أي ليجعلوا عبادتهم شكرا لهذه النعمة واعترافا بها ، وإنما أدخل الفاء على ليعبدوا لما في الكلام من معنى الشرط ، والمعنى إن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لهذه النعمة الواحدة التي هي نعمة ظاهرة ^(٧) .

وقيل : ليست متعلقة بما قبلها ولا بما بعدها ، بل هي لام التعجب ، والمعنى اعجبوا لإيلاف قريش ، فأنهم كل يوم يزدادون غيا وجهلا وانغماسا في عبادة الأوثان ، والله يؤلف شملهم ، ويدفع الآفات عنهم ، وينظم أسباب معاشهم ^(٨) .

فليعبدوا رب هذا البيت ، وليوحدوه ، أو فليخضعوا له ؛ لأنه حفظ البيت ، وعظمهم بحفظه في أنظار الناس ، وهو ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ﴾ بسبب تينك ^(٩) الرحلتين اللتين تمكنوا ^(١٠) منهما ﴿مِنْ جُوعٍ﴾ شديد. روي أنهم أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة ^(١١) .

وقيل : إن تنكير الجوع والخوف للتحقير ، والمعنى أنه تعالى لم يرض لهم بالجوع والخوف القليل ، فكيف يرضى لهم إن عبدوه أن يهمل أمرهم ^(١٢) لكونهم جيرانه وسكان حرمه.

وقيل : إنه سبب دعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال : ﴿يَجِبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ^(١٣) .

(١) في النسخة : نضر ، راجع جمهرة أنساب العرب : ١١ .

(٢) في النسخة : المرحلتين .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ١٠٦ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥١٩ .

(٤) في النسخة : وابده يجعل .

(٥) مجمع البيان ١٠ : ٨٢٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧٨ .

(٦) تفسير الرازي ٣٢ : ١٠٥ .

(٧) تفسير الرازي ٣٢ : ١٠٥ .

(٨) تفسير الرازي ٣٢ : ١٠٥ .

(٩) في النسخة : بتيك .

(١٠) في النسخة : تمكنوا .

(١١) تفسير الرازي ٣٢ : ١١٠ .

(١٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٢٠ ، والآية من سورة القصص : ٢٨ / ٥٧ .

﴿وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ عظيم ، كان لهم من أصحاب الفيل ، أو من خوف التخطف في بلدهم وأسفارهم ، فإنَّ إهلاك أصحاب الفيل صار سببا لهيبتهم في قلوب الناس وفضل احترام لهم بحيث لم يكن يجترى عليهم أحد ، فانتظم الأمر لهم في رحلتهم ، بل في جميع أسفارهم وأحوالهم.

عن القمي رحمته الله قال : نزلت في قريش ، لأنَّه كان معاشهم من الرحلتين : رحلة في الشتاء إلى اليمن ، ورحلة في الصيف إلى الشام ، وكانوا يحملونه الأدم واللباس ^(١) ، وما يقع من ناحية البحر من الفلفل وغيره ، فيشترون بالشام الثياب والدِّرمك ^(٢) والحبوب ، وكانوا يأثلفون في طريقهم ، ويشتون في الخروج في كلِّ خرجة رئيسا من رؤساء قريش ، وكان معاشهم من ذلك ، فلَمَّا بعث الله نبيه صلَّى الله عليه وآله استغنوا من ذلك لأنَّ الناس وفدوا على رسول الله صلَّى الله عليه وآله وحجَّوا إلى البيت ، فقال الله تعالى : ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ* الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ فلا يحتاجون أن يذهبوا إلى الشام ﴿وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ يعني خوف الطريق ^(٣).

عن أمِّ هانئ بنت أبي طالب قالت : إنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وآله فضَّل قريشا بسبع خصال لم يعطها أحد قبلهم ولا يعطاها أحد بعدهم : النبوة فيهم ، والخلافة فيهم ، والحجابه للبيت فيهم ، والسقاية فيهم ، ونصروا على أصحاب الفيل ، وعبدوا الله سبع سنين ^(٤) - وفي رواية : عشر سنين - لم يعبد أحد غيرهم ، ونزلت فيهم سورة في القرآن لم يذكر فيها أحدا غيرهم ﴿لَا يَلَا فِ قُرَيْشٍ﴾ ^(٥).

أقول : الظاهر أنَّ المراد من قولها : عبدوا الله سبع سنين ، عبادتهم في بدو ظهور الرسالة ، فإنَّ المؤمنين بالرسول صلَّى الله عليه وآله في تلك المدة كلَّهم كانوا من قريش.

عن الصادق عليه السلام : « من أكثر قراءة ﴿لَا يَلَا فِ قُرَيْشٍ﴾ بعثه الله يوم القيامة على مركب من مراكب الجنَّة حتى يقعد على موائد النور يوم القيامة » ^(٦).

الحمد لله على إتمام تفسيرها.

(١) في النسخة : واللَّب.

(٢) الدِّرمك : الدقيق الأبيض.

(٣) تفسير القمي ٢ : ٤٤٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧٩.

(٤) و٥ تفسير روح البيان ١٠ : ٥٢١.

(٦) ثواب الأعمال : ١٢٦ ، مجمع البيان ١٠ : ٨٢٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٧٩.

في تفسير سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحْضُ عَلَى

طَعَامِ الْمُسْكِينِ (١) وَ (٣)﴾

ثم لما ختمت سورة قريش المتضمنة لبيان إنعامه ومنتته على قريش بدفع أصحاب الفيل عن البيت الذي هو سبب عزهم وسعة معاشهم وأمنهم من خوف الأعداء ، نظمت سورة الماعون المتضمنة لبيان كفرهم وكفرانهم بنعم الله ، وبخلهم على الفقراء ، وظلمهم على اليتيم ، طغيانا على الله ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم ابتدأها بدم بعض قريش ، وإظهار التعجب من كفرهم وطغيانهم بقوله : ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يا محمد ، الكافر العنود ﴿الَّذِي يُكَذِّبُ﴾ عنادا ولجاجا ﴿بِالدِّينِ﴾ وجزاء الأعمال وبدين الاسلام ، وإن أردت أن تعرفه ﴿فَذَلِكَ﴾ الكافر هو الظالم ﴿الَّذِي يَدْعُ﴾ ويدفع الطفل ﴿الْيَتِيمَ﴾ عن حقه ظلما وجفوة .
روي أن أبا جهل كان وصيا ليتيم فجاءه يوما عريانا يسأله من مال نفسه ، فدفعه دفعا شنيعا ، فأيس الصبي ، فقال له بعض أكابر قريش : قل لمحمد يشفع لك ، وكان غرضهم الاستهزاء به ، والنبي ﷺ ما كان يرد محتاجا ، فذهب معه إلى أبي جهل ، فرحب به وبذل المال لليتيم ، فعيره قريش ، وقالوا له : صبوت ! فقال : لا والله ما صبوت ، ولكن رأيت عن يمينه وعن يساره حرية [خفت] إن لم اجبه يطعنني في^(١) .

وعن القمي رحمه الله قال : نزلت في أبي جهل وكفار قريش^(٢) .

وقيل : نزلت في أبي سفيان ، كان ينحر جزورين في كل اسبوع ، فأتاه يتيم فسأله لحما ، فقرعه بعصاه^(٣) .

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١١١ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٤٤٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨٠ .

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٨٣٤ ، تفسير الرازي ٣٢ : ١١١ .

وقيل : نزلت في العاص بن وائل السهمي ، وكان من صفته الجمع بين التكذيب بيوم القيامة والإتيان بالأعمال القبيحة ^(١) .

وقيل : في الوليد بن المغيرة ^(٢) .

وروي عن ابن عباس أنها نزلت في منافق جمع بين البخل والمراعاة ^(٣) .

وقيل : أنه عام لكل من كان مكذبا بيوم الدين ^(٤) .

﴿وَلَا يَخْضُ﴾ ولا يحث نفسه أو غير ﴿عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾ لغاية بخله ، وخساسة طبعه ، وقساوة قلبه ، وعدم اعتقاده بأجر وثواب على إطعامه في الآخرة.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ *

وَيَمْتَنِعُونَ الْمَاعُونَ (٤) و (٧)﴾

ثم ذم سبحانه بعض المنافقين منهم بقوله : ﴿فَوَيْلٌ﴾ وعذاب شديد ﴿لِلْمُصَلِّينَ﴾ منهم نفاقا ﴿الَّذِينَ هُمْ﴾ يأتون بصورة الصلاة ، وهم ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾ من أولها إلى آخرها ﴿سَاهُونَ﴾ وغافلون ، لعدم مبالاةهم بها ، وإنما غرضهم من إتيانها خدعة المؤمنين.

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية ، أهى وسوسة الشيطان ؟ فقال : « لا ، كل أحد يصيبه هذا ، ولكن أن يغفلها ويدع أن يصلّى في أول وقتها » ^(٥) .

وعن القمّي رحمه الله عنه عليه السلام ، قال : « هو الترك لها والتواني عنها » ^(٦) .

وعن الكاظم عليه السلام قال : « هو التضييع » ^(٧) .

وقال جمع من مفسري العامة : معنى ساهون لا يتعهدون أوقات صلواتهم ولا شرائطها ، ومعناه أنه لا يبالي صلى أم لم يصل ^(٨) . فيكون أول السورة في المكذّبين المتجاهرين ، وهذه الآية في المكذّب المنافق ، وفي تصديرها بالويل دلالة على كون المنافق أسوأ حالا من الكافر المتجاهر بالكفر.

ثم ذمهم سبحانه بالرياء وغاية البخل بقوله : ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ﴾ الناس ، ويرون أعمالهم ويظهرون أن لهم من الخشوع والخضوع في الصلاة ما ليس في قلوبهم ليشنوا عليهم.

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١١١ .

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٨٣٤ ، تفسير الرازي ٣٢ : ١١١ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ١١٢ .

(٤) مجمع البيان ١٠ : ٨٣٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨٠ .

(٥) مجمع البيان ١٠ : ٨٣٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨١ .

(٦) الكافي ٣ : ٢٦٨ / ٥ ، مجمع البيان ١٠ : ٨٣٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨١ .

(٨) تفسير الرازي ٣٢ : ١١٤ ، وهو قول : سعد بن أبي وقاص ومسروق والحسن ومقاتل .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : « يريد بهم المنافقين الذين لا يرجون لها ثوابا إن صلّوا ، ولا يخافون عليها عقابا إن تركوا ، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها ، فإذا كانوا مع المؤمنين صلّوها رياء ، وإذا لم يكونوا معهم لم يصلّوا ، وهو قوله : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤْنَ ﴾ » ^(١) .

﴿وَيَمْنَعُونَ﴾ الناس ﴿الْمَاعُونَ﴾ والأمتعة القليلة التي يحتاج إليها مثل القدر والقصعة والغريال والقدوم والدلو وأمثالها ، والنار والماء والملح ممّا يسأله الفقير والغني ، ولا يعتاد منعه ، وينسب مانعه إلى اللوم وخساسة الطبع. روي : ثلاثة لا يحلّ منعها : الماء ، والنار والملح ^(٢) . وقيل : سمّيت الزكاة ماعونا لأنها قليل من كثير ^(٣) .

وعن أمير المؤمنين والصادق عليهما السلام : « هو الزكاة المفروضة » ^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « هو القرض تقرضه ، والمعروف تصنعه ، ومتاع البيت تعيره ، ومنه الزكاة » .

قيل : إنّ لنا جيرانا إذا أعزناهم متاعا كسروه وأفسدوه ، فعلينا جناح أن نمنعهم ؟ فقال : « لا ، ليس عليكم جناح أن تمنعوه إذا كانوا كذلك » ^(٥) .

قيل : في وجه المناسبة بين الرياء ومنع الماعون ، كأنّه تعالى يقول : الصلاة لي والماعون للخلق ، فما كان لي يعرضونه على الخلق ، وما هو للخلق يسترونه عنهم ، فتكون معاملتهم مع الربّ والخلق على العكس ^(٦) .

عن الباقر عليه السلام : « من قرأ سورة ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدِّينِ﴾ في فرائضه ونوافله ، قبل الله صلاته وصيامه ، ولا يحاسبه بما كان منه في الحياة الدنيا » ^(٧) .
الحمد لله على إتمام تفسيرها.

(١) مجمع البيان ١٠ : ٨٣٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨١ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ١١٥ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ١١٦ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٢٣ .

(٤) مجمع البيان ١٠ : ٨٣٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨١ .

(٥) الكافي ٣ : ٤٩٩ / ٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨١ .

(٦) تفسير الرازي ٣٢ : ١١٦ .

(٧) ثواب الأعمال : ١٢٦ ، مجمع البيان ١٠ : ٨٣٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨١ .

في تفسير سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١)﴾

ثم لما ختمت سورة الماعون المتضمنة لدم المنافقين بترك الصلاة والرياء بها والبخل ، نظمت سورة الكوثر المتضمنة لأمر النبي ﷺ بالصلاة الخالصة ، ونحر البدن ، وإطعام الفقراء ، فافتتحها بذكر الاسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم ابتدأها بذكر غاية إنعامه على النبي ﷺ بقوله : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾ يا محمد ، من خزائن رحمتنا إنعاما عليك لكرامتك علينا ونهاية محبوبيتك عندنا ﴿الْكَوْثَرَ﴾ وهو النهر في الجنة فيه خير كثير على المشهور بين السلف والخلف من مفسري العامة على ما قيل ^(١) ، لما روي عن النبي ﷺ أنه قال : « رأيت نورا في الجنة ، حافته قباب اللؤلؤ الجوّف ، فضربت بيدي على مجرى الماء ، فاذا أنا بمسك أذفر ، فقلت : ما هذا ؟ قيل : الكوثر الذي أعطاك الله » ^(٢) .

وروي عنه ﷺ أنه قرأ السورة فقال : « أتدرون ما الكوثر ؟ إنه نهر في الجنة ، وعدنيه ربي فيه خيرا كثيرا ، أحلى من العسل ، وأشدّ بياضا من اللبن ، وأبرد من الثلج ، وألين من الزيت ، حافته الزبرجد ، وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء ، لا يضمأ من شرب منه أبدا ، أول وارديه فقراء المهاجرين الدنسو الثياب الشعث الرؤوس » ^(٣) .

وقيل : إنه حوضه ، وسمي الكوثر لكثرة واريده ^(٤) . وفي الحديث : « حوضي ما بين صنعاء إلى أيلة » ^(٥) . قيل في التوفيق بين الروایتين : إن النهر ينصب في الحوض ، أو يسيل منه ، فيكون الحوض كالمنبع له ^(٦) .

وقيل : إن المراد بالكوثر الخير الكثير ، كما عن ابن عباس ^(٧) ، روي أنه فسّر الكوثر بالخير الكثير ، فقال له سعيد بن جبیر : إنّ ناسا يقولون هو نهر في الجنة ؟ فقال : هو من الخير الكثير ^(٨) .

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٢٤ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ١٢٤ .

(٣) تفسير أبي السعود ٩ : ٢٠٥ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٢٤ .

(٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٢٤ .

(٥) تفسير الرازي ٣٢ : ١٢٤ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٢٤ .

(٧) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٢٤ .

أقول : عليه تكون جميع النعم التي أعطاه الله الظاهرة والباطنة داخلية في الخير الكثير .
وقيل : إنه النبوة ^(١) وقيل : إنه القرآن ^(٢) . وقيل : هو دين الاسلام ^(٣) . وقيل : هو الفضائل
الكثيرة التي فيه ^(٤) .
وقيل : إنه العلم الكثير ^(٥) . وقيل : إنه الخلق الحسن ، لانتفاع عموم الناس به ^(٦) . وقيل : إنه
رفعة الذكر ^(٧) .
وقيل : إنه المقام المحمود الذي هو الشفاعة ^(٨) .
وقيل : إنه كثرة أولاده ، لأن هذه السورة نزلت ردًا على من عابه بعدم الأولاد ، فالمعنى أنا
نعطيك نسلاً يبقون مرّ الزمان ^(٩) .
قال الفخر الرازي : فانظروكم قتل من أهل البيت ، ثمّ العالم ممتلئ منهم ، ولم يبق من بني امية في
الدنيا أحد يعبأ به ، ثمّ انظروكم كان فيهم من أكابر العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام
والنفس الزكية وأمثالهم ^(١٠) .
وقيل : هو كثرة علماء امتّه ، لأنهم كانوا كأنبياء بني إسرائيل ^(١١) . وقيل : إنه كثرة أتباعه ^(١٢) ،
وقيل : إنه هذه السورة ، لأنها مع قصرها وافية بجميع منافع الدنيا والآخرة ^(١٣) ، حيث إنّ فيها مع
قصرها إعجاز البيان وإخبار بالمغيبات ، فهي كافية لإثبات النبوة الجامعة للخيرات الدنيوية والاخرية .
وعن الصادق عليه السلام قال : « هو الشفاعة » ^(١٤) .
وعنه عليه السلام قال : « هو نهر في الجنة ، أعطاه الله نبيه صلّى الله عليه وآله [عوضاً من ابنه] » ^(١٥) .
وروى الصدوق عن ابن عباس قال : لما نزل على رسول الله صلّى الله عليه وآله ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قال له
علي بن أبي طالب عليه السلام : ما الكوثر يا رسول الله ؟ قال : « هو نهر ، أكرمني الله به » قال وعلي عليه السلام
: « هو نهر شريف ، فأنعته لنا يا رسول الله » . قال : « نعم يا علي ، الكوثر نهر يجري من تحت عرش
الله ، مأوّه أشدّ بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وألين من الزبد ، حصاه الزبرجد والياقوت والمرجان
، حشيشه الزعفران ، ترابه المسك الأذفر ^(١٦) ، قواعده تحت عرش الله عزّ وجلّ » . ثمّ ضرب رسول الله
صلّى الله عليه وآله على جنب أمير المؤمنين عليه السلام وقال : يا علي ، هذا النهر لي ولك ولحبّيك من بعدي ^(١٧) .
وفي (الخصال) عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « أنا مع رسول الله صلّى الله عليه وآله ومع عترتي وسبطي
^(١٨) على الحوض ، فمن أرادنا فليأخذ بقولنا ، وليعمل عملنا ، فإنّ لكلّ أهل نجيباً ، ولنا نجيب ، ولنا
الشفاعة ،

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٢٤ .

(٢و٣) تفسير الرازي ٣٢ : ١٢٦ .

(٤ - ٨) تفسير الرازي ٣٢ : ١٢٧ .

(٩ - ١١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٢٤ .

(١٢) تفسير الرازي ٣٢ : ١٢٦ . (١٣) تفسير الرازي ٣٢ : ١٢٧ .

(١٤و١٥) مجمع البيان ١٠ : ٨٣٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨٢ .

(١٦) الأذفر : الشديد الرائحة .

(١٧) أمالي الطوسي : ٦٩ / ١٠٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨٢ .

(١٨) في النسخة : ومع عترتي .

ولأهل مودّتنا الشفاعة ، فتنافسو في لقائنا على الحوض ، فإتّنا نذود عنه أعداءنا ، ونسقي منه أحبّاءنا وأولياءنا ، من شرب منه شربة لم يظلمأ بعدها أبداً ، حوضنا فيه مئعبان ^(١) ينصبّان من الجنّة : أحدهما من تسنيم ، والآخر من معين ، على حافته الزعفران ، وحصاه اللؤلؤ ، وهو الكوثر ^(٢) .

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ * إِنَّ شَأْنَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٢) وَ (٣)﴾

ثمّ إنّّه تعالى بعد ما فضّل نبيه ﷺ على العالمين بإعطائه الكوثر ، طالبه بشكره بأمره بالقيام بعبوديته وتعظيمه بقوله : ﴿فَصَلِّ﴾ يا حبيبي الصلاة التي هي جامعة لجميع وظائف العبودية وشؤون التعظيم ﴿لِرَبِّكَ﴾ المتفضل عليك بالنعم التي لا تحصى أداء لشكره عليها.

قيل : إنّّه تعالى لما أمر نبيه ﷺ بالصلاة قال ﷺ : « كيف اصلي ، ولست على وضوء ؟ » فقال الله ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ثمّ ضرب جبرئيل بجناحه على الأرض ، فنبع ماء الكوثر فتوضّأ ^(٣) . ثمّ أمره بأفضل العبادات المالية بقوله : ﴿وَأَنْحَرْ﴾ البدن التي هي أنفس الأموال عند العرب. وقيل : لما كانت صلاة المشركين ونحرهم للأصنام ، قال سبحانه : لتكن صلاتك ونحرك لربّك ^(٤) .

وقيل : اريد بالصلاة صلاة العيد الأضحى ، وبالنحر النحر للأضحية ^(٥) .

وقيل : يعني صلاة الفجر بالمزدلفة ، والنحر بمنى ^(٦) .

وقيل : يعني استقبال في الصلاة بنحرك إلى القبلة ^(٧) .

وقيل : يعني ارفع يديك إلى نحرك عند تكبيرات الصلاة ^(٨) .

روى بعض العامة عن الأصبع بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « لما نزلت هذه السورة قال النبي ﷺ لجبرئيل : ما هذه النحرية التي أمرني بها ربّي ؟ قال : ليست بنحرية ، ولكنّه يأمرك إذا تحرّمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من السجود وإذا سجدت ، فإنّه صلاتنا وصلاة الملائكة الذين في السماوات السبع ، وإنّ لكلّ شيء زينة وزينة الصلاة رفع اليدين عند كلّ تكبير ^(٩) » .

وروا عنه عليه السلام أنّه فسّر هذا بوضع اليدين على النحر في الصلاة ، وقال : رفع اليدين قبل الصلاة عادة المستجير العائد ، ووضعها على النحر عادة الخاضع الخاشع ^(١٠) .

(١) في النسخة : مشعبان ، والمتعب : مسيل المياه.

(٢) الخصال : ٦٢٤ / ١٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨٣.

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ١٢٩.

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ١٣٠.

(٥) تفسير الرازي ٣٢ : ١٣٠ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٢٥.

(٦) تفسير الرازي ٣٢ : ١٣٠ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٢٠٥.

(٧) تفسير أبي السعود ٩ : ٢٠٥.

(٨) جوامع الجامع : ٥٥٤ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٢٠٥.

(٩) مجمع البيان ١٠ : ٨٣٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨٣ ، تفسير الرازي ٣٢ : ١٢٩.

(١٠) تفسير الرازي ٣٢ : ١٢٩.

وقيل : يعني ارفع يديك عقيب الدعاء إلى نحر^(١) . وقيل : يعني اقعد بين السجدين حتى يبدوا نحر^(٢) ، وهذه الأقوال كلها متفقة على أنّ النحر بمعنى الصدر .

وعن الصادق عليه السلام : « هو رفع اليدين حذاء وجهك »^(٣) . [وفي رواية] فقال بيده هكذا ، يعني استقبل بيده حذاء وجهه القبلة في افتتاح الصلاة^(٤) .

وعن الباقر عليه السلام أنه سئل عنه فقال : « النحر الاعتدال في القامة بأن يقيم صلبه ونحره »^(٥) . ثم إنه تعالى بعد إظهار غاية لطفه بحبيبه ، ردّ طعن المشركين عليه بأنه أبتّر بقوله : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ يا محمد ومبغضك ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ومنقطع النسل . روي أنّ العاص بن وائل كان يقول بعد موت عبد الله بن رسول الله من خديجة : إنّ محمداً أبتّر لا ابن له يقوم مقامه بعده ، فاذا مات انقطع ذكره واسترحتم ، كما عن ابن عباس وعامة المفسرين على ما قيل^(٦) .

وعن السدي : لما مات ابنه القاسم وعبد الله بمكة ، وإبراهيم بالمدينة ، كانت قريش يقولون : إنّ محمداً أبتّر ليس له من يقوم مقامه ، فأخبر الله أنّ عدوه أبتّر ، ومن معجزات النبي ﷺ حيث نرى أنّ نسل أولئك الكفار قد انقطع ، ونسله عليه السلام يزداد وينمو كل يوم إلى يوم القيامة^(٧) .

وقيل : إنّما نزلت في أبي جهل ، فأنّه لما مات ابن رسول الله قال أبو جهل : إني ابغضه لأنّه أبتّر^(٨) .

وقيل : نزلت في عمّه أبي لهب ، فأنّه لما شافهه بقوله : تبا لك ، كان يقول في غيبته : إنّّه أبتّر^(٩) .

وقيل : نزلت في عقبة بن أبي معيط ، وإنّه هو الذي كان يقول ذلك^(١٠) .

وقيل : إنّ الأبتّر هو المنقطع عن قومه^(١١) ، قيل : لما أوحى الله إلى رسوله ودعا قريشا إلى الاسلام قالوا : أبتّر محمد ، أي خالفنا وانقطع عنا^(١٢) .

وعن ابن عباس : لما قدم كعب بن الأشرف مكة أتاه جماعة من قريش ، فقالوا : نحن أهل السقاية والسدانة ، وأنت سيد أهل المدينة ، أفنحن خير أم هذا الأبتّر من قومه ، يزعم أنه خير منا ؟ ! فقال : بل أنتم خير منه ، فنزل ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾^(١٣) .

وقيل : إن المراد بالأبتّر هنا المنقطع عن المقصود قبل بلوغه ، فأجابهم الله تعالى أنّ خصمه هو الذي يكون كذلك ، فاتّهم صاروا مدبرين مغلوبين مقهورين ، وصارت رايات الاسلام عالية وأهل الشرق

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٣٠ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٢٥ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ١٢٩ .

(٣ - ٥) مجمع البيان ١٠ : ٨٣٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨٣ .

(٦) تفسير الرازي ٣٢ : ١٣٢ ، وعن مقاتل والكلبي وعامة أهل التفسير .

(٧ - ١١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٣٣ .

(١٢ و ١٣) تفسير الرازي ٣٢ : ١٣٢ .

والغرب لها متواضعة ^(١) .

وقيل : إنّ المراد به من لا ناصر له ولا معين ، فكذبهم الله ؛ لأنّ الله هو مولاه وجبرئيل وصالح المؤمنين ، وأنّ الكفار لا ناصر لهم ^(٢) .

وقيل : إنّ المراد به الحقير الذليل ، روي أنّ أبا جهل اتّخذ ضيافة لقومه ، ثمّ قال : محمد ابتر ، ثمّ قال : قوموا حتى نذهب إلى محمد وأسارعه واجعله ذليلاً حقيراً ، فلمّا وصلوا إلى دار خديجة ، وتوافقوا على ذلك ، أخرجت خديجة بساطاً ، فلمّا تصارعا جعل أبو جهل يجتهد في أن يصصره ، وبقي النبي واقفاً كالجلبل ، ثمّ بعد ذلك رماه النبي ﷺ على أقبح وجه ، فلمّا رجع أخذه باليد اليسرى ، فصصره على الأرض مرة أخرى ، ووضع قدمه على صدره ^(٣) .

وقيل : إنّ المراد من قوله : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ هذه الواقعة ^(٤) .

وقيل : إنّ لما نسب النبي ﷺ إلى القلّة والذلّة ، ونفسه بالكثرة والدولة ، قلب الله الأمر عليه ، ويبيّن أن العزيز من أعزّه الله ، والذليل من أذلّه الله ، والكثرة والكوثر لمحمد ، والابتية والذمّامة ^(٥) والذلّة لعدوّه ، فكان من أول السورة وآخرها نوع مطابقة.

وقيل : إنّ المراد به المنقطع عن الملك والسلطنة ، وقد مرّ أنّ رجلاً قام إلى الحسن بن علي وقال : سوّدت وجه المؤمنين بأن تركت الإمامة لمعاوية ، فقال : « لا تؤذيني يرحمك الله ، فإنّ رسول الله ﷺ رأى بني أمية في المنام يصعدون منبره رجلاً رجلاً ، فسأه ذلك ، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ و﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ فقال : ملك بني أمية كذلك ، ثمّ انقطعوا وصاروا مبتورين ^(٦) .

وقيل : إنّ المراد أنّ كلامهم الفاسد في حقّك منقطع ومضمحلّ ، وأمّا المدح الذي ذكرناه فيك فإنّه باق على وجه الدهر ^(٧) .

عن القمي رحمه الله قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد ، وفيه عمر بن العاص والحكم بن العاص ، فقال عمرو : يا أبتر ، وكان الرجل في الجاهلية إذا لم يكن له ولد سمّي أبتر. ثمّ قال عمرو : إيّ لأشناً محمداً أي أبغضه ، فأنزل الله على رسوله السورة ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي مبغضك ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي لا دين له ونسب ^(٨) .

ومما تضحك به الثكلى معارضة مسلمة لهذه السورة بقوله : إنا أعطيناك الجماهر ، فصلّ لربك وهاجر ، إن مبغضك رجل كافر. فإنّ تغيير ثلاث كلمات لا يكون معارضة مع عدم المناسبة بين

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٣٣ .

(٢-٤) تفسير الرازي ٣٢ : ١٣٣ .

(٥) في تفسير الرازي : والدناءة .

(٦ و٧) تفسير الرازي ٣٢ : ١٣٤ .

(٨) تفسير القمي ٢ : ٤٤٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٢٨٣ .

الإعطاء والجواهر والصلاة والهجرة ، وحكم الذوق السليم بركافته .
عن الصادق عليه السلام : « من كان قراءته ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ في فرائضه ونوافله ، سقاه الله من
الكوثر يوم القيامة وكان محله عند رسول الله ﷺ في أصل شجرة طوبى » (١) .

(١) ثواب الأعمال : ١٢٦ ، مجمع البيان ١٠ : ٨٣٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨٤ .

في تفسير سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا

أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (١) و (٥)﴾

ثم لما ختمت سورة ثم لما ختمت سورة الكوثر المتضمنة لغاية إنعام الله وتفضله على رسوله وأمره بعبادته ، نظمت سورة الجحد المتضمنة لامتناع الرسول ﷺ عن عبادة غير الله ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم خاطب نبيه بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد تقرّيعا للمشركين الذين طعنوا فيك بأنك أبتّر ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ قيل : في ندائهم بهذا الوصف الذي يستزدلونه في بلدهم ودار عزّهم وشوكتهم ، إيدان بذلهم ، وكونه ﷺ محروسا منهم ^(١) ، وأنه مؤيّد من الله .

روي أنّ رهطا من عتاة المشركين كالوليد بن المغيرة وأبي جهل والعاص بن وائل وأمية بن خلف والأسود بن عبد يغوث والحارث بن قيس وأضرابهم ، قالوا لرسول الله ﷺ : هلمّ فاتّبع ديننا ونتبّع دينك ، تعبد إلّنا سنة ونعبد إلّك سنة ، فيحصل الصّلاح بيننا وبينك ، وتنزل العداوة. فقال : « معاذ الله أن أشرك بالله غيره » فقالوا : استلم بعض آلهتنا نصّدّقك ونعبد إلّك ، فنزلت ^(٢) السورة : ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ من دون الله أبدا ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ﴾ بعد ﴿مَا أَعْبُدُ﴾ الله الواحد الذي لا إلّه غيره ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ﴾ في حال من الأحوال ﴿مَا عَبَدْتُمْ﴾ من الأصنام والكواكب ، فلا تطمعوا ميّ ذلك الأمر المحال ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ﴾ في وقت من الأوقات ﴿مَا أَعْبُدُ﴾ وهو الله الواحد الذي خلق جميع الأشياء بقدرته ، لتصلّبكم في دينكم الباطل ، ولجأكم وعنادكم للحقّ. قيل : إنّ التّكرار للتأكيد ^(٣) ، فإنّ الكفّار - على ما قيل - رجعوا إلى رسول الله ﷺ في ذلك مرارا ، وسكت

(٢١) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٢٦ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ١٤٥ .

الرسول ﷺ عن جوابهم ، فوقع في قلوبهم أنه قد مال إلى دينهم بعض الميل ، فنزلت الآية مكرراً ^(١) .
 وقيل : إنّ الكفار قالوا : استلم بعض آلهتنا حتى نؤمن لك ، فأنزل الله : ﴿لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أُعْبُدُ﴾ ثم قالوا بعد مدّة : تعبد آلهتنا شهراً أو سنه ، ونعبد إلهك شهراً أو سنه ، فأنزل : ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أُعْبُدُ﴾ ^(٢) .

وذكر كلمة ﴿مَا﴾ في قوله : ﴿مَا أُعْبُدُ﴾ مع أنّها لغير ذوي العقول ، لإرادة الصفة بها ، والمعنى : لا أعبد الباطل الذي تعبدونه ، ولا أنتم عابدون الحقّ الذي أعبد ، كذا قيل ^(٣) . وقيل : إنّها بمعنى (الذي) ^(٤) أو مصدرية ، والمعنى ، لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي في المستقبل ، ثم قال ثانياً : لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي في الحال ^(٥) .

وقيل : إنّ ذكرها لا تساق الكلام ، فأنّه تعالى لما قال أولاً ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ حمل الثاني عليه ، كما قال : ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ ^(٦) .

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٦)

ثمّ كآته قال : إنّ أردتم الصّلاح ، فإنّ الصّلاح بيننا وبينكم أن ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ لا تتركونه ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ لا أتركه ولا أرفضه.

عن ابن عباس قال : يريد لكم كفركم بالله ، ولي التوحيد الخالص ^(٧) .

وقيل : لكم دينكم فكونوا عليه إن كان الهلاك خيراً لكم ^(٨) .

وقيل : إنّ الدين هو الحساب ، والمعنى : لكم حسابكم ، ولي حساب أعمالي ، لا يرجع عمل كلّ إلّا على عامله ^(٩) .

وقيل : يعني لكم جزاء أعمالكم ودينكم وبالا وعقابا ، ولي جزاء ديني ثوابا وتعظيماً ^(١٠) .

وقيل : إنّ الدين هو العقوبة ^(١١) ، والمعنى : لكم العقوبة من ربّي ، ولي العقوبة من أصنامكم ، وفيه تهديد وتهكّم ^(١٢) .

عن الصدوق في (الامالي) : شأن نزول السورة أنّ نفراً من قريش اعترضوا لرسول الله ﷺ منهم: عتبة بن ربيعة وامية بن خلف والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل أو سعد ^(١٣) ، فقالوا : يا محمد ، هلمّ فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فان يكن الذي نحن عليه حقّاً فقد

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٤٦ .

(٢-٥) تفسير الرازي ٣٢ : ١٤٦ .

(٦) تفسير الرازي ٣٢ : ١٤٦ ، والآية من سورة الشورى : ٤٢ / ٤٠ .

(٧) تفسير الرازي ٣٢ : ١٤٧ ، وفيه : التوحيد والإخلاص له .

(٨ و ٩) تفسير الرازي ٣٢ : ١٤٧ .

(١٠-١٢) تفسير الرازي ٣٢ : ١٤٧ .

(١٣) في أمالي الطوسي : العاص بن سعيد ، وفي مجمع البيان ١٠ : ٨٤٠ ، العاص بن أبي وائل .

أخذت بحظك ، وإن يكن الذي أنت عليه الحق فقد أخذنا بحظنا منه ، فأنزل الله السورة ^(١) .
وفي الرواية العامة السابقة : فعدا رسول الله إلى المسجد [الحرام] وفيه المأ من قريش ، فقام على رؤوسهم فقرأها عليهم [فأيسوا] ^(٢) منه عند ذلك ، فأذوه وأصحابه ^(٣) .
وعن القمي : سال أبو شاعر الديصاني أبا جعفر الأحول عن تكرار الآية في السورة ، وقال : هل يتكلم الحكيم بمثل هذا القول ويكرره مرة بعد أخرى ؟ ! فلم يكن عند الأحول في ذلك جواب ، فدخل المدينة فسأل الصادق عليه السلام عن ذلك ، فقال : « كان سبب نزولها وتكرارها أن قريشا قالت لرسول الله ﷺ تعبد آلهتنا سنة ، وتعبد إلهك سنة ، وتعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فأجابهم الله بمثل ما قالوا » ^(٤) .

وعنه عليه السلام : « من قرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في فريضة من الفرائض ، غفر الله له ولوالديه ، وإن كان شقيا محي من ديوان الأشقياء واثبت في ديوان السعداء ، وأحياه الله سعيدا ، وأماته سعيدا ، وبعثه شهيدا » ^(٥) .
وعنه عليه السلام : « كان أبي يقول : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ربع القرآن ، وكان إذا فرغ منها قال أعبد الله وحده ، أعبد الله وحده » ^(٦) .

وعنه عليه السلام ، « إذا فرغت منها فقل : ديني الاسلام ، [ثلاثا] » ^(٧) .
وروت العامة عن ابن عباس : ليس سورة في القرآن أشق على الشيطان من هذه السورة الكريمة ، لأنها توحيد محض وبراءة من الشرك ، فمن قرأها برئ من الشرك ، وتباعد عنه مردة الشياطين ، وأمن من الفرع الأكبر ، وهي تعدل ربع القرآن ^(٨) .

وفي الحديث العامي : « مروا صبيانكم فليقرؤوها عند المنام ، فلا يعرض لهم شيء ، ومن خرج مسافرا فقرأ هذه السور الخمس : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ رجع سالما ، ولا تصبه آفة ومصيبة » ^(٩) .

(١) أمالي الطوسي : ١٩ / ٢٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨٥ .

(٢) في النسخة : فراغ .

(٣) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٢٦ ، مجمع البيان ١٠ : ٨٤٠ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٤٤٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨٥ .

(٥) ثواب الأعمال : ١٢٧ ، مجمع البيان ١٠ : ٨٣٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨٦ .

(٦) الكافي ٢ : ٤٥٤ / ٧ ، وفيه إلى : ربع القرآن ، مجمع البيان ١٠ : ٨٣٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨٦ ، وفيه : أعبد الله وحده ، مرة واحدة .

(٧) تفسير القمي ٢ : ٤٤٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨٦ .

(٨و٩) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٢٨ .

في تفسير سورة النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ (١) و (٢).

ثم لما ختمت سورة الجحد المتضمنة لأمر النبي ﷺ بخطاب أهل مكة بأشنع الخطاب ، والإعلان بالتبري من عبادة أصنامهم المؤذن لجميع ذلك بعدم مبالاته إياهم ، وكونه محروسا منهم ومنصورا عليهم ، نظمت سورة النصر المبشرة بنصرته على الكفار ، ودخول الناس في دينه ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم ابتدأها بتبشير نبيه ﷺ بالنصر والغلبة على الكفار ، وفتح مكة الذي كان من أهم مطالبه بقوله : ﴿إِذَا جَاءَ﴾ ك يا محمد ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾ والغلبة التامة على أعداء الدين من قريش وسائر العرب ﴿وَالْفَتْحُ﴾ الذي تأمله وتنتظره بسبب نصر الله وإعانتة إياك عليه ، وهو فتح مكة التي هي مولدك ومسكن آبائك.

قيل : لما قال : ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ خاف من قريش وسائر العرب بعض الخوف ، فقلل في الخشونة وقال : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فأمنه تعالى وقال : لا تخف فإنّي لا أذهب بك إلى النصر ، بل أجيء بالنصر إليك ^(١) .

عن ابن عباس : الفتح هو فتح مكة ، وهو الفتح الذي يقال له فتح الفتوح ^(٢) .

روي أنه لما كان صلح الحديبية ، وانصرف رسول الله ﷺ ، أغار بعض من كان على عهد قريش على خزاعة ، وكانوا على عهد رسول الله ﷺ ، فجاء سفير ذلك القوم وأخبر رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليه ، ثم قال : أما إنّ هذا العارض يخبرني أنّ الظفر يجيء من الله ، ثم قال لأصحابه : انظروا. فإنّ أبا سفيان يجيء ويلتمس أن يجدد العهد ، فلم تمض إلا ساعة أن جاء الرجل ملتمسا لذلك ، فلم يجبه رسول الله ﷺ ولا أكابر الصحابة ، فالتجأ ، إلى فاطمة ، فلم ينفعه ذلك ، فرجع إلى مكة آيسا ،

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٥٠ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ١٥٣ .

وتجهّز رسول الله ﷺ إلى المسير لمكة.

ثمّ روي أنّ سارة مولاة بني هاشم أتت المدينة ، فقال لها النبي ﷺ : جئت مسلمة ؟ « قالت : لا ، لكن كنتم الموالي ولي حاجة. فحثّ عليها رسول الله ﷺ بني عبد المطلب فكسوها وحملوها وزودوها ، فأتاها حاطب بن أبي بلعنة بعشرة دنانير ، واستحملها كتابا إلى مكة نسخته : اعلّموا أنّ رسول الله يريدكم ، فخذوا حذرکم ، فخرجت سارة ، فنزل جبرئيل بالخبر ، فبعث رسول الله عليا عليه السلام وعمارا في جماعة أمرهم أن يأخذوا الكتاب ، وإلا فاضربوا عنقها. فلما أدركوها جحدت وحلفت ، فسلّ عليّ سيفه ، وقال : والله ما كذبنا ، فأخرجته من عقيصة شعرها ، واستحضر النبي ﷺ حاطبا ، وقال : « وما حملك عليه ؟ » فقال : والله ما كفرت منذ أسلمت ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكن كنت غريبا في قريش ، وكلّ من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم ، فخشيت على أهلي ، فأردت أن اتّخذ عندهم يدا.

فقال عمر : دعني - يا رسول الله - أضرب عنق هذا المنافق. فقال : « وما يدريك - يا عمر - لعلّ الله قد اطلّع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » فغاضت عينا عمر. أقول : لا يخفى ما فيه من الطعن على عمر.

ثمّ خرج رسول الله ﷺ ثمّ نزل بمز الظهران ، وقدم العباس عمّ النبي مع أبي سفيان إليه فاستأذناه ، فأذن لعمّه خاصّة ، فقال أبو سفيان : إمّا أن تأذن لي ، وإلا أذهب بولدي إلى المفازة فيموت جوعا وعطشا ؛ فرقّ قلبه الشريف ، فأذن له ، وقال له : « ألم يأن أن تسلم وتوحّد ؟ » فقال : أظنّ أنّه واحد ، ولو كان هاهنا غير الله لنصرنا. فقال له : « ألم يأن أن تعرف أنّي رسول الله ؟ » فقال : إنّ لي شكّا في ذلك. فقال العباس : أسلم قبل أن يقتلك عمر ، فقال : وما أصنع بالعزّ ؟ فقال عمر : لو لا أنّك بين يدي رسول الله لضربت عنقك.

فقال : يا محمد ، أليس الاولى أن تترك هؤلاء الأوباش وتصلح قومك وعشيرتك ، فسكّان مكة عشيرتك وأقاربك وتعرضهم للشنّ والغارة ؟ فقال رسول الله : « هؤلاء نصروني وأعانوني وذوّوا عن حريمي ، وأهل مكة أخرجوني وظلموني ، فان اسروا فبسوء صنعهم » .

وأمر العباس بأن يذهب به ، ويوقفه على المرصاد ليطالع العسكر ، فكانت الكتيبة تمرّ عليه فيقول : من هذا ؟ فيقول العباس : هو فلان من امراء الجند والعسكر ، إلى أن جاءت الكتيبة الخضراء التي لا يرى منها إلّا الحدق قال من هم ؟ فقال العباس ، هذا رسول الله ﷺ ، فقال : لقد اوتي ابن أخيك ملكا

عظيما ! فقال العباس : هو النبوة. فقال : هيهات النبوة.

ثم تقدّم رجل ودخل مكة وقال : إنّ محمدا جاء بعسكر لا يطيقه أحد ، فصاحت هند وقالت : اقتلوا هذا المبشّر ، وأخذت بلحيته ، فصاح الرجل فدفّعها عن نفسه ، فلمّا سمع أبو سفيان أذان القوم للفجر ، وكانوا عشرة آلاف فرغ لذلك فرعا شديدا ، وسأل العباس ، فأخبره بأمر الصلاة ، ودخل رسول الله ﷺ مكة على راحلته ، ولحيته على قريوس سرجه كالساجد تواضعا وشكرا ، ثمّ التمس أبو سفيان الأمان ، فقال رسول الله ﷺ : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » فقال أبو سفيان : ومن تسع داري ؟ فقال ﷺ : « من دخل المسجد فهو آمن » فقال أبو سفيان : ومن يسع المسجد. فقال النبي ﷺ : « من ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » .

ثمّ وقف رسول الله على باب المسجد ، وقال : لا إله إلاّ الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب جنده ، أو وحده » ثمّ قال : « يا أهل مكّة ، فما ترون أيّ فاعل بكم ؟ » فقالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ^(١) .

ثمّ إن القوم بايعوا رسول الله ﷺ على الاسلام ، فصاروا يدخلون في دين الله أفواجا .
ثمّ اعلم أنّ فتح مكة كان في سنة ثمان من الهجرة ، وقال بعض مفسّري العامة : إنّ السورة نزلت قبل الفتح ^(٢) ، فيكون ما فيها إخبارا بالغيب ، ودليلا على صحّة النبوة ، وقال بعض : إنّها نزلت في سنة عشرة ^(٣) .

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : « لما نزلت هذه السورة مرض رسول الله ﷺ ، فخرج إلى الناس فخطبهم وودعهم ، ثمّ دخل المنزل فتويّ بعد أيام » ^(٤) .
وروي أنّه دعا فاطمة عليها السلام فقال : يا بنتاه إنّ نعيّ إليّ نفسي « فبكت فقال : « لا تبكي ، فإنّك أول أهلي لحوقا بي » فضحكت » ^(٥) .

وعن ابن مسعود : أنّ هذه السورة تسمّى سورة التوديع لما فيها من الدلالة على توديع الدنيا ^(٦) .
وقيل : إنّ المراد بالفتح فتح خيبر ^(٧) وقيل : إنّ فتح الطائف ^(٨) . وقيل : إنّ فتح بلاد الشرك على الاطلاق ^(٩) ، ويدلّ على كون المراد فتح مكّة تعريفه بلام العهد ، فإنّ المعهود عندهم هو ذلك الفتح ، وإنّ الناس قبل فتح مكة كانوا يدخلون في الاسلام واحدا بعد واحد واثنين اثنين ، والله سبحانه

قرن

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٥٣ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ١٥٥ ، تفسير أبي السعود ٩ : ٢٠٨ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٢٨ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ١٥٥ .

(٤ - ٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٣١ .

(٧ - ٩) تفسير الرازي ٣٢ : ١٥٥ .

بذكر الفتح قوله : ﴿وَرَأَيْتَ﴾ وأبصرت ﴿النَّاسَ﴾ وعامة العرب ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بالطوع والرغبة ﴿فِي دِينِ﴾
الله ﴿وَمِلَّةِ﴾ الإسلام حال كونهم ﴿أَفْوَاجًا﴾ وجماعات كثيرة كأهل مكة والطائف واليمن وهوازن وسائر
قبائل العرب.

روي أَنَّ النبي ﷺ لما فتح مكة أقبلت العرب بعضها على بعض ، فقالوا : إذا ظفر بأهل مكة
وأهل الحرم ، فلن يقاومه أحد ، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ومن كل من أرادهم من الجبابرة
، فكانوا يدخلون في دين الاسلام أفواجا من غير قتال (١) .

وقيل : لم يمت رسول الله ﷺ وفي العرب رجل كافر ، بل دخل الكل في الاسلام بعد حنين ،
منهم من قدم إلى رسول الله ﷺ ومنهم من قدم وافده (٢) .

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري أَنَّهُ بكى ذات يوم ف قيل له في ذلك ، فقال : سنت رسول الله
ﷺ يقول : « دخل الناس في دين الله أفواجا ، وسيخرجون منه أفواجا » (٣) .

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (٣)

ثم لما بشر سبحانه حبيبه بالنصر على الأعداء الدال على كمال قدرته ، أمره بتسبيحه وتنزيهه عن
الشرك والعجز بقوله : ﴿فَسَبِّحْ﴾ ونزه إليك - يا محمد - عن العجز والنقص الامكانية ، ولما بشره
بنعمة الفتح أمره أن يقرن تسبيحه (٤) بحمده على نعمة التي منها الفتح ، وكأنه تعالى قال : فسبح حال
كونك متلبسا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ المنعم عليك.

ثم أوماً إلى كمال دينه وتمام أمر دعوته وقرب أجله بقوله : ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ لما فرط منك من ترك
الأولى والأفضل ، ولذنوب الداخلين في دينك ، أو هضما لنفسك ، واستصغارا لعملك ، واستعظاما
لحقوقه ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿كَانَ﴾ بذاته وبلطفه ﴿تَوَّابًا﴾ ومبالغا في قبول التوبة بحيث يعامل مع التائب معاملة
من لم يذنب.

قيل : إنَّ علّة الأمر بالاستغفار كونه تعالى غفّارا ، وأمّا التعليل بكونه توابا للدلالة على أنَّ المقدّر
، وتب إنّه كان توابا ، والامر بالتوبة بعد الاستغفار للدلالة على أنَّ طلب المغفرة لا ينفع إلّا إذا قرن
بالندم على المعاصي ، والعزم على عدم العود (٥) .

روت عائشة أَنَّهُ كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه السورة يكثّر أن يقول : « سبحانك اللهم

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٥٧ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٢٩ .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٢٩ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ١٥٧ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٣٠ .

(٤) في النسخة : بتسبيحه .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٣٢ .

وبحمدك ، استغفرُك وأتوب إليك » ^(١) .

وعنها أيضا : كان نبي الله ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال : « سبحان الله وبحمده » . فقلت يا رسول الله انك تكثر من قول سبحان الله وبحمده ، قال : إني أمرت بها وقرأ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ ^(٢) . وروي ذلك عن أم سلمة أيضا ^(٣) .
وقالت أيضا : كان الرسول ﷺ يقول كثيرا في ركوعه : سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي ^(٤) .

وعن ابن مسعود : لما نزلت هذه السورة كان يكثّر من أن يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي ، إني أنت التواب الغفور » ^(٥) .
عن الصادق عليه السلام : « أن أول ما نزل ﴿افْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وآخره ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ » ^(٦) .
وعنه عليه السلام : « من قرأ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ في نافلة أو فريضة ، نصره الله على جميع أعدائه ، وجاء يوم القيامة ومعه كتاب ينطق قد أخرجه الله من جوف قبره ، فيه أمان من جسر جهنم ، ومن النار ، ومن زفير جهنم ، فلا يمر بشيء يوم القيامة إلا بشّره وأخبره بكل خير حتى يدخل الجنة ، ويفتح له في الدنيا من أسباب الخير ما لم يتمنّ ولم يخطر على قلبه » ^(٧) .

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٦٠ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٣١ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ١٦٠ .

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٨٤٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨٧ .

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ١٦٠ .

(٥) تفسير الرازي ٣٢ : ١٦٠ .

(٦) الكافي ٢ : ٤٦٠ / ٥ ، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٦ / ١٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨٧ .

(٧) ثواب الأعمال : ١٢٧ ، مجمع البيان ١٠ : ٨٤٣ ، وفيه إلى قوله : يدخل الجنة .

في تفسير سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (١) وَ (٢)﴾

ثم لما ختمت سورة النصر المتضمنة لبيان تمامية دعوة الرسول ﷺ ، ونفذ كلمته ، ودخول الناس في دينه ، ونصرته على أعدائه ، نظمت سورة أبي لهب المتضمنة لبيان خبث ^(١) أبي لهب وذم زوجته أم جميل ^(٢) الساعيين في الإخلال بأمر رسالته وإطفاء نوره ، وغاية خسرتها [في] معاندته ، فابتدأها بذكر الأسماء الحسنی بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم افتتحها بذكر خسران أبي لهب في معاندته للرسول ﷺ بقوله : ﴿تَبَّتْ﴾ وخسرت ، أو خابت ﴿يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ روي أن رسول الله ﷺ صعد على الصفا ذات يوم ، وقال : « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : مالك ؟ قال : « أرايتم إن أخبرتكم أنّ العدو مصبحكم أو ممسيكم ، أما كنتم تصدقوني ؟ » قالوا : بلى . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تباً لك ، ألهذا دعوتنا ! فنزلت السورة » ^(٣) .

وروي أيضاً أنه ﷺ جمع أعمامه ، وقدم إليهم طعاماً في صحفة ، فاستحقروه . وقالوا : إنّ أحدنا يأكل كل الشاة ، فقال : « كلوا » فأكلوا حتى شبعوا ولم ينقص من الطعام إلّا اليسير ، ثم قالوا : فما عندك ؟ فدعاهم إلى الاسلام . فقال أبو لهب : تباً لك ، ألهذا دعوتنا ! ^(٤)

وروي أنه قال أبو لهب : فما لي إن أسلمت ؟ فقال : « ما للمسلمين » فقال : أ فلا افضل عليهم ؟ فقال النبي ﷺ : « بماذا تفضل ؟ » فقال : تباً لك ولهذا الدين ، يستوى [فيه] أنا وغيري ^(٥) . وفي رواية : كان إذا وفد على النبي ﷺ وفد سألوا عمه عنه ، وقالوا : أنت أعلم به . فيقول لهم : إنه ساحر ، فيرجعون عنه ولا يلقونه ، فأتاه وفد فقال لهم مثل ذلك ، فقالوا : لا ننصرف حتى نراه . فقال : إنّنا لم نزل نعالجه من

(١) في النسخة : خبيثة .

(٢) في النسخة : جميلة .

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٨٥١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨٩ ، تفسير الرازي ٣٢ : ١٦٥ .

(٤) (٥٥) تفسير الرازي ٣٢ : ١٦٥ .

الجنون ، فتبا له وتعسا ، فآخبر النبي ﷺ بذلك فحزن ، فنزلت السورة ^(١) .

وفي رواية ابن عباس : اجتمعت عنده قريش فقال ﷺ : « إنّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقرين وأنتم الأقربون ، اعلموا أنّي لا أملك لكم من الدنيا حظا ، ولا من الآخرة نصيبا ، إلّا أن تقولوا : لا إله إلّا الله ، فأشهد بها لكم عند ربكم » . فقال أبو لهب ذلك : تبا لك ، ألماذا دعوتنا ! فنزلت السورة ^(٢) .

وعنه قال : ﴿ تَبَّتْ ﴾ أي خابت ، لأنّه كان يدفع القوم عنه بقوله : إنه ساحر ، فينصرفون عنه قبل لقائه . لأنّه كان شيخ القبيلة ، وكان له ﷺ كالأب ، فكان لا يتّهم ، فلمّا نزلت السورة غضب وأظهر العداوة الشديدة ، فصار متّهما ، فلم يقبل قوله في الرسول ﷺ بعد ذلك ، فكأنّه خاب سعيه وبطل غرضه ^(٣) .

قيل : إنّما ذكر سبحانه اليد ، لأنّه كان يضرب يديه على كتف الوافد عليه لدفعه ، ويقول : انصرف راشدا فإنّه مجنون ^(٤) . وقيل : يعني صفرت يدها عن كلّ خير ^(٥) ، وعليه يكون المراد باليد حقيقتها ، فإنّه كان يؤذي النبي ﷺ بيده .

روي عن طارق المخاربي أنّه قال : رأيت رسول الله ﷺ في السوق يقول : « أيّها الناس ، قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا » ورجل خلقه يرميه بالحجارة . وقد أدمى عقبه ، وقال : لا تطيعوه فإنّه كذاب ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : محمّد ، وعمّه أبو لهب ^(٦) .

وقيل : إنّما اسند الخسران أو الخيبة إلى يديه ، لما روي أنّه كان يقول : يعدني محمد أشياء لا أرى أنّها كائنة ، يزعم أنّها بعد الموت ، فلم يضع في يدي من ذلك شيئا ، ثمّ ينفخ في يديه ، ويقول : تبا لكما ، ما أرى فيكما شيئا ، فنزلت السورة ^(٧) .

أو لما روي أنّ النبي ﷺ لما دعاه نهارا فأبى ، فلمّا جنّ الليل ذهب إلى داره مستنّا بسنّه نوح ﷺ ليدعوه ليلا كما دعاه نهارا ، فلمّا دخل عليه قال له : جئتني معذرا ، فجلس النبي ﷺ أمامه كالاحتجاج ، وجعل يدعوه إلى الاسلام ، وقال : « إن كان يمنعك العار فأجبن في هذا الوقت وأسكت » فقال : لا أوّمن بك حتّى يؤمن بك هذا الجدي . فقال ﷺ للجدي : من أنا ؟ فقال : رسول الله ، واطلق لسانه فأثنى عليه ، فاستولى الحسد على أبي لهب ، فأخذ يدي الجدي فمزقه وقال : تبا لك أترّ فيك السحر ! فقال الجدي : بل تبا لك ، فنزلت السورة على وفق ذلك ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ لتمزيقه يدي الجدي ^(٨) ﴿ وَتَبَّ ﴾ وحصلت الخيبة والخسران : أو الهلاك له ، فيكون إخبارا بعد إخبار ، ولكن أراد بالأول هلاك

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٦٦ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ١٦٥ .

(٣ - ٦) تفسير الرازي ٣٢ : ١٦٦ .

(٧) تفسير الرازي ٣٢ : ١٦٧ .

(٨) تفسير الرازي ٣٢ : ١٦٧ .

عمله ، وبالثاني هلاك نفسه ، وقيل : إنّ اليد كناية عن ماله ^(١) ، والمعنى : هلك ماله ، واهلكت نفسه ، وقيل : إنّها كناية عن نفسه ^(٢) والمعنى : هلك أو خسر أو خاب نفسه ﴿وَتَبَّ﴾ ولده عتبة ، روي أنّه خرج إلى الشام مع اناس من قريش ، فلما همّوا أن يرجعوا قال عتبة : أبلغوا محمدا عني أنّي كفرت بالنجم إذا هوى ^(٣) .

وفي رواية : أنّ عتبة لما أراد الخروج إلى الشام قال : لآتين محمدا ولأؤذنيّه ، وكانت تحتها بنت رسول الله ﷺ فأتاه وقال : يا محمد ، أنا كافر بالنجم إذا هوى ، وبالذي دنا فتدلى ، ثمّ تفل في وجه رسول الله ﷺ وردّ عليه ابنته وطلّقها ، فقال ﷺ : « اللهم سلّط عليه كلبا من كلابك » فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره ، ثمّ خرجوا إلى الشام ، فنزلوا منزلا ، فأشرف عليهم راهب من الدّير ، فقال : إنّ هذه أرض مسبعة ^(٤) ، فقال أبو لهب : أعينوني يا معشر قريش هذه الليلة ، فإني أخاف على ابني دعوة محمد فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم ، وأحدقوا بعتبة ، فجاء الأسد يتخلّلهم ويشتمّ وجوههم حتّى ضرب عتبة فقتله ، وهلك أبو لهب بالعدسة بعد وقعة بدر بسبع ليال ، والعدسة على ما قيل : بثرة تشبه العدسة ، وهي من جنس الطاعون ^(٥) .

وقيل : إنّ اليد هنا كناية عن الاحسان والمّنة ، روي أنّه كان كثير الاحسان إلى رسول الله ﷺ وكان يقول : إن كان الأمر لمحمد فيكون لي عنده يد ، وإن كان لقريش فلي عندها يد ، فافخر أنّه خسرت يده التي كانت عند محمد بعناده له ، ويده التي كانت عند قريش أيضا لخسران قريش وهلاكهم في يد محمد ^(٦) .

وقيل : إنّ يده كناية عن دينه ودنياه ، وعقباه وأولاه ^(٧) .
وقيل : إنّ الجملتين دعاء عليه ^(٨) . وقيل : إنّ الاولى دعاء ، والثانية إخبار ^(٩) ، أي كان ذلك وحصل.

قيل : كان اسمه عبد العزّي ، أو عبد مناف ، وكثي بأبي لهب لتلهّب وجنتيه وإشراقهما ^(١٠) .
وإنّما ذكره سبحانه بالكنية لكونه معروفا بها ، فصارت بمنزلة اسمه ، ولأنّه وصف سبحانه نار جهنم بكونها ذات لهب ، فذكر بهذه الكنية للاشعار بموافقة مال أمره كنيته ، فمعنى كنيته أبو النار ، كما يقال : أبو الشرّ للشرير ، وأبو الخير للخير.

ثمّ إنّّه كان يقول : إن كان ما يقوله ابن أخي حقّا ، فأنا افتدي منه نفسي بما لي وأولادي ، فردّ الله تعالى عليه بقوله : ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ﴾ ولم ينفعه حينما حلّ به التّباب ﴿مَالُهُ﴾ الذي جمعه ﴿وَمَا كَسَبَ﴾

(١-٣) تفسير الرازي ٣٢ : ١٦٧ .

(٤) أي كثيرة السباع .

(٥) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٣٤ .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٣٣ .

(٧) تفسير الرازي ٣٢ : ١٦٧ .

(٨) تفسير أبي السعود ٩ : ٢١٠ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٣٣ .

(٩) تفسير أبي السعود ٩ : ٢١٠ .

(١٠) مجمع البيان ١٠ : ٨٥٢ ، تفسير الرازي ٣٢ : ١٦٨ ، ولم يذكر : عبد مناف .

من أولاده ، كما عن ابن عباس ^(١) .

وروي أنّ أطيّب ما يأكل الرجل من كسبه ، وأنّ ولده من كسبه ^(٢) .

وقيل : إنّ ﴿ما كَسَبَ﴾ عمله الشنيع من كيده في عداوة الرسول ﷺ وإقدامه في قتله ^(٣) .

وقيل : إنّ المراد بالمال هو الماشية ، ومن كسبه نتاجها ، فإنّه كان صاحب ماشية ونعم ونتاج ^(٤)

، أو المراد ماله الذي ورثه من أبيه ، ومما كسب ما كسبه بنفسه ^(٥) .

وقيل : إنّ كلمة ﴿ما﴾ استفهامية للإنكار ^(٦) ، والمعنى : أي شيء أغنى عنه في دفع التّباب ، أو

في عداوة الرسول ، أو في دفع النار.

﴿سَيَصْلِي نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (٣)﴾

ثمّ إنّّه تعالى بعد إخباره بخيئته وخسرانه في الدنيا ، أخير من سوء حاله في الآخرة وبعد الموت

بقوله : ﴿سَيَصْلِي﴾ وعن قريب يدخل بعنف ﴿نَاراً﴾ عظيمة ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ واشتعال وتوقّد ، هي نار

جهنم.

ثمّ اعلم أنّ الآيات متضمّنة لأخبار ثلاثة عن الغيب : الإخبار عنه بالتّباب والخسارة ، والإخبار

بعدم انتفاعه بماله وولده ، والإخبار بأنّه يموت على الكفر ويدخل النار ، وقد وقع جميع ذلك.

روى أبو رافع مولى رسول الله ﷺ قال : كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب ، وكان الاسلام

قد دخل [بيتنا] فأسلم العباس ، وأسلمت أمّ الفضل ، وأسلمت أنا ، وكان العباس يهاب القوم ويكتم

إسلامه ، وكان أبو لهب تخلف عن بدر ، فبعث مكانه العاص بن هشام ، ولم يتخلف رجل منهم إلّا

بعث مكانه رجلاً آخر ، فلمّا جاء الخبر عن واقعة أهل بدر وجدنا في أنفسنا قوّة ، وكنت رجلاً ضعيفاً ،

وكنت أعمل القداح ألحياً ^(٧) في حجرة زمزم ، فكنت جالسا هناك ، وعندى أمّ الفضل جالسة ، وقد

سرّنا ما جاءنا من الخبر ، إذ أقبل أبو لهب يجرّ رجليه ، فجلس على طنب ^(٨) الحجرة ، وكان ظهري إلى

ظهره ، فبينما هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فقال له أبو لهب :

كيف الخبر يا بن أخي ؟ فقال : لقينا القوم ومنحناهم أكتافنا ، يقتلوننا كيف أرادوا ، وإيم [الله] مع

ذلك تأمّلت الناس ، لقينا رجال بيض على خيل بلق بين السماء والأرض . قال أبو رافع فرفعت طنب

الحجرة ، ثمّ قلت : أولئك والله الملائكة ، فأخذني أبو لهب وضربني على الأرض ، ثمّ برك عليّ

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٦٩ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٣٤ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ١٦٩ .

(٣) جوامع الجامع : ٥٥٥ ، تفسير الرازي ٣٢ : ١٧٠ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٣٤ .

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ١٦٩ .

(٥) تفسير أبي السعود ٩ : ٢١٠ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٣٣ .

(٦) لحي القدر : قشره .

(٧) الطنب : جبل يشدّ به الحبار والسترداق ونحوهما ، أو الطرف والناحية .

فضربرني ، وكنت رجلا ضعيفا ، فقامت أم الفضل إلى عمود فضربرته على رأسه وشجّته ، وقالت : تستضعفه أن غاب سيده ، والله نحن مؤمنون منذ أيام كثيرة ، وقد صدق فيما قال. فانصرف ذليلا ، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته ، ولقد تركه ابنه ليلتين أو ثلاثا ما دفناه حتى أنقن في بيته ، وكانت قريش تتقي العدسة وعدواها كما يتقى الطاعون ، وقالوا : نخشى هذه القرحة ، ثم دفنوه وتركوه ، فهذا معنى ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾^(١) . وقيل : ثم استأجروا بعض السودان واحتملوه ودفنوه^(٢) . وقيل : لم يحفروا له حفيرة ، ولكن أسندوه إلى حائط وقذفوا عليه الحجارة من خلف الحائط حتى واروه^(٣) . وفي رواية حضروا له ثم دفعوه بعود في حفرة ، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه^(٤) .

﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤)﴾

ثم هدد سبحانه زوجته الكافرة بقوله : ﴿وَأَمْرَأَتُهُ﴾ وزوجته المسماة أم جميل^(٥) ستصلي أيضا مع زوجها نار جهنم. وقيل : إن اسمها العوراء ، وكنيتها أم جميل ، وهي اخت أبي سفيان بن حرب^(٦) ، وكانت ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ قيل : كانت تحمل الشوك والحسك والسعدان^(٧) بالليل وتنشرها في طريق رسول الله ﷺ حتى صار هو ﷺ وأصحابه في شدة وعناء^(٨) . وقيل : كان النبي ﷺ يطأها كما يطأ الحرير^(٩) .

وقيل : إنَّها مع كثرة ما لها تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها ، فذمها سبحانه بالبخل ، ولقب حمالة على الذم ، يعني أذم حمالة الحطب^(١٠) .

وقيل : ذمها سبحانه بكونها تامة ، وحمل الحطب كناية عن مشيها بالنميمة ، فإنَّها كانت تمشي بالنميمة وتفسد بين الناس ، كأنَّها تحمل الحطب وتوقده ، أي^(١١) توري بينهم نائرة الشر^(١٢) . وقيل : كناية عن حمل الآثام^(١٣) والمعاصي ، تحمل الحطب لإحراق نفسها^(١٤) .

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٧٠ .

(٢ - ٤) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٣٤ .

(٥) في النسخة : جميلة .

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٣٤ .

(٧) السعدان : نبت ذو شوك .

(٨ و ٩) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٣٤ .

(١٠) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٣٥ .

(١١) في النسخة : وتوقدها وتوري .

(١٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٣٥ .

(١٣) تفسير الرازي ٣٢ : ١٧٢ .

(١٤) في النسخة : نفسه .

ثمّ بالغ سبحانه في ذمّها بقوله : ﴿فِي جِيدِهَا﴾ وعنقها ، أو موضع قلادتها ، كالحطّابين ﴿حَبْلٍ مِنْ مَّسَدٍ﴾ جيّد الفتل من أي شيء كان من جلد الإبل أو من اللّيف أو الخوص ، وإمّا ذمّها بذلك لأنّها كانت تحمل الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يحمل ^(١) الحطّابون لحساستها .

وقيل : إنّ بيان لسوء حالها في جهنّم ، والمقصود أنّها كما كانت في الدنيا تحمل الحطب والشوك لحساستها ، أو لا يذأء النبي ﷺ والمؤمنين ، لا تزال تحمل على ظهرها في جهنّم حزمة من حطب النار من شجرة الرّقوم والضّريع ، وفي جيدها حبل من سلاسل النار ، ولا يبعد بقاء الحبل من مسد في النار أبداً ، كما يبقى الجلد واللحم والعظم من الانسان أبداً في النار ^(٢) .

روي عن أسماء بنت عميس لما نزلت السورة جاءت أمّ جميل ، ولها ولولة ويدها حجر ، فدخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس ومعه أبو بكر ، وهي تقول :

ذَمُّ قَلِينَا _____ وَ دِينِنَا _____

و حكمة عصينا

فقال أبو بكر : يا رسول الله ، قد أقبلت إليك وأنا أخاف أن تترك. فقال ﷺ : إنّها لا تراني ، وقرأ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ ^(٣) فقالت لأبي بكر : قد ذكر لي أنّ صاحبك هجاني. فقال أبو بكر : لا وربّ هذا البيت ، ما هجاك. فولّت وهي تقول : قد علمت قريش أنّي بنت سيدها ^(٤) .

وعن الكاظم عليه السلام في حديث يذكر فيه معجزات النبي ﷺ قال : ومن ذلك أنّ أمّ جميل امرأة أبي لُب أته حين نزلت سورة تبتّ ، ومع النبي أبو بكر بن أبي قحافة فقال : يا رسول الله ، هذه أمّ جميل تريدك ومعها حجر تريد أن ترميك به ؟ فقال : « إنّها لا تراني » فقالت لأبي بكر : أين صاحبك ؟ قال : حيث شاء الله. قالت : لقد جئته ، ولو رأيته لرميته ، فأنّه هجاني ، واللات والعزّى إنّني لشاعرة. فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إنّها لم ترك ؟ قال : « لا ، ضرب الله بيني وبينها حجاباً » ^(٥) .

عن الصادق عليه السلام قال : « إذا قرأتم ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ فادعوا ^(٦) على أبي لُب ، فأنّه كان من المكذّبين بالنبي ﷺ وبما جاء به من عند الله » ^(٧) لعن الله أبي لُب .

(١) كذا ، والظاهر : يعمل أو يفعل .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ١٧٣ .

(٣) الإسراء : ١٧ / ٤٥ .

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ١٧٢ .

(٥) قرب الإسناد : ٣٢٩ / ١٢٢٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨٩ .

(٦) في النسخة : فالعوا .

(٧) ثواب الأعمال : ١٢٧ ، مجمع البيان ١٠ : ٨٥٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٨٩ .

في تفسير سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا

أَحَدٌ﴾ (١) و (٤)

ثم إنَّه تعالى بعد إذلال رأس الضلال ومحسمة الشرك ، ذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثم أمر رسوله بالاعلان بالتوحيد الخالص بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، لعموم الناس : إنَّ ربكم وخالقكم ومعبودكم ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ المستجمع لجميع صفات الكمال المبرأ والمنزه من جميع النقائص ، فهو ﴿أَحَدٌ﴾ لا مثل له ولا نظير ، ولا جزء ولا تركيب .

قيل : إنَّ الواحد والأحد بمعنى ^(١) . وقيل : إنَّ الأحد من أسمائه الخاصة التي لا تطلق على غيره تعالى ^(٢) . وقيل : ﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن ، والمعنى أنَّ الشأن والحديث هو أنَّ الله أحد ^(٣) . وفيه تفخيم لمعنى الجملة . وقيل : إنَّ المعنى ما أوحى إليَّ ممَّا سألتموه هو أنَّ الله أحد ^(٤) .

روي أنَّها نزلت حين أرسل المشركون عامر بن الطفيل إلى النبي ﷺ وقالوا : قل له شققت عصانا ، وسببت آلهتنا ، وخالفنا دين آبائك ، فان كنت فقيراً أغنيك ، وإن كنت مجنوناً داويناك ، وإن هويت امرأة زوجناكها . فقال : « لست بفقير ولا مجنون ولا هويت امرأة ، أنا رسول الله ، أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته » فأرسلوه ثانياً وقالوا : قل له بيِّن لنا جنس معبودك ، أمن ذهب أو فضة ؟ [، فأنزل الله هذه السورة ^(٥) .

عن ابن عباس قال : قدم وفد بجران ، فقالوا : صف لنا ربك أمن زبرجد أو ياقوت ، أو ذهب ، أو فضة ؟ [فقال : « إنَّ ربِّي ليس من شيء ، لأنَّه خالق الأشياء » فنزلت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قالوا : هو واحد وأنت واحد ؟ قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ^(٦) . قالوا : زدنا من الصِّفة فقال : ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ فقالوا : وما

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٧٨ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ١٧٨ .

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٨٥٩ ، جوامع الجامع : ٥٥٦ .

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ١٧٥ .

(٥) الشورى : ٤٢ / ١١ .

الصمد؟ فقال : « الذي يصمد إليه في الحوائج » ^(١) .

وعن القمي عليه السلام قال : سبب نزولها أنّ اليهود جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت : ما نسبة ربك ؟ فأنزل الله السورة ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « إنّ اليهود سألو رسول الله صلى الله عليه وآله وقالوا : انسب لنا ربك ، فلبث ثلاثا لا يجيبهم ، ثمّ نزلت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرها » ^(٣) .

وعن الباقر عليه السلام - في تفسيرها - قال : ﴿قُلْ﴾ يعني أظهر ما أوحينا إليك وتبأنك به بتأليف الحروف التي قرأناها لك ، ليهتدي بها من ألقى السمع وهو شهيد ، و﴿هُوَ﴾ اسم مكّنى مشار ^(٤) إلى غائب ، فالماء تنبيه على مكّنى ثابت ، والواو إشارة إلى الغائب عن الحواس : كما أنّ (هذا) إشارة إلى الحاضر ، أو المشاهد عند الحواس ، وذلك أنّ الكفّار تبهوا عن آلهتهم بحرف إشارة الشاهد المدرك فقالوا : هذه آلهتنا المحسوسة المدركة بالأبصار ، فاشتر أنت - يا محمد - إلى إلهك الذي تدعو إليه حتى نراه وندركه ولا ناله فيه . فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿قُلْ هُوَ﴾ فالهاء تثبت للثابت ، والواو إشارة إلى الغائب عن درك الأبصار ولمس الحواس ، وإثنه تعالى عن ذلك ، بل هو مدرك الأبصار ومبدع الحواس ^(٥) .

ثمّ قال : ﴿اللَّهُ﴾ وهو المعبود الذي أله الخلق عن درك ماهيته والإحاطة بكيفيته ، يقول العرب : أله الرجل ، إذا تحيّز في الشيء ولم يحط به علما ، ووله إذا فرغ من شيء يحذره ويخافه ، والإله هو المستور عن الخلق .

ثمّ قال : ﴿أَحَدٌ﴾ وهو الفرد المتفرد ، والأحد والواحد بمعنى ، وهو المتفرد الذي لا نظير له ، والتوحيد الاقرار بالوحدة ، وهو الانفراد ، والواحد : المتبائن الذي لا ينبعث من شيء ولا يتحد بشيء ، ومن ثمّ قالوا : إنّ بناء العدد من واحد ، وليس الواحد من العدد ، لأنّ العدد لا يقع على واحد ، بل يقع على اثنين ، فمعنى قوله : ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي المعبود الذي يأله الخلق عن إدراكه والإحاطة بكيفيته ، فرد بالهيته ، متعال عن صفات خلقه ^(٦) .

قال عليه السلام : وحدثني أبي زين العابدين ، عن أبيه الحسين بن علي عليه السلام قال : « الصمد الذي لا جوف له ، والصمد الذي قد انتهى سؤدده ، والصمد الذي لا يأكل ولا يشرب ، والصمد الذي لا ينام ، والصمد الدائم الذي لم يزل ولا يزال » .

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٧٥ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٤٤٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩٠ .

(٣) الكافي ١ : ٧١ / ١ ، التوحيد : ٩٣ / ٨ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩٠ .

(٤) في النسخة : مكّنى بها يشار بها .

(٥) التوحيد : ٨٨ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩٠ .

(٦) التوحيد : ٨٩ / ٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩١ .

قال **عليه السلام** : « كان محمد ابن الحنفية يقول : الصمد القائم بنفسه ، الغني عن غيره ، الصمد المتعالي عن الكون والفساد ، والصمد الذي لا يوصف بالتغيير والتغاير » .
 وقال **عليه السلام** : « الصمد السيد المطاع الذي ليس فوقه أمر وناه » .
 قال **عليه السلام** : وسئل علي بن الحسين **عليه السلام** عن الصمد فقال : « الذي لا شريك له ، ولا يؤوده حفظ شيء ، ولا يعزب عنه شيء » ^(١) .

قال الراوي : قال زيد بن علي **عليه السلام** : الصمد الذي إذا أراد شيئاً قال : كن فيكون ، والصمد الذي أبدع الأشياء فخلقها أضداداً وأشكالاً وأزواجاً ، وتفرد بالوحدة بلا ضد ولا شكل ولا مثل ولا ند ^(٢) .

قال : وحدثني الصادق عن أبيه : أنّ أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن علي **عليه السلام** يسألونه عن الصمد. فكتب إليهم بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فلا تخوضوا في القرآن ، ولا تجادلوا فيه ، ولا تتكلموا فيه بغير علم ، وقد سمعت جدّي رسول الله **صلى الله عليه وآله** قال : من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار ، وإنّ الله سبحانه قد فسّر الصمد فقال : ﴿ **اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ** ﴾ ثمّ فسّره وقال : ﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ .

﴿ **لَمْ يَلِدْ** ﴾ لم يخرج منه شيء كثيف ، كالولد وسائر الأشياء الكثيفة التي تخرج من المخلوقين ، ولا شيء لطيف كالنفس ، ولا تنشعب منه البدوات كالسنة والنوم ، والخطر والهّم ، والحزن والبهجة ، والضحك والبكاء ، والخوف والرجاء ، والرغبة والسأمة ، والجوع والشبع ، تعالى من أن يخرج منه شيء وأن يتولّد منه شيء كثيف أو لطيف.

﴿ **وَلَمْ يُولَدْ** ﴾ ولم يتولّد من شيء ، ولم يخرج من شيء كما تخرج الأشياء الكثيفة من عناصرها ، كالشيء من الشيء ، والدابة من الدابة ، والنبات من الأرض ، والماء من الينابيع ، والثمار من الأشجار [ولا] كما تخرج الأشياء اللطيفة من مراكزها ، كالبصر من العين ، والسمع من الاذن ، والشم من الأنف ، والذوق من الفم ، والكلام من اللسان ، والمعرفة والتمييز من القلب ، والنار من الحجر ، لا بل هو الله الصمد ، الذي لا من شيء ، ولا في شيء ، مبدع الأشياء وخالقها ، ومنشئ الأشياء بقدرته ، يتلاشى ما خلق للفناء بمشيئته ، ويبقى ما خلق للبقاء بعلمه ، فذلكم الله الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، ولم يكن له كفوا أحد » ^(٣) .

ثمّ اعلم أنّ مفسّري العامة قد ذكروا في معنى الصمد أقوالاً :

(١) التوحيد : ٩٠ / ٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩١ .

(٢) التوحيد : ٩٠ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩١ .

(٣) التوحيد : ٩٠ / ٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩٢ .

- الأول : السيد الذي يرجع إليه في الحوائج.
- الثاني : هو الذي لا خوف له.
- الثالث : هو العالم بجميع المعلومات.
- الرابع : هو السيد الحليم.
- الخامس : هو السيد الذي انتهى سؤدده.
- السادس : هو الخالق للأشياء.
- السابع : هو المقصود في الرغائب ، المستغاث به عند المصائب.
- الثامن : هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، ولا رادّ لقضائه.
- التاسع : هو السيد المعظم.
- العاشر : هو الفرد الماحد لا يقضى في أمر دونه.
- الحادي عشر : هو الغني.
- الثاني عشر : هو الذي ليس فوقه أحد.
- الثالث عشر : هو الذي لا يأكل ولا يشرب ، ويطعم ولا يطعم.
- الرابع عشر : هو الباقي بعد فناء كل شيء.
- الخامس عشر : هو الذي لم يزل ولا يزال.
- السادس عشر : هو الذي لا ينام ولا يسهو.
- السابع عشر : هو الذي لا يوصف بصفة أحد.
- الثامن عشر : هو الذي لا عيب فيه.
- التاسع عشر : هو الذي لا تعتريه الآفات.
- العشرون : هو الكامل في جميع أفعاله.
- الحادي والعشرون : نسبوا إلى الصادق عليه السلام أنه قال : « هو الذي يغلب ولا يغلب » .
- الثاني والعشرون : هو المستغنى عن كل أحد.
- الثالث والعشرون : هو الذي ايس الخلائق من الاطلاع على كيفيته.
- الرابع والعشرون : هو الذي لم يلد ولم يولد ، لأنه لا شيء يلد إلا سيورث ، ولا شيء يولد إلا سيموت.
- السادس والعشرون : هو المنزه عن قبول النقصانات والزيادات ، وعن أن يكون مورد التغييرات

والتبديلات ، وعن إحاطة الأمكنة والأزمنة والآفات والجهات ^(١) .

وقيل : إنّ معناه الواجب الوجود ^(٢) ، ولازمه تنزّهه من النقائص ووجدانه جميع الكمالات الإلهية .
روي عن الصادق عليه السلام أنه قال : قدم وفد من فلسطين على الباقر عليه السلام ، فسألوه عن مسائل فأجابهم ، ثمّ سألوه عن الصمد ، فقال : في تفسيره : الصمد خمسة أحرف ، فالألف دليل على إنيته ، وهو قوله : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ^(٣) وذلك تنبيه وإشارة إلى الغائب عن درك الحواس .

واللام دليل على إلهيته ، وأنّه هو الله ، والألف واللام يدغمان ولا يظهران على اللسان ويقعان في السمع ، ويظهران في الكتابه ، وهما دليلان [على] أنّ إلهيته بلطفه خافية لا تدرك بالحواسّ ، ولا تقع في لسان واصف ، ولا في اذن سامع ، لأنّ تفسير الإله هو الذي أله الخلق عن درك ماهيته وكيفية بحسّ أو بوهم ، لا بل هو مبدع الأوهام وخالق الحواسّ ، وانما يظهر ذلك عند الكتابة ، وهو دليل على أنّ الله تعالى أظهر ربوبيته في إبداع الخلق وتركيب أرواحهم اللطيفة في أجسادهم الكثيفة ، فإذا نظر عبد إلى نفسه لم ير روحه ، كما أنّ لام الصمد لا تتبيّن ، فلا تدخل في حاسة من الحواسّ الخمس ، فاذا نظر في الكتابة ظهر له ما خفي ولطف ، فمتى تفكّر العبد في ماهية الباري وكيفية أله فيه وتحير ، ولم تحط فكرته بشيء يتصوّر له ، لأنّه عَجَلٌ خالق التصوّر ، فإذا نظر إلى خلقه ثبت له أنّه عَجَلٌ خالقهم ومركّب أرواحهم وأجسادهم .

وأما الصاد فدليل على أنّه صادق ، وقوله صديق ، وكلامه صديق ، ودعا عباده إلى اتباع الصديق ، ووعد بالصدق دار الصديق .

وأما الميم فدليل على ملكه ، وأنّه الملك الحقّ ، لم يزل ولا يزال ولا يزول ملكه .
وأما الدالّ فدليل على دوام ملكه ، وأنه عَجَلٌ متعال ق عن الكون والزوال ، بل هو عَجَلٌ مكوّن الكائنات ، الذي كان بتكوينه كلّ كائن .

ثمّ قال : لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله حملة لنشرت التوحيد والاسلام والايمان والدين والشرائع من الصمد .

إلى أن قال الباقر : « الحمد لله الذي منّ علينا ووفّقنا لعباده ، الأحمد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، وجنّبنا عن عبادة الأوثان ، حمدا سرمدا ، وشكرا واصبا » .
ثمّ قال : « قوله عَجَلٌ : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ يقول : لم يلد فيكون له ولد يرثه ملكه ، ولم يولد

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٨١ و ١٨٢ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ١٨١ .

(٣) آل عمران : ٣ / ١٨ .

فيكون له والد يشركه في ربوبيته وملكه ، ولم يكن له كفوا أحد فيعارضه في سلطانه » ^(١) .
أقول : ما ذكره عليه السلام في تفسير الصمد ، فهو من البطون التي للقرآن ، وليس من التفسير المصطلح.

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سأل رجل عن تفسير هذه السورة فقال : « هو الله أحد بلا تأويل عدد ، الصمد تبعيض بدد ، ولم يلد فيكون موروثا هالكا ، ولم يولد فيكون إلها مشاركا ، ولم يكن من خلقه كفوا أحد ... » الخبر ^(٢) .

ثم أعلم أن تكرار اسم الجلالة قبل ﴿أَحَدٌ﴾ وقبل ﴿الصَّمَدُ﴾ للدلالة على أن كل واحد من الوصفين من لوازم الألوهية وخصائصها ، ونكتة تقديم جملة ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ على جملة ﴿لَمْ يُولَدْ﴾ هي شيوع اعتقاد أن له ولد في اليهود والنصارى في ذلك الزمان ، وأن الملائكة بنات الله في العرب ، فافتضى ذلك تقديمها ردًا عليهم.

عن السجاد عليه السلام أنه سئل عن التوحيد فقال : « إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون ، فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ والآيات من أول سورة الحديد إلى قوله : ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ^(٣) فمن رام وراء ذلك فقد هلك » ^(٤) .

أقول : الظاهر أن المراد أنه يجيء أقوام يتفكرون في ذات الله ، فردعهم الله عنه بذكر صفاته ، فمن تفكر في الذات فقد هلك.

وعن الرضا عليه السلام أنه سئل عن التوحيد فقال : « كلٌّ من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ وآمن بها ، فقد عرف التوحيد » .

قيل : كيف يقرأها ؟ قال : « كما يقرأ الناس ، وزاد فيها : كذلك الله ربِّي مرتين » ^(٥) .

وعن الباقر عليه السلام قال : « ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ ثلث القرآن » ^(٦) .

وروى الصدوق عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ مرّة ، فكأنما قرأ ثلث القرآن [ومن قرأها مرتين فكأنما قرأ ثلثي القرآن ، ومن قرأها ثلاث مرات فكأنما قرأ القرآن كله » ^(٧) .

وعن رسول الله ﷺ : « من قرأ سورة ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن] ، واعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من أشرك بالله وآمن بالله » ^(٨) .

أقول : لعل وجه كون هذه السورة بمنزلة قراءة ثلث القرآن أن عمدة مطالب القرآن كلّ التوحيد والرسالة والمعاد ، وتتمام السورة المباركة ببيان التوحيد الكامل.

(١) التوحيد : ٩٢ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩٢ .

(٢) مجمع البيان ١٠ : ٨٦٢ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩٣ .

(٣) الحديد : ٥٧ / ٦ .

(٤) الكافي ١ : ٧٢ / ٣ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩٣ .

(٥) الكافي ١ : ٧٢ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩٣ .

(٦) الكافي ٢ : ٤٥٥ / ٧ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩٤ .

(٧) كمال الدين ٥٤٢ / ٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩٤ .

(٨) تفسير الرازي ٣٢ : ١٧٤ .

وروي بطريق عامي عن النبي ﷺ أنه قال « من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرّة واحدة أعطى من الأجر كمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وأعطى من الأجر مثل مائة شهيد » (١) .

وروي أيضا أنّه كان جبرئيل مع الرسول ﷺ إذ أقبل أبو ذرّ الغفاري فقال جبرئيل : هذا أبو ذرّ قد أقبل . فقال ﷺ : « أو تعرفونه » قال : هو أشهر عندنا منه عندكم . قال ﷺ : بماذا . نال : هذه الفضيلة . قال : لصغره في نفسه ، وكثرة قراءته ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٢) .

وعن أنس قال : كنّا في تبوك فطلعت الشمس مالها شعاع ولا ضياء ، وما رأيناها على تلك الحالة قطّ قبل ذلك ، فعجب كلّنا . فنزل جبرئيل وقال : إنّ الله أمر أن ينزل من الملائكة سبعون ألف ملك ويصلّون على معاوية بن معاوية ، فهل لك أن تصلّي عليه ؟ ثمّ ضرب بجناحه الأرض فأزال الجبال ، وصار الرسول ﷺ كأنّه مشرف عليه فصلّي هو واصحابه عليه . ثمّ قال ﷺ : « بماذا بلغ ما بلغ ؟ » فقال جبرئيل : كان يحبّ سورة الإخلاص (٣) .

وروي أن النبي ﷺ دخل المسجد ، فسمع رجلا يدعو ويقول : أسألك يا أحد ، يا صمد ، يا من لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد . فقال ﷺ : غفر لك . غفر لك « ثلاث مرات (٤) .

وعن سهل بن سعد ، قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ وشكا إليه الفقر فقال : « إذا دخلت بيتك فسلّم إن كان فيه أحد ، وإن لم يكن فيه أحد فسلّم على نفسك ، واقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرّة واحدة ، ففعل الرجل ، فأدّر الله عليه رزقا (٥) حتّى أفاض على جيرانه » (٦) .

وعن أنس : أنّ رجلا كان يقرأ في جميع صلواته ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فسأله الرسول ﷺ عن ذلك ، فقال : يا رسول الله ، إني أحبّها . فقال : « حبّك إياها يدخلك الجنة » (٧) .

وعن الصادق عليه السلام : « من مضى به يوم واحد فصلّي فيه خمس صلوات ولم يقرأ فيه : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قيل له : يا عبد الله ، لست من المصلّين » (٨) .

وعنه عليه السلام : « من مضت جمعة ولم يقرأ فيها ب ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثمّ مات ، مات على دين أبي لهب » (٩) .

أقول : لعلّه محمول على تركه استخفافا .

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٧٤ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ١٧٤ .

(٣) في النسخة : فقدّر الله عليه رزقه .

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ١٧٤ .

(٥) ثواب الأعمال : ١٢٧ ، مجمع البيان ١٠ : ٨٥٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩٤ .

(٦) ثواب الأعمال : ١٢٨ ، مجمع البيان ١٠ : ٨٥٥ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩٤ .

في تفسير سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (١) وَ (٢)﴾

ثمّ لما ختمت سورة التوحيد المتضمنة للأمر بالإعلان بالتوحيد الكامل الخالص عن شوب الشرك ، وكان من لوازمه التوكّل على الله في جميع الامور والاستعاذة به من جميع الآفات والشور ، وعدم الخوف من غير الله ، نظمت سورة الفلق المتضمنة للأمر بإظهار الاستعاذة به تعالى من الشور الجسمانية ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

ثمّ ابتدأها بالأمر بإظهار الاستعاذة بالله من الشور والمضارّ الجسمانية بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، وأنت في هذا العالم الجسماني الذي يتوقّع فيه الضرر والشرّ من كلّ شيء ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وألّجىء إلى من يدفع بقدرته ظلمة الليل عن وجه الصبح الصادق ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ في العالم الجسماني وضرره ، فإنّه القادر على دفع كلّ ما يخاف العائد ويحذره .

قيل : إنّ وجه التّظلم أنّ الله تعالى لما أمر بقراءة سورة الاخلاص تنزيها له عمّا لا يليق به في ذاته وصفاته ، وكان ذلك من أعظم الطاعات ، فكأنّ العبد قال : إلّنا هذه الطاعة عظيمة بحيث لا أثق بنفسى القيام بها ؟ فأجابه تعالى : بأنّ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أي استعذ بالله والتجئ إليه حتى يوفّقك للقيام بهذه الطاعة على أكمل الوجوه (١) .

وقيل : إنّ الكفار لما سألوا الرسول ﷺ عن نسب الله وصفته ، فكأنّ الرسول ﷺ قال : « كيف أنجو من هؤلاء الجهّال الذين تجاسروا وقالوا فيك ما لا يليق بك ؟ » قال الله تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أي استعذ بي حتّى أصونك من شرّهم (٢) . وقيل : إنّ نكتة تخصيص الفلق بالذكر عند التعوّذ أنّ الصبح كالبحر (٣) بالأمن والسلامة لمن هو خائف بالليل ، فالمعنى : التجئ إلى من يعطى الخائف بالليل الأمن بطلوع الصبح حتّى يعطيك الأمن من الشور .

(٢١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٨٩ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ١٩١ .

قيل : إنّ يوسف لما بقي في الحبّ وجعت ركبتيه وجعا شديدا ، فبات نيلته ساهرا ، فلمّا قرب طلوع الصبح نزل جبرئيل بإذن الله يسليّه ويأمره بأن يدعو ربّه فقال : يا جبرئيل ادع أنت وأؤمن أنا ، فدعا جبرئيل ، وأمن يوسف ، فكشف الله ما كان به من ضرّ ، فلمّا طاب وقت يوسف قال : يا جبرئيل ، وأنا أدعو أيضا وتؤمن أنت ، فسال يوسف ربّه أن يكشف الضرّ عن جميع أهل البلاء في ذلك الوقت ، فلا جرم ما من مريض إلّا ويجد حقّة في ذلك الوقت ^(١) . وقيل : إنّ الفلق هو كلّ ما يفلقه [الله] ويفرقه عن شيء آخر ، كالأرض عن النبات ، والجبال عن العيون ، والسحاب عن الأمطار ، والأرحام عن الأولاد ، والبيض عن الفرخ ، بل والعدم عن الوجود ، وعليه يكون المعنى بربّ الفلق ظلمات عدم بنور الوجود ^(٢) .

وقيل : إنّ الفلق واد أو حبّ في جهنّم ، إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدّة حرّه ^(٣) . وعن الصدوق ، عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن الفلق فقال : « صدع في النار ، فيه سبعون ألف دار ، في كلّ دار سبعون ألف بيت ، في كلّ بيت سبعون ألف أسود ، في خوف كلّ أسود سبعون ألف جرّة سمّ ، لا بدّ لأهل النار أن يضمروا عليها » ^(٤) . وعن القمي ، قال : الفلق : حبّ في جهنّم ، يتعوّذ أهل النار من شدّة حرّه ، سأل الله أن يأذن له أن يتنفّس ، فأذن له فتنفّس فأحرق جهنّم ^(٥) . وقيل : إنّ التكتة في ذكره هنا الإشارة إلى أن من قدر على مثل هذا التعذيب الخارج عن حدّ الوهم ، له رحمة أعظم وأكمل وأتمّ من عذابه ، فكأنّه يقول : يا صاحب العذاب الشديد ، أعوذ برحمتك التي هي أعظم من عذابك ^(٦) . وقيل : أريد من الآيتين : أعوذ بربّ جهنّم من شرّ ما خلق فيها ^(٧) ومن عذابها . وقيل : أريد من قوله : ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أصناف الحيوانات الموزيات ، ويدخل فيه شرّ الجنّ والإنس ^(٨) . وعن ابن عباس : يريد إبليس خاصّة ، لأنّ الله لم يخلق خلقا شرّا منه ، ولأنّ السورة نزلت في الاستعانة من السحر ، وذلك إنّما يتمّ بابليس وأعدائه وجنوده ^(٩) . وقيل : أريد به ما خلق من الأمراض والأسقام والقحط وأنواع الحن والآفات ^(١٠) . والحقّ أنّ ما خلق عام لجميع ما ذكر.

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٩١ .

(٢) تفسير الرازي ٣٢ : ١٩٢ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ١٩٣ ، وفي النسخة : شدّة حرها .

(٤) معاني الأخبار : ٢٢٧ / ١ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩٥ .

(٥) تفسير القمي ٢ : ٤٤٩ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩٤ .

(٦ - ٨) تفسير الرازي ٣٢ : ١٩٣ .

(٩ و ١٠) تفسير الرازي ٣٢ : ١٩٣ .

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ (٣)

ثم لما كان الشرور بالليل أكثر ، حصّ سبحانه الاستعاذة من شرّه بالذكر بقوله : ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ﴾ وليل مظلم ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ ودخل ، حيث إنّه إذا دخل تخرج السّباع من آجامها والهوامّ من أماكنها ، ويهجم السّراق والأعداء ، ويقع الحريق ويقل فيه المعين والمغيث .

وقيل : إنّ بالليل تنتشر الأرواح المؤذية المسماة بالجنّ والشياطين ^(١) .

وقيل : إنّ الغاسق هو القمر ، لأنّه حين الكسوف يذهب ضوؤه ويسود ^(٢) ، ووقوبه دخوله في ذلك الاسوداد . وروي عن عائشة أنّها قالت : أخذ رسول الله ﷺ بيدها ، وأشار إلى القمر ، وقال : « استعيذي بالله من شرّ هذا ، فإنّه الغاسق إذا وقب » ^(٣) .

قيل : اريد بالاستعاذة من شرّه إذا وقب ، إذا دخل في الكسوف ^(٤) .

وقيل : اريد بالغاسق الثّريا ، وبوقوبه سقوطه ، قالوا : إذا سقط الثّريا ودخل تحت الأرض وغاب عن الأعين ، كثرت الأمراض ، وترفع عند طلوعها ^(٥) .

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (٤) و (٥)

ثمّ لعرفة السحر بالشرّ خصّه سبحانه بالذكر بقوله : ﴿وَمِنْ شَرِّ﴾ النفوس ، أو النساء ﴿النَّفَّاثَاتِ﴾ والنافحات للسحر ﴿فِي الْعُقَدِ﴾ اللاتي يعقدنّها في الخيوط .

قيل : إنّ الساحر إذا شرع في قراءة الرّقية أخذ خيطا ولا يزال يعقد عليه عقدا بعد عقد وينفث في تلك العقد ^(٦) .

قيل : إنّ المراد بالنّفثات بنات لبيد بن أعصم اليهودي ، فإنّهن سحرن النبي ﷺ ^(٧) .

روى يحيى بن معمر ^(٨) قال : حبس رسول الله ﷺ عن عائشة ، فبينما هو نائم إذ أتاه ملكان ، جلس أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجليه ، فهذا يقول للذي عند رأسه : ما شكواه ؟ قال : السحر ، قال : من فعل به ؟ قال : لبيد بن أعصم اليهودي . قال : فأين صنع السحر ؟ قال : في بئر كذا . قال : فما دواؤه ؟ قال : يبعث إلى تلك البئر فينزع ماؤها ، فإنّه ينتهي إلى صخرة ، فاذا رآها فليقلعها ، فإنّ تحتها كوبة - قيل : هو كوز سقط عنقها - وفي الكوبة وتر فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر ، فيحرقها بالنار ، فيبرا إن شاء الله .

(١ - ٣) تفسير الرازي ٣٢ : ١٩٥ .

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ١٩٥ .

(٦ و ٥) تفسير الرازي ٣٢ : ١٩٥ .

(٧) تفسير الرازي ٣٢ : ١٩٦ .

(٨) تفسير روح البيان : يحيى بن معمر .

فاستيقظ عليه السلام ، فبعث عليا عليه السلام والزبير وعمارا ، فنزحوا ماء البئر ، فكأته نقاعة الحناء ، ثم دفعوا راعونة البئر - وهي الصخرة التي توضع في اسفل. فأخرجوا من تحتها الأسنان ^(١) . ومعها وتر قد عقد فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالأبر ، فجاءوا بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل يقرأ المعوذتين عليها ، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد عليه السلام حقة حتى انحلت العقدة الأخيرة عند تمام السورتين ^(٢) .

وقيل : إن المراد بالنقائات الجماعات من السحرة : لأنه كلما كان اجتماع السحرة على العمل أكثر كان التأثير أشد ^(٣) .

وقيل : إن المراد الاستعاذة من شر النساء اللاتي يتصرفن في عزائم الرجال وآرائهم ، فاستعير هنا [من] عقد الحبال في فيها ، والنفث هو تليين العقدة من الحبل بريق تقذفه عليه لتسهيل حله ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتعوذ من شر النساء اللاتي يتصرفن في قلوب الرجال ، ويحولنهم من رأي إلى رأي ومن عزيمة إلى عزيمة ، كقوله : ﴿ **إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ** ﴾ ^(٤) .

ثم خصَّ سبحانه شرَّ حسد الحاسد بالذكر بقوله : ﴿ **وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ** ﴾ ومتمنّ زوال النعمة عن مستحقها ﴿ **إِذَا حَسَدَ** ﴾ وأظهر ما في نفسه من ذلك التمني وعمل بمقتضاه.

عن الصادق عليه السلام قال : « قال رسول الله : كاد الحسد أن يغلب القدر » ^(٥) .

قيل : ذكر الله سبحانه الشرور في هذه السورة ثم ختمها بالحسد ، ليظهر أنه أحبث الطبائع ، كما قال ابن عباس ^(٦) .

(١) المراد أسنان مشط النبي صلى الله عليه وسلم كما ورد في أول الخبر الذي لم يذكره المصنف ، وفيه : عن ابن عباس وعائشة : أنه كان غلام من اليهود يخدم النبي صلى الله عليه وسلم وكان عنده أسنان من مشطه عليه السلام فأعطاه اليهود فسحروه عليه السلام فيها. تفسير روح البيان ١٠ : ٥٤٢.

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٤٤ ، والباقي في ص : ٥٤٣.

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ١٩٦.

(٤) تفسير الرازي ٣٢ : ١٩٦ ، والآية من سورة التغابن : ٦٤ / ١٤.

(٥) الكافي ٢ : ٢٣٢ / ٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩٦.

(٦) تفسير روح البيان ١٠ : ٥٤٥.

في تفسير سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ

الْخَنَاسِ * الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (١) وَ (٥)﴾

ثمَّ إِنَّه تعالى بعد أمره النبي ﷺ بالتعوذ به من الشرور الجسمانية ، نظمت سورة الناس الآمرة له بالتعوذ به من الشرور الروحانية ، فابتدأها بذكر الأسماء الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .
ثمَّ افتتحها بأمر نبيّه باظهار التعوذ به تعالى من الشرور الروحانية تعليماً للعباد بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ومدبر امورهم ، ومصلح مفسادهم ، ومكمل وجودهم ، والمنعم عليهم بجميع النعم التي يحتاجون إليها ، فظهر أنّ ربّ الناس هو ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ والناس مملوكون له مفتقرون إليه في وجودهم وبقائهم وكما لهم ، وهو غنيّ عنهم وعن كلّ شيء ، فظهر أنّ ملك الناس بهذا المعنى هو ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ حيث ولّمت العقول في إدراك عظمتهم وجلاله وكبريائه ﴿مِنْ شَرِّ﴾ الشيطان الذي شغله الوسوسة ، وإلقاء الخطورات السيئة في القلوب ، وتزيين القبائح في الأنظار بحيث يصحّ أن يقال مبالغة : إِنَّه عين ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ .

ثمَّ وصفه سبحانه بوصف ﴿الْخَنَاسِ﴾ لأنّ عادته التأخّر والتوليّ إذا ذكر الانسان ربّه - كذا قيل (١) - ويحتمل كون المراد منه كثير التخفّي من الأنظار. وعن القمي : أنّ الخناس اسم الشيطان (٢) .
﴿الَّذِي يُوسْوِسُ﴾ ويلهم الشرّ ، ويلقي الرغبة إلى القبائح ﴿فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ وقلوبهم إذا غفلوا عن ذكر ربّهم.

﴿مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾

ثمَّ عمّم سبحانه الوسوس (٣) الذي يستعاذ من شرّه بقوله : ﴿مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ كما قال سبحانه:

(١) تفسير الرازي ٣٢ : ١٩٨ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٤٥٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩٨ .

(٣) في النسخة : الوسوس .

﴿شَاطِطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾^(١) وكما أنّ شيطان الجنّ يوسوس تارة ويخنس أخرى ، كذلك شيطان الإنس يرغّب الناس إلى الشرور والقبائح ، ويرى نفسه كالناصح المشفق ، فان زجره السامع يخنس ويترك الوسوسة ، وإن قبل قوله بالغ فيه ^(٢) . وقيل : إنّ التقدير : من شرّ الجنّة والناس ، فاستعاذ أولاً من شرّ الوسواس ، وهو الشيطان ، ثمّ استعاذ من شرّ عموم الجنّ والإنس ^(٣) .

عن الصادق عليه السلام قال : « ما من مؤمن إلّا ولقلبه اذنان : في جوفه اذن ينفث فيها الوسواس الختّاس ، واذن ينفث فيها الملك ، فيؤيد الله المؤمن بالملك ، فذلك قوله : ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ » ^(٤) . وعن القمي رحمه الله : ما من قلب إلّا وله اذنان . على أحدهما مرشد ، وعلى الآخر شيطان مفتّن ، هذا يأمره ، وذاك يزجره ، كذلك من الناس شيطان يحمل الناس على المعاصي ، كما يحمل الشيطان من الجنّ » ^(٥) .

وعن (طب الأئمة) [عن أبا عبد الله عليه السلام] : « أنّ جبرئيل أتى النبي صلى الله عليه وآله فقال : يا محمد . قال : لبيك يا جبرئيل » . قال : إنّ فلانا سحر ، وجعل السحر في بئر بني فلان ، فابعث إليه - يعني البئر - أوثق الناس وأعظمهم في عينيك ، وهو عدیل نفسك حتّى يأتيك بالسحر ، قال : فبعث النبي صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب وقال : انطلق إلى بئر ذروان ^(٦) ، فإنّ [فيها] سحرا سحري [به] لبيد بن أعصم اليهودي فأتني به .

قال علي عليه السلام : فانطلقت في حاجة رسول الله صلى الله عليه وآله فهبطت فإذا ماء البئر كأنّه الحنّاء من السّحر ، فطلبتّه مستعجلا حتّى انتهيت إلى أسفل القليب ، فلم اظفر به . قال الذين معي : ما فيه شيء . فاصعد ، فقلت : لا والله ما كذبت ولا كذب .

إلى أن قال : ثمّ طلبت طلبا بلطف ، فاستخرجت حقا ، فأتيت النبي صلى الله عليه وآله ، فقال : افتحه ففتحته ، فإذا في الحقّ قطعة كرب النخل ، في جوفه وتر ، عليها إحدى عشرة عقدة ، وكان جبرئيل أنزل يومئذ المعوذتين على النبي صلى الله عليه وآله . فقال النبي صلى الله عليه وآله : اقرأها يا علي على الوتر ، وجعل أمير المؤمنين عليه السلام كلّما قرأ آية انخلت عقدة حتّى فرغ منها ، وكشف الله عن نبيّه صلى الله عليه وآله ما سحر [به] وعافاه » . وفي رواية : « أنّ جبرئيل وميكائيل أتيا النبي صلى الله عليه وآله ، فجلس أحدهما عن يمينه ، والآخر عن شماله ، فقال جبرئيل لميكائيل : ما وجع الرجل ؟ فقال ميكائيل :

هو مطبوب ^(٧) ، فقال جبرئيل : من طبّه ؟ قال : لبيد بن أعصم اليهودي » [ثمّ ذكر الحديث إلى آخره] ^(٨) .

(١) الأنعام ٦ / ١١٢ .

(٢) تفسير الرازي ٣٩ : ١٩٩ ، تفسير روح البيان ١٠ : ٥٥٠ .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ١٩٩ .

(٤) الكافي ٢ : ٢٠٦ / ٣ ، مجمع البيان ١٠ : ٨٧٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩٨ ، والآية من سورة المجادلة : ٥٨ / ٢٢ .

(٥) تفسير القمي ٢ : ٤٥٠ ، وتفسير الصافي ٥ : ٣٩٨ ، عن الصادق عليه السلام .

(٦) في النسخة : ازوان ، وفي تفسير الصافي : ازران .

(٧) أي مسحور .

(٨) طب الأئمة عليه السلام ١١٣ : ٣٩٦ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩٦ .

وعن الصادق عليه السلام : « أنه وعك رسول الله صلى الله عليه وآله ، فنزل جبرئيل بهاتين السورتين ، وعوذه بهما »^(١) .

ثم أنه تعالى وصف ذاته بصفة واحدة ، وأمر نبيه صلى الله عليه وآله بأن يستعيز به من جميع الشرور الجسمانية ، وفي هذه السورة وصف ذاته بثلاث صفات ، كل منها دال على كمال عظمتها ، وأمر نبيه صلى الله عليه وآله بالاستعاذة به من شر الوسواس الذي هو راجع إلى الروح والقلب ، فدل على أن تضرر الروح والقلب أعظم من جميع المضار .

وفي ختم كتابه المجيد بإضافة ربوبيته وسلطانه والوهيته إلى الناس ، وتكرير لفظ الناس مع كل وصف ، دلالة على شرف الانسان على جميع مخلوقاته ، ويحتمل أن يكون المراد بالناس خصوص الأئمة المعصومين عليه السلام وعباده الصالحين ، لما رواه الفخر الرازي أنه سئل الحسن بن علي عليه السلام عن الناس فقال : « نحن الناس ، وأشياءنا أشباه الناس ، وأعداؤنا التسناس »^(٢) فقبل علي عليه السلام بين عينيه ، وقال : « **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** »^(٣) .

وعن الباقر عليه السلام قال : « من أوتر بالمعوذتين و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قيل له : يا عبد الله ، أبشر فقد قبل الله وترك »^(٤) .

قد وقفت لاتمام تفسير القرآن المجيد في آخر السنة التاسعة والستين بعد ثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية المطابق لما نظمته بعض الأجلاء :

مــــيــــلاد مــــهــــدي الامــــم نــــور الإلــــه في الظلــــم

الأحقر محمد النهاوندي

كتبه العبد المذنب محمد الصانعي

ابن مرحوم فتح الله الخوانساري

الشهير بسيمين قلم في شهر محرم الحرام ١٣٧٠

وفرغ قسم الدراسات الاسلامية - مؤسسة البعثة من تحقيقه

بفضل الله ومنه في سنة ١٤٢٢ هـ

وآخر دعوانا أن الحمد

لله رب العالمين.

(١) تفسير القمي ٢ : ٤٥٠ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩٧ .

(٢) التسناس : نوع من القردة .

(٣) تفسير الرازي ٣٢ : ١٥٦ .

(٤) ثواب الأعمال : ١٢٩ ، مجمع البيان ١٠ : ٨٦٤ ، تفسير الصافي ٥ : ٣٩٧ .

الفهرس

في تفسير سورة الحجرات ٥

- [١ و ٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ ٥
- [٢] وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ ٦
- [٣ - ٥] إِنَّ الَّذِينَ يُغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ٨
- [٦] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ٩
- [٧ و ٨] وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ ١١
- [٩] وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى ١٢
- [١٠] إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٤
- [١١] وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ١٦
- [١٢] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا ١٧
- [١٣] يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ٢٠
- [١٤] قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي ٢٣
- [١٥ - ١٨] إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ ٢٤

في تفسير سورة ق ٢٧

- [١ - ٣] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ* بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ ٢٧
- [٤ - ٦] قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ* بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا ٢٨
- [٧ - ٩] وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ* ٣٠
- [١٠ و ١١] وَالتَّخْلُفَ بِأَسْقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ* رَزَقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ ٣٠
- [١٢ - ١٤] كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ* وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ ٣١
- [١٥] أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ٣٢
- [١٦ - ١٨] وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٣٣

- [١٩] وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ٣٥
- [٢٠ - ٢٩] وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * ٣٥
- [٣٠ - ٣٢] يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ * وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ ٣٨
- [٣٣ - ٣٥] مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ * وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ ٣٩
- [٣٦ و ٣٧] وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ ٤٠
- [٣٨ - ٤١] وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ٤١
- [٤٢ - ٤٥] يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ٤٣

في تفسير سورة الذاريات ٤٥

- [١ - ٤] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ٤٥
- [٥ - ٩] إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٍ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ ٤٧
- [١٠ - ١٤] قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * ٤٨
- [١٥ - ١٨] إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ ٤٩
- [١٩ - ٢١] وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * ٥٠
- [٢٢ - ٣٤] وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا ٥٢
- [٣٥ - ٤٦] فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّن ٥٥
- [٤٧ - ٥١] وَالسَّمَاءِ بَنَيْنَاهَا بِإِيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضِ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * ٥٧
- [٥٢ - ٥٥] كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِّن رُّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * ٥٨
- [٥٦] وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون ٥٩
- [٥٧ - ٦٠] مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعَمُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ ٦٠

في تفسير سورة الطور ٦٣

- [١ - ٦] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مُّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ ٦٣
- [٧ - ١٣] إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ ٦٤
- [١٤ - ١٨] هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * ٦٥
- [١٩ و ٢٠] كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَكَبِّرِينَ عَلَى سُرُرٍ مُّصْفُوفَةٍ ٦٦
- [٢١] وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّن ٦٧
- [٢٢ - ٢٨] وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا ٦٨
- [٢٩ - ٣٢] فَذَكَّرْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ ٧٠
- [٣٣ - ٣٨] أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَاثُبُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ * ٧٠

- [٤٣ - ٣٩] أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبُنُونَ* أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّن مَّعْرَمٍ مُّثْقَلُونَ* أَمْ [٧٢]
 [٤٤ - ٤٧] وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ* فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ [٧٣]
 [٤٨ و ٤٩] وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ* وَمِنْ [٧٤]

في تفسير سورة النجم ٧٧

- [١ - ٤] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ* مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ* وَمَا [٧٧]
 [٥ - ١١] عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ* ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ* وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ* ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ [٧٩]
 [١٢ - ١٤] أَفْتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ* وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ* عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ [٨٣]
 [١٥ - ١٨] عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ* إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ* مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا [٨٥]
 [١٩ - ٢٣] أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ* وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ* أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ [٨٧]
 [٢٣ - ٢٦] إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأُنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمْ الْهُدَىٰ* أَمْ [٨٨]
 [٢٧ - ٣٠] إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُؤْنَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ* وَمَا لَهُمْ بِهِ [٨٩]
 [٣١ و ٣٢] وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَيَجْزِي الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا [٩٠]
 [٣٢] هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا [٩٢]
 [٣٣ و ٣٤] أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ* وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْذَىٰ [٩٢]
 [٣٥ - ٤٢] أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ* أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ* وَإِبْرَاهِيمَ [٩٣]
 [٤٣ - ٥٤] وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ* وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا* وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوجَيْنِ [٩٥]
 [٥٥ - ٥٨] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ* هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْأُولَىٰ* أَرَفَتِ الْآرِزَةَ* [٩٧]
 [٥٩ - ٦٢] أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ* وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ* وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ [٩٨]

في تفسير سورة القمر ١٠١

- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ [١٠١]
 [٢ - ٨] وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ* وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ [١٠٢]
 [٩ - ١٥] كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ* فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي [١٠٤]
 [١٦ - ٢١] فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ* وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ* كَذَّبَتْ [١٠٥]
 [٢٢ - ٢٤] وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ* كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذْرِ* فَقَالُوا [١٠٧]
 [٢٥ - ٣٢] أَلْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ* سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مِنَ الْكَذَّابِ [١٠٧]
 [٣٣ - ٣٧] كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ* إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ [١٠٩]
 [٣٨ - ٤٢] وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ* فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ* وَلَقَدْ يَسَّرْنَا [١١٠]
 [٤٣ - ٤٦] أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيَّكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ* أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ [١١١]

[٤٧ - ٤٩] إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ١١٢
[٥٠ - ٥٥] وَمَا أَمُرْنَا إِلَّا بِأَحَدَةٍ كَلِمَةٍ بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ * ١١٤

في تفسير سورة الرحمن ١١٧

[١ - ٤] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ١١٧
[٥ و ٦] الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ١١٨
[٧ - ٩] وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ ١١٩
[١٠ و ١١] وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ١٢٠
[١٢ و ١٣] وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٢١
[١٤ - ١٦] خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارٍ مِنْ نَارٍ * ١٢٢
[١٧ - ٢٣] رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ١٢٣
[٢٤ - ٢٨] وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كُلُّ ١٢٦
[٢٩ و ٣٠] يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا ١٢٧
[٣١ و ٣٢] سَفَرُكُمْ لَكُمْ أَيْتَةُ الثَّقَلَيْنِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٢٨
[٣٣ و ٣٤] يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ ١٢٩
[٣٥ و ٣٧] يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَنْصَرِفَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا ١٢٩
[٣٨ - ٤٥] فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ ١٣٠
[٤٦ - ٤٩] وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * ١٣٢
[٥٠ - ٥٥] فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ ١٣٢
[٥٦ - ٦١] فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا ١٣٣
[٦٢ و ٦٣] وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣٤
[٦٤ - ٦٩] مُدْهَمَمَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ ١٣٥
[٧٠ - ٧٣] فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * خَوَّرَ مَقْصُورَاتٍ فِي ١٣٧
[٧٤ - ٧٨] لَمْ يَطْمِئْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ ١٣٨

في تفسير سورة الواقعة ١٤١

[١ - ٣] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةً رَافِعَةً ١٤١
[٤ - ١١] إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا * وَكُنُفًا ١٤٢
[١٢ - ١٩] فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ ١٤٤
[٢٠ - ٢٤] وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَخَوَّرَ عَيْنٍ * كَأَمْثَالِ ١٤٦

- [٢٥ - ٤٠] لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا* إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا* وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ١٤٦
- [٤١ - ٤٤] وَأَصْحَابُ الشَّامِلِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِلِ* فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ* وَظِلٍّ مِّنْ ١٥٠
- [٤٥ - ٥٥] إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ* وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ* وَكَانُوا ١٥١
- [٥٦ - ٥٩] هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ* نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ* أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ* ١٥٢
- [٦٠ - ٦٢] نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ* عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ١٥٣
- [٦٣ - ٦٤] أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ* أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ١٥٤
- [٦٥ - ٧٠] لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ* إِنَّا لَمُعْرِضُونَ* بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ١٥٤
- [٧١ - ٧٣] أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ* أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ* ١٥٥
- [٧٤ - ٧٦] فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ* فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ* وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ ١٥٦
- [٧٧ - ٨٢] إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ* لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِّنْ رَبِّ ١٥٧
- [٨٣ - ٨٧] فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ* وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ* وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ١٥٩
- [٨٨ - ٩٦] فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ* فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ* وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ ١٦٠

في تفسير سورة الحديد ١٦٣

- [١ و ٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٦٣
- [٣] هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٦٤
- [٤ - ٦] هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ١٦٥
- [٧ و ٨] آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ١٦٦
- [٩ - ١٠] هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ١٦٧
- [١١ و ١٢] مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ* يَوْمَ تَرَىٰ ١٧٠
- [١٣] يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ١٧١
- [١٤ و ١٥] يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ ١٧٢
- [١٦] أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا ١٧٢
- [١٧ و ١٨] اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ* ١٧٣
- [١٩] وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ ١٧٤
- [٢٠] اَعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ١٧٥
- [٢١] سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ ١٧٦
- [٢٢ و ٢٣] مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ ١٧٧
- [٢٤ و ٢٥] الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ١٧٨

[٢٦ و ٢٧] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ

[٢٨ و ٢٩] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل

في تفسير سورة المجادلة ١٨٥

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ١٨٥

[٢ - ٤] الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي ١٨٥

[٥ و ٦] إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرُسُولَهُ كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا ١٨٦

[٧ و ٨] أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ١٨٩

[٩ و ١٠] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ ١٩٠

[١١] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّخُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَخُوا يَفْسَخِ اللَّهُ ١٩١

[١٢ و ١٣] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَ ذَلِكَ ١٩٣

[١٤ - ١٧] أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِمَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ١٩٨

[١٨] يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُخْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى ٢٠٠

[١٩] اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ ٢٠٠

[٢٠ و ٢١] إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرُسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا ٢٠٢

[٢٢] لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرُسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ٢٠٢

في تفسير سورة الحشر ٢٠٥

[١ و ٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ ٢٠٥

[٢ - ٥] مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا وَطَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ ٢٠٧

[٦] وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ ٢٠٨

[٧] مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ ٢٠٩

[٨] لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٢١٠

[٩] وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ ٢١١

[١٠ و ١١] وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا ٢١٣

[١٢] لَّئِنْ أَخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ ٢١٤

[١٣ - ١٧] لِأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * لَا ٢١٥

[١٨ و ١٩] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ ٢١٦

[٢٠ و ٢١] لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ * ٢١٧

[٢٢ - ٢٤] هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ ٢١٨

في تفسير سورة الممتحنة ٢٢١

- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْجَدُوا عُدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ٢٢١
[٢ و ٣] إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ وَيَنْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ ٢٢٣
[٤ و ٥] قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ ٢٢٤
[٦ و ٧] لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ ٢٢٥
[٨] لَا يَنْهَاهُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ ٢٢٦
[٩ و ١٠] إِنَّمَا يَنْهَاهُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ ٢٢٦
[١١] وَإِنْ قَاتَلْتُمُ شَيْءً مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبَتُهُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ ٢٢٩
[١٢] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا ٢٣٠
[١٣] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَيسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا ٢٣٢

في تفسير سورة الصف ٢٣٥

- [١ - ٣] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ ٢٣٥
[٤ و ٥] إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُومٌ * وَإِذْ قَالَ ٢٣٦
[٦] وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ ٢٣٧
[٧ - ٩] وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا ٢٣٨
[١٠ - ١٣] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُجِيعُكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * ٢٣٩
[١٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مِّنْ ٢٤٠

في تفسير سورة الجمعة ٢٤٣

- [١ - ٣] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ ٢٤٣
[٣ - ٥] وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ ٢٤٤
[٦ - ٨] قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا ٢٤٥
[٩ و ١٠] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ٢٤٦
[١١] وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنْ ٢٤٨

في تفسير سورة المنافقين ٢٥١

- [١ - ٣] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ٢٥١
[٤ و ٥] وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ ٢٥١
[٦ و ٧] سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي ٢٥٣
[٨] يَقُولُونَ لَنْ رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ ٢٥٤

[٩ - ١١] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ

في تفسير سورة التغابن ٢٥٩

[١ و ٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ

[٣ و ٤] خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * ٢٦٠

[٥ و ٦] أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ٢٦١

[٧ - ٩] زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ * ٢٦١

[١٠ - ١٢] وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ

[١٣ و ١٤] اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ

[١٥ و ١٦] إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ

[١٧ و ١٨] إِنْ تُقِرُّوهُ اللَّهُ فَرَضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * ٢٦٦

في تفسير سورة الطلاق ٢٦٩

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ * ٢٦٩

[٢ و ٣] فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوِي

[٤ و ٥] وَاللَّيِّ يَسِّنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ * ٢٧٤

[٦] أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ

[٧] لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ

[٨ و ٩] وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا * ٢٧٧

[١٠ و ١١] أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ

[١١ و ١٢] وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ * ٢٧٨

في تفسير سورة التحريم ٢٨١

[١ و ٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ

[٣] وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ

[٤ و ٥] إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ * ٢٨٣

[٦] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ * ٢٨٥

[٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * ٢٨٦

[٨] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ

[٩ و ١٠] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُسَّ

[١١ و ١٢] وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا

في تفسير سورة الملك ٢٩١

- [١ و ٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٩١
- [٣ - ٥] الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُتٍ فَارْجِعِ ٢٩٣
- [٦ - ١١] وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسْأَلُونَ فِيهَا سَمِعُوا لَهَا ٢٩٤
- [١٢ و ١٣] إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ ٢٩٦
- [١٤ و ١٥] أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا ٢٩٦
- [١٦ و ١٧] أَلَمْ نَكُنْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمْنْتُمْ ٢٩٧
- [١٨ و ١٩] وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ ٢٩٨
- [٢٠ و ٢١] أَمْ نَزَّلْنَا الْبُرُوجَ * أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ لِلكَافِرِينَ إِلَّا فِي ٢٩٨
- [٢٢] أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ لِلكَافِرِينَ إِلَّا فِي ٢٩٩
- [٢٣ - ٢٥] قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا ٣٠٠
- [٢٦ و ٢٧] قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ ٣٠١
- [٢٨ و ٢٩] قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرِ الْكَافِرِينَ مِنْ ٣٠٢
- [٣٠] قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ٣٠٢

في تفسير سورة القلم ٣٠٥

- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ٣٠٥
- [٢] مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ٣٠٦
- [٣ و ٤] وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ٣٠٧
- [٥ - ٩] فَسَتَبْصُرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ ٣٠٨
- [١٠ - ١٦] وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشْأٍ بَنِيمٍ * مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * ٣٠٩
- [١٧ - ٢٨] إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا ٣١١
- [٢٩ - ٣٢] قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ * ٣١٣
- [٣٣ - ٣٥] كَذَلِكَ الْعَذَابُ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ لِّلْمُتَّقِينَ عِنْدَ ٣١٥
- [٣٦ - ٤١] مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا ٣١٥
- [٤٢ - ٤٥] يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً ٣١٦
- [٤٦ - ٥٠] أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّعْرُومٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْنُيُونَ * ٣١٨
- [٥١ و ٥٢] وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ ٣١٩

في تفسير سورة الحاقة ٣٢١

- [٤ - ١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَاقَّةُ* مَا الْحَاقَّةُ* وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣٢١
- [٥ - ٧] فَأَمَّا تُمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاعِيَةِ* وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ* ٣٢٢
- [٨ - ١٢] فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ* وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ* ٣٢٣
- [١٣ - ٢٤] فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ* وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً ٣٢٣
- [٢٥ - ٢٩] وَأَمَّا مَن أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ* وَلَمْ أَدْرِ مَا ٣٢٦
- [٣٠ - ٣٧] خُذُوهُ فَغُلُّوهُ* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ* ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ٣٢٦
- [٣٨ - ٤٣] فَلَا أَفْئِسُ بِمَا تَبْصُرُونَ* وَمَا لَا تَبْصُرُونَ* إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ* وَمَا هُوَ ٣٢٨
- [٤٤ - ٥٢] وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ* لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ* ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٣٢٩

في تفسير سورة المعارج ٣٣١

- [١ - ٣] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ* لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ٣٣١
- [٤ - ١٠] تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ* فَاصْبِرْ صَبْرًا ٣٣٢
- [١١ - ١٨] يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمُنَدٍ بَيْنَهُ* وَصَاحِبِهِ ٣٣٣
- [١٩ - ٣٤] إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلِيقٌ هَلُوعٌ* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا* ٣٣٤
- [٣٥ - ٣٧] أُولَئِكَ فِي جَنَاتٍ مُّكْرَمُونَ* فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ* عَنِ ٣٣٦
- [٣٨ - ٤٤] أَيْطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ* كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ* ٣٣٧

في تفسير سورة نوح ٣٣٩

- [١ - ٩] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَن أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ ٣٣٩
- [١٠ - ١٤] فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا* يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا* ٣٤١
- [١٥ - ٢٤] أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا* وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٣٤١
- [٢٤ - ٢٨] وَلَا تَرِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَالًّا* مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا ٣٤٣

في تفسير سورة الجن ٣٤٥

- [١ - ٦] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا ٣٤٥
- [٧ - ٩] وَأَنَّهُمْ طَبَوْا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنَّ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا* وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ ٣٤٧
- [١٠ - ١٢] وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا* وَأَنَّا مِنَّا ٣٤٩
- [١٣ - ١٧] وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا* ٣٥٠
- [١٨ و ١٩] وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا* وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا ٣٥١
- [٢٠ - ٢٣] قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا* قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ٣٥٢
- [٢٤ - ٢٨] حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَّاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا* قُلْ إِنْ ٣٥٣

في تفسير سورة المزمل ٣٥٥

- [٥ - ١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ* قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا* نَصَفَهُ أَوْ انْقُصَ مِنْهُ ٣٥٥
- [٩ - ٦] إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا* إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا* ٣٥٧
- [١٤ - ١٠] وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا* وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٣٥٨
- [١٩ - ١٥] إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا* فَعَصَىٰ ٣٥٩
- [٢٠] إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ ٣٦٠

في تفسير سورة المدثر ٣٦٣

- [٧ - ١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ* قُمْ فَأَنْذِرْ* وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ* وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ٣٦٣
- [١٧ - ٨] فَإِذَا نَفَرَ فِي الْغَافِرِ* فَذَلِكِ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ عَسِيرٍ* عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ* ٣٦٦
- [٢٥ - ١٨] إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ* فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ* ثُمَّ قَاتِلْ كَيْفَ قَدَّرَ* ثُمَّ نَظَرَ* ثُمَّ عَبَسَ ٣٦٧
- [٣٧ - ٢٦] سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ* وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَقَرٌ* لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ* لَوَاحِةٌ لِلْبَشِيرِ* عَلَيْهَا ٣٦٩
- [٤٧ - ٣٨] كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ* إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ* فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ* ٣٧٢
- [٥١ - ٤٨] فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ* فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِيرِ مُعْرِضِينَ* كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ ٣٧٣
- [٥٦ - ٥٢] بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً* كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ٣٧٤

في تفسير سورة القيامة ٣٧٧

- [٣ - ١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَا أُفَسِّمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ* وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ٣٧٧
- [١٠ - ٤] بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوِّيَ بَنَانَهُ* بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ* يَسْأَلُ ٣٧٨
- [١٥ - ١١] كَلَّا لَا وَزَرَ* إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ* يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ٣٧٩
- [٢١ - ١٦] لَا تَحْرَجْكَ بِهِ لِسَانُكَ لِتَفْجَلَ بِهِ* إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ ٣٨٠
- [٣٠ - ٢٢] وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ* إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ* وَوُجُودَ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ* تَنْظُرُ أَنْ ٣٨١
- [٣٥ - ٣١] فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى* وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى* ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى* ٣٨٣
- [٤٠ - ٣٦] أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى* أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى* ثُمَّ كَانَ ٣٨٣

في تفسير سورة الانسان ٣٨٥

- [٢ و ١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا ٣٨٥
- [٦ - ٣] إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا* إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ ٣٨٦
- [١٣ - ٧] يُؤْفُونَ بِالَّذِرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا* وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ ٣٨٧
- [١٧ - ١٤] وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أُفُوفُهَا تَذَلِيلًا* وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِصَّةٍ ٣٨٩
- [١٨ و ١٩] عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا* وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ ٣٩٠

- [٢٠ - ٢١] وَإِذَا رَأَيْتَ نَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلُكًا كَبِيرًا * عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ ٣٩١
 [٢٢] إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ٣٩٣
 [٢٣ - ٢٤] إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيِمًا أَوْ ٣٩٦
 [٢٥ - ٢٨] وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا * ٣٩٧
 [٢٩ - ٣١] إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ٣٩٨

في تفسير سورة المرسلات ٣٩٩

- [١ - ٦] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْمُرْسَلَاتِ غُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ ٣٩٩
 [٧ - ١٩] إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعَ * طَفَافًا التُّجُومِ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرجَتْ * وَإِذَا ٤٠٠
 [٢٠ - ٢٨] أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * ٤٠٢
 [٢٩ - ٣١] انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْدِبُونَ * انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ٤٠٣
 [٣٢ - ٣٧] إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ * وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا ٤٠٣
 [٣٨ - ٤٠] هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعَانِ * وَالْأُولَىٰ * فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا * وَيَلَّ ٤٠٤
 [٤١ - ٤٧] إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاحِشٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا ٤٠٥
 [٤٨ - ٥٠] وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ * وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ ٤٠٦

في تفسير سورة النبأ ٤٠٧

- [١ - ٣] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ ٤٠٧
 [٤ و ٥] كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ٤٠٨
 [٦ - ١٦] أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا ٤٠٨
 [١٧ - ٢٠] إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا * يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَمَتَّوْنَ أَفْوَاجًا * وَفُتِحَتْ ٤٠٩
 [٢١ - ٢٦] إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَابًا * لَا يَشِينُ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ ٤١١
 [٢٧ - ٢٩] إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَزْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ ٤١٢
 [٣٠ - ٣٦] فَذُوقُوا فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا * إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * ٤١٢
 [٣٧ و ٣٨] رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا * يَوْمَ ٤١٤
 [٣٩ و ٤٠] ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَابًا * إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ ٤١٥

في تفسير سورة النازعات ٤١٧

- [١ - ١٤] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالنَّازِعَاتِ غُرْفًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ ٤١٧
 [١٥ - ٢٦] وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَىٰ ٤١٩
 [٢٧ - ٣٣] أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ٤٢١

[٣٤ - ٤١] فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى* يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى* وَبُرِّزَت ٤٢٢

[٤٢ - ٤٦] يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا* فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا* إِلَىٰ رَبِّكَ ٤٢٣

في تفسير سورة عبس ٤٢٥

[١ - ١٠] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَبَسَ وَتَوَلَّى* أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى* وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ ٤٢٥

[١١ - ١٦] كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ* فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ* فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ* مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ* ٤٢٧

[١٧ - ٢٣] قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ* مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ* مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ* ثُمَّ ٤٢٨

[٢٤ - ٣١] فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ* أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا* ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ٤٢٩

[٣٢ - ٣٧] مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِإِنْعَامِكُمْ* فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ* يَوْمَ يُفَوِّرُ الْمَرْءُ مِنْ أَحْيِهِ* ٤٣٠

[٣٨ - ٤٢] وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ* ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ* وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَاسِقَةٌ* ٤٣١

في تفسير سورة التكويد ٤٣٣

[١ - ١٨] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ* وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ* وَإِذَا ٤٣٣

[١٩ - ٢١] إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ* ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ* مُطَاعٍ ثَمَّ ٤٣٦

[٢٢ - ٢٩] وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ* وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ* وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ ٤٣٧

في تفسير سورة الانفطار ٤٣٩

[١ - ٨] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ* وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَشَرَتْ* وَإِذَا ٤٣٩

[٩ - ١٢] كَلَّا بَلْ تُكَذَّبُونَ بِالذِّينِ* وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ* كِرَامًا كَاتِبِينَ* يَعْلَمُونَ ٤٤٠

[١٣ - ١٩] إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ* وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ* يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الذِّينِ* وَمَا ٤٤١

في تفسير سورة المطففين

[١ - ٦] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ٤٤٣

[٧ - ١٣] كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِينٍ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ* كِتَابٌ مَّرْقُومٌ* ٤٤٥

[١٤] كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ٤٤٦

[١٥ - ١٧] كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحْجُوبُونَ* ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ* ثُمَّ ٤٤٧

[١٨ - ٢١] كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَّيْنِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ* كِتَابٌ مَّرْقُومٌ* ٤٤٧

[٢٢ - ٢٦] إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ* عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ* تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةً ٤٤٩

[٢٧ - ٣٣] وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ* عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ* إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا ٤٤٩

[٣١ - ٣٦] فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ* عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ* هَلْ ٤٥١

في تفسير سورة الانشقاق ٤٥٣

[١ - ٦] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ* وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَخِفَتْ* وَإِذَا ٤٥٣

[١٨ - ٧] فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَنَقْلِبُ إِلَى ٤٥٤

[١٩] لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ٤٥٥

[٢٠ - ٢٥] فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا ٤٥٦

في تفسير سورة البروج ٤٥٩

[١ - ٤] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدِ ٤٥٩

[٥ - ٩] النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ ٤٦٤

[١٠] إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَزَاءٌ فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ ٤٦٥

[١١ - ١٦] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ ٤٦٥

[١٧ - ٢٢] هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْدِيبٍ ٤٦٦

في تفسير سورة الطارق ٤٦٩

[١ - ٣] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ ٤٦٩

[٤ - ١٠] إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ * فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ٤٧٠

[١١ - ١٧] وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ * وَمَا هُوَ ٤٧١

في تفسير سورة الأعلى ٤٧٣

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ٤٧٣

[٢ - ٥] الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ ٤٧٤

[٦ - ٨] سَفَرًا * فَلَئِمَّا تَنَسَّى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى * وَنُيْسِرَكَ ٤٧٤

[٩ - ١٣] فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي ٤٧٥

[١٤ - ١٩] قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ٤٧٦

في تفسير سورة الغاشية ٤٧٩

[١ - ٧] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وَجُودَ يُؤْمِنُ خَاشِعَةً * عَامِلَةً ٤٧٩

[٨ - ١٦] وَجُودَ يُؤْمِنُ نَاعِمَةً * لَسَعْيِهَا رَاضِيَةً * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاعِيَةً ٤٨٠

[١٧ - ٢٠] أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٤٨١

[٢١ - ٢٦] فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * ٤٨٢

في تفسير سورة الفجر ٤٨٥

[١ - ٥] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا ٤٨٥

[٦ - ١٠] أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٤٨٧

[١١ - ١٤] الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَاكْثُرُوا فِيهَا الْفُسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ ٤٨٨

- [١٥ - ١٨] فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ٤٨٩
 [١٩ - ٢٦] وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُجِبُونَ الْمَالَ حَبًّا جَمًّا * كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ ٤٩٠
 [٢٧ - ٣٠] يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي ٤٩١

في تفسير سورة البلد ٤٩٣

- [١ - ٥] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَا أُفْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدِ ٤٩٣
 [٤] لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ٤٩٤
 [٥ - ٧] أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَفْعَلَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا * أَيْحَسِبُ أَنْ ٤٩٤
 [٨ - ١٦] أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ ٤٩٥
 [١٧ - ٢٠] ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ ٤٩٦

في تفسير سورة الشمس ٤٩٩

- [١ - ٨] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارُ إِذَا ٤٩٩
 [٩ و ١٠] قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ٥٠٠
 [١١ - ١٥] كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ ٥٠٠

في تفسير سورة الليل ٥٠٣

- [١ - ٤] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ ٥٠٣
 [٥ - ١١] فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ ٥٠٤
 [١٢ - ١٣] إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ٥٠٦
 [١٢ - ١٣] فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * ٥٠٦
 [١٩ - ٢٠] وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ٥٠٧
 [٢١] وَلَسَوْفَ يَرْضَى ٥٠٩

في تفسير سورة الضحى ٥١١

- [١ - ٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى ٥١١
 [٣ - ٥] مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ ٥١٢
 [٦ - ٨] أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَانِلًا ٥١٤
 [٩ - ١١] فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا ٥١٧

في تفسير سورة الشرح ٥١٩

- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ٥١٩
 [٢ - ٤] وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ٥٢٠

[٥ و ٦] فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ٥٢٠

[٧ و ٨] فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ٥٢١

في تفسير سورة التين ٥٢٣

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ٥٢٣

[٢ و ٣] وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ٥٢٤

[٤ و ٥] لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ٥٢٥

[٦ و ٧] إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ ٥٢٥

[٨] أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ٥٢٦

في تفسير سورة العلق ٥٢٧

[١ و ٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٥٢٧

[٣ - ٧] اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلَّا إِنَّ ٥٢٨

[٨ - ١٠] إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ٥٢٩

[١١ - ١٥] أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ * كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ٥٣٠

[١٦ - ١٨] نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ٥٣١

[١٩] كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ٥٣٢

في تفسير سورة القدر ٥٣٥

[١ و ٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ٥٣٥

[٣] لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ٥٣٧

[٤] تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ٥٣٩

[٥] سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ٥٤١

في تفسير سورة البينة ٥٤٣

[١ - ٣] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ٥٤٣

[٤ و ٥] وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا ٥٤٤

[٦ و ٧] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ٥٤٥

[٨] جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ٥٤٦

في تفسير سورة الزلزال ٥٤٩

[١ - ٤] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ٥٤٩

[٥ - ٨] بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ ٥٥١

في تفسير سورة العاديات ٥٥٣

- [١ - ٥] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا* فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا* فَالْمُعِيرَاتِ ٥٥٣
[٦ - ١١] إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ* وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذُلِّكَ لَشَهِيدٌ* وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ* ٥٥٨

في تفسير سورة القارعة ٥٦١

- [١ - ٥] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْقَارِعَةُ* مَا الْقَارِعَةُ* وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ* يَوْمَ يَكُونُ ٥٦١
[٦ - ١١] فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ* وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ* ٥٦٢

في تفسير سورة التكاثر ٥٦٣

- [١ و ٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْتَّكَاثُرُ* حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ٥٦٣
[٣ - ٦] كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ* ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ* كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ* ٥٦٤
[٧ و ٨] ثُمَّ لَتَرَوُْنَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ* ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ٥٦٥

في تفسير سورة العصر ٥٦٩

- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْعَصْرِ ٥٦٩
[٢ و ٣] إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا ٥٧٠

في تفسير سورة الهمزة ٥٧٣

- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ٥٧٣
[٢ - ٤] الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ* يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ* كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي ٥٧٣
[٥ - ٩] وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ* نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ* الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْفُتَيْدَةِ* إِنَّهَا ٥٧٤

في تفسير سورة الفيل ٥٧٧

- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ٥٧٧
[٢ - ٥] أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ* وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ* تَرْمِيهِمْ ٥٧٩

في تفسير سورة قريش ٥٨٣

- [١ و ٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ* إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ٥٨٣
[٣ و ٤] فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ* الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ٥٨٤

في تفسير سورة الماعون ٥٨٧

- [١ و ٣] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ* فَذَٰلِكَ الَّذِي يُدْعُ ٥٨٧
[٤ - ٧] فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ* الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ* ٥٨٨

في تفسير سورة الكوثر ٥٩١

- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ٥٩١

[٢ و ٣] فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ٥٩٣

في تفسير سورة الكافرون ٥٩٧

[١ - ٥] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٥٩٧

[٦] لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ٥٩٨

في تفسير سورة النصر ٦٠١

[١ و ٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ ٦٠١

[٣] فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ٦٠٤

في تفسير سورة المسد ٦٠٧

[١ و ٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ٦٠٧

[٣] سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٦١٠

[٤] وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ٦١١

[٥] فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ٦١٢

في تفسير سورة الإخلاص ٦١٣

[١ و ٤] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ٦١٣

في تفسير سورة الفلق ٦٢١

[١ و ٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ٦٢١

[٣] وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ٦٢٣

[٤ - ٥] وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٦٢٣

في تفسير سورة الناس ٦٢٥

[١ - ٥] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ ٦٢٥

[٦] مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ٦٢٥